S.D

رواية

شموس غاربة

بثينة عثمان



شموس غاربة

رواية



بقلم

بثينة عثمان

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

مراجعة لغوية

إيمان خليفة



جروب حلم-هن

"ولنا مع الحرف حلم"

للانضمام للجروب

/https://www.facebook.com/groups/7elmhon



إهداء

للباحثين عن الأُنس والصُحبة..



قبل البدء

هذا العمل

شرقي الملامح

مصري الهوى

ليس للقراءةِ!

هو

مُهدى إلى قلوبكم

سوف يَطرقُ أبوابها

يَقتحمُ حجراتها

يَنبشُ مواطنَ الذكرى



الحنين.. الألم

إذا ما أردتم؛ أتمّوا الصحبةَ

أو..

اهربوا مِنْ الآن!

المؤلفة



هل وقفتَ يومًا على حافة الأفق..

تر اقب انغماس الشفق بين أحضان العتم؟

هل فكرت يومًا..

ماذا لو كانت شمس النهار هي الحقيقة الأخرى لروحك؟!..



"الإسكندرية"

صيف 1992

عادة ما يبدأ الانطلاق بعد الشروق بساعتين..

يصطحب كل فردٍ منهم فوق كتفه مقعدًا قابلًا للطي، قنينة ماء باردة، شطائر للصغار، فاكهة الموسم مع جريدة اليوم لتسلية الكبار، خمسة أمتار تقطعها الأقدام الكبيرة المتأنية والصغيرة الراكضة من الشاليه الخاص الواقع بمنطقة العجمي حتى يتمركزون فوق بقعتهم الأثيرة أمام الشاطئ القريب..

عمله فوق آلة البلدوزر لأكثر من عشرين عامًا يجرف الأراضي الصحراوية الواسعة عاد عليه بالأشياء النافعة، منها هذا المبنى السكني الصغير والذي ناله بمبلغ زهيد، اعتبره "منصور الشيمي" آنذاك صفقة رابحة، أن يصطحب امرأته وأطفاله الخمسة وبعض المقربين من الأهل في عطلة صيفية إلى هذه



البقعة لأيام يتبادلون فيها ذكرى الماضي ويغزلون أخرى للمستقبل هي حتمًا صفقة رابحة لرجلٍ يُقدس معنى العائلة ومواثيق الدم..

أورث أبناءه تلك المواثيق والعادة السنوية جوارحِصَّةٌ من تَرِكة أغنتهم شر العوز وسهلت عليهم عيش حياة كريمة بعد أن فاضت روحه للسماء.

الابن الأوسط بين الذكور يقوم بتثبيت الشمسية الكبيرة محذرًا بهتافٍ عالٍ الراكض نحو المياه دافعًا بجسده بين زبدها عنوةً:

- ما تبعدش يا عزيز..

يقول هذا محركًا رأسه يمنةً ويسرةً، يعرف أن ولده صاحب الستة عشر ربيعًا لم يسمعه من الأساس، يعود إلى مقعده محدثًا شقيقه الأكبر وأنظاره تحط فوق الجريدة العالقة بين أصابعه منذ حين:



- الجرنال ده هيركبك المرض..

- ماتستعجلش، مبارك ناوي يقصف عمرنا قبل الأوان..

يسخر "محمود" في صمت وينصاع "حامد" طاويًا الجريدة حتى تسمع خشخشة الورق قبل أن يلقيَ بها جانبًا مستاءً من حال البلاد الذي لا يتغير، بل يزداد سوءًا مع لعنة المحسوبية والواسطة التي تطفح في كل شبر من أرض الوطن، فمعدل البطالة يرتفع بشكل مفزع والقصور القائم في غالبية القطاعات ينبأ عن خراب آتٍ لا محالة..

في عودته يصطدم بصره بجسد فتاته المنكمش حيث تقف عند حافة المياه، بالكاد تغمر أقدامها، تخشى التقدم أكثر، صبية أتمت عمرها الرابع عشر قبل أيام، خصلاتها كثيفة حالكة السواد تعدت منطقة الخصر بإنشات قليلة، ابنة أبيها التي حازت بمفردها و نيابةً عن أشقائها الثلاث على ملمح الوجه



وقمحية البشرة فكانت وحدها الشبيه وكان لها الحبيب الأولي، يدفعها كعادته حتى تكسر حاجز الرهبة والخوف:

- انزلي يا دهب ماتخافيش..

على مهل استدارت نحوه بجسدها، كفاها يتعانقان أسفل ذقنها، أصابع أقدامها تقبض على حبات الرمل فترتعد فرائصها دون بلل حقيقي، تهتف بعلو حتى تصله كلماتها من بقعتها أمام الصفحة الزرقاء:

- كبير قوي يا بابا، هغرق!..

ما إن تممت جملتها حتى كان جسدها النحيف يطير في الهواء ويقذف به نحو الأعمق، غمرت المياه جسدها الملقى عرضيًا، رفست ولكمت، كل حركاتها الخرقاء تمت تحت قهقهة ضحكاته، أخذ يعينها حتى تعدل من وضعها، يثبتها فوق الأرضية الهلامية، خصلاتها المبتلة تلتصق بوجهها، بالكاد لفظت أنفاسها حين اتزن عودها لتصيح فيه من خلف غشاوة



العبرات والخصلات وهي على يقين تام أن لا أحد غيره يُقدم على مثل هذه الأفعال الخرقاء:

- عزيزيا متخلف!..

لا تدري ارتطام كفها طال صفحة وجهه أم كتفه، أزاحت شعرها عن وجهها ومازالت رؤيتها مشوشة، لا تشعر بغير ملوحة شديدة تملأ حلقها وتؤلم عينيها، تزلزلت ركبتيها خوفًا، تشهق وتنتفخ أوداجها في بوادر بكاء بينما تدور برأسها حيث يجلس أبوها تسأله النجدة بنداء متهدج:

- يا بابا!..

لا تصلها غير إشاراته وعمها التي تعني اهزمي خوفك واستمتعي، هدأت ضحكاته الشريرة ويداه تمسكان بساعديها، يعيدها إليه في سخرية تليق بسماجة قوله:

- بطلي جبن بقى..

تصرخ فيه بقوة متأرجحة بين الثبات والانهيار فيعنفها بعبث مغيظ:

- احترمي نفسك وإلا هسيبك تغرقي..

تبرق عيناها في هلع، تغرز أصابعها العشرة في لحم أكتافه المكشوفة محذرة:

- لو سيبتني هقتلك!..

ترى زبد الموج يعلو ويقترب، تختصر كل الفراغ في قرب بالكاد أباح للهواء العبور بين جسديهما وقد غلب ذعرها وعيها، تطلق صرخاتها المتقطعة بقوة وازت ركل المياه في تخبط وصياح شفاها المرتعشة:

- جاية، جاية!..

يطلق قهقهة مرتفعة مقررًا إنقاذها قبل أن تقتلها الموجة، يدور بها فيتلقى الضربة بظهره فلا تصيبها غير جرعة أخرى من الملوحة عبرت فمها.. ينصحها ضجرًا:



- اقفلي بوقك يا غبية..

لا يترك المجال لوعيها بالعودة، يأخذها على حين غرة في حديث يهزم به خوفها ويسحبها دون أن تشعر للداخل أكثر فأكثر:

- على فكرة شكلنا مش لطيف و أنتِ مكلبشة فيَّ كده..

نالت أنوثتها حديثة العهد انتفاضًا دون تركٍ كاملٍ، تمتمت تواري خجلًا طفح فوق وجنتيها وزار عينيها:

- عادي على فكرة احنا أخوات..

- عارف، بس بابا و عمو دماغ قديمة وهايصدعونا بأسطوانة أنتوا كبرتوا والكلام الفاضي ده..

- أمال لو شافتنا تيتة؟..

- فيها عقاب دي يا هانم..

- يا خبر!..



شعرت بتلاشي الرمال من تحتها، لحظتها وعت له بفزع، تلف رأسها دفعة واحدة، ترمق المسافة من خلفها فتجد أنها قطعت أشواطًا دون أن تشعر، وأن أبيها واليابسة ابتعدا بالقدر الذي يعجزها عن العودة بمفردها، عادت له دون أن تجد رغبة في حديث، فقط ترمقه بلوم وجزع استقبله بجدية وهدوء هذه المرة، ذراعاه يقربانها منه في دواعي طمأنينة:

- دهب اهدي، أنا مش هاسيبك تغرقي، بصي عبلة مبسوطة ازاي؟ مش معقول يعني كل مرة هتقضي الأجازة على البلاچ..

دارت برأسها تفتش عن ابنة العم وشقيقة هذا الذي يحادثها _كمسئول قرر اليوم أن يهزم أشد مخاوفها_ وجدتها تطفو فوق سطح المياه دون حراك كأنما تنال غفوة في ساعة عصاري، غفوة قطعها هذا الذي يقابلها بهتافٍ عالٍ:

- تعالي شوفي الجبانة دي يا عبلة..



والطافية فوق سطح الماء في لحظة استجمام خاصة تزمجر في اعتراض لقطع خلوتها أولاً ومحاولة إثارة غيظها بما هو منسوب إليها ثانيًا:

- بيللا يا حيوان..

أناملها تحكمت في ذقنه، تدير وجهه ليعود إليها، تترك جسدها يطفو بمساعدة يديه المحيطة بخصرها مقررة عن الغائبة في الجوار:

- بس بيللا بتحب البحر..

- و أنتِ؟ مش بتحبيه..

- بحبه من بعيد، لما أنزله بخاف..

لم يعلق، كان يحملق فيها بتركيز كبير، سألته تقطع تركيزه وقد أثار ريبتها:

- في إيه؟..



- دي أول مرة آخد بالي..

- من إيه؟..

- من عينيكِ؛ أصلهم حلوين قوي وبيلمعوا في الشمس..

- بكر!..

همست اسمه بارتياع، اقتحام شقيقها الأكبر لعزلتهما البحرية شتت فكرها، بعثر خجلها تحت سطوة هيبة حضوره وجعلها في وضع تلبس دون أن تدرك خطأها فعليًا، كانت نبرته الخشنة الأجشة تناسب العشرين عامًا لعمره، ونظرته الحادة تصيب الفتى الغر بتحذير مبطن:

- إياك ترخم عليها تاني..

حملها "بكر" فوق ظهره و راح يشق العباب عائدًا بها حيث اليابسة، غافلًا عن أن فتاته الصغيرة تلقت للتو..

مغازلتها الأولى.





انتهت من مضغ آخر قضمة من شطيرة السجق الملوثة بالرمال ثم قررت الانضمام لأبناء عمها تشاركهما بناء القلعة الرملية، التوأم ذو العاشرة وهي "ندى" ابنة الثامنة عادة مايشكلون فريقًا جيدًا للعب، تنفض كفيها الصغيرين وتجاورهما، تجلس القرفصاء وتقرردون دعوة:

- هلعب معاكم..

- روحي هاتيماية..

تجعد جبينها، تحتج في وجه هذا الذي دومًا ما يمنحها الدور الشاق:

- يوه! هو كل مرة أنا؟..

سرعان ما تقترح بديلًا ممكنًا بحركة كتفين امتزج فيهما الدلال بطبيعة:

- خلي بودي..



عندها يتدخل "عبدالرحمن" معترضًا بفظاظة:

- ماليش دعوة أنا بحفر..

تذهب على مضض، أثناء عودتها الراكضة بِسَطْلِ الماء يسقط نصف ما فيه فوق صدرها فيغرق ثوب السباحة خاصتها، يفتش بصرها عن أبيها فتجده مستمتعًا بالسباحة برفقة شقيقتها، لحظتها تقرر إدارة الدفة ناحية عمها الكبير، تقدم له شكواها في ولديه، تقلب شفتها السفلى حتى تجيد افتعال الحزن ببحتها والقسمات:

- كل مرة يعذبوني يا عمو..

- دول ولاد كلب هربيهم دلوقتِ..

يهتف "عبدالله" محتدًا ومحتجًا على ادعائها الزائف:

- ماحدش قالها تلعب معانا..

يؤازره توأمه بقانون هو من أنشأه في هاته اللحظة:



- ده شغل البنات أصلًا..

تتخصر بإعتراض ثم يتشابكون باللسان وقبل أن يتصاعد الأمر للأيدي يتدخل الكبار ويسوون المسألة، بعد حين يستأنفون اللعب، يصنعون بنيانًا أقل من الجيد لكنهم ينبهرون بصنيعهم على كل حال..

جذعا الصبيين العاريين يلمعان تحت أشعة الشمس بفعل حبات الرمل، تتطلع نحوهما بعسل عينيها المتوهج، تراهما متطابقين في كل شيء، العينان الداكنتان، الأنف المستقيم والجبهة العريضة، الاختلاف الوحيد الذي تراه كان في سروال البحر القصير الذي يرتديه كلًا منهما، كان هذا أحمر والآخر أزرق..

تصنع"ندى" مزيجًا من الرمل والماء داخل سطلها الصغير، حين يصير سائلًا خشنًا تقترب بحذر من خلفهما، تستغل انشغالهما، تبادل أبوهما نظرة خبث قبل أن تسكب السائل



فوقهما ثم تركض إلى ذراعي العم مختبئة، يشاركها الرجل الضحك بينما يطوقها بذراعيه حمايةً من بطش ولديه، بعد أن تهدأ المعركة تنضم إليهما مرةً أخرى بكل سرور..

يغيب"عبدالرحمن" ويعود بعلبة صفيح يحملها بين أصابعه، يراقب وجهها المستدير، بشرتها الصافية، عينيها المتوهجتين بعسل مُصفى وشعرها الفاتح الخفيف مسترسل حد كتفيها، ثغرها الوردي منمنم يشبه الدمى، يبتسم لهذا كله في رضا ويشرف عليها بجسده النحيف وضلوعه البارزة ليقدم علبته بابتسامة عريضة:

- هدية ليكِ..

تشرق ضحكتها بسنها المكسور، تعيد خصلة ثائرة خلف أذنها وتنهض في حماس آسر سكن مقلتيها، تتناول العلبة وقلبها الفرح يتقافز بين جنبيها، هل جمع لها "بودي" الصدفات التي تحب؟!..



تقرب وجهها في لهفة فتصدمها الرائحة النافذة، ثوانٍ وكانت تستدرك فحواها لتتركها تنزلق من بين أصابعها ويلطخ السائل الدافيء في طريقه سيقانها المكشوفة، انقلب التوأمان فوق ظهريهما من شدة الضحك وركضت "ندى" الباكية حيث أمها في الشاليه، تدورحول نفسها، تدق الأرض بأقدامها وتصيح لها في تقززواضح:

- بي بي عبدالرحمن وقع عليَّ!..

لا أحد من الواقفين يفهم كيف أصابها بول الصبي! لكنهم يعرفون جميعًا مقالب التوأم وكوارثهما خاصةً المذكورأعلاه، تضيق أمها لرؤيتها تبكي من جوفها، تترك ما بيديها وتغادرالموقد بعد أن تخاطب سلفتها الكبرى في شيءٍ من ضيق:

- ابنك فظيع يا فوزية..

- معلش يا منال، حقك عليَّ..



تقترب منال من طفلتها الباكية، تقبل وجنتها، تهدأ من انهيارها وقفزاتها المتقززة:

- كفاية عياط، تعالي هحميكي..

تحادث أم الشقيقين الصغيرة من خلف الموقد وقدور الطعام:

- هاضربهولك يا ندى بس أشوفه..

تتدخل زوجة العم الأخرى مهدأة من روعها:

- ماتلعبيش معاه تاني المُقرف ده..

تراضيها الجدة بدورها وقد أنهت للتو صلاة الظهر واستقامت تطوي سجادتها:

- هملص لك ودانه..

تختفي الفتاة برفقة أمها ولا يبقى منها غير بكائها المتواصل، تغمغم "فوزية" بينما تقطع البصل، تشكو حالها لسِلْفَتها:

- جننوني يا زهرة..



- عيال يا فوزية، بكرة يكبروا ويعقلوا..

يصلهم الهتاف ومصمصة الشفاه من عند الشرفة:

- ما دي آخرة دلعكم، قلنا ألف مرة العيل يتربى..

تبادل المرأتان النظر قبل أن تميل "زهرة" إلى أذن الأخرى هامسة:

- حماتك ودنها معانا..

تبرطم "فوزية" عقب تنهيدة قاذفة بشرائح البصل إلى قلب القدر:

- ربنا يديها الصحة.



في المساء بالكاد يتسع المبنى الصغير لكل هذا الصخب، يتخذ الرجال الشرفة ملاذًا لحديثهم عن حماقات عبد الناصر، ثعلبية السادات وآخر محطات مبارك، عن انتفاضة القدس



الأخيرة ونهاية الصراع بين الأهلي والزمالك، كل هذا فوق رقعة شطرنج تشهد صراعًا حامي الوطيس، يثرثرون ويضحكون وأحيانًا تأتي المقاطعة عبر سؤال من جليسهم الصغير فوق الأرضية مستمعًا إلى أحاديث الكبار بانتباه كبير بدلًا من اللهو مع أقرانه:

- يعني إيه نكسة يا بابا؟..

ولدى بابا أثر رصاصة يعود به إلى زمن الاستنزاف، أثر يذكره أنه عاش تلك اللحظات ساعة بساعة ويومًا بعد يوم، يذكره بسنوات عمره التي زحفت وكل الخيبات التي خبئها خلف الضلوع..

يتنهد الأب مقررًا الاحتفاظ بهوية الأمسية الصيفية:

- دي حكاية طويلة قوي يا عبدالله..



تبسم الصبي في رضا، يعرف أن خلف تلك الكلمات جلسة طويلة ستجمع بينهما فوق أريكتهم الزيتونية حيث يتدفق فاه أبيه بفيض الحكايا..

في لحظة الصمت يقتنص الكبير دفة الحوار مستغلًا وجود عميه ليقول:

- فكرت في موضوعي يا بابا؟..

يلتفت "حامد" إلى ولده مستفسرًا بتقطيبة جبين مالبثت حتى انفرجت بفكاهة العارف، خاطب إخوته:

- البيه عايزيخطب، زميلته في الكلية.. يلتفت له عمه "محمود" قائلًا:

- مش لسه بدري على الكلام ده يا بكر؟..

- دي خطوبة بس يا عمي لكن مفيش جوازقبل ما نتخرج..



أصغر الأعمام يؤيد قراره وعشقه الذي يسعى لتوثيقه قبل أن يتسرب من بين يديه:

- لا بدري ولا حاجة ما قد البغل قدامك أهو..

- حبيبي يا عرب..

- أي خدمة يا غالي..

والنهاية كما البداية، عند الوالد:

- تظهر نتيجة السنة، بعدها نشوف.



عند النساء الأمر مختلف..

بعد وجبة سمك ذات طقوس إسكندرانية بديعة أصابت الأجساد بلعنة التخمة والخمول، الزوجات الثلاث اندمجن في لعب الورق تحت مظلة أحاديث لا تفتر، كان الحوار القائم نسوي خاص حين قاطعته "مريم" ابنة العاشرة وهي تحمل



شقيقتها ذات العامين فوق ذراعها وتتملص منها الصغيرة بعناد:

- ماما؛ رنا غلبتني ومش عايزة تخلص أكلها؟

تطالع "منال" ابنتها التي تتلحف برداء الشقيقة الكبرى وتقوم بمهام أكبر من عمرها فترأف بحالها، تحمل عنها الصغيرة التي أرهقتها بحق بينما تحثها بحنو:

- هاتيها وروحي العبي مع أخواتك..

والقصد هنا مثل سهم يصيب كل أبناء العمومة القابعين تحت عروش الأخوة، نشأتهم جميعًا تحت سقف واحد أعطتهم الحق في هذا الترابط والشعور الذي ينمو فيهم دون تدخل من الغير.

متحلقين برفقة الجدة حول تلفاز من طراز الثمانينات متصل بجهاز فيديو يعرض فيلمًا عربيًا من بطولة سعاد حسني حيث تقدم أقوى استعراض في تاريخ ماسبيرو، تشاركها "ندى" من خارج الشاشة وصلة الاستعراض بثوب قصير له أرضية بيضاء



مطعمة بشرائح الليمون، تدور حول نفسها مرددة بالتزامن مع التلفاز:

"الحلوة لسه صغيرة.. صغيرة"

"عالحب لسه صغيرة.. صغيرة"

تنفعل مكملة وصلتها الاستعراضية التي تحبها وتحفظها عن ظهر قلب، حين تنتهي لاهثة تنال تصفيق حار وقد أرضت بأدائها الطفولي جمهورها الصغير، تفتنها أضواء الشهرة فتركض إلى أبيها القابع بالشرفة، تسأله الدعم في جدية تامة خالطها بعض الرجاء:

- بابا، ممكن لما أكبر أبقى رقاصة؟..

يكركر الجميع عدا الجدة و يراضيها أبوها كعادته بحلو النبرة ولينها:

- ممكن يا حبيبتي..



الصغيرة تعشق أفلام سعاد وفوازير شريهان، شاهدت لكلتيهما الكثير من الأعمال التلفزيونية والسينمائية، حتى أنها صارت تقلدهما دون أن تراهما، لاحقًا؛ سوف يغزوا أحمد رمزي وعمر الشريف حصون مراهقتها وينتصران..

هي مدللة العائلة وأصغر فتياتها حتى جاءت الشقيقة"رنا" قبل عامين لتقاتلها على انتزاع اللقب وقلب"مريم" الكبير.

بعيدًا عن عالم الصغار كانت"عبلة" تتقافز فوق عتبات المراهقة، على حافة النافذة الواطئة تجلس بنصف مؤخرتها الممتلئة بإغواء أنثوي طبيعي، تترك لخصلاتها الملتفة حول نفسها حرية البعثرة، صورتها داخل سروال جينز قصير وبلوزة حمراء مكشوفة الذراعين جذبت أنظار مجموعة فتيان يقفون داخل شرفة قريبة لخاصتهم، تظاهرت بعدم الاكتراث وهي تمسك بالجهاز الصغير بين يديها وتثبت مسماع الأذن الموصول



فيه، ومع النغم المنبعث داخل أذنيها راحت تحرك كتفيها في تمايل مغوٍ يليق بجسدها فائر الأنوثة بأعوامه الثمانية عشر، هيئتها تلك أثارت حنق جدتها العجوز وتمنت أن تصب كل هذا فوق رأس أمها المتشاغلة بالثرثرة مع سِلْفتيها لكنها آثرت السلامة وراحت تبرطم لحالها بالكلمات الممتعضة والغير راضية، تنبهت"عبلة" أن شفاه جدتها تتحرك ناحيتها، خلعت واحدة من مسماعها لتسألها:

- بتكلميني يا تيتة؟..

- بقول إيه البتاع اللي معاكي ده؟!..

تضحك في زهو وتغادر النافذة لتضع جهازها الجديد بين يدي جدتها حتى تراه عن كثب:

- ده ووكمان يا تيتة، بنسمع فيه أغاني وكده..

تنساق الجدة في الحديث وقد جذبها ما تقلبه بين أصابعها فتبخر سخطها السابق وتناسته بحديث آخر:



- يعني ده ممكن يشغل عبده الحامولي؟..

- حامولي إيه بس زمانه انقرض بإسمه ده، بصي معايا شريط لعمرو دياب وإيهاب توفيق تحبي تسمعي مين فيهم؟..

لا تترك لها مجالاً للتفكير، تنهض عن قرفصتها مردفة في الحال:

- ولا أقولك خدي اسمعي دي هتعجبك قوي..

وقسرًا ثبتت لها مسماع الأذن، لحظات وكانت الجدة تقذف لها بجهازها امتعاضًا منها على ذوق هذا الجيل الرديء، ضحكت الفتاة بصخب وعادت إلى النافذة تندمج مع أغنيتها الأثيرة، تدندن بالكلمات في بهجة تحت نظرات الفتيان المشتعلة..

"شوقنا أكتر شوقنا"

"شوقنا أكتر ما اشتقنا"

حين غمزها فتى منهم..

اعرضت عنهم في خُيَلاء وشفاها تميل جانبًا متبسمة لحالها في رضا.



تمر العطلة السنوية سريعًا، في لمح البصر تُحزم الحقائب، يلملم الصغار ألعابهم ودرجاتهم بوجوه كدرة مستاءة، يتحايلون ويتذللون ليوم إضافي، لكن القرار صدر بديكتاتورية الكبار، يستسلمون وتودع أعينهم المكان، هذه الجدران متهدلة الصباغ ضمتهم لأسبوع كامل مانحة قلوبهم الفتية كل أنواع البهجة والفرح، البلاط البارد خشن الملمس ذا النتوءات الو افرة تلقف أجسادهم التي لم تكن لتشتكي أبدًا بل كانت ترحب وهي تجلس وتقرفص وتتمدد..

يتابعون الأيدي الناعمة للأمهات وهي تدثر التلفاز وجهاز الفيديو بقماش داكن عريض، جميعهم يعشقون البطيخ البارد أثناء المشاهدة، لكن كل شيء انتهى الآن بينما يفرغون



المطبخ مما تبقى فيه من طعام ويكدسون المقاعد بقرب بعضها البعض، تُطوى السرائر والأبسطة التي حملتهم متجاورين متلاحمين طيلة الأيام الفائتة، تُكبس الأضواء التي شاركتهم السهر حتى مطلع الفجر فيعم الظلام معلنًا الرحيل، تنطفأ البهجة وتغرغر الأعين الصغيرة بدمع مودع مع أزيز الباب المغلق..

عندما تحط أقدامهم داخل عربة العودة المستأجرة يتصبرون بابتسامات متبادلة، يخبرون بعضهم دون أن تتحرك الشفاه أنهم عائدون العام المقبل، سوف يركضون ويمرحون وتصدح الضحكات حتى آخر الزمان..

لكنهم لا يعودون أبدًا!

لا العام المقبل..

ولا التالي..

ولا الذي يليه..

كان صيف 92 آخر عطلة عائلية سوف يتذكرها الناجين من حادث العودة الأليم.



(1)

القاهرة

رمضان 2007

على أنغام "رمضان جانا" امتدت أشرطة البهجة من الشرفة للشرفة، تغزوا بخشخشة أوراقها الملونة الشوارع والطرقات، الأسلاك الكهربائية امتدت إلى قلب الفوانيس فاستنارت واجهات البيوت والوجوه المارة ببهجة الشهر الفضيل، أُنشئت تَنَانِيْر الكنافة، وتحضرت قدور الفول الكبيرة، المسحراتي جلجل الشوارع والحارات كلها بحنجرته ليلة البارحة، موائد الرحمن تهيأت وأبواب المساجد شُرعت على آخرها مستقبلة كل وافدٍ طالبًا للوصال مُغتنمًا للفرص..



رائحة رمضان تعمر كل البيوت المصرية، بل تعبق جدرانها وأزقتها، كما يعبق بخور "الحاجة دهب" أركان بيتها، تدور بقامتها المحنية تتوكَّأ على عصاها لتغزو الرائحة العطرة كل ركن وزاوية، تستغفر وتحوقل، تسأل الخالق الستر والعافية لكل أحبائها، ثلاث نقرات متتاليات انفرجت في إثرهم أساريرها، فأحباها الذي بهم ومعهم تكتمل أول سفرة للشهر المُبارك بدأوا بالتوافد..

أدركت الجدة هوية الطارق قبل أن تدير المقبض وتستقبلها بالضحكة البشوش:

- أهلًا بالست الداكتورة..

طبيبة الأمراض الباطنية بالمشفى العام، حفيدتها الرابعة التي تسمت كنايةً بها، شطرت لها وأبوها الفؤاد في عهد الصبا حتى لملم الحبيب الشقين إلى بيته وراح، تميل إلى وجنتيها، تقبلها ثلاث:



- أهلا بيكِ يا قلب الدكتورة..

على عجل تتخلص من حجابها، تلفحها نسمات الهواء فتنعشها، لا تجلس، لا تفكر في جوعٍ أو عطش رغم نهارها الطويل المزدحم، تسأل جدتها وقد طوت حجابها جوار حقيبة يدها ورفعت شعرها الأسود لأعلى:

- بابا وعمو سيد فين؟..

- بابا نزل يصلي العصر وسيد لسه في الشغل..

- ماما وطنط منال في المطبخ طبعًا..

هذه المرة تقرر لا تسأل، تعرف أن خلف طرطقة الأواني تقام معركة حامية في هذا التوقيت، أقدامها تحفظ المسافة عن ظهر قلب، خمس خطوات والتفاتة واحدة إلى اليسار تكون بالمطبخ، حيث تعمل أمها وزوجة عمها و"مريم" التي نهضت تستقبلها بضمة وبسمة محب:

- رمضانك كريم يا دكتور..



رغم أن التهنئة والعبارات ذاتها لم تتوقف منذ أن أعلنت دار الإفتاء عن غرة الشهر الفضيل لكن وجهًا لوجه وبالعناق أمر مختلف، قرصت "دهب" وجنتها في مداعبة قبل أن تتخطاها:

- رمضانك مبارك يا عروستنا..

والعروس تخجل بحمرة وجنتين وابتسامة صغيرة باطنها سعادة حقيقية، تلملم ثوبها الفضفاض عائدة لعملها حيث طبقات الرقاق تغرق بمرق البط تاركة ابنة العم تعانق أمها، تقبل كلتيهما الأخرى بقوة ثم تنتقل إلى زوجة عمها التي راحت تعانقها بدورها سائلة عن زوجها:

- امال عزيز فين؟..

- في البيت، قال هياخد شاوروجاي..

دون ثرثرة إضافية تشمر عن ساعديها تشاركهم معركتهم، أوكلتها زوجة العم مهمة حشو "القطايف"، ومن بين الهمة التي في أوجها والعرق النابت فوق الجبين كانت دعوات أمها تشق



نهار رمضان، كما تفعل في جوف الليل وعقب كل صلاة على مدار خمس سنوات؛ عمر زواجها:

- ربنا يعوض عليكِ ويكرمك يا دهب يا بنتي بحق الأيام المفترجة دي..

توقفت أصابع "دهب" عن العمل هنيهةً، تبسمت بعدها في أمل مغمغمة برجاء المشتاق:

- يارب يا ماما يارب..

تتبدل الأيدي فوق القدور والحركة الوئيدة للأقدام لا تكل أو تفتر، بل تشد العزم فالوقت يمر ومدفع الإفطار يقترب، حين يعلو الصخب من الخارج ثم تطلق الجدة ضحكة يلحق بها توبيخ هذبته حرمة الشهر يدركون جميعًا هوية القادم قبل أن يظهر داخل إطار الباب زافرًا واضعًا ما في يده فوق الرخام محدثا أمه:

- الكنافة يا فوز..



تجذبه الرائحة الشهية فتقرقر معدته جوعًا، يزاحم أمه في وقفتها وفي نيته الكشف عما تحويه القدور تحت الأغطية فتمنعه بلطشة يد وسؤال عن مصدر الكنافة:

- من عبد الصمد؟..

- أيوة يا ستي واعملي حسابك مش رايح لك تاني، زحمة موووت.. فين المحشي؟

غمغم بالأخيرة وهو يلقي بالتحية على الموجودين، يُقبل وجنة شقيقته التي أقبلت تضمه وتقبله بدورها ثم تبتعد، تطالع إرهاقه البادي باشفاق:

- يا حبيبي، شكلك تعبان..

استسلم لعاطفتها بدراما مبالغ فيها:

- شقيان يا دهب شقيااان..



تسايره الشقيقة بضحكة مشفقة قبل أن تعود مستكملة عملها، تدخلت الأم بشبه أمرويدها تدفع كتفه بطرد:

- اطلع إرتاح بره، بس ابعد عن المروحة لاتستهوى..

في طريقه للخروج تلتقي عينه بعيني ابنة العم المشغولة، يبتسم لها ويسألها قبل أن يغادرفي سماجة مكررة:

- خطيبك الرزل عامل إيه؟..

ولأن المذكورقليل كلام وحضورحشروه جميعًا في تلك الزاوية، تزمجر"مريم" بالكلمات وعينها ترسل له نظرة المغتاظ:

- أحسن منك يا سخيف..

- ده أنتِ هيتنكد عليكِ بتقل دمه..

- يا بني اخرس بقى هفطرعليك!..

تحنق "منال" لما يفعل بابنتها فتتدخل بتوبيخ:

- بطل مرازية وهوينا يلا..



تدفعه من ظهره بكلتا يديها، تتأكد أنه غادر، لكنه يتذكر أمرًا هامًا فيعود أدراجه:

- ماما..

- نعم؟..

- عبدالله فين؟ بكلمه مش بيرد..

- في الجامع يا حبيبي..

يوميء برأسه، يتحرك خطوة واحدة مالبث حتى عادها مجددًا:

- ماما..

- إيـه تاني!..

- التمرهندي..

تقاطعه بمعرفة وسبابتها تنتقل من عين لأخرى بصبر راحل:

- مشبر، من عيني حاضر..

هذه المرة لا يتحرك بل يردف و ابتسامة جانبية تناوش فمه:



- ماما..

- يا ابني والله عملالك محشي الفلفل اللي بتحبه اطمن، وقبل ما ترغي عاشر الفراخ هحمرهالك من فوق حاضر..

- لا بقى ده أنتِ عايزة تتباسي..

و أقبل عليها معانقًا إياها من الخلف مقبلًا جانب وجنتها بقوة حتى وكزت صدره بكوعها في خفة ونهرته بضحكة رائقة فشلت في كبحها:

- امشي بقى، روح شوف خطيبتك فين سلي صيامك عليها، أنا مش فايقة لك..

- كده يا فوزية ده أنا بحبك..

تنغز موضع قلبه بمؤخرة الملعقة الخشبية العالقة بين أصابعها منذ الصباح:

- بكاش وصايع..



تناكفة فتجود "دهب" عقب ضحكة رنانة بطنها الخبث:

- ماتسكتلوش يا ماما، ادي له واحدة أنا ولا ندى..

تحدجة "فوزية" بطرف عينها وتخضع لسلطان غيرة أمومتها الفطرية:

- أنا ولا ندى يا واد؟..

يعض شفته السفلى في أسف لسوء ظنونها:

- عيب يا ماما مش كل شوية تختبري ولائي..

وتشرق الضحكة مع التتمة:

- ندى طبعًا..

- كنت عارفة إني ماعرفتش أربي..

تستديرعنه بامتعاض وحزن ثلاث أرباعه مصطنع قاطعه بنغز خصرها يمينًا وشمالًا، يناغشها عقب صخب الضحكات:

- يا فوزده أنتِ اللي مربعة جوه القلب، ندى مين بلا هم..



"سمعتك على فكرة"

قالتها الحاضرة في تخصر وحاجب مرفوع بوجه غلفته آثار النوم وبيجامة وردية محتشمة الأكمام بسروال فضفاض ذي خطوط طولية وزرقة شاحبة..

- البس يا معلم!..

صاحت بها "مريم" في شماتة واضحة شاركتها فيها أخته بضحكات متوارية، مر من أمامهما حادجا بنظرة ضاقت في شر ووعيد بينما ذراعه يحط فوق كتفي الخطيبة المعقود قرانها، استقبلت قربه بذراعين معقودين وأنف شامخ بغضب مزعوم فأدارجسدها المتيبس ساحبًا إياها قسرًا إلى الخارج:

- تعالي هصالحك..

تلاحقه "منال" زوجة العم وحماة المستقبل بالكلمات التي يفهم مغزاها فيرسل لها صوته المتباعد الجواب العابث:

- اتلم يا عبدالرحمن احنا في رمضان وعمك على وصول..

- ماتخافيش يا لولو من بعيد.



اعتلت حمرة الشفق كبد السماء..

تدرج الأفق ببداعة خلق وقرص الشمس الغارب يتوهج في آخر لحظاته بينما الطير السابح في الملكوت؛ يفرد أجنحته ويحوم من حول البيت في سيمفونية سلام اعتاد عزفها..

إطار خارجي يليق بدفء السفرة التي اكتملت وامتدت على طول الردهة لتشهد التجمع العائلي الكبير..

تترأس الجدة"دهب" رأس سفرتها، تر اقب لحظات إعدادها بعين شاردة، تتفرس وتتنقل فوق وجوه أحبائها مع تبسم طفيف لا يكاد يفرق بين شفتيها الرفيعتين بزاويتيهما المجعدة في بهجة داخلية تختص هذا اليوم من كل عام..

توقفت هنيهةً عند بكرها"حامد" بثوبه الرمادي ومسبحته الداكنة المتناقلة بين أنامله، ترى الشيب يصبغ رأسه وتجاعيد



الوجه خطها الزمن، تعود بذاكرتها قبل خمس وستون عامًا حين حملته بين يديها قطعة حمراء، ضعيفة واهنة تتعلم فيه الصبية ابنة الأربعة عشر عامًا أبجديات الأمومة لأول مرة..

يهتز رأسها المحني في أسف على الأزمان الراكضة كلمح البصر، ترفع بصرها ثانيةً فتتكحل العين برؤية"سيد" آخر من حملت بطنها، صاحب الطبع الحنون، أبو البنات كما يحب أن يلقبه الجميع، يجالس أخيه الأكبر، يدنو منه مصيخًا للسمع في إجلال و إكبار..

"نوارة وبهجة" غائبتان عن عينها لكن حاضرتان في بيت زوجيهما تجمع كل واحدة منهما شمل عائلتها كما تقتضي العادة والأصول..

سفرة تامة تثقل على نفسها بالفكر والذكرى مع طيف ولدها الأوسط بين الذكور وخامس خلفتها، طيف غاب عن عالمها قبل خمسة عشر عامًا هو وزوجه في لحظة اختارها القدر ليضع

كلمته ويأخذ بكليهما حيث أبوه الراحل إلى العالم الحقيقي، عالم البرزخ نهاية المطاف.

تحرك بصرها يتخبط في لهفة باحثًا عن نسله، عوضه الذي يهون عليها فراقه، التقطت أوله، الابنة الجالسة في الزاوية تعبث بهاتفها:

- أخوكِ فين يا عبلة؟ المغرب على أذان يابنتي وماجاش..

تتنبه المعنية لكلمات الجدة، يدور بصرها في جهل حتى ترى زوجته تخرج من المطبخ فتسألها:

- دهب، عزيز فين؟..

- هو لسه ماجاش!..

تمتمت بها الزوجة المشغولة بتقطيبة جبين واضعة ما في يدها من أطباق فوق المائدة، بصرها يمر حائرًا فوق الوجوه الحاضرة ولسانها يستطرد في الحال بقلق نابت:



- معلش يا بيللا رني عليه لتكون راحت عليه نومة..

في استجابة تومي، ابنة العم التي لا باع لها في المطبخ وازدحامه فيما تهتف"مريم" التي تقوم بسكب العصير البارد داخل الأكواب بتخمين:

- ممكن يكون مع عبدالله، لسه ما طلعش هو كمان..

- عبدالله في الجامع، مش هيطلع قبل ما يصلي المغرب كالعادة..

أخبرت"رنا" التي تضع الحساء الساخن وقد ألهب أناملها، أبعدتهم بسرعة تنفث فيهم بينما تستمع لإضافة شقيقتها الوسطى التي تولت مهمة توزيع أطباق"الخشاف" فوق المائدة:

- يا جماعة أكيد راحت عليه نومة، زيزو بيعز النوم..

"الله أكبر الله أكبر"



تزامن ارتفاع الأذان القريب مع دخول "عبدالرحمن" من الشرفة، يشيرلهم كي يكسروا صيامهم ملتقطًا من يد مخطوبته كوب العصيرالبارد متجرعًا إياه دفعة واحدة..

لم تكن بكلية عقلها والجميع يتشاغل بالطعام ولحظة الإفطار، كانت أصواتهم الصاخبة تطن جوار دقات قلبها المتوجسة، أقدامها تتحرك ناحية النافذة، تمسح الشارع الخالي بعين حائرة وصوت أمها يأتيها من الخلف وقد فطنت لحالها:

- ياحبيبتي تعالي افطري، هوعزيزصغيريعني؟..

- بكلمه مش بيرد يا ماما، أنا قلقت بجد..

خاطبها عمها قبل أن تصل ملعقة الحساء إلى فمه:

- أكيد في حاجة عطلته وهتلاقيه جاي دلوقتِ، متقلقيش وتعالي افطري..



لا تفلح كلماتهم في تهدأة قلبها الثائر، هم لا يشعرون به كما تفعل، هناك ما يعيق وصوله، حدسها يخبرها بذلك:

- يا عمو كان كلمني وطمني..

قالتها بصوت ملتاع وصدر ضاقت به الكلمات، اقترب منها شقيقها، يرفع بالكوب إلى فمها قسرًا:

- اشربي طيب، ماينفعش كده..

ارتوت عروقها الجافة من يده وقبل أن تزيح الكوب كان الباب الموارب ينفرج ويتجلى أمامهم بطلته، النسخة الأخرى من توأمه الحاضر إلا من لِحْية كَثَّة يقوم بإعفائها اتباعًا للهدي النبوي:

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام يا شيخ عبدالله..

ولقب الشيخ بدأ يلتصق به منذ فترة المراهقة التي شهدت فيه تزمتًا شديدًا وميولًا هذبته الأيام وصقله النضج والإدراك،



بعدئذٍ صار اللقب مستحقًا حينما ارتكن بشخصه الملتزم وطبعه المتدين الحافظ لكتاب الله إلى مصاف الصالحين..

رد الجميع تحيته عدا الشقيقة التي عاجلته وبصرها ينتقل منه إلى الباب المغلق من ورائه في إحباط وقلق مضاعف:

- عبدالله؛ ما قابلتش عزيزو إنتَ طالع؟..

راقب حالتها المضطربة مستغربًا وبصره يحوم فوق الوجوه الحاضرة، يجيب ويسأل بتقطيبة حاجبين:

- لأ ما شفتهوش النهاردة خالص، إيه أخره كده؟..

تكفل أبوه الذي يلوك قضمة كبيرة بالإجابة:

- معرفناش لسه وأختك قاتلها القلق زي ما أنت شايف..

اقترب من الشقيقة محيطًا كتفيها بذراعه في محاولة لطمئنتها:

- اهدي يا بنتي، عزيز مواعيده مضروبة ما أنتِ عارفة..

- لأ مش في يوم زي ده..



حثتها الجدة بحنو رغم القلق الذي تشاركها إياه:

- تعالي اقعدي جنبي من الصبح مارتحتيش..

وكلمة تالية من زوجة عمها توبخها فيها على خوفها الغير مبرر وثالثة من شقيقة الغائب تخبرها أنها تهوى تضخيم المسائل كعادتها، وأخريات من بنات العم يلاطفونها ويسألون عن نوع السحر الذي افتعله هذا الغائب ليحصل على قلب محب كقلبها!..

لكن كل هذه الأحاديث لم تفلح بعد مضي خمس وأربعين دقيقة، آن للهلع أن يستوطن جنبيها وقد بدأت تستشعر ارتجاف أطرافها بالفعل، همسها المخنوق تحشرج وجاهد ليخرج في شيء من حدة وقد ضاق صدرها ذرعًا من كل تعليق:

- يا جماعة أنتم هتعرفوني جوزي؟ دي مش عادته، أما بيتأخر بيكلمني..

وتختم هذا مردفة بإيجاز قاطع:



- أنا هروح أشوفه في البيت..

تحركت تفتش عن غطاء رأسها فأمسك "عبدالله" بساعدها يوقف تخبط خطواتها بحزم:

- أستني وأهدي، أنا هروح أشوفه وأكلمك..

قاطعه توأمه الذي نهض عن المائدة توًا:

- لا أقعد أفطر إنتَ و أنا هشوفه..

هدر صوت محرك سيارة لانسر موديل 89 يحفظه الجميع عن ظهر قلب موقفًا تناقل الحديث، اندفع جسدها حيث الشرفة القريبة تتأكد من وصوله و أبوها يلاحق لهفتها بتعليق ساخر:

- أهو شرف البيه..

- يا ماما..



فُزِع الواقف والجالس إثر زعقتها، تعلقت بها الأبصار الشاخصة وقد عادت أدراجها بذات الهرولة، تلتصق بعيني أمها المحدقة في ارتياع، تهدرلها بالكلمات وعيناها تتسع في غير تصديق:

- بكر هنا!..

تشير بذراعها حيث الشرفة والخارج ثم تعود بكفها في الحال لتمسح دمعها السائل من بين تبسمها، تُقسم لهم جميعًا بما لا يستوعبه عقلها وإن رأته رؤى العين:

- والله العظيم هنا..

وعلى أثر القسم تحركت الأجساد المتيبسة في تدافع مستقبلين الغائب والعائد من غربته..

في منتصف المدخل الرخامي الفسيح أول من استقبل العائد كان ذراعي أمه، تلقفته داخل أحضانها ونحيبها الفرح دفع بالعبرات لتترقرق بأعين الجميع، تتعلق فيه بغير تصديق،



ارتعاشة كفها فوق ظهره وحشرجة النبرة تحكي قصة أحبة فرقتهم لقمة العيش وحالت بينهم المسافات، تحكي قصة زمن طوى بين أيامه الشاب اليافع المغمور بالحماس والإقبال على الحياة وإذ به صار رجلًا مسئولًا عرف الشيب رأسه..

تقدم "عزيز" يعبر البوابة الرئيسية، يفسح مجالًا للحقيبة الضخمة قبل أن يتركها أرضًا ويرنو من زوجته التي استقبلته بعبرات فشلت في السيطرة عليها وبصرها يتعلق بأخيها وأسرته العائدين بعد غيابٍ دام لعامين كاملين على آخر مرة كانوا فيها بينهم، تراقب كيف تعلق بأبيها، كيف ارتكن الواحد فيهم إلى الآخر حتى أنها شعرت بأنفاسهما تُلفظ براحة..

تتطلع إلى الشقيقين التوأم كيف يعانقون كبيرهم بقوة عصرت قلبها..

لماذا لا ينتهي الفراق أو يفنى من الوجود ببساطة!..



شعرت بذراع زوجها تأخذ بها لقرب قلبه، مداعبًا الباكية فيها لتضحك:

- حلوة المفاجأة؟..

- قصدك الخضة..

تلكم صدره بهوان قبضتها قبل ما تمرغ وجهها فيه وحروفها المختنقة بالكاد تلفظ..

أوقفت سيل العبرات وقد هدأ أخيرًا الزحام البشري من حول الشقيق، تقترب ويقترب، تعقد ذراعيها حول عنقه وتضمه بقوة في عناقٍ صامت طويل، تبتعد تتحسس وجهه وتعود له بضمة جديدة، ضاحكة، باكية، غير مصدقة بذات اللحظة..

- لسه فرامل العياط سايبة..

ضحكت وضحك ثم استطرد عقب تنهيدة والشوق يتلألأ من خلف منظاره الطبي:



- وحشتيني يا دهب، وحشتوني كلكم..

تلتحم فيه بعناق جانبي وكفها الحاني يمسح عن ظهره وجيعة الفراق، ومنه تنتقل إلى ابنته، تقبل وجنتيها، تضمها، تتشممها، تعتصرها بين ذراعيها فتخبرها الصبية وقد غمرتها بفيض عاطفتها:

- وحشتيني قوي يا عمتو..

- ده أنتِ اللي وحشتيني أكتريا قلب عمتو..

تفتش عن"عمر" طفله الآخر، تجده فوق كتفي"عبد الرحمن"، تجذبه بضمة وقبلة ثم تتركه لتستقبل عناق زوجة أخيها بحروف عاد لها وضوحها:

- حمدالله على سلامتكم يا نادية، مصر كلها نورت.



يطوف الفرح حتى يخيل للرائي أنه يترنم من النوافذ والشرفات لينهل الغادي والرائح من فيض البهجة التي ملأت الصدور..

تجهزت السفرة مرة أخرى لأجل الحاضرين، كل قضمة من العائد كانت تحمل بصمة أمه حتى ظن أنه لن يعرف طريقًا للشبع الليلة، بعدها اصطفوا رجالًا ونساءً يؤدون صلاة الفريضة يتبعها التراويح تحت إمامة الشيخ"عبدالله" كما اعتادوا في اليوم الأول من الشهر..

عقب الإنتهاء اجتمعوا في جانبٍ واحدٍ من الردهة ممتدين في مجلسهم حتى الشرفة، طوقوا الابن العائد بأعينهم وفيض الحكايا، الكل يتحدث في لهفة، والكل ينصت في استمتاع، تعاتبه الجدة بمحبة المشتاق:

- غيبتك طولت يابوعمر..

وتعبر"عبلة" عن فرحتها بعودته في حبور:



- دي أحسن حاجة عملتها بجد..

ثم تؤكد له"مريم" عروس البيت في قول بهيج:

- كنت هازعل لو محضرتش فرحي..

يستقبل قلبه كل الأحاديث بترحاب فترتسم السعادات فوق القسمات تسابق الإجابات، تجيء"دهب" حاملة إبريق الشاي الكبير، تقدم للكبار أولًا ثم البقية، تتبعها "ندى" بأطباق الحلوى الساخنة فتنال مغازلة الحبيب تحت مرأى ومسمع الجميع:

- كنافة جايبة كنافة..

يزمجرله العم بغيرة وتقريع فتترنم الضحكات لخارج الشرفات..

كانت ليلة استثنائية على الجميع، طال فيها السمر حتى طلعت شمس النهار وراحت تغزل بخيوطها كل حكاية على حدى حتى تؤنس بهم وحدة القمر والنجمات الساهرة في رداء العتم.





مكنون القلب تعكسه مرآة الوجه..

كان الثوب الممدد فوق الفراش يحمل توقيع مصمم شهير بعالم الأزياء تجهل اسمه وعالمه، وصل قبل ساعة داخل صندوق ورقي ضخم أبيض كمحتواه، مرت أناملها من فوقه، نظرتها تعبر عن إعجابها وانبهارها الشديدين، ثوب مغزول من خامة الجوبير المطرزة، يضيق عند الخصر وينزل في اتساع منتهيًا بذيل طويل في طابع أنيق يليق بأميرات القصص الأسطورية، أعجبها التعديل الذي تم فيه حتى يليق بحجابها، بل أدهشها أنه تم بذلك الإتقان الكبير، اختارته بذوق ناسب شخصها البعيد عن البهرجة لكن به من الفخامة ما يكفي ليرضي السيدة "ليلي"حماتها ويليق بالحفل المرتقب القريب..

ثوب تخطت قيمته عشرات الألوف من الجنيهات، لم يخطر ببال"مريم" صاحبة الآمال البسيطة أن ترتديه ذات يوم!..



ليس تقليلًا من قدرها، فالوجه المليح وشهادة كلية الصيدلية بجانب تاريخ عائلتها الطيب كلها أشياء تؤهلها لزيجة جيدة، جيدة بوسطها المتعارف عليه، طبيب زميل ربما أومهندس نال وظيفته بعد رحلة عناء، رجلٌ مناسب داخل إطار طبقة متوسطة تشبه تلك التي تحياها وتعرفها وليس المدير التنفيذي لأكبر مجموعة عاملة في تصنيع وتسويق الأجهزة الكهربية، شهرتها واسمها تسبقان عمرها في البلاد!..

حين تشطح وتحلق أفكارها إلى تلك المنطقة يخبرها شقيقتاها أنها"وش فقر" لكن تؤكد لها أمها في كل مرة أنها "بنت حلال" وكل ثروة مخطوبها لا توازي قدرها..

وبلسان صدق، هي لا تكترث للأمرين، تأخد الأمر كله على محمل مهاترات عقلية تصاحب أي فتاة أثناء فترة ماقبل الزفاف، يكفيها أنها سعيدة وقانعة باختيارها، مطمئنة للرجل الذي جاءها طارقا بابها طالبا بها الزواج، ليتم الأمر بحفل خطبة



بسيط وموعد زفاف تحدد عقب ثلاث أشهر، تبقى منهم يومان..

- هتفضلي مبحلقة في الفستان كده كتير؟ لسه ٨٤ ساعة يا ماما عينيكِ هتحول..

قطعت الأخت الوسطى خلوتها، نهضت تواجهها وتسألها عن ذوقها بابتسامة بهيجة لم تستطع مداراتها أو ترويضها:

- حلو يا ندى؟..

استنكرت الشقيقة سؤالها بينما تشمل الثوب المحتل لفراشها بعين ملأها الانبهار للمرة العاشرة ربما منذ وصوله:

- حلو يا ندى؟ ده يهبل يا ندى، يجنن يا ندى!..

دفعتها تسحب الطرحة الطويلة الخاصة فيه، وضعتها فوق رأسها ثم أخرجت هاتفها من جيب منامتها، تلتقط لنفسها عدة صور بابتسامة عريضة، تُرسل أفضلهن إلى زوج المستقبل



من ثم تلقي بالجهاز جانبًا مستديرة إلى المرآة القريبة، تتطلع إلى صورتها المعكوسة هامسة لحالها بنبرة حالمة:

- عقبالي يااارب..

التفت تواجه "مريم" الضاحكة، ترفع كفيها إلى السماء وتدعو بغيظ:

- ربنا يقربك يا بودي يا ابن فوزية..

- يقربه أكتر من كده؟!..

استنكرت قولها بمزاح بهيج ثم أخذتها بين ذراعيها، تدعو لها بقلب صادق محب أن يجمع بينهما في القريب العاجل، اقتحمت الشقيقة الصغرى الغرفة لتجد الأختين غارقتين في عناق بعضهما، حشرت جسدها بينهما قسرًا:

- احضنوني معاكم..



ضمتها مريم بقوة رقرقت بالدمع لعيني الصغيرة، رفعت"رنا" رأسها تسألها بضيق:

- خلاص هتسيبينا؟..

انتفضت الوسطى في الحال تقطع وصلة النكد التي تبتدعها الصغيرة العاطفية كل حين، أبعدت الطرحة عن رأسها لتضعها فوق رأس العروس ثم سحبت البائسة الصغيرة في وصلة رقص وغناء تناسب أجواء الزفاف القائمة..

"ما تزوقيني يا ماما"

"أوام يا ماما"

تصفق رنا بجذل ملبية النداء بتمايل خصر وحركة أكتاف في إجادة تليق بعودها البض وتتمة المقطع ليمتزج الخجل بالسعادة وتتجلى الفرحة فوق قسمات شقيقتهم العروس..

"ده عريسي هياخدني"



"بالسلامة يا ماما"

دلف أبوهن على حين غرة يقطع وصلتهن الغنائية الراقصة، توقفن الثلاث فتيات بضحكات صاخبة، تستقبله العروس بثغرٍ باسم وألق سكن مقلتيها، تزيح خصلاتها الطويلة خلف أذنها هامسة له في رقة كشفت عنها السعادة المستترة:

- شوفت فستاني يا بابا؟..

مرر بصره فوق الثوب المفرود ثم أقبل عليها وسعادة عينيها تطرب قلبه، يلثم جبينها ويضمها إليه طويلا:

- مبروك عليكِ يا ست البنات..

يطوف بنظراته فوق بناته الثلاث، يمنع التأثر بفكرة فرارهن من بين يديه واحدة تلو الأخرى بضحكة وسبة:

- كبرتوني يا ولاد الكلب..



تتعلق الصغيرة بعنقه، هي تحفظ كل حركاته الخرقاء في مدارة حزنه، تلثم وجنته الخشنة بقوة وهي تخبره:

- أنا قاعدة معاك مش هاسيبك..

فوق طاولة الزينة يتصاعد رنين هاتف العروس باسم خاطبها قاطعًا اللحظة، قبضت عليه في الحال و انسلت بجسدها من بينهم إلى الخارج بينما يلاحقها أبوها مازحًا بدندنة:

- أسمريا أسمر اني، مين قاساك عليَّ..



لا أحد يصل القمة اعتباطًا..

قبل ذلك يوجد درب طويل مليء بالعثرات والخيبات، ألف سقوط ونهوض، أزمات عدة تصنع منك إنسانًا قادرًا على بلوغ القمم..

هكذا بدأ "رشدي جوهر" مشواره من سفح الهرم، متجر صغير في حي الموسكي غرب القاهرة وبالكد والعمل وصل قمة النجاح



ولمع نجمه المنتصر، قصة كفاح يحب أن يحكيها على الدوام ويتذكرها كل مرة تقع عينه فيها على المبنى الكبير ذي الواجهة العاكسة للسماء وما تحمل فيها من سحب فوق ألواحها الزجاجية العريضة..

من الداخل يوجد حشد كبير من الموظفين يعملون كخلية نحل لا تعرف معنًا للكسل، ولأن اليوم يُعد استثنائيًا كان الهدوء سيد الطوابق والممرات، وحدها جاءت تلبي طلب حضورها لمهام يخص العمل، وبعد مرور نصف نهار وتعجبها من الهام الذي لم يكن هامًا لحد استدعائها أو أن يضيع يومه المهم لأجله، لكن مع رئيسها الصارم كل شيء يأخذ مساره ولا يحيد عنه مهما تغيرت المجريات..

وقفت خلف الباب المغلق، حائرة، تقدم قدم وتعود بالأخرى، هل تقتحم الغرفة أم تنتظر!..



بعد تردد دام لعشرين دقيقة كاملة، طرقت الباب ودلفت محقونة بجرعة شجاعة لحظية لتقف أمامه، تلتقط عينها صورته خلف المكتب الأنيق جالسًا باعتدال في ميل جانبي ضئيل، يصب جُل تركيزه فوق شاشة حاسوب من خلف منظار ذي إطار أسود أنيق، جانبه المصمت دفع بجسدها لتقترب خطوة تالية، تتكلم في تردد ورهبة غلغلت حروفها:

- أسمر بيه، أنت كده ممكن تتأخر على الفرح..

أصابعها قدميها يتشنجان داخل الحذاء بينما حاجباها يرتفعان في تعجب بلغ أشده مع استطرادتها التالية وكف يمناها ينقلب في استهجان:

- فرِح حضرتك!..

- إبراهيم وصل؟..



لا تعلم من أين خرج الصوت، بصرها مثبت فوق جسده المتصلب خلف المكتب ومع هذا لم ترَ حركة شفاهه، لملمت ارتباكها وحيرتها وأجابت سؤاله عن السائق:

- إبراهيم منتظر من ساعة يافندم..

- تمام..

هتف بها مختصرة بذات الوضعية، حينما لم تتحرك أغلق شاشة الحاسوب بغتة، دار ناحيتها يرمق وقوفها المتجمد في صمت لم ينقطع حتى أجفلها بنبرة أعلى:

- تمام يا أمل..

بطرف بصره لمح طيفها مهرولًا إلى الخارج بينما يطالع قرص الساعة المحيط بالرسغ ليجدها قد تخطت الخامسة والنصف مساءً، نهض في آلية يحكم إغلاق باب الحجرة، الأمر كله لم يستغرق غير عشر دقائق داخل دورة المياه الخاصة بالمكتب،



يستبدل فيها ثيابه بحُلة سوداء أنيقة، تناسب حفل زفافه؛ الليلة!..

في تمام التاسعة دلف وعروسه إلى قاعة الزفاف الو اقعة على ضفاف النيل بأحد أشهر فنادق القاهرة..

عُرس راقٍ، هادئ مع خلفية موسيقية غربية تناسب ذائقة طبقة أرستقراطية تشمل أصحاب العرس ونخبة المدعوين، أو هكذا كان الحال قبل أن ينهض"عزيز" عن مقعده ليهمس في أذن المسئول عن مشغل الأغاني، حين لاحظ تردد الرجل أخبره في جدية رهيبة:

- أخو العروسة..

قال هذا وراح عند العروس المأخوذة مع كل تلك الأوجه الغريبة التي تحتشد من حولها، حين سحبها من بينهم وطمأنها بطرفة عين وهزة رأس خفية لا تدري لِمَ تجمع دمع عينها في تلك



اللحظة، لوهلة خافت أن تنفجر في البكاء فتجلب الحرج لنفسها وأهلها لكن ابن العم لم يمنحها الفرصة لتفعل، اتسعت ابتسامته لتبرز غمازة ذقنه ويده تمسك بكفها والأخرى تفرج عن جانب سترة بدلته الرمادية فاسحًا المجال لخصره كي يتحرك تبعًا للنغم المنبعث مزلزلًا الأركان..

" أعمل لك إيه شغلتني"

"أعمل لك إيه حيرتني"

لحظات وكان الوسط يشتعل، الأجساد راحت تتزاحم و تتمايل في ثمالة و عينا "دهب" تقتنص تلك التي تركت كل الساحة وجاءت تزاحم زوجها بردفيها، إلى جانبها تضم الأختان شقيقتيها العروس ويتمايلن مع النغم في بهجة، ومن بينهم"عبلة" بثوبها الأحمر الجاذب للأبصار تشارك "عبدالرحمن" بعضًا من اللحظات الر اقصة..



التف حول العروس بقية أهلها فهدأ الخوف وتبدل لسعادات، كما تبدلت المقطوعة الأنيقة قبل لحظات إلى ذوق"عزيز" الفريد حيث"حسن الأسمر" مازال مصرًا على إيصال لوعة عواطفه في أبلغ المعاني..

"مراري منك يا مراري"

"حيرت وياك أفكاري"

وحده غير مندمجٍ مع هذا الصخب الذي فتح فمه وابتلع الجميع، لا يحب حفلات الزفاف وينكر بقلبه كل حرام مضطرًا إلى سماعه و رؤيته، ولولا مكانة العم وابنته ما كان ليحضر كحاله مع بقية أعراس العائلة، لكن يعز عليه خاطر كليهما ولم يكن هناك فرصة للفكاك من الواجب، قضى وقته كله و اقفًا عند الباب يتابع طريق المتأخرين والتائهين عبر الهاتف، حين انتصف الحفل وبدأ يأخذ مسارًا آخرًا لا يتقبله حمل حاله



وغادر المكان بأسره، سار بجهل حتى وجد حاله داخل شرفة جانبية بمعزل عن الصخب القائم، ألصق وجهه بالهواء، أسبل جفنيه وأخذ يسحب شهيقًا طويلًا زفره على مهل وراحة..

"عزيز مولعها جوه.."

انتبه على نبرتها الحاضرة، تحرك يفسح لها المجال لتشاركه الوقوف وحروفه تتشكل بجواب باسم:

- عزيز دماغ لوحده..

أشرقت ضحكتها الجذابة لحظة ارتكاز جانبها على السور الحديدي:

- واضح إن دهب بتحبه قوي..

اعتدل يقابلها بكليته وقد ارتكز ذراعه الأيسر إلى السور فيما ترك كفه الأيمن يغوص بجيب سروال بذلته، ابتسامة رصينة زينت ثغره هو تلك المرة:



- هتحكي لك حكايتهم في أول فرصة، ده أكيد..

تبسمت دون تعليق، اكتفت بالنظر إلى وجهه، أنفه المستقيم، ذقنه المشذبة، عينيه العميقتين، الداكنتين كحال حلته، لأول مرة تراه في طلة رسمية تامة، حتى يوم خطبتهما تخلى عن الرسمية واكتفى بسروال وقميص في كلاسيكية بسيطة ناسبت التجمع العائلي الأكثر بساطة..

- عجبك الفرح؟..

أخرجها سؤاله الباحث عن أواصر التآلف والقرب من شرودها القصير، أصابعها تعبث بالحلقة الذهبية المحيطة ببنصرها الأيمن لتقول بابتسامة حلوة:

- قوي يا عبدالله..

همست بها ثم أتبعتها بشهقة مرتاعة في الحال..

سقط الخاتم!..



مالت برأسها ومال، يبحثان في عشوائية انتهت ممسكًا به بين أنامله ليتنفسان معًا براحة:

- خلي بالك..

بسطت كفها فوق نابضها تقول بهلع صادق:

- قلت راحت!..

- الحمد لله ربنا ستر..

- الفورمال لايق عليك بالمناسبة..

عاجلته بإطراء تبسم وأحنى له رأسه في شكر، تبسمت له بدورها ويداها تمسكان بجانبي ثوبها، تدور حول نفسها لمرة واحدة ثم تقابله في بشاشة:

- عجبك فستاني؟..



أخذته على حين غرة بسؤالها، هي تعجبه ببشاشة وجهها المستدير، تعجبه ضحكتها الحلوة، وبالطبع شخصها الجوهري..

صحبة خاصة مع أبيها وطدتها صلاة الفجر في مسجد الحي، رآها لمرة واحدة بصحبته فمال فؤاده وتمناها في نفسه، لم يمر أسبوع وكان يحادث أبيها في شأنها، يطلب وصالها مختارًا إياها لصحبته ليبنيا معًا بيتًا وعائلة، انعقدت خطبتهما قبل شهرين في جو عائلي بسيط ولو كان عاقدًا عليها الآن لكان تغزل في ثوبها الأسود اللامع الذي لاق و أبرز ملاحة وجهها، لكن في هاته اللحظة وبالرغم من وجيب النبضات، لن يذلل للنفس مبتغاها فيجزى بخسارة ما تمناه القلب، غض الطرف قائلاً:

- ذوقك جميل في كل حاجة يا دينا..



إجابة غير مفصلة أخذت بهما بعيدًا عن مناطق النفس المحظورة فارضة صمتًا ثقيلاً لاقت به الأعين صفحات النيل المضاءة بقناديل مركب قريب، زحزحه بمحاولة بعد حين:

- هجيب حاجة نشربها..

- لا أنا لازم أرجع بقى..

قالتها واستدارت عنه راحلة بزفرة ضيق جابت بين أضلعها حتى نفثتها.



انتهى اليوم بدموع هيستيرية لشقيقتها الصغيرة، ظلت متشبثة بحضنها حتى خلعتها أمها من بين ذراعيها عنوة، ودعتهم جميعًا قبل دقائق شاعرة بعبرات والديها المكبوتة رغم تأنيبهما للباكية..

سحبت نفسًا عميقًا في محاولة للتخلص من تلك الحالة التي تستحوذ عليها منذ أيام، لم تكن تعلم أن فراق عائلتها سيكون



محملًا بكل تلك الصعوبة على النفس، الأمر أشبه بجذور تم اقتلاعها من أرضها.. سحبت شهيقًا تاليًا، لن تترك حالها حبيسة تلك الأفكار الكئيبة في ليلة كهذه، عليها أن تولي جل تركيزها لزوجها..

زوجها الساكن خلف المقود والذي لا تعرف ما خطبه!..

تراه صامتًا، شاردًا في تيه..

لم تشعر به مندمجًا في الحفل ولو لحظة، كان حاضرًا كضيف يقوم بواجبٍ مجبرٍ عليه وحسب، والأفظع شعورها الآن وهي ترى قسماته المصمتة أقرب للتجهم!..

بادرت بحديث تكسر فيه الصمت وتطوي به الطريق البعيد:

- إنتَ اتضايقت من رنا؟..

يربكها السكون وضيق المحيط الجامع بينهما فتعود بثرثرتها في إيضاح دون انتظار:



- هي بس متعلقة بيَّا من صغرها فكان صعب عليها..

تباسط ملامحه وهو يستدير برأسه إليها ثم يعود للطريق خفض من حدة توترها بعض الشيء:

- لا خالص، بالعكس زعلت عشانها..

لم تعرف فيما تحادثه تاليًا ففرض الصمت نفسه مرة أخرى، هي تعرف طبعه قليل الكلام وتتقلبه، لكن لم تدري أنه لهذه الدرجة من الشح وفي مثل هذا اليوم..

لكن؛ ربما هناك شعور بالخواء يسكنه؟!..

شعورٌ عظيمٌ استحوذ عليها عند تلك النقطة من التفكير، مشاعر غزيرة تدفقت بداخلها تبغي مشاركتها مع هذا الذي يجاورها، تريد أن تكون له عوضًا عن كل نقص وفقد مر بحياته..

لا تدري أن عقلها السارح سحبها بعيدًا حتى توقفت بهما السيارة، منطقة سكنية حديثة لم تعرف طريقًا للزحام بعد،



كل بضعة أمتار يوجد بيت مستقل من طابقين وحديقة صغيرة مسيجة تحيط به من كل جانب، كان الظلام والسكون يعم المكان لدرجة تثير فيها الوحشة وتروعها لو كانت بمفردها، ترجلت من السيارة تلملم ثوبها، تجاوران في المسير حتى ولجا إلى مملكتهما الصغيرة، أثاث حديث مع ديكور يناسبه، غمرتها البهجة من رأسها حتى أخمص قدميها وبصرها يحوم فوق تفاصيله التي نالت لمستها..

يصعدان الدرج الفاصل بين الطابقين وتخبره على استحياء قبل أن تغلق باب الغرفة من خلفها أنها ستبدل ثوبها..

جاهدت حتى تتخلص من الثوب، الحجاب وزينة الوجه، وعلى ما يبدو أنها أخذت وقتًا أكثر من اللازم داخل دورة المياه الداخلية لتجده حين غادرتها يتوسط الغرفة، و اقفا في تجهم مضاعف واضعا بكفيه في جيبي سرواله ومازال على حاله كما تركته فقط تخلص من السترة الثقيلة..



خطت تضم بجانبي مئزرها الأبيض القصير في استحياء شديد، بشرتها الصافية لم تكشف بشكلٍ كافٍ عن تفجر الدماء فوق وجنتيها، لكنها كانت كمن سقط من ارتفاع دون قاع يتلقفه..

أما عنه!..

صراعاته كانت في وادٍ آخر لا تعرفه، أنفاسه تناحر بعضها داخليًا دون أن يسمح لها أن تنفذ، بصره مثبت فوقها دون أن يراها، قبل أن يتراجع أجبر يده على التحرك، بظهر السبابة والإبهام لامس وجنتها الدافئة وعيناه تضيق بتركيز مقلق فوق صفحة وجهها، ترك الأخرى ترتفع على مهل وتحيط بخصرها، يقربها منه بدفعة بسيطة، أغلق عينيه بعدها ودنا منها، أنفاسه القريبة من جيدها باتت مضطربة الآن، تضرب فيه بحرارة، لم تكن رائحة عطرها الحلوة ما تصله، كانت رائحة عرق كريهة نافذة تقتحم أنفه، يدها الناعمة التي حطت فوق كتفه في تردد خجول لم يستطع غير الشعور بها قوية خشنة،



تضغط بها فوق رأسه من الخلف لتثبت وجهه للأرض، عند تلك النقطة تعثرت أنفاسه وتحررت فيما يشبه شهقة صمت لغريق يناشد أنفاس الحياة..

- إنتَ كويس؟..

سؤالها الخافت بتردد اخترق أذنه ففتح عيناه على آخرهما، طالع الفراغ في جمود دام للحظات من ثم في تصميم كان يفكك أزرار قميصه، يلقي به عند أقدامه ويقترب في إصرار أقرب لتحدي، يتحدى حاله، يقول أنه يستطيع، يداه تحيط وجهها بينما رأسه يميل إلى شفتيها في قُبلة أولى تجمع بين رجل وامرأته، قبله خرجت قاسية، باردة خالية من كل المشاعر..

جسده لا يستجيب!..

لا يثيره البتة وجود امرأة بين ذراعيه..



وفي الحقيقة جسده كان يأن، يستغيث وينوح في صمت لينسل عنه، يريد أن يركض، ينزوي هناك في تلك الزاوية وينغلق على حاله..

كان جسده يرفض الألم..

يرفض الانتهاك من جديد!..

تجثم فوقه الذكرى ولا تحرره، بل تحتل رأسه فلا يرى أو يشعر بغيرها، يرى حاله طفلًا منكبًا على وجهه فوق الأرضية الصلدة بنصف عار، سرواله المنزوع قسرًا بعيدًا عن مرماه، جسد ضخم لرجل قبيح المنظر يرتطم بجسده الصغير هزيل البنية، هو يريد الفرار لكن الحقير يكبل يديه بيده ضاغطًا فوق رأسه حد اختناق أنفاسه، يصرخ فيصفعه، يأن فتأتيه تالية، تؤلمه الصفعات فيخرس متوجعًا، حتى يحرره فينقلب على ظهره خائر القوى شاعرًا بالهواء يجرح رأتيه في طريقه، يبقى ساكنًا في مكانه لوقت طويل، في النهاية يضطر لدعم جسده المتعب



وينهض بعد عناء، يتشبث بالوهم حتى يصل الجدار، يسير بمحاذاته داعمًا ترنح خطواته، تختض بطنه وقلبه من شدة البكاء، ألمٌ جبارٌ يقصم ظهره، وخيط من الدماء يسيل من بين فخذيه ويقطر من خلفه تاركًا بقعًا داكنة فوق بلاط الأرضية، يسحب سرواله يستر به عريه ثم يلقي بحاله فوق الفراش المتسخ، يضم بركبتيه لصدره فيتضاعف الألم والصورة المقززة تصله بوضوح من وراء الباب المفتوح، يراه أمامه ممددًا بكامل جسده المكشوف فوق الأريكة وقد نال من اللذة والنشوة حد الاكتفاء..

تكالبت فوقه كل الأشياء المطمورة كالجاثوم وقد أحيتها اللحظة، كان أحمقًا حين فكر بأنه قادرٌ على مواجهتها وسحقها، كانت أحشاؤه تتلوى بداخله وشعورٌ بالغثيان يراوده جعله يدفع بها عنه، دون شعور، دون تتمة لقبلة هو من بدأها، دفعها لتسقط فوق الفراش وبصرها مازال مثبتًا فوق جذعه المكشوف، يرتحل بين ندوب جسده القديمة، تستشعر من



جديد ملمس جلده الذائب أسفل أناملها فتشهق دون صوت، تلكأ بصرها في بطء قاتل حتى قابل عينيه المهزومة، الخاسرة في معركة أعلن فيها الجسد الخامل أنه المنتصر!..

كانت ليلة الأحلام هي ليلة شمسها الغاربة التي تصادمت مع غروبه القائم منذ عشرين عامًا فحال ليلًا طويلًا حالكًا..

وبين شفق يحتضر وسرمدية ليل..

كانت حكاية.



(2)

هزائم الأمس تصنع انتصارات اليوم..

لا أحد منّا يختار ماضيه لكن وحدنا نقرر كيف يكون المستقبل، بإرادتك فقط تقنن أزماتك وتتكيف دون ضياع..

كلمات منمقة تبث في النفس الضامرة بعضًا من عزيمة وأمل في غدٍ قريب تلتئم به عطوب الأمس، لكنها حتمًا كلمات لا تليق بسرد حالات الاستثناء، حيوات لم تشهد غير ماضٍ آسن عكر صفو العمر الذي دمغته الويلات والحسرات وتوج بالخسارة..

هاج الماضي وماج في قلب الحاضر، ضاع العمر أوله في آخره حتى بات عالقًا في منتصف ليلٍ معتم ولف ظلامه للحد الذي أنساه كيف يكون الضياء..



ذلك قدرٌ لا نختاره بل نتبعه ونسير وفق دربه مجبورين، حيث لا فكاك من براثن غبن قديمة تركت فينا فجوة عميقة تبتلعنا دون قدرة على خلاص، عطوب تكبر بمرور الزمن لا تندمل..

لم يكن يراها بينما يجر أقدامه المتصلبة إلى خارج الغرفة تاركًا من ورائه عروسًا خرساء بعيون ملتاعة يغزو الدمع مآقيها، أقدامه الحافية تضرب الأرض الباردة، أصابعه العشر صعدوا يعانقون رأسه، يضغطونها بقوة لا يستشعرها، تخبط جسده وهو يهبط مسرعًا مترنحًا دون ثمالة، يتلاقى جذعه المكشوف مع سور الدرج البارد في مزيج يشبه ما يعتمل في داخله، برد ونار، برودة لم تؤثر في نظراته المستعرة التي لا تبصر أمامه غير شخص واحد!..

أسرع في خطواته المتخبطة داخل البهو الفسيح حتى وصل منعطفًا صغيرًا لا تتنبه له العين العابرة، في باطنه بابًا متواريًا كان وجهته، سبع درجات هبطها وكان داخل القبو الفسيح،



توقف للحظات مقابل باب من حديد، ينفث أنفاسه المستعرة فتضيق وتضطرم نظرته أكثر فأكثر، فتح الباب يدفع به عنوةً ليقتحم الغرفة الواسعة الخالية إلا من دورة مياه بلا ساتر احتلت أحد الزوايا تفوح منها رائحة كريهة، السقف العالي تدلى من منتصفه سلسلة حديدية عريضة..

أسفل الجدار جسدًا هزيلًا في مقتبل الخمسين، تكوم فوق فراشٍ قاسٍ يلتحم مع الأرضية الصلدة، لم يمنحه الفرصة ليتدارك حضوره، جذبه من زمام رقبته يوقفه على قدميه قسرًا، خطاه الغاضبة دعست فوق كسرات خبز جافة حين كان يدفعه بذراع قوية إلى وسط الغرفة، دار"أسمر" كالمخبول حول نفسه حتى التقط ضالته، قيد حديدي أحاط به زندي سجينه، نهنهات الرجل المذعورة وتذلل ماء العين لم يرجعه عن نواياه، في حركة خاطفة أوصل قيده بالسلسلة المتدلية من منتصف السقف فانتصب الجسد الخائر أمام لهب عينيه، مرت ثوانٍ قبل أن يضم قبضته بقوة فوق السوط المتين، وقف



على بعد خطوتين يلفظ أنفاسه الحارة في هياجٍ، رفع ذراعه على آخر مرماه ثم هبط بكل قوته فوق الجسد المنتصب!..

جلدة وصرخة..

أخرى ثم تالية..

كالأعمى لا يبصر ولا يتأثر بقلب قد من صخر فتجرد من كل مشاعر الإنسان، كان يثأر للطفل فيه، يثأر لكل لحظة فزع كانت تحضره مع أزيز الباب الملعون، يثأر لكل مرةٍ امتدت تلك اليد وانتهكت وعاثت فسادًا في جسده الصغير..

يثأر للرجل العاجز فيه..

يثأر للحاضر الذي أفسده الماضي البعيد..

وعلى إثر الصرخات المستغيثة الباحثة عن استرحام تحرر الولد المكدود بجراحه من خلق قضبان نفسه المنيعة، نهض يصرخ بدوره وقد ضاق ذرعًا من صورة هذا الشيطان الذي تحتل حاضره وماضيه..



- ارحمني..

يتذلل الخسيس قطرة رحمة من بين جحيم العذاب، يرجوه في استضعاف غضن الأجفان المتعبة، فيزيد الجلاد من قسوته وصياحه المستنكر غطى على عويله:

- أرحمك!..

عاد يطلبها، يكررها بمهانة أكبر:

- ارحمني..

قبض على الفك الخشن يعتصره بين أصابعه الخمسة وينفث لهيب أنفاسه في وجهه المتعرق باحمرار شديد، كيف يسأله الخلاص وهو يحيا لليوم لأجل القصاص وقد قضت محكمته بوجوب النفاذ، محكمته غير تلك التي وضعت لكل بني البشر، هو أنشأ محكمته الخاصة، وضع قوانين العقوبات المنصف وجاء بالمذنب إلى قفص آثامه..

هنا هو القاضي والجلاد..



ومن أدرى منه بمظالمه وظلماته؟!..

دنا يخبره بهسيس مرعب مرر أحرفه من بين أنفاس متقطعة:

- رحمتي فيها موتك..

ثم عاد يجلده بقوة مضاعفة لا تحيل فيها الثياب المهترئة بين السوط والألم، ينتشي برؤيته ممزقًا، متألمًا، مكبلًا و عاجزًا مثلما كان ذات يوم..

عرجت الصيحات عبر الباب المفتوح إلى الأعلى لتزيد المصابة هلعًا على هلع، انتفضت من وضعها المتصلب تلملم كيانها المبعثر، تمحي عبرات كانت تواسيها وتنصت راغبةً في معرفة ماهية الصوت القادم..

تنتوي في شجاعة التحرك، البحث عن إجابات لأسئلة عملاقة تأكل رأسها، هبطت الدرج واحدة تلو الأخرى، تتبع الصوت بنفس مرتاعة، تتقدم خطوة ويدها فوق قلبها الواجف خلف الضلوع، باب القبو لأول مرة تبصره مفتوحًا..



تقدمت بثبات واهٍ مع اقتراب الصوت لتهبط الدرجات السبع، تعبر ممر فسيح بإضاءة شاحبة ثم تلتقي بباب آخر مفتوح، توقفت خطواتها للحظات، نبضها تبعثر مع الأنين المبحوح الذي صار يجاهد للصياح، لم تكن تكشف شيئًا من وقوفها المتواري، فقط تسمع ولا ترى، تسمع صيحات ونهنهات، أحرفًا متقطعة وبكاء يذل بصاحبه..

دفقة من شجاعة دفعتها باقتراب أخير، عندها انتهت داخل الحجرة، وهول الصورة الماثلة أمامها كفيل باصابتها بحالة من الهيستريا!..

زوجها يقيد غريبًا وفي يده سوط يهبط به فوق جسده، الدماء تنبثق من وجه الرجل وتلطخ جلبابه المهترئ..

مع هبوط السوط على اللحم أطلقت صرختها وصرخ المنتهي من بين سكرات الألم متلويًا في قيده من حول نفسه..

- ها مووووت..



ألقى الجلاد بالسوط أرضًا وتحرك ناحية المصدومة، هو أراد لها أن ترى، هذا الذي تراه النصف الآخر وراء حقيقة الزواج منها، وبعد فشل النصف الأول صارت هذه الحجرة هي جل دورها، طبيبة صيدلانية ستداوي جراح عدوه الوحيد فوق سطح البسيطة، عليها أن تطبب ألمه وتسكنه، سوف تمنحه خلاصة معرفتها والخبرات حتى يبقى سليمًا معافًا قادرًا على تلقي عقابه مرارًا وتكرارًا..

يجذبها بعنف، يقبض على عنقها ويزج بها إلى الجدار من الخلف، تبرق عيناه باتساع جبار حتى كادت تتقيأ محجريهما المتفجرين بشعيرات دموية:

- عايزه حي..

وصوت الآخر المترنح في صلبته من الخلف يقر نهاية حتفه الوشيك أم عله يشتهيه:

- هاموت..



تطأه أحرفه فتشعل في صدره جذوة من نار، يقسم في نفسه، لن يمنحه الرحمة، لن يتذوق الخلاص، سيظل يدفع فاتورة آثامه حتى آخر قطرة من روحه، ثمانية عشر شهرًا تحت رحمته ليست كافية أبدًا، وبعد لحظات الخزي والعجز التي عاشها مع عروسه هي مجرد بداية، بداية لسلسلة عذابات سوف تلتف حول روحه حتى يفنى من الوجود..

دنا من وجهها، يتجاهل نظراتها الباحثة عن الرجل الذي عرفته قبل أشهر وتزوجته قبل ساعات ولا تجده، يتجاهل دموعها التي تذرف بينما يؤكد مكررًا بصوت تشوبه بحة احتراق:

- عـايزه حي!..



انتهت ليلة العرس..

ابنة أخرى تغادر كنف العائلة لتؤسس عشًا جديدًا في مكان آخر، ودعها الجميع أمام قاعة الزفاف لترحل بصحبة زوجها



وأدعيتهم المحبة، رحل"بكر" أيضًا حيث مسكنه في اتجاه معاكس لوجهة البقية، صاحبهم"عزيز" ثم فارقهم قبل شارعين أمام بيته المنفصل عن بيت العائلة التي وصلت أخيرًا ليطرح الإرهاق البادي تفاصيله فوق الوجوه..

كانت ليلة صيفية نسائمها باردة منعشة وقمرها ذا قرص مضيء، دلائل كافية لتقول الجدة بروح تغمرها البهجة أثناء ترجلها البطيء من العربة:

- ليلتها كانت حلوة..

يوافقها الجميع بهمهمات متفرقة وضحكات مازال يتردد صداها كل حين، في الطابق الأرضي تدلف الجدة بيتها وذراعها يتعلق بذراع"عبدالله"، لهذا الحفيد معها عادة اكتسبها من أبيه، يمرها كل ليلة، يطمئن على حالها ويسألها إن كانت بحاجة أي شيء قبل أن يصعد إلى الأعلى، وبعض الأحايين يقضي ليلته عندها..



في الطابق الأول وقف توأمه على صوت أبيه يسأل بينما أمه تنظره:

- مش هتنام يا عبدالرحمن؟..

كانت جذبة"ندى" المشاغبة لسترته خفية أسرع من جوابه الذي خرج متمتمًا:

- اتفضل حضرتك يا بابا أنا شوية وجاي..

تلويحة ذراع أبيه تعني أن سهرته لم تبدأ بعد، أكمل البقية الصعود على نهنهات"رنا" المستمرة بأحضان أمها والتي لا يبدو لها نضوب الليلة حد إثارة سخط"عبدالرحمن" وتأففه:

- يابنتي كفاية، ارحمي نفسك..

جملته أثارت ضيق الصغيرة أكثر لتعلو بوتيرة نواحها، تلكزه أختها في ضلوعه بكوعها..

- سيبها في حالها..



أمام باب الشقة القابعة بالطابق الثاني كان هناك استئذان و رفض لأجل تأخر الوقت، إلحاح ومناوشات من كلا الطرفين انتهت بـ"سيد" مخاطبًا ابنته بوصيته المعهودة من بين خطاه المتعبة بإجهاد:

- لو الروج اتمسح يا ندى هاتتعلقي..

- يا بابا بقى!..

تعلو الضحكات والهمهمات حتى الطابق الثالث، توقفت"عبلة" أمام بابها ترخي ذيل ثوبها الأحمر، تدس بالمفتاح في المزلاج ورأسها يلتف جانبًا مودعة أبناء عمومتها بضحكة وغمزة:

- تصبحوا على خيريا حلوين..

ودعاها قبل أن يتابعا الصعود حيث سطح البناية، يصدمهما الهواء البارد منعشًا حواسهما في الحال، كبس"عبدالرحمن" زر جانبي فاستنارت إضاءة صفراء شاحبة لم تخترق سرمدية



الليل إلا بنذرٍ قليلٍ، مكان فسيح مسور بالجدران من كل جوانبه، في أحد الزوايا تقبع غِيَّة حمام مهجورة تشارك فيها مع توأمه الهواية والشغف بزمان راحل..

بقية المساحة خالية إلا من سقيفة خشبية متقشرة الصباغ فيها دكة خشبية مجردة صارت ملاذًا ومجلسًا للقاءاتهما الشبه يومية منذ أن عقدا قرانهما قبل عامين، كل مساء يلتقيان ها هنا فوق الدكة، تحكي له عن تفاصيل يومها، آخر أخبار فرقتها ومخططاتهم، هي أيضًا كان لها من الشغف نصيب، وقوفها فوق خشبة المسرح في مقام حلبة لممارسة الهوس، صممت على دخول معهد الفنون المسرحية رغم معارضة الجميع، لكن رغبتها الشديدة في دراسة فن التمثيل والإخراج أجبرتهم على الرضوخ مع وضع حدود تسير وفقها لا تحيد..



يحكي بدوره، لكن ينتهي حديثه بعد جملة أو اثنتين على الأغلب، فمناوشات العمال وحكايات"الريس مجاهد" لا يعدهم طبقًا شهيًا فوق مائدة السمر..

كثيرًا ما يكون للغرام متسعٌ حين يبسط خيوطه ويغزلان كل ليلة حكاية عشق لا تنضب، كلاهما لا يعلم من وقع في الآخر أولًا، كل شيءٍ بدأ مع بداية سنته الثانية من كلية الهندسة حين قلصت الثانوية العامة بينهما المسافات أكثر من المعتاد، صارا يلتقيان بالشرفة وفوق الدرج، داخل حجرة الصالون وسطح البناية لحل مسألة ما أو شرح فقرة عجزت عن فهمها، أخذ على عاتقه مهمة مساعدتها وكانت تثرثر معه عن أسرارها في وقت الراحة، ثم وبشكل عارض في لحظة بوح و انسجام أخبرها عن زميلة له تعجبه كفتاة، لم تنم ليلتها ولم تهدأ حتى تحصلت على رقم هاتفها خلسةً من بين قائمة هاتفه، حادثتها دون مقدمات، انفجرت فيها وأخبرتها أنها ساقطة تغوي الرجال، سبتها ثم حذرتها بأن تبتعد عن خطيبها!..



حين واجهها بفداحة فعلها لم تنكر، بل وقفت أمامه بعنفوان كبير وغضب أكبر، تخبره من بين أوداجها المنتفخة ودمعها الذارف أنه أحمق كبيروغبي، ظل يتطلع نحوها بغرابة وعجب ثم تبخرغضبه وراح يضحك، ضحك كثيرًا حتى أدمعت عيناه..

لأجل تلك الحادثة تصر"ندى" أنها من عشقته أولًا ويجادل هو بأنه كان الأسبق لكنه اكتشف مسارات نبضه مؤخرًا، تكررها له كل مرة: أحمق!..

ويصدقها القول في كل مرة.

تقدمته تخلع حذاءها ذا الكعب المؤذي لتبقى حافية القدمين، تبعها محذرًا وبصره يحوم فوق الأرض المكشوفة الشبه مظلمة:

- خدي بالك..

لا تعير تحذيره انتباه ويدها تخرج هاتفها من حقيبة يدها الصغيرة، تعبث فيه قبل أن تلقي بكليهما جانبًا وتستدير



بجسدها فتلتف طبقات الشيفون السماوية من حولها ويعبث النسيم بخصلاتها القصيرة الطليقة كروحها في هاته اللحظة..

أخذت بكفه لترتاح براحتها فيه، سحبت الآخر ثبتته فوق خصرها وارتفعت بيدها تحط بها فوق كتفه، تشد من ظهرها، تشرق ضحكتها كشمس ظهيرة تنافس ليلٍ معتمٍ وجسدها يتمايل في أنوثة توازي النغم المنبعث عبر الهاتف القريب..

- أغنية عمرو دياب الجديدة تحفة..

قالتها بحماس كبير استنكره وجسده يساير حركاتها المتباطئة:

- لسة فيكِ حيل!..

شدت ربطة عنقه ليدنو بوجهه منها، تخرسه بنظرة تمازج فيها العشق مع العبث:

- ما أنا مش هاسيبك تنام و إنتَ قمرو محلو كده..

تنحنح بابتسامة ثقة ونظرة غرور:



- هي البدلة الكحلي كده؛ بتجيب من الآخر..

طوت مزاحه جانبًا وجسدها يتحرك على مهل مجبرة إياه على مجاراتها، ترتسم في مقلتيها هالة عشق تليق بشاعرية الكلمات والنغم..

"الليلادي سيبني أقول وأحب فيك"

رفعت جسدها فوق أصابع قدميها حتى توازيه طولًا، تلف بذراعيها من حول عنقه، تقابل عينيه الداكنتين، القريبتين جدًا، تهمس بالكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب وتراها كتبت لأجلهم، مال برأسه يلثم وجنتها بقوة ثم اعتدل سريعًا يفسح لها المجال حتى تدور حول نفسها مرة بعد مرة وكفه يعانق كفها..

أوقف دورانها وضحكاتها المجلجلة بتحكمه في خصرها، رغبته تعاود الميل بروية وعلى مهل هذه المرة والنية تطلق سهامها



حيث شفتيها المصبوغتين بوردية، لكن يدها المرفوعة كانت أسرع، تنهره بصفعة خفيفة..

- بس بقى، بابا هايزعق لي..

- لا يا شيخة!..

- آه والله..

دنا يلصق جبهته في خاصتها وكفاه المحيطان بخصرها يتحكمان في قربها، يسألها بخبث هي من أشعلت فتيله بتمايلها بين ذراعيه:

- تفتكري العرسان بيعملوا إيه دلوقتِ؟..

- اللي أنا و إنتَ هنموت ونعمله..

جاء انفعالها الهادىء شاذًا مقابل ردها، تلاحق ذلك بتنهيدة استسلام وعيناها تقابل خاصته بحزن مخبوء عاد يطفو في لحظة مترقرقا بمآقيها فغمغم لها بما يرى في سأم مفتعل:



- يخربيت النكد، هرمونات دي؟..

يهتز رأسها بأسى:

- أنا بجد مش هعرف أنام الليلة دي خالص..

كان يدرك ويستشعر مقاومتها لكل مشاعر الحزن بداخلها، تشارك شقيقتها العروس فرحتها ولا تعكر صفو اللحظات كما تفعل الصغيرة..

تهمس في تهدج قريب خاطب قلبه؛ خليلها:

- ماكنتش أعرف أن فراقها صعب كده..

- تعالي..

أخذ بها إلى صدره، يحيط جسدها كله بذراعيه، يخبرها بعناقه المطوق أنه معها ويشعر بها دون الحاجة لأن تقول، مسح عن رأسها، تركها تفرغ شحنة مشاعر تكبتها لأيام، اكتفى بالصمت حتى هدأت وأطلقت تنهيداتها المتقطعة، أبعدها يحيط بوجهها

بين كفيه، يزيح الخصلات القصيرة خلف الأذنين، ابتسامة دافئة شملها بها قبل أن ياخذ بها ويجلسان، مالت برأسها تتوسد صدره، تحكي له عن تفاصيل الراحلة كأنه لا يعرفها بابتسامة حنين بدأت من أول ليلة غياب..

- كانت طول الليل تتخانق معايا عشان أبطل رغي وأطفي النور..

من بين آلاف الذكريات تبقى ذكريات الليل هي أكثر ما تتوهج بحنينها، كانت لها صديقة مقربة قبل أن تكون أختًا كبرى ترعاها وتهتم لأمرها، "مريم" سيدة النظام الأولى كانت تلملم كل أغراضها المبعثرة، تنهرها وحين تيأس منها تعيد ترتيبها بنفسها، معركتهما الخاصة على اختيارفيلم يشاهدانه سويًا، لأختها ذوقٌ يفضل النوعية العربية الكلاسيكية على عكسها هي صاحبة الذوق الغربي، أول من كشفت لها الغطاء عن مشاعرها البكر التي سكنت فؤادها كانت هي، علمتها الكثير من الأشياء تفشل



لو أرادت إحصاءها، يكفي أنها كانت حاضرة بين ثنايا تفاصيلها الصغيرة..

عبث بخصلات رأسها قليلًا، يخبرها بهمس قريب:

- كل حاجة بتكون صعبة في أولها بعدين بنتعود وتهون..

- على أساس إنك مجرب وكده..

- آه طبعا، ده أنا فضلت يجي شهر بعد ما دهب اتجوزت كل ما أعدي من قدام أوضتها أحس بفراغ وخنقه..

امتزجت ضحكتها مع حشرجة البكاء من محاولته الخرقاء في التهوين من أمرها:

- إنتَ كده بتزودها على فكرة..

تبسم لمسمع ضحكتها:

- بعمل بنصايحك العبقرية اللي بتقول مشاركة النكد بتخففه..



تصحح:

- الألم..

- ولاد عم مارحناش بعيد..

حين اشتدت نسائم الفجر برودة دثر جسدها المنكمش فيه بسترة بذلته، دنت تهدي وجنته القريبة قبلة صغيرة غمرتها امتنان على وجوده قربها حتى يرفع عن قلبها بأثقاله ويخفف من وطأة الشعور الأليم، فردت أصابع كفها تشابكها مع أصابع كفه الساكنة، تغيب وإياه في مراقبة مصمتة تتبع عباءة النجوم..

وصمت العشاق وصال من نوع آخر

لا يفسره غير أهل الهوى.



خلف طاولة الزينة جالسة تزيل ما تبقى من زينة وجهها، يسيطر على أفكارها ثوب "عبلة" بلونه وتطريزاته والتفافاته الجانبية



مانحًا صاحبته هيئة وردة متفتحة، كيف أبرزت جمال جيدها الطويل بتسريحة شعر مرتفعة وحمالتين أفسحتا المجال لظهورنعومة بشرتها وصفائها، كيف كان يضم قوامها الممشوق ويتمايل تبعًا لميل أنوثتها فيه، تصميم فريد من نوعه لاق بها كثيرًا، وهي كامرأة لن تنكر غيرتها بين نفسها من تميزها الذي لطالما كانت ومازالت تبرع فيه..

- مش هتنامي؟..

أخرجها سؤال زوجها من شرودها الطويل، طفقت تمسح وجهها بقوة أكبر وبصرها يعانق صورته من خلف الزجاج العاكس، يزرر قميص بيجامته ويزيح الشرشف الثقيل وقد حان دوره ليندس بجسده المرهق داخل الفراش بعد أن رافق صغاره في أسرتهم حتى سقطا في سبات عميق، كان ينزع منظاره الطبي ويطويه جانبًا حين أتاه السؤال المبهور:

- شوفت الفرح كان عامل إزاي!..



التفت بجسدها تقابله وجهًا لوجه مردفةً بإمارات العجب:

- صحيح بابا قال لي أن عيلة جوهر كبيرة ومعروفة بس ماتوقعتش للدرجة دي..

عقدت حاجبيها مردفة تاليًا كأنما تحادث نفسها بحيرة ساخرة:

- نفسي أعرف مريم وقعته إزاي ده..

- ليه وهي مريم ناقصها إيه؟..

عارض نهج حديثها فصاحت بنزق:

- يا سيدي مش ناقصها بس أقصد عرفها فين، إزاي بدأ الموضوع؟..

أخبرها بالمختصر المفيد في تثاؤب:

- الصيدلية اللي شغالة فيها قصاد الفرع الرئيسي للشركة بتاعتهم.. شافها، عجبته، اتقدم لها..



نهضت تخلع عنها مئزرها الحريري، تجاوره داخل الفراش بالتصاق وتسأله في فضول قاتل عن معلومة عرفتها قريبًا:

- هو صحيح العريس يبقى ابن عامل كان شغال عندهم ولما مات هو ومراته في حادث خده رشدي جوهر رباه مع ولاده؟..

سألها بتقطيبة جبين غير راضية:

- مين قالك الكلام ده؟..

حركت كتفيها براحة:

- الكل عارف وبيتكلم في الموضوع من تحت لتحت..

تنهد يخبرها في قلة حيلة:

- تمام هو كده، ياريت بقى ماتتكلميش في الموضوع ده مع أي حد خصوصًا مريم نفسها..

يدها في خصرها، تستنكر إخفاءه للأمر عنها:

- يعني إنتَ عارف يا سي بكر، مخبي عليَّ ليه بقى إن شاء الله؟..



- وأهو عرفتي فرق إيه يعني..

تأففت من إصراره على إنهاء الحديث:

- يا ربي هسحب منك الكلام بالعافية، أنا بس عايزة أعرف هو كده جوز مريم ده هيورث في الراجل اللي رباه ولا كل حاجة هاتروح لأولاده الأصليين؟!..

ضرب كفًا بكف على الطريق الذي تسلكه بأفكارها:

- لا إله إلا الله، خلاص موتي الراجل وبتفرقي فلوسه..

- الله! هو حرام اسأل..

- يا ستي واحنا مالنا، هاه؛ احنا مالنا؟..

تقربحنق:

- خلاص إنتَ على طول كده تحب تكبر دماغك..

- عشان مايهمنيش كل ده، اللي يهمني بنت عمي تكون مرتاحة ومبسوطة..



مازال التعجب يؤرق فكرها في تلك المنطقة وتجدها معضلة مستعصية الفهم:

- يعني ساب كل البنات اللي كانوا في الفرح دول واختارمريم! دي حاجة غريبة فعلًا..

احتدت نبرته في جدية تامة غيرراضٍ بالمرة عما تحويه كلماتها:

- مش فاهم إيه وجه الاستغراب، على فكرة احنا عيلة نسبها يشرف أي حد..

علت نبرتها وجسدها يتحفزلمناوشة جديدة:

- هو أنا كل ما أنطق بكلمة هاتتحمق على أهلك ولا إنتَ عايز تتخانق وبتتلكك!..

سحب الغطاء فوق رأسه، يخبرها من خلفه:

- لا أنا مافييش دماغ لأي خناق يا نادية، اقفلي النوربعد إذنك عايزأنام..



سحبت الشرشف بقوة مباغتة، تخبره بضيق:

- أنا مش جاي لي نوم قوم أقعد معايا شوية ما تبقاش رخم..

أطلق زفرة كبيرة قبل أن يرفع رأسه عن الوسادة ليضعها فوق فخذها، راحت تتخلل شعر رأسه القصير بأصابعها في حين كان يطالعها هو بعين طار منها النعاس إثر ثرثرتها اللامتناهية، بدت اللحظة مناسبة جدًا ليخبرها بما يسرعنها وينتهي من هذا الأمر للأبد، ثلاث مرات تصل فيها الكلمات عند طرف لسانه من ثم تعود متقهقرة..

- بس فستان عبلة كان أوفر شوية ولا إنتَ إيه رأيك؟..

- نادية..

همهمت وعيناها تناظره بشرود لاقاه بغير تراجع هذه المرة:

- أنا قبلت عرض النقل..

وبعد هذا ساد صمت كاسح..



أخيرًا وجد الشجاعة الكافية لفتح فوهة اللهب في وجهه!.



ليالي الأنس تستحق تتويج أخير..

ولأن ساعة الحظ لا تعوض قرر الليلة كسر أحد قوانين زوجته الصارمة ولتذهب المثالية ومريديها إلى الجحيم..

متوركًا فوق الأريكة الجانبية لغرفة النوم، يولي جل تركيزه لما بين يديه، يفرك النبات المخدر بين أنامله، يمزجه مع التبغ المفروم وينتهي بلف سيجارته ذات المزاج الخاص، مع أول سحابة دخان بدأت في التلاشي كشفت له عن حضورها المتخصر، حط بصره على طرف ثوبها الحريري الداكن الواصل حد الكاحلين وراح يصعد في تلكؤ عثرته خصلاتها الكثيفة وهي تقطر ماءها حد إغراقها للثوب الذي انتهى بحمالتين كتف، حين قابل وجهها الحانق ابتسم ابتسامته الواسعة وامتدت يده بالسيجارة نحوها:



- بنمسي..

ردت ابتسامته بأخرى مفتعلة وأصابعها تنوي اختطاف السيجارة من بين أنامله لكنه كان الأسبق في إبعادها ونهوضه الواثب، قيد ذراعيها خلف ظهرها بذراع واحد، لف وجهها ناحيته يلثم ثغرها الرطب قبل أن يتركه ليعانق سيجارته، تلاعب بها بين أسنانه والسطح العاكس للمرآة المقابلة يفضح تخابث نظرته، تناولها بين السبابة والوسطى ليمررعقبها فوق حدود شفتيها:

- جربي، نفس واحد بس..

حاولت التملص بجسدها من قيده المنيع فلم تجد منه فكاك، زفرت بعجزوحروفها تنهره:

- ابعد الزفتة دي وفكني..

- ماتبقيش نكدية دي سيجارة متكلفة هاتسلطنك..

- طيب فكني الأول..



نظر إلى عينها باحثًا عن صدق الكلمات:

- مش مصدقك بس ماشي..

في اللحظة التي حررها فيها اختطفت السيجارة، بحركة خاطفة، تطفئ توهجها في المرمدة القريبة ومنها إلى النافذة الصغيرة تلقي بها حيث منور البناية الخلفي، لاحق فعلتها بالقول المحبط:

- يادي قلة المزاج..

تلاقيه في طريق عودتها فتنهره حروفها في صرامة جادة:

- حشيش لأ يا عزيز، لو شفتك بتشربه تاني هاتخانق معاك بجد..

خلع عنه قميصه المفتوح أمام المرآة مستعرضًا عضلاته بينما يخبرها بقول غير مبالٍ:

- نفسين تفاريح ماتكبريش الموضوع..



أخذت تمشط خصلاتها المبتلة في عنف مغمغمة بحنق:

- أصلًا كله من صاحبك الصايع ده، ساحبك لكل حاجة شمال حسبي الله..

- سعد!..

- هو سي زفت..

- حرام عليكِ ماتظلميش الراجل ده ماشي زي الساعة اليومين دول، من البيت للكباريه ومن الكباريه للبيت..

- أنعم وأكرم..

تعليق ساخر أردفت بعده ويدها تضرب صدره المكشوف بمشطها في غضب وقد تذكرت أمجاده الليلة:

- بعدين مزاج إيه اللي لسه بتدورعليه، مش كفاية اللي عملته في الفرح؟ ده إنتَ ماخلتش بنت إلا ورقصت معاها..



يدلك صدره إثر لسعتها بحاجبين معقودين ثم يعود لها بحاجب ارتفع بغرور مقرًا بما هو خارج عن إرادته:

- مش مشكلتي إني عاجب كل البنات..

انفعلت لغيظه المقصود:

- طيب على فكرة بقى كلهم وحشين..

أغمض عين واحدة مفكرًا:

- تصدقي مش فاكرولا واحدة..

و اتبع ذلك مردفًا بتسلية وذراعاه يطوقانها من الخلف:

- غير الطويلة أم عيون خضرا والتانية أم فستان نبيتي قصيرو رجلين..

غرزت أنيابها في ساعده القريب بقوة فكها تمنع استرساله المغيظ فانتفض عنها مقهقها ومباغتا إياها بذراعيه يحملانها،



يلقى بكليهما فوق الفراش المرتب بهمس قريب جاور أذنها وتحرك ببطء إلى شفتيها يتلو عليهما تراتيل الغرام:

- في حد عاقل يبقى معاه الدهب ويبص للقشرة برده!..

جاء الصباح اعتياديًا مثل كل أيامها المكررة، نهضت بجسد متعب إثر سهر ليل البارحة، تلملم ثياب العرس الملقاة هنا وهناك، تحملهم بحضنها حتى دورة المياه، هناك تفاجيء بحلول عادتها الشهرية، جاءتها قبل موعدها هذا الشهر لتقطع عنها الأمل قبل أن يولد، بقلب مغبون و أقدام مثقلة دلفت إلى المطبخ، لا شهية لديها لوجبة فطور، تعد وجبةً للغافي وتتركها فوق المائدة الصغيرة جاهزة للالتهام، تتسلل ببطء ساحبة ثيابها وتغادر الغرفة على رؤوس أصابعها حتى لا توقظه فيفيق ولا يعرف طريقًا لاستكمال نومته..



كانت ترتدي ثيابها في عجالة بملامح متجهمة حين غافلتها دمعة حارة انحدرت فوق وجنتها، محتها أصابعها في غضب متابعة ما تفعل ثم عادت إلى الغرفة لتراه منكفئًا فوق بطنه في أكثر وضعية للنوم تريحه، رفعت من درجة المبرد وشدت بالشرشف تدثر جذعه المكشوف جيدًا قبل خروجها، رحلت مغلقة الباب على مهل تاركةً له الهدوء مستقبلة هي ضحيج الحياة..

حيث المشفى وصف المرضى في انتظارها، رحلت حاملة بين جنبيها خيبة أمل وأمنية حياة لم يؤذن لها بعد.



الساعة تتجاوز الثالثة عصرًا أثناء مغادرته لمبنى الجريدة، احتاج إلى عشرين دقيقة حتى يصل إلى أقرب محطة مواصلات، ومثلهم انتظار حتى تصل الحافلة، يحاول تلاشي الأجساد المتدافعة قدر المستطاع، في النهاية يضطر إلى حشر جسده وتمريره قسرًا وإلا لن يصل بيته اليوم، إن كان محظوظًا



سيجد مقعدًا فارغًا يتلقفه، وعادة ما يتبخر الحظ مع ظهور شيخ كبير أو امرأة ترخي ستار الشقاء مع تفاصيل وجهها..

حين يغادر الحافلة يصعد عربة أجرة أخرى حتى تصل به إلى وجهته، قد تبدو للبعض رحلة شقاء يقضيها صبح مساء، لكن مع "عبدالله" لم يكن الأمر بذلك السوء، كثيرًا ما كانت تختصر المسافات دون أن يشعر بها ومسماع الأذن موصول بكتاب صوتي، تلك العادة التي عرفها وأدمنها أثناء ذهابه و إيابه على كلية الإعلام حتى تخرج منها بمعدل مرتفع..

لم يكن العمل أمرًا شاقًا عانى ويلاته، كان الطريق معه متيسرًا ممهدًا مع صداقة قديمة تجمع بين أبيه و رئيس تحرير جريدة"..." دعاه الرجل بنفسه لمرحلة تدريبية في سنته الثانية وكانت مهاراته في الصحافة هي البرهان إذا ما كان يستحق الفرصة أم لا، أثبت كفاءة منقطعة النظير استحق لأجلها



وظيفة وجدها في انتظاره ما إن أنهى خدمته العسكرية، واليوم هو من أفضل محررين قسم الحوادث بشهادة من الجميع..

يده فوق حقيبة حاسوبه الجانبية رفيقة الطرقات، يغمض عينيه ولا يفتحها، يصيخ السمع للكلمات والحروف، يتذوقها، يتلذذ بتفاصيلها، حين يستشعر فوات الوقت يفرق جفنيه على مهل، ذلك التحدي الطفولي الذي يعقده بين نفسه حين يصيب التوقيت المضبوط يجعله يبتسم بانتصار كما حدث الآن.

حين فتح باب البيت ودلف لم يجد أمه كعادتها بين صخب الأو اني وخضر المطبخ، كانت تجلس فوق الأريكة بصحن البيت يتجلى فوق قسماتها الضيق وبان في صوتها كل كآبة العالم حين ردت تحيته:

- وعليكم السلام يا حبيبي..



سأل مستغربا حالها، لم تستطع الرد، لم تعرف من أين تبدأ اكتفت بإرسال بصرها في إشارة من خلفه، حيث علبة المصوغات الصغيرة ترقد بسلام فوق المنضدة وقول فاتر من أمه أمسك بآخر طرف للحكاية:

- جابتها أم دينا النهاردة وقالت كل شيء قسمة ونصيب..

وقف بصره فوق العبلة بشيء من صدمة أخرست أحرفه، إجتذبته أمه بكلماتها:

- إنتَ زعلت خطيبتك يا عبدالله؟.. أنا سألت الست وحاولت أفهم منها اللي جرى بس مقالتش حاجة غير أن النصيب عايز كده وخدت بعضها وقامت مشيت، فهمني إنتَ يا بني حصل إيه؟..

لم يزل أثر الصدمة بعد، بل زادت غصة وقفت بحلقه، جل ما أستطاع تقديمه هزة رأس صاغرة حملت جهل ماهية مايحدث..



- والله ما أعرف!..

آلمها أن تراه بتلك الصورة، مكسور القلب والخاطر تتدلى من قسماته إمارات الخذلان، انتفضت من جلوسها المحبط، تنتعل خفها البيتي في شيء من حدة وتتجاوزه بقول غاضب:

- أنا هكلم أبوك يكلم أبوها يفهم منه إيه العبارة، ولا أقولك أنا أروح بنفسي أعرف إيه سبب قلة الأصل دي ولا هو كان لعب عيال من الأول..

لاحق خطواتها العجول يقطعها بحدة بينما يمسك بساعدها:

- لا يا ماما استني، ماحدش منكم هايتدخل في حاجة، الموضوع يخصني و أنا كفيل بيه..

قاطعته بغضب له لا عليه:

- وهو كان حد داس لهم على طرف؟ سيبني أتصرف معاهم..

- وتصغريني قدامهم، يرضيكي يا أمي؟!..



استنكرت قوله كأم لا ترى برجلها غير الكمال، تخفف عنه وتؤازره بقوة القول الحزين:

- لا عاش ولا كان اللي يصغرك يا نور عيني، إيه يعني فسخوا الخطوبة؟ ما في ستين داهية، هو اللي خلقها ماخلقش غيرها ولا هي البنات خلصت من الدنيا..

أوقفها بكف حازمة وتأكيد لقول سابق زادته رباطة جأش وبصره يهرب أرضًا بعيدًا عن مرمى عينيها فلا تفضحه بكشف دواخله المضطربة:

- ماحدش منكم يتدخل يا أمي بأي شكل من الأشكال علشان ماتزعلنيش، سيبيني أتصرف..

قال هذا وسار إلى غرفته يقطع وصال بصرها بباب موصد.



Bella



يافطة ذهبية أنيقة، منطقة راقية وزبائن من ذات الفصيلة، منزلة مرضية لشخصية عرفت طريقها باكرًا وحددت مساره، بدأت من الصفر، مشروع ملابس نسائية كان مقره وفوضاه منزلها عقب زواج الشقيق ورحيله، لم تخاطر بكل إرثها، اقتطعت جزءًا وخاضت التجربة، هي سعت وعملت، تعبت فنالت، ارتقى الحلم لمتجر صغير والمتجر الضيق أصبح اليوم مكانًا فسيحًا بحيٍ راقٍ خاص بثياب الزفاف والسهرات النسائية، مجد كانت تحلم فيه واستطاعت أن تلامس حقيقته، هي"عبلة الشيمي" إذا ما وضعت شيئًا في رأسها لا تتراجع حتى تراه ملك يمينها، امرأة فخورة بنفسها وسعيدة بما وصلت إليه..

وصلت اليوم متأخرة ساعة ونصف عن موعدها المعتاد، صفت سيارتها وترجلت تضرب الأرض بكعب حذائها، تعبر كملكة متوجة فوق أرضها، السجاد الأحمر الفاخر يستقبل الداخل لمسافة لا بأس بها، يضيع البصر بين كل تلك التصاميم



المشتركة في النهج ذاته، كأنما سقطت في حلوى القطن أو ضعت بين السحب، مزيج بياض الثياب مع لمسة الديكور الأنيقة تترك لدى الرآى انطباع خاطف لا يُنسى، بعد الأبيض تتدرج بقية الألوان وتتكدس في تفاصيل وأشكال ترضي سائر الأذواق..

انتهت خطواتها لتجد العاملتين لديها متشاغلتين مع بضاعة جديدة وصلت قبل قليل، تناثرت الثياب الممددة هنا وهناك فوق الآرائك السماوية والوردية، مع وصولها تحركتا بهمة أشد..

أخبرتهما عقب نظرة سريعة:

- حطوا دول في العرض..

مشيرة بيدها نحو ثلاث أثواب، أردفت بعدها:

- النسكافيه بتاعي يا بوسي..

ست درجات التفت بشكل لولبي وتنتهي بركن مكتبها الخاص المرتفع بمقدار يسمح لها بمراقبة المكان وشمله بنظرة واحدة،



كانت تنهي قهوتها الصباحية حين عادت لها الفتاة العاملة هامسة باسم أحد أهم الزبائن، نهضت من فورها تستقبلهما بترحاب حار..

- رجاء هانم؟ و أنا أقول المكان نورليه..

ومن كف المرأة لزوجها:

- نورتنا سالم بيه..

تكلمت السيدة الخمسينية بكياسة:

- عندي مناسبة عائلية آخر الأسبوع وقلت ماحدش هاينجز ويخلصني غير بيللا..

اتسعت ابتسامتها، تخبرها أنها فعلت الصواب:

- عندي تشكيلة جديدة تحفة لسة واصلة النهاردة، نشرب القهوة وناخد فكرة وبعدين أوعدك مش هاتخرجي غير بحاجة مبهرة لكل اللي يشوفها..



بعد رحلة انتقاء لم تطل أوفت بوعدها، منحتها طلبها كما أرادت المرأة وأكثر، أعجبها الثوب لدرجة طغى الحماس فوق قسماتها:

- مش قلت لك يا سالم بيللا فاهمة ذوقي..

نفث الرجل دخان سيجاره من جلسته المسترخية فوق المقعد، يقول في كياسة:

- بالسعر ده لازم يكون تحفة..

حدثته"عبلة" من خلف مكتبها:

- الغالي يلبس الغالي يا سالم بيه..

مازحها بابتسامة رصينة تليق بسنين عمره ومشيب رأسه، جذعه يميل نافضًا سيجاره في المرمدة القريبة:

- أنتِ بتدبسيني بقى علشان أدفع من سكات..

همست في خفر والثغر المصبوغ بحمرة قانية باسم:



- العفويا فندم ده إحنا نوصل الفستان لحد البيت من غير أي حاجة، رجاء هانم صاحبة مكان ومفيش حاجة تغلى عليها..

أكد على كلماتها بإيماءة مشيعًا إياها بنظرة إعجاب صريحة ذات مغزى دارت على عقبها إلى زوجته تختتم المحادثة:

- مبروك عليكِ يا هانم..

هي امرأة تجيد الربح و اقتناص الفرص..

وإن كانت بخلوة مع رجل بعقد غير شرعي يبيح لها معه ذروة لقاء حميمي ودلال تجيد اصطناعه في لحظة قرب:

- بقيت شقي خالص يا سلومي..

ولفظة التدليل تعود على"سالم بيه" رجل الأعمال الستيني وزوج أهم زبائنها!..



(3)

متى بدأت الحكاية؟..

أيام الجامعة، خطفت بصره في المرة الأولى وقلبه في التالية، في الثالثة كان يلمح باعتراف، كانت له حلم بعيد المنال حين عارض أهلها فكرة ارتباطهما، ابنة الحسب والنسب يرى والديها أنها لا تليق بابن الموظف البسيط، عندما عارضت الجميع وتمسكت به خطفت من قلبه كل النبض وتملكت، ولأجلها عاد مرة أخرى يطلبها، مع اتحاد فؤادها ونبضه كان لهما من القسمة نصيب، حملت اسمه وحملها هو وحلق إلى خارج البلاد، عقد عمل بدولة الكويت، من هناك ابتدت حكاية أخرى وقد هدأت ثورة العشق، تشذب الغرام في محله واستكان، مستقبل وحياة شاركهما فيها طفلان لهما من الحكاية أحلاها، عشر سنوات أنشأت علاقة بعيدة عن الأهل والوطن، مستقرة هادئة إلا من



مناوشات عادية في عرف المتزوجين، استقرار ذبذبه عرض جديد من أرباب العمل بترقيته لرتبة مدير فرع للشركة الغذائية التي يعمل فيها بضعف راتبه مرتين، فرصة ذهبية لأمثاله، معضلتها الوحيدة هو الانتقال من دولة الكويت إلى الفرع التابع لمدينة الرياض وهذا ما ترفضه "نادية"..

ترفض التخلي عن حياة أسستها وتأقلمت عليها لعشر سنوات من الزمان، ترفض التخلي عن عمل تجد فيه راحتها، لا تغريها فكرة الامتيازات والراتب المضاعف، ترعبها فكرة عدم التأقلم على عكس"بكر" الذي لا يستسيغ فكرة رفضها وشنها عليه كل غارات النكد والمعارك الداخلية، آل بينهما الأمر معلقًا دون قرار، كلاهما متشبثٌ برؤيته ورأيه، قبل نزولهم أرض الوطن بيومين كان عليه أن يعطي قرارًا نهائيًا، إما اختيار غيره أو القبول والبدء في مباشرة العمل عقب انتهاء إجازته بشكل فوري، وهو آمن بفكرة الفرصة التي لا تعوض، قبل العرض ومهر العقد وطوال الشهر المنصرم كان يحاول إخبارها بالأمر



وفي كل مرة يثقله رد فعلها فيتراجع مؤجلًا الحديث لتوقيت مناسب أكثر، حتى جاءت الليلة المشؤومة باعترافه لتبدأ حكاية مغايرة تمامًا لكل ما كان..

- أنا قبلت عرض النقل..

ما تلا ذلك صمت طويل، دارت حربًا صامتة بين الأعين، حين وجدت استيعابها الكامل انتفضت عن جلوسها المسترخي داخل الفراش، تشعل المصباح بعنف، تقف فوق رأسه بنظراتها المشتعلة تكاد تحرقه حيا:

- إنتَ واعي للي بتقوله؟..

تفرض عليه الخبال، هو حتمًا أصابته لوثة ما حتى يقدم على فعلته، كان رأسها يشتعل داخليًا، يغلي نبضه والقسمات تشرح، نهض بهدوء ينافي توتر الأجواء والحريق الذي أشعله قبل لحظات، يمسك بكتفيها، يضغطهما برفق:

- اهدي و اقعدي خلينا نتكلم بالعقل..



نفضت عنها يديه، ترفض محاولاته في الالتفاف حول عقلها:

- إنتَ خليت فيها عقل، ما خلاص بكل أنانية أخدت القرار..

ردد في صياح مستنكروكل قسماته تتغضن:

- أنانية!..

أكدت له نبرتها الصارخة، الغاضبة:

- أيوه أناني، فكرت في اللي عايزه و أنا و أولادي نشيل الليلة..

أصابته عدوى الغضب، صاح بدوره:

- ليلة إيه اللي خايفة تشليها، هو مين المسئول هنا؟..

وكزجانب رأسها بسبابته والقول المغتاظ يهدرفوقها:

- أنتِ لو فكرتِ بعقلك لمرة واحدة بس هتفهمي إنها فرصة ما تتعوضش..

أنزل يده إلى جانبه يخبرها بختام ساخط ويبتعد عنها بمقدار:

- مش هتغرب عمري كله يا نادية..



كانت تقابله بجسد متحفزوذراعين معقودين فوق صدرها حين إنتهى ضحكت في سخرية ساخطة:

- على فكرة مش لوحدك متغرب..

عاد الخطوة التي ابتعدها يقابل عينيها عن ذات قرب:

- يبقى إيه؟ نرفض النعمة ونفضل و اقفين محلك سر!..

فكت عقدة ذراعيها لتثور في وجهه القريب حد اصطدام أنفاسهما الحارة ببعضها:

- أنا ماقلتش كده يا أستاذ، بس لما ده يكون حساب راحتي و راحة أولادي يبقى أنا مش هاسكت ولا هأقبل..

لم يجب، ظل يطالعها بوجه محتقن وعينين حمراوين، ابتعدت عن مرماه، تزفر، تزيح خصلاتها البنية بكلتا يديها إلى الوراء في حدة قبل أن تدور على عقبها، تعود له بجنون مضاعف وقد جمعت له من اللوم ما يكفي:



- فكرت في سنا؟ فاكر خدت وقت قد إيه في مدرستها علشان تقدر تتأقلم وتستقر نفسيًا..

سكتت هنيهة، تابعت بعدها:

- وعمر؟ هيبعد عن أصحابه اللي مهونين عليه جو الوحدة والقرف، يا ترى فكرت في أولادك قبل ما تشقلب لهم كل حياتهم..

أجابها بنبرة أهدأ محاولًا الوصول إلى نقطة التقاء وتفاهم:

- كل ده يتظبط مع الوقت، زي ما تأقلموا هنا يتأقلموا هناك مش هتفرق..

- مش هتفرق! تمام يا بكر..

أردفت في الحال، تدعي محاورته من خلف واجهة هادئة كاذبة:

- شغلي بقى؟ وضعه إيه وسط مخططاتك..

- هاجيب لك شغل تاني أحسن منه..



صفقت بجذل مفتعل:

- عظيم، بجد عظيم..

أنهت سخريتها بمقابلة عينيه في تحد:

- يعني مطلوب مني أسيب شغلي اللي تعبت فيه طول السنين دي و أبدأ من جديد عشان قرارغبي حضرتك أخدته من نفسك بدون ما ترجع لي فيه!..

تحدث برباطة جأش تنافي احتدامه الداخلي:

- تمام، غباء بغباء بقى نعتبرالموضوع منتهي، أنا قبلت ومضيت العقد ومفيش مجال للرجوع، و بدال ما نقعد نعيد في كلام مفيش منه فايدة الأفضل نفكرونرتب للى جاى..

- أقول أمرك يا سيدى بقى وكده؟..

اتبعت هذا بقول جاد، صارم:



- أنا مش موافقة يا بكر، مادام وافقت ومفيش مجال للرجوع.. تمام.. سافر إنتَ وأنا وأولادي هنفضل هنا في مصر..

- أنتِ أكيد اتجننتي..

- إنتَ اللي اتجننت لما فكرت أنك كده ممكن تجبرني على حاجة أنا مش عايزاها..

- يعني إيه؟..

- يعني مش مسافرة، تعبت من الغربة وماعنديش أي استعداد اضاعف الشعور ده واتحمله حتى لو علشانك..

قالت هذا واختفت بغرفة طفليها، انتهت الليلة بينهما بصمت آخر أكثر ثقلًا من بدايته..

هدوء الصباح أخبره أن المنزل خالٍ إلا منه، اعتدل من نومته المتعبة فوق أريكة الردهة، يفرك وجهه ويلملم ضغطة جسده، حام بصره في كل ركن وزاوية ثم استقر فوق شاشة هاتفه مع



وصول رسالة حديثة تحمل اسم زوجته ومحتواها ثلاث كلمات..

(أنا عند ماما)



كيف انتهت الحكاية؟..

لا يدري، هو ظنها بدأت للتو..

عندما شيد قصورًا من الأحلام كانت هي ملكتها، رسم المستقبل وتخيل الغد وما يليه بصحبتها، لم يمض غير شهرين على خطبتهما، مازال وإياها عند بداية الطريق، يأخذه الحماس حين تكون هي في الصورة، التجهيز لبيت الزوجية، اتفاقياته وأخوه عن إتمام زواجهما في ليلة واحدة، قبل أيام من بترها للحكاية كانا يختلفان على عرس صاخب يريده الشقيق وآخر بمراسم هادئة يرغبه هو، قبل أن يصلان إلى حل يرضي الطرفين تتدخل الوالدة بأغنية عتيقة من تراث الأفراح



تدندنها لهما بسعادة، لحظتها يتغير مسار الحديث ويأخذ طريقًا دافئًا يداعب ما بين الضلوع متذكرًا إياها يوم الرؤية الشرعية، يوم الخطبة، ويوم ابتسمت له على حين غرة..

تفاصيل صغيرة تزاحم رأسه في تشوش منذ أن تكلم مع أبيها عقب صلاة الفجر والمسجد خال إلا منهما ليخبره الرجل بكلمات خجله، متلعثمة:

"هي بتقول مش مرتاحة، ومش شايفه أنها الشخص المناسب ليك، عامة كل شيء قسمة ونصيب يا ابني وربنا يعوضكم أنتوا الاتنين بالأحسن"

لم يكن الرجل المناسب لأحلامها وتطلعاتها، هذا ما استنبطه من وراء خجل أبوها ولعثمته، بين أمه وأخته دار حديث آخر سمعه عن دون قصد من خلف الباب الموارب عن ظنونها بكونه معقدًا بأفكاره، متشددًا في حياته، يزيد على نفسه



الخناق وعلى من حوله وهي فتاة في مقتبل عمرها تريد أن تعيش الحياة لا أن توأد بين أيامها!..

حين سمع هذا أدرك أنه لم يعرفها أبدًا، ولا هي فعلت، كل أحلامه معها ما هي إلا وهم اختلقه عقله وزينه كما يريد ويرغب، ليلتها هدم الأحلام، قرر وجاهد أكثر في اقتلاعها من جذور عقله، لكن الأمر مستعصي حتى اللحظة، يهيمن على أيامه صمت غريب يجهل آخره، ضيقًا يملأ صدره لا يعرف كيف ينفضه، اليد الممدوده بكل ثقة وهي ترد إليه خائبة منحته شعورًا بالخذلان أصاب العمق..

مع نسائم الفجر كانت خطواته تتابع بعضها في تؤدة، قاصدًا مسجد الحي لأداء صلاة الفجر، عادته التي واظب عليها من سن السادسة عشر ولم يتخل عنها حتى اليوم إلا مرات نادرة فوتها بغير إرادة، مال برأسه للوراء معبئًا صدره بدفقات من الهواء البارد..



على حين غرة شعر بتسلل ذراع قوية تحط فوق كتفيه وخطوات أخذت توازي خطواته، تبسم لحضوره دون أن يلتفت إليه بوجهه، توأمه الذي يشاطره الشعور، يدرك تمامًا ما يعتمل فيه وإن أظهر العكس للجميع، يراه يفتعل الأعاجيب كي يتخطى تلك الحالة التي تحبسه داخل جدرانها الضيقة منذ أيام فلا يتركه وحيدًا..

انتهيا من أداء الصلاة ثم غادرا المسجد معًا، جنبًا إلى جنب، كان الجو فيه لسعة برودة أنبأت عن اقتراب الشتاء، اقترح "عبدالرحمن" التمشية، رافقه الشقيق دون قبول أو رفض، جلب الأول مواضيع الشرق والغرب والحال مع توأمه لا يتغير، يقطر الكلمات بمقطار، ترك له فسحة من الصمت عله يرتب بعثرة أوراقه ويعود بشتات نفسه للرجل الذي يعرفه قويًا، روحانيًا، خيط أمله موصول لا ينقطع..



دار سؤالًا في خلده، احتار بين طرحه أو قتله في مهده، لا يريد نثر الملح فوق الجراح الحديثة، لكن فضوله كان أقوى لذا تحرك من موضعه الموازي ليقابله متابعًا سيره المتباطئ بشكل عكسي داسًا بكفيه داخل جيوب سترته الخفيفة، خرجت حروفه في مزاح يدعي التباسط:

- إيه يا عم إنتَ حبيتها ولا إيه..

رفع له "عبدالله" بصرًا كان يعانق أقدامه قبل ثوان، باغته بالسؤال لن ينكر، قلب المعنى بداخله وبحث عن الإجابة الصادقة لكنه لم يجدها..

كان لا يعرف!..

- مش عارف..

أجاب ببساطة فاترة أراحت الآخر لأنه وارب باب قلبه المغلق وتركه يعبر ليقرأ مكنونه في لحظة نادرة، تشبث بروح البساطة ولحظات البوح في ساعة الفجر:



- مش عارف الحب ولا مش عارف إذا كنت بتحبها هي؟..

توقف الشقيق عن السير، أخذ يطالعه في تفكير عميق مكتفًا ساعديه فوق صدره، مط شفتيه بحيرة تماثل حروفه مجاريًا إياه في الدور الذي يتلبسه:

- ممكن تقول الاتنين يا فيلسوف زمانك..

ندت نصف ضحكة عن "عبدالرحمن" يعترف فيها أن رداء الحكيم لا يناسبه لذا تابع حديثه بالنهج الذي يعرفه وكفه يشير لموضع خافقه، يطلع الأخ الغر في عالم القلوب على خبايا أهله ببساطة متقنة:

- وقت ما تحب بجد ده مش هيحتار..

لأول مرة منذ أيام ضحك ملء فيه، حين فرغ منحه ما يريد من خبيئة صدره في رصانة لا تشبه الضحكات السابقة:

- الموضوع مالوش علاقة بالعواطف يا روميو..



صمت لبرهة رمق فيها الأفق، تابع بعدها:

- عارف لما تكون متأكد من حاجة لدرجة مايجيش في بالك عكسها؟ فجأة تشوف حقيقتها بشكل مختلف تماما عن كل اللي كنت شايفه، لحظتها تكتشف أنك كنت أعمى، بتشوف اللي عايز تشوفه وتتمناه بس..

سكت هنيهة، أردف بعدها مستفيضًا بكلماته:

- احساس إنك مش مرغوب بيعمل زي صدمة جوانيه تخليك تبدأ تبص لنفسك وتسأل الغلط فين؟..

عارضه الشقيق لاعنًا في خاطره من كانت السبب:

- وليه افترض النقص فيا مش يمكن في الطرف التاني..

- مفيش حد كامل، بس في اللي يقبلك زي ما إنتَ وفي اللي يحطك تحت مجهر الانتقاد، وهنا يبان الفرق بين حد شاري وحد مش فارق معاه..



حك"عبدالرحمن" مؤخرة رأسه في تفكير قبل أن يقول وابتسامة كبيرة تناوش ثغره:

- بص اللي أنا متأكد منه إنك زي الفل..

ثم قبض على رقبته، يحيطها بذراعه في قوة، مردفًا بفكاهة عنيفة:

- وبعدين في مثل أمك بتقوله، بتاع يروح قرد يجي غزال..

دفع بجسده و سماجته بعيدًا عنه محاولًا التقاط أنفاسه، منبهًا إياه إلى كلماته:

- من غير غلط في حد، أحترم نفسك..

- والله يا ابني أنا من إمبارح عايز أقول إنك خسارة فيها هي واللي خلفوها وساكت..

ضحك كلاهما بقوة قبل أن يقبض"عبدالله" على رقبته ويكبلها بذراعه، يرد له صاع مزاحه الثقيل، ساحبًا إياه قسرًا:



- تعالى بقى هفطرك على عربية فول مالهاش حل..

هناك حكايا تبترها مصقلة القدر، تموت قبل أن تبلغ لحظة ختام، تنتهي فلا يبقى منها غير أثرٍ يأخذ وقته قبل أن يزول للأبد.



بعض الحكايا هي صنيعة أيدينا..

نسقط فيها راغبين بكامل إرادتنا الحرة، يمكن أن نسميها حكايات مختارة..

وهي اختارت نسج حكايتها الخاصة خلف الأبواب المغلقة، حيث الظلام والخفاء..

لم تكن قوتها وتحديها كافيين حتى تصل مبتغاها، كانت هناك بعض الدرجات تعجز عن ارتقائها، مهما اجتهدت يظل نجمها باهت، تعافر ولا يلمع، لا أحد يراها، حتى جاء هو وقدم عرضه فوق طاولة عشاء بمطعم أنيق، وعدها أن يكون لاسمها علامة



تجارية، سوف يحمل نجمها الباهت بيديه ليثبته في سماء حلمها لتشرق وتسطع كما تريد تمامًا..

بالطبع أدركت أن هناك ثمنًا عليها دفعه مقابل هذا كله، في البداية ظنته يتحدث عن زواج رسمي لكنه صحح لها مفاهيمها المغلوطة، عقد زواج عرفي كاف لينال مبتغاه وتنال حلمها، عرض واضح، صريح، لم يجمله.. وهي قبلت.

تركته ينتشي بفكرة سقوطها في فخه، والحقيقة أنها هي من أسقطته بفخ مكرها، نفذ وعوده جوار عقد تمليك لمتجرها حاملًا اسمها بدلًا من الإيجار الشهري، وآخر يخص شقة اللقاءات المسروقة، حماها من مشكلات الضرائب، ذلل لها الطريق الوعر وما كان يستوجب منها عشرين عامًا اختصرته في عامين بفضله.

كانت تجلس بأريحية فوق الأريكة، يد تمسك بالهاتف وأخرى تعبث بخصلة من شعرها، رفعت بصرها إليه، واقفًا خلف



طاولة الزينة يصفف خصلاته الرمادية، اهتمامه بأمور الصحة واللياقة جعلت منه عجوزًا وسيمًا، ومغفلًا كبيرًا أيضًا..

نهضت عن وضعها المسترخي، تعدل له ياقة قميصه وتقبل بنانة سبابتها ثم تطبعها فوق شفتيه بنبرة مغوية:

- حبيبي ماتنساش تحول الفلوس لحسابي، اتفقت مع المصنع على طلبية جديدة ومفيش سيولة..

- أمرك يا روح قلبي..

يغمغم بوله متصابي ومحاولة لنيل شفتيها تثير فيها نزعة تقزز فتبعد وجهها جانبًا وتهتف بنبرة جافة و ابتسامة مصطنعه:

- قلت مراتك مستنياك في النادي علشان تتغدوا سوا، يلا هتتأخر عليها و أنا كمان اتأخرت على السنترولازم أنزل حالا..



تقول هذا وتتحرك ناحية دورة المياه، تنعم بحمام دافيء تزيل به كل آثاره، وما إن تنتهي حتى ترتدي ملابسها التي بدلتها قبل ساعات وتعود إلى عملها كأن شيئًا لم يكن..

دون أن يلحظ أحد أين كانت ولا ماذا فعلت..

تلك حكايات تشبه الخر افات والأساطير الز ائفة..

ننتشي بفكرة وجودها ونغفل عن إنها بلا أساس أو أعمدة.



بعض الحكايا تستوطن القلوب..

نظلل عليها بروحنا، نحيطها بأذرعتنا، نمنحها الرعاية التامة لتبقى في بيئتنا الآمنة..

حالة طوارىء تجتاح المشفى العام بمن فيه إثر حادث مروع لعربة ركاب فوق الطريق العام، طاقم الأطباء في حالة استنفار كامل، الممرضين، العاملين، هو اتف قسم الاستقبال لا تتوقف عن الرنين، أهالى المصابين تكدس بعضهم بين الأروقة



يتعاركون ويهددون خوفًا وهلعًا على ذويهم بينما من وافتهم المنية يأخذون نصيبهم من العويل والنواح..

حين هدأ الوضع واستقر الضجيج تركت جسدها المتعب ينزلق على مهل في ركن جانبي لأرضية المشفى، تأوهات خافتة أطلقتها مواساة لعنقها المتشنج، فركت عينيها تبحث عن رؤية صافية لساعة معصمها لترى أنها قد تخطت العاشرة والنصف مساءً، أكثر من خمسة عشر ساعة عمل متواصل، ركض متواصل، محاولات غير منتهية من السيطرة على الأعصاب حتى لا تنفجر تحت كل هذا الضغط الكبير، والآن وقد هدأ الوضع حان موعد الخيبات لتتوالى وقد ذهبت مخططات أسبوع كامل أدراج الرياح، كل استعداداتها لليلة استثنائية طواها القدر..

محاولة اتصال جديدة أعقبت عن ذات الإجابة، هذا الهاتف خارج نطاق التغطية، زفرت بضيق ورأسها يعود إلى الخلف، وكأنما ينقصها قلق مضاعف، هاتفته عصرًا لتخبره عن طبيعة



الوضع ومدى تعسر مجيئها باكرًا، في البداية استقبل حديثها في صمت ثم قبول مقتضب ومنذ حينها تعجزعن الوصول إليه..

في هذه الليلة؛ هي أسوأ زوجة في العالم.

- دهب شكلك تعبان قوي، أنتِ كويسة؟..

- عزيزهايقتلني..

أقرت بها من خلف أجفانها الشبه مغلقة، ونصف ابتسامة توازي ذراعها الممدود طالبًا للعون، سحبتها الصديقة لتقف على قدميها من ثم تربت فوق كتفها بتعاطف مازح:

- تصدقي صعبتي علي، خلاص روحي له..

- أروح إزاي بس ما سمعتيش كلام دكتورنصر..

- يا ستي هاخد مكانك ولوحد اتكلم مالكيش دعوة أنا قدها..

- نيمو..



- هااا..

- أنتِ أجدع صاحبة في الدنيا..

وعقب القبلة والضمة وألف شكر انطلقت تغادر المشفى وفي رأسها تغزل ديباجات الاعتذار وتعويض مختصر أفضل من لا شيء، لكن الحقيقة أن"عزيز" كان لديه رأي آخر!..

هذا ما أيقنته حين دلفت من باب بيتها و أنغام شعبية عتيقة تطربه كانت تستقبلها بصخب مع وقفته داخل مئزره المفتوح فوق سروال بيتي فقط وترحيب خاص استقبلها فيه..

"يا غزال الدرب الأحمر نتفاهم بالهدواة"

"ولاا الدرب الأحمر ده فرع من الشقاوة"

استقبلت هيئته وترحيبه بضحكة عالية أطلقتها بينما تنزع عنها حذائها، اقترب منها بخصر متراقص وفرقعة أصابع توازي اللحن الراقص في تناقض يوازي كلماته، جاذبًا كفها حتى



تشاركه وصلته قسرًا بينما يعلو اندماجه وفرقعة أصابعه مع المقطع الذي يحب..

تخلصت من حجابها قبل أن يتمايل خصرها بين ذراعيه ملبيًا نداء اللحظة وضحكاتها الصاخبة تغطي على صوت هذا المطرب مجهول الهوية والشاهد على أشد لحظاتهم حميمية..

عقدت ذراعيها حول عنقه ليشد على ضمتها بالتفاف ذراعيه حول خصرها، استكانت رأسها للحظات فوق كتفه واكتفت بتمايله الخفيف، كانت ترغب في مفاجئته بذكرى زواجهما مع حفل بسيط تخطط وتحضرله منذ أسبوع، أرادت تجديد روح الحياة الراكدة بينهما بعيدًا عن الروتين المعتاد، لكن هو من قام بكل هذا نيابةً عنها بقالب كعك وسلسال من الفضة تدلت منه حروف اسمه، ثبته حول معصمها هامسًا بفيض عاطفة:

- كل سنة وأنتِ في قلبي..



ظلت تنظر له طويلًا ثم أحاطت وجهه بكفيها، تهديه قبلة عشق خالصة من امرأة لزوجها، عادت تقابل عينيه، تتبسم لهما في ألق:

- كل سنة و إنتَ حبيبي..

تردف بصدق قلبها وحيرته:

- هحبك أكتر من كده إيه؟..

ارتكن بجبهته إلى جبهتها وعبث الابتسامة لها وحدها:

- أنا أقولك..

هربت من بين ذراعيه و أنفها يتشمم ملابسها بقرف:

- زي ما إنتَ هاخد شاور و راجعالك..

هرولت إلى دورة المياه ، حمام دافيء تم سريعًا مع غسول معطر للجسد، أوقفت تقاطر المياه بلف مئزرها القطني حول جسدها، قبل أن تدير المزلاج تذكرت أمرًا هامًا كانت قد نسيته



في خضم أحداث اليوم الطويل، عادت أدراجها حيث كومة الملابس المتسخة، عبثت بجيب سترتها المخلوعة قبل قليل، أخرجت منها يدها وبها زجاجة صغيرة تحتوي على سائل أصفر، أخبرتها"سميحة" الممرضة أنها تركيبة مفعولها كالسحر لشيخ قريتهم، يصنعها بنفسه من خيرات الطبيعة ويقرأ عليها بعضا من الآيات القرآنية، حتى أن زوجة أخيها رزقت بتوأم بعد عشر سنوات من الانتظار، كل ما عليها هو أن تسقيها لزوجها قبل أن يقربها بنصف ساعة..

تحركت خطواتها باتجاه المطبخ، حضرت كوبين، أفرغت فيهما بعض من عصير المانجو البارد، وفي تردد أفرغت محتوى الزجاجة داخل خاصته ومزجته جيدًا، نفس طويل سحبته قبل أن تغادر المطبخ وتتحرك باتجاه حجرة النوم، قابلتها ابتسامته الجذابة وهو يدعوها كي تجاوره، فوق خوان السرير تركت الاثنان وقربت إليه خاصته، جاورته تدفن حالها بين ذراعيه بحديث يلهيها عما تفكر فيه:



- خفت لتكون زعلان مني..

لن يخبرها أن مخططاتها لمفاجأته كانت من السذاجة الكافية ليكشف أمرها من البداية، حين هاتفته عصر اليوم لتخبره بصوت حزين عن سوء الوضع وأنها تجهل موعد عودتها شعر بخيبتها فأراد أن يعوضها بطريقته..

عبث بخصلاتها الرطبة، تشمم عبيرها وشفتيه تلثم أعلى الجبين:

- ماقدرش أزعل منك..

كانت حروفه تشبه طيف بعيد يتر اقص من بين عتمة أفكارها، ماذا لو كان هذا العقار يحمل ضررًا؟.. رغم تأكيد"سميحة" أنها وصفات مجربة عشرات المرات إلا إن عقلها لا يتوقف عن النبض المؤلم، قد تتحمل فكرة تعطشها للأمومة لكن لن تتحمل أن يصيب"عزيز" أذى!..



ولأجل هذه الفكرة الأخيرة كانت حركتها سريعة كفاية لتوقف يده قبل أن يصل بحافة الكوب إلى فمه:

- استنى!..

فضحها رعبها واختناق حروفها:

- سيب دي وخد التانية..

تحرك بصره بين أصابعها التي تحفر ساعده في قوة منع وكوب العصير بشك غلبه اليقين بهرب بصرها عن لقياه:

- في إيه يا دهب..

ولا مناص من عينيه المراقبة لكل خلجاتها، أقرت بالحقيقة التامة عبر أحرف مبعثرة، مرتجفة كحال قلبها حتى قاطعها بصياح مستنكر:

- أكيد اتجننتي!..



نفضتها زعقته، أرعبها توحش نظرته التي تحولت للنقيض خلال ثوانٍ، أبعدت بصرها عن مرماه، تسمع تقريعه دون أن تراه:

- هي وصلت لوصفات سميحة وشغل التخاريف؟..

لم ينتظر إجابة يعرف أنها لا تملكها، عاد يلقي بظهره للفراش، يتخلل شعره بأصابعه في غضب، يتذكر الصولات والجولات التي خاضها و إياها على مدار خمس سنوات، عدد الفحوصات التي خضعا لها، حالتها السيئة مع كل شهر تخيب فيه الآمال، تحمل وساير حتى مل و تعب، بعدها فرض أمرًا خارج طاولة التفاوض، لن يخضعا لزيارة طبيب بعد اليوم، لا حديث أكثر عن هوس الولد، سيكون حينما يريد الله، وهكذا قضي الأمر وسار الاتفاق.. ليتفاجىء بها الليلة تحيك أمورًا جديدة من وراء ظهره!..

تبرر ضعفها بصوت خافت:



- دي مجرد تركيبة أعشاب، يعني كلها حاجات طبيعية..

زاد فوق آثامها بفهمه لمخاوفها وتأنيبه المبطن:

- ولما هي مضمونة وسرها باتع ماسبتنيش أشربها ليه، خوفتي عليّ ليه؟..

- ماعرفش يا عزيز ماعرفش!..

قالتها بصوت متهدج حاد..

يقسم أنه لا يصدق أن التي أمامه هي زوجته، الطبيبة التي يسألها الجميع عن علته فتكون له الناصح والراشد، تنجح مع الجميع وتفشل مع حالها، لكن لن يسمح لها هذه المرة ولن يطاوع انجراف تيارها ولو اضطر أن يقسو عليها.. كما الآن:

- احنا كان بيننا اتفاق يا دهب و أنتِ أخليتي به، يبقى ماتزعليش من العو اقب..



قال هذا ويده تزيح الشرشف لينهض بعنف، يزيح قربها وينتهج جفاء البعد والقسوة، أمسكت بيده قبل ابتعاده، تكبله بكلا كفيها، تمنع ذهابه، ترفع له بصرها، ترجوه من موضعها أن يفهم ما تمر به، أن يشعر بهزائم أمومتها فوق أرضها القاحلة:

- أنا نفسي أكون أم يا عزيز..

وتردف بغصة ودمعة:

- هتعاقبني عشان نفسي أكون أم؟..

ومع رعشة الانكسار بصوتها وقلة حيلتها تسقط كل النوايا، تنتحر القسوة وملعون الجفاء حتى الموت..

ظل يطالعها للحظات قبل أن يحرك يده الحرة، تناول كوب العصير وتحت ناظريها تجرع ما فيه حتى آخر قطرة.



قصص لونها الفرح..



وأخرى توجها الأمل..

هذه القصة تسرب إليها الألم..

فبطلتها خلعت عنها رداء البطولة وقررت الركون إلى الهوامش، تلك المكانة تليق بها أكثر، تليق بذبول وجوهها وعينيها المنطفئة، ربطة شعرها المتهدلة وثيابها الفضفاضة بنصفيها، تليق بروحها الخامدة ككل شيء فيها..

عشرة أيام مرت، لا تعلم كيف، لكنها مازالت تشعر بالحياة من حولها، إذا هي مازالت حية، وما تعاصره هو حياتها التي اختارتها، لا لم تختارها، هي اختارت حياة أخرى غير هذه الاشبه بكابوس لا تتبين ملامحه..

جالسة فوق الأريكة، تطالع ما حولها بعين فارغة بينما تطفو الأسئلة في رأسها..

كيف تتحول الجنة إلى جحيم؟..



أليس هذا البيت نفسه الذي افتتنت فيه وأخذ من فرحتها نصيب وهي تدلف إليه عروسًا، كيف صار مكانًا خانقًا يقبض روحها؟..

لماذا عليها أن تتصرف بعقلانية في أمر يفوق قدرة احتمالها بكثير؟..

لماذا عليها أن تكتم صياحها فين حين أنها تتوجع بالفعل!..

ليلة الأمس استقبلت زيارة أهلها، طمست كل حزنها، رسمت فوق شفتيها ابتسامة كاذبة وسايرت شقيقتيها في مزاحهم، استقبلهم معها بواجهته القديمة الخادعة وكأن بينهما إتفاق مسبق، زيارة تقليدية سريعة يطمأن فيها الأهل على ابنتهم، وهي طمأنتهم كما يجب أن يكون، عند رحيلهم ظلت تر اقبهم من خلف النافذة، خلعت عنها ثوبها المزيف وانهارت باكية، اللعنة على كل تلك القيود التي تغلغل يديها مرة وقلبها ألف مرة..



عقلها لا يرحمها، لا يتوقف عن تفنيد الأمور ولا يصل إلى منطقة استيعاب، لماذا يريد مداواة شخصا هو السبب في أذيته؟ ولماذا يرغب في إيذائها بزجها داخل تلك الصورة الموحشة؟..

تراه طيفًا يحوم من حولها، شبحًا أسود ما يلبث أن يظهر أمامها حتى يختفي داخل غرفة مكتبه، كثيرًا ما تسمعه يحادث أحدهم، عرفت فيما بعد أنها تخص العمل، الكثير من العمل، تراه أشبه بآلة لا تتوقف تروسها عن الدوران، لمرة واحدة كل نهار يدق جرس الباب، يحمل وجبة الطعام السريعة ويغلقه، يتركها فوق المائدة دون حديث، لا تمسها ومع ذلك لم يتوقف عن استقبال المزيد من الطعام، لا تعلم متى يأكل ولا متى ينام أو يمارس روتين حياته كأي إنسان، لم يغادر البيت ولا لمرة كحالها، أحيانا يقف فوق رأسها، تظن أن لديه ما يقوله، لكنه لا يقول أي شيء، فقط يتلاشى ويبتعد في صمت.



وقف بملامحه المصمته، ينظر إلى رأسها المحني وبصرها الزائغ في كل مكان إلاه، بين يديه كوب قهوة يقبض عليه بقوة راحته، تبدو وقفته متحفزة من الخارج، كان في حالة تقييم لوضعها المزري الذي وصلت إليه، راقب طاولة الطعام وجد عليها وجبة الغذاء كما هي، كحال كل يوم لم تمس، لا يصل جوفها غير المشروبات الدافئة التي تعدها لنفسها كل حين مهدأه بها معدتها المتشنجة، تجلس هنا مرتشفة إياها بهدوء ينافس الموتى ثم تختفي بغرفتها، طال بقاءها الليلة، منذ عصر اليوم وهي على وضعها لم يتغير، تجعد جبينه لرؤية رأسها يترنح ببطء، بعد تردد خرج سؤاله الجاف، المتصلب كحال صاحبه:

- أنتِ كويسة؟..

رفعت له رأسًا ثقيلًا، تطالعه بلا تعبير، تجيب سؤاله الغير منطقي بنبرة بحت حروفها وبهتت:



- زي اللي كان في حلم وصحي على كابوس..

سحب نفسًا طويلًا قبل أن يتحرك إلى المقعد القريب منها ويرتكن بجسده إلى متكئه، ينطق كاسرًا بذلك الصمت الجاف القائم بينهما:

- تمام، كويس إنك صحيتي..

أخذت تدقق فيه النظر بأجفان متعبة، تلك الواجهة الباردة التي يتخذها لا توازي تلك المشتعلة التي شهدتها ليلة الزفاف، وكلاهما مختلف عن الثالث الذي لبست خاتمة وقبلت به زوجًا..

ترى أيًا منهم يحمل حقيقته؟!..

- مين الراجل ده؟..

سألت، تريد إجابات واضحة، تفتش عن الحقيقة المستترة خلف الكثير من الجنون، لكن لا صوت غير الصمت، في إصرار عاودت السؤال بهيكل جديد:



- عمل إيه عشان يكون ده عقابه!..

لا إجابات أيضًا، لن تيأس رغم اهتزاز حروفها وعينها تعانق جمود نظرته:

- مفيش حاجة في الدنيا تديك الحق إنك تحبس إنسان وتمارس عليه أبشع أنواع العذاب، ده تفكير سادي ومجنون..

لا ردة فعل نهائيًا، قسماته كأنما قدت من صخر، هذه المرة صرخت بقوة أعلى:

- أنا مش هأقدر أنفذ اللي طلبته، ولا أكون شريك في حاجة زي دي أبدًا..

قذفت بالكلمات المنفعلة في وجهه، ظلت تطالعه في تصميم وتحد وانفاسها تلهث، لم يتكلم أيضًا، هذا الرجل ملعون بالصمت!

عقب لحظات تحرك، اختفى من أمامها، ظنته رفض الحديث فبتره لكن سرعان ما عاد وما بين يديه تبدل إلى دفتر صغير



وقلم، تركهم فوق المنضدة القريبة منها متكلمًا بنبرة جامدة حملت برودة العالم:

- دي خدمة هاتقومي بيها مقابل مبلغ مادي، اكتبي الرقم اللي يرضيكِ في دفتر الشيكات اللي قدامك وهيتفتح لك بيه حساب باسمك..

الوجه الأسمر منحوت التقاسيم، الفك متصلب بقساوة ناسبت الشفتين واللحية الشبه نامية، الحاجبان كانا يلتقيان بتقطيبة أبدية لتغرق تحتهما العينين الـ.. لم تستطع قراءتهم، في الثوان التي أنصتت فيها لكلماته لم تستطيع رؤية شيء تعرفه فيهما!..

أنهى كلماته وساد الصمت، كل ما فيها اهتز، قلبها ولسانها، ومن قبلهم عينيها فتدحرجت الدمعات الثقيلة على مهل تحت ناظريه، تهمس في هذيان حادثت به نفسها بقول مسموع:



- كان عندها حق تيتة، كان عندها حق لما قالت خلي بالك دول مش شبهنا، بس أنا كنت غبية ماشفتش..

تردف بتحشرج ويقظة:

- طاوعت قلبي وماشفتش!..

يوقف رثاءها لذاتها بصوت حازم واضعًا كفيه داخل جيوبه:

- اسمعي..

سروال رمادي كلاسيكي وكنزة سوداء ذات قبة عالية حجبت كل الرقبة، طلة قاتمة تليق بالسيد الصامت، تحاول اكتشافه، فك طلاسمه العصية، لكنها لا تصل لأبعد مما ترى وتسمع:

- أنتِ هنا مش مجبرة أو سجينة، حياتك هتفضل ماشية زي ما هي، كل المطلوب منك تتابعي وضعه الصحي وتتعاملي معاه..

تشرب عقلها كلماته قبل أن تنهض، لا يكاد يسمع حفيف خطواتها لكنها تقترب، تقف أمامه، تراقب وجهه عن كثب،



تتذكر ملمس جلده الذائب تحت أناملها، آثار الحروق المنتشرة فوق جذعه، كتفيه وحتى الرقبة التي يخفيها أسفل القبة العالية، تتذكر محاولاته في قربها ومعاندة جسده، شعرت به يتألم ويقاوم، لن تخطئ في ارتجافة انفاسه ولمساته ليلتها، ولأجل هذا كله يرق قلبها، ربما ذاك الرجل وراء ندوبه، لكن لماذا يطلب منها مداواة عدوه! كيف له أن يسجنه في بيته، أين القانون من هذا كله؟.. تفتش عن إجابة منطقية فلا تجد أية منطقية في كل ما يحاوطها، رفعت كفيها ترغب في محاوطة وجهه فوجدته ينأى به في الحال، تركت يديها الخائبتين معلقتان في الهواء من حوله دون مساس وأخذت تستجديه بربه أن يريح قلبها:

- الراجل ده أذاك صح؟!..



ربما لو قال نعم ستتقبل فكرة أن يكون مظلومًا يثأر لحقه وإن كان بمسلك غير شرعي على أن يكون ظالمًا، فاسدًا، يعيث في أرواح البشر شرور نفسه..

لكنها لم تحصل على شيء جديد، صمت مجددًا، وجدت حالها ترجوه بعبرات زادت غزارتها:

- اتكلم، قول أي حاجة، قول مستحيل أكون اخترت غلط!..

رفعت كفها فوق فمها، تكبح علو شهقاتها، من خلف أجفانها المتعانقة ببكاء وصلها حفيف خطاه المبتعدة ليصيبها في مقتل بتجاهله لحالتها وما آلت إليه تحت ناظريه بقول جديد لم يختلف عما سبق بل تضاعف بعدًا وجفاء:

- فاهم صعوبة الوضع عليكِ، خدي الوقت اللي يلزمك علشان تستوعبيه..

- ليه أنا؟..



جهرت بها في محاولة أخيرة كسهم نفذ إلى ظهره موقفًا خطواته، لم تستطع منع حالها رغم صعوبة الإجابة التي في انتظارها، كانت تبحث عن مركز تقف فيه فتعرف وضعها، ربما لو أخبرها أنه يحتاجها لفكرت بصورة مغايرة، ربما لو فتح لها قلبه وفهمت علته لاستطاعت بالفعل، لكن انتظارها طال ولم يعد له معنى بعد اختفاءه من أمام عينيها..

للمرة التي تعجز عن عدها خيب آمالها..

واختار الصمت.



(4)

إنسانًا بلا شغف..

يعني جسدًا أجوفًا تنخره رياح الزمن، روحًا خريفيةً لم يزرْها الربيع يومًا..

وهي؛ شغفها بالمسرح يفجر بجسدها الحمم، تذرف الدمعات بصدق، تطعن قلبها الخائن بخنجرٍ مسمومٍ، تسقط وتمثل الموت ببراعة، يخيم الصمت لدرجة يظن فيها الرائي أنها فارقت الحياة بالفعل حتى يصيح مخرج العرض التجريبي:

- برافو يا ندى..

تنهض من رقودها فوق خشبة المسرح، تعدل من وضع خصلاتها المبعثرة بينما تصلها ذات النبرة الأجشة بإرداف:

- يلا فركش النهاردة يا شباب..



يتحرك الجمع مع اتفاق مسبق بالحضور المبكر في الغد، أمامهم الكثير من الإعداد قبل موعد العرض النهائي الذي في انتظارهم بالمركز الثقافي، مجموعة من الشباب مولعين بالشغف، هذا يبدع في الإخراج، آخر يجيد فن الكتابة وآخرين ميلهم مع التمثيل، يلتقون معًا فوق خشبة المسرح لأداء عرض مسرحي من صنعهم يفجر بعروقهم النبض..

اجتازت بوابة المعهد وذراعها متعلقٌ بذراع صديقتها الأقرب والتي راحت تلكزها في خفة، تسألها بخبث النوايا في لهجة مستنكرة:

- وأنتِ وبودي هتتعشوا بس!..

عبرت وإياها الطريق، لوحت بذراعها في إشارة لعربة الأجرة حتى تتوقف، صعدتا وجلستا جنبًا إلى جنب ثم أخذت تستأنف "ندى" الحديث حيث توقف:

- لا طبعًا هانروح سينما كمان..



اصطنعت الصديقة التفكير قبل أن تميل إلى أذنها:

- يعني مش هتروحوا شقتكم مثلًا تتأكدوا إن النقاش شايف شغله، السباك مش سايب حاجة كده ولا كده..

طالعتها "ندى" بطرف بصرها في ازدراء ورأسها يهتز علامة القرف لأفكارها المنحلة:

- يا بنتي أنا وبودي حبنا حب عذري، مالناش في قلة الأدب دي..

رفرفت الصديقة بأهدابها وهمسها المقلد لنبرتها يخفت أكثر حتى لا يصل أحد الركاب:

- أيوه صح بأمارة عليه بوسة تدوخ يا لبنى..

قرصتها في فخذها و ابتسامتها تتسع دون إرادة.

في المساء وقفت تتأنق أمام مرآتها، سروال من الجينز الفاتح وكنزة خريفية تلائمه، صففت خصلاتها القصيرة و اكتفت بقليل من كحل العين ومرطب وردي لشفتيها، بعثت برسالة



مستعجلة إلى شقيقتها الغائبة عنهم تسأل فيها عن حالها ثم تناولت حقيبة هدايا بسبابتها وغادرت الغرفة، تلاقت مع أبيها الجالس فوق السفرة ينهي غذاءه المتأخر بكوب من الشاي، عاجلها أولًا:

- على فين العزم إن شاء الله؟..

ابتسمت في اتساع:

- عيد ميلاد بودي هنحتفل وكده..

رمقها أبوها بنصف عين:

- وكده إزاي يعني؟..

تأففت في استعجال لأمرها وتعطيله المقصود:

- هانتعشى بره يا بابا وندخل سينما،وراجعين على طول، أنا قايلة لك من إمبارح بلاش حركاتك دي..

حدثها بجدية:



- مش نخف صرمحة شوية يا ندى؟..

- وهي بتتصرمح مع حد غريب يا بابا، ده بودي!..

كانت هذه"رنا" جاءت مدافعة عن موقف شقيقتها في بسالة رفع لها الأب المجهد راياته:

- أنا عارف مش هاخلص معاكم الليلة، اتفضلي علشان تخلصوا بدري وترجعي..

تحركت تغادرهم وتجيب في طاعة:

- حاضر..

أوقفها بسؤال روتيني:

- معاكي فلوس؟..

- أيوة..

- طيب هاتي 002 جنيه..

ضحكت وأخبرته قبل أن تقطع وصالهم:



- هجيب لك حاجة حلوة معايا..

هبطت الدرجات الفاصلة بين الدورين في قفزات متتالية، عقب عدة نقرات متناغمة فُتح الباب وشهقتها توازي أول نظرة منها وقعت فوق جذعه المكشوف إلا من منشفة عريضة التفت حول خصره و ابتسامته العريضة تداعبها جوار حاجبيه:

- مواعيدك مظبوطة باللملي يا قمر..

"أدخل استر نفسك يا تيس الزرايب"

انكمشت ملامح"عبدالرحمن" مع كلمات أبيه بينما كتمت"ندى" ضحكتها، تغمض عينيها وتسير إلى الداخل يسبقها ذراعاها الممدودان أمامها في استدلال أعمى، قاطع خطواتها بعبث خفي، يدير دفتها إليه ويده تسحب ذراعها بهمس قريب:

- تعالي اختاري معايا حاجة ألبسها..



دفعته عنها وعينها النصف مغمضة تلتقط جلسة عمها وزوجته في الجوار، تتلبسها روح المسكنة في خداع يصدقه العم على الدوام:

- إنتَ فين يا عمو؛ ابنك المحترم بيغازلني!..

خاطب العم ولده عن بعد:

- احترم نفسك شوية وبطل تكسف البنت..

لاحقها هتافه بلمحة ساخرة محدثًا أبيه قبل أن يختفي داخل غرفته:

- إنتَ طيب قوي ياحاج..

جالست عمها وزوجته قليلًا ثم استأذنت منهما، عبرت إطار الشرفة الكبيرة، طرقت فوق خشبها منبهة بحضورها المنكب فوق حاسبه وبعثرة أوراقه من خلف الطاولة المستديرة، ما إن رفع رأسه متبسمًا في محياه حتى اقتربت تقدم له ما بين يديها بابتسامة أخرى جذابة:



- كل سنة و إنتَ طيب..

تناول"عبدالله" الهدية في فضول لم يطلْ حيث أفصحت له عن محتواها قبل أن يكشفه بنفسه:

- آخر عدد نزل لرفعت إسماعيل، حبيبك..

أردفت عقب ذلك بنحنحة مصطنعة:

- وفي كمان ساعة دفعت فيها دم قلبي..

اتسعت ابتسامته ويده تستخرج الهدية، أمسك بالكتاب الورقي ورفعه أمام وجهه، شمله في نظرة مبتهجة عادت به إلى أيام الصبا قبل أن يديره ناحيتها قائلًا بصدق:

- من زمان ماجتليش هدية حلوة كده..

استدرك أمر الساعة بضحكة وقول آخر في الحال:

- وطبعًا ألف شكر على الساعة، كلفتي نفسك يابنتي..



سحبت المقعد المقابل، تجالسه بأريحية وتخبره في مزاح لا يفارق حروفها:

- هقول إيه؛ ربنا يخليني ليكم على طول مظبطاكم..

ثم عاجلته بسؤال جاد:

- ما تيجي تخرج معانا؟..

رفضت حواسه العائدة إلى العمل قبل كلماته:

- خليها مرة تانية، ورايا شغل كتير لازم يخلص..

عاد يستأنف تحرير النص بنقرات متتابعة فوق لوحة المفاتيح، مرت دقائق صمت وانتظار خضع الجالس خلالها لمجهر مراقبتها، تتابع قسماته، نظراته، تبحث في داخله عن تجاوز لعطب كان شاهدًا عليه الجميع، حين لم تستشفِ شيئًا مما ترى مالت بجذعها، تتطلع إلى وجهه عن كثب، تسأله في تردد:

- عبدالله، إنتَ كويس صح؟..



رفع يديه عن لوحة المفاتيح، يطالعها في عجب وينطق في استهجان:

- حصل إيه!..

عادت بظهرها إلى الخلف وكتفاها يتحركان بلا معنى:

- ولا حاجة؛ بطمن عليك بس..

فطن لمقصدها، أفتر ثغره عن تبسمٍ وقولٍ خافت أعقب ميله الطفيف فوق الطاولة الفاصلة بينهما:

- أنا كويس جدًا بفضل الله..

قال هذا بخفوت عارض تغضن قسماته وصياحه التالي بينما ينهض بكف ضربت أعلى الطاولة في قوة أفزعت الجالسة:

- تصدق بالله إنك عيل رخم!..



وقفت الجالسة تتطلع إلى القادم في جهلٍ حائر وهو يتقدم إليهما، يضبط من ياقة القميص مستعرضًا هيأته، محادثًا توأمه:

- بذمتك مش حلو عليّ..

- قمر يا حبيبي..

هتفت"ندى" بجذل وشيعه الجالس بنظرة مشتعلة:

- هنستهبل؛ القميص جديد جايبه لمشوار مهم..

- حبيبي يا عُبد هو أنا و إنتَ إيه؟..

رد ساخطًا:

- اتنين عادي..

سحب الواقف ذراع مخطوبته الضاحكة بدعم ناويًا المغادرة غامزًا شقيقه المغتاظ:

- هتحرج أخوك قدام الجماعة..



- إنتَ بتحس أصلًا..

- ما خلاص يا عم هتلاقيه مكانه مغسول ومكوي ما تقرفناش..

- غورمن قدامي طيب..

انتهت به المجادلة السريعة زافرًا عقب رحيل الشقيق، نهض قاصدًا المطبخ، أعد لنفسه قدحًا كبيرًا من الشاي عائدًا إلى سيرته الأولى، يضيء الشاشة المنطفئة محاولًا استجماع الكلمات الهاربة، ما لبث أن يستعيد شتات أفكاره لصياغة مقاله الصحفي الجديد حتى ظهرت أمه، تتبختر في مشيتها، تجالسه، يقع بصرها فوق عدة صورفوتوغرافية لمبنى متهدم، جعدت جبينها وأناملها تلتقط واحدة، ظهرت فيها آثارٌ للدماء وجسدٌ بشريٌ محشورٌ بين الصخور الكبيرة، استنفرت نفسها من المنظرالبشع وراحت تتمتم:

- لا حول ولا قوة الا بالله، إيه يا بني ده!..



أمسك بالصورة التي أثارت اللوع بنفسها، هام فوقها بصره لثوانٍ، اعتصر قلبه العجز.. الذنب.. المقت.. عاد بعدها لأمه بقولٍ هادىءٍ في ظاهره، ثائرًا في باطنه:

- ده مقاول ماعندوش ضمير وصاحب عمارة مرتشي، ودي النتيجة..

صمت هنيهةً تابع بعدها تفاصيل الحادث والجزء المؤلم فيها:

- مواسير الصرف ضاربة بقالها شهور في أساسات العمارة وماحدش مهتم، ليلة امبارح فجأة بدون إنذاروقعت على دماغ اللي فيها، اللي في الصورة دي شابة أربعة وعشرين سنة خرجوا جثتها من تحت الأنقاض مع أسرة من خمس أفراد، أسرة كاملة ماتت في لحظة..

- بس يا بني، كفاية الله يرضى عنك وجعت قلبي..

لملم بقية الصور المبعثرة من أمامها وتركهم مصفوفين على الجانب الآخر محدثا إياها بلطف محياه الباسم:



- بلاش تشوفي بقية الصور، قلبك خفيف أنتِ يا فوز..

حين انشغل عنها بعمله وشاع السكون لدقائق تمتمت تقطعه في تردد ودود:

- عبودة..

- إيه يا حبيبتي..

أجابها دون النظر فتابعت:

- فاكر عمك سمير؟ يبقى قريب عفاف مرات خالك، الراجل الأسمراني الطويل الأقرع ده..

أدار لها وجهًا مفكرًا، يعتصر الذاكرة بلا فائدة:

- مش فاكره والله يا ماما بس ماله يعني؟..

رمقته بجذل قبل أن تهمس له عن ذات قرب:

- عنده بنتين بس إيه يا عبودة..

- ماما..



- بص الصراحة الكبيرة قمحاوية وشبه أبوها شوية، الصغيرة أحلى، بيضاء وزي القمر..

- يا أمي!..

- أنا بحكي لك ليه؛ يخيبني، خد شوف بنفسك أنا خليت عفاف تبعتهملي على الله واحدة منهم تعجبك..

طفقت تضغط فوق أزرار هاتفها العتيق فأضاءت شاشته الصغيرة على وجه إحدى الفتيات، قربت الهاتف من وجهه لتجده حاجبًا النظر بواسطة كفه، اغتاظت لفعلته وراحت تأمره بحدة:

- يا بني بص مش هتخسر حاجة..

- مش هبص اقفلي التليفون..

- يا واد ماتبقاش قفل زي أبوك..



أبعد كفه عن عينيه ليضم الهاتف جانبًا، يبعده عن مرماه ويقابلها بالقول الجاد:

- مش هبص و أنا مش بفكر في الموضوع دلوقتي ولا عندي نية لأي خطوة..

ضربت كفيها فوق بعضهما، تستعرض غضبها الوليد:

- ليه إن شاء الله، فهمني؛ كلية وجيش وخلصت، شغل وعندك وظيفتك، شقة وموجودة، ناقصك إيه بقى عشان تفكر؟..

لم تنتظر منه ردًا راحت تردف في الحال بنبرة شابها الحنق:

- ولا إنتَ لسة بتفكر في اللي ما تتسمى..

وضع وجهه بين كفيه قبل أن يمسح عنه زافرًا، عائدًا إليها بالقول اللين:



- ممكن تبطلي تجيبي سيرتها وتدخليها في أي حوار بيننا؟.. ولا يا ستي مش بفكر في حد، أنا بس مش حابب الطريقة دي، كل يوم والتاني جايبة لي صورة لواحدة شكل ويلا شوف..

تداهنه بالقول والكف الماسح عن كتفه:

- وفيها إيه يا بني بس طالما رايدين الحلال..

تحتد حروفه رغمًا عنه:

- مش عايز يا أمي، مش عايز!..

- أستغفر الله العظيم يارب، ولحد أمتى يعني؟..

أنهى الحوار الغير منتهي معها باستدارة ناحية جهازه واستئناف عمله:

- سيبيها للنصيب يا أم بكر..

نهضت تغادره بدورها، ملقية كلماتها الحانقة من فوق كتفها:

- مش بقولك طالع براوي زي أبوك..



أفترت شفاهه عن ابتسامة صغيرة لاحقها بها في مشاغبة:

- كل شوية تغلطي في أبويا الراجل الطيب و أنا مش عايز أخرب عليكِ على فكرة..

اضطر للعمل حتى مطلع الفجر لينهي ما بين يديه، في الصباح نال الثناء من رئيسه، منحه المو افقة لطباعة المقال عن البرج المنهار فوق رؤوس ساكنيه، أصابع الإتهام طالت الجميع من أصحاب الضمائر الغائبة والأيدي المقصرة، من يدري، ربما تسطع شمس الحقيقة ذات نهارويتال كل ذي حقٍ حقه..

لاحقًا، وقتما انتهى من العمل غادر مبنى الجريدة قاصدًا عنوانًا آخرًا غير مسكنه، حي شعبي يملؤه صخب الأولاد والباعة، بالوعة كبيرة تطفح بمائها القذر حالت بينه والمبنى المقصود، تجاوزها بأعجوبة نافضًا عن حذائه ما علق فيه من قاذورات، صعد الدرج المهشم في بعضه، أخذ شهيق طويل



مقاومًا روائح الطعام النافذة إثر ضيق المكان، عند ثالث بسطة للسلم التف طارقًا أول باب عن يمينه..

الحاج "سلامة" رجل خمسيني اشتد به كرب المرض والفقر، يأتي إليه مبعوثًا متطوعًا بداية كل شهر تحت وصاية إمام الجامع حاملًا له الدواء ومبلغ مالي معونة له من أهل الخير..

استقبلته زوجة الرجل بترحاب شديد، ترى البِشر في طلته كقطرة غيث تبتل بها أرضهم القاحلة، تبعها حيث يرقد الرجل ببصرٍ لا يرفع من أرضه حافظًا حرمة البيت لأهلها، استقبال الرجل ليس بأقل حفاوة، يترك له"عبدالله" ما أحضره جانبًا دون قول يثقل عليه بالحرج ثم يأخذه بطيب الحديث والسؤال عن الحال:

- عامل إيه يا عم سلامة؟..

يجيبه الرجل بأنفاس متعثرة ورضا بكل أقداره المكتوبة:

- نحمد الله على كل حال يا بني..



داءٌ خبيثٌ ينهش رئتي الرجل، حتى صار جسده منهكًا يتلقفه فراش المرض، يدعوله بصدق سريرته أن يهون عليه وطأة الألم سائلاًله الرحيم عاجل الشفاء، لحظات وتعود المرأة مقدمة له على استحياء كوبًا من الشاي، يرتشفه على عجالة شاكرًا إياها على كرم الضيافة، عشر دقائق مدة الزيارة، لا تزيد، ينهض بعدها مستأذنًا في الرحيل، كان هذا دأبه طيلة الأشهر الفائتة، لكن اليوم؛ كسر الروتين المحفوظ صوتٌ خافتٌ لم يتبين حروفه جاءه ما إن انتعل حذاءه وحمل حقيبة الحاسوب خاصته هابطًا بضع درجات في خطى سريعة، التف بجذعه بغتةً متتبعًا الصوت إذ بها فتاة تدنو إليه بجذعها، يفصل بينهما درجتين وحسب، اختصرتهم في لهوجة كلمات تراصت خلف بعضها البعض:

- أول كافيه على ناصية الشارع العمومي استناني فيه، مش هتأخر عليك..



- أفندم!..

نطقها باستنكار لم تتنبه له و رأسها يلتف إلى الوراء، تتأكد أنه لا يوجد من يسمعها أو يتنصت عليها، ثم تعود له مكررة كلماتها في جدية أكبر وإصرار مضاعف:

- من فضلك يا أستاذ عبدالله، الموضوع مهم، مسألة حياة أو موت، نص ساعة بس و أفهمك كل حاجة..

ختمت حديثها العجيب وتقهقهرت أقدامها بصعود بينما بقي بصرها معلقًا فيه برجاء أن تجده بانتظارها قبل أن تتركه حائرًا في أمرها وتقطع وصال أعينهما بباب موصد!..



علم أن الأمر لن يمر مرور الكرام..

كما أدرك تمامًا مقدار فعلته، لكن خطأه الذي غفل عنه حين ظن أن باستطاعته احتواء الموقف، كل شيء خرج عن يده حين قررت ترك المنزل، احتشدت جيوش الغضب في صدره، أفضى



بمكنون أمره إلى "عزيز" ثم أخذ بنصيحته وتركها تأخذ وقتها في تقبل الأمر، مريوم و اثنان، في الثالث قرر التدخل وحل الوضع المتأزم، فتركه أطول من هذا لا يعده أمرًا لائقًا، في تمام الثامنة مساءً كان يستقبله ولداه ببيت جدهما، عانق الإثنان معًا، هتفت له "سنا" وذراعاها يشدان على ضمته:

- وحشتني قوي يا بابي..

قبل وجنتها وأخيها معربًا عن إشتياقه لهما حتى جاءت المقاطعة الجافة:

- سنا، عمر، يلا أدخلوا جوه عند ناناه..

حضرت من ورائهما تأمر بوجهٍ متجهمٍ، ولأن الصغيرين يعرفان بتوتر الأجواء بين والديهما أنصعا للأمر في الحال، أحيانًا يحتاج الكبار للحديث حتى تحل المسألة، هما كبيران كفاية ليعرفان هذا لكن الكبار تناسوا في خضم الأحداث أنهما يفعلان عكس ما علموه للصغار..



دعته للدخول بكف أشار ناحية غرفة الجلوس دون حديث، بالداخل قابلها وجهًا لوجه:

- ينفع تسيبي البيت كده..

عقدت ذراعيها في تراخٍ وقولٍ محتد:

- إنتَ يعني فرق معاك ولا حتى رفعت تليفون..

احتدَّ بدوره وإن كان بتحكم في نبرته:

- و أنا كنت قلت لك سيبي بيتك وامشي..

فكت عقدة ذراعيها في صياح غاضب:

- وأما هو كده جاي ليه دلوقتي؟..

ضم قبضتيه إلى جواره، يتحكم في غضبه المتقد ويشتري هدوءًا زائفًا:

- خلينا نتكلم في بيتنا يا نادية..

- لا معلش خلي الكلام قدامي يا بكر..



تدخلت والدتها تقطع الحديث، قابل حضورها المباغت والذي يثقل على نفسه بالكثير بترحاب حمل طابع السخرية:

- أهلًا بحضرتك يا طنط، أنا كويس الحمد لله..

تجاهلت مايرمي إليه وخاضت في صلب الإشكال في حدة جاهزة:

- إنتَ واخد بنات الناس علشان تبهدلها معاك يا بكر؟ ولا نسيت نادية تبقى مين وبنت مين..

جلس "بكر" في المقعد المقابل لها، يستدعي صبر أيوب حتى لا تكبر المشكلة:

- هو أنا لما أحب أعيش بنتك في مستوى أفضل يبقى كده ببهدلها؟ وعارف طبعًا مراتي تبقى مين وبنت مين، بس واضح إن حضرتك نسيتي أنها متجوزة راجل مسئولة منه ومنسوبة ليه..

طالعته المرأة في استعلاء متهكم:



- إيه مستوى أفضل يعني؟ مرتبك زاد له ألفين، ده اللي زيها في العيلة عندها عربية وحساب محترم في البنك..

أجاب في برود سيبيريالي يستدعيه خصيصًا لها:

- والله يا فندم ده أنا وده وضعي اللي بنتك متقبلاه ومتعايشة معاه بقالها عشر سنين..

تبادل وزوجته نظرة نارية قبل أن يعود إلى أمها مستمعًا لبغضها الواضح يتقاطر من بين الكلمات:

- بس يا حبيبي في حاجة اسمها مشاركة، آخد رأي مراتي حبيبتي ونوصل لقرار سوا، مش سويقة هي ولا بنتي بهيمة تجرها وراك مكان ما عايز..

- العفو يا فندم بنتك ست الستات..

قال هذا ونهض عن جلوسه، يقابل زوجته الواقفة متابعة الحوار في صمت، يسألها بوجه بانت فيه إمارات الغضب المكبوت:



- جهزي نفسك و الولاد علشان نمشي..

انتفضت العجوز تصرخ فيه لأجل تجاهله لكل ما قالت، تصيح ببغض العالم:

- بنتي مش هاتروح في مكان، و إنتَ مش هتجبرها على وضع هي مش عايزاه ولا احنا هنسمح لك بده..

لم يرد عليها، صرخ في وجه زوجته:

- مو افقة على كلامها ده! ..

انتفضت مع زعقته، لملمت بعثرتها وشدت من ظهرها تقول في ثبات واهٍ وعناد أحمق:

- ماما بتتكلم في مصلحتي..

- ماشي يا نادية، بس افتكري أنك أنتِ اللي وصلتينا لهنا..

وال"هنا"

أودت بهما لشهر كامل من القطيعة.





يحدث أن تفاجئنا الحياة..

أن تضربنا على حين غرة، عندها نسقط صرعى داخل فجوة زمنية لا ندرك فيها غير أن الوقت يمر، يمر ببطء دون توقف..

كانت تحتاج وقتًا لتفرغ من صدمتها وتعود إلى وعيها بشكل متزن يتيح لها التفكير بشكل سليم، احتاجت أن يهدأ شتاتها النفسي والعقلي معًا لتبدأ رحلة البحث عن حلول حتى تعيد كل قطعة إلى موضعها الصحيح في كيانها المبعثر..

توقف سيل العبرات، لم تعد عيناها تبكي بالرغم من وجعها العميق، جليسة غرفتها طيلة الوقت، تعيد ترتيب وهندمة حياتها بعد أن فاجئتها بدرب آخر غير الذي ظنته وطمعت أن تسير فيه..

تفكر؛ هل تسعى إلى خلاص تعود به إلى حياتها السابقة؟..



هي واثقة أنها إذا أرادت ستفعل، كل ما عليها هو أن تخبر عائلتها، سيأتون ويحملونها عائدين، سوف يتحملون عنها كل المسألة، ستخرج هي من الصورة لن يكون عليها القلق حيال أي أمر، سوف يتكاتفون كعادتهم لتمرر أزمتها وهي ستفعل مهما طال الوقت، في النهاية سيأتي وقت ما تكون فيه"مريم" الجيدة التي مرت بتجربة سيئة ونجحت في تجاوزها..

لكن السؤال الأهم؛ هل هذا البتر هو ما تريده حقًا؟..

هذا ما دأبت على معرفته خلال الأيام الفائتة، حين أخبرها أنها ليست مرغمة على شيء ولا سجينة بيته..

قد تبدو مجرد كلمات مارقة لكن تلك الكلمات منحتها شيئًا من طمأنينة، لم يعاود طلبه منذ حينها ولم يقترب منها بأي شكل من الأشكال..

يومًا بعد يوم وجدت حالها تعتاد البيت، لم تعد ترتعب من فكرة وجودها مع غريبٍ يسكن القبو كما السابق، لعقلها دور



كبيرفي هذا، لا يفتأ أن يذكرها كل حين ماذا يمكن لعجوزأسير خلف بابين موصدين أن يفعل؟..

لن تنكر هيئة الرجل المغلولة منحتها قيدًا سلسل روحها حيث تكمن، احتاجت للوقت حتى تتقبل وتعي الوضع القائم..

تزورها بعض المخاوف حين تكون بمفردها، كل ماتفعله هو المكوث في غرفتها، تتأكد من وضع الباب المغلق كل حين حتى تستمع وقع عودته فتزفرفي اطمئنان، هي لا تخافه، ظنت عكس هذا في البداية لكن اتضح لها لاحقًا أن مابينهما شيئًا آخرًا لا يعني الخوف، بل حائلًا ضخمًا يترك كلًا منها فوق طرف لا يصل إليه الآخر، أن هذا الذي يعد زوجها أقرب لصندوق مغلق بل محكم الإغلاق، كما أن هناك شيئًا من العتب المؤلم تشعربه داخل قلبها لأجله، في الحقيقة داخل قلبها كان يحدث الكثيرمن الأمورالمختلطة، في البداية كان هومن منحه تذكرة القبول، لا تعرف الآن توصيفًا سليمًا أوواضحًا لما يسكنه من شعور، لكن



قلبها مثلها تمامًا، تراه يتحسس دربًا مظلمًا لا يتبين ملامحه ولا يدري إن كان سيجد نورًا يسعده في نهاية النفق..

كان الوصول لقرارٍ واضحٍ أمرًا عصيًا، لم يكن من السهل عليها أن تمزق كل شيء في لحظة، لم يكن الكلام سلسًا كفاية لتخبر أمها التي تهاتفها باستمرار فتجد لسانها يختلق الأكاذيب، أصبحت بارعة في صياغة الكذبات، أكبرها وجود زوجها بقربها بشكل دائم، كانت تبرر بهذا الكثير من الأمور..

لم تستطع مس اسمه بسوء، ولا وضعه في تلك الصورة المخزية مشوهة الملامح أمام الجميع، شيءٌ ما بداخلها كان يحثها على الصبر، التريث وترك أمرها بين يدي القدر، حتمًا ستصل إلى مرفأ ترسو فيه بنفسها الضائعة، سعادة كان أم شقاء سيكون هذا قدرها وحتمًا سترضى..

صباحها اليوم لم يكن مختلفًا كثيرًا عن الأيام الماضية، أخذت حمامًا دافئًا ثم أعدت لنفسها كوبًا من الحليب وشطيرة جبن



لم تشتهِ غير نصفها، راحت تتفقد أحوال البيت في جولة متأخرة، بدأت بالردهة الواسعة، نصفها مرتفع حمل الأرائك وشاشة عرض كبيرة، الجزء الآخر المنخفض يحمل مائدة الطعام ومطبخًا متوسطًا له طابعٌ غربي مكشوف، على بعد خطوات غرفة مكتبه، مرت بين تفاصيلها الداكنة، كل شيءٍ كان قاتمًا كئيبًا رغم الأناقة واللمسات الباهظة، الحديقة الصغيرة لم تكن أفضل حال، جذوعها جافة ملتوية على بعضها البعض في إشارة أن يومًا ما كانت روحًا تنبض ها هنا..

الطابق العلوي حوى غرفتين ومساحة فارغة بينهما تكفي لإعداد جلسة مسائية لأسرة صغيرة سعيدة، لم تستطع الدخول إلى غرفته، وقفت بين إطار الباب تتطلع إليها من البعيد، ذات طراز حديث وحمامٍ خاص، لم تختلف كثيرًا عن بقية البيت، لاحظت أنه لا يدخلها إلا آخر الليل، يعمل طيلة اليوم وينام ساعتين أو ثلاث على الأغلب من كل ليلة..



أنهت جولتها باكتشاف رهيب، هناك طبقة من الأتربة تغطي كل شيء، ذلك الاكتشاف دفع بالدمع ليطفق من بين عينيها، أنقذتها الشقيقة التي اهتز باسمها الهاتف القابع داخل كفها، كفكفت الدمعات كأنما تراها وجلت حنجرتها قبل أن تفتح الخط بينهما بشوق عارم..

تثرثر الشقيقة، تملأ لها الفراغ بثرثرتها، تقص عليها آخر المستجدات مع كل أفراد العائلة، تحكي عن احتفالها الذي أعدته لـ"عبدالرحمن" قبل أيام وكيف اختتمت الليلة بعراك سمعه كل أهل البيت وعنفها أبوها لأجله، تختطف منها ضحكة يائسة قبل أن تشرع في تعنيفها بدورها، ليس من المفترض أن تخلق إشكالية لأجل اختيار نوع السيراميك!..

في المساء تقف خلف نافذة غرفتها تترقب مجيئه، تنظر "مريم" إلى انعكاس صورتها فوق الزجاج، تبدو لأي عين تراها، مجرد



امرأة تنتظر زوجها العائد، صورة طبيعية لا أحد يعرف حقيقة ما تخفي داخلها من أسرار وخيبات..

طرقات خافتة فوق الباب أجفلتها، تحركت بقلب واجف تتأكد أن الباب مغلقٌ، تضغط عليه بثقل جسدها وتسأل في ارتياع غلف حروفها الثلاث:

- مين!..

وصلتها نحنحنة خافتة ثم لفظه السريع لاسمه، الآن تذكرت أنها رأته يعبر البوابة قبل لحظات، تنفست الصعداء ويدها تحرك المزلاج في تثاقل، توارب الباب وترتكز بوجنتها على طرفه، كان هناك يوليها جانبه، يداه داخل جيوب سرواله ويتكلم في ديناميكية:

- مضطرين نروح الفيلا، معزومين على العشاء..

دعوة إلى منزل عائلته، بدا الأمر يستحق التفكير وقد مر شهرٌ كاملٌ لم ترَ خلاله شيئًا خلاف هذه الجدران، أفاقت من

شرودها على تمتمته الجامدة ولا تدري إن كان يأمرها أم رأى في صمتها القبول:

- نص ساعة ونتحرك..

قال هذا وتحرك هابطًا الدرج إلى الأسفل مرة أخرى، من أعلى المائدة رفع أكياسًا بلاستيكة كان عائدًا بها من الخارج تحوي طعامًا معلبًا.. خبزًا.. ماء.. أساسيات حياة لا يستغني عنها كائنٌ من كان، تحرك يفتح الأبواب الموصدة، يسقط ما بين يديه إلى جوار أسيره الملقى أرضًا كخرقة بالية، بالكاد استدار له بجسده في وهن يطالعه من الأسفل كطودٍ عظيم يعلوه، أخذ يتلكأ بصره على مهل مذعورًا حتى التقي عينيه الحادة المنتظرة في وعيد لا يفتر أو يخبو، وكأنما بالنظر يجدد الوعد، أنه باقٍ أسير رحمته حتى الموت، في العادة يبكي مثل الأطفال ويسأله الرحمة والعفو لكن هذه المرة لم يسعفه جسده على نهوض ولا لسانه على قول، مازال يعاني من سكرات عقابه الأخير وتنبض جراحه



خليفة السوط بالألم، كان خارج نطاق السيطرة ليلتها فجاءه العقاب مضاعفًا مستحقًا، شيعه بنظرة أخيرة محتقرة قبل أن يستدير مغادرًا، شعر بكفين واهنتين تتشبثان بساقه، رأس ذليل يتمسح فيه وتمتمة متحشرجة لم يتبين حروفها، ولم يرغب في تفسير، اكتفى بركلة وفض قدمه دون النظر، أغلق الباب ثم الباب الآخر تاركًا له الألم والصمت والضوء الشحيح يقتاتون على روحه وعقله..

صعد إلى غرفته يخلع عنه ثيابه في هياج يصاحبه كل مرة يلتقي فيها معه، ترك رشاش الماء يدق رأسه وجسده حتى انتظمت حركة أنفاسه، غادر حوض الاستحمام ليقف أمام الطاولة مواجهًا المرآة بوجه متجهم، مرر بصره فوق تشوهات جسده، دوائر منثورة فوق سائر جذعه، تتوهج الذكرى المقصاة في أبعد ركن من الذاكرة، تطفو على السطح في وضوح جعل منها بثًا حيًا داخل رأسه، الولد الصغير ابن السبع السنوات يقرفص على حاله في الزاوية، يقف فوق رأسه بجسده الضخم آمرًا إياه أن



يتجرد من ملابسه، يرفض بصيحة توازيها قهقهة عالية وسحاب سروال يحركه صاحبه كاشفًا له عن سوءته، يقرفص الولد أكثر رافضًا أوامره الماجنة، يدفن رأسه بين فخذيه ويبدأ جسده الصغير في الانتفاض، لسانه يرتج داخل حلقه ويطلق صرخات مبحوحة، يغضب الرجل لأنه لا يطاوعه، يثور ويبدأ في عقابه، ظهر معدني لملعقة طعام غادرت اللهب في التو لتكوي وتذيب وتمزق جلده، من شدة الألم كان يشعر بطعم صدئ يملأ فمه، يتلوى جسده محاولًا الفكاك لكنه كان يحشر رأسه مع الجدار و قبل أن يُشفى جرحه هذا كان ينال واحدٍ جديدٍ لأنه رفض الانصياع مرة أخرى، يرى لحمه مكشوفًا متوهجًا بالاحمرار والألم وقد احترق الجلد أو انكمش، كانت تلك سلسلة عذابات متصلة يصلاها وحيدًا، متعبًا حد الموت..

عاد من شروده في الأمس البعيد بأيامه قريبًا بآثاره على ارتجاف كفه الأيمن، أخذ يقبض على يده ويبسطها عدة مرات حتى ارتخت أعصابه المتشنجة، تحرك يكمل ارتداء ثيابه، يخفي آثار



الجسد تحت الكنزة ذات القَبّة العالية كما يجيد إخفاء الروح المعطوبة تحت رداء الصمت..

لم تكن في انتظاره، فكر أنها ترفض الذهاب، لم يكد ينتهي من تمخض أفكاره حتى وجدها تهبط بدورها، اكتفى بلمحها مستعدة ليتحرك إلى الخارج وتتبعه في صمت..

على طول الطريق كان الصمت الثقيل ضيفهما الحاضر على الدوام، ظلت تتطلع إلى الحياة عبر النافذة الشفافه حتى توقفت السيارة، زارتهم من قبل مرتين برفقة أهلها أثناء فترة الخطبة، لم تكن هذه المرة الأولى التي تتعرف فيها على البيت الكبير وأهله، قابلها السيد"رشدي" في ترحاب محب، رجلٌ له هيبة طاغية بتفاصيل البشوات، زوجته السيدة"ليلى" تشبه نجمات السينما العتيقة، حيث مظهرها الأنيق وكياسة تعاملها ملفتان للنظر، سيدة ودودة ودافئة أحبتها منذ أول لقاء جمع بينهما، أخته برفقة زوجها وأولادهم الثلاثة كانوا حاضرين



أيضًا، تلك هي العائلة التي ضمته يتيمًا في صغره ليكبر بين كنفها ويصير واحدًا منهم..

مائدة كبيرة حملت كل ما لذ وطاب من صنوف الطعام التف حولها الجميع، هذا التجمع العائلي دغدغ مشاعرها لتفيض عيناها بالحنين إلى أهلها، رغمًا عنها تتعامل بتحفظ مع الجميع، لم تصل بعد مرحلة السلاسة التي تدفعها لمشاركة الأحاديث والضحكات بلا تكلف، قد يسخرون بغير تصديق إذا علموا أنها لأول مرة تجاوره في جلوس منذ زواجهما، لأول مرة يكون قريبًا منها لهذا الحد الذي تستطيع منه تنفس رائحته ومراقبته أثناء مضغ الطعام دون شهية، الإنصات لحديثه المختصر للغاية، يكتفي بإلقاء الإجابات المقننة وبالطبع لم يشارك في أحاديث غير تلك التي تخص العمل..

بعد انتهاء الوجبة التحق الثلاث الرجال بغرفة المكتب، وسحبتها سيدة المنزل من خلفها وصعدت بها حيث غرفة نومها



الكبيرة، أجلستها فوق الأريكة وجلست تقابلها، تتطلع إلى وجهها الناعم بتفاصيله مليًا قبل أن تحدثها في تبسم لبق:

- عارفة؛ أنا كنت خلاص قربت أفقد الأمل أن أشوفه عايش حياته طبيعي، عشان كده لما جه وقالي أنه قرر يتجوز ماكنتش مصدقة..

سكتت المرأة هنيهة ثم أردفت وتبسمها يتسع بدفء:

- أنتِ أول ست تدخل حياته..

وارت نبضها الخافق خلف الضلوع في تبسم خجول بادلتها إياه السيدة في امتنان بينما تردف من جديد وتبسمها يبهت:

- أنا عارفه أنه حكى لك كل حاجة، لما سألته قال إن حقك تعرفي..

تغضنت قسماتها واحتار فكرها، هل جميعًا يعرفون بأمر رجل القبو!..



عادت لها تستجمع جل تركيزها وقد غارت عيني محدثتها بفيض أمومي لم تخطأه:

- أسمر ده ابني اللي ماخلفتوش، أنا اللي عشت معاه أصعب أيامه، كانت حادثة صعبة يا مريم واحتاج لوقت كبير علشان يقدر يتجاوزها..

هل قالت حادث!..

لم تمنحها الفرصة لتعِ، أمسكت بكفيها بين يديها، تضغطها برفق، ترجوها وكأن سر سعادته ملك يمينها:

- اوعديني يا مريم، اوعديني إنك تسعديه وتعوضيه عن كل اللي فات..

أخذتها على حين غرة، تلعثم فكرها وقلبها قبل لسانها:

- طنط ليلى أنا..

- أنتِ بتحبيه..



جردت لها الحقيقة التي تتغافل عنها، نفضت عن قلبها كل ما يزدحم فيه ويتخمه ويثقل داخله بكل شعور، ضغطت بيدها فوق النواة الصغيرة التي تستوطن أعمق نقطة فيها، هربت ببصرها أرضًا، تزدرد لعابها وتركن إلى السكوت كجواب لا تملك غيره، لم تمنحها الفرصة لتهرب، أمسكت بذقنها تعيدها إليها، تنظر لها وتبتسم في مصارحة واطمئنان، تعيد سابق كلماتها بصيغة سؤال:

- بتحبيه يا مريم؟..

لم تستطع منحها إجابة، كان هناك و اقفًا عند الباب، حين تلاقت مع عينيه غض الطرف ودلف يقترب من السيدة التي نهضت بدورها تلاقيه:

- همشي أنا الوقت اتأخر، لو احتاجتي حاجة كلميني..

يحدثها بنبرة خفيضة، قابلتها السيدة بعناق وهمس آخر ودعته به:



- ماتغيبش عليَّ..

يربت فوق كتفها مغمغمًا برحيل للمراقبة المشهد في صمت..

جاش صدرها بالكثير أثناء طريق العودة، أضافت المرأة بحديثها علامات استفهام جديدة بلا أجوبة أيضًا، كما نكأت في طريقها بواطن القلب وسريرته المخبوءة..

- أخدتِ قرارك؟..

التكلم، الفعل الطبيعي الذي يمارسه الجميع كشيءٍ بديهي معه أصبح أمرًا غريبًا يسترعي انتباه كل حواسها، لفظ سؤاله وبصره مثبت فوق الطريق، وجدت حالها تعدل وضعها وتنظر إليه، تتمعن فيه وإن كان لا يبادلها النظر، ترد سؤاله بسؤال آخر، خرج مشحونًا:

- في حد غيري يعرف بوجود الراجل ده عندك؟..



ثواني الصمت مرت كدقائق طالت أكثر من اللازم، لا تعلم إن كان يعبث بأعصابها المتعبة أم هذه هي طبيعة الحال معه، في الحالتين نجح في إخراجها عن طورها، تصيح بغضب مكبوت:

- أنا محتاجة أفهم علشان مابقاش زي الهبلة قدام أهلك أو أي حد يكلمني عنك، المفروض أفهم مش أحسس على كل كلمة قبل ما أقولها و أفضل مش عارفة عادي تتقال أو لأ!..

مع زعيقها لم تشعر بغير ارتجاج جسدها وتوقف السيارة بشكل مباغت على جانب الطريق المظلم، عادت تستكين داخل مقعدها ولهاثها المسموع يختض بصدرها، فجأة انفجرت باكية، غطت وجهها بكفيها وراحت تنتحب بصوت، لم ترَ كفيه المهتزين وهما يضغطان بكل قوته فوق طارة القيادة، لم تشعر بلهاث أنفاسه حبيسة الصدر، لا تشعر به إلا متصلبًا، جامدًا إلى جانبها، وحروفٌ مثقلة حررها بعد حين..

- ماحدش غيرك يعرف بوجوده، والمفروض ماحدش يعرف..



رفعت له وجهًا تغرقه العبرات وحروفًا حشرجتها جرحت حلقها قبل خروجها:

- جاوبني بصراحة، يستاهل تعمل فيه كده؟..

ضاقت حدقتاه المتصلبتان مع الفراغ القاتم، كلمة واحدة عبرت شفاهه بتعبير قاس:

- و أكتر..

لم تستطع كبح حروفها النابضة بالألم للمرة الثانية:

- طيب ليه أنا؟..

لا تتوقف عند هذا الحد من السؤال، ترقب جموده وتردف بنبرة بُح كل ما فيها من حروف وتجمع لها الدمع المتبوع بعتب قلبها:

- كنت هتلاقي ألف واحدة غيري تعملك كل اللي عايزه..



لن تجد لديه جوابًا، هذا ما أراد قوله لكن استعصت الحروف وتجمدت بحلقه فظل على حاله لم تهتز فيه شعرة تحت عينيها المنتظرة، حين فطنت للصمت الذي طال ولت بوجهها عنه، تتنفس بتعب، ترمق الأفق المعتم بعينين خاويتين، تعطيه جانبها وتلوذ بعيدًا عن قربه كما يفعل..

شعرت بالسيارة تتحرك بهما من جديد، كما وجدت حروفها تتسرب من بين شفتيها دون سابق تفكير، تخبره في جمود من باب العلم لا السؤال دون أن تتكلف عناء الالتفات:

- أنا هنزل شغلي..

- تمام..

لغرابتها وجدت لديه على هذا إجابة سريعة، احتقنت دمائها واحتدت في كلماتها التالية:

- وهأزور أهلي في أي وقت براحتي..

- تمام يا دكتور..



دارت إليه برأسها ومراجل الغضب تعتمل فيها، أرادت قول الكثير لكنه لم يمنحها الفرصة حين حرك وجهه المتجهم إليها، يكرر على مسامعها ما يريد سماعه حيال مطلبه وعرضه السابق:

- ممكن أعرف دلوقتِ قرارك؟..

أكلها الفضول لمعرفة التالي إذا ما أعطته جوابًا بالرفض، لكنها قررت إتباع نهجه القاسي معها..

وأهدته الصمت.



"عندي ليك مصلحة"

كانت تلك جملة البداية..

قائلها صديق مقرب، أنهى و إياه كلية الحقوق ليكمل الصديق مسيرته ويفتتح مكتبه الخاص بينما "عزيز" الذي لم يهوَ يومًا مقاعد الدراسة لجأ لتجربة عدة مشاريع حرة بماله الذي ورثه



عن أبيه، آل مصيرها جميعًا إلى الفشل حتى عثر في النهاية على هذا المقهى العتيق وقام بشرائه، عمل على تجديده حتى صار مواكبًا للعصر الحديث تحت مسمى "كافيه" مشرفًا على إدارته بنفسه..

- رص لنا حجرين على ما الراجل يوصل..

خرج "عزيز" وعاد حاملًا النارجيلة، وضعها في الشرفة التابعة لغرفته الخاصة، جلس يضبط وضع الفحم المتقد داخل التنباك بينما يسحب الصديق الشهيق الطويل لتكركر المياه بقلب الوعاء الزجاجي قبل أن يدس يده داخل جيب سترته ثم مخرجا إياها وملقيًا ما بها إلى "عزيز" الذي تلقف في الحال:

- القف، تعميرة عفريت لزوم السهرة..

قطعة حشيش بطول الإصبع قلبها "عزيز" في يده قبل أن يطلق تمتمته المبتهجة:

- أهو كده يحلو الكلام..



ناوله الآخر أنبوب النارجلية هاتفًا في تفاخر:

- هدية من أخت عزيزة مش خسارة فيك..

- اللهم صلي، هي النسوان بقى ليها في الحشيش كمان..

- النسوان ليها في كل حاجة يا حبيبي احنا بس اللي فقريين..

سحب "عزيز" نفسًا طويلًا نفث دخانه على مهل، محركًا رأسه في اعتراض:

- يعني إنتَ سايب الست في البلد تخدم في أبوك وأمك وتربي لك العيال اللي تلاقيك مش فاكرهم أساسا وعايش حياتك هنا بالطول والعرض وكمان مش عاجب..

- ماتقولش ست بس..

- إنتَ يهودي يا سعد؟ لا بجد قلة الأصل اللي فيك دي جايبها منين عايز أعرف..

ركل"سعد" ساقه بجانب قدمه:



- ما بلاش الشويتين دول يا عزيز، بلاش إنتَ يا صاحبي..

رنين الهاتف قطع سير الحديث وكركرة المياه بالضحكات، نهض"سعد" قائلًا في عجالة:

- الراجل وصل، هاروح أجيبه..

لحظات وكان يعود بصحبة رجل أربعيني بجبهة عريضة صلعاء وبذلة قديمة منحت الحاضر هيئة موظف بأحد المصالح الحكومية خاصة مع بروزبطنه الكبير، أفسح"عزيز" له المجال ليجلس ثلاثتهم حول منضدة مربعة ذات قوائم عالية إرتكز عليها بجانبه..

تولى"سعد" دفة الحوار محدثًا الرجل:

- شوف يا سيدي آدي الجمل وآدي الجمال زي مابيقولوا، اتفقوا سوا واللي تقولوا عليه آمين مع حفظ عمولتي طبعًا..

تكلم الرجل ويده تكفكف عرقه النابت فوق الجبين:



- شوف يا أستاذ أنا بصراحة ماقدرش أدفع المبلغ كله مرة واحدة، أنا ورايا التزامات وبيت مفتوح وهم ما يتلم..

سعل"عزيز" مرتين متخلصًا من الدخان المعبق لرأتيه قبل أن يشيرللرجل ليدنو منه:

- شوف إنتَ يا أستاذ...

- جمال..

- آآه، شوف يا أستاذ جمال من غيركتركلام، في عقد بخمسة وفي عقد بتلاتة؛ تمام؟ شوف اللي يريحك و أنا معاك..

غمغم الرجل في تردد:

- أيوه بسس..

قاطعه"سعد" في مداهنة و إقناع:



- يا راجل إنتَ لسه هتبسبس، مش عايز أختك ترجع لجوزها وتخلص من زن الحريم ده قبل ما بيتك يتخرب؟ أنا لو منك أبيع هدومي وأخلص الموضوع..

بحث الرجل عن حلول وسطى ثم قام بتفنيدها فوق طاولة العرض:

- طيب ماينفعش نقسط المبلغ على..

هنا ألقى"عزيز" بأنبوب النارجيلة فوق الطاولة مع بوادر غضب وزعقة تلطم صديقه:

- جرى إيه يا سعد، هو الأستاذ بيفاصل في إيه لامؤاخذة..

لكز الصديق ساعده في تهدأة:

- أعصابك يا عزيز يا أخي..

وعاد إلى الرجل يتبع معه طرقه الملتوية في فن الإقناع حتى خر له طائعًا، تم الاتفاق بين الأطراف الثلاثة على أن يتم الأمر بعد



يومين من الليلة، ما إن غادر الرجل حتى ضرب "عزيز" صدر صديقه بمقدمة الأنبوب في قوة مباغتة وقول ساخط تأرجحت فيه الفكاهة والعبث:

- ابقى استنضف الزبون بلاش قرف..

والغمزة الرائقة من الصديق دية الانتصار:

- إنتَ تؤمريا عريس..

وفي المعنى الأدق..

محلل شرعي.



(5)

لكل حُدُوث ثمة بداية..

لم يأخذ مع الأمر مخاضًا عسيرًا من التفكير، كل ما جال في خاطره أن تكون في مأزق مالي لأي أمر يمس كبد العيش الذي يحيون فيه، جل شكوكه صبت في هذا الاحتمال بعد أن خمن أنها ابنة الرجل الذي كان ببيته، ربط هذا بذاك لأنها خرجت ودخلت من نفس البيت، لم يتحقق من هيئتها لكن لمحة خاطفة بتركيز مشتت أعلمته أنها تحمل نفس الوجه لزوجة الرجل التي دأبت على استقباله كل مرة بوجهها البشوش، تحقق من الساعة المحيطة برسغه إذا بها تخطت نصف الساعة بربع آخر، فكر أنه دقائق أخرى إن لم تحضر سيغادر، لكن قبل أن ينتهي من تفكيره ذاك كانت تتهادى إليه..



كان الأفق يتلون بأرجوانية الشفق حين احتلت حيز النظر، فتاة في مقتبل العشرينات، قامة متوسطة وخصر أقرب للنحافة، وجه طولي كشف عن عينين لوزتين واسعتين وشفاه علوية رقيقة تقابلها أخرى زادت في امتلائها بعض الشيء، هيئة لطيفة للعين تقترب وأصابعها تفرك جلد حقيبتها المرفوعة فوق كتفها، تفكر في بداية للحديث ربما..

استقبلها بكياسة نهوض فحيته بهزة رأس وجلوس سريع تخفي فيه توترها، ازدردت لعابها مرتين وتنحنحت مرة قبل أن تقول بصوت كله تردد وحرج:

- آسفة عشان جبتك بالطريقة دي واا.. وشكرًا أنك جيت..

اكتفى "عبدالله" بإيماءة رأس وقول رصين:

- ولا يهمك، تحت أمرك..

هتفت وكفاها يتوجهان لصدرها وطيف ابتسامة كلها خجل تزين ثغرها:



- خليني الأول أعرفك بنفسي؛ أنا فاطمة سلامة، بنت الراجل اللي كنت عنده من شوية..

بعد هذا تخبط بصرها وارتفعت أصابعها تضبط حجابها دون حاجة ثم عادت بهم متعانقين فوق الطاولة، أطلقت تنهيدة كبيرة قبل أن تعود إليه مخبرة إياه بزبد الحكاية:

- عايزة أرفع قضية ومحتاجة مساعدتك..

- قضية؟..

- أيوه قضية..

سأل في استهجان فأجابته في ثقة وثبات، لم تمنحه فرصة ليفكر بينما تردف في الحال:

- على عاطف السخاوي..

ضاقت حدقتيه في انتباه قسري، الاسم يضرب الذاكرة، يستخلص المعرفة ويواجهها بطيف الاستنكار في آن:



- عاطف السخاوي، رجل الأعمال؟!..

رأى كل بغض العالم يجتمع فوق قسماتها قبل أن تؤكد له صحة استخلاصه:

- أيوه هو..

أطلقت تنهيدة كبيرة ثم خاضت في غمار الحكاية:

- بابا كان شغال عامل في مصنعه..

مصنع للمواد الكيميائية، الضرر موجود لكن بنسب آمنة، هذا ما أخبروه إياه حين بدأ العمل وسط حشد من العمال المعدمين، المحتاجين للقرش أمثاله، كل شيء بدا طبيعيًا، يسير على ما يرام حتى سقط فاقدًا للوعي ذات نهار، لم يشفَ أبوها منذ ذاك النهار، الطبيب صاحب النظارات السميكة أخبرها بالحقيقة المجردة، الحقيقة التي لفظها لسانها الآن بنبرة تلونت بالعجز والقهر:

- سرطان رئة..



ثم طأطأت برأسها، تعبث بحقيبة يدها، عادت بعدها بمغلفٍ ورقيٍ تركته أمامه فوق الطاولة:

- التحاليل والأشعة اللي هنا بيوضحوا سبب الإصابة ويأكدوا كلامي..

تناول المغلف يتصفحه دون وعي وجل تركيزه يتبع بقية كلماتها:

- أما بلغهم بوضعه وحقيقة مرضه سرحوه من الشغل مع عشر آلاف جنية؛ تمن حياته..

كانت تسرد القصة بحروف متلاحقة، لم تمنحه الفرصة ليتحدث، الغضب يحتل قسماتها، حروفها، وحتى حركة يديها العشوائية:

- أنا هرفع قضية على المصنع..

تردف في إصرارو انفعال تفهمه:



- زي ما استغلوا حاجته للقرش حقه يلاقي رعاية وعلاج لمرضه اللي اتسببوا فيه..

صمتت وقد اتضحت الصورة أمامه، حآن دوره ليسأل ويحقق في صلب الموضوع:

- والدك لما بدأ شغل عملوا له عقد عمل؟..

حركت رأسها بأسف:

- لا..

- طيب مضوه على ورق بمبلغ الفلوس اللي أخده مثلا أو أي حاجة تثبت إنه كان شغال معاهم؟..

ذات الأسف يحتل الوجه والنبرة:

- لا برده..

عاد"عبدالله" إلى ظهر مقعده مع تمتمة فاترة:



- واضح أنهم مش عايزين أي حاجة تربطهم أو تورطهم بمعنى أصح..

عم الصمت للحظات عادت بعدها تبرق في تذكر:

- في حاجة مهمة كمان..

عادت تجتذب انتباهه ليميل بجذعه ويرتكز بساعديه فوق طرف الطاولة مستمعًا في إنصات:

- والدي مش أول عامل يتصاب، من أول ما بدأ شغل في المصنع ده وكل فترة حد يتعب وبعدها يختفي، وطبعًا مفيش حد بيوضح ولا يفسر لحد ما بابا تعب وعرفنا حالته وردهم عليه وقتها بس وضحت الصورة وعندي شك كبير إن اختفائهم وراه نفس اللي حصل مع بابا..

سأل في جدية واهتمام كبيرين:

- تعرفي أسماء العمال دول أو عناوينهم؟..



دفقة من شجاعة وازت دفقة أخرى من قلق:

- أظن بابا يعرف، بس في مشكلة..

- خير؟..

- بابا مش موافق على حوار القضية..

استفسر بتقطيبة حاجبين:

- أمال هترفعي قضية باسمه إزاي؟..

أخبرته بنبرة خافتة تكشف نواياها:

- هو عاملي توكيل رسمي عام من مدة بعد ما وضعه الصحي مابقاش يسمح أنه يتحرك براحته عشان أتصرف بداله، سألت وعرفت إنه ينفع..

ثم زفرت في قلة حيلة قبل أن تردف بذات النبرة:



- هو خايف عليَّ وشايف إني مش قدها بس أنا مصممة أجيب له حقه، وأكيد هعرفه كل حاجة بس بعد ما أخد أول خطوة، وعشان آخد أول خطوة محتاجة مساعدتك..

سكت للحظات تفهم فيها موقفها وكلماتها، ثم حدثها قائلًا:

- أنتِ أكيد مستوعبه صعوبة الوضع، رجل أعمال له اسمه و وزنه في السوق، فكرة إن اسمه يجي في قضية زي دي مش حاجة سهلة ولا عادية أبدًا وكمان مفيش أي إثباتات مع والدك تدينه..

همهمت بإيماءة رأس تؤكد على حديثه:

- أنا فاهمة وعارفة ده كويس وعشان كده طلبت منك إنتَ بالذات تساعدني، مش إنتَ دايمًا تقول في مقالاتك اللي بتكتبها إن صاحب الحق أقوى وإن السكوت عن الظلم والفساد هيطلع لنا جيل جبان خايف يتكلم أويطالب بأبسط حقوقه؟..



لن ينكر إعجابه الشديد بشجاعتها، إصرارها، قوتها في اتخاذ قرار كهذا عن ذات بينه، قرار يهابه الرجال في الو اقع..

لعبت بكلماتها هذه فوق الوتر الصحيح فأخذت مساعدته التي جاءت لأجلها:

- أول خطوة؛ محتاجين محامي..

لاحظ تذبذب نظرتها جوار حروفها المتقطعة في حرج شديد:

- بس.. يعني.. أتعاب المحامي..

هدأها بكف ارتفع يوقف تذبذها وحرجها في الحال:

- ماتشغليش بالك بده، هشوف محامي وأن شاء الله نقدر نوصل لحاجة..

مد إليها هاتفه:

- سجلي رقمك، يومين بالكتير و أبلغك وصلت لأيه..

تناولت الهاتف، دونت الرقم ثم أعادته إليه مع قول ونهوض وامتنان كبير:

- أنا مش عارفة أقولك إيه، بس متشكرة على كل حاجة، جميلك ده عمري ما هنساه..

ودعها بكلمات مختصرة وعاد إلى جلوسه، يفكر في الأمر مليًا، يقلبه يمنةً ويسرةً، يلعن في النهاية قيود الظلم التي تغلغل الأعناق وتسحق المساكين، كم تضيق، كم تقوى وتتكاثر، يرفع رأسه ناظرًا، حشود من البشر تجيء وتروح، يراهم الآن أعناقًا مربوطة تحت سطوة أكبر منها، أكبر من أن ترفع رأسها وتراها..

لكن..

لكل نبتة فاسدة لحظة تقتصها أصابع واعية من جذورها وتلقي بها بعيدًا، لحظة بداية يختلف بعدها كل شيء!..



بعض البدايات أقرب لدوامة..



تخدعك حتى تتسلل إليها من ثم تبتلعك دون شعور..

انتهى نهارها الطويل بالمعهد، عبرت البوابة بمفردها اليوم دون صحبة، كانت تقف في ملل تنتظر عربة الأجرة حين اقترب منها رجلٌ ببذلة رمادية يبدو في مقتبل الأربعينات، يدنو منها بسابق معرفة لا سؤال:

- آنسة ندى الشيمي..

تقهقرت خطوة إلى الوراء تناظر محدثها في جهل واستفسار مد له يد وتعريف:

- مراد سرحان، منتج أفلام..

طالعت يده القريبة في تردد قبل أن ترفع كفها في مصافحة سريعة وهمس مستغرب:

- أهلًا بحضرتك..

سألها بنبرة تفيض بالاحترام:



- ممكن أخد من وقتك عشر دقايق؟..

تهربت منه بلعثمة:

- أنا آسفة؛ أصل..

قاطعها آخذًا بها على حين غرة:

- هنتكلم في الشارع، ينفع برده؟ مش هعطلك، اتفضلي..

وأشار بيده إلى مطعم في الجوار يدعوها إليه ثم دون انتظار تقدمها في المسير، دار بصرها يرمق الطريق والعربات المارة ثم عادت برأسها إلى هذا الذي يقف في انتظارها، تحركت إلى المطعم بأقدام مثقلة وعقلها يخمن الصورة تقريبًا، تركت دفترها فوق الطاولة وخلعت عن ظهرها حقيبتها الزرقاء الصغيرة، ضمتها بحضنها وجلست تقابل الرجل الذي راح يتكلم ويبتسم في كياسة:

- نطلب غدا؟..



تحدثت في انفعال:

- أستاذ مراد ممكن حضرتك تقول عايز إيه وبدون مقدمات..

استقبل انفعالها في هدوء وضحكة أنيقة، مرحة:

- بالراحة يابنتي، مالك داخلة فيَّ شمال كدة ليه..

لم تعلق، عدلت من جلوسها وراحت تتطلع للمكان من حولها في صمت و انتظار حتى تكلم:

- شوفي يا ستي، أنا شفت للفرقة بتاعتكم أكتر من عرض مسرحي في الهناجر ولفتي نظري بكل إعجاب، أنتِ موهبة عظيمة ومشروع فنانة و اثق أنها في يوم من الأيام هتكون نجمة شباك..

لم يمنحها الفرصة للرد بينما يردف طارحًا عرضه أمام عينيها:

- أنا بعرض عليكِ دور استثنائي في فيلمي الجديد..



ابتسمت له في مجاملة ونبرة تنهي بها الحوار قبل أن يبدأ بينما تستعد للنهوض:

- شكرًا لرأيك أستاذ مراد و آسفة على العرض، أنا ناوية أشتغل في الإخراج بعد التخرج، لكن التمثيل هواية على المسرح مش أكتر..

أنهت كلماتها ونهضت بالفعل تنتوي رحيل حين أمسك برسغها يمنعها فحدجته بنظرة نارية مخلصة يدها من بين أصابعه وحروفه تتبختر فوق مسامعها في اعتذار وازى نهوضه:

- متأسف جدًا أنا بس مش فاهم ليه الانفعال ده كله..

وقفت تواجهه بضيق قسمات وصدر:

- أستاذ مراد عرضك ماييناسبنيش وشكرًا كده الموضوع خلص، سيبني أمشي بقى..

تحركت تضرب الأرض مع وقع خطواتها القوي، أمام باحة المطعم تبعها بخطوات واسعة يقطع تقدمها بقول واحد:



- ممكن ثواني بس، ثواني..

قال هذا وابتعد باتجاه سيارة حديثة الطراز مصفوفة في القريب، فتح بابها ومال إلى الداخل فخمنت أنها له، عاد إليها وبين يديه رزمة أوراق بيضاء مجتمعة فوق بعضها البعض، قدمها لها مع نظرة ثاقبة شملتها كلها:

- عايزك تقري السكريبت ده وبعدين نكمل كلامنا..

قال هذا وابتعد عدة خطوات عائدًا إلى سيارته ملتفتًا لها بوجهه مرة أخيرة لليوم قبل أن يصل تمامًا:

- افتكري بس أن الفرصة الصح بتيجي مرة واحدة في العمر..

خصها بتحية وداع قبل أن يصعد مركبته ويختفي من أمامها، نظرت إلى السيناريو المتروك فوق دفترها بعين كدرة قبل أن تحرك رأسها التي عبث فيها بعرضه وكلماته..

بعد الثانية عشر منتصف الليل كانت وإياه متجاورين حيث مجسلهما الأثير فوق سطح البناية، فوق ساقيه قبع حاسوبه



الشخصي، وعلى شاشته المضيئة كان يعرض بعض التصاميم للأثاث المنزلي بينما تستمع له بتركيز مشوش:

- شوفي ده تصميم حديث واللون كمان لطيف..

مالت برأسها قليلًا تطالع الصورة المعنية ثم مطت شفتيها في تعارض مستاء:

- مش حلو..

استدعى نذرًا من الصبر بينما يغمض عينيه ويهدر من بين أسنانه:

- لو خبطت دماغك في الحيط اللي وراكي ماتزعليش، تمام؟..

عدلت من تربيعة ساقيها في حنق يوازي انفعاله المكبوت:

- يوووه! يعني أقول عاجبني وهو مش عاجبني..

تكلف بابتسامة سمجة وقول متهكم:

- ماشي يا ندى، نسيبنا من الأنتريهات خالص دلوقتي ونتفرج على أوض النوم، أوض النوم حلوة ومافيهاش خناق..

ردت تهكمه في ترفع واتهام:

- إنتَ اللي بتتخانق على فكرة..

زفر في قلة حيلة دون النظر كأنما يحادث نفسه:

- أنا ابن جزمة أساسًا..

ضحكت في خفوت وقبضتها تتكور أسفل وجنتها تر اقب تركيزه الجلي مع الصور، تشرد والنظر سابح فوق قسماته، تفكر وتحتار بين إخباره عما حدث معها اليوم، العرض الذي جاءها كفرصة مجانية، حين أخبرت الرجل أن ذلك الأمر خارج إطار حساباتها لم تكن كاذبة، لكن بعد قراءة النص الأمر اختلف وقد نال إعجابها الكبير لدرجة أثار الشغف الكامن فيها، قالت مجرد نظرة استكشاف فضولية لكن وجدت حالها تأكل السطور بنهم وتتابع، دورٌ صغير لكن مؤثر جدًا، كان استثنائيًا



كما قال، الآن أصبحت تفكر ما السيء في تقديم أدوار جيدة كهذه؟..

- بودي..

جذبت انتباهه بنداء خافت أدار لها رأسه في استجابة، مع نظرته المرتكزة عليها تقهقر الاعتراف ونبت الخوف بين ثنايا الحروف وقد بدلت مسار الحديث في هروب سريع بعيدًا عن محيط عينيه:

- النجار ده شغله مش عاجبني، بقول نشوف غيره..

أطبق فوق شفته السفلى بأسنانه وهدر بأنفاسه تحت مسامعها:

- بس ده من أشطر النجارين في دمياط وناس كتير بتشكر فيه، و أنا بنفسي شوفت شغله عند واحد صاحبي وعجبني، ولا أنتِ لازم تعترضي والسلام؟..



لم يمنحها الفرصة للتحدث، حمل الحاسوب عنه وتركه بين ذراعيها بدفعة عنيفة وقول واحد سبق نهوضه:

- أنا نازل أنام عندي شغل الصبح و أنتِ اقعدي مع نفسك كده زي الشاطرة اختاري اللي يعجبك و ابقي عرفيني..

قال هذا و غادر..

تاركًا إياها وحيدة، تعصف بها سكرة الفكرة.



دائمًا ما تتكرر الو اقعة..

ظهور رجل مع عرض زواج، والبداية ككل مرة مع الجدة، وحدهما ببيتها، تخبرها، تداهن، تلتفت وتدور تفتش قسرًا عن ميل أو قبول لكن يصدمها الصد والعزوف، الرفض الباتر، بلا أسباب مقنعة، فقط رفض دون حجة أو توضيح يغضب الجدة ويثير بها زو ابع الحنق فتضرب الأرض بعصاها:

- يعني إيه مش عايزة أتجوز؟ في بنت محترمة تقول كده..



لم ترد"عبلة" الجالسة فوق المقعد المقابل لها تهز بساقها وتنظر لطلاء أظافرها القاني بعناد مقصود وقول ساخر قصدت فيه جدتها الغاضبة:

- أيوه مش هاتجوز بطريقتك دي والعريس ده أنا مش موافقة عليه أصلاً..

احتدت الجدة بقول ساخط:

- يعيبه إيه عشان يترفض، ولا عاجبك دخولك وطلوعك براحتك، مفيش حد يحاسبك؟..

عدلت من جلوسها، دنت منها بوجهها تنفث أحرفها الباردة اللامبالية:

- أيوه عاجبني، وأنا مش صغيرة علشان تقعديني قدامك كده وتكلميني بالطريقة دي، يلا ابدأي أسطوانتك بتاعة شوفي بنات عمك، يلا يلا هي عادتك ولا هتشتريها..



ضربت الجدة كفًا بكف ولسانها لا يسعفها في الرد أمام كتلة الاستفزاز التي تجالسها:

- أنتِ يا بنت خلاص خلعتي توب الحياء، طالعة لمين كده؟..

وتستطرد في الحال:

- أنا هكلم أخوكِ يشوف له صرفه معاكي..

نهضت عن المقعد بحدة توازي كلماتها وحركة يديها الغير مهتمة:

- ماشي اتصلي بولي أمري خليه يجي يشكمني، أقولك ابعتي لأعمامي كمان خليهم ينزلوا يزعقوا ويهزقوني عشان رفضت العريس اللقطة..

نهرتها لأسلوبها الفظ وقد نجحت في إثارة حنقها وغضبها رغم معرفتها التامة بشخصها الجامح:



- لو مش عاملة قيمة لجدتك احترمي فرق السن يا قليلة الأدب!..

صاحت فيها بجدية غاضبة لا تمت برودها السابق بصلة:

- ممكن تسيبيني في حالي؟ أنا لا عايزة أتجوز ولا أفرح حد بيَّ، شليني من دماغك لو عايزه ترتاحي..

أخبرتها بهذا وغادرت البيت برمته، بعنف فتحت باب سيارتها الخاصة وبذات الغضب أغلقت بابها وأدارت المحرك، لم تقصد العمل، التحقت بميعادها المسبق مع الطبيب رغم ما يعتمل فيها من غيظ، تعلم أن وراء ماحدث جلسة تقريع مع عميها، بعدها تبدأ موجة الإقناع بالعريس، ثم يدخل شقيقها على الخط وتبدأ و إياه معركة جديدة تنتهي بزعيق واحتدام آخره خصام تعمل"دهب" فيما بعد على رأبه و وصل ما انقطع.. قصة بالية مهترأة التفاصيل تحدث كل بضعة شهور ومع هذا لا يتوقفون ولا تمل جدتها من إحداث الأمر في كل مرة.



نفخت بضجر وساقها الملتوية فوق الأخرى لم تتوقف عن الاهتزاز طيلة جلوسها المنتظر، تتطلع إلى المركز الطبي الحديث من حولها بعين راضية، طبيب عيون نصحها به الكثير إذا ما قررت إجراء عملية تصحيح البصر، هي وثقت بالآراء لكن صبرها بدأ ينفذ بالفعل، آخر مريض غادر قبل دقائق ولم يتبقَ غيرها فوق مقاعد الانتظار:

- هو أنا هاستنى كتير؟..

قالت بلهجة حادة لونها الغضب رفعت لها مساعدة الطبيب رأسها في توتر وحدتها بلطافة لم تمررها المريضة:

- لا يا فندم، الدكتور بس معاه تليفون مهم هيخلص وأدخلك على طول..

زاغ بصرها بعيدًا عن الفتاة بتأفف واضح، أخرجت هاتفها عبثت فيه بملل ترتجي مرور اللحظات ومزاجها العكر، حين تجاوز انتظارها نصف الساعة انتفضت عن مقعدها وراحت



تطرق الأرض الناعمة بكعب حذائها المغتاظ وقد نجحوا بالفعل في إخراجها عن طورها وكأن الجميع اتفق عليها اليوم، فزعت الفتاة الجالسة تلاحقها بتنبيه زاعق:

- يا فندم مايصحش كده..

لكن مع ختام حروفها كانت تدفع الباب المغلق وتقتحم غرفة الطبيب عنوة بقسماتها الثائرة وصياحها الحانق:

- على فكرة ده مش أسلوب تعامل محترم..

مائة وثلاثة وثمانون سنتيمتر من الوسامة والجاذبية اعتدلت من وضعها المسترخي لآخر تملأه الدهشة، يشهر لها كفًا في إشارة توقف وينهي المهاتفة العالقة بغمغمة عجول..

ترك الهاتف ونهض عن مقعده، دار حول المكتب متطلعًا إلى تلك المتحفزة عاقدة الساعدين رامية سهام النظر المشتعلة في كل أرجاء الغرفة، انتقل منها إلى مساعدته في استفسار عقد له الجبين:



- في إيه؟..

لم تمنح الفتاة الفرصة لحديث، تكفلت هي بالإجابة الواضحة:

- في إن حضرتك معطلني نص ساعة علشان تخلص مكالمة و أنا مش جاية أقعد هنا..

نبرتها كانت زاعقة، غاضبة يتطاير منها الشرر، رفع كفيه إلى جنبيه في استسلام مرح عاملًا على امتصاص غضبها في دماثة:

- معاكِ حق، أنا متأسف جدًا..

أفسح أمامها المجال ثم دعاها للجلوس:

- اتفضلي..

نبرة أجشة طوقتها ابتسامة جذابة، عينان زرقاوان بدكانة ملفتة، دماثة خلقه أجبرت حنقها على التقهقر والتحرك لتنتهي فوق أحد المقعدين المواجهين لمكتبه، صرف مساعدته وعاد



إلى جلوسه الأول، تناول الورقة المربعة الموضوعة فوق سطح المكتب متكلمًا باسمها:

- تحت أمرك يا آنسة عبلة..

تكلمت بقسمات متجهمة استمرت على ذات الوضع حتى أنهى الفحص وعاد و إياها إلى مكتبه قائلًا بعملية طبيب:

- هنعمل شوية فحوصات بسيطة ونحدد العملية..

تحركت تتبعه بقسماتها المستاءة، جولة سريعة خضعت خلالها للفحوصات و انتهت بهما مرة ثالثة فوق مكتبه وقد حددا الموعد، حينما انتهى من شرح وتوضيح الأمر تناولت حقيبة يدها ونهضت في كياسة دون تعقيب مفترض عما قال:

- تمام، في حاجة تانية؟..

تحرك حاجبيه للأعلى في تعجب:

- حاليًا لأ..



ودعته بإيماءة صامتة وتحركت تحت وقع كلماته المستغربة لتصرفها وقسماتها المنزعجة طوال الوقت رغم اعتذاره مما دفعه ليقول:

- أنا اعتذرت على فكرة!..

توقفت يدها فوق مقبض الباب، درات له برأسها مع ابتسامة بان فيها الاصطناع والسماجة:

- شوفت بقى قلة الذوق بتضايق إزاي يا دكتور ناصف..

تمازجت قسماته الصاغرة عقب اختفائها ما بين متعجبة ومعجبة..

وأخيرًا باسمة.



عجلة الحياة تدور والروتين يشكلها وفق طبيعته..



قررت العودة إلى العمل، قرار خضع وفق إرادته دون خوض نقاشات، يصطحبها معه كل صباح حيث مكان عملهما متجاورين، في المساء تختلف مواعيد العودة، يتأخر هو عنها بالكثير فيصحبها سائق العائلة، رحلة صباحية تمر بصمت طويل لا يقطعه غير صفعها لباب السيارة ثم صرير العجلات من ناحيته بينما ينعطف يسارًا لينتهي أمام مبنى الشركة..

اجتماع خاص جمع بين الباشا الكبير و خليفته كما يطلق عليهما الجميع، تناولوا فيه الأمور الهامة عن مسار العمل ومتطلباته خلال الفترة القادمة، وتأكيد أخير من صاحبه:

- مش هوصيك عايز استقبال يليق بالوفد الياباني، هاسيب الموضوع ده عليك..

صفقة ضخمة على الطريق تستوجب كل اهتمام وتركيز وعمل:

- اطمن يا باشا، مش أول مرة..



ولفظة"باشا" أيسر على اللسان من لفظ أبوة وإن كان يستحقها بقدر معنى كل حرف تحمله، هو من رفعه بيديه من قاع الهاوية حتى حدود السماء..

طرق"رشدي" بأصابعه فوق سطح المكتب منبهًا إياه:

- بس المرة دي غيريا أسمر..

أسقاه من نبع الثقة مع نبرته الراكزة، الواثقة:

- واحنا جاهزين..

قابل ثقته باطمئنان ثم تحدث بمسار آخر بعيدًا عن دنيا العمل:

- مش تكلم أخوك وتعقله، حوار البنت الروسية اللي عايز يرتبط بيها دي آخرته إيه..

الأخ الغير شقيق له والابن البيولوجي لرشدي جوهر، رحالة يهوى السفر والتحليق من بلد إلى بلد، ما إن يحط فوق أرض



الوطن حتى يفرد جناحيه ويحلق من جديد فلا باع له مع دنيا الأعمال التي تضم أبيه وأخيه..

أخبره "أسمر" بالحقيقة العارية:

- إنتَ عارف طارق أما يحط حاجة في دماغه خلاص انسى..

والأب لا يستسيغ طريق الاعوجاج الذي يسلكه، يفرك جبهته بتعب:

- ليلى قلقانة و أنا مش عارف اتفاهم معاه..

- أنا مش عايزك تتكلم معاه لأنه هيركب دماغه، أنا اتكلمت معاه وجبتهاله من ناحية تانية وهو وعدني يفكر كويس قبل ما ياخد أي خطوة..

انفعل الأب وضاق ذرعًا:

- خليه ينزل مصر، اتصرف و اقنعه..

- تمام أنا هاتصرف..



قالها بنهوض وهاتفه يعلو برنين، أردف له متحركًا:

- أنا في مكتبي..

يكفي أن يمر بين الممرات بصمته المهيب حتى تتوقف ثرثرة العاملين وحركتهم، حين يختفي تلفظ الأنفاس براحة ويعود كلا إلى عمله في جدية تامة، لا أحد يرغب في إثارة استياء السيد الصارم، الحاد، المرعب في نظر البعض، بينما البعض الآخر يراه أقرب لآلة عمل لا تتوقف، لا تبتسم أو تمارس أي نشاطٍ بشريٍّ خارج نطاق العمل..

توقف بهيئته الجامدة من خلف النافذة الخاصة بغرفة مكتبه، من على ارتفاع أربع طوابق ومسافة شارع كبير كان يراقب المشهد المكرر بذات الصورة مع اختلاف بسيط في التفاصيل، تغادر الباب الزجاجي للصيدلية قاصدة شجرة متوسطة على بعد خطوات، تقدم ما بين يديها من طعام للقطة المنتظرة داخل الحوض الترابي، حين تنتهي تنفض يديها



وتجلس على حافة الحوض، تراقب الهرة وصغارها لدقائق، يراهن أنها تبتسم بصمت قبل أن تعود أدراجها، مشهد مكرر دأب على مراقبته لمدة عام كامل..

كانت مجرد صورة يحب أن يراها لأنها تذكره بامرأة سمراء نحيلة الجسد والقسمات، لها عينان واسعتان يضمان العالم بأسره وضحكة دافئة كانت تلفه بها في أيام الصقيع وهي تضع رأسه في حضنها مترنمة بتهويدة يحبها، كان صوتها عذبًا، شجيًا، حنونًا كملمس يديها فوق قسمات وجهه الصغير..

تشبهها، تشبه أمه الراحلة..

ليس في تفاصيل الوجه والتقاطيع إنما شبه روحي دفعه لينظرها عن قرب ذات مرة وحين فعل تمنى حياة طبيعية، وكان لأول مرة منذ سنين نفسه تتمنى شيئًا وترغب..

وحتى اللحظة لا يعلم: هل رغبته فيها احتالت على سواد أفكاره أم حقيقة وجودها من دفع بتلك الأفكار إلى رأسه من الأساس..



جل ما يعلمه؛ أنه في ليلة شتوية راحلة ظل يصيح سجينه متوجعًا مطالبًا بزيارة طبيب، لحظتها وجد الفكرة تقفز إلى رأسه مثل لعنة انتزاعها محال.



يحدث أن تقودنا النفس إلى طريق لا نألفه..

لا يشبهنا أو يناسب خطانا، لكننا نتبعه، نسير وفق أهوائه وقد أُفلت لجام القيم من بين الأصابع..

داخل مكتب المحاماة التابع لصديقه كانا يتمان الاتفاقية، عقد زواج شرعي يجمع بين رجل وامرأة وشاهدين، طريق سحبه فيه الصديق، التف حول عقله وذلل له العقبات، ولأن له مديونية لم يوفها حين قام بشراء المقهى الخاص به تهيأت الأسباب وعبرت ثغرات النفس المذبذبة لتسير بها فوق صراط الفوحش، زلفت قدمه وسقط في بئر الخطيئة، صار يقايض اسمه ورجولته وفقًا للرغبات والاستطاعة، عقدٌ شرعي دون



بناء مقابل ثلاثة آلاف، عقد آخر ببناء وخلوة يزيد ألفين على الأول، هكذا بكل يسر سقط بين خضم الآثام..

الصديق هنا يقوم بدور الكاتب، يدفع بالأوراق إليه ويخبره بسلاسة التكرار:

- امضي يا عزيز..

حين ينتهي يحين دور المرأة:

- امضة العروسة بقى..

يقولها "سعد" في فكاهة لا تناسب الموقف ولا يتقبلها أيٌّ من الحضور، تمسك المرأة الجالسة بالقرب من أخيها العقد وتذيله باسمها، هي تريد العودة إلى صغارها، بينها وبينهم مسافة خمس ساعات وثلاث طلقات من أبيهم، يعانون بدونها ولأجلهم ستفعل المستحيل..

أضاف "سعد" كمتحدث رسمي يقود الاتفاقية:



- العقد بتاريخ قديم، هوثقه في المحكمة وبعدها لنا قعدة تانية علشان إجراءات الطلاق..

جميعهم يعرفون أنهم يتحايلون على الشرع ببطلان، وأن العقد المرهون بوقت ودون بناء باطلًا في أصله وكل مايترتب عليه جراء ذلك، لكنهم يفعلون ويتتمون آخذين بأسبابهم الخاصة ذريعة يصدقونها..

حين انتهى الأمر وغادر الرجل مع أخته والشاهدين لم يتبق غيرهما بالغرفة، رفع الصديق أمامه مبلغًا ماليًا ملوحًا فيه:

- عمولتي..

ثم ألقى له بالبقية:

- و ده نصيبك..

تناول "عزيز" حزمة المال، أخرج منها بضعة أوراق دسها في جيبه وعاد يلقي بالبقية إلى الصديق:



- دول ألفين على التمانية اللي معاك يبقوا عشرة توصلهم لمأمون، تجيب منه وصل وتبلغه يخف عليَّ شوية، أنا مش هأكل عليه حقه، تمام؟..

شد"سعد" من جذعه في إرهاق وتمتمة:

- تمام..

عاد متأخرًا، بعد الثانية صباحًا، عادةً في هذا التوقيت تكون سابحة في نوم عميق، لكن الليلة على غير العادة كانت يقظة، بين يديها دفتي كتاب تهرب بين سطوره من أفكارها المزعجة، أضاء المصباح فلاقته بابتسامتها الحنون..

- صاحية يعني؟..

سأل في تعجب وأخذ يشرع في خلع ثيابه، وصلته نبرتها الخفيضة بلا روح:



- مفيش، مستنياك..

ترك قميصه فوق المشجب و اقترب يقابلها فوق الفراش، يمسك بذقنها ويعيد هروبها إليه، يتفرس في وجهها الحزين بتقطيبة وسؤال مهتم:

- مالك؟..

شعربها تغالب نفسها بقول مرح شاب حروفه غصة:

- مفيش بجد يا عزيز، حوارسخيف كده ماتشغلش بالك..

لكنه أصرليسمع فأخبرته، اليوم بينما كانت في المشفى قابلت صديقة لها بعد غياب سنين، وبدلًا من تبادل الشوق والأخبار وجدت الصديقة تخفي وجه صغيرتها عنها وتتعجل الرحيل، هل خافت عليها منها؟ من عينها المحرومة!..

حين وصلت لهنا غلبتها الغصة وتهدج صوتها ثم مات في عناقه الطويل، هدهد روحها الحزينة وطيب خاطرها الكسيرفهدأت وطاب جرحها، أبعدت نفسها تطالعه في تبسم ماحية عبراتها



مخرجة حالها من ثوب الزوجة النكدة التي لا تتوقف عن طرح البكاء والشكوى:

- أنا شكلي بقيت أوفروباخد كل حاجة بحساسية..

لم يسايرها في مواراتها بل ثار لأجلها:

- الناس هما اللي ولاد ستين كلب، قلت لك ألف مرة ماتديش فرصة لحد يضايقك..

أمسكت بكفيه بين يديها:

- سيبك مني دلوقتي وقول لي؛ كلمتك تيتة بخصوص بيللا؟..

امتعض وجهه وبان عليه الاستياء:

- كلمتني، كانت زعلانة وبتشكي منها..

أخبرت كليهما الجدة عن تصرفها المشين ورفضها الغير مبرر..

- أنا كمان عديت عليهم بعد الشغل وقالت لي نفس الكلام، وبتقول كمان العريس كويس بس هي رافضة تقابله، أنا



أقنعتها ماتجبش سيرة قدام بابا وعمو سيد وإن أنا وإنتَ هنتكلم معاها الأول..

زفر في قلة حيلة:

- أنا مش عارف أعمل إيه معاها ولا بقيت فاهم هي عايزة إيه..

أخذت بوجهه بين كفيها تهديه ككل مرة مفتاحها الذي لا يجيد استخدامه:

- هتتكلم معاها بالراحة من غير خناق وزعيق، عرفها أنك معاها مش عليها، ولو رفضت العريس مش مهم، ماتعملش زي الكل وتقف ضدها، حسسها أن مهما مالت بيها الدنيا هتكون موجود وراها وساندها..

استمع لها بإنصات ثم ألصق جبينه فوق خاصتها وابتسامة متلاعبة تناوش ثغره:

- ما تجيبي بوسة يا دكتورة..



وهل لها أن ترفض؟..

الضمة والقبلة وما تلا ذلك كله له، طوع قلبه الذي يضاجع قلبها بالغرام ويشاطره الهوى..

ينام قرير العين فوق رحابة صدرها، تتسع به إن ضاق عليه العالم، وحدها تغنيه عن نسل آدم أجمعين..

تحركت أصابعها تمسح عن رأسه بخفة، تراقب ملامحه الغافية في سكون بطيف ابتسامة يملأ ثغرها، رأسه مستقر فوق صدرها وذراعه ملتف حول بطنها، تحب تشبثه فيها، كل أموره الصغيرة والكبيرة التي يضعها بين يديها، يسألها الصواب ويأخذ بمشورتها في غالب الأمور، هو ابنها البكر وإن لم يطأ رحمها نطفة من قبل، تأخذ على عاتق قلبها جل أمره وقد عاهدت نفسها أن تكون له الأم التي فقد..

ارتفع أذان الفجر وهي مازالت ساهرة، تحركت على مهل تغادر جواره، تتوضأ وتقف بين يدي ربها، تسأله أمنية قلبها، عطيته



التي بها تكتمل أركان سعادتها، أن يهبها من لدنه ذرية صالحة تقربها عيناها المشتاقة..

لم تكن تدر أنه الأسبوع التالي لهذه الليلة سوف ترتوي عروقها العطشى وأن عينها ستمطر العبرات الفرحة دون إرادة بينما تقف بدورة المياه وبين يديها شريحة بلاستيكة تعكس خطين ورديين علامة إستجابة.



(6)

كان في لهفتها أملٌ لا ينقطع..

على قدر الخيبات المتتالية كان للهفتها جذوة لا تخبو ولا تنطفئ، أحبت أن تكون أمًا منذ طفولتها، لا تعلم السر الإلهي وراء لعقها أصابع الحرمان لأكثر من خمس سنوات، تذوقت فيهم مرارة الانتظار، كان حنظل الخيبة مرًا علقمًا، الآن تفكر، لعله أرادها أن تدرك معنى الهبة، لربما كل هذا التأخير حتى ينتفض الفؤاد الملهوف بشوقه ومنيته وتتحول دقاته إلى سرب من السعادات حلق بين تجاويف ضلوعها وقد اتسع كل ما فيها ملأ الكون، أن تجلس فوق حافة حوض الاستحمام لدقائق فقدت فيها كل شيء، النطق والحركة والنفس، فقط بصرها يحدق في الشريحة البلاستيكة الكامنة بين أصابعها المرتعشة بمحجرين مثقلين بالعبرات التي راحت تغشي البصر وتتساقط قطرة تلو



الأخرى دون توقف، ترمق الخطين الورديين في ذهول ودهشة فاقت قدرتها على التصديق، حاولت السير لكن جسدها كان ينتفض و أقدامها كأنما علقت في الأرض من تحتها، كل ما وجدته صوتًا مهزوزًا جوار الشهقات التي كانت تذبح صدرها كل ثوان، تهتف باسم زوجها الغافي، مرة بعد مرة حتى أحست بخطواته الفزعة تركض إليها، يصطدم جسده مع الباب المفتوح ويهلع بالنظر إليها مأخوذًا بما يرى ما بين الصحو والغفا، أفاق على وجهها المنتفخ ببكاء وموجة ارتعاد، بأقدام حافية كان يقطع مربعات السيراميك الباردة آخذًا بكليتها إليه، ولا تتذكر كيف لكنها كانت هناك، تقف و إياه وجهًا لوجه بوسط الردهة، "عزيز" يضحك بعيون دامعة مقبلًا كل إنش في وجهها بعد أن أخبرته بحروف متقطعة أن نتيجة الاختبار إيجابية على عكس كل المرات السابقة..

عندما استجمعت حالها و رباطة جأشها أصرت أن يقصدا معمل التحاليل في الحال، تحليل الدم أدق وأكثر صدقًا من



هذا المنزلي، تريد أن يخبرها أحد بأن هذا حدث بالفعل وليست أمنيات تزاحم رأسها، السابعة والنصف صباحًا هي وهو جنبًا إلى جنب فوق مقاعد الانتظار الجلدية، كفها تتشابك مع يده، بصرها ثبت فوق حذائها دون حراك، تفكر في محطات الانتظار التي مرت بها طوال حياتها، تبدو هذه أطولهم و أقساهم، شعرت به يميل إليها يسألها إن كانت بحاجة ماء، حركت رأسها نفيًا بصمت، كان لسانها ثقيلًا يعجز عن النطق لكن قلبها ينوب عنه في هاته اللحظة ويبتهل، ظلت على حالها واجمة في صمت حتى سمعت اسمها يتردد عن قرب بنبرة الطبيبة الشابة التي أجرت لها الاختبار قبل حين:

- مدام دهب..

نهضت على مهل وكفها يضغط فوق كفه دون شعور، عينها لا تفارق ثغر الطبيبة، تنتظر لمرة أخيرة رحمة الكلمات التي خرجت من بين ابتسامة صبوح لن تنسى حلاوتها:



- مبروك؛ حامل..

عانقته، لم تأبه للمكان ولا الأعين المحدقة فيها فكانت الأسبق هذه المرة، لم يكن هناك نحيبًا شديدًا، فقط سيل من العبرات ينهمر في هدوء وخفاء بتجويف عنقه مقابلًا صمته وشده على ضمتها بأجفان مغلقة ولسانٍ يلهث بالحمد، إحساسٌ و افرٌ بالرضا والسعادة يغمر كليهما ويغرقهما في لجته، همسه الخفيض داعب كل حواسها مذوقًا إياها عذوبة الكلمة التي كانت تنتظرها في وله:

- أجمل ماما دهب..

تبسمت لوقع الكلمة و ركض قلبها يعانق قلبه بخفة، لا تظن أنها أحبته من قبل مثل هذه اللحظة..

لم يقطع عناقهما الطويل الصامت غير زغرودة إحدى العاملات بالمعمل تحية منها للخبر السعيد، فضوا العناق ضاحكين، يتلقيان المباركات من كل الحضور، حين غادرا المبنى



وقفت تحت رحابة السماء الواسعة، تتطلع إلى الأفق بابتسامة عريضة كأنها ملكت الكون، مالت بها إليه:

- خدني عند ماما..

ماما الواقفة بوسط مطبخها تجهز إفطارًا لولديها قبل الذهاب للعمل تركت ما بين يديها عالقًا وهرولت متوجسة من طرقات الباب الغير معتادة في هذا التوقيت، ما إن فتحته حتى ارتمت"دهب" بين ذراعيها باكية، تلقفتها بفزع وأذرعتها تشدد على ضمها باستفسارات مضطربة مالبثت حتى تبدلت لسعادات عارمة حين لقنها زوجها الخبر من خلفها:

- دهب حامل يا فوز..

شهقت الأم بمفاجأة قبل أن تشاركها النحيب بأحرف ضائعة وكفاها المكتنزان يربتان فوق ظهرها بسعادة، خرج شقيقيها واحدًا تلو الآخر إثر ضجة الأصوات القائمة، عانق"عبدالله" ابن عمه مباركًا ومنه إلى الشقيقة مقبلًا جبينها باسطًا راحته



فوق رأسها داعيًا لذريتها بالقول الرصين الباسم، أمنوا جميعًا على كلماته بينما"عبدالرحمن" كان يعانقها بقوة رافعًا جسدها عن الأرض يدور بها، امتزجت قهقهته الأجشة مع ضحكاتها الناعمة قبل أن تسكعه أمه فوق ظهره وتنهره بجدية:

- تبطل هزار البوابين بتاعك من هنا ورايح، أنت فاهم؟..

تركها" عبدالرحمن" بين ذراعي أبيها ينقل لها مباركته بدروه وتحرك إلى زوجها معانقًا إياه ضاربًا ظهره بقوة يمازحه بالقول الخافت:

- أخيرًا أثبت كفاءة، أزغرد..

رد له"عزيز" المزاح بلكمة طالت معدته:

- أثبتها من يوم الدخلة يا سافل واسأل أختك..

مال عليهما"عبدالله" القريب محدثًا ابن العم وإبهامه يشير إلى توأمه:



- الواد ده تأخير جوازه بقى خطر..

أكد"عزيز" على كلامه قبل أن يضحكوا جميعًا على نبرة الأم المبتهجة وهي توقظ ابنها البكر من نومته والهاتف قابعًا فوق أذنها تزف له الخبر السعيد عبر الشبكات:

- اصحى يا بكر وتعالى أختك حامل..

ثوانٍ وتغضن وجهها مع استطرادتها التالية:

- أختك مين!!..

اختطفت"دهب" منها الهاتف، تزف لشقيقها بشارتها بنفسها كما زفتها لجدتها قبل الجميع، حضر العم و زوجته والبنتين، جاءت"عبلة" تشارك شقيقها فرحته، بينما الأم كانت تزف الخبر إلى الخالات والعمات عبر الهاتف، كان نهارًا طويلًا، التم فيه شمل العائلة احتفالًا بما طال انتظاره..

في المساء، قبل عودتها إلى بيتها بقليل سحبت"دهب" حالها من بين الجميع وذهبت حيث غرفتها القديمة، كرسي متوسط



القوائم حمل ثقل جسدها، أمسكت بها أمها التي كانت تراقبها، ترى وقوفها فوق المقعد أمام خزانة الملابس تعبث بصناديق كارتونية تعلو سقفها، هتفت فيها بفزع:

- أنتِ بتعملي إيه عندك؟ انزلي؛ احنا ما صدقنا!..

- استني يا ماما كانت هنا..

- هي إيه دي؟..

- امسكي بس..

ناولتها واحدًا من الصناديق وهبطت، فوق الفراش المرتب فتحته وعبثت بأغراصه حتى أخرجت دميتها العتيقة، أخذت تنظرها بحنين، دمية بحجم الكف مصنوعة من الجوارب والأرز، خاطتها لها الجدة عندما كانت بسن الخامسة، ظلت لسنوات تحملها أينما ذهبت وتهمس لها بأسرارها الصغيرة كل ليلة..



حملتها معها إلى بيتها، اختارت لها مكانًا جوار المصباح حيث صورتها كانت آخر ما رأت قبل أن تسدل أجفانها وتسقط قسريًا في سبات وعلى ثغرها ترتسم أعذب ابتسامة.



دخل بينهما شيطان..

بل تربع فوق عرشه متفاخرًا..

ترى في فعله تهميشًا وتقليلًا واستهانة لا ترضاهم لنفسها، ترى زوجًا أنانيًا يلهث خلف رغباته ضاربًا بشعورها ورأيها عرض الحائط كأنما ليست شريكة إنما تابعة تنفذ أوامره..

يرى في تصرفها رعونة، مبرراتها كلها واهية، ترفض وتحتج ليس لسبب غير أن تضع رأسها برأسه، تناطحه، تتبع وساوس أمها التي تكن له بغض وكراهية العالم وهي تعلم، قبلت له الإهانة فقبل لها التجاهل والإقصاء..



ترى سؤاله المختزل في أطفاله اهتمامًا هي خارج دائرته، تصريحًا مبطنًا بكون ما بينهما الصغار وحسب وهي لا قيمة لها لديه..

يرى في تركها لبيتها تخلي عنه شخصيًا، عن أحلامه وطموحه، رفضًا لمساعيه التي يركض فيها لأجلها والأولاد، كل المستقبل والغد الذي يسعى لبنائه لمن إن لم يكن لهم؟ كل سنوات الغربة التي راحت أليس لأجل أن يمنحها حياة ترتضيها، مكانة رأى أنها لا تستحق أقل منها، بعد كل هذا تتهمه بكونه أنانيًا لا يفكر بغير نفسه؟!..

يوسوس لها مرة وله..

وما بينهما يتسع يومًا بعد يوم..

برسالة مقتضبة أخبرها أنه قادم لأخذ صغاره حيث جدهم وجدتهم يشتاقان لرؤيتهم، هذه هي وسيلة التواصل بينهما، رسائل مقتضبة، جامدة يفوح منها ريح الغيظ والغضب، لا



يدخل، ينتظرهم بالخارج يخرجون إليه، يتسابقان إلى أحضانه، تستقبلهم الجدة بضمات وقبلات ومائدة عليها ماتشتهي أنفسهم وتحب.. انتهوا من تناول وجبتهم قبل قليل، جلسوا أمام التلفازيتابعون فيلمًا كارتونيًا بينما يلعقون بوظة الشيكولاتة بصحبة أبيهم وجديهم..

بعد حين ركضت"سنا" إلى الشارد تخبره:

- بابا طالعة عند ندى..

من خلفها جاء أخوها، يتراكضون سوية وصوت الجدة يلاحقهم بعلو:

- ماتجروش على السلم، بالراحة من غيرشقاوة..

عادت إلى ولدها الجالس بهمه شارد، تسيطر الكآبة على نفسه و أيامه، تمتمت بهمس خفيف لم يتبينه:

- عيني عليك يا بني، شيال هموم..



استطرادتها التالية وصلته بوضوح:

- كان مالها أسماء بنت خالك من توبنا ومتربية على إيدي كنت هتقولها يمين يمين، شمال شمال..

نفخ"بكر" بضجر من تلك القصيدة مهترئة القول:

- إيه لزوم الكلام ده دلوقتي يا ماما..

- لازمته إن مراتك والعقربة أمها منكدين عليك ومشتتين عيشتك إنتَ وولادك..

صمت قاطعًا الحديث، أمه حين تصل هنا لا تتوقف عن الندب على حظه العثر الذي أسقطه في تلك المرأة وأهلها عديمي الأصل ولا تفتأ أن تذكره بسذاجة اختياره.. تكفل أبيه بالرد عليها وتسديد حقيقة مقننة إلى ولده المكابر في الجهر بخطأه رغم اعترافه به بين حناياه:



- بطلي افترا يا فوزية، ابنك غلط أما معملش قيمة واعتبار لمراته من البداية، ولا علشان هو البكري يعني واخدة صفه على باطل..

نشب عراك بين والديه إثر جملة أبيه، حمل طفليه في منتصفه وغادر، عاد بهم إلى أمهم، انتظر حتى يفتح الباب ويدلفان، استدار بعدها على عقبه راحلًا، قبل أن يصل البوابة الحديدية للحديقة الصغيرة طرق نداؤها القريب مسامعه:

- استنى يا بكر..

دار ليجدها من خلفه، قريبة، جامدة، بعينيها يجيش الكثير، قابلها في صمت صار فرض عين عقب كلمتها التي أطلقها فمها مقابل صدره تمامًا:

- طلقني..





حياكة الخطط هواية تجيدها منذ الصغر.. والبداية هنا مع دعوة للغذاء بمطعم جيد، هذا في الظاهر أما الباطن فكان غرضه جلسة تعارف، أقرب لرؤية شرعية بمعايير مختلفة تنص على جهل المعنيين بالأمر، وحدها"ندى" صاحبة العرض والفكرة على دراية تامة بالظاهر والباطن، حين شاركت فيها خاطِبها راق له الأمر طاوعها وبدأ نهج التنفيذ، هو يسحب أخاه وهي تسحب الصديقة، خلق فرصة يلتقيان فيها، يتحدثان، والتالي هو نتيجة الخطة، أما أن يحدث التوافق المراد أو أن يمثل"عبدالله" بجثتيهما دون رأفة..

حضر"عبدالله" أولًا، سار إلى الجالسين، يلقي بحاله فوق المقعد وحقيبة حاسوبه على الآخر في تعجب من الأمر برمته، دعوة غذاء مفاجأة وتأكيد على حضوره، طرح أمامها استنكاره وتعجبه بكل صراحة ممكنة:



- إيه الكرم الحاتمي اللي هب عليكم فجأة ده؟ وراها إيه العزومة دي اعترفوا؟..

لم يجبه أحد، تهامسا لفترة تحت عقدة حاجبيه ثم فجأة وجد ابنة العم تنهض عن مقعدها، تهلل بقسماتها قبل النبرة، عادت وفي ذراعها تتعلق فتاة نهض لها الرجلان في طقس أخلاقي بديهي، بينما تتولى"ندى" مهمة التعارف:

- سارة صاحبتي، عبدالله ابن عمي..

حياها بهزة رأس صامتة ردتها له الفتاة بالمثل والشكوك تثقب ظنونه، بصره يقابل أخاه بينما يصله مزاح"ندى" المفتعل والفتاة تشاركهم الطاولة بعد ما أنزل حقيبته المحمولة أرضًا:

- أنتِ عارفه عبدالرحمن طبعًا..

همهمت الفتاة وتبادلت مع الشقيق التحية، شعر"عبدالرحمن" باحتراق أخيه الجالس إلى جانبه وقد



تبدلت ملامحه التي جاء بها إلى النقيض، تمتم في عجالة رافعًا قائمة الطعام أمام وجهه:

- نطلب الأكل بقى..

فعل"عبدالله" بالمثل ورفع بالقائمة أمام وجهه ليحجب كلاهما الصورة ثم رفع ذراعه يحيط بها عنقه وجاء برأسه إليه هامسًا من بين الضروس المطبقة في تمهل مدروس:

- لو اللي فهمته صح هلبسك الترابيزة دي في وشك..

ازدرد"عبدالرحمن" لعابه في اختناق قبل أن يحاول تخليص عنقه من قبضة ذراعه المحكمة ويخبره همسًا:

- اهدى كده واعقل أنا رايدلك الخير..

أرخى ذراعه عنه ونفث بحرارة قبل أن يسأله في جدية خفيضة:

- البنت تعرف حاجة؟..

حرك"عبدالرحمن" عنقه يتأكد من سلامته:



- لا طبعًا دي عزومة غداء بريئة علشان تعرفوا بعض مش أكتر، يلا بقى شوف هتاخد إيه..

دمر أعصابه بصمته وضيق نظراته المتوعدة قبل أن يتحدث بمطالبه التي لم تكن تحويها قائمة الطعام بل تعني وعيدًا آخرًا صريحًا بما سيطحنه أو يحيله إلى نتف صغيرة من جسده:

- اطلب لي كبدة، كلاوي، مخاصي..

طالعه"عبدالرحمن" ثم حط بكفه فوق ساعده يضغطه متوسلًا في جزع مصطنع كاتمًا الضحكة:

- بلاش مخاصي وحياة أبوك..

اخترق وجه ندى عزلتهما الورقية من علو بزمجرة:

- مش كفاية وشوشة، فضحتوني قدام صاحبتي..

رماها"عبدالله" بنصيبها من الوعيد المنتظر وكله يقين أنها صاحبة الفكرة والعرض طالما الفتاة صديقة لها:



- أنتِ؟ ده أنتِ هاتتعلقي من حبل أفكارك ده بس الصبر..

ارتبكت ملامحها وناظرت أخيه بسخط وقول هامس:

- أنا بتهدد من أخوك على فكرة..

- مش فكرتك، اشربي..

قرصت كتفه بغل ثم عادت إلى مقعدها سريعًا وعاد معها وجه الأخين متبسمين في مجاملة، حين انتهيا من طلب الوجبة عاد"عبدالله" إلى ظهر مقعده يدعي التشاغل بهاتفه..

هتفت"ندى" مستغلة فراغ ماقبل الطعام، تجذب ابن العم قسرًا إلى دائرة الحديث:

- صحيح يا سو؛ كنتِ قلتي لي من فترة إن والدك عايزينزل إعلان بخصوص حاجة كده في شغله، على فكرة عبدالله صحفي وممكن يفيدك في الحوارده، مش كده يا عبدالله؟..



رده عليها كان نظرة وتبسم مفتعل فهمت فحواه وتجاهلته بينما خرج صوت الفتاة ناعمًا، أنثويًا بدرجة امتياز وقد عبق ابتسامتها الحلوة التي خصتها به:

- بجد صحفي؟..

أجبر حاله على الاعتدال والاندماج و التعامل بكياسة وإن كان لا يطيق الأمر برمته:

- يعني بيقولوا..

تبسمت في عذوبة:

- تعرف إن كان نفسي قوي أدرس إعلام و أتخصص في الصحافة تحديدًا بس محصلش نصيب..

قالت هذا وبدأت في عرض الأمر لتجد لديه الإجابات الو افية بعملية بحتة، وبذات العملية دفن وجهه في الطعام تاركًا ثلاثتهم ينخرطون في الحديث دونه وكما هو متوقع مع"ندى" ظلت تجذبه قسرًا كل حين بمقاصد مفضوحة بل ونبرة مبالغ فيها:



- سارة مبدعة في الديكور يا عبدالله، معظم ديكور المسرح بتاعنا من شغلها وكمان في تصميم اللبس رااائعة..

- بسم الله ماشاء الله..

تمتم بها"عبدالله" بانبهار مجامل مما دفع بشقيقه لينفجر ضاحكًا رغمًا عن إرادته ويشرق بطعامه قبل أن يميل إليه منتقدًا جملته الأخيرة:

- إيه يا حبيبي هترقيها!..

عقب انتهاء الطعام مباشرة نهض"عبدالله" مستأذنًا مخبرًا الجميع أن لديه موعدًا غير قابل للتأجيل، قبل أن يتمم جملته كانت "سارة" تنهض بدورها تنتوي الرحيل مع وداع خص الو اقف بكفها الممدودة إليه بمصافحة:

- فرصة سعيدة يا عبدالله..

بسط كفه فوق صدره ورد تحيتها في حرج انتقل إليها كعدوى عملت"ندى" على مداو اته بينما تنهض من قعودها لتأخذ



بكف الصديقة المعلق في الهواء بحرج وتهمس لها بخفوت وصل الجميع:

- معلش يا سارة عبدالله مابيسلمش وكده..

تمتمت الفتاة بكلمات مقتضبة وغادرت في الحال بملامح صبغها الحرج، نقل"عبدالله" بصره بين الإثنين وقد أغضبه الموقف بحق:

- أول وآخر مرة تعملوا الحركة دي معايا..

لحقوا به داخل عربة الأجرة، تمطره ندى بعشرات الاعتذارات، مبررة موقفها:

- أنا آسفة والله ماكنتش أعرف إنك هتضايق..

يلكم أخوه كتفه من الوراء متابعًا:

- خلاص بقى قلبك أبيض..



لا يعير ثرثرتهما بالًا، يأمر السائق بالتوقف مترجلاً من العربة، يلحق موعده بخطى متأخرة، حين وصل وجدها في انتظاره عند ذات الطاولة التي جمعت بينهما في اللقاء الأول، تمتم باعتذار:

- آسف اتأخرت عليكِ..

همهمت بتبسم:

- ولا يهمك..

أردفت"فاطمة" في الحال بجدية:

- تحب تشرب إيه؟..

- ده واجب عليَّ..

- طالما في منطقتي يبقى عليّ أنا..

- يبقى ناخد ليمون بالنعناع ونخليهم تلاتة علشان خالد وصل أهو..

نهض مرحبًا بالمنضم إليهما ومعرفًا:



- خالد مدين المحامي، وصديقي بالمناسبة..

رحبت فيه بهزة رأس مع حضور العامل بالمكان، أملوه طلباتهم ثم استدار"عبدالله" إليها محدثًا:

- هتقولي لخالد دلوقتي كل الكلام اللي قلتهولي قبل كده بالتفصيل..

رفع خالد حقيبته فوق الطاولة بينهم وأخرج منها دفترًا صغيرًا وقلمًا:

- كلي أذان صاغية يا آنسة فاطمة، اتفضلي..

قصت الحكاية بتفاصيلها، حين انتهت صمت"خالد" مفكرًا في صعوبة الأمر، قلبه بين جنبات عقله ثم طرحه أمامهما بصوت مسموع:

- شوفوا؛ مبدئيًا كده علشان يكون في قضية لازم يكون معانا ما يثبت إن الأستاذ سلامة كان شغال في المصنع ده، وعدم وجود عقد عمل للأسف يعني صعوبة إثبات اتصاله بالمكان..



تهدل وجهها المشدود بإنصات، سألته في قنوط وإحباط غير مبشر بالمرة:

- طيب والحل؟ كده مفيش قضية!..

وضح لها بعملية رجل قانون:

- لو عرفنا نقنع اتنين شهود من عمال المصنع زمايله ونروح مكتب العمل نقدم شكوى، بعد كده القرار اللي بيطلعه مكتب العمل بناءً عليه بنرفع دعوة في المحكمة بالتعويض..

ارتشف"خالد" بعضًا من العصير البارد وعاد لها مستكملًا وصلة حديثه:

- وطبعًا الكلام ده كله هياخد وقت وغلبه لأننا بنحاول نثبت ارتباطه بالعمل من غير وجود عقد..

نقلت"فاطمة" بصرها إلى"عبدالله" في صمت فحدثها برفق:



- ما أنا وضحت لك من البداية إن الموضوع مش بسيط ولا سهل، بس احنا هنتوكل على الله ونحاول..

أردف ويده تشير إلى صديقه محدثًا إياها:

- هتوكلي خالد بالتوكيل اللي معاكي ونبدأ بأول وأهم خطوة، الشهود..

- على بركة الله..

تمتم "خالد" قبل نهوض واستطراد مخاطبًا صديقه:

- هظبط مواعيدي وأكلمك..

رحل المحامي أولًا، ثم نهضا معًا، يكتنفها خوف بدا جليًا والأمر قد اتخذ مسارًا جادًا، لاحظه فحاول تبديده مدركًا وقع شدة وحقيقة الأمر عليها كفتاة:

- احنا هنخاف من أولها ولا إيه..

- إنتَ مش هتسيبني لوحدي، صح؟..



قابلت طمأنته بسؤال سريع، مرتبك، لن تخفي خوفها، هي تخوض أمرًا أكبر منها والتوجس يملأ صدرها، أخبرها في جدية و كلمته السابقة عهد لن ينقضه مهما كلفه الأمر:

- أنا وعدتك، معاكِ للآخر ماتقلقيش..

ارتاحت قسماتها كثيرًا لقوله فغمغمت:

- لو ربنا وفقنا في حوار مكتب العمل ده، وقبل ما نوصل مرحلة المحكمة هعرف بابا، لازم يكون معانا على الخط..

وعلى هذا الاتفاق تفرقوا..

كان هذا أول مسمار يدق نعش الفساد تحت سماء ملبدة يملؤها الغمام فحجب شمسها وأعلن الأفق القاتم أن غروبها قادم لا محالة..



هي امرأة حياتها استقلال..



دربها الذي اختارته وارتاحت فيه، تحب أن تقود دفة مركبها بنفسها، منذ وفاة والديها، حملت نفسها بنفسها، تبغض شعور الحاجة والالتجاء، تفضل أن تكون ولية أمرها و لا يعلو فوق سلطة إرادتها أحد..

رفضت مقابلة العريس، كما رفضت من جاءها قبله، وضبوا اجتماعًا عائليًا مغلقًا بمنزل الجدة لمناقشة معضلتها الأزلية والوصول لحل يرضيهم، نعم هم جميعًا يتباحثون عن حل يريحون فيه بالهم ويتخلصون من حملها بإلقائها لرجل جيد من وجهة نظرهم، لن يسرهم الأمر لو أخبرتهم أنها متزوجة بالفعل، كتمت سخريتها بنفسها واستمعت لآخر حديثهم بغير إنصات، في النهاية تشاجرت مع عميها وشقيقها، لا تحادثهم ولا يحادثونها هذه الأيام، سيظل الوضع قائمًا حتى يتدخل أحدهم ويصلح الأمر باجتماع جديد يأد الخصام بسلام دون فتح جديد لنقطة الخلاف، حسنًا؛ ليصل الوضع حيث يريدون، هي ما عادت تبالي أو تكترث لكل هذا..



في المركز الطبي الحديث انتهت قبل حين من عملية تصحيح البصر، انتظرت لبعض الوقت حتى يصرح الطبيب بالخروج وقد طمأنها على وضعها، عاونتها الممرضة في لملمة أغراضها ومساعدتها بالمشي حتى وصلت إلى البوابة الخارجية، كانت تظن الوضع سيكون أيسر من هذا، أن تستطيع القيادة والعودة بمفردها كما جاءت لكن الألم بعينيها يعجزها عن فتحهما والرؤية بشكل سليم، لم يخفَ عليه هذا كله، كانت محط مراقبته منذ الصباح، منذ لحظة قدومها بمفردها، ظن أن هناك من سيأتي إليها ولو بعد حين لكن لا أحد، ترك منضدة الاستقبال وبتر الحديث من منتصفه مع الموظفة، تحرك على رؤيتها وحيدة فوق قارعة الطريق، اقترب على حذر، متحدثًا في لباقة:

- واقفه هنا ليه؟..

- دكتور ناصف، إنتَ لسه هنا..



دارت له تتبع مصدر صوته من خلفها، ترفع كفًا تحجب به الضوء المؤلم لعينها من فوق المنظار الشمسي بينما يصلها جوابه:

- أنا لسه ماخلصتش شغل، أنتِ بقى و اقفة كده ليه مش قلنا نروح نرتاح؟..

- ما هو أنا كنت مروحة فعلًا بس لقتني مش عارفة أسوق بالحالة دي فوقفت أخد تاكسي..

حط بكفيه فوق حزام خصره، يتلفت يمينًا وشمالًا مستفسرًا عن غرابة وضعها:

- هو مفيش قرايب، صحاب، أي حد معاكِ في ظرف زي ده..

حركت يدها في إشارة منها بأن الأمر لا يستحق:

- الموضوع بسيط يا دكتور مش مستاهل..



صمت يرمقها في عجب مستغربًا تلك البساطة التي تتحدث بها، لم يفكر مرتين بينما يرفع لها يده:

- طيب هاتي مفتاح عربيتك..

- أفندم؟..

- هوصلك..

اعترضت ببساطة ورفضت عرضه بلباقة:

- وتسيب شغلك؟ لأ طبعًا، ممكن توقف لي تاكسي بس وميرسي جدًا..

همهم بصوت مسموع قبل أن يسألها بجدية:

- يعني لو الونش جه شال عربيتك من هنا مش هتزعلي؟..

صاحت بفزع:

- إيه!..

ضحك بخفة ومزح بلطافة:



- شوفتي هتزعلي أهو، هاتي المفتاح بقى وبطلي رغي ده أنتِ مريضة غلباوية..

اتسعت ابتسامتها في سحر نافس أشعة الشمس الساطعة، عبثت داخل حقيبة يدها حتى أخرجت له المفتاح، فتح لها الباب المجاورللسائق وساعدها في الجلوس المرتاح، التف حول السيارة وجلس خلف المقود، حين أدارالمحرك سألها:

- ساكنة فين بقى..

أخبرته ثم أردفت بسؤال مقلد:

- وحضرتك ساكن فين بقى..

أخبرها فضحكت بخفة:

- يااه ده احنا مش جيران خالص..

- للأسف..



حل الصمت للحظات إلا من ضوضاء الشارع، بعد حين لم تستطع كبح فضولها، تساءلت بخبث متوار:

- يا ترى يا دكتور بتهتم بكل مرضاك كده؟..

نقل بصره بينها والطريق مجيبًا سؤالها الملتوي بفكاهة ومزاح وخبث متوار من ناحيته:

- بصراحة؛ بصراحة المساكين بس، و أنتِ شكلك كان عامل زي اليتيمة تقطعي القلب..

تبسمت في هدوء وارتكنت برأسها إلى المقعد مغمغمة على كلماته:

- بس أنا يتيمة فعلًا..

ارتحل عنه ثوب الفكاهة وامتلأ الفراغ بينهما باعتذارت جادة وصوت أجش يعني مايقول:



- أنا آسف جدًا يا عبلة، قلت ده بهزار ماكنتش أعرف والله، متأسف بجد..

أخبرته بقسماتها المرتاحة والمخفي أهم ما فيها تحت منظارها الشمسي الكبير:

- ماحصلش حاجة، أكيد مش هتعايرني بحاجة ماكنتش تعرفها يعني..

سكت نادمًا على ما نطق، يسألها بعد حين في تردد:

- والدك ولا والدتك؟..

تمنت لو أن عينيها لا تؤلمانها حتى ترى رد فعله بشكل واضح بينما تخبره بصوت خفيض شابه ابتسام لأجل حرجه البادي دون رؤية تامة:

- الاتنين..



نفخ بقوة مطالعًا النافذة إلى جواره قبل أن يعود لها باعتذار جديد غلفته تنهيدة ضيق:

- أنا بجد آسف..

- إنتَ أوفريا دكتور..

وصل بها أسفل البناية، ترجلت قبل أن يسبقها ويساعد، شكرته بعبارات امتنان كثيرة حين ناولها المفتاح، عارضًا على استحياء ورفق:

- هاتعرفي تطلعي ولا أساعدك؟..

- لا كده تمام قوي..

راقبها حتى اختفت، أمسكت سور الدرج واعتمدت عليه حتى وصلت الطابق الثالث حيث شقتها، تنفست براحة، كانت قلقة من أن تصادف أحد أبناء عمومتها فينشرون الخبر ويعاملونها معاملة المرضى، هي اليوم لا تناشد غير الهدوء والراحة، لكن أين لها الراحة والهاتف يدوي فوق رأسها بنغمته العالية..



على الهاتف كانت نبرة الزوج تبثها قلقًا وشوقًا وثرثرة تضيق بها ذرعًا مع شدة ألمها فتحتد عليه بنبرتها دون قصد:

- كويسة يا سالم ماتقلقش.. آجي فين بكرة إنتَ شايف الوقت مناسب يعني؟.. لا ماتتصلش تاني أنا كويسة وهنام مش عايزة حد يزعجني..

أسقطت الهاتف من يدها دون كلمة زيادة و انزلقت لداخل الفراش، وضعت مقطار العين وأغمضت جفنيها، كلها أمل أن يخف الألم لتغفو، تصاعد الرنين مرة أخرى أغضبها، ولأنها خمنت هوية المتصل ألصقت الهاتف بأذنها في غضب لإزعاجه:

- وبعدين بقى!..

تجعد جبينها مع وصول النبرة المغايرة لتوقعها، تمتمت باستنكار وصل صاحبه:

- إنتَ؟!..

والمعني..



طبيب، مهتم.



سلاحها صبر..

هي امرأة اعتادت الصبر والتحمل منذ الصبا، تعلمت كيف تلضم خيط المسئولية وتعقده حول إصبعها، تتحكم فيه وتحسن غرزه في الثقوب الصحيحة، ربما هي قدرات فطرية أو مكتسبة إثر نشأتها كابنة كبرى اعتادت تولي شؤون إخوتها الأصغر سنًا، لكن كل هذا لا قيمة له أمامه، لا تفلح في اختراق حصنه المنيع، صندوقها المغلق مازال على حاله كما هو، تراودها خواطر تربك الهدوء المسيطر على أيامها بكونها مع الشخص الخطأ، أنها مجرد أداة أراد استخدامها لنواياه التي تعجز عن قبولها، لا تستسلم لهذا، تقاوم أفكارها، ترفض قبول الأمر حتى لو لم يثبت العكس..



تمر الأيام معها برتابة ساخرة، سخرية تشمل حالهما مطموس الملامح، تحركت تغادر الصيدلية في ذات التوقيت من كل نهار، حيث الشجرة و الهرة مع صغارها في انتظار وجبتهم الخاصة منها، تتطلع إليهم للحظات مع تبسم طفيف قبل أن تعود أدراجها إلى العمل، ساعة أخرى وكان السائق في انتظارها، غادرت المكان مودعة زملائها و اتخذت من المقعد الخلفي مكانًا بات روتينًا لأيامها..

- معلش عندي مشوار الأول يا عم إبراهيم قبل البيت..

- أمرك يا هانم..

رمقته بعتب من خلف المرآة فاستدرك الرجل العجوز خطأه بتبسم ونبرة ودود:

- أأقصد يا بنتي..



أدار المحرك فاسترخت في جلستها ترمي نظرها جانبًا فتطال آخر لقطة من بنيان الشركة الكبير، ما بينها وبينه يشبه هذا البنيان الذي يغرق حاله فيه..

منحها باسمه حياة ملوكية، يكفي أن تلفظ كنيته حتى تنطوي لها الأرض عند قدميها، ماتحتاجه وتتمناه يأتيها لعندها إذا طلبته وحسب، حساب مالي خاص بها لم تسحب منه قرشًا واحدًا ولا تظن أنها تريد أن تفعل، سائق تحت طوعها يأخذ بها حيث تريد وقتما تشاء..

زارت أهلها أكثر من مرة، احتفلت معهم بنبأ حمل ابنة العم، تقضي برفقتهم وقتًا سعيدًا لكن شعورًا بالغربة يتملكها حين تطيل المكوث هناك، صار بيته هو الأصل الذي اعتادته، كما اعتادت أهله أكثر، تآلف أخذ مجراه الطبيعي مع الوقت والتواصل، عرفت عن أخته وأولادها أكثر، عرفت أخاه الغائب على الدوام وأمه الأستاذة الجامعية، ربما لا يشبهونها، لم تخطأ



في هذا لكنهم أناس جيدين المعشر، أحبتهم وارتاحت لشعورها هذا، كل جوانب الحياة تسير، تتحرك، تتقدم وتتبدل، إلا هو، مازال على عهد الصمت باقيًا، يقصيها عن قربه فيميت في عينها كل الحياة..

وصلت بها السيارة حيث المركز التجاري، لم تتأخر، خمس وأربعون دقيقة كانت تعود بعدة أكياس، دفعت بهم لداخل السيارة ثم جاورتهم، دقائق تالية وكانت أمام المنزل، ترجل السائق يعاونها في حمل مشترياتها ويرحل بعدها، رهبة سريعة تتملكها مع أول لحظات العودة، الهدوء الموحش يسيطر على الأجواء، تشعل كل المصابيح وتترك صوت التلفاز يصدح ويغطي على هسيس الصمت فتستكين نفسها وتهدأ..

صعدت إلى غرفتها، أحكمت غلق بابها ثم بدأت باغتسالٍ سريعٍ، بعد أن أنهت ارتداء ملبسها ألقت بجسدها المتعب وسقطت في وصلة نعاس طويلة، حين استيقظت كانت ضوء



النهار قد رحل من خلف رفرفة الستائر الشفافة وحلت عتمة الليل، وجدت ثلاث مكالمات فائتة من حماتها، لعلها تريد تذكيرها للمرة العاشرة بأمر المناسبة العائلية التي ستقام بعد أيام، هاتفتها فوجدت تخمينها في محله، أنهت المكالمة نازلة إلى المطبخ، تعد طعامًا يسكت قرقرة بطنها الجائعة، طعامٌ لا يشاركها فيه أحد، تطهو لنفسها حيث أطعمة السوق لا تناسب ذائقتها ولا معدتها المضطربة لتوافه الأمور، حساء الدجاج الكريمي هذا كل ما اشتهت، سكبت صحنًا كبيرًا وراحت فوق المائدة تبدأ وجبتها، كانت الساعة تدق تمام العاشرة حين رفعت أول ملعقة إلى فمها وانفتح الباب ليدلف في هدوء ناسب صمته، ألقى تحية عابرة، مجرد أحرف خافتة يعلن بها حضوره قبل أن يختفي خلف باب مكتبه..

على غير العادة وقف قريبًا منها، طالعها للحظات صامتة تكلم بعدها:



- ما بتستخدميش الفيزا ليه؟..

بأي يحق يريدها أن تقبل ماله؟..

ليس قبل أن يكونا زوجًا وزوجة كسائر العالمين، لم ترفع رأسها، ظلت على حالها تتناول طعامها بتلكؤ واضح رافق كلماتها الجامدة مثيلة خاصته:

- أما أبقى أحتاجها هستخدمها..

- تمام، براحتك..

قالها في غلظة مقتضبة وعبر نحو الأعلى، تظن أنها صارت جزءًا من محيطه لا تختلف كثيرًا عن هذه المائدة أو تلك المقاعد، مال جانب فمها ساخرًا لهذا الخاطر ثم تابعت تناول الطعام، لحظات وكان يهبط الدرج، تابعت تحركاته خفيةً كفعل لا إرادي صارت تمارسه، خصلاته الرطبة تعني أنه أنهى اغتسالًا قبل لحظات، تناول مفتاح السيارة المتروك أعلى المنضدة وغادر البيت، عاد خلال ثوان حاملًا أكياسًا عديدة، ذهب إلى الزاوية



قاصدًا الباب الموصل للقبو، غاب خلفه فنهضت بصحنها إلى حوض الجلي، هي لا تريد التفكير بهذا الأمر، لا تريد التفكير في كونه يفتعل جريمة تستوجب عقابًا كبيرًا، لا تريد التفكير أنه هناك على بعد خطوات منها يوجد رجلٌ مكبلٌ بأصفاد حديدية يتلقى عقابًا لا تفهم أسبابه، لا تريد التفكير لأنها تخاف المعرفة، ذاك الأمر الذي يعمل على إخفائه عنها صار يرعبها أن تعرفه..

تركت الصحن جانبًا، جففت يديها ثم مضت باتجاه الدرج قاصدة غرفتها، أوقفتها خطواته العائدة بشبه هرولة، يقف أمامها بأنفاس صعيبة وعينين مذبذبتين رأت فيهما نظرة جهلت تفسيرها وحروفه العسرة تشق حنجرته لتخرج في جمود شاق:

- ما بيتحركش..

رمقت الباب المفتوح بعينين مصدومتين وعادت له في صمت قاسٍ ابتلع كليهما، أنفاسها بدت مضطربة مثله الآن لكن بعد هذا تحركت، بل ركضت، تجاوزت البابين وتعرقلت خطواتها



مع أكياس الغذاء المبعثرة، التقت مع جثته المتكومة بوسط الغرفة، رائحة نتنة جعلتها تسعل مرتين قبل أن تجثو بقربه، تجس نبضه بعملية طبيب وتعيد الكرة مرة بعد مرة للتأكد بينما بصرها يحوم فوقه، آثاركدمات وجروح، تشققات جلدية وأظافرمصفرة ومعقوفة، أكثرما أثارحفيظتها أقدامه المقيدة، أصفاد قاسية تحيط بالكاحلين لتثقل حركته وتجعل منه رهينة وسجينًا يتذوق ويلات ما اقترف ذات زمان..

سؤاله المشحون يخترق مسامعها:

- مات!..

رفعت له رأسًا حادًا تهمس في غضب وحدة أججتها صورة الرجل:

- الموت مش بعيد بحالته دي..

عادت للآخر محاولة السيطرة على شتات تركيزها، قلبت وجهه الساكن يمنة ويسرة، ضربت فوق وجنتيه بخفة، لم تجد



استجابة فنهضت من جثوها، وقفت أمامه حائرة، مرتبكة، خائفة، تقلب كفيها في تشتت يشبه عقلها وبصرها يتنقل بينه والجسد المسجى دون حراك:

- جايز غيبوبة سكر، خده مستشفى مش عارفة!..

لم يأتي بقول أو فعل، ظل مرتكزًا بكتفه على الجدار ينظرها والرجل بأعين خاوية، رمقته بنظرة ساخطة و أنفاسها الحارة تتلاحق بصعوبة، نظرة واحدة طوقت بها الرجل الساكن على حاله جعلتها تحسم قرارها، وإن كان هذا ضد رغبتها، هي ستفعل ما يمليه عليها ضميرها الحي وحسب، تحركت إلى الأغراض المبعثرة، سحبت كيسًا تفرغ محتواه بعشوائية بعثرت ما فيه أرضًا، عادت تجثو بقرب الرجل، تدس بفمه السكر وتنهض من جديد في حركة رشيقة ثم تعود إليه بزجاجة مياه ترشق البعض منها فوق وجهه، مرت لحظات قبل أن يصدر أنين



خافت مع تحرك طفيف لأطرافه جعلها تتنفس الصعداء، نهضت ترفع ذراعيه المتهدلين وتأمر الصامت بعملية صارمة:

- ساعدني ننقله..

تحرك في تلكؤ واضح يعاونها في سحبه بعيدًا عن مدخل دورة المياه القريب، طرحوه فوق الفراش، عدلت له وضع رقوده، ثم نهضت متمتمة باختصار عجول والمقصود زوجها:

- تعالى ورايا..

خص الراقد بنظرة قاتمة ثم تبعها في صمت، فوق مائدة الطعام وقفت تدون ماتحتاج حينما انتهت ألقت بالقلم ومدت له بالورقة البيضاء:

- هات الحاجة دي من أقرب صيدلية..

تناول الورقة وتحرك بواجهة غير مكترثه، وصل عند الباب فأوقفت خطواته بصياح مفاجئ:



- استنى..

داريقابل ارتباكًا يكسو وجهها ونبرتها المهتزة تتأرجح بخوف:

- نسيت تقفل الباب!..

تخلى عن قناع البرود وتحرك يحكم إغلاق الأبواب، غاب عشرين دقيقة جلست فيها بتحفز فوق طرف الأريكة، تضم جسدها بذراعيها وتشخص ببصرها نحو الفراغ حتى عاد، تبعته من جديد إلى حجرة القبو الخانقة، وقف فوق رأسها مكتفًا ساعديه بينما تقوم بقياس الضغط والسكر للرجل، تطالع تشققات وجهه ثم تمر فوقها بدهان وتخصه بهمس مهتم:

- حاسس بأيه؟..

لم يجب الرجل على سؤالها، كان مضطجعًا على جانبه يأن ويبكي كولد صغير، طالعته بشفقة وإن كان أفضل حالًا الآن، شعرت بحالها شريكة في هذا الجرم، وأنها بالفعل تساعد على



أذية روح لا حول لها ولا قوة تحت يد رجلها المتجبرة، تطلعت لما حولها بنصف تركيز ثم نهضت دون حديث تغادر الغرفة، عادت خلال لحظات وبين يديها صحنٌ من الحساء صنيعة يدها قبل حين، تقربه إليه وتدفعه بالقول حتى ينهض ويتناول، توصيه بأخذ الدواء الذي تركته بجانبه، توصيه بجدية طبيب أن يهتم بالطعام والدواء حتى يصح ويسترد عافيته، تفعل وتتحدث بتلقائية غافلة عن العينين المتقدتين من فوقها، وقع بصرها أثناء حديثها فوق قيد قدميه، بترت الكلمات وأمسكت به تزحزحه فلا يتحرك قيده الراسخ قيد أنمله، رفعت له رأسًا من موضعها الجالس فوق الأرضية:

- فكه..

تأمره بلهجة غاضبة وتستطرد بذات النبرة:

- الراجل تعبان مش قادر يتحرك، فكه حرام عليك!..



قبض على ذراعها يوقفها على قدميها قسرًا، دفع بجسدها إلى الخارج في قسوة:

- عملتي اللي عليكِ وزيادة يا دكتور، مش مطلوب منك أكتر من كده..

تحت بصرها أحكم إغلاق الأبواب، فتشت في وجهه عن ذرة تعاطف، أو أي شيء يفيد بأنه يشعر ويتأثر كسائر البشر لكنها لم تجد غير واجهة جليدية تكسو قسماته، يقف بشموخه، يداه داخل جيوب سرواله غير مبالٍ، اقتربت، تقابل صفحته الباردة تلك وتسقيها بعضًا من حرارة ما يعتمل فيها:

- دي جريمة، روح بتموت تحت إيدك!..

صاح بغضب مباغت:

- ما يموت!..

طالعته بقسوة حملت بغض الشعور لكلماته، لا تظن أن ذاك المسكين تجاوز في أذاه لهذا الحد المستحق، من يجرأ على مس



أوضرمن له مكانته، هي ليست مغفلة، وطالما لا يريد مصارحة بالحقيقة لن تأخذ صفه على جهل:

- إنتَ إيه ماعندكش قلب؟ مهما كان حجم الغلط أو الأذى عند عتبة الموت كل حاجة بتهون وتبقى مالهاش قيمة..

دنا من وجهها، يقابل بغض الشعور بصدام حقيقة نواياه بقسمات حدتها القسوة:

- ومين قالك إني عايزه يموت، الموت رحمة مايستحقهاش أمثاله..

رفعت له عينين مذعورتين تسأله عن منطقه الخالي من ذرات الرحمة:

- ده في شرع مين؟..

على مهل وبرمق أخيرطرق بكلماته عقلها:

- في شرع اللي عاش وحس..



تغضن جبينها رفضًا، تضيع في دوامات الجهل لمقاصده وكلماته المظللة، لكن تبقى ر افضة لهذا المنطق وتلك القسوة المتملكة منه:

- مش كده، مش بالطريقة دي، احنا مش عايشين في غابة..

يلتف عنها فتدور تقابله بإصرار، تدحض قناعاته الباطلة بانفعال مشحون:

- في قانون يجيب لك حقك، لو ده ردك على أذاه يبقى إنتَ كده فرقت عنه إيه؟..

ألقت بجملتها الأخيرة وفي ظاهرها حنق وباطنها خوف عليه من هذا الدرب الذي يتبعه إلا أن وقع التشبيه بذاك الملعون كان شديدًا للحد الذي فقد أمامه السيطرة فخرجت الكلمات كسوط يجلدها:

- ماتشغليش بالك بحاجة ماتخصكيش، خليكِ في حالك واعرفي حدودك..



تجمدت تطالعه للحظات احتقن فيه وجهها ونغزت عينها العبرات، جاهدت حتى لا تبكي، خرجت نبرتها مهتزة تواريها خلف ابتسامة زائفة بلا روح:

- العفو منك يا أسمر بيه، غلطت وتعديت حدودي أنا آسفة، ياريت بس تعرفني علشان أنا بجد مابقتش عارفة إيه دوري في حياتك من الأساس..

تغضنت قسماته لهيئتها تلك، نبرته الجافة خرجت بصيغة الأمر والغضب:

- هتابعي حالته وتعملي اللازم، هو ده دورك ودي آخر حدودك..

صمتت تهضم كلماته في عسر ثم ترفع له وجهًا ثباته واهٍ كقلبها بهاته اللحظة:

- أنا مش هشارك في جريمة قتل..



ركلت الكرة في ملعبه وليفعل ما يريد، تزيد العبرات في ثقلها، تقتلها في مهدها عند طرف الجفنين، تشحب النبرة مع قولها الأخير:

- ياريتك أخدت رأيي قبل ما تخدعني وتجيبني بيتك..

غمغمت بهذا ومرت من جانبه أو من خلاله لا يدري، تابع وقع خطواتها فوق الدرج حتى اختفت..

في هاته اللحظة تمنى لو أنه لم يقحمها إلى عالمه، طهارة روحها لا تليق بهذا الدنس الذي يحيطها من كل جانب بين جدران بيته.

لم يكن يدري كلًا منهما أن للصمت مستوى أعلى وأكبر، أن يغدو وجودهما مجرد طيف غير مرئي في حياة الآخر، مع آخر صدام حدث بينهما تنحت عن حياته بشكل تام، هذا أول صباح



تجتمع به، بل وتجالسه لقرابة الساعتين داخل السيارة المتوجه إلى مزرعة العائلة لأجل حفل الخطبة المنتظر..

منذ الصباح والسيارات حديثة الطراز تصل تباعًا، كانا آخر الواصلين، استقبلتهما السيدة"ليلي" في حبور، علقت ذراعها فوق ساعدها وأخذت بها إلى الداخل حيث المكان يعج بتجمع عائلي كبير، التقت بهم جميعًا يوم عرسها تتذكر منهم الدرجة الأقرب، عانقت العروس وقدمت لها مباركتها، جالست الفتيات لبعض الوقت قبل أن تخبرها واحدة من الخادمات أن غرفتها جاهزة فتبعتها، أبهجها منظر الصغار المتقافزين من بقعة لأخرى، مرت من بينهم وانتهت داخل غرفة بمساحة صغيرة وسقف واطئ، بالكاد تحوي فراشًا متوسطًا وخزانة مع طاولة زينة صغيرة لكنها ذات طراز خشبي دافيء وإطلالة خضراء نضرة سحرتها مع أول طلة، تنفست براحة حين وجدت حمامًا خاصًا تابعًا للغرفة، خلعت حجابها ومنحت خصلاتها المعصوقة أنفاس الحياة ببعثرة أصابع، رفعت حقيبة ثيابها



فوق الفراش، توقفت يدها عن الحركة للحظات حين رأت حقيبته الصغيرة بالقرب منها، طرقات على الباب قطعت وجومها لتسحب وشاحها وتضعه فوق رأسها بعشوائية، قابلت"رانيا" الابنة الكبرى للسيدة"ليلى" والنسخة الأخرى منها، أخذتها على حين غرة:

- هدبسك في مالك يا مريوم، بصي عشر دقايق بس أقتل أخواته وآجي اخده، تمام؟..

تناولت منها الصغير ذا التسعة أشهر وكلها شفقة على حالها الراكض بين ثلاث صبيان يبتدعون في فن الشقاوة:

- هاتيه طبعا وماتقلقيش عليه..

أخبرتها"رانيا" بلطافة مشيرة إلى رأسها وحجابها:

- على فكرة مفيش غير أوضة ماما جنبك وبعدها أوضة للبنات، خدي راحتك خالص وماتقلقيش مفيش رجالة هتيجي هنا..



أتبعت هذا بابتسامة جانبية تخص القادم برتبة أخ للمتكلمة و زوج للمستمعة:

- باستثناء الباشا ده طبعا..

استدارت"مريم" بالصغير إلى الداخل وصوت إغلاق الباب يتبعها كوقع خطواته الهادئة، توسدت الفراش بالصغير تناغيه وتلاعبه وقد بدأ بالزمجرة مستشعرًا غياب أمه، أما الآخر بادل تجاهلها لوجوده بآخر، عبث بحقيبته ثم غاب داخل دورة المياه، رفعت بصرها في إثره، كل هذا الصمت المغلف بالجفاء القائم بينهما يؤلم قلبها، بل يؤلمه بشدة ويدفعها لتفكر أنه ربما حآن الوقت لتنتهي مسألة الزواج ويمضي كلاً منهما في طريقه، جذب الصغير خصلة من شعرها بقوة كأنما يقطع أفكارها، دغدغت معدته فكركر ضاحكًا، أسبى قلبها بحلاوة الضحكة، التهمت كفه بقبلات نهمة وضمته لصدرها بقوة متاحة وشفتاها لا تتوقف عن لثم راحة يده الناعمة، لم



يستطع تجاهل تلك الصورة حين خرج بكامل ثيابه وقد أنهى اغتساله للتو، التقطها مرة بعد مرة، في الثالثة اصطدم مع عينيها من خلف سطح المرآة العاكس، قطع وصالهم بكاء الصغيرو انشغالها بهدهدته فوق صدرها، قبل مغادرته للغرفة تردد في بدأ الحديث ثم استطاع أن يفعلها في النهاية:

- العشاء هيكون على تسعة..

رفعت له عينيها، وجهها ذابل يخطه الحزن قبل الإرهاق وإن جاهدت لإخفائه، صورتها مع الصغير ظلت تربكه، وجد حاله يغمغم ثانية دون ترتيب:

- الكل لازم يكون موجود..

هل يهتم لأمرها؛ حقًا؟!..

انتشت بداخلها، صدقت هذا الشعور ولو كان كذبًا أو مبالغًا فيه، دون أن تشعر كانت تهديه ابتسامة وهزة رأس، عقلها يهمس لها الآن بكونها حمقاء، لكنها لم تستطع غير أن تسعد



بهذا النذر البسيط، كما لم تستطع منع حالها لاحقًا؛ بينما كانت بدورة المياه أن تمسك بقميصه المخلوع من فوق المشجب وتقربه من أنفها، تتذوق بكل حواسها عبق جسده المخلوط بعطره.

العشاء تجمع عائلي بامتياز، طاولة ضخمة ضمت الجميع فوق الأرض المعشوشبة للحديقة الواسعة، ست خادمات تناوبن على إعدادها والخدمة حتى انتهى الجميع من تناول وجبته، تفرق الجمع بعدها، كل اثنين أو ثلاث سوية، العروسان مصب التركيز للأعين، يجيئان ويذهبان متعانقي الأيدي تطوقهما السعادة المغمورة بالعشق والهوى، ثرثرة لا تنتهي عن كيفية تزيين الحديقة، أثواب الزفاف، مراجعة قائمة الطعام والمدعويين، أجواء لطيفة مبهجة تندمج فيها حين وتنصت لها أخرى، كان الحوار الآن عن اسطبل الخيل التابع للمزرعة



وشغف البعض من الفتيان والصبايا، يخبرونها كضيفة جديدة في أول زيارة لها معهم عن متعة ركوب الخيل فتخبرهم هي وذكرى الماضي تضوي برأسها:

- أنا آخر مرة ركبت فيها خيل كنت تسع سنين، وقعت و اتعورت ومن وقتها حرمت..

- الصبح هاخدك جولة بالحصان بتاعي، بصي يا مريم إحساس رهيب مش هينفع أوصفه لازم تجربي بنفسك..

شابٌ، يافعٌ في الثامنة عشر يتحدث بحماس و انطلاق زاد مع موطن شغفه، قفز أمامها طارحًا الفكرة المفاجئة في حماسة:

- تعالي افرجك على الأسطبل..

ارتبكت قسماتها المتباسطة قبل ثوان، الساعة تخطت الحادية عشر ليلًا، لم تجد غير الوقت مبررًا لتتفادى الحرج برفض عرضه الغير مناسب لها والغافل عنه الشاب:



- معلش يا باسم الوقت اتأخر، الصبح من بدري هتلاقيني مستنياك..

زاد إصراره وأمسك بكفها يسحبها لتنهض في عفوية تعامل يتبعها مع الجميع:

- في كشافات نورهناك ماتقلقيش، هاتنبهري والله..

"باسم!.."

انتفض الشاب تاركًا يدها إثر زعقته المدوية كما جذب كل الأنظار إلى حدة النظرة والنبرة ليعم الصمت، كان يقف في الجوار، ينظرلهما بجانبه معلقًا هاتفه المحمول قريبًا من أذنه، استطرد مخاطبًا الفتى وقد خفف من حدته ليهدأ من معالم الارتباك الجلية:

- سيب الدكتورة على راحتها..

تمتم الشاب باعتذارسريع وتخلى عن عرضه مبتعدًا في صمت، أخذت"مريم" الصغير"مالك" من بين ذراعي أمه توراي



بانشغالها فيه خفقات القلب الثائرة، تسرق من الزمن ومضات تأخذ فيها صورته بين جفنيها تحتفظ فيها حتى تذوي وتذوب فيتخبط بصرها باحثًا عن لمحة جديدة تتمنى لو توشمها فوق جدار القلب حتى لا تنمحي أو تغيب..

هل تعترف الآن أنه رغم ما بينهما من حوائل مازالت تشتهي قربه، أن بكاءها طيلة الأيام الفائتة كان خوفًا من أن ينهي ما بينهما بفراق؟!..

تريده هذا ما توقنه، قلبها يريده، وإن كان سقوطها فيه متبوع بألم، بفراغ سرمدي يودي بكل منها في طرف..

انفض الجمع واحدًا تلو الآخر، صعدت غرفتها وبدلت ثيابها، أطفأت المصباح واندست داخل الفراش، تركت جسدها ينساب بنعومة بين الأغطية الوثيرة، حدقت في السقف القريب بفكر شارد، تركته جالسًا مع بعض الرجال، الكل يصعد إلى



غرفته تباعًا، لا تعلم شيئًا عن ماهية نواياه، أين سيقضي ليلته ولا كيف؛ لا تعلم..

ظلت تتقلب بالفراش لوقت أحست به طال، نهضت إلى النافذة تتطلع إلى الحديقة على مهل، غادر الجميع، لم يتبق غيره يوليها ظهره، جالسًا فوق المقعد وضوء هاتفه يعاكس المحيط الشبه مظلم من حوله، ظلت واقفة حتى تعبت أقدامها فعادت جالسة إلى طرف الفراش مثقلة نفسها بكل شعور، لم لا تكون حياتهما كسائر الجميع، يحادثها بلا تكلف وتضاحكه ببساطة، يجاورها وتجاوره وعند المساء تجتمع و إياه خلف باب واحد، ماذا يفعل بالأسفل وحيدًا بهذا الطقس الأقرب للبرودة بينما ينعم الجميع بالنوم الهانئ داخل أسرتهم الدافئة!..

حملت شعورها هذا ونهضت تراقبه من جديد، مازال على حاله، فقط مدد ساقيه أمامه فوق مقعد مقابل وعقد ذراعيه



فوق صدره هائمًا مع الفراغ بالنظر، تراه يتململ في جلسته، يخرج هاتفه مرة، يلقي به عقب حين، يعود لوضعٍ مسترخٍ ويبدله بعد لحظات، ثلاث ليال مدة مكوثهما هنا؛ هل سيقضيها جميعًا بلا نوم أو راحة؟!..

أكثر من ساعة مرت وهي و اقفة على أقدامها حتى تعبت، صرخ الجسد وأنَّ طالبًا الراحة، غادرت النافذة يائسة من حاله تاركة إياه وحيدًا تضن عليه الراحة وقد جادت بكرمها على الكل إلاه..

استسلمت لراحة الجسد لكن جافاها سلطان النوم، لم يطرق أجفانها أي نعاس، ظلت ساهرة تنطوي على جانبها في صمت، قبيل الفجر شعرت بوقع أقدام هادئة انعكس ظلها وحجب منفذ الضوء الوحيد من أسفل الباب، تأكدت أنه هو حين بقي هكذا للحظات قبل أن يدور مقبض الباب ويدلف إلى الداخل، أسبلت أهدابها تدعي النوم بينما جسدها ينكمش على طرف



الفراش أكثر وأكثر، خطا في الظلام بخفة تاركًا متعلقاته فوق المنضدة الجانبية ثم توجه إلى الطرف الآخر من الفراش عازفًا عنها النظر، دون أن يبدل ثيابه أو يخلع عنه حذاءه تمدد بجسده المتعب في وضع المسترخي على شطر واحد من الفراش، ساقه فوق الآخرى ورأسه يميل إلى الجدار من خلفه، مضت لحظات قبل أن يلتفت إليها، توليه ظهرها في ادعاء خادع بالنوم، خصلاتها المنثورة من خلفها تحتل الفراغ بينهما، ظل الوجوم يسطر تفاصيل وجهه حتى بعد أن فارق صورتها وعاد يلتقي مع الفراغ لاعنًا في خاطره ساعات الليل الزاحفة ببطء قاتل وهذا الظرف المجبر عليه طبقًا لالتزامات العائلة..

يكره الرجل فيه الظهور بصورة النقص، يدعي الكمال أمام الجميع بينما في الحقيقة وضعه المخزي يمزق اعتداده بنفسه، يقهره، يذبح كرامته بسكين ثالم ويبعثر أشلائها عند قدميه، رغم يقينه التام بأن مشكلته ليست فيسيولوجية لكن هذا لا يغير حقيقة وجود امرأة جميلة إلى جانبه تتمنى قربه شأن أي



امرأة مع رجلها فتكون له المتاع والسكن بينما هو يعجز عن إتيانها ما تريد..

كان يعلم وتعلم أن الليلة لن يطرق بابهما نعاس، وأن ذرات الهواء لأول مرة ستمزج أنفاسها بأنفاسه، يتذوق كلاهما معنى قرب الآخروإن كان بشكل غير منصف أو عادل..

وأن مع حلول أول خيوط للنهار سيلملم كل هزائم الليل، يتوشح بردائه الصلب البارد ويغادر.



معرفة مواطن ضعف إنسان كارثة..

تلك ثغرة يعبر منها الشيطان لو أراد، وهو عرف وتر ضعفها، عزف فوقه معزوفة حلم وشغف، ذلل لها العقبات، أخبرها أن كل بداية تستلزم شجاعة، وأن مثيلاتها الكثير خاضوا ذات التجربة، مروا بتفاصيلها وتخطوا عثراتها وأن معارضة الأهل أمر وارد متبوع بجهل، وهي عليها تقديم إثبات للجميع أن لديها



شغفًا يستحق الخلود، يستحق التوثيق بالحفر داخل العقول والقلوب على حد السواء..

حذاء رياضي يقبل الأرض بخطوات مترددة ترافق خفقات نبض صاحبته، داخل غرفة مكتبه الخاص جلست تقابل الوجه الأربعيني بقلق سرعان ما بدده بكلماته المحفزة والمثيرة لدفقات الحماس بدمائها، ثرثرة عن دورها في الفيلم الاستثنائي وعقد ذيلته باسمها وتوقيعها كإجراء روتيني كما أخبرها عقب قبولها لعرضه..

- مبروك يا فنانة..

قبلت "ندى" العبور من بوابة النجومية

وعلى وميض الكاميرات..

الاستعداد.



(7)

ميزان الحياة أمسٌ وغد

واليوم هو نقطة ارتكاز

حين تفقد بوصلة المعرفة أنظر حيث تقف بقدميك، أنظر إلى الأمس بميزان عدلك وخمن غدك القريب، لا تقل من أين لي هذا؟..

عزيزي الإنسان أنتَ خلاصة مسيرتك المخيرة بيد مالك الكون..

- طلقني..

قالتها بلهجة جامدة ونفس ملأها الغضب البارد، الصد والعزوف كان في نظرتها والغضب المتلظي كان فيه، يعتمل بصدره وطال قبضتيه المتحكمتين حول ذراعيها بقوة، أبت أن



تظهر ألمها وهو يهزها بعنف باحثًا عن زوجته التي يعرف ليس هذه النسخة الرديئة التي تشبهها:

- هي وصلت معاكِ لكده!..

يستنكر، يغضب، يتعجب من مآل طريقهما، تخلص ذراعيها من بين قبضتيه بانتفاضة طالت النبرة:

- شوف إنتَ وصلتنا لأيه..

وتردف بنبرة هازئة محتقنة:

- ولا كنت فاكر تجاهلك ليا حل؟..

وكز جانب رأسها بقوة السبابة والكلمات:

- لا كنت بحاول ألاقي حل فعلًا، حل وسط يرضي الكل، بس واضح إن المدام ليها حسابات تانية..

شدت من وشاحها حول ذراعيها، تكلمت بأَنَفة:

- ويا ترى لقيت حل وسط يرضي الكل؟..



دقق فيها النظر لثوانٍ، تضم جذعها بوشاح خفيف فوق ثيابها البيتية، تهز ساقها في تحفز، تهرب ببصرها جانبًا بينما نفسها المشحونة ضده تترقب أي بادرة لتنفجر، وصلت بها أمها لمرادها، أقامت الحاجز الذي تريد، ولأنها غبية تركتها تفعل..

تبسم لهذا التفسير الواضح ابتسامة زائفة:

- عارفة يا نادية أنتِ مافكرتيش للحظة أنك ممكن تكوني على غلط، مش فارق معاكِ غير الأسطوانة الكدابة اللي مشغلاها، سلمتي ودانك لأهلك وقبلتي لي الإهانة وجاية دلوقتي تخلقي حاجز جديد وتعيشي دور الضحية..

التقت عيناها بعينيه في نظرة مطولة، ضجيج السيارات المارة غطى على الصمت القائم، وقف كلاهما للحظة ناظرين من خلفهما، باحثين عن غنيمة حياة جمعت بينهما لسنوات، كان الأثر فارغًا..

عاد يتكلم، أخبرها بصوتٍ خاوٍ كحالهما:



- أنا فكرت جديًا أكلمهم ألغي العقد و أتحمل نتيجة قراري أيًا كانت، المهم نكون سوا، ماخطرش على بالي إني هونت قوي كده..

نطقت بحدة، تدافع وتبرر طلبها الأهوج والذي لم يكن يحمل بين طياته غير لوم وتقريع على تجاهله لأمرها:

- أنا عارضت أهلي في يوم و اتجوزتك، تفتكر صعب أروح معاك أي حتة؟ أنا لا عايشة دور المظلومة ولا الضحية، أنا إنسانة طاقتها خلصت، مابقاش عندها قدرة تبني وتأسس من جديد في مكان مؤقت زي اللي قبله بس إنتَ مش شايف ده ولا عايز تفهم أوتحس..

- ضيعتي حقك يوم ما سيبتي بيتك ودخلتي أهلك وسطنا و أنتِ عارفة اللي بيني وبينهم..

- إنتَ مادتنيش الحق ده من الأساس علشان أضيعه..



حرك رأسه بلا معنى، يدوران بنفس الدائرة، يعودان حيث نقطة البداية داهسين في طريقهما كل جميل كان، الحديث لم يعد ذا قيمة:

- خلاص بقى مش فارقة..

لم يمهلها القول، صرح بقراره الأخير وليد اللحظة في جمود:

- أنا مسافر كمان أسبوعين، على الرياض، أخدت قراري.. بيكِ أو من غيرك، ده اللي هتختاريه..

تصنع التذكر بتبسم ساخر وختام لحديث لم يصل بهما لبر:

- وآآآه كنت هنسى؛ طلاق مش هطلق وأعلى ما في خيلك أنتِ وأملك اركبيه..

تمنى أن يضرب رأسها في أقرب جدار جوار جملته الأخيرة لكنه آثر الرحيل.



لم تكن العودة إلى بيته الخاوي خيارًا جيدًا والضيق يملأ صدره، سار فوق الطرقات لحين ثم قصد بيت الشقيقة رغم الوقت المتأخر، يعرف أنه سيجد عندها السلوى بعيدًا عن غضب أمه وتقريع أبيه، استقبلته"دهب" بترحاب، أجلسته وجلست بقربه، تمسح عن ظهره وتربت فوق صدره عقب ما أفضى لها وزوجها بما آلت إليه الأمور..

تركت في يده كوبًا من عصير الليمون وقول حان تهدأ به ضيقه البادي:

- اشرب الليمون ده واهدى، ماتزعلش نفسك كل حاجة هتتحل، أكتر من كده وبيتحل والله..

لكن"عزيز" كان له رأي مخالف:

- على فكرة ده كله من حماتك العقربة، أنا مش فاهم سايب مراتك عندها ليه، دي أصلًا عايزاها تخرب وتقعد على تلها..

- هعمل إيه يعني يا عزيز، هحايلها علشان ترجع..



- وفيها إيه ياحبيبي، ما تحايل وتماين لحد ما اللي عايزه يمشي..

- الكلام ده لو هي قعدت في بيتها واحترمت جوزها..

تدخلت"دهب" باقتراح فعلي:

- طيب إيه رأيك أكلم نادية و أقولها تيجي عندي هنا وتتكلموا سوا على رو اقة؟..

عارض الشقيق فكرتها في الحال:

- بلاش يا دهب، هتحرجك وترفض تيجي..

لم تجد ما تقوله، صمتت في أسف، أردف هو وأصابعه تعبث بحلقة زواجه الفضية:

- أصلًا الكلام مالوش لزوم خلاص، أنا خدت قراري و هسافر..

سألت أخته في توجس خافت:

- ولو صممت على رأيها و رفضت تسافر معاك؟..

تمتم بقتامة أحرف وقسمات:



- تبقى اختارت..

أيده ابن العم المضطجع فوق الأريكة المقابلة:

- جدع، شوف حالك وسيبها هي وأمها يخبطوا دماغهم في بعض..

عارضت الأخت هذا النهج القاسي، تتوجس من نهايته وتخاف:

- لا يا بكر، ماتعندش قصادها علشان ولادك، حلها يا حبيبي حتى لو هتيجي على نفسك المرة دي..

زفر"بكر" بتعب ماسحًا عن وجهه في قلة حيلة بينما ينهرها زوجها وينوب بالرد:

- اسكتي أنتِ مش فاهمة، مش دول اللي يقدروا، دول مع أول تنازل منه هيستوطوا حيطه ويركبوه الغلط، الصنف ده يتسك على دماغه يتعدل على طول..

نهرته زوجته بينما تزجره بعينيها:



- بطل تبقى حقنة، احنا عايزين نحل مش نعقد..

- هو أنا كده حقنة؟ تصدقي بالله في تعابين بتورفي دماغي صحت المحامي العقرجو ايا وبفكر إزاي أحبس له حماته علشان تكون عبرة لكل أمثالها..

ضحكت"دهب" بخفه وجارته علَّ مزاحهما يخفف عن جليسهما:

- يا ساتر، ربنا ما يحكمك على حد..

شاركهما الشقيق تبسم صامت، اعتدل على أثره"عزيز" من اضطجاعه رابتًا فوق ساقه:

- روق بقى، إيه الجديد يعني ما طول عمرهم النسوان كده، يتفات لهم بلاد..

اكتفت"دهب" برسم حزن مصطنع فثأرلها الشقيق بالقول:

- احترم وجودها يا تحش..



غادر جواره إلى الجانب الآخر حيث تجلس زوجته، سحبها إلى صدره رغم تمنعها المزعوم، يداهن بعبث غامزًا لابن العم:

- أم عتريس مش نسوان، دي ست قلبي من جوه..

لكزت ضلوعه بكوعها متلذذة بغيظه:

- هسميه حامد زي بابا..

- اتمسي بدل ما أبعتك مع أخوكِ..

زمجرت بغيظ فنال منها ضاحكًا ونهض الجالس مخبرًا إياهما:

- همشي أنا، معلش عملت لكم قلق..

نهضت "دهب" توازيه:

- خليك معانا، بلاش تروح و إنتَ بالحالة دي..

أخبره"عزيز" بجدية ونهوض مقابل:

- خليك يا بني..

رغم محاولاتهما في استبقائه والمزاح بغرض التهوين أصر على الرحيل..

أراد أن يختلي بنفسه ويفكر كيف يعيد هيكلة حياته المبعثرة من جديد.



صوت الشيخ محمد رفعت المنبثق عبر المذياع يعبق أركان البيت كما فعل البخور من باكورة هذا اليوم المنشود، يوم العطلة المقدس، وصباح الجمعة يمكن اختصاره مع طبق الفول المدمس والفلافل المغطاة بطبقة من السمسم المحشوة بخلطة حارة تتفنن"أم بكر" في صنعها ويبدعون جميعًا كبيت مصري أصيل في التهامها جوار شريحة باذنجان وعودين جرجير..

لكن تسقط العادة مقابل متعة النوم، يضحي بصباح عائلي كهذا لينعم بساعة نوم إضافية بعد مطحنة الأسبوع المنصرم



وحكايات المقاول"مجاهد" عن زواج ابنته الذي خرب بيته والبيوت المجاورة بينما يعلق له ببساطة:

"أومال لو ماكنش اسمها جليلة مجاهد!.."

يقهقه الرجل ويرتج رأسه للأمام والخلف قبل أن يخلع كتفه بضربة واحدة وقول مكرر:

"يخربيت فقرك يا باشمهندز"

- عبدالرحمن، بودي، إنتَ يا زفت اصحى بقى!..

انقلب على ظهره ويده تدعك صدغه في محاولة للاستفاقة، يرمق حضورها فوق فراشه بعين واحدة نصف مفتوحة متكلمًا بنبرة خبير، مختال:

- أنتِ عارفه الزفت وصل كام دلوقتي؟..



وأتبع ذلك باعتدال انتهى به مضطجعًا فاركًا وجهه ورأسه في شبه قعود وتثاؤب حروف، مقابلًا عبوس وجهها الصارم:

- خير، إيه الوش ده على الصبح..

من جلوسها فوق طرف الفراش، ضربت ساقه الممدوة بقبضتها المكورة متمتمة بحنق زاعق:

- هتستهبل؟ مش اتفقنا تصحى بدري و نروح للراجل بتاع الموبيليا..

ضرب جبهته في تذكر فغضبت عليه:

- ما إنتَ لو مهتم..

- خلاص يابنتي هكلمه واظبط ميعاد تاني، بسيطة متقلقيش..

غمغم بها متنبهًا للباب المفتوح والفراغ المحيط متذكرًا أنه الجمعة، التوقيت والوضع يوحي بكون الجميع خارج البيت، مال بجذعه يسألها بخفوت متوجس:



- هي ماما فين؟..

تحرك بصرها يمنةً ويسرةً في توجس مماثل قبل أن تجيبه بذات الخفوت:

- في المطبخ بتجهز الغداء، سألت عليك قالت أدخل أصحيك..

تر اقصت ضحكته بعبث:

- و أنتِ طبعًا ما صدقتي..

رسمت الأسى فوق وجهها غير مستجيبة لعبث مزاحه، رمقها بنصف عين مستغربًا حالتها، متباحثًا عبر الذاكرة عن السبب:

- هو النهاردة كام في الشهر؟..

والنظرة الكئيبة المطلة عبر عينيها تمنحه الجواب الكافي ليردد:

- طيب يا ندى يا حبيبتي ما كنتِ شربتي قرفة واستهديتي بالله كده على ما صحيت لك..



تمر بفترة عصيبة تجعلها متقلبة المزاج، يأكلها الذنب بما تخفي عنه وتقلق من رد فعله، اليوم هاتفها المنتج مخبرًا إياها عن بداية موعد التصوير، خلال يومين سوف تبدأ، سعيدة لكن خائفة، متحمسة لكن قلقة، لا تحبذ أمور الخفاء بل تمقتها لكن هم لم يتركوا لها خيارًا آخرًا برفضهم الصارم للفكرة، ورغم ذلك هي أكيدة أن "عبدالرحمن" حين تخبره سيتفهم رغبتها ويمنحها صك الغفران مدفوعًا بعشق، حين يكون هو موجودًا في الصورة ليس عليها أن تخاف من شيء، سيحميها حتى من غضب أبيها الذي تخشاه..

لاحظ شرودها فظن أنه ضايقها بآخر كلماته، أخذ بكفها القريب، شفتاه تلثمان باطنه في مراضاة لطيفة تشبه طلتها الصباحية:

- طيب خلاص ماتزعليش..

ويقبل ثانيةً:



- ده إحنا خدامين الهرمونات..

وثالثة:

- ومش قد قلبتهم..

وإضافة لكل ما سبق؛ هرمونات ندى متفجرة بحق عقب فيلم عاطفي غلف سهرة البارحة ولملمتها في هذا الصباح وبعد هذه القبلات الثلاث محض عبث:

- عبدالرحمن إنجز خلينا نتجوز بجد!..

تخبره بجدية تامة، و"عبدالرحمن" يرمق شفاها الوردية بفكرة تستدعي الالتهام كبداية رائعة ليوم العطلة هذا، وتأتي طرطقة الأواني بواسطة أمه داخل المطبخ لتقبض على أفكاره بلجام الانضباط، يقصر الشر عقب تنهيدة وهمس أجش محمل بالكثير:

- احنا ضروري نروح الشقة نشوف النقاش..



مسكنة النبرة مع عبث النظرة أضحكت روحها قبل ثغرها فسقط قتيل اللحظة وخطف القبلة وليتهدم المعبد فوق ساكنيه أو يُدفع الباب الموارب عنوةً وتلتقط عيني توأمه الصورة دون تفاصيل ببصرزاغ جانبًا في حرج بتمتمة غاضبة طالت الهائمين فوق حدود العشق:

- أستغفرالله العظيم يارب..

- شيخ عبدالله!..

الهتاف من أخيه، القفزة مع الشهقة والخجل مع هرولة الهروب كلها من نصيبها، تبخرت من الغرفة في ثوانٍ..

تمغط بجسده الكسلان مع نبرة قررت ادعاء البراءة الكاذبة متلاعبًا مع سهم النظرة القاتلة لأخيه:

- ماتبصليش كده، في مشكلة في الهرمونات كنت بظبطها..



سحب المنشفة الرطبة من فوق كتفيه ليرمي بها وجهه في قوة أصابت الهدف، تحرك جاذبًا ثوبه ناصع البياض المكوي، يرتديه على عجالة وهو يرميه بسخط الكلمات الزاعقة:

- مش قلنا نتلم يابني إنتَ..

- بذمتك يعني أنا كاتب الكتاب علشان أتلم..

وقف"عبدالله" يشذب شعره ولحيته أمام المرآة، ينهي حديثًا لا يحب الخوض فيه بعقدة جبين ونثرة عطر بريح المسك جاءته هدية من أرض الحجاز:

- قوم الحق الصلاة قبل ما تفوتك يا عبدالرحمن، وأعمل حسابك هيكون لنا قعدة سوا نشوف حوار تأخيرك للصلاة ده بدون سبب..

تأفف الآخر بينما يرفس الغطاء وينهض ساحبًا منشفته من فوق المشجب مارًا دون تعقيب.





أول بيت القصيد كان اهتمامًا..

امرأة في مثل عمرها وخبرتها الحياتية لن تغفل عن صوت رجلٍ بان فيه الاعتناء..

مع كل يوم يمر يتصل، يسأل، يتقرب في حدود الاحترام، يدعي أنها مريضته المسكينة وهو طبيبها، دقيقتان زمن المكالمة، إذا طالت لا تتعدى الثالثة، اهتمامه طال مساعدته التي استقبلتها بترحاب جاء تحت الوصاية، أدخلتها خلال لحظات، بدا أنه كان في انتظار زيارتها، الموعد الذي أكد على حضوره ليلة البارحة برسالة قصيرة..

- ازيك؟..

قالها باسمًا وكفه يضم كفها بدفء راحته، تعجبت من سعادته البادية دون تورية، بادلته النظر مرددة التحية واضطرت للنحنحة حتى تخلص كفها من بين أصابعه، حررها بحرج ودعوة لبقة حتى تتقدمه لموضع الكشف..



- احنا تمام قوي..

طمأنها على وضعها الصحي و أكد عليها المجيء في موعد المراجعة القادمة، وهي ببساطة فعلت..

بعد أسبوع تجدد اللقاء، كانت هي أكثر نشاطًا وحيوية، ترتدي ثوب شتوي له لون الكراميل و وشاح أحمر صغير التف حول جيدها وترك انطباعًا خاصًا مع شلال الشيكولاتة المنهمر من مقدمة الجبهة حتى منتصف الخصر، تلمح الإعجاب بعينيه فتمرره بابتسامة لطيفة، تجلس ويعاين وينتهي بقول عملي مكرر:

- احنا تمام قوي..

في الميعاد الثالث الذي أكد فيه على الحضور كما المرتين السابقتين كان صوت محمد عبدالوهاب حاضرًا معهما بالغرفة فوق شاشة عرض عُلقت بارتفاع قريب من السقف بينما تعرض الفيلم الكلاسيكي، لا تعلم إن كانت مصادفة أم



لافتة مقصودة من رجل إلى امرأة لأنه أثناء المعاينة تسللت نبرته إلى مسامعها في دندنة توازي اللحن القائم..

"حكيم عيون أفهم في العين.."

مررت هذا كما مررت اهتمامه ونظراته جوار البسمات من قبل، أطال مدة المعاينة فتملمت في جلوسها، انتهى ولم يعلق بمقولته العملية المكررة، فقط ظل ناظرًا إليها متبسمًا في صمت، راقبت صمته في قلق وسؤال:

- في حاجة يا دكتور؟..

حرك كفيه في علامة أسف:

- في إنك عال العال..

تجمدت للحظات تحركت بعدها في كياسة:

- طيب الحمد لله دي حاجة كويسة..

تبعها في حصار انتهى به قبيل وجهها:



- هي كويسة طبعًا بس ليا ماظنش..

تصنعت المرح بينما تحمل حقيبة يدها تنتوي الرحيل:

- في رأيي هتخلص من مريضتك المسكينة ودي حاجة كويسة جدًا..

أردفت في الحال ورغبتها في الرحيل تتضاعف، حدسها أخبرها أن الفرارواجب:

- أشوف وشك بخيريا دكتور، وميرسي على كل حاجة..

- عبلة..

لفظ اسمها بنبرة قوية بينما وقوفه في طريقها يمنع رحيلها بسلطة ذكورية، رفعت له عينين ثابتتين، في خلقهما فتنة وسحر ألقى عليه بتعويذة، هو رجل يتبع درب الصراحة، يفضل الوضوح ولأجل هذا قرر خوض غمار الصدق والاقتحام المباشر:



- عايز أشوفك تاني..

لم تتفاجئ، فقط أهدته سؤال بسؤال:

- ليه؟..

رفع حاجبًا مستنكرًا واللطف لا يخلو من عبث ذكوري رأت الأنثى فيه انجذابًا:

- هو مش واضح إني معجب وكنت بعاكس من شوية ولا إيه؟..

فاجأته برد فعلها السريع، البارد:

- هو ده واضح الحقيقة..

قطب جبينه والرد منها لا يعجبه:

- طيب إيه؟..

- مش هينفع يا دكتور..

- ليه يا عبلة!..

- مش لازم يكون في سبب، كفاية أكون مش عايزة، بعد إذنك..



أصابته بالصمم، لم يعلق أو يستطع منعها حين جذبت المقبض ورحلت، رحلت كما الهارب من طاعون قاتل..

لاحقًا، بينما كانت تعمل لم يرحل عن فِكرها، ظل حاضرًا وهي تمربين الطرقات، بينما تتحدث، وسط الضحكات وفي لحظات الصمت..

حتى أنه راح معها إلى شقة الزوجية، أصر "سالم" على مجيئها رغم عدم رغبتها، لكن حججها كانت قد نفذت فاضطرت إلى الذهاب وملاقاته، استقبلها بلهفة، يبثها شوقه في قبلات منثورة فوق الوجه واليدين والعنق، كانت صامتة على غير العادة، حتى حين طوق جيدها بسلسال ثمين لم تعلق بغيركلمة شكرواحدة.. شرودها أثارريبته فاقترب:

- مالك يا حياتي؟..

جاهدت لتبدوكما اعتاد:



- معلش مرهقة شوية يا سالم ومحتاجة أرتاح، هتضايق لو مشيت؟..

وكأن ما تقوله شيءٌ من خبال، بتر رغبة رحيلها بوصال بثها فيه العشق والهوى، هي له شربة الماء وسط عطش الحياة، لحظة الارتواء التي تنتشي بها كل خلية فيه..

أما لها؛ اجتياحه كان واهنًا، ضعيفًا يليق بكهولة عمر من تخطى الستين، وإن خضع المظهر الخارجي لسحر المال، يبقى الجوهر على أصله..

اجتياحًا باردًا، سريعًا، لم يستطع هزيمة صورة طبيب احتلت رأسها في أكثر لحظاتها حميمية.



كم أمسٍ ينطوي به العمر؟..

كم وجيعةٍ يحملها الليل في ردائه، يبتلعها في سرمديته ثم ينبلج نهارًا جديدًا حاملًا قدرًا آخرًا تتلوه الدقائق والساعات..



تسللت أشعة الشمس إلى أجفانها المغلقة من بين رفرفة الستائر تداعبهما برفق، انقلبت على ظهرها، رمشت في بداية صحو عقب ليلة طويلة عاشتها بأمل خادع، أمل في قطع مسافات أكبر، في قرب تتمنى لو كان في وضعه الصحيح، يدها امتدت تمسح عن جوارها البارد، تتذكر جلوسه المتصلب إلى جانبها، لم يغمض له جفنًا، شعرت بكل حركة ونفس حتى أضاء الأفق بنوره مقررًا معه الانسحاب، كأنما كان ينتظر ليفعل..

زفرت بإرهاق وأصابعها تفرك جانب رأسها المتألم، قاومت كل مايعتمل فيها نافضة عنها ثوب الكسل الذي يلتف حول جسدها وقد انتصف النهار، بخطى مثقلة تحركت، مرت بالنافذة فإذا بالتحضيرات التي تحتل الحديقة على قدم وساق، جلسة العروسين، حلبة الرقص، طاولات المدعوين، ابتسمت لهذا تلقائيًا، منظر الزهور التي امتلأ بها المكان يدعو للبهجة اللاإرادية، أخذت حمامًا وبدلت ثيابها لثوب داكن ناسب طبيعة الجو وحجابها، هبطت تلتقي مع الضوضاء



القائمة، أعدت لنفسها قدحًا من الحليب المغلي مع ربع معلقة شاي مزجتها فيه وذهبت إلى الحديقة، وقفت بركن جانبي ترتشف مشروبها متابعة التنظيم القائم، مجموعة من العاملين وفتاة عشرينية تشرف عليهم، الأفق المكشوف بدأ يتلون بأرجوانية والشمس قد خبأت ذهبيتها لصباح جديد، الغروب الذي بدأ بإسدال ظلاله منح القناديل المضاءة والمعلقة هنا وهناك فسحة لتبرز جمالها الخاص، لكن ليس هذا ما استحوذ على بصرها بل كانت ضحكته العابرة لصديق مغادر، كانت أقرب لومضة سريعة لم يمنحها الوقت لرؤية تفاصيلها إذ انتهت في الحال مع فتاة صغيرة السن والقامة لم تتعدَ الخمس ضربت كفه وأشارت إلى حذائها، طالعها لثوانٍ مال بعدها مقرفصًا محاولًا عقد رباط الحذاء وعلى ما يبدو لم يفلح، تذمرت الفتاة وضربت بقدمها الأرض في حنق و عدم رضا، مع اقتراب "مريم" كان يقف ناهرًا الصغيرة المتذمرة بخفوت:



- بطلي دلع..

- في مشكلة يا جودي؟..

مالت تسأل الصغيرة، فرفعت لها وجهًا يملؤه الضيق والحنق الطفولي:

- مش عارف يعمل فيونكة يا مريم!..

جارتها بقسمات تلونت بحزن مصطنع ثم حدثته ببساطة ويدها تناوله الكوب:

- امسك ده..

هبطت مقرفصة نحو الحذاء تفك لها عقدته الأولى وتصنعها كما تريد فتشرق عيني الصغيرة وتدنو من وجنتها تقبلها بغتةً قبل أن تنطلق راكضة حيث بقية الصغار، تعتدل باسمةً، تأخذ بكوبها مخبرةً إياه بذات البساطة عن خبايا الفتيات:

- كان فيها عياط ساعتين دي..



اكتفى بحركة حاجبين متعجبة مع طيف ابتسامة ساخر تعلق بجانب فمه مالبثت أن يولد حتى ينتهي، أحاطته بعينيها رغم هروبه الواضح من لقياها، بدا أكثر راحةً هنا، شعرت بهذا منذ الأمس، أكثر طبيعةً وهدوءًا، تستطيع أن ترى هذا فوق قسماته بوضوح، في اللحظة التالية نودي عليه فتحرك ملبيًا..

عادت إلى المطبخ، حاولت الخادمة الو اقفة عند الموقد أن تأخذ الكوب عنها لكنها أصرت أن تنظفه بنفسها وتتركه مكانه حين دلفت خادمة أخرى أكثر شبابًا، تخبر الأولى من عند الباب بطلب عجول ثم تختفي سريعًا:

- ست ليلى عايزة قهوتها، جهزيها على ما أشوف ست صافية..

- هعملها و أنتِ كملي شغلك..

أخبرتها"مريم" في تلقائية وتحركت بالفعل، تبعتها الخادمة بشبه شهقة صامتة:

- يادي الخيبة، ما يصحش يا هانم!..



زجرتها بنظرة مرحة قبل أن تتناول علبة البن:

- يصح جدًا على فكرة، والحقي اللي على النار قبل ما يتحرق..

عادت المرأة أدراجها راكضة، تقلب محتويات القدر بيد خبير، اقتربت "مريم" تضع الركوة فوق الموقد وتسألها بود:

- اسمك إيه بقى..

- خدامتك سهير..

- عاشت الأسامي يا سهير، اسمك جميل..

- والنبي ماحد جميل هنا غيرك، أسمر بيه يستاهل كل حاجة حلوة عشان كده ربنا رزقه بيكي..

أهدتها ابتسامة ناعمة قبل أن ترتكز بظهرها على حافة لوح الرخام العريض وتطالعها:

- بتشتغلي هنا من أمتى يا سهير؟..



أشرق وجه المرأة التي وجدت صحبة تشاركها شغف الثرثرة، بل تكتشف على يديها عالمها الجديد:

- يااااه ده من زمان قوي، أنا أبقى مرات مرعي بواب المزرعة، باقي البنات دول جايين مؤقتًا عشان خطوبة الآنسة شاهنده لكن احنا عيشتنا وحياتنا كلها هنا، وأي حد يجي من البهوات على غفلة يلاقينا موجودين، أنا نهار ما جيت مع جوزي كنت عروسة بنت سبعتاشر سنة ماعرفش حاجة في دنيتي، عشت وعمرت وأدي الواد محمد ابني صلاة النبي عليه داخل الجامعة السنة دي، هيبقى باشمهندس قد الدنيا..

ضحكت"مريم" لبهجة المرأة بالحديث وثرثرتها بلهجة مختلفة قريبة من القلب:

- عندك أولاد تاني غير الباشمهندس؟..

- معايا خمسة..

- اللهم بارك، ربنا يفرحك بيهم كلهم..



أشرق وجه"سهير" وراحت تدعو بصدق النوايا مستكملة في ذيلها وصلة جديدة لثرثرتها:

- يارب يا ست الستات ويعوض عليكِ أنتِ والبيه بالخلف الصالح، أنا ومرعي جوزي نعز البيه قوي لعلمك، ديك النهار وقعنا في ضيقة ربنا ما يكتبها على حد، الواد مصطفى ابني الوسطاني احتاج يعمل عملية افتكرت له العافية، بقينا ضرب نكف على كف، نعمل إيه ونجيب منين ياولاد، ده اللي جاي على قد اللي رايح، ضنايا كان بيموت قدام عيني وماتعرفيش ده نزل علينا منين، زي ما يكون ربنا بعته يشوفنا في عز الكرب عشان ينجدنا، أحسن مستشفى فيكي يا بلد وأحسن دكاترة وما رضي ياخد مليم واحد، من يومها وكل ما أصلي أدعي له ربنا يحميه لشبابه ويكفيه شر ولاد الحرام..

مرت عليها كلمات المرأة مثل نفحات النسيم، كانت تتبسم دون دراية، منصتة بكل حواسها للكلمات الصادقة، أحبت ما



سمعته عنه، أحبته أن يكون هذا الشخص، وجدت حالها تتمتم خلف المرأة ما إن سكتت:

- ادعي له دايمًا يا سهير، ماتبطليش دعا..

نقلت لها المرأة سبابتها من عين إلى عين في حبور وازى فوران القهوة و انتباه كلتيهما، جاءت شهقة"سهير" خاتمة جيدة:

- يقطعني لاهيتك لحد ما القهوة فارت..

أخبرتها بلطف كسى نبرتها:

- خير خير نعمل غيرها..

أعدت قهوة بديلة وصعدت بها، طرقت الباب مرتين قبل أن تدلف بوجه بشوش قابلته"ليلى" بفرح:

- جايبة لي القهوة بنفسك..

- وعملهالك بأيديا، يارب تعجبك..

- تسلم إيديكِ يا مريومه، تعالي شوفي لقيت إيه..



جاورتها فوق أريكة بلون السماء، على ساقيها قبع ألبوم كبير مزدحم بالصور الفوتوغراف، وجدته بين بضعة أغراض كانوا قد جلبوها من شقتهم القديمة إلى هنا وقت الانتقال إلى الفيلا مسكنهم الحالي، منذ حين وهي غارقة في محيط من الذكريات..

- لقيته وسط كراكيب قديمة، شوفي رانيا كان عيد ميلادها التاني هنا، صغنونة قوي يا روحي، اللي شايلاها دي مامتي الله يرحمها..

تمتمت"مريم" بالرحمة على الراحلة في خفوت وأصابعها تمسكك بالصورة، تناظرها بتبسم وقول ناعم:

- حلوة قوي بجد، فكرتني بصورنا القديمة..

- رشدي كان واخد موضوع الصور ده هواية قبل ما الشغل يسرق كل وقته،شوفي دي هو وأسمر، بيعلمه ركوب الخيل هنا في المزرعة، حبيبي كان عشر سنين وقتها..



تناولت منها الصورة بعينين فضوليتين، تتبع تفاصيله الصغيرة، ملامح منقبضه وعينين بان فيهم الخوف، مرت بإبهامها على مهل فوق تفاصيل الوجه التي لم تختلف كثيرًا عما تكونه اليوم، فقط قفزة سنوات منحته نضوجًا طبيعيًا، رفعت لها عينين تطالبها بلطف غلفه الفضول:

- احكي لي عن طفولته..

ظهر التوتر فوق وجه المرأة، سألتها في توجس:

- مش هو حكى لك؟..

لا تعلم من أين أتاها الثبات وهي تقول بنصف ابتسامة كاذبة كحروفها:

- حكى لي طبعًا، بس حابه أسمع منك التفاصيل..

ارتاحت القسمات المتوترة وتنهدت صاحبتها تنهيدة صغيرة محملة بذكرى ماضٍ استحضرها عقلها كأمس قريب لا يغيب، بدأت تسرد من نقطة البداية، حيث هي وزوجها وخبر حمل



جديد يستحوذ على محور حديثهما والضحكات فوق طريق العودة الشبه مظلم:

- ليلتها كنا راجعين متأخر، الساعة اتنين بعد نص الليل، فجأة طلع قدامنا ومالحقش رشدي يدوس فرامل..

طفلٌ مذعورٌ، يركض، لا يعلم ما ينتظره خلف الفراغ السرمدي الذي لا نهاية له، فجأة صار ممتنًا لتلك الأضواء الساطعة التي ضربت بصره فأعمت الرؤية وذلك المعدن الضخم الذي صدم جسده بكل قوته حتى قذف به لعدة أمتار إلى الأمام، حتى أنه شاكر لذاك الألم وتلك الكسور التي طالت عظامه فمنحته وقتًا كافيًا بل أيامًا فقد فيها الوعي عن كل شيء..

حفر الأسى معانيه فوق وجه"ليلى" بينما المنصتة انعقد حاجباها في مفاجأة لبداية حقيقة غائبة و ألم لتلك الصورة المؤلمة لطفلٍ لم يتخطَ سنوات عمره السبع بعد، لم تكن تدري



أن الألم الحقيقي بدأ في التسرب الآن من بين شفاه السيدة الشاردة في تلك اللحظة، هي وزوجها بين أروقة مشفى يركضان وعلى أيديهما طفل غريب غارق في دمائه إثر اصطدامهما فيه..

- ارتجاج وأكتر من كسر في الضلوع، كنا فاكرين ده كل التشخيص قبل ما يصدمنا الدكتور بالحقيقة المرّة..

صمتت هنيهة تجرعت فيها مرارة الذكرى غافله عن تأهب أذني الأخرى وقلبها المتوجس صار يقصف جنبيها بنبضه:

- صوت الدكتور وهو بيقول الولد ده معتدى عليه جنسيًا لسة بيرن في وداني كل مرة أفتكر فيها الليلة دي..

لم يعد نبضها يقصف بين ضلوعها، لم تكن تلك الكلمات كلمات، كانت سكينًا انغرز بمنتصف الصدر عنوة، صمت اغتال كل شيء حتى نبضها، أنفاسها احتبست داخل رئتيها، بصرها ساقط فوق وجهه الطفولي داخل الصورة



الفوتوغرافية الباقية بين أصابعها، فقط كان محجريها يهتزان دون شعور..

صوت المرأة عاد يقصف سمعها ونبضها ليبث فيها الحياة بعد وهم الموت:

- أول مرة شوفته فيها وشوفت حروق جسمه انهارت حرفيًا، كان منظر قاسي قوي يا مريم، تخيلت إن اللي نايم على السرير ده بنتي أو ابني، متهان، جسمه كله آثار تعذيب بدون أب أو أم جنبه..

طفق الدمع بعينيها إثر الذكرى، محت أثره في كياسة متممة جملتها والمستمعة مازالت تعانق الصورة ببصرها في جمود مؤلم لعينها وقلبها:

- إحساس في منتهى القسوة والألم، ألم أكبر من إن يتحمله طفل عمره سبع سنين..



طفل وحيد، منتهك روحًا وجسدًا، مجهول الهوية والنسب، لم يسأل عليه أحد طيلة السبعة أيام الفاقد فيها للوعي.. بقيت وزوجها مرابطين إلى جانبه حتى عاد وعيه..

- بعد ما فاق مانطقش كلمة، الدكاترة قالوا السبب نفسي، حاولنا كتير نوصل لأهله أو أي حد يعرفه بس ماعرفناش..

في خضم تلك الأحداث فقدت جنينها، هاتف ما بداخلها أخبرها أن هذا المسكين عوضًا عما فقدت، أنه بحاجة لها كما ولديها..

- إحساس جوايا قالي أنه محتاج لي، إنه بدل اللي راح مني، كل نظرة من عينيه مليانة خوف وحزن كانت بتوجع قلبي، ماقدرتش أسيبه، خرج من المستشفى معايا، أثار الحادثة والحروق مع الوقت بدأت تخف بس..

بقيت الروح المعطوبة تنزف وجيعتها كل ليلة، تقطر الألم وحيدة منزوية معه على جانبه فوق الفراش، لا يتحدث، لا يخالط أحدًا، يرفض ضمتها، كل محاولاتها في التقرب منه أو استخراج



حرفًا واحدًا من بين شفتيه تذهب سدى، كل ليلة يطارده كابوسٌ ينتفض منه فزعًا مبللًا ثيابه، أول ليلة أخذ فيها رد فعل كان بعد الحادثة بثلاثة أشهر، سألته في محاولة جديدة لاستنطاقه، إن كان لا يسعده البقاء معهم ويفضل الرحيل؟.. لحظتها انفجر باكيًا ورأسه يتحرك رفضًا لما تقول، هو لا يريد الرحيل، هو فقط متعبٌ للحد الذي يعجزه عن التكلم أو فعل أي شيءٍ، فتحت له ذراعيها تدعوه أن يقترب، أن يسمح لها بضمه لمرة واحدة علَّها تخفف عنه، في تردد اقترب، مال برأسه فوق صدرها، تركها تأخذ بجسده الهش الصغير بين ذراعيها، تركته يغرق قميصها بسيل أنفه وعينيه ونهنهات مرتجفة أصابت فؤادها بالوجيعة فبكت مثله، لم تغادره ليلتها، رافقت ليله، هي وهو فقط وبينهما صمت ممتد حتى أول النهار..

في ذاك النهار اتخذت وزوجها قرار بقائه معهما للأبد وقد نفذت كل المحاولات في الوصول إلى ذويه، ضماه إلى أسرتهم الصغيرة، صار فردها الخامس، عملوا على رعايته، بحثوا في أمره وأخذوا



بنصائح المختصين، صار على فترات متباعدة يحرز تقدمًا بطيئًا لكن الأمل لم ينطفئ مادام هناك قبسٌ صغيرٌ ينير له الطريق ليعبر إلى الحياة مرة أخرى من خلالهما..

- أول مرة أتكلم فيها كان بعد سنة من زمن الحادثة، عرفني اسمه..

اسمه الذي ضمه"رشدي جوهر" إلى كنيته حتى يتمكن من الجلوس فوق مقعد دراسي أو عبور بو ابة نادي برفقتهم، منحه هوية بدلًا من التي فقد وحياة جديدة بديلة عن تلك القديمة التي لا يعلمون عنها غير الفتات:

- والديه الحقيقيين ماتوا، ده كل اللي قاله لما سألناه عنهم، قال كمان أنه مايعرفش بقية أهله فين، وحتى لما حاولنا معاه نعرف عن اللي عمل فيه كده ماعرفناش برده نوصل لأي حاجة..

وعلى أساس تلك الحقيقة الصغيرة نصبوا كذبة العامل وزوجه المتوفيين و ابنه الذي تكفلوا بتربيته:



- كان لازم نخترع حكاية تسكت الناس وتخليهم يبطلوا يسألوا..

بقيت الحقيقة فقط داخل حدود الدائرة القريبة من محيطه، دائرة العائلة التي ترعرع وكبر في كنفها، أنقذوه لا شك، التقطوه من نهر الخطيئة والوسخ وصنعوا له حياة كريمة..

حياة صار يعتادها يومًا بعد يوم..

يتكيف..

يقاوم..

يقاوم ذكرى تقبع بذاته ولا يظن أنها ستتنصل عنه ذات يوم، كبر الطفل حتى صار رجل اليوم، تسعد المرأة بمرفأ الأمان الذي تقف عليه بصحبته:

- وبعد واحد وعشرين سنة الطفل الصغير بقى من أنجح رجال الأعمال، بقى علامة وقدوة لشباب كتير في سنه..



تختتم الحكاية المؤلمة باسدال ستار الفخر والتباهي بتبسم لطيف:

- مع كل نظرة ليه أحس بالفخرو أقول ده ابني..

لم تكن تدري أن رجل اليوم الذي تفخر فيه هو جريح الأمس، أنه بحث عن مداوة في انتقام سعى له بجل رغبة، يريد استعادة روح منتهكة، براءة قتلت دون ثمن، يبحث عن تحرير من قيود الأمس العالقة بوجدانه..

لم تكن تدري الأم المحتضنة لأمسه أنه أسقط عنه طوق النجاة الذي طوقته به على مر السنين تكفيه شر الغرق، أنه عاد يلقي بحاله إلى عرض اليم، مجدفًا بذراعيه عائدًا حيث حسابات الأمس بقيت عالقةً دون تصفية..

وحدها الجامدة إلى جانبها عرفت أن جرحه مازال ينزف، أن الطفل الصغير لم تبرأ أوجاعه بعد، أن العطب كبير ومتأصل حتى أعمق نقطة فيه..



بحثت عن أنفاسها الهاربة فلم تجدها، أبعدت عن ساقيها ما قبع فوقها من صور، تعيدهم إلى السيدة دون النظر، لو رأت عينيها في هاته اللحظة لكشفت كذبتها، لعرفت أن الحقيقة تتجلى أمامها لأول مرة..

- عن إذنك..

تمتمة خافتة رمتها من خلف كتفها عقب نهوض مرببطء مثقل كأنما صارت بكيانها خارج حدود الزمن، شكرت ربها أن الباب جوار الباب، لا تملك قدرة على قطع مسافات، كل ما فيها يئن، كل ما فيها ينوح، دلفت غرفتها موصدة بابها من فورها، ارتكنت إليه بجسدها تاركة أنفاسها المحتبسه تتحرر على هيئة شهقات، تغص بها روحها فاقدة زمام السيطرة، عقلها لا يعي ما سمع حتى تصدقه، منحتها كل الأجوبة دفعة واحدة، أخبرتها بأقسى طريقة ممكنة..



سارت إلى النافذة بخطى متباطئة، أرادت أن تراه، ألصقت جبهتها وراحة كفيها فوق الزجاج الشفاف، هذه المرة ستبصره على حقيقته، تخبط بصرها باحثًا عنه حتى وجدته بوقفته المعهودة، حيث توجد الأعمال وإن كانت لا تعنيه، ينأى بحاله وينغمس في هروب يقيه مواجهة الحياة والحاضر..

هطلت عبراتها مدرارًا تغرق وجهها وعينها لا تبارحه..

كم أمسٍ قاسٍ طوته أيامه..

كم ليلٍ تجرع فيه كؤوس الخوف والامتهان..

كم من ألمٍ أقلق مضاجعه؟!..

وأين السبيل من كل هذا، كيف عساها تستخلصه من رحم العذاب وتفر به بعيدًا حيث تكمن النجاة الحقيقة..

ربما تستطيع..

ربما لا..



لن تفكر، ليس الليلة..

ستبكي لأجله الليلة وحسب.



رجلُ اليوم واللحظة..

يفضل طمر أمسه أسفل ركام النسيان، مصادقة الزمن تجربة فاشلة، لا رثاء الأمس يفيد ولا القلق بشأن الغد يجدي، كل ما سيناله هو الضياع بينهما..

لذا يحب أن يكون سيد اليوم، واللحظة رتبت عقدًا جديدًا، ببناء وخلوة هذه المرة، بيت الصديق يوفر المتطلبات اللازمة، غرفة وفراش وليلة ستمر وتنتهي صباحًا بيمين طلاق ونصف الثمن تم قبضه سلفًا..

تنميق الكلمات لا يليق بسرده، ليس هو يتوارى خلف سطور أنيقة..

هو خارج إطار الزيف ولا يحبذ الادعاءات الكاذبة..



يفضل أن يتجلى بحقيقته، ببشريته الواضحة بكل مساوئها والمحاسن..

يحب المال لأنه يمنح السعادة، وقائل عكس هذا منافق، مدعي..

له في النساء باع وليس للقلب هنا مجالًا للذكر..

خلط رغبات الجسد وتقنينها وفقًا لمراد المشاعر سفسطة فارغة، مخترعها مهرطق يجادل في مسلمات فطرية، جاهل في اكتشاف قانون اللذة..

نفض رماد سيجارته المحترق في مرمدة تحتل سور الشرفة الأسمنتي، ألصق عقبها بين شفتيه لمرة أخيرة، يمتص مزاجه الخاص بنفس طويل ليسمو به حيث سماء المتعة، عبأ رأتيه ثم لفظ سحابة الدخان على مهل، أنهى أمر السيجارة بدهس سريع ثم أنزل قدمه المرفوعة فوق مقعد بلا متكأ..



عبر الردهة الصغيرة في ست خطوات، نصف ساعة توقيت أكثر من جيد للاستعداد، فتح الباب دون طرق، وجدها جالسة على جانب الفراش في انتظاره، تطرق بوجهها نحو الأسفل فانسدل من حولها خصلاتها الطويلة، تحتوي كفيها داخل حجرها وتفركهما في توتر، يعجبه النوع الخجول، كان قد خلع سترته قبل حين، أتبع بها قميصه الآن وترك البقية للحظات الحاسمة..

راقب بصرها تقدم خطواته حتى انتهى أمامها، أمسك بكفها يوقفها مقابل وجهه، آية في الحسن لو أراد قول الصدق، غمازة ذقنه أضفت لابتسامته الجانبية المتخمة بالرضا جاذبية مطلوبة، رفع ذراعها لأعلى، يديرها حول نفسها في لحظة تقييم خاطفة لجسدها الفتان داخل الثوب الكريمي الطويل قبل أن يوقفها دون فراغ بينهما أسقطها بين ذراعيه، ذراع يتحكم في خصرها وآخر يزيح شعرها الناعم عن جيدها، موضع الجاذبية ومسقط القبلة الأولى..



أسقط حمالة ثوبها جوار همسٍ مغوٍ تسلل بحنكة خبير ملك مفاتيح كل النساء:

- سمعتي عن ليلة العمر قبل كده؟..

ليلة عارضة، مندثرة..

حكمتها شرعية زائفة..

وستطويها صحيفة الأمس مع بلوج أول نهار.



(8)

البقاء فطرة كل كائن حي..

المعافرة

التشبث

النجاة

أيامها الماضية معه كانت أقرب لمحاولة خطف أنفاس من بين موجات الحياة المتقلبة، حياة مدتها وجزرتها بقوة عاصفة في قلب محيط لا يقصده غير البحارة، توهمت شاطيء الأمان، خُدعت بكونه قريب وإذا بيد الحقيقة تسحبها نحو الأعماق، تصدمها بالقاع دفعة واحدة لترَ، تعِ، تدرك وتكتمل الصورة المنقوصة، تستجمع خيوطها، تجدلها في بعضها فيتجلى الغمام وتسطع شمس الحقيقة..



كيف يمكن للحياة أن تقسو لتلك الدرجة؟..

كيف لها أن تهديه وحده اليتم، الانتهاك والألم!..

لا تدري كم مر من الوقت وهي ساقطة أسفل النافذة تضم بساقيها إلى صدرها تبكيه، تعاد الكلمات وتصب صبًا بأذنيها، تطرق وتطن فتستوعب للحظات تعود بعدها تائهة فوق رقعة النكران، يجمح خيالها ويكون صورًا حية حتى ينبض رأسها بألم حقيقي..

حين انتصف الليل وزحف بساعاته، قبيل الفجر قرر الصعود وهربت هي إلى حيلة البارحة، دست بجسدها بين الأغطية الوثيرة، تكورت على جانبها ورفعت بالغطاء حتى منتصف وجهها، أسبلت أجفانها المتعبة لتهطل الدمعات الحارة في صمت وازى صمته، ليلتها تمنت معانقته، تمنت لو كان باستطاعتها الربت فوق قلبه وندوبه، أن تأخذ بكفيه بين يديها وتخبره أنها هنا إلى جانبه، أنه لم يعد وحيدًا بعد اليوم،



عاطفتها تفور دون إرادة منها، تمنت لو أنها تستطيع مجاراتها والإتيان بأية فعل غير هذه الدمعات المخبوءة والنواح المكتوم بصدرها..

استطاعت الصمود الساعات القليلة التي قضاها معها خلف بابٍ واحد حتى رحل، ساعات النهار التالية قضتها داخل الفراش تضم معدتها وتنشج في صمت، أوشك النهار على الانقضاء ومازالت على حالها، يصلها ضجيج الخارج، الجميع متشاغل بيوم الحفل المنتظر، طرق الأحذية يصلها كل حين ثم يتلاشى وهي على حالها..

معدتها تؤازرها باضطراب، تقيأت جوفها الفارغ مرتين، أنزلت غطاء المرحاض وجلست عليه ساهمة برؤية مشوشة بفعل العبرات المعلقة بثقلها بين الأهداب، تتداعى أمامها ذكرى ليلة زواجها، عجزه عن القرب ثم انفجاره فوق جسد سجينه.. تتساءل مع حالها عن ماهية شعوره ليلتها؟.. أتاها الجواب في



هطول جديد لدمعات تقافزت فوق وجنتيها تقتل لها الرؤية تمامًا وتذكرها بكلماتها التي بصقتها في وجهه قبل أيام بكونه لا فارق بينه وبين الرجل، شبهته بذاك الملعون وعقلها يستعيد كلماته السابقة المقتضبة بكونه يستحق العذاب و أكثر..

جزءًا كبيرًا فيها صار يتفهم ما يقوم به، لكن صار وجعها في أذيته لنفسه، أنه يؤذي حاله أضعاف ما يجني..

كيف تساعده وهي عاجزة حتى اللحظة عن مواجهته، مضت أكثرمن ساعة وهي على حالها، تضم بساقيها وتميل برأسها فوق كفيها المتعانقين سابحة في عالمٍ من التيه..

مقطوعة موسيقية بدأت في العرض للتو، ضيوف الليلة بدأوا بالتو افد وهي ليست بها قدرة على مقابلة أحد، وقفت تحت رشاش الماء الدافىء تتلقى رذاذه بوجهها، تتنفس بعمق مفتشة عن ثبات يدفع معها هذه الليلة حتى تمر، ثبات تداعى عند قدميها مع إدارتها لمقبض الباب وملاقته، ارتجف قلبها الساكن



بين الضلوع، هبطت الدرجة الفاصلة بين دورة المياه وأرضية الغرفة وبصرها معه في لحظة وصال، لحظة التقط فيها صورتها داخل المئزر القطني وخصلاتها المحيطة بوجهها في تجمعات مبتلة، نظرتها المتمعنة فيه قرر بترها في اللحظة التالية بمرور وتجاوز انتهى به خلف باب دورة المياه الموصد..

حين عاد كان مرتديًا كامل حلته إلا من السترة الثقيلة المتروكة فوق جانب الفراش، على عكسه كانت هي، منكمشة بجسدها في شبه رقود عند طرفها من الفراش توليه جانبها على نفس حالتها التي تركها ظنًا منه أنها كانت تستعد لليلة.. غرابة الحال حركت خطواته لينتهي أمامها، ملامحها تموج بألم أطبقت له العينين وذراعيها يلتفان حول معدتها بإحاطة، كل هذا دفعه ليسأل بميل طفيف وهمس أجش:

- أنتِ كويسة؟..



رفعت له عينين حمراوين، احتشد فيهما الدمع الحارق حين قابلت خاصته الناظرة في ترقب وتغضن، تدفقت كلمات"ليلى" مرة واحدة إلى أذنيها، قفزت كل صورة رسمها خيالها له، تبعثرت كلها وبقيت واحدة عالقة بذهنها..

لحظة الانتهاك!..

شهقت باختناق ورأسها يتحرك بنفي، لا؛ تعلنها صريحة، هي ليست بخير، لم ترَ اهتزاز مقلتيه ولا حيرة أمره وبصرها يهرب بعيدًا عنه، تستجمع حالها سريعًا وتعود برباطة جأش، تعدل من وضعها قليلًا، تزيح خصلاتها عن مرمى وجهها بقول خافت آخذة بألمها الصادق طوق نجاة:

- تعبانة شوية بس..

- أطلب الدكتور؟..

حركت رأسها رفضًا لقوله البديهي و أناملها تمحي آثار الدمعات ولا تمحي تهدج النبرة ولا شعورها بالألم مع كل كلمة ينطقها:



- مش مستاهلة، ابعت لي بس سهير هقولها تعمل لي حاجة دافية وهبقى كويسة..

ثم أردفت بعينين معتذرتين وابتسامة باهتة اجتذتها من بستانها الذابل:

- انزل لهم علشان مايصحش نتأخرو أنا شوية وهنزل..

طوقها بنظرة مطولة، سحب بعدها سترته وغادر مغلقًا الباب من ورائه على مهل..

أرسل لها الخادمة مؤكدًا عليها أن تتابع وضعها وتبقى بالقرب منها ثم خرج حيث الحفل المقام، استقبل المدعوين كابن عم مفترض للعروس، شارك الرجال في أحاديث متفرقة شمل أغلبها العمل بنصف تركيز، صورتها المتألمة استحوذت على نصفه الآخر، كل حين يرتفع بصره حيث اضاءة نافذتها الشاحبة سارقًا نظرة، استنكر رغبته في الصعود إليها وقد مر أكثر من ساعة على تركها، صرف ذهنه عن التفكير فيها عن



عمد، أشاح بقلبه عن كل شعور يجذبه، حكايا النساء لا تليق به ولا هو بمريدها، وإن كان يجذب أعين كل النساء بعزوفه عنهم، عينها هي تحديدًا التي تتبع خطواته منذ ظهوره، اقتحمت وقفته مستغلة لحظته المنفردة:

- ماسلمتش عليَّ قلت أسلم أنا..

استدار للصوت الذي يكره، ابنة واحد من أهم رجال الأعمال وصديقة مقربة للعروس، نظراتها تفصح عن إعجاب وتحدٍ لم يغير وضع زواجه منه شيء، لم تتبدل قسماته، استقبلها بذات النبرة التي تحفظها معه منذ زمن بينما يدس يديه بجيبي سرواله:

- إزيك يا نور..

أزاحت خصلاتها الكثيفة جانبًا بحركة أنثوية توازي رقة النبرة:

- زعلانة منك..

- ليه بس؛ خير..



لاحظت ملل النظرة وتجاهلتها، تمسكت باهتمامه المجامل:

- معقول أدخل المستشفى وماتسألش عليَّ ولا حتى تبعت ورد..

كلل مجاملته بطيف ابتسامة مصطنع وتململ في تأهب لنهاية حديث:

- اعذريني ماكنتش أعرف، المهم أنك بخير دلوقتي، حمدالله على سلامتك..

غمزته بمرحٍ وعرض تطمح له منذ زمن:

- أنا تمام دلوقتي، تعالى نرقص و أثبت لك..

لم تغير فيه شيء بمحاولاتها البائسة، كل ماتحصلت عليه رفض غير مكترث لأمرها شابه قبله الكثير:

- أنتِ عارفه رأيي في الموضوع ده..

ردت له صاع الرفض بآخر عصفت فيه رياح الغيظ:



- قلت المدام فكت عقدتك، هي فين صحيح؛ مش المفروض تكون معاك؟..

"أنا هنا معاه فعلًا.."

ظهرت من العدم تحتل الصورة ببساطتها المعهودة، تعلق ذراعها في ذراعه كأنما حركة تعتادها بينما تهديها ابتسامتها الناعمة، لكن نظرتها كانت تخاطب امرأة لا تخطأ نواياها الصريحة أي عين، تجاهلتها في اللحظة التالية ودارت تخاطبه وتخصه بابتسامتها:

- عايزة أبارك للعروسة..

من نصف الحوار الذي طال مسامعها أدركت أنه يبحث عن مخرج، فهمت وفهم، دعاها للتقدم بإشارة من كفه ثم تحركا معًا دون الالتفات إلى الوراء..

في تردد وحرج أنزلت "مريم" ذراعها، سارت برفقته حيث جلسة العروسين، قدمت مباركتها وغادرت الزحام، استقرت معه



حول طاولة صغيرة طويلة القوائم، صوت الأغاني يغطي على كل صوت، لم يصلها صوته، كل ما رأته حركة شفتيه نحوها، قطبت باستفسار لا يصلها فمال إلى أذنها يعيد كلماته:

- بقيتي أحسن؟..

حركت رأسها في تبسم وإيجاب صامت وكل مافيها يطوقه بالنظر، أجفلتها وأجفلته ربتتات متسارعة فوق كتفيهما وحضور أمومي صارم:

- أنتوا و اقفين مابترقصوش زيهم ليه!..

لم تمنحهما فرصة التفكير، دفعت بهما برفق ناحية الثنائيات الراقصة، أخذ بكفها يقطع حيرتها وتخبطها، في تردد رفعت بكفها فوق كتفه، تركته يلامسه بخفه توازي خفة يده فوق خصرها، لحن غربي جديد على مسامعها لكن وقعه الناعم أتاح لها وله فرصة النظر لأول مرة عن قرب كهذا، جسده يتعامل بديناميكية استوجبتها اللحظة، لكن خلف هاتين



العينين كانت توجد نظرات تعانق خاصتها بقوة تجاذب خارج زمام السيطرة، تبخرت الكلمات والمعاني وتبقت النظرات المجردة، تباطىء اللحن منحها الفرصة لتقطع مارثون النظر بأنفاس لاهثة في وهم، تنهي ما بينهما من فراغ وتركن برأسها إلى كتفه في عناق كاذب فتغدربها الدمعات التي عاهدت..

سطعت الأضواء و انتهت الرقصة بتغضن جبين وعيناه تتبعان خط سير دمعتيها اللتين انحدرتا فوق وجنتيها وتوارتا مع هروبها من بين يديه ومن بقية الليلة.

قرر الرحيل مع انتهاء الليلة، رفض الانتظار حتى الصباح مع البقية، رحبت بقراره، الابتعاد عن الجميع كانت غاية تناشدها، عجلات السيارة تشق سكون الليل وتلتهم لحظاته، لم ينبس بحرف ولم تتكلم بالمثل، كانت تلقي ببصرها ناحية النافذة المفتوحة، تركت الهواء يصفعها، يملأ روحها عله يعيد لها توازنها الذي فقدته تاركة له فسحة الصمت التي يفضل..



- قلت عايزه حي..

دون مقدمات بدأت حوارًا قصيرًا صار يجمع بينهما، النظرة ساهمة، النبرة بلا حياة أو معنى كحال الظلام المحيط بها من كل جانب، طالع جانبها الساكن للحظات قطعتها بقول جديد وبصر مازال يوليه الدبر:

- مو افقة..

الشكوك تثقب ظنونه، حالتها الهامدة تلك تدلل على شيء أوحد، نظراتها المحيطة له بغرابة تؤكده، طرح أفكاره جانبًا وركز مع جوهر القول، ينكر عليها قبولها الذي رفضته مرات من قبل:

- على أساس جريمة ومش هتشاركِ فيها..

دارت إليه برأسها المتعب، تتبع قسماته، تمر بين تفاصيله، منحته جو ابًا مموهًا، تعانقه فيه دون مساس:



- طالما ده اللي عايزه وهيريحك هعمله..

والصمت الآن على كليهما..

صار فرض عين.



نتدثر بالخديعة خوفًا من الخسارة..

ننتهج الكذبة تلو الكذبة حتى تبقى أرضنا الآمنة ثابتة، هي جذوره العميقة التي يستند عليها عالمه أجمع، نصفه الصادق البعيد عن لوثة الآثام، مرآة نقية تعكس له وجهًا يحبه، يرتضيه لنفسه ولا يخجله النظر..

لم تكن الحياة يسيرة معه بعد وفاة والديه، احتاج إلى سنوات حتى يشتد عوده ويقف على قدميه دون دعم أو مساندة عميه، وكلما أوشك على السقوط كانت هي هناك تتلقفه، تدعم ميله فيستقيم رغمًا عن أنفه، كان زواجه منها هو مشروعه الناجح



الوحيد آنذاك وحتى اليوم، ملاذه الآمن ومثواه الأخير الذي يسقط عند بابه كله خطيئة ويختبأ بين ثناياه العفيفة..

تقف خلف الموقد تقلب محتويات الطعام بالمعلقة الخشبية، قسماتها مرتاحة، شاردة، باسمة بلا سبب، مازال باكرًا جدًا على حمله بين ذراعيها، لكنها لا تستطيع ترويض لهفتها، تفكر في انتفاخ بطنها، لحظة معرفة نوعه، لحظة خروجه إلى الحياة، أول نظرة تجمع بينهما، تغدق عليه بفيض أمومتها قبل أن يصل، تسللت ذراعان قويتان تحيطان بخصرها، يلتحم فيها بجسده ويقطع شرودها العميق بلثمة قوية طالت جانب جيدها، رائحته التي تعشق تغالب رائحة الطعام، اتسعت ابتسامتها ورأسها يلتف ليقابله، ترد قبلته بأخرى طالت جانب فكه وعتابها اللطيف لا يخلع رداء البسمة:

- اتأخرت يا زُوز، كنت فين كل ده؟..



مرغ وجهه في خصلاتها ومشاكسة النبرة لا تكشف خباثة ماتواريه الكلمات:

- كنت بعمل خير..

- والخير ده مع سعد طبعًا..

مبرطمة، متهكمة، غير راضية بالمرة، ليست من النساء التي تلف بقيودها حول زوجها، ولا زوجها النوع الذي يقبل، تترك له مساحته الخاصة لا مانع، لكن الكارثة كلها في صحبة تخشى عليه منها، صحبة تأخذ بيده إلى كل سوء..

- ما أنتِ كنتِ بايته عند أمك كنت هرجع بدري لمين أنا..

قالها متناولًا زجاجة المياه من باب المبرد، فتح غطاءها ورفعها إلى فمه مباشرة تحت نظراتها الملتفه نحوه بسهام الغيظ وزمجرتها الظاهرة من محاولته لقلب الحقيقة، تكيل له الكلمات بينما يبادلها النظر ويده الحره تفكك أزرار قميصه على مهل:



- عزيز أنا نمت عند ماما لما إنتَ كلمتني وقلت هسهر مع صحابي، وسهرتك مع صحابك بتخلص الصبح و أنا بخاف أنام لوحدي و إنتَ عارف؛ بلاش بقى شغل قلب الترابيزة ده علشان مفقوس قوي..

- إيه ده!..

هتف بها محدقًا في وجهها بصدمة، تغضن جبينها ويدها تعبث بوجهها ظنًا منها شيء ما علق هناك، ترك الزجاجة و اقترب على مهل، متفرسًا في وجهها، زاويا ما بين حاجبيه:

- احلويتي على الحمل ولا دي تهيؤات؟..

لكمت صدره بقوة قبضتها وبسمتها تشرق بوجهها ضاربة عبوسها في مقتل، اقتنص الضحكة بانتصار:

- ضحكت يعني قلبها مال خلصانة..

عاندت باستدارة و الضحكة تسطع كشمس الظهيرة:



- ماضحكتش على فكرة، و إنتَ سخيف..

طوق عنقها بذراعه القوي، يعيدها إليه بسحبه وقضمة طالت وجنتها:

- سخيف بس بحبك..

ضحكت بصوت هذه المرة ودارت بين ذراعيه تطالعه بنصف عين وأصابعها تقبض على ياقة قميصه المفتوح، تجذبه إليها في تهديد:

- يابني لو متجوز عليّ قول..

رفع جسدها بخفة فوق طاولة جانبية، مال يرتكز براحتيه من حولها محركا حاجبيه في عبث:

- متجوز ومخلف أربعة..

رفعت له حاجبيها بدورها لكن في تهديد صريح متباطىء الأحرف، قلقل جديته طيف ضحكتها المخبوءه:



- هاقتلك..

مال مداعبًا أنفها بأنفه:

- ماهونش عليكِ..

وأتبع أحرفه بلثمة قوية لشفتيها تركت أنفاسها متعثرة وجسدها مائلًا إلى الجدار من خلفها، ابتعد محررًا إياها من قيده فعادت تجذبه إليها تعيد القبلة التي طالت هذه المرة حتى فاحت رائحة الحريق، دفعته عنها بغتة، تنظر من فوق كتفه وتشهق في خفوت:

- عاجبك كده؛ أهي الكفتة اتحرقت وبيللا جاية تتغدى معانا، هنعمل إيه دلوقتي!..

- أنا أقولك هنعمل إيه دلوقتي..

أطفأ نار الموقد وعاد خطواته في جدية قسمات..

حملها وغادر المطبخ.





نهرب حين نخاف..

حين تدق نو اقيس الخطر..

حين نشعر بغر ابة دواخلنا ونرى سقوطنا المحتم وشيك..

هربت من بر اثن شباكه ليس خوفًا منه، بل من نفسها، مس وترًا فيها لا تعرفه، لا يمكنها تحديده، لم يكن اهتمام الآخرين يومًا بغيتها، لا تذكر مرة أنها شعرت بنقص أو بحاجة إلى أحدهم حتى يغدق عليها باهتمامه، لطالما كانت تجيد الاعتناء بنفسها، تكتفي بذاتها عن كل مخلوق، بل ترى في السؤال مذلة واستضعاف لا تقبله..

كما تعرف قدر حُسنها، نظرات الإعجاب اعتادتها مثل قهوة الصباح، لا تؤثر فيها بغير إرادتها، حتى أنها صارت لا تبالي بها أو تكترث وإذا تنبهت تضايقت، لم تعد تلك اليافعة التي تنتشي بكل نظرة معجبة..



معه الأمر مختلف لن تنكر..

اهتمامه كان يضفي ليومها مذاقًا مختلفًا، ولنظرته وقعٌ لا يشبه الآخرين، ولا مرة شعرت به ينظر إلى جسدها في كل مرة كان يقصد عينيها ويتعمق للحد الذي تشعر به يكاد ينفذ للروح..

كل هذا جعل غيابه مؤثرًا، بعد عشرة أيام من آخر لقاء جمع بينها تلاشى من تفاصيل يومها لكن تأتي صورته كل ليلة لحظة ما تضع رأسها فوق الوسادة، يطغى السكون من حولها فيتخلل أفكارها بهيئته، صوته والضحكة، زار أحلامها مرتين، و لأول مرة تختبر شعورًا مثل هذا، أن يزور أحلامها رجلٌ، تكره أن تشعر بهذا ومع ذلك تتلذ بوقعه، تفر عنه فيجذبها رغمًا عنها، يقيم فيها حروبًا كثيرة تخالف أرض السلام التي تحملها وتعرفها..



وصلت مقر عملها بنشاطها المعتاد، ألقت تحية الصباح وقصدت مكتبها، صعدت الدرجات القليلة وعينها تلتقط باقة الورد الحمراء الموضوعة فوق سطح المكتب، ارتسم التعجب فوق قسماتها و أناملها تلامس الوريقات الناعمة..

- وصل من نص ساعة..

أخبرتها العاملة، لم تسأل عن المرسل لأن بقلب الوردات وجدت بطاقة أنيقة، سحبتها وارتكزت بردفيها فوق حافة المكتب قارئة توقيع المرسل الذي ضمن كل المحتوى..

(حكيم عيون)

أغلقت البطاقة، نقرت بها فوق شفتيها عدة مرات قبل أن تزفر وتعتدل بوقوف، رفعت الباقة جانبًا ثم ألقت بالبطاقة في آخر درج من المكتب.

جاءت دعوة زوجة أخيها بمثابة نجدة من يم الأفكار التي تصارعه، أنهت عملها باكرًا وغادرت، توقفت تبتاع حلوى



شرقية يفضلها الشقيق، قبل أن تحتل مقعد السائق، شيئٌ ما جذب أنظارها فعادت له وقد حسمت قرارها بأخذه..

استقبلتها"دهب" بترحاب بشوش، حملت عنها هديتها بعتاب حقيقي:

- أنتِ كل مرة تيجي تكلفي نفسك كده، بتحسسيني أنك ضيفة مثلا، هشتمك والله بجد..

- سيبك من الحلو ده علشان جوزك أصلا، أنا جيبت لك حاجة أحلى..

ناولتها كيسا أنيقا فضته"دهب" بفضول تحول بعد ثوان إلى ذهول فغرت له الفاه ويدها تقلب الثوب الوردي الصغير بين يديها ثم تعانقها بسعادة:

- يجنن يا بيللا، حلو قوي قوي..

ابتعدت"عبلة" تخبرها بنبرة مختالة كلها فخر:



- أول هدية لازم تكون من عمتو طبعًا..

ضحكت"دهب" وسبها الشقيق القادم من المطبخ حاملًا طبق السلطة الكبير:

- وحياة أمك؟ إيه الفال ده أنا عايز ولد..

- إيه التفكير المتخلف ده..

- يا ستي أنا جاي من عند أبو جهل وهسميه عبدالصمد..

- دهب أنتِ متحملاه إزاي؟..

تدخلت"دهب" تنهي الحوار بتأفف:

- ممكن تقعدوا على السفرة الأكل هيبرد ومالكوش دعوة باللي جاي ده خالص..

خلعت"عبلة" سترتها و اقتربت من الطعام، تحتل مقعدها بشهية مفتوحة:

- أنا و اقعه من الجوع، طابخين لي إيه؟..



هتف"عزيز" متبسمًا في خبث:

- كان في كفتة بس دهب انشغلت عنها فاتحرقت..

ضربت زوجه ساقه بواسطة قدمها من أسفل الطاولة محدثة شقيقته:

- بس عملت لك التشيز كيك اللي بتحبيه كتعويض، مرضي ياباشا؟..

تناولوا التحلية أمام فيلم"دهب" المفضل والمقتبس عن ملحمة الإلياذة لهوميروس، كما حضرت طبقًا كبيرًا من الفاكهة وأخر من حبات الذرة، جلست متحمسة وفوق ساقها وضع"عزيز" رأسه متأففًا:

- هو الفيلم النجس ده بقى مقرر علينا كل شهر..

دست بفمه حبات العنب دفعة واحدة تسكته:

- مش أحسن من أفلامك اللي كلها خبط ورزع ودم..



غمغمت الضيفة في ضجر من ثرثتهما اللامتناهية:

- ممكن تبطلوا رغي وحرق، خلوني أركز..

بعد حين جاءت المقاطعة مع اهتزاز هاتفها القابع فوق ساقها معلنًا عن وصول رسالة حديثة، فتحتها وكانت تحمل اسمه..

حكيم العيون..

"عجبك الورد؟"

قرأتها، أطفأت جهازها وعادت إلى أحداث الفيلم، مالبثت أن تندمج حتى قاطعها اهتزاز جديد..

"وبعدين بقى لا غنا نافع ولا ورد ولا كلام حلو.. ماتعرفيني سكتك إيه طيب؟ "

قرأتها مرتين ثم أطفأت الجهاز، أخذت طبق الذرة بحضنها وعادت تتابع الفيلم، اهتزاز ثالث، انتظرت دقيقتين قبل أن يهزمها فضولها وتفتحها..



"هأكلم نفسي كتير؟.."

قبل أن تترك الهاتف وصلت الرابعة وهو قابع بين يديها..

"عبلة.."

نبض قلبها في توجس، أحست به يناديها وكأنما صوته قريب، انتظرت تتمة شعرت بها آتية، ولم يخيب حدسها وصلت عقب ثوانٍ..

"أنا حاولت أنساكي بس ماعرفتش.. بتكلم جد"

أتبع خامسته بسادسة فورية..

"أنا وقعت ولا إيه.."

"مش هتردي برده؟.."

"براحتك.."

"تصبحي على خير"



أطفأت الجهاز وتركته إلى جانبها، إبتسامة بلا معنى ناوشت ثغرها تزامنًا مع طروادة المنهوبة.



الشجاعة عملة نادرة..

في زمان غمام الباطل فيه يحجب ضياء الحق، حتى تصل نهاية النفق عليك المرورفوق جمرالصدق، عليك أن تعرف أننا نحيا زمانا طريق الحق فيه محفوف بالمخاطر، قبل الأخذ بصورة الصنديد الباسل عليك أن تعد العدة وتستعد لكل تالي مجهول..

كان يعلم أي طريقٍ يسلك، كما يدرك أنه ربما يساند الوهم، لكن إنسانيته حتمت عليه المضي قدما، ضميره الحي لا يقبل الخنوع والصمت، وإن كان كل ما في يده خيطًا واهنًا من الأمل تمثل في شاهدين وكلمة حق، كلمة حق يريد استخراجها من الأفواه، كلمة ثقيلة، مستعصية، كلفته وصديقه المحامي



بضعة وريقات نقدية حتى يقبل الرجلين بالمثول أمام المحكمة ويقران بقول الحقيقة، تفرقوا على وعد بلقاء جديد وقتما يحين موعد الجلسة التي تحددها المحكمة، تركهم وشعور بالنصريبهجه..

نصرة المستضعفين فضيلة

ونصرة الحق جهاد

القلم جهاد

الصدق جهاد

حين تسعى لهذا أنتَ تجاهد في سبيل نصرة دينك و إنسانيك..

رجلٌ بلا ضميريقظ يعني رجلًا بلا شرف..

تلك عقائده ومبادئه التي يؤمن بها ولا يرى في الميل عنها غير اعوجاج سريرة بحاجة إلى تقويم..



فوت صلاة العشاء بينما كان ينهي وصاحبه المحامي الأمر مع الرجلين، مر على جامع الحي فوجد أبوابه مازالت مشرعه و إمامه يتلو بصوته الندي آيات من الذكر الحكيم، توضأ وصلى فرضه ثم أتبعه بالنافلة، سأل خالقه العون والسداد، دعا أن ينير له بصيرته ويرشده بمعيته حيث طريق الحق والصلاح..

مر على جدته أولًا، وجدها تستعد للنوم، لم يطل بقاءه اطمئن عليها وصعد، ألقى تحيته على أمه الجالسة أمام التلفاز كلها انصات لمسلسل التاسعة الذي تنتظره كل مساء، ترحب فيه بنصف تركيز:

- وعليكم السلام يا حبيبي، أكلت بره ولا قاعد على لحم بطنك من الصبح؟..

ألقى بجسده المنهك إلى جوارها ورأسه يميل فوق كتفها:

- ماأكلتش حاجة وميت من الجوع..

- عاملة طاجن بامية باللحمة الضاني يستاهل بوقك..



- الحقيني بقى يا ست الكل..

- اصبر دقيقة واحدة بس الحلقة تخلص و أقوم أسخن لك..

دار بصره حيث تندمج، ما إن وقع بصره على الشاشة الصغيرة والمشهد الحميمي يجتاحها حتى انتفض برأسه:

- إيه يا ماما اللي بتتفرجي عليه ده!..

- إيه يا واد ده مهند ودي مر اته..

- يا سلاااام!..

- ده مسلسل حلو قوي قالت لي عليه البت ندى، هقوم أحط لك الأكل واحكهولك..

- يا ماما بلاش التركي ده الله يكرمك، شغلي عبدالغفور أنتِ بتحبيه ومحترم..

- يعني أقولك مهند تقولي عبدالغفور؟ واد إنتَ قفل مش هحكي له حاجة، أوعى كده عديني..



أفسح لها المجال لتمرضاربًا كفًا على كف حتى قاطعه نداء أبيه القادم من الشرفة..

كان أبوه و توأمه وبينهما رقعة اللعب، حين وصل هتف أبوه في أخيه الجالس مقابله:

- قوم فز وقعد أخوك، جيل خيبان مش فالح حتى في دور طاولة..

نهض"عبدالرحمن" مبرطمًا:

- يا حاج ده أنا كسبتك دورين وسبتك تكسب التالت لما صعبت عليَّ..

أشاح له بيده في حنق:

- إنتَ أصلا مش سالك وبتغش..

احتج"عبدالرحمن" فوق رأسه وشقيقه يأخذ مكانه:



- أيوه أيوه أعمل الشويتين بتوعك دول كل ما اغلبك، الاعتراف بالهزيمة شرف على فكرة يا حجوج..

استدعى الوالد جل تركيزه وصوبه فوق رقعة اللعب والإصرار فيه ينافس العزيمة على سحق ولديه:

- طيب أقعد وشوف الحرفنة دلوقتِ و أنا بقطع أخوك..

كتم الأخوين الضحكة وبدأ التحدي الذي انتهي فيه "عبدالله" رافعًا راية النصر جوار كفيه الماثلين في استسلام أمام صدره:

- سامحني يا حاج؛ إنتَ بتضرب تحت الحزام وبتقول جيل خايب كان لازم أرد..

أغلق أبوه طاولة اللعب على بعضها في حنق واعتراض لا يلين:

- أيوه جيل خايب ومش دور طاولة اللي هيغير الحقيقة..

مال "عبدالله" بجذعه إلى الأمام ناقرًا فوق السطح الخشبي بعناد، والنظرات المتبادلة تحكي مواجهة بين جيل وجيل:



- الجيل ده هو اللي هياخد البلد دي لحتة تانية، عارف ليه؟..

تهكم أبوه بقدر يساوي ستين عامًا ويزيد:

- ليه يا جيل خيبتها..

- علشان خيبتها اللي بتقولها دايمًا دي، خيبته في أحلامه، في بلده، خيبته في بكره اللي مش باين له ملامح، جيل شايل كل خيبة والتانية جواه وعايش، بس هيجي وقت ويفيض بيه، وقتها الانفجار هيكون حق مشروع..

التهكم هذه المرة لم تتبعه السخرية بل الجدية التامة:

- ابقى قابلني..

- هقابلك و أفكرك..

ساد الصمت فجأة وقد هدأت مشادة الصوتين، خاض الوالد لحظات من التفكير قبل أن يرفع رأسه إلى ولده عاقد



الساعدين فوق صدره في تحفز يذكره بنفسه ودمائه الثائرة في عهد قديم..

يخاطبه في هدوء يشبه مواسم الحصاد:

- أنا مش عايزك تعلي سقفك يا عبدالله عشان ماتقعش على جدور رقبتك، زمن الثورات والصوت العالي ولى، الخوف دلوقتي عشش جوه النفوس، ماحدش بقى حمل لسعة كورباج ولا ليلة واحدة في سجن..

يرفض ذلك الخنوع البائس، تمقته نفسه ولا تطيقه:

- بس الناس تعبت يا بابا، الشباب اللي مش عاجبك ده بيدفن كل يوم حلم من أحلامه تحت رجليه، تفتكر واحد ماعندوش بكرة ولا مستقبل هيخاف؟..

- الخوف بقى طبيعة عايشين بيها، من خاف سلم..

- قصدك طبيعة وضع اتفرض علينا بالجبروت والقوة، قوة هتفقد تأثيرها مع الوقت..



- موهوم..

- أنا مش موهوم، أنا عايش بأمل البلد دي تتغير، وهيجي يوم وتتغير طول ما الأمل ده عايش..

عاد"عبدالرحمن" إليهما، يفض النزاع بين أبيه وأخيه والذي دائمًا ما يبدأ وينتهي بهما كلا يصر على رأيه وموقفه:

- جماعة الفكرة مابقتش فكرة قمع وكبت حريات، الشعب المصري بينحدر للدرك الأسفل بخطى ثابتة، الخوف بقى عليه من نفسه أكتر من الحكومات..

احتد أخوه عليه بالقول:

- ومين السبب؟ مين اللي وصلنا لهنا؟ قبل ما تقيس النتيجة قيم الأسباب واعترف بوجودها..

ثم أردف بذات اللهجة المحتدة زادها التهكم:



- ولا إنتَ شايف نفسك تمام واخد كل حقوقك خلاص مش عايزحاجة تاني؟..

قابل"عبدالرحمن" حدة أخيه بصد ساخر محدثا إياه و أبوه معا:

- أنا عايز أتجوز، جوزوني وبعدين نعمل قعدة عرب و نحل مشكلة الجيلين اللي قرفاكم دي..

غمغم" عبدالله" بانفعال:

- يابني آدم فكربعقلك شوية..

- يعني هي ناقصة وجع دماغ..

- مش علشانك ولا علشاني، علشان ولادنا وكل اللي بعدهم، اللي احنا بنزرعه النهاردة هما هيحصدوه بكرة..

ضحك"عبدالرحمن" في ظفروذراعيه يشيران إلى أبيه:

- يعني احنا دلوقتي بنحصد زرع الراجل الكبارة ده..



حدثه أبوه:

- بس يا حمار..

وتغضنت قسمات الرجل في مخطوطة قهروذكرى نفسٍ يافعة كانت تفوروتحتقن لأجل الأرض والوطن:

- كارثة، أما تقول لواحد عاش تسع سنين من عمره يحارب علشان يرجع أرضه كل اللي احنا فيه ده بسبب جبنكم وتخاذلكم يبقى كارثة..

قرفص "عبدالرحمن" إلى جانبه طاويًا المزاح جانبًا مع تهدج نبرة أبيه، قبل كتفه في مراضاة واعتذارعن خطأه الغيرمقصود:

- إيه يا حاج فين روحك الرياضية..

فعل "عبدالله" بالمثل من الجانب الآخر، متطلعًا إليه بنظرة كلها فخرللرجل الذي فيه:

- احنا لو عندنا نص حبك واخلاصك للبلد دي كان زمانا في حتة تانية..

أمسك أبوه بكتفه وأخوه، يشد عليهما ويخبرهما بخلاصة القول:

- عندكم كتير يا عبدالله، عندكم كتير يابني، مش ذنبكم أن ريشكم بيتقص أول بأول..

وختم الحديث بنظرة طوقت كليهما متبسمًا في أمل لا يموت وإن طمره زمنًا من الخيبات:

- بس الطير الحر مسيره في يوم يفرد جناحيه ويوصل حدود السماء..

ربما..

ربما؛ حين يزول الغمام.





جلجلت ضحكاتهم الصغيرة جوار تشابك أيديهم في لعبة تعلماها حديثًا، في صالة الإنتظار الواسعة كانا يجلسان جوار أبيهم الغائب مع الفراغ أمامه في نظرة قاسية متذكرًا قرارها القاطع بالرفض في مصاحبته..

نحن نقسو حين نختبر الخذلان..

- بابا هي مامي مش هتسافر معانا؟..

- لا يا عمر، ماما مش عايزه تسافر معانا..

"حضرات السادة.. يرجى الانتباه هذا هو النداء الأخير.. تعلن مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم(..) والمتوجهة إلى مدينة الرياض.. على السادة المسافرين التوجه إلى بوابة(..).."

تصاعد رنين هاتفه الكامن بين أصابعه مع تعالي مكبرات الصوت بالنداء الأخير، ظل يطالع اسمها المضيء فوق الشاشة للحظات قبل أن يطفأه ويدس به داخل جيبه ثم ينهض متحدثًا إلى صغيريه في تصميم:



- يلا يا أولاد ميعاد الطيارة..

أمسك بأيديهم وعبر ثلاثتهم بوابة الذهاب.



(9)

يولد الحب صغيرًا ويكبر مع الزمن..

في بدايته تراه مثل شابٍ أهوج بطيش يستطيع أخذ العالم بين ذراعيه..

بعدها يتزن، يتهذب الحماس ويصير أربعينًا في اكتماله جاذبية و رصانة..

حين يشيخ يصبح كهلًا قد لا تراه لكنه موجودٌ بين طيات الجلد، محفورٌ بأثر لا يزول..

لكن؛ هذا حين يسير بدروب الحياة دون منغصات تعرقل طريقه..

هنا حكاية حبٍ مخنوقٍ بحبلٍ غليظٍ ينازع أنفاس الحياة، طرفٌ بيده وآخر بيدها، يشد فتشد، لا هو يرخي ولا هي تلين، لا يرونه



وأعينهما تضطرم بنيران العناد والغضب، الأيدي الخفية ترمي بالشرر وشيطانهما المريد ينفث فيها لتعلو بألسنتها وتلتهم كل جميل كان يجمع بينهما ذات يوم..

كان رفضها له قاطعًا، غير محمل بزحام الحديث، مختصرًا ناسب مابينهما من جفاء، أدهشها صمته آنذاك، اكتفى بصمت طويل قطع بعده خط الاتصال الوحيد الموصول بينهما، بعد أيام حين كرر الاتصال كان لأجل الصغار، لم يذكرها من أمره، أخبرها أنه سيحضر لأخذهما حتى يقضون يومهم معه بمنزل والديه كما تقتضي العادة، يريد توديعهما قبل سفره.. اصطحبهما ورحل، لم ينظر لها رغم تعمدها لتوصيلهما إلى خارج الباب، لا تدري عما تبحث وقد أنهت الأمر بقرارها القاطع لكنها كانت تنتظر منه شيئًا تجهل كنهه..

طوال النهار جلست تفكر بوضعهما العالق بالمنتصف كمطلبها بالانفصال، لم تكرره بعد رده الهازئ، كل ما صار هو انقطاع



فوق انقطاع، مسافات تتضاعف ويضيع كلاهما فيها دون دليل يوصله للآخر..

ماذا ستفعل مع طفلها بعد رحيله، لا تعرف، ربما عليها البدء في العمل كما أخبرتها أمها، أن تلتفت لنفسها ويكفيها تأخرًا بسبب زواجٍ فاشلٍ لا يعود عليها بغير العقد والمشكلات، تخبرها أن تلتفت لذبول جمالها الذي تركته للزمن يقتات عليه بإهمال، أن تعيش الحياة التي هجرتها باكرًا باحثة عن استقرارٍ واهٍ مع رجل لا يستحقها ولم يقدر تضحيتها يومًا..

قضت نهارًا طويلًا تتمخضها الأفكار، عكرة المزاج ويجيش صدرها بضيق، أليس هذا قرارها، ألم تختر البقاء، تعنتت برفض وأبت التنازل، أليس هذا ما أصرت عليه، ما بال التعاسة إذًا تلتف حول روحها وتخنقها؟..

هاتف ما همس لها بأن تحدثه، تطلب منه اللقاء على انفراد قبل رحيله، حياتهما المبعثرة بحاجة إلى ترتيب، لا يمكنه الرحيل



وترك كل شيءٍ عالق من خلفه، ربما تثور عليه وتلعنه لأنه يعاملها بهذا الجفاء والإهمال وهو على يقين تام بكرهها لهذا الشعور..

كانت بغرفتها وحيدة، أبوها بعمله وأمها كذلك، شعرت أن غيابهما يوفر لها الفرصة، أخذت بطفليها ذريعة تدفعها فيما ترغب، ضغطت فوق شاشة هاتفها وأجرت اتصالًا، عقب لحظات انقطع الرنين بغتةً، فكرت به مشغول، انتظرت أن يعاود الاتصال لكنه لم يفعل، ولم تستطع تكرارها، أبت كرامتها أن تبدو له في موضع تنازل..

انقضى النهار وغربت الشمس، تأخر الأولاد في عودتهم، انتظرت ساعة على موعد العودة المعتاد، تركت لهم مساحة إضافية تناسب ليلة رحيل قبل أن تعاود الاتصال مرة تالية لهذا اليوم، لكن هذه المرة سوف تحادثه بصوتٍ جامد ومتحفز لن يسأل إلا عن صغارها وحسب، إن كان لا يرغب بمكالمتها أو يهتم لأمرها



ستفعل المثل، ليبقى كل شيءٍ خَرِبًا على حاله، لن تصلح شيئًا ولن تسعى لأي أمر مادام لا يرد على اتصالها أو يهتم، كانت حانقة، غاضبة والهاتف المغلق يزيد من وطأة الشعور..

حين زحف الوقت توترت، أصابها بعضًا من خوف، هل أصاب أحدًا منهم مكروهًا!.. فكرت في صغيرها أولًا، ربما أصابه أذى جراء شقاوته الغير متناهية، فزع قلبها وراحت تضرب فوق الشاشة مكررة اتصالها، الهاتف المطلوب مازال مغلقًا لكن انتهى وقت الانتظار، الآن صارت أكيدة أن مكروهًا ما وقع.. فتشت عن رقم شقيقه وأجرت اتصالها السريع، حين أتاها صوته الرخيم هتفت بأعصاب منفلتة:

- بكر فين يا عبدالله!..

هكذا دون مقدمات؛ السؤال المباغت أقام التوجس بنفس المستمع ليهتف بدوره في تعجب واستهجان:

- بكر سافر يا نادية، أنتِ ماتعرفيش؟!..



لم يرَبهوت وجهها جوار النبرة:

- سافر إزاي وطيارته لسه بكرة!..

استنكر قولها مصححًا لها غلط مفاهيمها:

- بكرة؟ لا طيارته كانت النهادرة الساعة خمسة..

ارتجف صوتها بزعيق مباغت:

- ولادي فين يا عبدالله؟..

- نعم!!..

- بسألك ولادي فين!..

- اللي أعرفه أن ولاد أخويا معاكِ..

سقط جسدها فوق الأريكة من خلفها جوار همسها المختنق حد الموت:

- أخوك خدهم ومارجعهمش..



لم تمر الساعة وكانت بصحبة أمها تطرق بابهم في عنف، اقتحمت جمعهم المتوتر بحالة يرثى لها، غاضبة، باكية، تتراقص شياطين الكون أمام عينها.. دار بصرها فوق وجوه إخوته و أبيه واستقر في النهاية فوق أمه، وقفت مقابلها تطلق سهام القول والاتهام في الحال بنبرة مجروحة:

- ابنك خد ولادي وسافر!..

- اقعدي يا نادية و استهدي بالله..

أخبرتها حماتها من جلوسها في حدة أثارتها بغضبها وحضورها الصاخب بصحبة أمها بينما اقتربت"دهب" تمسك بذراعها وترحب بوالدتها في تردد حرج:

- اتفضلي يا طنط..

أردفت محاولة تهدأة الوضع المحتدم:



- اهدي يا نادية، من وقت ما كلمتي عبدالله واحنا بنحاول نوصل له عشان نفهم، بس موبايله مقفول وعزيز كمان مابيردش جايز الولاد راحوا معاه يوصلوا باباهم وراجعين..

نفضت ذراعها عنها في فظاظة وحدة وصياحها يغطي على كل صوت:

- وأما هو كده مقاليش ليه؟ مابيردش على موبايله ليه؟ أخوكِ كدب عليَّ وخدعني، قال مسافر بكرة وهو مسافر النهاردة، تفسري ده بأيه يا دكتورة..

- مايصحش الكلام ده يا بنتي، صلي على النبي واخزي الشيطان..

تدخلت أمها بقول هازىء مشحون ترد على قول أبيه:

- واللي عمله ابنك هو اللي يصح يا حاج حامد؟ يحرق قلب أم على ولادها بالشكل ده؟..



- لا مايصحش ولا يرضيني ولو الكلام ده حقيقي حصل أنا ليا كلام معاه..

لم تلتفت لحديث أبيه، عادت حيث أمه الجالسة في صمت تكظم غيظها وتنأى بوجهها بعيدًا عنهم، المرأة التي لم تحبها ولطالما أرادت تزوجيه من أخرى تقربها، اقتربت ثلاث خطوات أخيرة، تقابلها فيها عن قرب بوهج نيرانها:

- عايزه تفهميني أنك ماتعرفيش حاجة، مش بتخططي أنتِ و ابنك عشان تحرموني من ولادي؟ مش هو ده اللي عايزاه..

انتفض "عبدالرحمن" عن صمته، قابل زعيقها في أمه بآخر:

- الزمي حدودك يا نادية! ماما فعلا ماتعرفش حاجة..

جاورتها أمها تساندها وتنظر لآخر المتكلمين شذرًا:

- اهدي ياحبيبتي واطمني، ولادك فين ما يكونوا هيرجعوا لحضنك..



تجاهل" عبدالله" كلمات أمها المغيظة وحدثها مترفقًا بحالها:

- صدقيني ماحدش فينا يعرف أي حاجة، هو بات معانا ليلة امبارح والصبح رفض إننا نروح معاه المطار قال عزيز كفاية..

ردت أمها عنها:

- واحنا هنصدق كلامكم ده..

تدخل"عبدالرحمن" محدثًا إياها بقلة تهذيب:

- والله حضرتك تصدقي ماتصدقيش أنتِ حرة..

"متجمعين عند النبي"

دلف"عزيز" من الباب المفتوح مصطنعًا الدهشة من التجمع العائلي الغير سعيد كما تعلن الوجوه، التفت له كل الرؤوس وزوجته تسابق خطواتها حتى تمسك بساعده، تسأله في لهفة مختصرة ناسبت القلق القائم وإن كان الفراغ المقفر من خلفه يأتيها بالجواب دون سؤال:



- ولاد بكر فين؟!..

رسم علامات الاستغراب فوق قسماته قبل أن يجيبها محركًا كتفيه في بديهية ورأسه يلتفت إلى الواقفين فوق جمر الانتظار:

- مع بكر.. أبوهم.. زمان طيارتهم على وصول لمطار الرياض ده إن ماكنتش وصلت يعني..

دارت "دهب" فمها المفغر خلف أصابعها ورأسها يتحرك ناحية زوجة أخيها والصدمة الجلية تأخذ حيز اليقين وقد نسفت الكلمات كل الشكوك والاحتمالات الضعيفة، دارت إلى أمها القريبة، تتشبث فيها وتهتف بروح تتنازع:

- خد ولادي وسافر يا ماما، بكر خد ولادي مني!..

أمسكت بها أمها ودارت إلى أبيه الجالس في صمت مطبق، تخبره والجميع بصوت جهوري:

- احنا من هنسكت على المهزلة دي، عاملين رباطية على بنتي، هي دي آخرة بنات الناس معاكم، هو كان يحلم بضفرها..



رفعت له سبابتها مردفة بتهديد صريح:

- ابنك يطلق بنتي ويرجع لها ولادها وكل حقوقها بالأصول بدال ما ناخدهم بالمحكمة غصب عنه والبادي أظلم..

سحبت ابنتها ورحلت مخلفة من وراءها أعاصير الصمت، صمت قطعه تعليق"عزيز" الساخرعقب رحيلهما:

- عقربة مش مرّه..

قاطعه عمه بوقوف، ينهره بزعيق حاد:

- أما إنتَ عارف بعملته ماقلتش ليه؟..

حرك له كتفيه في براءة كاذبة:

- أنا عرفت النهاردة بس يا عمي، وبعدين أقول إيه؟ بكرعايز عياله معاه، حقه، مراته تقدرتحصلهم لوعايزه..



- دي مش طريقة ولاد الأصول يا عزيز ماتقعدش تلف وتدور عليَّ؛ إنتَ و ابن عمك طبختوها سوا ولو كان له حق ضيعه خلاص..

التف الأب إلى زوجته الجالسة بصمتها قاصدًا إياها بالكلمات:

- كنتِ بتعيبي في مراته وأهلها؛ ابنك أهو طلع أجن منهم وماعملش اعتبار لأبوه قدام الناس..

عاد إلى ابن أخيه يستكمل وصلته بانفعال غاضب ألزم الجميع الصمت:

- بلغه إني مش هتدخل له في مواضيع من اللحظة دي، مش عامل كبير وقراراته من دماغه؟ يشرب بقى..

قرارٌ لم يكن يسيرًا على صاحبه، لكنه كان طوق النجاة الوحيد الذي يراه حتى ينجو بحياته من براثن الغرق.



حكاية أقرب لمحاولة زرع..



يراها أرض لينة، صالحة لغرس نبضة عشق ولدت خلف الضلوع لأجلها..

لكنها تلفظه، ترفض كل محاولات القرب، تقطع عليه كل السبل مغلقة في وجهه كل باب، لكنها لا تعرف بعد كم هو عنيد فيما يريد..

مطعم أنيق، اعتادت ارتياده لكونه قريب من عملها أولًا ولأجل طعامهم اللذيذ ثانيًا، مكانها الدائم جوار الجدار الزجاجي، ظل يراقبها للحظات قبل أن يقتحم جلستها المنفردة بأريحية لا تناسب الوضع..

- مساء الخير..

رفعت له عينين مصدومتين لحضوره المفاجيء، سكن البصر فوقه للحظات شملت فيها طلته الكلاسيكية والبعيدة عن رسمية العمل دار بعدها في أرجاء المكان ثم عاد واستقر فوق هاتفها دون رد لتحيته أو لحضوره الغير متوقع، رفع حاجبيه إثر



رد فعلها المتغطرس ونقر بأصابعه فوق الطاولة بينهما منبهًا إياها بلطافة لا تناسب درب التجاهل الذي تتبعه:

- مايصحش على فكرة تتجاهلي الدكتوربتاعك..

أطلقت زفرة حارة بينما تضع الهاتف فوق الطاولة بحدة مقصودة:

- والدكتوربتاعي بيعمل إيه هنا يا ترى؟..

أجاب ببساطة وازت ابتسامته المتسلية:

- بيحاول يكتشف لك سكة عن قرب بعد ما غلبتيه..

أهدته ابتسامة مصطنعة بان فيها ونبرتها الانفعال والعجرفة:

- صراحتك مبالغ فيها يا دكتور، وعلى كل حال أنا ماليش سكة، دورعلى حاجة تانية تسليك بعيد عني..

لم ترَ ابتسامته المتسلية وقسماته تكتنفها الجدية، يميل بجذعه إلى الطاولة مرتكزًا عليها بذراع بينما كفه الآخريشيرلها:



- قربي..

تجعد جبينها بعدم فهم فأردف وأصابعه تصنع دائرة وهمية حول وجهه:

- بصي لي كويس، ده شكل واحد عايز يتسلى؟..

أشاحت بوجهها جانبًا، تصدر له واجهة باردة بينما هو يتلو عليها نواياه بكل جدية تامة:

- أنا مستعد أتكلم مع أخوكِ أو أعمامك وجدتك لو ده هيثبت لك أني صادق في كل كلمة بقولها..

تكسرت واجهتها الباردة بانتفاضة كف تشير إليه في إتهام مصدوم:

- إنتَ مجنون يابني إنتَ!..

ابتسامته هذه المرة ورصانة الكلمات أربكتها بحق:

- طيرنا حاجز الرسمية أهو، ده تقدم عظيم..



احتدت ملامحها ونظرتها بسؤال:

- إنتَ عرفت عن أهلي إزاي، إنتَ بتر اقبني؟!..

- اسمها سألت عنك مش بر اقبك..

- ومين سمح لك تعمل كده إن شاء الله..

- مش محتاج أخد إذن عشان أعمل كده..

- بس أنا قلت لك لأ من البداية!..

- آه بس ماقلتيش لأ ليه؟..

ألجمها الصمت وعينها في صراع محتدم مع عينيه حتى استطرد في خفوت خالف افتعالهم السابق:

- اديني سبب واحد حقيقي يا عبلة و أوعدك مش هتشوفيني تاني..

كورت كفها الساكن فوق الطاولة والصمت مازال يكتنفها، إجابتها خارج نطاق البوح، تتابع صراعها الداخلي تحت عيناه



المراقبه لعينيها مما دفعه ليسأل بهمس قريب وبشكل مباشر لا يحمل أي منطق التواء:

- في حد في حياتك؟..

اقتحامه لقوقعة فكرها بهذا القرب الشديد والمباغت جعلها تنفي بحدة أثبتت لها وحدها مدى كذبها:

- لا طبعًا؛ إيه اللي بتقوله ده!..

أفصحت عيناه عن راحة قبل ثغره جاذبًا إياها لبحره عنوةً:

- كنت محتاج أتاكد وخلاص أتاكدت، أي سبب تاني مش هاخد بيه..

قطع حديثه وصول الطعام، وجدته طالبًا لنفسه وجبة تماثل خاصتها، ابتسم لها في خبث وبدأ في التناول بقسمات مرتاحة تنتشي بسعادة ظاهرة..



حركت رأسها بلا معنى وبدأت في تناول طعامها بصمت قطعه بعد حين بسؤال متباسط فحواه دردشة:

- مبسوطة في حياتك يا عبلة؟..

أطبقت أجفانها تتوهم ثباتًا خادعًا حتى لا تصفع وجهه بالطبق القابع أمامه، لكن محاولتها في التماسك كانت فاشلة، لم تستطع كبح لجام غضبها أكثر فرفعت له عينين حادتين ترميانه بشرر وضروسها تطحن بعضها البعض:

- بطل تقول عبلة؛ اسمي بيللا!..

دنا يهدي أذنيها دفء الهمس وعذوبة الكلمات ناظرًا لعمق عينيها عن ذات قرب:

- عيني على الجوهر الحقيقي..

قابلت فيض مشاعره بسماجة وجمود ومضغة كبيرة من طعامها:



- مش بحبه وبكره أي حد يقوله..

- عادي هخليكي تحبيه..

وأردف في ثقة بمكر مقصود:

- الاسم طبعًا..

ثم تنحنح دون حاجة وعاد يسترخي في جلوسه مستكملًا وصلة حديث مبتورة:

- كنا بنقول إيه؟.. أيوه.. كنت بسألك مبسوطة في حياتك..

- و إنتَ مالك!..

صاحت فيه دون تفكير وضحكت بانفعال صادق متابعة في فظاظة مواجهة نظراته:

- لا بجد إنتَ مالك؟ ماقصدش إهانة، بس أصلك داخل بثقة وفاتح في النحنحة وبعدين يعني..

- نحنحة!..



غمغم بامتعاض وأردف بيأس:

- ده اسمه دبش يا ماما، شفايفك الحلوة بتنقط دبش..

تنحنح في حرج حقيقي هذه المرة وبصره يطوف حول رواد المطعم، يتأكد أن نبرته العالية لم تصل لأحدهم قبل أن يعود لها متنهدًا رافعًا كفًا معتذرًا أمام نظراتها الصامتة:

- تمام، فاهم إني زودتها، أنا آسف..

لم تأتِ برد، مسحت عن فمها ويدها تخرج بضعة أوراق نقدية تركتها فوق الطاولة على عجالة ونهضت راحلة في خيلاء دون حديث أو نظر..

تبع خطواتها، أمسك باب السيارة خاصتها قبل أن تغلقه، أطبقت جفنيها مع تنهيدة عالية دون التفات وكلماته الجادة تطرق مسامعها:

- عارف أني بنط مسافات وبتجاوز حدود؛ بس كل ده بدافع مشاعر اتولدت جوايا وبتكبر بشكل أنا نفسي مستغربه..

تحرك خطوتين قابل وجهها وصمت هنيهة حتى ترفع له عينيها، حين فعلت ختم حضوره ببوح خاص اخترق كيانها كله دفعة واحدة:

- كنت خايف يكون حد سبقني، بس سعادتي الليلة ماتتقدرش..

تجمدت تحت سطوة النظرة، موج بحره كان عاليًا، سحبها دون أن تدري، وهي التي ظنت أقدامها ثابتة فوق اليابسة، كانت تفقد زمام السيطرة واضطراب نبضها أنبأها عن غرقها الوشيك!..



الحب عند البعض مفقود..

مجهول الملمح و الهوية، لم يحن الوقت بعد ليجمعه به نقطة التقاء، ربما لأن بطل الحكاية لا يفتش عنه في دروب الباحثين،



بل يتبع طريقًا مقفرًا بعيدًا عن مبتغى القلوب وكله يقين أن ما له محفوظ حين تشاء الأقدار..

عاد من العمل قبل ساعة، تناول طعامه وأخذ حمامًا دافئًا يطرد به صقيع الطقس لهذه الأيام، فوق فراشه الخالي ترك متعلقاته وهاتفه ليتصاعد برنينه دون رد، رنين أتى بشقيقه العائد بدوره من عمله قبل لحظات من الردهة ليمسك بالهاتف المهتز..

- موبايلي ده؟..

سأل من خلف المنشفة ويده تجفف خصلاته المبتلة، دار له توأمه بالهاتف الكامن بين أصابعه بصمت رافعًا له حاجبه كمن وقع في الشرك:

- الآنسة فاطمة اتصلت..

تجاهل ما تواريه الكلمات من خباثة، اكتفى أن شيعه بنظرة فهم ويده تسحب الهاتف من بين أصابعه، خرج إلى الشرفة



الرئيسية وصوت أمه البعيد يتبعه جوار الرنين القريب من أذنه..

- ماتطلعش البلكونة هتاخد برد..

"السلام عليكم.."

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. إزيك؟..

جاوره شقيقه راميًا أذنه بالقرب من ردها المتوتر بخجل:

"الحمد لله بخير.. كنت بكلمك عشان أقولك ماقدرتش أتكلم مع بابا، خوفت بصراحة"

- صوتها حلو الآنسة فاطمة..

همس له "عبدالرحمن" كابحًا الضحكة، زجره "عبدالله" بنظرة حادة دافعًا بكتفه الراسخ بقربه قبل أن ينقل الهاتف إلى الأذن الأخرى متكلمًا بجدية معهودة:



- لو تحبي أكلمه أنا معنديش مشكلة، أظن هيتفهم أكتر ونحجم خوفه وقلقه..

"ياريييت، هترحمني من هم كبير.."

- تمام اتفقنا، بكرة بعد صلاة العشاء بإذن الله هاجي أطمن عليه و أتكلم معاه..

"مش عارفه أقولك إيه.."

- ولا أي حاجة، اطمني وماتشغليش بالك مش هيحصل غير كل خير..

أنهى المكالمة وصوت الشقيق يخترق ظهره:

- يا حنين..

داريقابله في جدية تتغض لها قسماته:

- ده تلفون شغل مش الهبل اللي في دماغك..

رفع له سبابته مردفًا في تحذير:



- قسمًا بالله يا عبدالرحمن لو جبت سيرة لأي...

لم يمهله الوقت ليكمل جملته بينما تتسع ابتسامته في استفزازونداء:

- يا مـامـا، يا فوز..

لاحق خطواته في تهديد تالي:

- عبدالرحمن ماتستهبلش..

حضرت الأم تتوسطهما بجسدها المكتنزواستفسار:

- بتجروا وراء بعض ليه، خير؟..

بادرها العابث باعتراف عجول:

- ابنك اللي عاملنا فيها شيخ بيكلم واحدة اسمها الآنسة فاطمة..

سدد"عبدالله" لكمة قوية إلى كتفه:

- ما تحترم نفسك يابني..



لاح البشر فوق قسمات الأم المنطفئة منذ أيام:

- بجد يا عبوده؟..

- بجد إيه يا ماما، أنتِ هتصدقيه..

- وماله بس يا حبيبي ده حتى اسمها حلو على اسم بنت سيدنا النبي عليه أفضل الصلاة والسلام..

ضحك توأمه في فكاهة وشماتة:

- حلوة السكة دي يا فوز..

جز المعني فوق ضروسه وقبضة يده ترتفع في تشنج وازى تشنج عقله الذي لم يسعفه برد مناسب غير كلمة واحدة سددها إلى توأمه قبل قبضته:

- هقتلك..



لا تدري ماذا حدث بعد ذلك، هل كانا يتشاجران بالفعل أم هذا الذي تراه يندرج تحت خط المزاح، رفعت كفيها ودعت بنية شملت الكبير الغائب قبل الصغيرين:

- عوض عليَّ عوض الصابرين يارب..

وليت الأمر وقف ها هنا، بل رآه معكوسًا في ابتسامات"ندى" الغير مفسرة، غمزات"رنا" حين يصادفها فوق الدرج وفي تلميحات أمه مع كل صبح ومساء، قابل كل هذا بصمت وتجاهل حتى جاورته شقيقته ذات مساء داخل الشرفة وهو منكبًا فوق بضعة أوراق يحاول صياغة مقالٍ جديد والكلمات تعانده، اقتحمت انشغاله لتبعثر نذر التركيز بجلوس باسم وقدح شاي ساخن يمنح راحتها الدفء، تجاهل تبسمها الغير مبرر فغمزته بعبث لم يعره بالًا حتى نقرت كتفه بسبابتها في مرات متتالية:



- أيوه يعني هتحكي لي أمتى..

دارلها بقسمات متأففة مخمنًا مايجول برأسها:

- أحكي لك إيه..

أسبغت طيف حالمية مع تنهيدتها الخافتة ورفرفة أهدابها المازحة:

- عن الآنسة فاطمة..

أطبق جفنيه المتعبين زافرًا:

- منك لله يا عبدالرحمن..

أخبرته في تبسم بهيج:

- ماما حبيبتي هي اللي فضحتك، حرام بودي مالوش ذنب..

صمت ولم يعلق فعادت تسأله بهمس خفيف وقسماتها الباسمة على حالها:

- البنت حلوة؟..



- دهب!..

- إنتَ متنرفز ليه دلوقتي أنا واحدة حامل مش حِمل نرفزه، خلصني قول يلا البنت حلوة ولا مش حلوة؟..

- مش عارف..

- شوف عايز يعصبني إزاي..

- يا ستي ما قلت لك مش عارف..

- يعني إيه مش عارف، هي منتقبة؟..

- لا..

- تبقى عارف ماتستهبلش، حلوة؟..

- عادية..

- يعني ممكن نقول مقبولة؟..

- ممكن..

- عظيم و ايه كمان؟..



- جدعة..

- وإيه كمان؟..

- محترمة..

- حلو وإيه كمان؟..

- بس..

- أهلها كويسين؟..

- وطيبين جدا..

- تمام.. كده عندنا بنت حلوة، جدعة ومحترمة أهلها كويسين وطيبين جدا، مكشر ليه بقى دي كلها حاجات جميلة خالص..

- دهب أنا عندي شغل مش فايق لك، قومي روحي بيتك أنتِ إيه مقعدك عندنا لحد دلوقتِ أصلا..

- ليه لأ يا عبدالله؟ جاوب ماتهربش..

أجاب سؤالها بسؤال:



- وليه العكس؟..

تبسمت له في حنو:

- عشان واضح أنها بنت كويسة وعاجباك..

عارضها بقول صارم:

- أنا ماقلتش أن حد عاجبني، أنتم بتألفوا قصص وتصدقوها، كل اللي بيني وبين البنت شغل، هيخلص وكل واحد يروح لحاله، ياريت بقى تبطلوا كلام وتلميحات عشان كبرتوا الموضوع ودخل في سكة سخافة..

ابتسمت لانفعاله مطولًا ثم حركت كتفيها في هدوء:

- برده ماقلتش ليه لأ..

نهضت عن جلوسها لتقف من خلفه، أحاطت كتفيه بكلا ذراعيها في أمومية ومالت تفضي له بهمس قريب مس فيه وترًا حساسًا:

- أنا عارفة أن جواك خوف وتردد، بس خوفك ده هيخليك مغمض عينيك طول الوقت ويضيع عليك فرص كويسة كتير، فشل التجربة مرة مش معناه إننا منكررهاش..

ثم لثمت وجنته القريبة مطولًا قبل أن تتركه لليله وحيدًا تصارعه الفكرة..

الطريق المقفر لا يعني على الدوام أنه خاوي، فمن بين خبايا الشقوق قد ينبت الخير.



في حكاية عشق؛ هما الثبوت والدليل القاطع لكل كافر بأهل الهوى..

ركائز الحب تستند إلى أهله، وقياس مدى ثباتها متروك إلى الأيام..

المرة الثالثة لها في موقع التصوير، في المرتين السابقتين قدمت ما يستحق ثناء الجميع ونيل تصفيقهم، أسعدها أن تكون بهذا



القدر من الانبهار الذي تعكسه الأعين، ماتحياه جزءًا من حلم يراودها سبق أن اقتصت جذوره إرضاءً للعائلة، لكن هذا الأمر في طريقه ليتغير، هي تستطيع أن تفعل هذا بإرادتها التامة..

أنهت المسؤولة عن التجميل وضع زينة وجهها، رأتها صارخة عن كل مرة فأخبرتها أن هذه تعليمات مخرج العمل، حين جاء دور تبديل الملابس تفاجأت بالقطعة المطلوب منها ارتدائها..

كانت أقرب لغلالة نوم وليس ثوب!..

أخبروها أيضًا أن هذه تعليمات مخرج العمل، ألقت بالثياب أرضًا وذهبت حيث يجلس فوق مقعده مسترخيًا في انتظار بدأ التصوير..

- أستاذ فادي ممكن أعرف مشهد أيه اللي هنصوره..

ذكّرها بالمشهد المكتوب والذي سبق أن قرأته ثم أخبرها عن التعديلات التي أضافها كمخرجٍ للعمل وله كل الحق في ذلك،



رفعت له وجهًا مبهوتًا وذراعاها يضمان بحقيبتها إلى صدرها في توجس ورفض لما يقول:

- أنا مش هعمل المشهد ده!..

- يعني إيه يا ماما مش هتعملي المشهد ده، هو بمزاجك؟..

احتدت عليه دون اعتبار لفارق العمر أو المكانة:

- أيوه بمزاجي، المشهد ده، ده.. ماكنش موجود في السكريبت اللي قريته، و أنا مستحيل اعمله!..

تأفف المخرج محدثًا طاقم العمل من حوله:

- حد يكلم مراد يا جماعة أنا مش فاضي لشغل العيال ده..

ذهبت إلى عربة الملابس المجهزة، أخذت بمجموعة محارم ورقية وقبعت بالزاوية تزيل كل ما يلطخ وجهها من زينة، رغبة ملحة في البكاء تنتابها لكنها ظلت جامدة الفعل مضطربة النفس، أنفاسها الثقيلة أتعبت صدرها، قبل أن تنهي ماتفعل



حضر"مراد" الذي كان في طريقه بالفعل، انتفضت من جلوسها ما إن رأته، تباغته بصياح مهزوزكسائرجسدها:

- المخرج المجنون عايزني أقدم مشهد سافل!..

اقترب الرجل يطمئنها بهدوء النبرة والقسمات واضعًا يديه فوق كتفيها:

- اهدي يا ندى، اهدي يا ماما..

أزاحت يديه عنها في حدة، خطواتها تعود إلى الوراء بصراخ جديد:

- إنتَ سمعت أنا قلت إيه؟ مش هشتغل مع الراجل المجنون ده..

- دي رؤية مخرجماينفعش نعترض عليها يا نودي يا حبيبتي..

أشاحت له بيدها في نهاية حديث وبصرها ينقب عن حقيبة يدها، سحبتها من فوق الأرضية وخطت تبغي الرحيل:



- خلاص مش عايزه أكمل الدوروهنسحب من الفيلم كله..

كادت أن تتخطاه لولا قبضته القوية التي أطبقت فوق ذراعها تعيدها إليه بعنف ارتد له البصرمع نبرة الرجل التي تبدلت من الاحترام والكياسة إلى العكس تمامًا:

- ماتهدي يا روح أمك أنا مش هقعد أحايل فيكي!..

احتبست أنفاسها بحلقها محاولة تخليص ذراعها من قبضته لكنها أشد بأسًا من أن تستطيع، راح يستطرد حديثه بابتسامة حيوان اقتنص الطريدة:

- هتعملي الدوروهتقدمي المشهد، أجيب لك من الآخر؟ المشهد ده بالذات بالفيلم كله، ممكن تعمليه وكده تبقي خلصتي..

- إنتَ إنتَ بتقول إيه!..

- بقول اللي سمعتيه يا حلوة..

حركت رأسها رفضًا لما يقول، فعاد يجبرها على السمع:



- لا هتعمليه..

ثم دفع بها لتسقط فوق الأرضية، عند قدميه، دار حول نفسه بخيلاء فاتحًا لها ذراعيه، مقابلًا إياها بحل آخر:

- أو ممكن تدفعي الشرط الجزائي لو مش عايزه تكملي الفيلم..

رفعت له عينين مذعورتين مرددة من خلفه الكلمات في جهل:

- شرط، شرط إيه!..

جثا بالقرب منها، يرفع جانب فمه في ظفر بعد أن نجح في إسقاط ضحيته الجديدة بحبال سذاجتها، رفع سبابته يبغي إزاحة خصلة من شعرها تسقط فوق عينها فارتدت بجسدها زحفًا والكلمات تتسرب بتناغم خبيث من بين أسنانه:

- بتنسي أنتِ يا فنانة، الشرط الجزائي اللي كان مكتوب في العقد اللي مضيتي عليه في مكتبي، مية ألف جنيةماينقصوش مليم..



ثم استقام واقفًا، محصيًا لها فوق ثلاث أصابع اختياراتها المتاحة على مهل:

- قدامك ثلاث اختيارات، اختاري منهم اللي يعجبك..

أول كان فيه خدعة، إن فعلتها لن يخسر، فطلبه بالسوق مربح:

- يا تقدمي المشهد..

وثاني يحمل حقيقة نصب محكم التفاصيل:

- يا تدفعي الفلوس..

والثالث الأخير إن رفضت ماقبله سيكون نتيجة حتمية لا مناص عنها:

- يا تشرفي في الحبس..

كانت تنظر له بوجه جامد أثقلته العبرات وسكنه الهلع، كل ما تريده الآن هو الركض، الخلاص من براثن هذا الشرك الذي سقطت فيه وأطبق عليها بأفخاخه..



لكن أين يكمن الخلاص؟..

سقطت الفأرة بقلب المصيدة و انتهى الأمر!..



يحدث أن يمرض الحب..

يخدعك مظهره الجيد وفي الحقيقة جذوره المعطوبة تذوي في بطء خبيث غير مرئي..

كان الليل في ثلثه الأخير حين عاد بحال غير الحال، قضى نهارًا سيئًا لدرجة لم يشهدها منذ زمن، تشاجر مع الرجل صاحب الدين، جاءه يتهمه بالمماطلة والتهرب، فقد أمامه كل صبر ولولا تدخل"سعد" لكان وصل الأمر لقسم الشرطة، هرب بدعوة من صاحبه إلى نارجيلة معمرة بالتبغ والحشيش لتبدل عكر مزاجه، ضاعف الكمية عن كل مرة لتتراقص أمامه الأشياء دون ثبات..



أدركت من اللحظة الأولى أنه كسر وعده للمرة التي تعبت من إحصائها، حين جثم بأنفاسه بالقرب منها أبعدته بصد وعزوف، في كل مرة تغضب وتتشاجر وتقيم بينهما حاجز الخصام؛ يعدها أنها المرة الأخيرة، يقسم بأغلظ الأيمان أنها لن تتكرر، فلا يمر الشهر إلا وتجده حانثًا بوعده، لا تدري أي ثغرة تلك التي يتسلل له منها شيطانه فيضعفه، ليتها تدري لكانت عملت على رأبها بيديها..

كان يدندن بلحن شعبي عتيق بينما تحاول يداه نزع ثوبها القطني القصير، أنفاسه ثقيلة تفوح منها رائحة حريق، أثارت غثيانها وغضبها على حد السواء فدفعت بجسده عنها في حدة وصياح نافى سكون الليل وصمته:

- ابعد يا عزيز!..



لا يبدو لها أنه سمعها من الأساس لذا عادت تردف بذات النبرة المهتاجة وكفاها يدفعان بكتفيه في محاولة فاشلة من وهن قواها لإزاحة ثقل جسده الجاثم فوقها:

- مش هتقرب مني و إنتَ بالحالة دي..

وتتبع هذا بثالثة ثائرة، محتقنة كوجهها:

- بطل قرفك ده بقى!..

- اسكـتي..

أخرسها بصرخة في اهتياج، أصابعه تقبض على فكها بقوة أعصاب مشدودة، وجهه الثأثر يدنو منها وقد فجرت فيه برفضها وكلماتها كل الحمم الساكنة:

- اسكتي خالص مش عايز أسمع صوتك..

نحت وجهها جانبًا وذكرى أسوأ ليلة تهاجم فكرها، ليلة زواجها منه، كان بحال مماثل، هائمًا فوق سحب الوهم تاركًا إياها



وحدها فوق صلابة الصحو، لم يمنحها الفرصة لتهزم مخاوفها كأي فتاة، بدون صبر أخذها بأقسى طريقة يمكن أن تُحفر في ذاكرة امرأة..

والليلة يعيد الذكرى بتفاصيل مختلفة، في الأمس كان شابًا غرًا فاقدًا لزمام السيطرة أمام رغبات الجسد، اليوم هو كبير كفاية ليعي ماذا يفعل، ليدرك أنه صار يتخذها وسادة يفرغ فيها شحنات غضبه وسخطه، إسفنجة عليها أن تمتص كل مايعتمل فيه بإطار خادع يسميه أماني وسكني..

تركته ينالها في غلطة لا يسعف عقله المشوش إدراكها، ليس ضعفًا أمام ذكرى الأمس بل خوفًا، خوفًا ورعبًا على جنينها الصغير القابع برحمها، أمنيتها من الحياة وهبة الرحمن بعد طول انتظار..



انتهى منها وغادر الفراش دون أن يرى دمعتها المنحدرة فوق الوجنة، توليه ظهرها وتسحب الشرشف المجعد فوق جسدها في عشوائية منكمشة على جانبها باسطة كفها أسفل بطنها..

ظل عشرون دقيقة أسفل رشاش الماء الفاتر، يدعك جانبي رأسه ويزفر غاضبًا من حاله، لف خصره بمنشفة عريضة وغادر دورة المياه بينما رأسه تغزل ديباجة أسف واسترضاء عن قسوة ليست في محلها، عن غضب ليس لها يد فيه..

كان هذا ماينتويه قبل أن تتمزق ديباجته وتتطاير كل العبارات من رأسه كرماد محترق مع رؤيتها تقف بجانب طاولة الزينة، ترتكز عليها بكفها وتميل، رعب العالم احتشد فوق قسماتها وتأرجح مع حروفها المتهدجة في اختناق:

- أنا بنزف..



هبط قلبه مع رؤية خطوط الدماء القانية تسيل من بين فخذيها وتنتهي فوق سجاد الأرضية، رؤية ذكرته بالأمس البعيد، حيث ليلة زفاف ونزف دام لثلاث ليال..

والفارق بين شعور الأمس وخسارة اليوم جَلَل..

مثل ليلٍ آتٍ بلا قمر.



(10)

الخوف محرك الحياة الأقوى..

نركض حين نخاف، ينتفض النابض خلف الضلوع عندما تلوح الخسارة في الأفق..

مخاوف باطنها وجيعة، محفوفة بالألم من كل جانب..

و هيئة رجل يهرع من باب مشفى في عتمة ليل وبين ذراعيه امرأته تنزف دماءها صارخًا بطلب طبيب؛ صورة يؤطرها خوف!..

خوف فقدان..

فقدان أمل لامسته الأنامل، أمنية أبصرتها العين ونبض لها الفؤاد، شعور مضاعف يقسم الروح المعلقة بأمل أخير كأن



يخبرك أحدهم بأن هذا كله مجرد كابوس مارق، سيعود وعيك خلال لحظات ومعه كل شيء إلى وضعه الطبيعي..

شعور مؤكد لم يجربه الطبيب الشاب وهو يلقي بكلماته في عملية بحتة:

- للأسف الحمل مكملش..

جنين صغير لم يتجاوز الشهرين بعد، لم يكتمل تكوينه أو تتشكل ملامحه التي حلمت بتفاصيلها، لربما في يوم ما سيكون مجرد حدث يؤسف له تطمره الأيام بين طياتها لكن الآن!..

الآن ومع كل ما سبقه من تفاصيل أقرب لجرح غائر ينبض فيه الألم ويتقاطر منه الوجع جوار نواح قلبها وصوتها الذي تحول لانتحاب شديد تخالطه شهقات يغص بها صدرها وهي راقدة على جانبها فوق سرير مشفى، يواجهها جالسًا فوق مقعد مقابل ضامًا رأسه بين كفيه بعد أن رفضت قربه، رفضت كل لمسة من كفه، اختارت أن يتذوق كل منهما نصيبه في الألم



بمفرده من طرف بألسن صامتة وقد تاهت المعاني وفقدت الأحرف السبيل..

نحيب لم يتوقف للحظة حتى مع بزوغ أول خيوط الفجر واندفاع أفراد عائلتها إلى الغرفة شاحبة الإضاءة، صورتها بين ذراعي أمها تبكي كل واحدة منهما الأخرى؛ آخر ما التقطت عيناه بينما يمر من بين كتفي شقيقيها، خرج من كادر الألم، في وجهه وجد شقيقته أمام باب الغرفة، بدورها تطالع المشهد من خارج الإطار، رفع لها عينين مصمتتين لم ترَ ما يموج فيهما من ندم لكن رأت وجيعة ألم وخسارة، لمحت عبرة تتأرجح بسؤال عن حكاية فقد تتخذ منه بطلا على الدوام؟..

أخذت برأسه فوق كتفها في صمت، تعيد مافعلته قبل سنوات طوال بين جدران مشفى آخر تلقوا فيه خبر وفاة والديهم، ابتعد عنها محاولًا استجماع شتات نفس تعلم يقينا أنه لأجل انهيار امرأته الذي يصلها من خلف الباب الموارب دون أن تراه..



جلس بجذع محني فوق واحد من المقاعد الجانبية، رأسه المثقل يسقط للأسفل في لحظة حساب منفردة، يستعيد فيها ماحدث قبل ساعات بفكر مشوش، صورتها النازفة تحتل مقدمة الذاكرة، وعيها المتراجع بين يديه، كاد يفقدها، فكر أنها قد ترحل عن دنياه للأبد كما فعلت أمه من قبل، حتى لو أخبره ألف طبيب أن ماحدث واردًا ويعاصره كثير من النساء..

لا؛ لن يعرف أحد معنى تلك اللحظات التي مر بها، لحظات ضرب بها رأسه في الجدار غضبا وثورة من نفسه على نفسه، يلعن حاله ألف مرة ومرة، أذاها وخسر الطفل الذي تمنياه على مدار سنين بسبب ليلة غابرة أتت عليه بالخسارة، ليلة وحدهما فقط يدركان حدثها وتفاصيلها، عبرة ثقيلة شوشت له الرؤية قبل أن تحمل حالها وتسقط فوق بلاط المستشفى وكف شقيقته يحط فوق كتفه بعد أن لحقت فيه خطواتها.

في الداخل استكانت فوق صدر أبيها بعبرات صامتة من خلف أهدابها المتعانقة وقد أنهكتها شدة البكاء، يده تمسح عن رأسها في تباطوء يوازي همسه الذي يبثه لها في خفوت يذكرها فيه بالصبر والاحتساب، يذكرها بابنته قوية البأس التي يعرف..

لم يكن يعلم أن تجاعيد حزن ابنته تخفي ضعف ما تظهر، وأن ينبوع الألم يتفجر كلما نبضت ذكرى الليلة الماضية الحية برأسها، بداخلها قوتين مضادتين ما بين حب وكره، كيف لها أن تشعر بالمقت من أقرب الناس إليها دون أن تنقص ذرة واحدة من داخل قلبها؟..

فوق الأريكة الجانبية جلست أمها مكفكفة دمعها، في محاولة للتماسك، تلوم نفسها دون صوت، لو أنها لم تخبر الجميع بنبأ حملها لربما لم تأتي الخسارة، يجاورها ولديها في حالة صمت وأسف لحال الشقيقة..



حضر العم وعائلته، هون عليها بضمة وربتة فوق الرأس لم تستطع الرد على كلماته التي تشد من أزرها، انهارت باكية بين ذراعي زوجته من جديد..

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وحدي الله يا بنتي، ماينفعش اللي بتعمليه ده..

تمتم أبوها بخفوت قبل أن ينهض عن جلوسه ويترك"عبدالله" يأخذ مكانه إلى جانبها، يمسح لها بيده عبراتها السائلة ويشد على كفها قبل قلبها بكلماته التي تهدأ وتستكين بها الروح..

في زاوية الغرفة وقفت"ندى" تر اقب الوضع بعينين تجمع فيهم الدمع دون هطول، وكأن ينقصها أن ترى"دهب" في مثل هذا الحال، أطبقت جفنيها تهدي دمعتيها حرية هطول من قيود الأسر، كانت تظن أن ليلة الأمس كانت سيئة معها وحدها، لكن اتضح الآن أن ابنة العم أخذت نصيبها الكبير من السوء، اهتزاز الهاتف بين يديها نفض قلبها بذعر، اسمه النابض فوق



الشاشة خطف اللون من وجهها فانسلت من بين الجمع وبصرها يلتقط هيئة خاطبها الواقف بالقرب من أخته على وجهه ترتسم علامات الأسى..

ارتكنت إلى جدار الممر بجسد مرتجف، بالأمس قطعت مسافات تركض هلعًا ورعبًا حتى تغادر ذلك المكان والكلب المسعور المتخفي في هيئة رجل، منذ حينها وهي تركض بلا مسافات، ماذا تفعل ولا أين تجد الخلاص لا تدري، لو عرف أبوها لقتلها بأرضها، والمال الذي يريده لا تملك منه نفحة..

خوفها خوف خذلان، خسارة ثقة وحبيب حملها اسمه وقلبه، كيف تخبره أنها خانت الثقة وأودت باسمها مع اسمه في وحل الوسخ بكل سذاجة ممكنة!..

"ندى.."



شهقت بفزع إثر ندائه الخافت ووجهها يلتف مصطدمًا معه في لقاء، اقترب من وقوفها المتوار مقطبًا بين حاجبيه، لامست أنامله وجنتها الرطبة بأثر العبرات ملتقطًا شحوبها بسؤال قلق:

- أنتِ كويسة؟..

محت بكفيها أثر دمعاتها، تكفلت بابتسامة باهتة مع حروفها المتوترة في لعثمة:

- كويسة ماتقلقش، أنا بس مش قادرة أشوف دهب في الحالة دي..

عاد بيده ماسحًا بها عن وجهه وبين عينيه زافرًا بقوة دون حديث، عانقت يدها كفه الآخر بهمس قريب:

- هتبقى كويسة ماتخافش عليها، دهب قوية طول عمرها وهتعرف تتجاوز..

انهيارها الشديد ينافي تلك الحقيقة التي يقر بها الجميع، لم يعلق سوى بكلمة واحدة تمتم بها قلبه قبل لسانه في قلة حيلة:



- أتمنى..

ثم أردف في الحال بتأهب:

- هاروح أشوف عزيز، حاله قالقني..

- اللي حصل صعب عليه هو كمان، خليك جنبه..

أكد على كلماتها بهزة رأس متمتمًا قبل ابتعاد:

- روحي لهم، ماتقفيش كده..

اطاعته في الحال، وجدت شقيقتها الكبرى قد وصلت فعانقتها طويلًا وجالست كلتاهما المكلومة في حالها محاولين التشبث بأطر افها و انتشالها من بؤرة الألم الساقطة فيها..

حتى نعرف السعادة علينا تجربة الألم..

في أوجاعنا تكمن ضريبة الحياة.



للخوف قضبان آسرة..



خوف من الحياة، من العيش بحرية..

صارت تراه يتخذ من الحياة هوامشها، يغلق ماضيه بداخله ويظن أنه بمأمن لكن في الحقيقة هو لا يعيش غير الماضي، الحياة بأكملها لا تغريه لخوض غمارها، أدارت له ظهرها قديمًا فأدار عنها وجهه بقيمة العمر..

تغير كل شيء بمعرفتها لحقيقة ماضيه، لم يعد مستعصي الفهم، صارت تفسر كل نظرة وكلمة تصدر عنه بمنطقية، وصار في المقابل ينأى بحاله عنها أكثر، ربما أدرك معرفتها وربما هي لعنة هذا البيت وهذا الماضي الذي يكبله بقربه..

احتاجت لضخ ضعف ثباتها حتى تتلاقى مع الرجل أول مرة، أن تهب مغتصبه خلاصة معرفتها لينجو بحياته من كل داء، يبدو الأمر جنونيًا غير قابلٍ للتصديق لكن بالنظر إلى عينيه يتغير كل شيء، يريحه شعور الانتقام، وإن كان مجرد شعور مؤقت، زائل



تبعاته أسوأ من منافعه، لكن شعور القصاص مِن مَن أذاه يومًا يمنحه الرضا، تستكين روحه الثائرة بداخله لحين..

منذ عودتهما وهي غارقة بداخل الشبكة العنكبوتية، تبحث عن رأي الأطباء ونصائحهم، تقرأ عن تجارب حقيقية لأشخاص تعرضوا لهذا النوع من الانتهاكات الغير آدمية، لم تكن تعرف أنها تملك مخزونًا جبارًا من الدموع إلا هذه الأيام، وكم هو صعب طمر شعورها هذا حتى لا تؤلمه أو تضعه في موضع حرج..

تلخصت الخطوة الصحيحة والنتيجة التي توصلت إليها في نهاية بحث بزيارة طبيب يأخذ بيده ويعينه على النهوض من تلك الكبوة..

ويبقى السؤال عالقًا: كيف تتمم هذا الأمر وكل ما بينهما كلمات مقتضبة، كيف تخترق حصون نفسه المنيعة، وما المترتب على علمه بمعرفتها!..



متاهة كبيرة تبتلعها، اخترقها صباح اليوم هاتف من شقيقتها الصغرى تحمل لها نبأ خسارة ابنة العم لطفلها، وكأن المصائب لا تأتي فرادى، استقبلت صباحها الباكر بحزن كبير سأل عنه بتقضيبة جبين فأهدته الخبر بخفوت مؤسف، أوصلها للمشفى بدلًا من الذهاب إلى العمل، قضت نهارًا صعبًا برفقتهم قبل أن يعيدها السائق إلى المنزل..

جلست بفكر وجسد متعب، بيدها قبع هاتفها في تردد، في المساء السابق عثرت عبر أحد المواقع على طبيب نفسي يستقبل الاستشارات الهاتفية مقابل مبلغ مادي، هي بحاجة أن يعلمها ذوات الخبرة والمعرفة عن نقطة بداية، عن خطوة صحيحة توصلها لمراكز الشفاء، كان من الممكن العثور على طبيب له نفس الاختصاص عن طريق صديقة لها لكن رأت الأفضل أن يبقى الأمر ببعد تام عن محيط معارفها، ما بين هذه الجدران الأربع سيبقى بينها، هذه القاعدة الأولى التي صممتها لنفسها حتى لا تتراجع عنها مهما اشتد الوضع أو تقلب..



راقبت الرقم الظاهر فوق الشاشة وإبهامها يعلوه في حيرة قاتلة، سحبت شهيقًا طويلًا قبل أن تجري الاتصال بتصميم مرتجف لأوصالها، قبعت على الانتظار أكثر من خمس دقائق حتى وصلها الصوت الرخيم مرحبًا..

- دكتورياسين حجازي؟..

سألت وتردد النبرة مفضوح، جاء التأكيد والسؤال عن ماهية استفسارها مبعثرًا ثباتها أكثر، نهضت تدورفي وسط الغرفة بغير هدف، أصابعها الحرة تمسح عن رأسها في شتات:

- أنا كنت عايزة أسأل حضرتك عن آآه..

"عن إيه؟ معاكِ يا فندم.."

ازدردت لعابها بصعوبة قبل أن تلفظ حروفها بصعوبة أكبر:

- عن حالة تعرضت لاعتداء جنسي..

"تمام، معاكِ اتفضلي.. "



زفرت أنفاسها في ثقل قبل أن تبدأ بلا ترتيب:

- الحادثة حصلت مع طفل عمره سبع سنين..

"طفل؟ بنتكلم عن ولد مش كده؟.."

- أيوة..

"تمام.."

- ده من واحد وعشرين سنة، يعني هو دلوقتي..

"دلوقتي هو زوج حضرتك.."

- مظبوط يا دكتور..

"تمام.."

زفرت من جديد قبل أن تتدفق حيرتها دون ترتيب جوار تخبط خطواتها:

- هو متكلمش معايا بس أنا عرفت، ومش عارفة المفروض أواجهه بمعرفتي دي ولا لأ؟ هو كلامه محدود وبعيد تمامًا عن



محور اللي تعرض له، عايزه أساعده ومش عارفه أبدأ منين، خايفة من رد فعله وكمان متأكدة أنه هيرفض يروح لأي دكتور، هو.. هو لسه بيعاني حتى لو ما اتكلمش بس أنا..

"كملي حضرتك، سامعك.."

ليس ترددها أو ثقل الحديث من أسكتها هذه المرة، ملاقاة قسماته الغاضبة هو من صدمها و أخرسها على حين غرة وترك الهاتف معلقًا فوق أذنها وصوت الطبيب المنادي يصلها بعيدًا يحجبه الضباب مع تقدم خطواته، وقف أمامها مباشرة و وصال أعينهما لم ينقطع، مرتعب من ناحيتها ومرعب من ناحيته، سحب الهاتف القابع بين أصابعها في جمود، قطع الاتصال بضغطة إصبع ملقيًا به فوق الفراش قبل أن يعود لها وعيناه تضيق بسؤال خافت أقرب لهسيس:

- فاكرة نفسك بتعملي ايه؟..



عادت خطوة للوراء تهرب من قربه المخيف بترها بخطوة منه جاذبًا مرفقها بعنف حررت معه لعثمة بلا معنى:

- أنا، أنا..

- مين سمح لك تتدخلي!..

يخبرها أنه على علم بمعرفتها، أن بكاءها المتواصل الأيام الماضية وموافقتها لمطلبه وتعاملها المنفر مع الرجل لم يحتج لكثير من التخمين ليدرك كشفها لماضيه، لم يكن أمرًا مستبعدًا وعلاقتها بأمه تتوثق يومًا بعد يوم، هو بالفعل كان في انتظار هذا الحدث، وترقب رد فعلها حتى صدمته به قبل لحظات..

ترك مرفقها وعاد خطوتين للخلف متكلمًا في استخفاف:

- ولا عجبك دور الدكتورة والمريض..

لن يخدعها بواجهته الباردة، نقبت عما تحتها وقد عكست لها عيناه جرحًا بليغًا، كان غاضبًا من معرفتها، غاضبًا من الصورة



التي ترتسم له في مخيلتها، كارهًا للحياة التي وضعته في مثل هذا الوضع المخزي..

اقتربت تقابله بعينين نبضتا بتصميم حان مترفق بحاله:

- خليني أساعدك تلاقي الطريق الصح..

أردفت عقب لحظة صمت لوجهه الملتف إلى الجانب الآخر:

- حبسك ليه مش هيداويك، مش هتوصل لحاجة صدقني..

عاد لها بوجه خامد، بلا روح أو حياة، ذيله تبسم جانبي ساخر:

- إيه لسه صعبان عليكِ..

اهتز رأسها نفيًا في الحال لقوله الساخر، رفعت كفها في تردد وبسطتها فوق صدره القريب، تقابل عينيه الهاربتين عن مرماها قسرًا بحشد من العبرات عجزت عن ردعها:

- أنا خايفة عليك إنتَ..



أطبق فوق مرفقيها بقسوة أصابع، يهز جسدها فتتساقط عبراتها واحدة تلو الأخرى أمام قساوة النبرة وجحيم النظر:

- وفري خوفك لنفسك، أيا كان اللي عرفتيه مش هيغير حاجة، أي تدخل منك في حياتي وشخصي مرفوض، أنتِ فاهمة!..

لم تأبه لقسوة قبضتيه بينما تهدر حروفها بقوة توازي ما يتعمل فيها من خليط مشاعر:

- إنتَ اللي دخلتني حياتك دي وتقدر تخرجني منها بكل سهولة لو عايز، محاولة رسم حدود وخط سير دي حاجة مرفوضة من ناحيتي، مش من حقك تسحبني لدنيتك وبعدها تطلب مني أقف من بعيد أتفرج!..

لا تترك له مجالًا للحديث بينما تردف في انفعال، تعود به وإليه إلى مركز العلة:

- دمر حياتك زمان و دلوقتي بتدي له فرصة يسرق الباقي من عمرك..



دفع بها عنه في حدة وخطواته تغادر الغرفة، لحقت فيه بخطى مهرولة، على رأس الدرج جذبت ذراعه، توقف حركته وتترجاه بهمس مبحوح:

- سيبه يا أسمر، خرج نفسك من سجنه..

اتسعت عيناه في جنون، يعاندها، يعاند عينيها المعانقة له بحنو:

- على جثتي..

- هتضيع عمرك..

- مش فارق لي..

- أنا فارق لي!..

هدرت فيه ببكاء، لن تتخلى ولن تكف عن المحاولة حتى يعود لرشده وتعود به إلى حياة حقيقية لم يهتدي لها بعد، كانت نظراتها تفيض بمشاعرها ومحاولة كبت مايموج فيها محاولة



فاشلة، نظرات فسرتها عينيه بما يقض مضجعه فاستوحشت النظرة وتقطعت أنفاسه بأمر:

- امحيها..

كرر أمره بزعيق وجنون:

- نظرة الشفقة اللي في عينيكِ امحيها..

بغضب حارق تواجهه:

- لو فاهم إن وجودي معاك لحد النهاردة بدافع من شفقة، تبقى غبي!..

وما تلا ذلك..

صراخ..

سقوط..

و..

دماء!





بدافع من مخاوفنا نحرر الجزء الأسوأ فينا..

الغضب، الكذب، الخداع..

أساس بيته أصابه العطب، تلك حقيقة سطعت له بقبحها، وصل خط النهاية وظل يرمقه بعجز، بعثر ابن العم أفكاره، أهداه خيط لربما يجد في آخره ما يرمم به أسسه الهشه، لربما يمنحه الوقت لإنقاذ زواج أوشك على الانهيار، ولأن الخسارة لم تكن بعيدة عن يمينه لم تكن الخيارات المتعددة متاحة، ربما يستحق غضب أبيه، ربما يستحق كراهية زوجته التي ذيلت بها مكالمتها الوحيدة له بعد أن صبت في أذنيه كل غضبها وجنونها وسخطها، تركها تفرغ كل ما في جعبتها ثم أخبرها ببساطة لا تناسب فداحة ما فعل..

"قدامك فرصة تحصلينا ونفتح صفحة جديدة"

أهدته صك الكراهية ثم أغلقت في وجهه الخط دون تكرار..



من يومها وهي تكتفي بصغارها في محادثة مرئية كل ليلة، يترك لهم كل المجال ولا يحتل حيزهم، كان و اقفًا بالمطبخ يعد لهما شطائر خفيفة للعشاء حين

جذب انتباهه سؤال ابنته المتردد:

- مامي مش هتيجي بقى؟ أنتِ وحشتيني قوي..

توقف"عمر" المتقافز فوق الأريكة ليقفز للأسفل مخبرًا أمه من خلف الشاشة بلهاث أنفاس:

- أيوه وحشتينا، تعالي بقى..

توقفت يده عن العمل للحظات مشحذًا قوى السمع لديه لكن حين طال الصمت تحرك ناحيتهما، مال إلى الشاشة ليجد وجهها الحزين يقاوم البكاء، صدقت أم لا هذا آخر ما يريد أن يراه، دار بينهما حديثًا صامتًا قبل أن يخبر أولاده بلهجة أبوية صارمة متمسكًا بواجهة باردة تماثل خاصتها:

- يلا؛ قولوا لماما تصبحي على خير وقدامي على المطبخ..



ودعت أولادها بقبلات عديدة وودعته بنظرة ساخطة أتبعتها بقطع مباغت للاتصال..

أجلسهما حول الطاولة، أجبر"سنا" على شرب الحليب ونهر"عمر" لحركته الزائدة..

في النهاية ينتهي بهم اليوم بروتينية مملة داخل أسرتهم الوثيرة، يقص عليهم واحدة من قصصهما المفضلة حتى يغفيان، نام الصغير وبقيت الكبيرة في صحو، أشارت له في هدوء حتى يترك فراش أخيها الغافي ويجاورها..

احتلت صدره بصمت، ضمها برفق وصمت مماثل مدركًا أن هناك ما تريد قوله من حركة أصابعها مع طرف منامتها، تركها تأخذ وقتها الكافي قبل أن ترفع له عينين خجلتين:

- هو إنتَ ومامي هتطلقوا؟..

كلمة كبيرة لا تعي كل أبعادها لكن مفادها أن والديها لن يجتمعان مرة أخرى، أطلق تنهيدته قبل أن يجيبها:



- ده سؤال صعب يا سنا، مش عارف إجابته..

زمت فمها بأسف قبل أن تعبث بحافة الشرشف الثقيل وتعاود همسها:

- طيب إنتَ لسه بتحبها؟..

كانت تفتش عن أمان مفقود فأهداها إياه:

- أكيد طبعا بحبها..

رفعت جانبها مستندة على كفها، تواجهه في جدية قطبت لها الجبين:

- طيب سيبتها لوحدها ليه؟ كان ممكن تتكلموا وتخليها تيجي معانا، مش إنتَ بتقولنا اللي يحب حد يفضل معاه وما يبعدش عنه..

أبعد خصلة من شعرها عن وجهها محدثًا إياها بهدوء وعقلانية تستوعبها:



- ما أنا حاولت أقنعها تيجي بس فشلت للأسف..

نكست رأسها بضيق فرفعه بسؤال متوجس:

- أنتِ زعلانة عشان جبتك معايا؟..

حركت كتفيها بهمس فاتر:

- أنا مش بكون مبسوطة عند ناناه، مش بحب أقعد هناك، بحب نكون سوا في بيتنا ومامي معانا..

زفرت بحيرة قبل أن تردف:

- أصلا هي مش مبسوطة وهي لوحدها، أنا بعرف ضحكتها أما تكون مبسوطة بجد أو لما تكون بتمثل علينا، ياريتك كنت ألحيت عليها جامد كانت هتوافق تيجي، أصلا هي كمان بتحبك قوي وبتزعق لناناه اما تقول عليك كلام مش كويس..

ظل يطالعها في صمت دون تعليق حتى سألته في توجس:

- بابا زعلت من كلامي؟..



ابتسم لها مقبلًا رأسها بمراضاة:

- لا يا حبيبتي، بس نكمل كلامنا بكرة أنتِ عندك مدرسة الصبح ولازم تنامي..

قبلت وجنته قبل أن ينهض، لكنه خالف ظنونها حين خلع منظاره الطبي وأطفأ الضوء ثم انسل بجسده مجاورًا إياها داخل فراشها الصغير.



نغمض أعيننا حين نخاف..

نغض الطرف وندفع بالمسببات، نوجد المبررات بل ونجملها..

لأن القلب يخاف، نطمأنه..

نصدق مانريد لأن الحقيقة الو اقعة تؤلم الروح..

لم تتأدب في حضرة ابتلاء ربها، رغبتها ولهفتها في الحصول على ولد أنستها فضيلة عبادة الصبر، كان في لحظات يأسها



وقنوطها اعتراض على إرادة الله، لم تنتظر أن توفي جزاء صبرها فابتلاها بالحرمان بعد العطاء..

هكذا صارت تفكر بعد ثلاثة أيام قضتها بين جدران غرفتها القديمة، يغدقون عليها جميعًا باهتمام ومراعاة وهي جليسة فراشها لا تغادره إلا للضرورة، تفكر بعقل خاوٍ ونفس مهلهلة مختبئة خلف درع من القوة يأمل فيه الجميع، لا تريد أن تحمل أحدًا همومها، لذا تكتفي بذاتها وتعكس لهم الصورة التي تطمئنهم..

"اللي واخد عقلك"

تنبهت من شرودها إلى صورة شقيقها المحتلة لإطار الباب، تبسمت لتبسمه ويدها تدعوه للدخول والاقتراب:

- رجعت بدري النهاردة؟..

اقترب"عبدالله" جالسًا بجانبها على طرف الفراش:

- خلصت شغل وقلت أروح لأختي حبيبتي أغلس عليها..



بادلت مزاحه بذبول واضح، في إثره راح يتفرس وجهها بعينين مدققتين للحظات واجه عينيها بعدها في جدية واضحة:

- مش غياب عزيز في ظرف زي ده غريب شوية..

لم تره منذ غادرت المشفى إلى بيت والديها، مختفي تمامًا عن محيطها، تعلم أنه يستقصي أخبارها من البعيد، لا يستطيع مواجهتها..

هربت من عيني أخيها المراقبتين بقول مختصر:

- اللي حصل مش سهل عليه كمان..

حاصر هروبها بمنطقية تعرفها:

- أكيد طبعا مش سهل، بس برده غيابه مش طبيعي، في العادي مابيفارقكيش..

سألته بضيق:

- عايز تقول إيه يا عبدالله؟..



واجهها دون مواره وقسماته تتغضن بانفعال:

- عزيز له يد في إجهاضك؟ اوعي يكون بيمد إيده عليكِ وتداري عليه..

رفعت له عينين مصدومتين وسؤال خافت تسرب من بين شفتيها:

- إيه خلاك تفكر كده!..

صارحها بأفكاره التي تشغل باله منذ أيام:

- في المستشفى كان بيكلم نفسه ويقول أنا السبب، وبالحالة اللي كان فيها خمنت..

- أنه بيضربني!..

أكملت عنه جملته في اقتضاب حانق قبل أن تقابل عينيه بقولها الجامد، المنفعل:

- عزيز مستحيل يقصد يأذيني ياعبدالله..



- يعني أذاكي فعلا بس من غير قصد..

- أنا ماقلتش كده، بلاش شغل الصحفيين ده معايا لو سمحت..

ربت فوق كفها الساكن برفق:

- تمام إهدي، ماقصدش أضايقك، أنا آسف..

اكتفت بهزة رأس صغيرة وبصرها ينأى جانبًا، ليست بارعة في خلق الكذبات، لو أمعن النظر في عينيها مرآة روحها لوجد جرحها الغائر مازال ينزف بداخلها، وكل هذا الصمت والسكون الذي ترتديه مجرد قشرة تختفي تحتها من فيض الأسئلة والتفسيرات والأعين..

تعرف أنه يحاسب حاله وحين ينتهي سيأتي، يقينه هي من مجيئه مهما تأخر، وحتى يحين هذا ستبقى فارغة، خاوية بعقلها وقلبها..



لم يطل انتظارها، في المساء التالي طرق الباب بخفوت وظهر أمامها، تقابلت وإياه في لقاء أعين صامت قبل أن يقطعه بدخول، أغلق بابها من ورائه وتقدم يحتل طرف الفراش كما كان يحتله شقيقها في النهار السابق، جلس عاقدًا ساقًا أسفل الآخر مواجهًا لجلوسها، كفاها مطويان بحجرها، عيناها تلتحم معه في لقاء جامد بدأ يستعر ببطء، كيف كان الفراغ معهما ممتلئًا بالأحاديث والضحكات وكيف به الآن مثقلًا، كئيبًا، لا توافيه أحرف ولا تراكيب..

- غريب أما يبقى جوانا زحمة كلام ومانلاقيش حاجة نقولها..

غمغم بها"عزيز" بعد حين بصوت خافت توسعت له عينان قاسيتان، ترد استغرابه بمنطق الحقيقة وتلبسه رداء المذنب قبل أن يحاول الفرار:

- جايزعشان في حاجات محاولة تبريرها غلط تاني فوق غلط..



صمت أمام عينيها المتهمتين، لم يجد حيزًا للفرار فأقر بصدق منطقها:

- معاكِ حق..

اعترافه بخطأه لن ينفي حقيقة ما عاشته، ما يغتال رأسها بذكرى لن تنجلي، رفعت أمام وجهه سبابتها وقسماتها تحتقن بقسوة لم يخفف وطأتها دموعها التي تجمعت بعتب قلب جريح:

- مش أنا اللي تتعامل كده يا عزيز..

طفقت تحرك رأسها يمنة ويسرة في بطء وتأكيد تالٍ:

- مش أنا فاهم!..

أخذ بكفها بين يديه مقرًا بذنبه بعينيه قبل لسانه:

- مش أنتِ أبدًا..

بررلها موقفه بدافع واهٍ لا يملك غيره:



- كان يوم ما يعلم بيه إلا ربنا يا دهب، استسلمت لغضبي وحصل اللي حصل غصب عني، عمري ما أقصد أأذيكي أو اوجعك..

- بس إنتَ أذيتني ووجعتني قوي قوي يا عزيز..

ارتجف صوتها وتصدعت قشرتها الهشة تحت وقع نظراته المتابعة، طعنته بسكين ألمها ووجعها بينما تردف في الحال:

- فكرتني بأسوأ ليلة عشتها معاك..

سحبت كفها من بين راحتيه، تخفي وجهها خلف كفيها في انتحاب وقول مختنق:

- بسببك راح..

ماتت بقية الكلمات بحلقها، سحب جسدها إليه، أخذ بها ونحيبها بين ذراعيه، ضمها بقوة متمتمًا باختناق مماثل:

- وحياة ربنا بلعن نفسي كل ساعة..



شد على ضمها وسألها برجاء باحثًا عن غفران:

- حقك عليَّ، سامحيني، قولي لي أكفر عن عملتي إزاي، إيه يرضي دهب و أنا أعمله على رقبتي..

ابتعدت عن صدره، تمحي عبراتها وتستدعي ثباتها في مواجهة حان دورها:

- استمرار الحياة بيننا بالشكل ده بقى مستحيل يا عزيز..

قطب جبينه باستفسار لم ينطقه، منحته إياه بقولٍ تالٍ:

- يعني يا ترجع عزيز ابن عمي اللي حبيته و اتجوزته يا كل واحد فينا يروح لحاله..

- يروح لحاله!..

نظرته ضاقت في إتهام، كيف لها أن تفكر في هذا..

تغاضت عن ذلك، تابعت بثباتها الصارم:

- تقطع علاقتك بسعد والعادة الزفت اللي علمهالك..



صمتت لحظة تترقب فيها تغضن ملامحه ثم ختمت بعدها القول الجاد:

- ده شرطي لو عايزني معاك..

تفتش له عن تقويم..

وتخشى بداخلها أن الآوان قد فات.



الظلام يحيل الخوف إلى فزع..

ليس ظلام الدرب الذي نسير بل ذاك الذي نختار..

تمسك هاتفها بيد مرتجفة، تقرأ الرسالة الواصلة حديثًا بعينين مرتعبتين..

"صباح الفل يا فنانة، هاا الدفع ولا الحبس؟.."

منذ الأمس يبعث لها رسائل ظاهرها سخرية وباطنها تهديد، يقول أنه سوف يقذف بها خلف قضبان سجن بعد أن يشيعها



بفضيحة، ثم يخبرها أنه يقبل تجزئة المال على دفعات إذا استصعب عليها جمعه مرة واحدة، يذلل لها عاقبة اختيارها ويتركها تلعق مرارة المآل..

تلوذ بغرفتها في انعزال، تحتمي بربها بطول سجود وعبرات جارية، تدعوه في توسل، تسأله النجاة والخلاص بما فيها من عجز وقلة حيلة، تنطوي بها الليالي هاربة من لقاء خاطبها متحاشية الجميع، تدور داخل دائرتها المفرغة، تركض وتلهث من نقطة البداية حتى النهاية دون فائدة..

قبيل المغرب وصلتها رسالة جديدة اشتمت فيها رائحة فحش، أدركت أنه يريد العبث بعقلها مرة أخرى..

"طيب خلينا نتقابل ونتفاهم.."

لحظتها قررت أن تتحمل نتيجة فعلتها، أن تتحمل خيرًا لها من خسارة تجهل أبعادها التامة..



قبل انتصاف الليل صعدت الدرجات الفاصلة بينها والسطح بقلب واجف، بساقين متخبطين، ستخبره بكل ماحدث، وحده تستطيع مواجهته والافضاء له بسريرة نفسها، لن يخذلها وحتمًا ستجد على يديه النجاة..

- عندك تأخير نص ساعة يا هانم..

حدثها بمرح من جلوسه المنتظر، اقتربت تقف أمامه والضوء الشاحب لا يكشف له تفاصيل وجهها المغبون، تكلمت في الحال قبل أن تخونها نفسها فتجبن وتتراجع:

- عبدالرحمن أنا عملت مصيبة..

انتباه حواسه، نهوضه المتمهل المتفحص لوجهها وتهدج النبرة، ضيق عينيه المستفسر حين قابل وقوفها المرتعش، تفاصيل أثارت بنفسها الريبة، لكن التراجع لم يعد اختيارًا متاحًا، رفعت له هاتفها ليقرأ مافيه من رسائل فيما لسانها راح يسرد على مسامعه تفاصيل الحكاية..



حكاية انتهت بصفعة لوجنتها وصدع كبير طال ما بينهما من بداية..

حتى النهاية.



(11)

تكمن حقيقة المرء في وجدانه..

جوار ما نكتم ونسر يوجد نحن..

نحن بمساوئنا والمحاسن، بأحلامنا والهزائم، بأوجاعنا وأسرارنا الدفينة التي محرم عليها الظهور..

أثارت فيه الزوابع، هو من صادق السكون جوار ألمه، وجعه وماضيه..

خدر موضعي يهبه الظهور بمظهر الثابت الذي لا يقهر، عبثت بعالمه الساكن ذاك، تفتش عن ثغرة تمكنها من العبور إليه، إلى نصفه المتواري الذي يحيا فيه وحيدًا وبعيدًا عن كل صنوف البشر حتى المقربين إليه المحتلين لرتبة عائلة، أجاد على مر السنين رفع حاجزه المنيع، فلا يقربه مخلوق أو يطأ أرضه



القاحلة إنسان، زاهد في دنيا تلقفته لتلقي به في بطن الدنس والخطيئة، دنيا لا تزن في نظره مثقال ذرة رغم ما يحيطه من ملكوت، ما يحمله في وجدانه ويتعايش معه يقتل في عينه كل الدواعي والمسببات في نيل حياة هي بغية كل مخلوق، كل دعوة تأتيه منها يصك في وجهها ألف باب و باب، يرتاح لمنفاه الروحي ويشتري الصمت ولو بأبهظ الأثمان..

جاءت هي تقلق صمته بطرقات ناعمة مترددة تثير الصدع بالحاجز المنيع، يبدو أمرًا مثيرًا للسخرية غير خاضع لقانون المنطق، لكن هذا ما تحاول فعله وهي تمد له كلتا يديها حتى يتشبث بها، تدعوه للخروج من هذا الكهف المعتم البارد الذي اعتاده، تضع أمامه مرآة عادلة لا تعرف الخداع، تريه الحقيقة وتشير له ببطء إلى مواطن العطب، تنقب بحنو داخل بواطن الألم، تفتش عن أصل الجرح، تخبره أنها ستجد له الدواء وستبرأ كل أوجاعه، سوف تطيب وتنتهي، تبثه دفء وتضمه دون لمس، تهديه بضعًا من مشاعر مقننة بمقطار محسوب،



كأنما تريده أن يتذوقها أولًا، يستعذب طعمها ثم له أن ينهل ما يشاء، لا تسأله أن يأتيها جنتها بل تسأله مسلكًا تعبر منه لصحراء روحه، تسقيها من نبعها فتخرج منها الرياحين..

"لو فاهم إن وجودي معاك لحد النهاردة بدافع من شفقة تبقى غبي!.."

قالتها بقوة تنفي شمول الشفقة، وإن كان له منها نصيب، لكن ليس هذا ما تملك بداخلها وحسب، وليس هذا ما تريد له أن يراه، وهو لم يكن يريد رؤية شيء، لا هذا ولا غيره، أراد فقط أن يتحرر من حصارها ويبتعد، سحب ذراعه المتشبثة فيه بعنف مباغت اختل معه توازنها، أطلقت صرخة واحدة لم تدركها يده الممدوة بفارق لحظة تركت جسدها يهوي فوق الدرجات بقوة ارتطام فقدت معها زمام السيطرة!..

أكل الدرج في وثبات متتالية انتهت به جوار أنينها ومحاولاتها في النهوض، أمسك بيدها الضاغطة فوق جانب رأسها المتألم



يبعدها برفق ليجدها غارقة باللون القاني، أخبرها على عجالة محاولًا دعمها لتنهض:

- المستشفى قريبة..

ادعت تماسك ومغالبة للوجع النابض بسائر الجسد محاولة النهوض، مع أول ضغطة على قدمها شعرت بالألم الشديد صاحت على إثره عائدة إلى موضع قعودها وتفقد لحال القدم سبقها فيه، حرك قدمها برفق فأطلقت تأوهات مكتومة، لم يبقى مجالًا للتفكير، حملها و انطلق بالسيارة إلى أقرب مشفى، قاموا بعمل الأشعة اللازمة لها في الحال، قطب الطبيب جرح رأسها وجاء آخر يطمئنهما، التواء في الكاحل لم يصل وضعه لكسر.

استكانت بمساعدته فوق المقعد المجاور للسائق، حدجها بنظرة خاطفة قبل أن يشغل المحرك، ملامحها المتعبة ظهر عليها الأرق، التفتت له بقول بحت نبرته دون حديث:



- ممكن أطلب حاجة؟..

طالعها بانتظار لم يطل بينما تردف في تردد:

- مش عايزه أروح البيت دلوقتي..

أبطأ سرعة السيارة منصتا لبقية حديثها الخافت في تردد الشارد بتفكير:

- كنت هقولك وصلني عند بابا، بس بفكر أنه مش مستاهلة أقلقهم كفاية اللي عاشوه مع دهب، ماما كمان في إسكندرية عند خالتو لو عرفت وهي بعيدة كده هتقلق بزيادة..

تعمدت تهوين أمرها، تثبت بقسماتها قدرية الحدث و تنفي تسببه الغير مقصود، تزيح عنه عبء الذنب الذي يشعره ويتعامل لأجله..

صمتت هنيهة زفرت بعدها في اختناق قبل أن تعود برأسها للوراء في استرخاء قاتلة أمر الحيرة:



- خلاص إنسى، خدني البيت محتاجة أرتاح..

لم يشارك حيرة أمرها بحديث، عاد إلى وتيرة سرعته الأولى بصمت مطبق، ربما لا تستطيع قول هذا صراحة لكنها صارت تكره البيت، بيتها إن صح القول، وظننت ما تكره مقصد وجهتهما حتى فوت طريقه، راقبت الطريق من النافذة وعقلها يمنحها التخمين الصحيح، سيأخذها إلى بيت عائلته، أغمضت عينيها في تعب، ليس هذا ماتحتاجه أيضًا، هي لا تعلم ماهية ما تحتاج تحديدًا لكنها تفتش عن شعوربالراحة في أمس الحاجة له..

خيب ظنونها للمرة التالية حين اجتازمدخل أنيق لمبنى فندقي، طالعت المبنى الكبير بحدقتين متعجبتين استدارت بهما إليه حين كان يترجل من السيارة محدثًا إياها من خلف كتفه:

- مش هتأخر..



انتظرت مايقارب العشر دقائق ويدها تتشاغل مع تقطيبات جبهتها الجانبية، تضغط فوق الضماد الطبي برفق متطلعة إلى هيئتها في المرآة حتى فُتح بابها عنوة، مال بجذعه ناحيتها، ثم حدثها بأمر:

- يلا إنزلي..

تنبه جسدها بالتفات وحدقتيها تتحركان يمنة ويسره في تطلع إلى المكان قبل أن تسأله في توجس ودهشة:

- هعمل إيه في الاوتيل!..

لاحق دهشتها بتقطيبة حاجبين و انفعال طفيف:

- قلتي مش عايزه أروح البيت..

نظرته من جلوسها وثغرها يتسع في تبسم ناعم، تألقت عينيها الواسعتين وفاضت بامتنان صاحب همسها الخافت:

- شكرًا..



بادرها بسؤال عجول:

- هاتقدري تمشي؟..

أجابت وعينها تطرف في خجل:

- لو ساعدتني..

أفسح لها المجال للترجل ويده تمتد إليها بعون، كتمت أنفاسها أثناء محاولتها للوقوف فوق قدمها المصابة ويدها تلاقي كفه المنتظرة بعناق، الخطوات عسيرة ومؤلمة، شدة أصابعها حول يده أخبرته بهذا، شعرت بذراعه تتسلل في تردد لتحيط بخصرها من الوراء وتنتهي فوق جانبها الآخر، يأخذ بثقل حركتها إليه فتخفف من الضغط فوق موضع الألم، تصلب جسدها للحظات إثر لمسته، رأسها التف ببطء يقابل جانب وجهه القريب، وجهه الجامد الأقرب لعبوس ونظراته المصوبة إلى الأمام لا تختلف كثيرًا، عادت تتابع سيرها بوقع محتمل حتى وصلا تحت الأنظار المراقبة إلى المصعد المفتوح في انتظارهم،



لم يتخلَ عن دعمها، ظل داعمًا جانبها بذراع والآخر قابضًا على يدها، رأسها قريب من نبضه في شبه عناق بينما وجنتها لامست كنزته الداكنة أكثر من مرة أثناء سيرها العسر، قبضت على شرود أفكارها بلجام الوعي مع توقف المصعد ومتابعة السير، برفق أجلسها فوق جانب الفراش العريض، غرفة ذات إطلالة نيلية لا تقل فخامة عن كل صورة التقطتها عينها للمكان، أبعد الستائر البيضاء عن الحائط الزجاجي ليحتل قرص القمر المضيء تفاصيل المشهد، اختفى من أمام ناظريها لدقائق عاد بعدها محدثًا إياها بنبرة عملية لا تدري إن كان باطنها نذر من اهتمام حقيقي أم فقط يزيل صاحبها شعورًا بالذنب:

- حاولي ترتاحي..

قال هذا وغادر الغرفة، استلقت بجانبها على الفراش، وضعت يدها أسفل وجنتها وراحت تطرف بقع الأضواء البعيدة وسط عتمة الليل بأهداب مثقلة سرعان ما سكنت، في غياهب الغفا



زارها طيفه كحلم قريب، يلامس بظهر السبابة والوسطى وجنتها وجبينها، يتأملها لحين ثم يختفى..

لم تعِ كم مرمن الوقت حتى افترق جفنيها وشعورٌبالتيه يلازمها، أين هي وماذا حدث أوصلها إلى هنا؟..

احتاجت للحظات لامست فيها ضماد رأسها باستفاقة، لم ترحل العتمة بعد لكنه كان هناك، فوق الأريكة عند الطرف الآخر للغرفة، فوق منضدة قريبة يقابله حاسوبه مضيئًا بشاشته، أبعدت شرشفًا ثقيلًا تركها متعرقة، لا تتذكر متى تدثرت فيه، رافقت عينيه تململها ثم نهوضها المتباطىء في حذر، موجهة له تساؤلها:

- هي الساعة كام؟..

نظر إلى الساعة المحيطة برسغه قبل أن يعود لها بجواب مختصر:

- اتنين ونص..



أردف بآلية ر افقت حركة نهوضها الحذرة:

- محتاجة مساعدة؟..

حركت رأسها نفيًا في الحال وبصرها يلتقط حقيبة صغيرة تحمل قطعًا من ثيابها الخاصة تحتل جانب الفراش، أحضرهم مع حاسوبه حين غادروسقطت هي في غفوتها..

خرجت من دورة المياه بخطى متباطئة وقد بدلت ملابسها إلى منامة عسلية تريحها و تفضلها لها قلنسوة برأس دب منحت رأسها دفئًا مطلوبًا، عاجلها بالحديث ما إن ظهرت أمامه مشيرًا إلى طاولة مستديرة يعلوها بعض المأكولات والعصائرالطازجة:

- خلصي أكل عشان تاخدي أدويتك..

اقتربت من الطاولة بذات المهل، احتلت أحد المقاعد ودارت تسأله في اهتمام واضح:

- و إنتَ، أكلت؟..



رفع لها كوبًا ورقيًا من القهوة دون أن يرفع بصره عن شاشة الحاسوب، ارتشف منه في صمت شاركته إياه أثناء تناول وجبتها، قبل أن تفرغ منها نهض عن جلوسه، أحضر لها أدويتها مع قارورة ماء، تركهم بالقرب منها ثم عاد لسيرته الأولى بوجه مصمت، انتهت وأولته جانبها وقد استحوذ منظر النيل بمراكبه الليلية من هذا الارتفاع الشاهق على إعجابها، ظلت شاردة لوقت طويل برأس مال وارتكز فوق راحة يدها حتى نقلت بصرها إلى ظله المنعكس فوق الزجاج، يولي جل تركيزه للأوراق المبعثرة فوق سطح المنضدة، تجهمه وصمته المتفاقم يعني أنه غاضب من حديث بتره حادث السقوط..

نهضت عن جلوسها تعرج بالخطى، وقفت أمامه تفرك كفيها ببعضهما، تريد أن تنهي المسألة، أو تبدأها من جديد إن حتم الوضع، لا تريد الوقوف معه بمنتصف مجهول:

- أنا عارفة إن الكلام اللي قلته ضايقك، حابه أعتذرو..

- وفعلك كمان ضايقني و المفروض تعتذري عنه!..

نفضها بصياحه المباغت بغضب دون النظر، تكسرت أنفاسها بينما ترمق حاله الثائر من علو، عقب لحظات حررت نبرتها المحتجه في اهتزاز:

- أنا كنت هعتذر عن شعور سيء تسببت لك فيه لكن مش عن حاجة صح عملتها..

لم يرفع لها جوابًا أو عينًا، أطبق صمتًا جديدًا فوق صمته، ولم يكن هذا حلًا يرتضيها:

- السكوت مش حل، احنا محتاجين نتكلم..

نهض يقابلها بوجه جامد وقد قبض على ثورته بلجام السيطرة فذابت كأنها لم تكن:

- عايزة توصلي لأيه؟..

- لحياة طبيعية، حقيقية..



- مش هتلاقيها معايا..

- وأما هو كده؛ إتجوزتني ليه؟..

- أنتِ عارفه ليه..

- مش صح، إنتَ كمان بتدور على حياة طبيعية، حتى لو كلامك و أفعالك بيقولوا العكس، من جواك بتتمنى تعيش حياتك زي أي حد..

طوقته بعينها قبل أن تردف بختام:

- وده لا عيب ولا حرام، دي أبسط حقوقك..

- أنتِ بتتكلمي كتير ليه!..

هروبه الجديد أكد لها أنها أصابت هدفًا في مرماه، لم تغضب لفظاظة كلماته الأخيرة بل وجدت حالها تتبسم دون داعٍ بينما تستدير عنه وتسير قاصدة الفراش، توسدته وبين يديها جهاز



التحكم الخاص بشاشة متلفزة، أخبرته قبل أن تثبت الصورة على فيلم كلاسيكي عتيق:

- لو الصوت ضايقك عرفني..

ظل واقفًا مكانه للحظات يتطلع إليها بلا فهم، ثم حرك رأسه بلا معنى وتحرك ينهي ما تبقى من عمل، تناول سماعة الهاتف قاصدًا خدمة الغرف، طلب لنفسه قهوة فرنسية فقاطعت حديثه بهتاف طال مسامعه:

- ممكن تطلب لي حلو معاك؟..

لم يمنعه تعجبه أو دقة الرابعة فجرًا من طلب ثلاث أنواع من صنوف الحلويات المقدمة من مطبخ الفندق الذي ضم اسمه كـ نزيل استثنائي..

لمدة ثلاث ليال.



صادقت الروتين حد الملل..



نهارها اليوم مثل الامس والغد، فقط وجوه الزبائن تتبدل، طعامها إما أن تتناوله بالخارج أو تصحبه معها إلى البيت، تزور صالون التجميل مرتين في الأسبوع، تهتم ببشرتها وصحة أظافرها، حتى موعد لقاءاتها مع زوجها تمضي بروتينية مواعيد تناسب وضعهما السري وجدول أعماله المزدحم، بعد العاشرة مساءً يتكسر الروتين، يضيء هاتفها باسمه، أول مرة كانت قبل أيام، حين عادت من المشفى بنفس مثقلة لأجل شقيقها الذي يلوذ بحاله بعيدًا عن الجميع، حاولت إقناعه في العودة معها إلى بيت والديهما لكنه رفض وأصر على رغبته في العزلة، جلست بمزاج عكر يملأه الضيق لما آلت إليه الأمور، من بين هذا الحال الغير رائق وجدت هذا الدخيل يقتحم سكون وحدتها، استجابت لاتصاله تاركة صلف كلماتها والحنق يصارع لطافته، بعد وقت قليل استسلمت لحالها وتنهدت في صمت، أخبرته عن خسارة شقيقها وزوجه لطفل تمنياه لسنوات، تبدل الرجل اللطيف لآخر متفهمًا لحالها، مراعيًا



لمشاعر تجتاحها، حدثها بعقلانية مترفقًا، حانيًا، صاحب ليلها المثقل حتى مطلع الفجر، كيف مر الوقت لا تدري، لكنه حين مر كان حالها أفضل بمرات..

ظلت لثلاثة أيام بعدها تقاوم فكرة الاستجابة لهاتفه المسائي، لكن حين يضيء اسمه بين السكون والوحدة التي تغلفانها تتداعى مقاومتها وتستجيب..

في المرة الرابعة.. الخامسة.. العاشرة..

و الليلة..

هي جالسة تنتظر!..

تنتظر برغبة ولهفة..

ونبضات تفلت من عقال القلب..

يبدأ هو معربًا عن شوق:

" وحشتيني.."



يفصح ولا ينتظر أن تبادل شوقًا بشوق، هي حتى اللحظة تتلقى دون رد، وهو لا يتعجل، بل يترك ما بينهما يأخذ وقته الكافي لينضج على مهل:

"يومك كان عامل إزاي النهاردة؟.."

يسأل ويهتم، تحتجز الهاتف بين كتفها وأذنها، تخبره في ملل ويدها تقلب خليط السكر بالقهوة سريعة الذوبان:

- عادي..

وصلها ذات الصوت لتلاقي الملعقة مع الكوب لكن من ناحيته فسألته بإلتقاء حاجبين:

- إنتَ بتعمل إيه؟..

تتخيل ابتسامته تتسع بينما يجيبها:

" بعمل نسكافيه زيك.."



ضحكت بخفوت حاملة كوبها إلى غرفة النوم، توسطت الفراش بوضع مسترخي، تصارحه بضحكة رائقة فشلت في كبحها:

- مش عارفة ليه الرومانسية بتاعتك بتضحكني..

" مش مقنع صح؟.."

ضحكت بقوة بمصارحة جديدة وكفها يكبح ضحكتها محاولة في تهذيبها:

- بصراحة خالص..

ضحكت مرة تالية وضحك ثم تنهد وسأل:

"طيب إيه.."

- إيه؛ إيه؟

"عايز أشوفك.."

- ليه؟..



"لا بقى شغل استهبال مش عايز.."

- مش بستهبل..

"عبلة.."

- نعم..

"أنا بحبك.."

ساد الصمت فتوجس باستطرادة تالية:

"ماضحكتيش يعني؟.."

- دي ماضحكتنيش..

"كويس عشان أنا مابهزرش وعايز أقابل أخوكِ.."

هتفت فيه بحدة و انفعال مباغت:

- إياك تعمل كده من ورايا، مش هكلمك تاني ولا هو افق عليك أصلا!..

داهنها بالقول اللين، بنغمة باغي القرب والوصال:



"طيب فهميني أنتِ عايزه إيه، أنا بتكلم في اللي المفروض يحصل بعد ما اتأكدت من اللي عايزه.."

هدأ انفعالها جوار منطق مبررها الجاهز:

- قلت لك مش جاهزة للارتباط دلوقتي، وكمان أنا معرفكش كفاية..

حدثها بهدوء ورصانة:

" حقك تاخدي كل الوقت اللي يلزمك، بس احنا محتاجين نقرب المسافات بشكل واضح يا عبلة، جو التلفونات والمراهقين ده مش جاي معايا الصراحة.."

تأففت بصوت مسموع:

- مش شايف نفسك متسربع شوية؟..

"متسربع شويتين الحقيقة.."

ضحكت بحلاوة أسبت قلبه وليد أرض الهوى:



"بنت أنتِ شكلك معقدة وبتطلعي عقدك عليَّ.."

لاوعت بدلال أنثى:

- أو بتقل عليك مثلاً..

طوى دلالها بنغمة غرور مصطنع لاقت بأسر النبرة:

"اتقلي براحتك هتخسري عريس لقطة على فكرة.. "

لم يخضع قلبها للحظة الفكاهة تلك، بل شن غارة اعتراض، هتف بها وصاح، ضاربًا نو اقيس الخطر..

وفي لحظة مصارحة سرية أقرت لحالها؛ أنها لا تريد خسارته..

وبمقارنة مع آخر؛ ربح من عقد مع القلب صفقة عشق.



تيه..



كل ما تحياه دوامة من التيه، بعد أن فرطت عقد أسرارها وخبيئتها بين يديه، أزاحت مايثقل روحها وألقت به فوق عاتقه، ثاروغضب وصفع، صرخ في وجهها، وفي النهاية..

أخذ كل ما كانت تنوء بحمله ويثقل صدرها، أخذه كله على عاتقه ومعه هاتفها المحمول وغاب..

نهارها الثالث منذ أخبرته، لم يحدثها من ليلتها وهي لا تتجرأ على اتصال، ترعبها فكرة أن الأمورتعقدت أكثر، تغرق حالها في أمور البيت التي سلمتها أمها عهدة مسئوليته قبل رحليها المباغت إلى خالتها المريضة، تحوم بفكر شارد في غيابه، وهي و اقفة خلف الموقد تفكر، وهي تفرد الثياب لتجف وبينما تنظف البيت وتعيد ترتيبه دون حاجة، لا يتوقف عقلها عن التفكير، تداهما نوبات بكاء كل حين، تترك ما بيدها وترتكن إلى زاوية ما بروح متعبة تفرغ مخزونها كله من العبرات ولا تنتهي، تشكر ربها لأن



الأم غائبة وأبوها غير منتبه، معرفة أبيها مصيبة لا تقدر توابعها..

- ندى أنا نازلة الدرس..

لا يبدو لها أن سمعتها فتعيد الشقيقة القول على عجالة:

- أنتِ يابنتي سامعاني؟ بقولك نازلة لو بابا جه وسأل عني مش هتأخر..

تحدثها بفتور من وقفتها خلف الموقد:

- تمام يا رنا..

تنهي تحضير الغذاء، تجلس بالردهة وحيدة، بصرها ساقط فوق الهاتف الأرضي، تفكر بالاتصال على شقة عمها القابعة تحتها، إن جاءها صوته تسأله عما آلت إليه الأمور، ليس من حقه أن يتركها تحترق بنيران الانتظار والجهل حتى وإن كانت مذنبة، أخذت بفكرها حيز الفعل، ضغطت الأرقام بحركة مثقلة، تتابع الرنين عدة مرات قبل أن تصلها نبرته الأجشة..



"السلام عليكم.."

قطعت اتصالها بغتة حين تعرفت على نبرة توأمه، رفعت ساقيها تضمهما بذراعيها إلى صدرها وتسقط فوقهما رأسها في نوبة بكاء جديدة، يأتيها خاطر شيطاني يأخذها من حالها السيء إلى الأسوأ؛ قد يتهور ويتعارك مع ذاك الحقير فيؤذيه، ماذا تفعل؟ لا تجد غير العبرات تؤازرها، تركتها تنساب فوق وجنتيها بسخاء ثم تخلصت من آثارها قبل عودة أبيها..

جهزت سفرة الطعام واجتمع ثلاثتهم، ما تلقمه لفمها لا يملأ جوف طفلة، تشاركهما الجلوس كروتين لا بد عنه بشهية مفقودة وفكر شارد، تعبث بصحنها في ضياع وصوت أبيها يتردد بنغمة البائس:

- بصراحة البيت من غير أمكم مالوش أي طعم..

هتفت"رنا" في الحال:



- كلمها بقى يا سيد قولها ترجع، أنا معدتي باظت من عك ندى كل يوم..

طرق فوق رأسها بقبضته في خفة:

- هتطمن على خالتك وترجع يا بنت، وبعدين أختك كتر خيرها بتعملك وتيجي تأكلي على الجاهز المفروض تشكريها..

- بذمتك ده رزيتقال له شكرًا؟ شايف معجن إزاي..

- بصراحة، آخره سعيكم مشكور..

لم تتجاوب مع ثرثرتهما التي خصتها وقهقهة ضحكاتهما الصاخبة، لاحظ أبوها حالتها المتغيرة، سألها متوجسًا بمرح لا يتجزأ عن شخصه:

- مالك يا قطة؟..

رفعت له عينين خابيتين:

- مالي يا بابا، ما أنا كويسة أهو..



- قاعدة مبوزة ومابتتكلميش، الواد عبدالرحمن مزعلك؟ لو مزعلك قولي و أنا أهزقه..

ادعت استجابة لمزاحه بضحكة فاترة سرعان ما انطفئ طيفها:

- مفيش حاجة والله يا بابا يمكن عشان مصدعه بس..

ثم نهضت عن سفرة الطعام دون إتمام:

- هنام شوية..

وهربت من أمامهما، تخفي فيض عينيها الدامعة.



إن كانت تعبرعن حالها بدوامة تيه؛ هو

سينتهج درب البراكين الخامدة..

بركان يريد أن يفجر حممه فوق عظامها أولًا، ثم يلقي بذاك الملعون النصاب لجوفه، يذيب كل ما فيه فلا يبقى منه ولايذر..



قضى ليلة اعترافها فوق مراجل من نار يصطلي بها جسده ويغلي لها دماغه، ينتقل من الغرفة إلى الردهة ثم ينتهي بالشرفة مصادقًا الظلام، رأسه منكفىء فوق شاشة هاتفها، يعيد قراءة رسائله لها لألف مرة و أنفاسه تهدر بلا توقف..

مع بلوج الصباح غادر البيت، قام بسحب المبلغ المالي الذي يملك من حسابه البنكي، والصورة هنا لا تحتمل رفاهية ثراء، بل ثمن قطعة أرض باعها أبوهم قبل سنين وقسم ثمنها بينه و إخوته بالعدل حتى يستطع كلًا منهم بدأ حياة الاستقرار خاصته، كل ما في حوزته سبعين ألفًا من أصل المئة، ثلاثين منهم حقًا لصاحب معرض الأثاث الذي عقد معه اتفاقًا وترك مبلغًا تحت الحساب ليبدأ العمل في طلبيته، سيعود لهذا الهم لاحقًا، عليه الآن أن يتمم المبلغ، استطاع التصرف في عشرة وتبقى مبلغ العشرين ألفًا كالعقدة في المنشار وقد نفذت كل الحلول المقبولة من بين يديه، لم يجد غيرها يلجأ لمساعدتها،



اقتحم مكان عملها بوجه عنوانه التجهم، من وقفته بادرها مباشرة دون مقدمات:

"عبلة؛ من غير أسئلة، محتاج عشرين ألف ضروري وهرجعهم في أقرب وقت ممكن.."

انقبض قلبها مع مرآه، نهضت عن جلوسها تسأله بفزع:

"حصل إيه يا بني!.."

"معاكي ولا أمشي؟.."

لم تكن لترده بهذا الحال، جمعت له المبلغ المطلوب وأعطته إياه، أوصاها بسرية الأمر، كرر الوصية ثم غادر دون أن يوضح لها أسبابه، ولن يفعل..

الآن؛ في مساء اليوم الثالث اقتحم شركته الصغيرة القابعة بأحد البنايات حتى يغلق هذا الأمر للأبد، عقله يصورها تمر بين الطرقات بمفردها وقد سحبها الحقير لفخه، الحقير الذي استقبله بتبسم المنتشي ولعابه يسيل مقابل المال، ألقى له به



فوق سطح المكتب وعيناه مسلطة فوقه كجمر متقد، انتظر حتى قدم له إيصالًا يفيد باستلام المبلغ، طواه بعناية ودس به داخل جيبه، الآن؛ انتهى الأمر، ولأنه انتهى صار مباحًا له تفريغ شيئًا من حممه في وجه الرجل، لكم فكه بكل ما أوتيت قبضته من قوة بينما يسبه بأقبح الألفاظ، يضغط على عنقه حاشرًا إياها بين ظهر المقعد وقوة ساعده مقسمًا بأغلظ الأيمان بأنه إذا ما اعترض طريقها مرة أخرى ولو من باب المصادفة سيفصل رأسه عن جسده.. تدخل رجلان من الموظفين، يدفعان به إلى الخارج بقوة أذرعتهم ويفضون الاشتباك، نذر من عقل تبقى لديه أخبره أنه كما بدأ الأمر بالتراضي عليه أن ينهيه بذات الشيء لأن هذا النوع من البشر لا يؤتمن، لا يضمن أي قذارة أخرى قد تخرج من بين يديه فتمسها بالسوء وتمسه..

قرب البيت كانت يده ترتفع إلى أذنه، يهاتفها بمكالمة لم تتعدَ الخمس ثوانٍ كان فحواها:



- مستنيكي فوق..

وصل قبلها، حين صعدت بأقدام متخبطة و وجه لطخته أثار البكاء وجدته هناك، يقف موليًا ظهره، جامد متصلب، آتون يعمل فيه من الداخل، اقتربت تلمح جانبه المصمت، تهمهم بأحرف مختنقة وأصابعها تمسد عنقها بارتجاف يزور كامل جسدها احتوته بذراعها الآخر:

- عملت إيه..

داريقابل ارتجافها، ذبول عينيها وأسف تنطق به كل جوارحها، اقترب في جمود ومجافاة يقبض على كفها، يبسطها وبقساوة فعل ترك لها هاتفها و إيصال المبلغ ثمن خلاصها من بين براثن الوغد المحتال، دون أن يترك لها الفرصة لتعي بشكل واضح أن الأمر انتهى قبض على مرفقها، اعتصره بقوة آلمتها وقسمات وجهه تشتعل بوعيد مستحق:



- لو الكلب ده حاول يكلمك بأي شكل من الأشكال هتبلغيني فورًا..

ازدرد لعابه وقبضته تشتد، وعيده يشتد، نظرته تحرقها كليًا:

- ولو أنتِ كلمتيه لأي سبب هدفنك مكانك..

رفعت حدقتيها المشوشة بالعبرات تقابل عينيه، تبحث فيهما عن عهود الثقة المكتوبة بينهما فلا تجد غير حمم تنبع من داخله وتفور من بين عينيه، نفضها عنه بعنف وازدراء حين تساقطت عبراتها، تلحفت بحالها تحميها من موجة الصقيع التي تقترب منها رويدًا رويدًا، ترجوه بعينيها أن يمنحها الطمأنينة بجوابه الصريح الشافي دون أي محتمل آخر:

- كده الموضوع خلص؟..

وهه ساخرة، مريرة ندت عن شفتيه قبل أن يجيبها بسخرية لا تحمل أي مرح:

- خلص اطمني..



قالها واستدار ينوي ابتعاد قطعته بخطوتها الواسعة وجذبة ذراع تجبره أن يلقاها قسرًا:

- دفعت له الفلوس منين؟..

لا جواب، تعيد سؤالها بانفعال مضاعف أحرق كل أعصابها:

- دفعت له الفلوس منين يا عبد الرحمن؟!..

جمع عتاب الدنيا، عبأه في قارورة العين وأهداه لها في هاته اللحظة للتساقط وتتداعى كل أحلامها فوق رأسها، لم تكن بحاجة لأكثر من نظرته تلك حتى تتمم لنفسها من قبله بأحرف كسيرة:

- فلوس جوازنا صح..

وصمته يعني نعم، قهره يعني نعم، خذلانه فيها يعني ألف نعم، تساقط الدمع بغزارة وزارت البحة همسها المختنق بينما تقبض بأصابعها فوق ساعده:



- هنعمل إيه..

تسأله عن القادم، عن حالهما، عن الزواج والبيت والأحلام، عن أمورهما العالقة ولعنة المال التي تقف في منتصف كل شيء فلا تكتمل إلا به، تسأله عن قلبها الذي يرجو غفران، عن نفسها التي يقسو عليها ويلفظها بجفاء..

عن نهاية لهذا الذي قام بينهما ولا ينبغي له أن ينقض!..

- خليكِ جنب أمك يا ندى..

قال جملته بجفاء رافق خلع يده المتشبثة فيها قبل أن يبتعد، رحل من أمامها تاركًا إياها تسقط فوق ركبتيها وتتداعى، تبكي بحرقة قلب جريرة يديها.



عادت ولم تعد..

يخيم على روحها صمتٌ مريعٌ لم يشهده من قبل، حتى حركتها صارت أقرب لحفيف يدور من حوله بلا صوت، تدعي أنها بخير،



بل تؤكد بقول و ابتسامة مغتصبة تولد في لحظة وتموت في التالية، لا ترغب في حديث ولا تشتهي، وتتحاشى قربه بنوم تهرب إليه قبل موعده..

منذ صغرها وهي لا تحب مشاركة أيًا كان أعباء قلبها، تنوء بحملها بمفردها، تذبل وتذوي في صمت ثم تنهض وتعيد ترميم نفسها بنفسها، جل ما تريد التفهم وبعض الوقت، أن يمنحوها جميعًا الوقت الكافي لتتجاوز وتمر من بين حطام خسارتها الكبيرة حتى تعود لهم كما عهدوها..

وهو؛ يراقبها في صمت، ينتظر عودتها، يمحنها ما تريد لأنه لا يملك حلًا آخرًا، ظن أنها تتحسن حتى قبض عليها ليلة الأمس وعبراتها تتساقط بلا رادع، حين شعرت بوجوده اختفت من أمامه تنكر حالة تتلبسها، ويكذبها حزن عينيها.

عودتها من العمل اليوم كانت قبيل العشاء، على غير العادة وجدته أمامها، زاد تعجبها مع حقيبة السفر الموضوعة فوق



الفراش قيد التحضير، لم يمنحها الفرصة لتسأل، جذبها إليه بضمة ذراع ونغمة عبث لعبت على وتر الكلمات:

- هنرجع أمجاد شهر العسل..

تفاجئت بتيه، ما بين العمل وحالة الطقس و.. التوقيت:

- دلوقتي؟ بتهرج صح..

أكد لها جديته حين استأنف العودة للتحضيرات بعجالة:

- السفر بالليل أحلى، وبعدين دي إسكندرية خطوتين بتتكلمي في إيه..

- أيوه بس الشغل..

- قدامك أجازة تلات أيام، هناخد منهم اتنين بس..

دار بصرها فوق الأغراض المبعثرة أعلى الفراش والأرضية بعجز قطعه بوثبة ولثمة باغتت وجنتها:

- يلا ماتنحيش عايزين نلحق الشروق..



رفعت شعرها المتهدل، تحكم عصقه بينما ترمقه في اغتياظ وتتحرك خطواتها تجاريه في مراده، احتاجت لساعتين كاملتين حتى تنهي توضيب الحقيبة وتلملم الفوضى التي أحدثتها بالمكان، ساعة أخرى وكانا ينطلقان في طريقهما..

يصاحبان سكون الليل مع لسعة برد مازال يحملها طقس الأيام بقيادة"عزيز" الرصينة رغم سرعتها، قدحين قهوة ابتاعهما من محطة البنزين، تصاعدت أبخرتهما بدفء من بين أيديهما لتمتزج مع دندنة طرب أصيل..

"الليل وسماه ونجومه وقمره"

- و إنتَ و أنا يا حبيبي أنا..

الليل والطريق ودندنة"عزيز" للغنوة دفعت بالابتسام ليعتقل ثغرها..

وصلوا وجهتهم بعد ساعتين من انتصاف الليل، أول خطوة داخل الشاليه المهجور منذ سنين أغدقت عليهما بفيض من



الحنين عكسته الأعين، كل زاوية تحكي قصيدة طفولة كبرت وتركت بصماتها فوق كل شبر منها، رائحة العتاقة تفوح ورغم هذا كان المكان نظيفًا مرتبًا وفي انتظارها، سألته فأجابها:

- كلمت السمسار جاب واحدة نضفته..

إطلالة الشرفة الأرضية على البحر مباشرةً، لا يفصلها عنه غير خطوات قليلة، دفعت بضلفتيها وتوسطتها تقابل عبق الهواء، لم تأبه لصفعاته شديدة البرودة، بل خلعت وشاح رأسها، فكت وثاق خصلاتها وتركته يبعثرها، تركته يمنح روحها شيئًا من خفة تلائم خواصه، لحظات وكان يحيط ارتجاف جسدها من الخلف بجسده ودثار صوفي ثقيل جمع كلاهما بداخله محررًا همسه جوار أذنها:

- الجو برد..

هتفت بحماس تبسم له:

- الجو رهيب..



نقلت بصرها في الأرجاء المظلمة، كان مسكنهما بقعة الضوء الوحيدة التي يغالبها هدير الموج العالي دون رؤية واضحة:

- المكان فاضي مش شايفة حد..

منح أنفه المتجمد دفء جيدها بحركات ناعمة:

- أنا شخصيًا مش عايز حد..

واستطرد بسؤال رامقًا السكون والظلام الممتد بوحشة على مداد الأفق:

- خايفة؟..

إجابتها قاطعة، جاهزة على طرف اللسان:

- مش و أنا معاك..

سحبها معه إلى الداخل، طارحها الغرام بشغف قديم، وعهد جديد اتخذه على نفسه بقرار من إصلاح، كان هذا شرط عودتها، منحها إياه في الحال، أخبرها أنها خارج دائرة المقارنات



أو المقايضة، أن مكانتها العالية لم يرتقِ لها مخلوق بعد وكل من في مقابل كفتها خاسر.

حل الظلام خيوطه ورحل، تلون الأفق بأرجوانية باهتة لم تخفِ سحر الأزرق في أول لحظة لقاء، سارت وإياه بأقدام حافية فوق الرمال حتى انتهيا أمام صفحته الساحرة، ولا مرة خاب في الاستحواذ على لحظة انبهار تملأ حدقتيها، ارتطم قماش قميصه الخفيف بوجهها يقطع اللحظة وخطواته تقترب من المياه داعيًا إياها لصحبته:

- مش هتيجي؟..

هي تعشقه دون مساس، وهو على عكسها تمامًا، يعلم وتعلم، لكن للطقس أحكامه:

- بلاش يا عزيز المية ساقعة والموج عالي..



ضاعت بقية حروفها بلا معنى لحظة ما ألقى بحاله بين الزبد، يلتف بين طياته في مهارة، تر اقبه، تتبع سباحته، يهبط برأسه ويخرج، يدعوها للاقتراب من جديد فترسل له رفضها القاطع، تبعد خصلاتها خلف أذنها فتعود تتخبط مع صفحة وجهها في الحال، حافة ثوبها تجاوزت ركبتيها بمقدار تضرب ساقيها بقوة بينما تشد حول أذرعتها وشاح كتفيها وقد منحها خلو المكان خصوصية اللحظة وحريتها، تطالع مسكنهما القريب ويعود بصرها حائمًا، باحثًا عنه وقد اختفى أثره داخل العباب!..

قميصه قابع بأحضانها وخطواتها تترد من جهة إلى أخرى، تبحث عنه بعينها في جنون، اتسع عليها الفراغ بغتة، تبدلت الجاذبية لوحشة و أقدامها تهرول دون دليل، يفزع قلبها قبل ندائها:

- عـزيـز!..



دقائق من الهلع استوطنتها، مدتها وجزرتها وألقت بها في أعماق الضياع حتى رأت ذراعه يلوح لها من البعيد، توقفت مكانها تسبه بما يوازي رعبها وتلفظ أنفاسها في استكانة، خرج من المياه فصفعته بهتافها:

- بتبعد ليه قلبي كان هيقف!..

خلل خصلاته بأصابعه، يزيح المياه عن رأسه ووجه مقبلًا عليها في تبسم:

- لو منزلتيش هتندمي..

لمحت نظرة الغدر بعينيه فتقهقرت للخلف بتحذير أتبعته بركض وفرار:

- إياك! لا ياعزيز أقسم بالله ها..

قطع هروبها و صياحها باستحواذ تام على خصرها، حملها قسرًا غير آبه لرفس أقدامها، يخوض بها غمار المياه ركضًا،



شهقاتها تتصادم مع صوت ضحكاته، عائدًا بها لذكرى الأمس البعيد:

- فاكرة أما غرقتك هنا؟ في نفس المكان ده..

- حسبي الله..

رددتها من بين شفاه مرتجفة وذراعين طوقت بهما عنقه بقوة، أشار إلى بقعة بعيدة بمقدار ضئيل مستزيدًا من نبع الذكرى:

- وهناك عاكستك وقلت لك عيونك حلوة..

ضربت كتفه بقبضتها في اغتياظ مصطنع تنكر حقيقة ذكرى من أجمل ما تحفظ:

- مش فاكرة أصلًا..

- بسيطة؛ تعالي أفكرك..

وتحرك بالفعل ينوي التعمق بها أكثر لكن رعبها الجلي أوقفه، طوقها بذراعيه مستقبلًا ارتجاف جسدها، ارتكزت بذقنها فوق



كتفه محاولة التحكم في ارتعاشاتها الكبيرة، كانت أسنانها تصطك ببعضها وبصرها يطوف شاملًا بحر المياه الممتد أمامها بلا نهاية:

- إزاي الجمال ده كله في حقيقته مرعب كده؟..

- أنتِ الجبانة..

- البحر غدار..

- مع الغشيم..

عادت تقابل وجهه، تزيح خصلة مبتلة عن وجهها بسرعة وتعود لتشبثها فيه:

- بطل معاندة، البحر مالوش كبير..

ألصق جبينه فوق جبينها و أنفه يداعبها بنصف ابتسامة عابثة احتلت جانب فمه:



- ما هو ما ينفعش محبتك النص كم دي، يا تحبيه كله على بعضه يا تعترفي إنك مابتحبهوش وقتها هبطل أغرقك فيه..

طوقت عرضه البعيد بنظرة جديدة عادت له بعدها في اعتراف صريح:

- في اللحظة دي هقولك الحب مالوش معنى وإحساس الأمان مفقود بس متأكدة مجرد ما أخرج و أقف أبص عليه من بعيد هيرجع يسحرني من تاني و أقع في غرامه من أول وجديد..

بخصلات مبتلة توسطت و إياه المطبخ الصغير، يتشاركان معًا في إعداد وجبة سريعة، حرك محتويات القدرعلى مهل، يتشمم الر ائحة المتصاعد بتلذذ مخبرًا إياها:

- كبدة إسكندر اني على حق..

اقتربت منه والسكين بيد ونصف حبة البندورة في الأخرى:



- دوقني..

تناول قطعة ببنان أصابعه، دسها بفمها، مضغتها بتلكؤوتقييم للنكهة بعين مغمضة وأخرى مفتوحة حتى تبسمت له في رضا و المكافئة مدح مستحق:

- شيف قمر ماقدرش أنكر..

- ولسه السجق خطيير..

طاف بصرها فوق جذعه المكشوف وقد غمرت المدفئة المكان الضيق بالحرارة فاكتفى بسروال قطني و اكتفت هي بثوب داكن له حمالتين رفيعتين التصق بحناياها و أبرزلعينيه كل مفاتنها، غازلته في وقاحة بضغطة فوق جانب شفتها السفلى وبحة إغواء:

- مش السجق بس اللي خطيير..

قبض على عنقها بذراع، لاثمًا ثغرها بقوة محررًا إياها في الحال:



- دي عربون محبة لحد ما نأكل ونكمل مياصه..

ضرب المذياع العتيق مرتين على جانبه حتى ينضبط إيقاع الصوت دون تشوش، ثبته على محطة تبث طربًا كلاسيكيًا صاحبهما أثناء تناول الطعام بنهم فوق جلسة أرضية، لم يكن هناك متسعًا للفراغ، امتلأ كله بثرثرة وضحكات، بعد الانتهاء حضرت كوبين من الشاي المنكهة بالنعناع طالبت به المعدة في الحال عقب الوجبة الدسمة، تركتهما فوق الأرضية إلى جانبه ولم تجلس، خطت بعيدًا فسألها:

- على فين؟..

تابعت طريقها ناحية المذياع الذي بدأ في بث الايقاعات الشرقية، رفعت الصوت وعادت خطواتها بابتسامة تناوش ثغرها، تناولت وشاحها في طريقها، خلعت خف قدميها ولفت بالوشاح حول ردفيها مخبرة عينيه المتابعة بحاجب مرفوع في ترقب المنتظروألق المعجب:



- هعيد أمجاد شهر العسل..

وتمايل الخصر في إتقان وغواية معيدًا الأمجاد بمسيرة ألف ليلة وليلة.



(12)

يولد الإنسان حرًا..

هكذا يقولون، وذاك مذهبه..

عقله مثله، لا يخضع لقيود ظلم آثمة ولا يسلسله خوف، بل يسعى خلف أعناق الحقائق الملتوية في تحدٍ لكشف كل آسن مستور، يجابه ولا يخشى في قول الحق لومة لائم..

ثلاثة أيام وهو منكفئ على حاله في عزلة، يحيك مقالًا جديدًا من بطولة مواطن راح ضحية للفساد، يكشف عفنًا جديدًا تستره القشرة الأرستقراطية، استغلال رجال الأعمال لحاجة الفقراء والتضحية بأرواحهم في سبيل المنافع الشخصية، يسأل عن غياب الرقابة ونهاية المصير مع الضمائر الغافية؟!..



يسطر خلاصة جهده المضني خلال الفترة الماضية، لم يترك خيطًا واحدًا إلا وتتبعه بحنكة مستقصي وخبرة صاحب قلم يملك من الجرأة والشجاعة ما يكفي لينال استحسان رئيسه في باكورة صباح يفوح بسبق صحفي سوف يشعل الأوساط:

- كنت عارف آخرة حماسك بلوة جديدة..

حدثه رئيسه الخمسيني أصلع الجبهة ممتلئ الوجه بلهجة مازحة وبصره يقابل تبسمه من فوق منظاره الشفاف:

- بلاويهم مابتخلصش يا ريس؛ نعمل إيه..

- بس إنتَ عامل شغل عظيم يا عبدالله..

- يعني أفهم من كده حضرتك مو افق على النشر؟..

- وهكلم المطبعة حالًا..



تهلل وجهه بالفرح وطفق الحماس يتقافز من بين عينيه، ساعات فقط تفصله عن مراده، ساعات ويسقط القناع المزيف لواحدٍ من مدعي المفخرة و الفضيلة..

قضى نهاره كله و ابتسامة النصر تتماوج فوق ثغره، حتى عند عودته إلى البيت مساءً كان البشر يطل من بين عينيه، لثم كفي أمه في تبجيل و محبة ثم دلف إلى غرفته المشتركة مع توأمه، ما لبث حتى جاء أخوه بوجهٍ عبوس يتخذه واجهة منذ أيام، عندما شرع الأول في خلع ملابسه كان الأخير يفتش عما يرتديه.. مازحه"عبدالله" بالقول:

- ده السلام لله يا محسنين..

لم يبدِ أية فعل أو التفات، فقط ارتدى سرواله الجينز و أتبع هذا بقميصه تحت أنظار شقيقه المر اقبة، صفاء ذهنه جعله أكثر تركيزًا في حاله المتغير، ظن الأمر خاصًا به وعروسه كونها مختفية عن الأنظار لذا لم يبدِ اهتمامًا من قبل، لكن على ما



يبدو أنه أخطأ في تقديره هذه المرة، اقترب يسند ذراعًا فوق خزانة الملابس مقابلًا إياه وجهًا لوجه، مفرغًا خلاصة أفكاره واستنتاجه:

- حالك مش عاجبني، مالك؟..

ساقط في بحر العجز وقلة الحيلة، تدور به دوامة الخذلان وتتقاذفه الأمواج لتلقي به إلى بر قفر لا حياة فيه ولا أمل، هذا حاله إذا ما أراد شرحًا ما يثقل به نفسه..

أبعد ناظريه بتجاهل وأخذ يزرر قميصه بقول فاتر، مختصر:

- مفيش..

قطب توأمه جبينه بسؤال حين لم يعجبه صمته وتمريره للأمر بقوله السابق:

- حصل حاجة في الشغل طيب؟ متخانق مع حد؟..



الضغط الواقع عليه يتركه كلغم مدفون كل ما يحتاجه ضغطة واحدة لينفجر في صاحبها، زعق بعصبية دون مقدمات:

- قلت لك مفيش هو تحقيق!..

قابل ثورته الغير مبررة بانفعال وليد هو الآخر مفسحًا له الطريق ليمر:

- الحق عليَّ بسألك..

مضى العابس دون كلمة زائدة، غاب لساعتين برفقة صديق فوق مقاعد واحدة من مقاهي الحي، حين عاد كانت فوق رأس الدرج تترقب عودته، اقتربت بنفس ملتاعة، تقطع طريقه بهمس متهدج غير آبهة لسيل عينيها المنهمر وحروفها تقابل جمود النظرة الشاملة كل شيء دونها:

- عبدالرحمن خلينا نتكلم..

يرفع قدمًا فوق الدرج يلزمها على تقهقر في تجاهل لها ولكلماتها دفع بفيض العبرات ونبرتها تتوسله برجاء:



- ما تسبنيش كده عشان خاطري..

تسأله بأغلى ما كان فيكسره بجفاء ومرورانتهى بباب أُغلق من ورائه دون اكتراث لحالها، ابتلعت غصتها المسننة بعسر وصعدت تجر أذيال الخيبة في أقدامها وقلبها معًا حد السواء..

أرض العشق العامرة..

أصابها وابل الهجران..



أفئدة الرجال في العشق حامية..

تركض

تحاصر

تصر

وتتشبث



تنصهر فوق صفيح الانتظار وتقطع مع الآمال أشواطًا وأشواط..

قلبها مبتغاه، أن يتسلقه ويتربع فوق عرشه بسلطان الغرام..

لا يعلم عن علتها التي تمنعها من التسليم لمقاليد الهوى، لكن أيما كان هو بقادر على كسر كل علة وحاجز يمنعها من الوصول إليه، وإن كانت تتمسك برفضها في لقائه تمسك هو بعناده..

بطلة كلاسيكية أنيقة، سروال أبيض وقميص ذا زرقة داكنة، اقتحم محل عملها بلا سابق إنذار، خطواته وئيدة ناقلًا بصره فوق الأثواب المعروضة على كلا الجانبين، حين وصل مقرها الرفيع ببضع درجات توقف يرمقها من مكانه، رأسها يرتكز على ساعدها بميل طفيف جعل خصلاتها كلها تسترسل من جانب، شاردة الذهن والحواس، تخط شيئًا ما فوق ورقة قابعة أمامها..

رؤيتها لعينيه بهية، لقلبه فاتنة..



- تحب أساعدك؟..

جاءه صوت الفتاة العاملة متبسمًا في كياسة قاطعًا لحظة وصاله وشرودها، رفعت رأسها باتجاه الصوت لتصدمها رؤيته، رفع منظاره الشمسي فوق رأسه متعمدًا التقاءها بنظرة خاطفة قبل أن يعود إلى الفتاة بنبرة عالية مرتجلة، وطأت مسامعها جيدًا:

- آآه عايز أشوف فستان..

وتمهل لحظة مستحوذًا على كل حواسها ثم أتبع جملته باستطرادة خبيثة:

- فستان زفاف..

تقدمته الفتاة بدعوة:

- اتفضل معايا يا فندم..



دار للجالسة، أهداها ابتسامة امتزج فيها السحر مع العبث ثم أتبع خطوات الفتاة التي راحت تعرض عليه أحدث الموديلات، لحظات وكانت حاضرة بفتنة تستوجبها اللحظة، صرفت الفتاة وقابلته بالتفاتة القول الحاد:

- ممكن تفهمني بتعمل إيه هنا؟..

دس كفيه داخل جيبي سرواله وبسمته تناوش ثغره بتسليه:

- بالأسلوب ده هتطفشي الزباين..

زوت ما بين حاجبيها باعتراض:

- إنتَ مش زبون..

دنا هامسًا بقرب وخيلاء النبرة:

- عارف إني صاحب مكان..

عادت خطوة للخلف فابتعد ما اقترب في الحال مواجهًا سؤالها المقتضب:



- عايز إيه يا ناصف؟..

بدأ الأمر مرتجلًا والآن أعجبه بجدية:

- فستان فرح..

تغاضت عن المعنى المستتر، سألته في عملية شاملة الفراغ من حوله بنظرة:

- فين العروسة اللي هتختار؟..

تقدم خطوة ينهي شوطًا جديدًا، تخبرها عيناه من قرب ألا مهرب:

- هختار أنا نيابة عن العروسة اللي لسة هتوافق..

اهتز رأسها بغير رضا لكل محاولاته في التأثير عليها، سايرته في خباله:

- طيب افرض مو افقتش هتعمل إيه بالفستان؟..

لاعبها بطرفي الحديث قاصدًا إثارة حنقها:



- لا ما أنا أكيد هتجوز في يوم مش هعيش وحداني طول عمري يعني..

ردت تبسمه في تبسم سمج، أفسحت له المجال بخطوتين وذراعٍ دعاه في تحد وفظاظة ناقضت فحوى الكلمات:

- تمام اتفضل حضرتك اختار اللي يعجبك..

أومأ برأسه موافقًا ثم متنقلًا بين الأثواب، يدور برأسه إليها مقيمًا إياها بنظرة ثم يعود إلى تفحصه من جديد تحت أنظارها المتعجبة، لم يأخذ من الوقت غير دقائق حتى أطلق صفيرًا خفيضًا:

- جامد ده..

دار لها مقررًا في الحال بجدية:

- هاخده، عجبني..

قابلت جديته بخفة هازئة:



- إنتَ عارف ده بكام؟..

- كام؟..

- عشرة..

- جنيه؟..

- لا آلاف يا خفيف..

حك مؤخرة رأسه في تفكير لم يطل حتى تبسم بمزاج رائق:

- تمام هاخده..

اقتربت من وقوفه، تنهره وتسأله في آن:

- ناصف إنتَ بتتكلم جد؟..

- جدًا والله..

اغتاظت من تبسمه السخيف، إصراره الخانق ونظرته الجامعة لكل ايحاءات العالم بتأكيد أنها له، لم تكبح انفعالها وحنقها، استحق توريطة كهذه:



- طالما كده، تعالى ادفع بقى..

وصلت مكتبها، دارت برأسها تناظره في أنفة وتشهر سبابتها في وجهه بقول مغيظ، طاردة حالها من الصورة التي يؤاطرها داخلها بإصرار:

- لو الفستان ماعجبش العروسة مش هيرجع..

تبسم لها دون جواب رافعًا أمام وجهها بطاقته المصرفية بين السبابة والوسطى، أخفضت بصرها نحوها ثم عادت إليه بقسمات لا تشي بمزاح أو ضيقها السابق:

- كفاية لعب عيال يا ناصف وامشي من فضلك..

"مبروك يا فندم.."

تركت الفتاة الثوب المغلف فوق المقعد المجاور لوقفتهما وتحركت تاركة إياه يسألها:

- معاكِ قلم؟..



لم يمنحها الوقت لتعِ مطلبه العجيب، مر من جانبها ملتقطًا قلمها المتروك فوق سطح المكتب وتحرك ناحية الثوب، فتح سحاب المغلف ليلتقِ بياضه وتطريزات صدره، قلب جزءًا صغيرًا وخط شيئًا ما تحت ناظريها ثم عاد لها رافعًا البطاقة للمرة التالية بتصميم:

- اتكتب على اسمها خلاص..

خفق قلبها بشدة، هربت من عينيه المراقبتين لارتباكها في تلذذ وأصوات الزبائن تحتشد بقرب، مدت يدها تأخذ البطاقة تدحر اصراره الغبي، أنهت عملية الشراء وعادت له بها، أمسك البطاقة بيد وقبض على كفها الراكن إلى جانبها بيده الأخرى، حاولت تخليصها لكن قبضته كانت أشد وأسر عينيه ألعن سبيل:

- مبروك عليكِ..



اهتزت حدقتيها يمنةً ويسرةً متوجسة خفية من لفت الأنظار بينما تعثر أنفاسها القريبة يكشف له مدى تأثرها وأنه أخيرًا أحرز هدفًا في شباكها العنيدة:

- إنتَ مجنون رسمي..

لو كانت غازلته ما كان تبسم بحلاوة أسبت قلبها في غنيمة حرب وحده قائدها كما فعل الآن:

- مستنيكِ في المطعم اللي بتحبيه، عارفة لو ماجتيش هعمل فيكِ إيه؟..

ترك جملته معلقة وابتعد محررًا كفها وأنفاسها من هيمنة حضوره الطاغي، وضع منظار الشمس خاصته وأشار لها بوداع مغادرًا المكان تاركًا عبق عطره عالقًا بأنفها وثوبه إلى جوارها..

تحركت بفضول ناحية الثوب، فتشت عما خط بيده حتى وجدته فوق طبقته السفلى..

(خاص بالسيدة عبلة الشيمي، حرمنا المصون)



قرأتها بصوته وابتسامته المغيظة بإصرار صاحبها، دفعت الأحرف الصغيرة ثغرها ليفترق في تبسم صادق منبعه الفؤاد، تبسم سرعان ما تلاشى مع رنين هاتفها المحمول حاملًا اسم زوجها الذي نسيت موعده في خضم حضور الآخر..

رجل ورجل..

الاثنان في انتظارها..

في غمار عقل وقلب أيهما المنتصر؟!



لست بحاجة دافع يسقطك بنهر الخطيئة، سلم مقاليد نفسك لشيطان مريد وأنظر إلى خرابها..

- في مصلحة مستعجلة..

قالها صاحبه الساحب لكل جريرة، شيطانه المريد المزين لكل جرم تسوقه إليه نفسه بذرائعها الواهية..



ألقى بجسده فوق المقعد المقابل للجالس بأريحية داخل المقهى الخاص فيه، رافعًا ساقيه فوق خشب المكتب في تقاطع، نفث دخان الأرجيلة في تبخر مدروس قبل أن يدور له رأسه وعينين ثاقبتي النظر بقول تمخض فيه الملل:

- انزل من على وداني يا سعد، قلت لك بطلت..

والمارد اللعين يعرف كل مداخله، يتسلل له من حيث ثغرات النفس الباقية بلا معين، يرفس كل موانعه الواهية ويسقطها حطامًا:

- بس ماقلتليش هتسكت مأمون إزاي وتسدد فلوسه..

أشاح له بيده بعدم اكتراث:

- هتدبر..

والآخر يصر في استنكار، يقابله مع الحقيقة التي يغفل عنها بعدم اكتراث مفتعل:



- هتدبر منين يا عزيز؟ من إيراد الكافيه اللي مش مكفيك مصاريف لآخر الشهر، فوق يا بني من العبط بتاعك ده لقمة طرية بلاش ترفسها..

خبط أنبوب الأرجلية فوق سطح المكتب في حدة وانفعال لم يتوان بصبهم فوق رأس الصديق:

- بقولك بيتي هيتخرب..

- وأما تتسجن هيتصلح يعني؟..

لم يصمت، استطرد بحدة تناسب القول مذكرًا إياه بما يتناساه ويهون من شأنه:

- مأمون جايب آخره وأنا مسكته بالعافية وحياة عيالي، وبعدين دول خمسين ألف الباقيين يا عزيز مش حوار، خلصهم وعايز تشتري خاطر المدام وتبطل براحتك..

حرك مبسم الأنبوب بينهما في إقرار ساخر:



- المدام لو عرفت إني قاعد معاك دلوقت هتولع فيك وفيَّ..

امتعض"سعد" من موقف المرأة المبالغ فيه بر أيه:

- هو في تار بايت بيني وبين الدكتورة و أنا ماعرفش، مش طايقه أمي ليه؟..

صنع"عزيز" دائرة وهمية حول وجهه:

- هي سحنة أمك متطاقش إن جيت للحق..

أخبره"سعد" في عجالة من أمره عائدًا به حيث لاوع وترك الحديث معلقًا:

- يا بني خلصني الزبونة مستعجلة..

أغمض عينيه يستجديه بهوان عزيمة أن يفارقه:

- ورحمة أبويا يا سعد لتعتقني..

ليس اليوم، ليس اللحظة:

- سيبك من هري النسوان ده وركز معايا، زبونة عبيطة اقنعتها وهتدفع عشر آلاف مرة واحدة، هااا قلت إيه؟..

والسكوت أحيانًا ليس برضا

إنما خَورو اِنسياق أمام ما تريده النفس وترغب.



حين توقعنا الحياة بين خيارين كلاهما سوء..

ماذا نفعل؟..

نختار الأسوأ المحتمل، هذا كان دربه المختار، أسوأ محتمل أفضل من عاقبة غير محتملة..

لكن ما ظنه لم يجئْ بقدر ظنونه..

أيام الغربة لا تمر بأيسر الأحوال، ومع تعسرها زاد عبئها، حتى صار يدفعها دفعًا ولا تمضي..



العمل، مسئولية الأولاد والبيت كلها سقطت على عاتقه ورأسها العنيد لا يلين، فكر أنها سوف تهرع إليهم ما إن يرحل بالصغار، هذا ما أكده له ابن العم وصدقه بيقين منه، فقط تعود وعندها كان سيعمل على رأب ما بينهما من صدع ويصلح ما أفسده بنفسه..

لكن؛ ما خطط له لم يحدث حتى الآن..

غادر عمله باكرًا لأجل موعد مع مديرة المدرسة، تشكو حال ابنته، خمول وكسل وعدم مبالاة في دراستها والنشاطات المدرسية، طوال طريق العودة وهو يعاتبها، يحتد حينًا ويسيطر حينًا آخر وهي ثابتة على صمتها برأس منكس..

في المساء يجتمعون بها في القارة الأخرى، ينهون واجباتهم المدرسية معها، تلاطف وتزعق وتقرر العقاب كأنها حاضرة، يقصان عليها تفاصيل يومهم الصغيرة، مأكلهم ومشربهم وحالهم مع المدرسة الجديدة والأصدقاء، يثرثرون بساعات ولا



يفوتون تفصيلة، لم يتوقف سيل الأسئلة عن غيابها وموعد حضورها حتى أخبرتهم بحزم..

(حبايبي في مشكلة بيني وبين بابا لازم تتحل الأول عشان نعرف نكون مع بعض زي زمان، ولحد ما ده يحصل مش عايزاكم تتكلموا تاني في الموضوع عشان ده كلام كبار، اتفقنا؟..)

مؤكد لن تخبرهم أنها وأبوهم لم يتحدثا منذ رحيلهم، وأن مابينهما من وضع خرب يحتاج لديباجات حتى ترتق ما بينهما من ثُلمات..

وضع طفلتها اليوم ليس على مايرام، لم يكن هذا ليفوتها، جعلتها تحت مجهر مراقبتها من خلف الشاشة بينما تحادثها وشقيقها سوية:

- ماقولتوش أكلتوا إيه النهادرة؟..

قفز"عمر" بحماس آخذًا بناصية الحديث ملقيًا بالقلم من بين يديه:



- طنط مايا جابت لنا بيتزا تجنن يا مامي..

طرقت الكلمات مسامعها بغير استيعاب، سألت الصغير في استهجان:

- طنط مايا مين يا حبيبي؟..

حماس"عمر" لا يفتر:

- طنط مايا في الشقة اللي قصادنا..

أجلت أمر الجارة الذي طرق مسامعها لأول مرة لحين، وجهت جل تركيزها مع صمت ابنتها الحزين، أخبرت الصغير بلطافة:

- موري، ممكن تدخل أوضتك تكمل الهوم ورك، عايزه أقول لسنا حاجة خاصة بالبنات..

أطاعها الصغير في الحال، مع أول سؤال منها عن حالها انفجرت الابنة باكية، تشكو لها حالها وتشكو زعيقه بنهنهات متقطعة، استمعت لها حتى انتهت ثم حاولت ترضيتها وتطييب خاطرها



ببضع كلمات مع تأكيد النظر ومراجعة مستواها الدراسي في وقت لاحق..

من جوار خفي ظل مراقبًا للمحادثة القائمة حتى شعر بصغيرته أفرغت كل ما في جعبتها، اقترب منها، مسح عن رأسها بحنو وحدثها بقول خافت:

- سيبيني مع ماما لوحدنا يا سنا..

كفكفت الصغيرة دمعاتها وغادرت المكان بصمت، جلس أمام الشاشة يقابل الوجه المشحون والذي ما لبث حتى انفجر فيه:

- أتمنى تكون مبسوط دلوقتي..

طالعها والإرهاق يقيم حدوده من حول عينيه، خلع منظاره الطبي ماسحًا عن وجهه وبين عينيه قبل أن يحدثها بهدوء النبرة:

- مش مبسوط يا نادية ومحتاج لك أنا والولاد..



كلماته زادت من حنقها، تضرج وجهها باحمرار الغضب:

- مش عملت اللي عايزه؟ اشرب بقى..

يقتلها شوقها لأطفالها، لكنها لن تستسلم، لن ترفع رايات الشوق، لتراه أولًا ينال نتيجة مسعاه، عقابه المستحق هو ما يكابده وما تراه واضحًا فوق صفحة وجهه..

سألها بحنق مكبوت:

- ما زهقتيش؟..

سخرت بنبرة و ابتسامة:

- اوعى تفكر إنك هتصعب عليَّ، إنتَ تستاهل ده يا بكر و أكتر..

اتسعت ابتسامتها لتزيد من وطأة شعوره بالغضب مردفة:

- وبمناسبة كلامنا لأول مرة من فترة طويلة أحب أقولك: إني بكرهك ومش طايقة أشوف وشك..

وقُطع الاتصال!





عقد جديد ذيله باسمه..

ترك كل مخاوفه جانبًا وقبض الثمن، أمام المال تنحني أعتى القامات، ما المعضلة في توقيع وليلة واحدة تمنحه ما يقوم بجنيه على مدار ثلاثة أشهر؟!..

ملعون هو حتى الأبد لو أضاع الفرصة المستحقة من بين يديه..

منزل الصديق دائمًا وأبدًا مكمن خلوة مباح وجاهز لإتمام الليلة وبلوغ كل أركان الإتفاق، سار خطواته الفاصلة بين الباب الرئيسي وباب غرفة النوم بشيء من آلية، عروس الليلة لايظن أنها بحاجة وقت، فحاجب الحياء مرفوع تحت عباءة سوداء لامرأة جاءت تزوج نفسها وتضع شروطها..

على ذات هيئتها وجدها، فقط أرخت زمام وشاحها فتهدل حول وجهها بفوضاوية، تحتل طرف الأريكة الموضوعة بالغرفة في أريحية جلوس وفمها يطحن العلكة في تلكؤ واضح، احتل



الطرف الآخر في جلسة تماثل خاصتها بصمت مطبق، منح صدره براح النفس بفك قيد أول زرين من قميصه تحت نظراتها الملتهمة لكل تفصيلة فيه.. هتفت عقب لحظات قليلة ببحة رفيعة ميزت صوتها:

- ده إنتَ كسيب يابن الإيه، الليلة الواحدة بعشرة، يعني امممم تعملك بتاع كام في الشهر؟..

ندت عنه ضحكة جانبية قتلها في مهدها، بالطبع لن يخبرها أنها ضحية صديقه الماكر، شعر بها تختصر ما بينهما من مسافة، تحط بكفها فوق كتفه وتشد عليه ببطء مغناج:

- بس بصراحة مش خسارة فيك..

أبعد يدها عن كتفه في فظاظة ناسبت امتعاض قسماته:

- هو في إيه..

- كل خير يا أخويا..



واستطردت بضحكة مفضوحة مضمونها وقاحة، افتعالها المبالغ فيه وجوع عينيها الذي يطوقه برغبة امرأة في رجل دفعه ليسأل:

- أنتِ متأكدة إنك عايزة ترجعي لجوزك؟..

ضربت كتفه بكتفها في محاولة اغواء مبتذل تشبه الحياة التي تعرفها وجاءت من سلالتها:

- قبل ما أشوفك آه..

- ده أنتِ باين عليكِ حكاية..

زاغ بصرها ويداها في بداية شرح وعلكتها لا تتعطل في مسيرة فمها:

- بص هقولك، سيد بعد ماطلقني التلات طلقات اتجوز صاحبتي و خلف منها عيلين، بقاله فترة بقى رجع يحوم حواليا زي الكلب، آل إيه أشواقه القديمة صحيت، طلب يردني لذمته وأنا و افقت مش عشان سواد عيونه طبعًا لكن لأجل ما



أقهرعديمة الأصل مراته، نويت لها نية سودة بس المأذون قال لا يجوز، حد ابن حلال بقى دلني على صاحبك المحامي أبو دم ساقع ده..

حينما انتهت علق ببساطة أسلوبها وتدنيه:

- إيه الحكاية القذرة دي..

مالت عليه بفكاهة ضحكة وقول:

- غدر الصحاب يعمل أكتر من كده، آلا اسمك إيه عشان نسيت، أنا صفية وبيدلعوني صافي..

- آلا احنا هنتصاحب ولا نخلص ليلتنا المش فايته دي يا صفية؟..

- طالعة من بوقك سكررر، بس مالك قافش ليه، تحب أرقص لك عشان تفك؟..

حاول إزاحة ثقل جسدها المائل عليه بتمتمة هازئة:



- مالوش لزوم تتعبي نفسك..

شهقت بامتعاض:

- بشوقك..

وتابعت عقب نهوض متمهل:

- خمسة وراجعة لك..

غادرت الغرفة لبضع دقائق، حين عادت كانت أخرى بخصلات قاتمة لامست ردفيها، جسد في امتلائه فتنة وانحناءاته بداعة،وجهها الصغير استدار بجاذبية سمار وصبغة شفتيها حمرة ملفتة لكل نظر، وقفت أمامه تستعرض جسدها البض داخل ثوب قصير التصق بحناياها، تدعوه في صراحة للاقتراب وقد نالت الرضا من نظرة عينيه وتعثر أنفاسه، نهض يوازيها بالتحام بين جسد وجسد ورغبة متبادلة:

- أهو كده نقول صافي..



لا يعلم من ابتدأ في وصال الآخر، لكن كلاهما انتفضا من سكرة البداية على طرقات قوية تضرب الباب الرئيسي، طوقها بنظرة مستغربة وتحرك باتجاه الباب مغلقًا بعضًا من أزرار قميصه المفتوح على آخره، وجد في وجهه إعصار صارخ بالمفاجاة التي لم يحسب لها حساب:

- اخلع بسرعة مراتي و أبويا جايين بأمي عيانه من البلد وعلى وصول..

سبه"عزيز" في اغتياظ وزعيق مقلقلًا ثبات نفسه:

- الله يحرقك، لو أبوك شافني هيفضحني عند أعمامي وكل اللي يعرفني..

ولول"سعد" على حاله:

- ويفضحني معاك، اخلص خدها وامشي..

طحن انفعاله بين الضروس:



- أخدها فين الساعة دي، أنت عارف أقرب أوتيل فين وبعدين افرض حد شافها معايا أقولهم إيه، مراتي!..

- خلاص مشيها..

جاء الرد مع الوقفة المحتجة من بين الإطار الخشبي لباب غرفة النوم:

- نعم، نعم!!.. أنا دافعه فلوس يا عينيا، ده أنا أروح فيكم في داهية..

جذبه "سعد" من ياقة قميصه ليدنو منه قسرًا، هامسًا بتنبيه خطير:

- دي بقى هتلبسنا مصيبة مش فضيحة، خدها وامشي قبل ما يوصلوا أبوس ايدك..

قفز الحل إلى ذهنه المتقد فتابع مستطرًا بلهوجة أحرف:



- مش بتقول مراتك بايته عند أهلها؟ خلاص تبقى محلولة، إنتَ تاخدها وتطلع على شقتك قريبة خطوة من هنا، ساعتين زمن تخلص الليلة وخليها تغور في داهية..

- شقتي إيه، اتجننت!..

- ده أسرع حل لو عايز تخلص، وبعدين إنتَ خايف من إيه، دي مراتك على سنة الله ورسوله، يعني ماحدش له عندك حاجة!..

أسفل شرفة بيته كانت تتزعزع دواخله كحال الرنين المتواصل فوق أذنه وعبث أصابع السمراء في ياقة قميصه، حين أتاه الصوت الناعس بسلام نفض يد الأخرى عنه مشيرًا لها بسبابته أن تخرس محدثًا امرأته بحنو النبرة عبر الأثير:

- إيه يا حبيبي.. بطمن عليكِ.. لا لا أنا لسه هتأخر شوية.. متقلقيش وارجعي كملي نوم.. وأنتِ من أهل الخير..

أغلق الخط متنفسًا براحة قطعتها الضحكة الرائقة بمياعة:



- ياعيني على الحب وسيرة الحب..

دفعها لتترجل بعجل:

- اخلصي انزلي أنتِ هتغني لي..

أراد التأكد من خلو البيت، لم يكن يدري أن مهاتفته المصبوغة باطمئنان كاذب ستكون السبب في قطع نومتها وصحوها..

ساعة مرت وهي تتقلب فوق جنبيها مرة بعد مرة حتى ملت وزفرت قانطة من عودة النعاس، في النهاية استسلمت بنهوض مودعة الراحة بسلام..

كانت تضبط وضعية وشاحها فوق رأسها حين أتاها وقع خطواته الهادئة الملبية لنداء الفجر القريب، طلت برأسها من باب الحجرة الموارب، هاتفة بهمس خفيض خشية إيقاظ النائمين:

- عبدالله، استنى خدني معاك..



توقفت خطواته في استهجان:

- رايحة فين الساعة دي؟..

حملت حقيبتها فوق كتفها وأخذت تشرع فى انتعال حذائها بينما تجيبه ببساطة كلمات:

- صحيت وماعرفتش أنام تاني، قلت بدال ما الوقت يضيع على الفاضي أروح أخلص شوية حاجات في البيت وكلها ساعتين ونازلة الشغل..

أخذها الشقيق تحت ذراعه وسارا معًا تحت نسمات الفجر الهادئة، قصر مسافة الطريق لم تمنحهما غير خيط ثرثرة رفيع سرعان ما انتهى بهما أمام البيت، قبل أن تودعه أوصته بما يشغل فكرها ويقلقه:

- لو عرفت عبدالرحمن ماله ابقى طمني..

أومئ لها ملبيًا قبل رحيله وصعودها، دست بالمفتاح ليدور المزلاج ببطء، أغلقت الباب من ورائها برفق مراعٍ لذروة النيام



في سكون الفجر، سكون اخترقه ضحكة أنثوية باقتدار آتية من غرفة نومها القريبة، قبضة ما طوقت نابضها و أثقلت سائر الجسد، رفعت قدمًا متصلبًا بعد آخر لتقابل الباب الموارب، بأصابع مرتجفة دفعت به ليصدر أزيزًا خجلًا مما يواريه من خلفه بينما الإضاءة الخافتة تكشف لها حقيقة عُهر نقش تفاصيله وحدوده الفاجرة فوق فراشها المبعثر.



(13)

يولد الحب صغيرًا..

يمضي في طريقه متخبطًا، تائهًا، حتى يستقر في موطنه ومثواه الأخير خلف الضلوع وقد كبر على عهود العشق ومواثيق الغرام..

لم تكن تعلم قبل الآن أن عهودها منقوضة، مواثيقها مكتوبة بحبر كاذب، خادع، وأن ما ظنته شيئًا عظيمًا في الأصل جذوره معطوبة وفاقدٌ لكل أهلية العالمين..

عاش البصر مخاضًا عسيرًا وهو يمر بقطع الثياب الملقاة فوق البساط الوردي المائل عن وضعه ببضع درجات يليه بعثرة فراشها المرتب و..



عيناها المحدقتان في اتساع تتلاحم مع عينيه في لقاء بدا وكأنه ممتد بلا زمن، تزيح من الصورة نصف الجسد المكشوف الكامن أسفله وتكتفي برأسه الملتف إليها بصدمة تماثل خاصتها، كل أبجديات الحروف اختفت من رأسها كأنما لم توجد قط، فقط هناك فراغ يتسع بلا نهاية حتى شعرت بحالها تقف بالعراء ليس بردهة بيتها وفوق عتب غرفة نومها، احتباس أنفاسها صار خناجرًا تطعن رئتيها دون رحمة، منحت حالها النجاة بقطع النظر، التف رأسها أو ارتج إلى الجهة الأخرى، تبتر اللحظة، تبتر الوصل، دوي المفاتيح الساقطة من بين أناملها جاء مثل وخزة معدن تعيد لها ثقبًا من الوعي المضطرب، رفعت قدمًا وراء الآخرى تغادر الحقيقة الماثلة أمام عينيها، تشبثت أصابعها المرتجفة في ظهر المقعد القريب، أنفاسها لاهثة بتسارع أتعب حلقها، بصرها شاخص فوق نقطة فراغ تعيد لها تشكيل ما رأت قبل لحظات في خيالات



وهمية، انتهى بها الحال كتمثال شمع تصله الهمهمات القريبة..

ليست همهمات في مفهومها الصحيح، بل لحظات سقوط من قمة جبل دون سفح يتلقفه، يتعثر في خطواته، في نبشه لثيابه وارتدائها كيفما اتفق، خطواته المثقلة إلى الخارج باندفاع تاركًا من خلفه تلملم حالها وثيابها، التقى بوقوفها القريب المتصلب بأنفاس لاهثة، ما بينهما فجوة بعدها أميال ليس خطوة قدم، بصرها شاخص بعيدًا عنه وبصره يلتقيها دون قدرة على الإتيان بتالي، فقط لفظة صامتة باسمها لم تتجاوز الشفتين، دوى الصوت الدخيل المغتاظ من انتفاضه عنها مثل شيء قذر لوثه ما إن حضر طيف الأخرى، تقطع العجز القائم وتفجر فقاعة الصدمة بسفور ساخر في باطنه وجيعة خيانة تماثل هذه:

- قلبي عندك يا حبيبتي معلش هما كده كلهم صنف خاين..



دارت حدقتا"دهب" المتجمدتان ترمقانها من طرف، بينما تحولت نظراته إليها في اضطرام، وإن كان قد أشعرها بشيء من قذارة قبل حين؛ عاملها بها الآن وذراعاه يدفعان بها إلى الخارج بفظاظة وصياحه يخترق أذنها بأمر:

- اطلعي برا..

أوقفت دفعه بشيءٍ من حدة عند الباب وصياحها يغطي على هتافه العالي:

- طلقني الأول ولا خايف السنيورة تعرف إني مراتك..

عرق جبهته نافر بغضب ويده تفتح الباب دافعة بجسدها إلى الخارج في صياح:

- طالق، طالق بالتلاتة الله يحرقك..

صفع الباب من خلفها وطنين سبابها وألفاظها القذرة تضرب مسامعهما معًا، استدار يواجه الزوجة الرابضة مكانها وكل ما فيها ينطق بفجع تحت ما تبصر وتسمع، اقترب خطواته بأقدام



حافية؛ مثقلة وقد هرب منه كل استهلال، عيناه تتر اقص بتيه قابل ارتجاف حدقتيها وأصابعها القابعة فوق فمها المفغر، في تردد رفع إليها يديه وحروفه راكضة، متلعثمة، منحورة من طرف الحديث:

- هفهمك..

- ما تلمسنيش!..

انتفضت صارخة تقاطعه قبل أن تصلها يداه، تصلبت حركته وتقهقرت خطوته للخلف مع صيحتها التالية التي جاءت تحمل في تهدجها كل اتهام العالم:

- على سريري!..

تذبحها الحروف، تقطع حلقومها وتخرج بنزف روحها، متكسرة، جريحة في صيحة ثالثة وعبرات عرفت طريقها فوق وجنتيها:

- جايب مر اتك بيتي وجوه أوضة نومي..



قاطعها بصياح دوى فوق صوتها:

- مش مراتي..

ثم طفق يدافع، يبرر في محاولة قرب جديدة وبحث عن مداواة مناسبة:

- مابقتش مراتي، طلقتها..

دفعت بيديه عنها والعزم في نبرتها أصابه في مقتل:

- وهتطلقني أنا كمان..

قبض على كتفيها بقوة أصابعه، يوقف حركة أيديها الخرقاء، يهزها بعنف ويجبرها على الاستماع إليه:

- اسمعيني؛ الحكاية مش زي ما أنتِ فاهمة..

حركت رأسها رفضًا، أنفاسها تغص بصدرها في شهقات متكسرة، عيناها تذرف الدمعات بلا توقف تحت ناظريه:

- أسمع إيه تاني بعد اللي شوفته..



داهنها بقول ورجاء حفر تفاصيله فوق قسمات وجهه:

- هقولك الحقيقة، بس أوعديني تفهميني..

خلصت جسدها من بين يديه، محت عبراتها بظهر كفها وصمتت لوقع كلماته المنهمرة من بين شفتيه..

اعترف لها بدينه، حكى لها عن مطالبة صاحب المال وتهديداته، لجوئه إلى عقد زواج مؤقت بثمن، كان مضطرًا، مقهورًا، لا يملك سبيللا..

تنميقه للكلمات لم يمنع الفجع أن يملأ كيانها ويطل عليه من عينيها، كانت تنظر له كأنما تراه لأول مرة، هذا الو اقف قبيلها مهرطقًا بالحديث أبدًا لا تعرفه..

اسدل ستار حديثه المقلم بهمس أبح:

- كنت مضطريا دهب أنا آسف لـ...

قطعت تدفق حروفه بصفعة!..



صفعة لطمت بها وجهه ليصمت، ليوقف سيل الكلمات الساقطة من وحل الخطيئة، صفعته ليفيق من جنونٍ يتلبسه ويصدقه، يصدق أنه مضطر ومحتاج ليلقِ بحاله لمستنقع الآثام والفحش..

واجهت نظراته المتقدة من قعر الجحيم بمرآة الحقيقة لا تلك المزدانة بوهم الخداع في صيحة قهر وأوداجها تنتفخ بسعير ألهب مخها وكل ما فيها:

- آسف على كدبك ولا خيانتك ليا، ولا آسف على قلة شرفك يا عزيز؟..

تقهقرت خطواتها في تعثر، تتطلع إلى يدها التي طالت عليه في غير استيعاب لثوانٍ تعود له بعدها باحثة عن هوية كلماته الغابرة:

- قولي آسف على إيه!..



صفعتها أيقظت إبليس المطرود من جنة النعيم، صرخ في وجهها بكل جحيم يشعل دواخله وسيف يده يضرب منتصف صدره:

- أنتِ مش فاهمة حاجة ولا حاسه بيا..

و أتبع هذا بتأكيد تالي لم تخفت نير انه:

- ماحدش فيكم هيفهمني..

خمدت ثورتها المشتعلة وحاجب الدموع يشوش لها صورته القريبة:

- عايزني أفهم إيه؟..

تهدل كتفيها مع صوتها وسقطا معًا فوق مسرح الخسارة والخيبة:

- أفهم إنك شغال زوج تحت الطلب، إنك كنت نايم في أوضتي مع واحدة في الحرام، هو ده اللي عايزني أفهمه؟!..



- إفهمي إني كنت بعمل ده مضطر، ماكنتش بعمله و أنا طاير من الفرح مثلا، مالقتش سكة تانية وقلت لأ هختاردي..

كلماته ضربت كيانها كله بحقيقة حاضرة، بكشف غطاء الستر عن بغي شاع واستوحش بدنسه في ثنايا رجلها، برقت مآقيها في جنون استوجبه يقين اللحظة:

- كام مرة قلت لنفسك مضطر، كام مرة صدقت شيطانك ومشيت وراه؟..

الإجابة مجهولة ليست لغلبة احصائها بل لكونها أشياء عابرة، منتهية، ربما اعتاد وولّف، لكنها جميعًا لحظات تافهة لم تعلق في وجدانه بشيء..

قتلها صمته، طعنها بالحقيقة المعكوسة في عينيه الخابية، حقيقة أكدها هروبه من النظر إليها، تزاحمت العبرات داخل مآقيها، هطلت مدرارًا في تحسر وأسى ويدها تشير ناحية غرفتها:

- كام مرة وسخت فرشتي؟..



ابتلعت غصة مسننة قسرًا لتردف بنبرة المكلومة:

- كام واحدة خدت في حضنك مكاني!..

تجعد وجهه لوقع الكلمات، شد على ضمة قبضته بعجز وأحرفها المسننة توخز نابضه ألف مرة ومرة، وصل الحديث لحلقه الجاف و انعقد مع لسانه الثقيل، ازدرد لعابه مرة بعد مرة دون فائدة..

ترنحت الكلمات مع حركة يديها أمام صدرها مكمن الخذلان في تحسر أخير غلفه الأسى:

- كنت قولي، عرفني، كنا هنلاقي ألف طريقة غير إنك توسخ نفسك واسمك..

حدثها بصوت ميت، جامد كجسده، متصلب كدمائه الجارية في عروقه:

- كنتِ عايز اني أمد إيديا، هتبقي مبسوطة وراضية؟..



ضحكتها المفتعلة تقطر كمدًا وحرقة، تدحض كل مبرراته المزيفة وتحيلها هباء منثورًا بنفخة واهنة:

- إنتَ اخترت سكة السهل يا حضرة المحامي..

ثم درات على عقبها، تمرر له من فوق كتفها الحقيقة الواضحة بلا زيف:

- اخترت لعنة ربنا ليك في كل وقت..

قالت هذا وجسدها يسقط فوق الأريكة، قواها كلها الداخلية والخارجية تخور معها، تتداعى كتداعي سنين العمر والحلم والأمنيات، كل شيء تهدم و سقط بلحظة، صارت و اقفة في خراب يحيط بها من كل جانب..

من طرفها ظلت تلمح وقوفه المتصلب في صمت، ظل على حاله لوقت حتى تلاشى من أمامها، ترك جسده أسفل المياه المتدفقة لمدة من الزمان، تركها تزيل عنه كل درن علق فيه، كل أثر لكلماتها حرفًا بعد حرف، لكن شيئًا لم يزل، كل شيء عاد



والتصق فيه مع وقوع بصره عليها من جديد، منزوية في جانب الأريكة، عيناها سابحة مع الفراغ والعبرات تنهمر في صمت كبير ابتلع كليهما، في ركنٍ قصي يلمحها فيه ولا يجاورها جلس يكتنفه الصمت مثلها، يريان بعضهما ولا يفعلان، رأسه يعيد شريط الحدث، يوقف دورته طنين كلماتها التي تتدفق وتضرب بيدٍ من حديد، مرآته الساحرة التي تعكس له كل جميل عكست له اليوم حقيقة مخزية، يخجل من النظر إليها..

انقضى بهما النهار على هذا الحال، أوشكت الشمس على المغيب وكلٌّ جالس مكمنه، يحاولان لملمة الشظايا المبعثرة، جمعها وإعادة جبرها، لكن الصورة مليئة بالشروخ، بنزف عينيها وألم أجفانها المتعبة كحال كل ما فيها في هاته اللحظة، فرقت أهدابها المثقلة تقابله من البعيد، تتباحث لدنه عن جواب يرديها سؤاله قتيلةً:

- إزاي هونت عليك!..



تصمت هنيهةً، تبتلع فيها مر السنوات وحلوها ثم تعود إلى رأسه المطرق للأسفل بقول جديد:

- قتلت فرحة عمري اللي اتمنيتها سنين وأما قلت ندمان سامحتك، كل ما زعلي منك يكبر كنت اسكته و أقول لنفسي هو عزيز له مين غيرك!..

رفع لها رأسًا يطالعها من جانبه، بادلت ألم النظرات بتعلق عبرتين ثقيلتين بين أهدابها وذكرى العمر تعصف بها في سكرة روح تناشد الراحة بسكون أبدي:

- عشر سنين من عمري ما بعملش حاجة غير أحبك، عشر سنين و أنا واخدة عهد على نفسي أسعدك و أبقى الزوجة والأم وكل حد ممكن تحتاج له، كان همي أعوضك عن كل خسارة عشتها..

ليس هذا ما كانت تنتظر جنيه، ليس هذا ما تنتمي إليه وينتمي إليها:



- كنت تقولي أنتِ حياتي يا دهب و أنا عبيطة أصدق، صدقت إني ماليه حياتك معرفش أن في غيري واخدين مكاني..

مع آخر كلماتها كان أمامها جاثيًا فوق ركبتيه، يتشبث بكفها بكلتا يديه، تحاول سحبها وتنأى بوجهها جانبًا فيتمسك بها رغمًا عنها ويعيد وجهها إليه، يتقابلان معًا فوق جسر الفراق برمق أخير تمسك فيه كطوق نجاة:

- ولا ستات الدنيا كلها تاخد مكانك..

بدت الأحرف باهتة بلا معنى أمام ما شهدته بعينيها، تصمت وعبراتها لا تصمت، تموت ألف مرة في الثانية الواحدة، تتمتم بروح ذوت وماتت على يديه:

- ليه يا عزيز؟..

لم غدرت وقتلت، طعنت أجمل ما بيننا في منتصف الروح..

تسألها عيناه: الغفران؟..



وتجيب عيناها؛ كيف لها أن تعيد للرفات نبض الحياة!..

- كنت هتسجن، خوفت، شيطاني غلبني طاوعته..

لا يحدثها هي بل قلبها، خليله الذي يعرفه ويشعر به، بحاله في هاته اللحظة، الآثام تثقل كاهله ويريد إزاحتها بأول فصول التوبة:

- غلطي في حقك كبير أنا عارف، بس دي كانت الناهية، اللي حصل قلم فوقني، كل اللي عايزه منك فرصة، فرصة واحدة بس أرجع بيها كل حاجة زي ما كانت..

كلما ابتعد عادت به حيث تربض الحقيقة:

- وحق ربنا فين؟..

- ربنا مش هيردني و أنا رايح له ندمان وطالب توبة..

يتوسلها بحروفه ونبض قلبه، بحاجته إليها، هي التي يرتكز إليها عالمه:



- ربنا بيسامح ويغفريا دهب، ماتقفليش بابك في وشي..

كلماته تمزقها، تحيلها إلى أشلاء مبعثرة، كرامتها التي هان في طرف، كبرياؤها و أنوثتها التي دهس بطرف آخر، الحب والوفاء وبنود الثقة كل معنى من هؤلاء تساقط فوق طرف، تبعثروا جميعًا وتركوا لها القلب يخفق بحماقاته وعشقه الجريح.. تناظره من قرب ويداها المتشنجتان تحيطان به دون مساس، تتمنى ضربه وضمه في اللحظة ذاتها، هتفت فيه بكل غضب العالم، عتبه وضعفه:

- بتعمل في نفسك كده ليه؟!..

سؤال حمل كل مضادات العشق ومفرداته جوابه مفقود، ضائع داخل رأسه الذي مال و استوطن صدرها لينشج فوقه في خفوت لا يصل غيرها، لا يخجل حين تضيق عليه دنياه وتغلق كل أبوابها في وجهه أن يسقط بين ذراعيها بحقيقة ما يشعروما يكون، ولطالما كانت تنجح في إعادته..



لكن هذه المرة لم تستطع تقويمه، بل سقطت معه، كان قلبها ينوح جوار اهتزاز رأسه..

مرت ساعات تاليات بزحف بطيء، لكن بقرب يتشبث فيه هاته المرة، في تسليم أن ما بينهما أكبر من أي انفصام..

ينظر إلى وجهها الذابل، روحها الباهتة، الصمت المريع الذي تلبسته وقد فرغ جوفها من كل الحديث، انتبه إلى الليل الذي قارب على الانتصاف متذكرًا أنه لم ينزل جوفها شيئًا منذ الفجر الراحل، مسح عن وجنتها برفق هامسًا لها بأنه سوف يحضر ما يؤكل ويعود في الحال..

منحها بغيابه حرية النهوض والسير، الوقوف أمام باب غرفتها والتطلع إلى داخلها ببصر زائغ، كان أمامها دقائق فقط لتقرر إذا ما كانت ستطوي الصفحة وتعود إلى جلوسها السابق تستقبل عودته وتمنحه حقيقة الفرصة التي ظن أنه نالها



بصمتها، أم تحفظ ما تبقى لديها من احترامها لذاتها وترحل قبل عودته..

طريقان كلاهما وعر، كلاهما يحمل فوق جانبيه الخسارة..

الفراغ الذي قابله حين عودته أخبره أنها اختارت ذاتها هذه المرة..

أقدامها المهرولة فوق قارعة الطريق في منتصف ليل والعبرات التي ظنتها نضبت تشاركها المسير عرفتا أن ما يريده منها يفوق تحملها..

قرعها المتواصل لجرس الباب والمنتهي بها بين أهلها المفجوعين لمرآها في هذا الحال في مثل هذه الساعة يعني أنها امرأة مهزومة في كل معاركها بلا استثناء..

بصرها الزائغ بتيه، تكسر شهقاتها ونشيج حروفها المقابل لأبيها بقرار..

"طلقني منه!.."



يعني أنها إنسان؛ ليست بإله يملك مقاليد العفو والغفران.



في رواية غير عادلة فاقدة لكل معاني الحياة؛ كان له فيها دور البطولة..

رواية كل أركانها مبتورة، الطفولة والصبا وحتى الشباب..

في روايته تلك المكتوبة بحبر القهر أرادت أن تنال فتاة جميلة على دور البطولة، أن تصنع له إكسير الحياة يعيد روحه الضامرة إلى دنيا العيش و الخلود..

تضفي على بهوت الأيام ورتابتها المملة شيئًا من حيوية، تشرق ابتسامتها مع شمس كل صباح، يراها تطوف بين أركان البيت، ترتب هذه وتنظف تلك، تضفي لمساتها على كل ما تطاله أناملها، تألف البيت رغمًا عن نفسها، رغم يقينه بكونها لا تحبه..



تمارس دورها الذي اختاره بكل إتقان، بمواعيد محددة هو من وضعها، تتبعه إلى القبو، تتابع حالة سجينه بعملية طبيب، تحقن وريدًا أو تلقمه بضع أقراص، تجاهد في الاعتياد والتقبل لأجله، لا تفوت عينيها فرصة حتى تخبره بهذا..

تهتم بشئونه الخاصة، تسأل عن طعامه وشرابه، حتى خزانة ملابسه تعيد ترتيبها كل حين..

تبحث معه عن بساط حديث، تحشو الفراغ بينهما بثرثرة يمنحها أحيانًا أجوبتها وأخريات كثر يتركها معلقة بلا قول فقط نظرة عين، الغريب أنها تقبل بهذا الفتات وتحيا بأمل أن تكتب بيدها خاتمة سعيدة لروايته البائسة.

بمقر الشركة الرئيسي، خلف مكتبه جالسًا فى وضع مسترخي، ينال لحظات من هدنة عقب ساعات من العمل المتواصل، رأسه للوراء محدقًا في السقف بلا معنى، طرقات خافتة فوق



خشب الباب جذبت انتباهه، قبل أن يأذن بالدخول كان الباب ينفتح بالفعل وتطل عليه بوجه باسم..

اعتدل مع دخولها مطلقًا نظرات مستهجنة، أعادت غلق الباب برفق من خلفها وخصته بتحيتها الخافتة، حدجها بغرابة وعدم فهم بينما تتوسط حجرة مكتبه، تنقل بصرها هنا وهناك في استكشاف ثم تعود لجمود نظراته بتعليق بديهي:

- مكتبك حلو قوي..

هضمت انفعاله الصامت بعسر مردفة بتوضيح سريع لحضورها تاركة حمولة يدها فوق المنضدة الواطئة بارتباك:

- أصل عم إبراهيم بنته بتولد وأنا قلت له ماتجيش خليك معاها، وفكرت يعني إننا نروح سوا أما تخلص شغل..

ازدردت لعابها في ارتباك مضاعف تحت وقع نظراته المسلطة عليها ويدها تشاركها الشرح:



- جايبة معايا أكل عشان جعانة قوي الصراحة و عملت حسابك، هو أنا ممكن أقعد!..

أتبعت ختام حديثها بإشارة متعثرة وجلوس فوق الأريكة الجلدية من ورائها، تتنفس بصعوبة وكل سباب العالم يجتمع برأسها لأجلها، تبدو كالحمقاء وهي تلضم خيط الكلمة وراء الكلمة حتى تخلق سببًا وجيهًا لوجودها هنا بمحل عمله عوضًا عن أخذ أي عربة أجرة والعودة ببساطة..

نهض في كياسة رافقت خطواته حتى انتهى مرتكزًا على حافةالمكتب، دس بكفيه داخل جيبي سرواله فيما تقاطع ساقيه بوقوف، يخضعها لاختبار النظر بصمته المريع ويشهد تحول انفعالات وجهها، رحمها بقطع اللحظة حين أخرج يسراه، طالع ساعة يده لثوان ثم ختم المسألة بقوله العملي:

- عندي اجتماع كمان نص ساعة وفي الغالب هيطول، ممكن نشوف حد يوصلك البيت..



كأنما أسقط أحدهم فوق رأسها دلوًا من الماء البارد، طفق الضيق والحرج فوق صفحة وجهها في الحال، تمنت لو أن الأرض تنشق في هاته اللحظة وتبتلعها للأبد، هرب بصرها جانبًا فلم تر زفرة صدره الصامتة ولا طرفة عينه المتبوعين باستطرادته المضطرة لترميم قوله السابق:

- إنما لو مش هيضايقك الانتظار، تمام خليكِ مفيش مشكلة..

أعادت كلماته التالية ماء الوجه، أشرقت بتبسم مفضوح هربت منه بسؤال أحمق مشيرةً للزاوية:

- هو ده التواليت؟..

اختفت داخل المساحة الصغيرة لدقائق، رشقت الماء البارد فوق وجهها وغسلت يديها، تنفست بعمق عدة مرات مهدئة من توترها وحرارة وجنتيها المنبعثة، طالعت وجهها بالمرآة، حاولت ضبط ملامحها ثم خرجت، تزامن رجوعها مع ولوج مديرة مكتبه، تتقدم حاملة مشروبًا غازيًا لأجلها وقدح قهوة يخصه،



تركت الفتاة ما بيدها أعلى المنضدة جوار الطعام وعادت بجذعها ترحب بها:

- منورانا يا فندم، أنا أمل مديرة مكتب أسمر بيه..

قابلتها بابتسامة جذابة ويدها تمتد بمصافحة ودودة:

- أهلا بيكِ يا أمل، أنا مريم..

- غنية عن التعريف يا دكتور..

قابلت الفتاة بشاشتها وتباسطها الودود بآخر قبل أن تومىء لهما بمغادرة..

شكرته لأجل المشروب و شرعت في بدء الطعام بجوع صادق، دنا هو حاملًا قهوته ثم عاد إلى مكتبه القريب متناولًا ملفًا ورقيًا من فوق سطحه، توقف بالمنتصف، يقلب أوراقه ويغيب مع العمل، لحظات وفتح الباب بغتة بلا طرق:

- بقولك إيه، إيه رأيك لو عرضنا عليهم.. مريم!..



بتر والده الحديث مع رؤيتها، تقدم مهللًا بحضورها فنهضت تاركة ما بيدها ماسحة عن فمها بالمحرمة الورقية، تتلقى سلامه وترحيبه الحار، يحادثها بلطافة ويدها مازالت في يده:

- إيه المفاجأة الحلوة دي..

مال بصره ناحية الطعام وعاد لها مردفًا في مرح:

- اوعي تكونى مش عاملة حسابي؟..

- لا إزاي، اتفضل طبعًا..

جلس وجاورته، أخرجت نصيب زوجها الذي لم يهتم بتناوله، جهزته وناولته إياه، بدأ الرجل في التهام الشطيرة مخبرًا إياها في وداد:

- شوفي أنا بقالي قد إيه متجوز؛ عمر ليلى ما عملت الحركة دي معايا..



ونظر إلى الواقف متظاهرًا بالعمل بينما حواسه كانت تتلصص عليهم:

- أيوه يا عم، محظوظ إنتَ..

لم يعلق، اكتفى بصمته بينما ابتسامتها هي كانت تتسع، تحب هذا الرجل وتحب بساطته ولطفه الكبير الذي يعاملها فيه، تجاذب معها أطراف الحديث بثرثرة متتالية جمعت أقطاب الكلام من المشرق للمغرب دون ترابط انتهى به حيث أمها وفنها الذي تبدع فيه:

- مش هنسى طبق الملوخية اللي أكلته من ايدين والدتك، مادقتهاش بالطعامة دي من بعد وفاة أمي الله يرحمها..

هتفت دون تفكير:

- ده أنا اعملهالك مخصوص، على فكرة بعملها زي ماما بالظبط بشهادة بابا..

- لا بقى أدوق بعدها أحكم..



- خلاص اتفقنا..

قالتها ضاحكة بخفوت لكنه كان جادًا ليحدد لها الزمان والمكان دون انتظار:

- بكرة أنا وليلى هنتعشى عندكم، أنا خلاص عزمت نفسي على ملوخية من إيديكِ ..

ارتبكت للحظات، تحرك بصرها ناحية الواقف المتابع لحديثهما الدائر بصمت لتجد عينيه في انتظارها مما زاد من ارتباكها، قطع وصل أعينهما إردافة"رشدي" التالية:

- بتبصي له ليه؟ احنا هناخد منه الإذن ولا إيه..

تحرك" أسمر" مقتربًا من جلوسهما بتعليق:

- العفو يا باشا؛ أهلا بيك في أي وقت..

حدجها بنظرة صامتة ثم عاد إليه يذكره بموعد الاجتماع الذي حضر، نهض ضاربًا كتفه بحماسة محدثًا الجالسة:



- هاخده منك شوية عشان ده اجتماع مهم..

غادروها وطفقت تفكر مثل زوجة أصيلة في مائدة ترضي حمويها، نهضت تفتش عن قلمٍ وورقة تدون بهما ما تحتاج من أغراض، وجدت ضالتها فوق مكتبه، أخذتهما وعادت إلى جلوسها الأول، كلما تذكرت جديدًا راحت تكتبه..

مضى الوقت بزحف بطيء أثقل رأسها وناوشها بنعاس، أنقذها من السقوط في غفوته عودته ودخوله المباغت فنهضت تلملم حالها وتتبعه برحيل..

الورقة بيدها، للمرة الألف تعيد قرائتها محاولة التذكر إن كان شيئًا ما ينقصها، التفتت له بغتةً تخبره وتذكره في آن:

- احنا هنعدي على السوق نجيب ملوخية..

حرك رأسه بلا معنى وأخبرها بلا اكتراث أو نظر:

- كلمي السوبر ماركت يبعت لك اللي عايزاه..



تحفز جسدها في جلوسه باعتراض:

- لا طبعًا الملوخية لازم تكون بلدي و مورقة..

ردد من خلفها في استنكار:

- مورقة!..

همهمت مو افقة ولم تمهله الفرصة، أشارت له عند المفترق القادم بعجالة:

- دخلة السوق اهي، استناني خمسة بس..

أوصل لها زفرته القوية لتعرف أن صبره أوشك على النفاذ بينما يصف السيارة جانبًا، ترجلت سريعًا وغابت لعشرين دقيقة، عادت بعدها وبين ذراعيها النبات المورق..

باتت ليلتها تعمل وتحضر، في المساء التالي كانت مائدتها جاهزة ومرضية لعينيها الباسمة، استقبلتهما في حفاوة، أشاد حموها



بلذاذة كل قضمة وناكف الرجل ذو النفس الذواقة ولده الصامت:

- مش تقولي يا بني إنتَ إن عندنا شيف عظيمة كده..

قلب بصره بينها و أبيه، لم يجد التعليق المناسب فاكتفى بحركة كتفين بلا معنى صدها الآخر بإشاحة كف محدثًا إياها:

- أنتِ تسيبك منه وتيجي تعيشي معايا، احنا ناس بتفهم في الأكل زي بعض..

كانت ليلة مميزة، زوج و زوجة يستقبلان أهله، تمضي الدقائق في ثرثرة عائلية، يعاونها في رفع الأطباق، ويشاركها الجلوس فوق أريكة واحدة متبادلًا معهم أطراف الحديث، هذه التفاصيل الحميمية أحبت أن تعيشها، هذا النمط المعتاد للحياة جل أحلامها وأمانيها..

راحت تلملم فوضى السهرة عقب رحيل ضيوفها، تعيد ترتيب مطبخها وتنضيف أوانيه، أخذت وقتًا طويلًا تعبت له أقدامها



وتصلب ظهرها مع الكتفين، لكن لم يكن لهذا أن يعكر صفو السعادة التي تفيض فوق القسمات..

- المفروض كنتِ تقبلي حد يساعدك..

زاحمها بوقوف أمام ماكينة القهوة، يعد لنفسه قدحًا جديدًا ويخبرها بعد رؤيته لكل هذا العمل الذي تغرق حالها فيه، جففت يديها ودارت تخبره ببساطة:

- بحب أعمل كل حاجة بنفسي و أنا أصلًا بحب شغل البيت والمطبخ تحديدًا..

تمتم بخفوت:

- شخصية عنيدة..

دار مغادرًا وقد جهز قدحه، وقفت تعترض طريقه في المساحة الضيقة، ترد تمتمته في زهو:

- دماغي ناشفة فعلًا، بابا طول عمره يقولي كده..



قلصت المسافة بينهما بخطوة واستطرادة تالية أقل خفوتًا بتبسم لا يزول:

- وده بيخليني أوصل للي عايزاه..

وصله مبتغى حروفها، بادلها النظر للحظات تحدث بعدها بصوت بعيد وقسماته تأخذ في الانقباض:

- و إيه هو اللي عايزاه وبتحاولي توصلي له؟..

- أنتَ!..

همست بها في الحال بصدق قلبها ويدها التي حطت بها فوق موضع نابضه، بعينيها التي ناشدت بهما خاصته:

- اديني فرصة بس..

تلاحق أنفاسه بحرارة لم يمنعها من المتابعة:



- صحيح ماملكش ليك دواء، ولا قوة سحرية تمحي الماضي بس عندي استعداد أفضل جنبك وأشد على إيدك لحد ما توصل بنفسك لبر سلام..

غامت عيناه بقتامة وذكرى الأمس تتوهج تحت سطوة نبرتها الحانية:

- جرب قربي، أفتح لي قلبك..

تنبش في أشد ذكراه قتامة، تمد يدها تبغي استئصال مركز الألم حتى تلقي به بعيدًا أو تشاركه إياه فيخفف من وطأته، وهو يسخر من محاولاتها بضحكة مبتورة في ظلها مرارة:

- هاتقدري تسمعي؟..

- لو قدرت تتكلم..

تهمس بها في أمل ورجاء، فيردها بالقول الجامد ويده تصد قربها وتقيم فراغًا بين الجسدين:

- وبعد ما تعرفي، هتقبلي تكملي حياتك مع راجل حياته مشوهة زي جسمه؟..

التمعت في عينها العبرة لنبرة الألم المصاحبة لحروفه الشحيحة، تسللت يدها تحيط خصره بيد مرتجفة رافقت همسها المتدفق بفيض قلبها وقربها:

- في عيني هو أجمل راجل..

رأسه المتصلب إلى الجانب عاد لها، يقابلها ليزرع في رأسها الكلمات:

- بلاش تورطي قلبك ومشاعرك في حسبة خسرانه، أنتِ واقفه في المكان الغلط..

يؤكد لها وينصحها أن تسحب أسلحتها وتفر من قلب المعركة الخاسرة، أن تجمد قلبها ونبضه ولا تستهلكه، أن تنحي قائمة المشاعر التي تتفنن في طبخها عن مائدته الباردة..



خلع يدها المتشبثة بخصره متخليًا عن قدحه الذي برد، ظلت ترمق ظله المبتعد متمتمة له دون صوت؛ أن نصيحته جاءت متأخرة..

أنها لم تعد تملك حرية التراجع ونبضها مفقود فوق أرضه و آفاقه.



احتشد الجميع ضدها..

دون ذكر أسباب قرارها لن يؤخذ به، يرى الجميع أن كل كسر قابلٌ للجبر، أن ما بينها وابن العم يستحق فرصة واثنين وثلاث، تتخبط أمها من حولها حائرة، حزينة عليها ولأجلها، تحاول بجهل رأب صدع ابنتها التي تنطوي على حالها داخل غرفتها القديمة، قاطعة الزاد والرغبة في الحياة، تغرق بنهر مدامعها التي لا تنضب، كانت تذوب أمام عينيها في صمت قاتل، تقترب مهددة روحها، تذكرها بمقام وقدر الذي تبغي فراقه،



تصحي فيها ذكرى الأيام الخوالي بقلب أم لا تريد لابنتها غير صلاح الحال..

تبتر انهمار الكلمات بأنصالها الحادة بهمس واحد جريح:

- ما توجعيش قلبي يا ماما..

- ما أنتِ واجعة قلب أمك يا دهب..

تغمغم بها في قلة حيلة وتغادر جوارها تاركة شقيقها يستكمل وصلة أمه، هو لا يصدق أن هذا ما تريده، يدنو منها، يتوسلها أن تخبره بما يجيش في صدرها وهو كفيل بجبره والبقية:

- دهب كل حاجة ممكن تتصلح، عزيز مستعد يعمل اللي يرضيكي، هو بنفسه قالي كده..

ترمق شقيقها للحظات، تبلل جفاف شفتيها بطرف اللسان محاولة كبح تهدج النبرة فلا تستطيع:

- أنا عايزه أطلق يا عبدالرحمن، قول له يطلقني..



يصمت الشقيق، لا يجد ما يقول وقد نفذت كل محاولاته، و لا يعرف أي صواب عليه أن يتبعه..

الشقيق الآخر يتخذ أمام الوضع مقعد المتفرج الصامت كأبيه، ينتظران اللحظة الحاسمة التي تستوجب تدخلهم، كان و اقفًا داخل إطار باب حجرتها مكتفًا ساعديه فوق صدره، يستمع لحديث توأمه وردها الوحيد الذي لا تملك غيره منذ جاءت قبل ثلاث ليالٍ بحالٍ غير الحال، اقترب يجاورها عقب نهوض أخيه، يزفر في هم يماثل ما ينوء قلبها بحمله، تمر دقائق صمت قبل أن يحدثها بخفوت لا يصل غيرهما:

- أنا على عكسهم مش عايز أعرف حاجة..

لأنه يدرك تمامًا؛ ما أوصل شقيقته لهذا الحال أمر جلل، معرفته ستحطم أشياء لن يصلح جبرها فيما بعد، يضم روحها الهشة المترنحة من سكرات الألم بذراع وهمس أخير ذاب فوق خصلاتها، ونشيجها فوق كتفه:



- هتلاقيني في ضهرك ومعاكِ مع أي قرار يريحك..

ليس من حولها فقط من كانوا يحاولون إجهاض قرارها، من فوقها كان هو؛ يسخر كله قوته وما يملك يمينه ليظفر بعودتها في حرب لا يسانده فيها غير واحد من أشقائها، يزرع الردهة المتوسطة ذهابًا وإيابًا، فوق أذنه قبع هاتفه، يستمع لأخيها الذي لم يأتِ بجديد، مازالت تردد نفس مطلبها، أنهى الاتصال ضاربًا بالهاتف بكل قوته وغضبه إلى المقعد الوثير، يدور حول شتات نفسه بلا هدف، يسأل جليسته الحل بقيود من نار تلتف حول أطرافه:

- وبعدين..

أكل رأسها..

يقف فوقها كالطير، يضربها بمنقاره بلا هوادة..

أو بكلماته التي أعادها فوق الألف مرة:

- اتصرفي، اتكلمي معاها، اقنعيها..



و"عبلة" الجالسة ترتكز برأسها إلى راحة يدها في ملل تعيد له ديباجة الحديث المكرره بنبرة بان فيها كل عجز:

- أعمل إيه تاني يا عزيز؟ ما أنا حاولت وماعرفتش، مصممة على الطلاق..

يصيح فيها بانفعال من وقوفه المتحفز المشحون:

- اتصرفي يا عبلة..

نهضت عن جلوسها نافخة بضجر، رأسها يعج بألف قصة وقصة، زوج يصر على لقاء وهي تتذرع كل مرة بحجة ورفض، طبيب برتبة عاشق اتخذ من الهجر مسلكًا بعد أن تجاهلت دعوته، هربت من الجميع لتريح رأسها قليلًا وتعيد ترتيب كل أمورها فجاءت مشكلة أخيها مع زوجته لتقلب البيت كله رأسًا على عقب، لا أحد يفهم شيئًا بينما تتمسك هي بانفصال ويتشبث هو ببقاء..

- فهمني طيب سبب المشكلة جايز أعرف أحلها..



زفراته الضجرة، مسحه لوجهه وهروب بصره عنها دفعها لتضرب كتفه وتسأله بشك بدأ يزحف إلى اليقين وهي خير العارفين بالماثل أمامها:

- مش عارفه ليه شامة ريحة ست في الموضوع، قفشتك مع واحدة صح؟..

لولا أنه بحاجة مساعدتها بالفعل وقد فقد كل أوراقه الرابحة لما كان تمتم لها باعتراف خافت تحت ناظريها واضعًا إياها في قلب الصورة:

- في سريرها..

شهقتها اخترقت السقف تتبعها صيحتها المصدومة:

- يا نهارك أسود، يا نهارك أسود ومنيل!..

زعق بها لتصمت:

- كانت مراتي وطلقتها..



قابلت زعيقه بآخر:

- في سريرها يا متخلف، في سريرها!..

تخبطت خطواتها يمنةً ويسرةً يستسقي عقلها فيها شهد المعرفة، عادت له فاتحة ذراعيها بقساوة و اقع لا مناص عنه:

- ابقى قابلني لو رضيت ترجعلك، أنا دلوقتِ فهمت، دي مش طايقة تسمع اسمك هترجع!..

- أنا بقولك عشان تولولي ولا تتصرفي؟..

رنين هاتفه أوقف دائرة الحديث، تناولته هي لكونها الأقرب، لمحت اسم شقيقها "بكر" ينبض فوق شاشته فدفعت به إليه في عنف ونظراتها تلومه:

- اتفضل شوف هتقول إيه لأخوها..

أطفأ الهاتف دون رد، تخبطت خطو اته الحائرة لمرة أخيرة قبل أن يجلس ويضع رأسه بين يديه في انهزام.



في تلك الليلة..

بعد صلاة الفجر، اقتحم أبوها غرفتها مغلقًا على كليهما بابًا موصدًا، وجد جبهتها تلتقي مع الأرض في سجود طويل، انتظر حتى فرغت من صلاتها فجاورها فوق الأرضية، أخذ يتطلع لها في صمت وعلى مد ثلاثين عامًا التي تقاربهم بعمرها، حين رفعت له بصرها تبسم، جاء تبسمها هي محملًا بعبرات مثقلة سالت بصمت فوق وجنتيها، محاهم بيده ثم همس لها دون أن يمحي تبسمه الذي يحيطها به ويدفئها، خافيًا وجع قلبه عنها:

- ماتعيطيش..

انتظر يوم و اثنان وثلاث على أمل أن ينتهي الأمر دون تدخله، لكن لا ابن أخيه جاء ولا ابنته أفصحت عن أسباب رغبتها.. أردف عقب تنهيدة ويداه تنطويان مع مسبحته داخل حجره:

- قولي لي عمل معاكِ إيه؟..



تعرف أن لا شيء سوف يتم دون معرفة أبيها، تستطيع دفن سره عن أعين الجميع إلا عن هذا الذي يشاركه دماءه وبيده وحده طريق خلاصها..

أخبرته بما يمنحها أحقية الخلاص..

- شوفته في أوضة نومي، مع واحدة..

حكت له عن دوافعه الواهيه، جرمه في حقها ونفسه، تذرعه بالعوز والتحايل على شرائع خالقه، تسأله أن كانت تستحق هذا الموضع والمكانة التي أدناها بها، تسأله بوجيعة قلب إن كانت تجور بطلب الفراق وكل الغفران الذي تملك لا يمحي صورته الخائنه، لا يرتق مرارة الشعور..

حينما انتهت لم يتفوه بكلمة، ربت فوق رأسها بيد مرتجفة وغادرها بصمت، انعزل نهارًا كاملًا بغرفته، ضامرًا في قلبه كل شعورٍ تضيق به النفس..



مع الفجر التالي وقف ببابها بذات التوقيت دون أن يدلف هذه المرة، فقط سألها من فوق عتب الباب، والسؤال لأجل قلبها الذي يعرف علته ولأجل ضعف يطاله يخص أمانة أخيه الراحل:

- قرارك نهائي، متأكدة هو ده اللي عايزاه؟..

أومأت له في إيجابٍ صامتٍ اختفى بعده وظهر مع طلوع خيوط النهار، احتل صدر الردهة بجلوس وأمر خص به ولده:

- روح هات لي عزيز يا عبدالرحمن..

مضى ما يقرب من الساعة ونصف حتى عاد المبعوث برفقة ابن العم..

دلف "عزيز" من خلفه متطلعًا إلى الجمع الحاضر، عماه يجلسان في صمت، أخواها يقفان كلًا من طرف، وهي؛ زوجته كانت هناك فوق الأريكة الفسيحة، تجلس في ثبات إلى جوارها كان يرتاح المأذون الشرعي..



تقدم خطوة بعد أخرى وقبضة قوية تعتصر الفؤاد، انتهى بالخطى مقابلًا عمه، ظل وإياه يتبادلان النظر بستارٍ مرفوعٍ، أدرك من خلاله أنه بات يعلم عن ما تخفيه سوءته، هرب منه إلى ابنته، المتصلبة نحو الفراغ تتعمد صرف البصر والروح عن مرماه..

- لو ماعندكش حاجة تتقال يا عزيز، إقعد خلي المأذون يشوف شغله..

غمغم بها أبوها بصوتٍ جلل وسط الصمت، ثاقبًا عينيه بسهام النظر..

يخبره مع كل سهم أنه لن يترك ابنته تضيع بين أقدامه الساقطة في وحل الخطيئة، وأن الحرمان منها عقاب مستحق..

- أنا باقي على مراتي يا عمي..



قالها في خفوت وكل أسلحته فارغة، لم يعد يملك أية ذخيرة يدفع بها عن حاله.. خرجت كلماتها كرصاصة أخيرة تنهي ما كان بينهما يومًا:

- بس أنا مش هقدر أعيش معاك، لو سمحت طلقني..

ظل يتطلع إليها وحدها دون أن يحيد بالنظر، يصله أمر أبيها بقول خافت، مغموم:

- طلقها يا عزيز..

ثم حدث رجل الدين ليتعجل بإنهاء الأمر:

- شوف شغلك يا مولانا..

فتح الرجل دفتره وبدأ في تلاوة بعض الآيات عن الطلاق والتسريح بإحسان، انتظر في صمت حتى يلفظ الزوج يمينه..



ظن أنه لن يفعل، تطلع إلى الوجوه العابسة في كل ركن وعاد إليه حين نطق وعينه لا تفارق من كانت يومًا معقودة على اسمه..

- أنتِ طالق..

في النهاية كل عطب؛ مصيره زوال.



(14)

الذكرى حقيبة سفر..

والنسيان هو طريقك الطويل..

حقيبتها محملة بثقل الأيام، تحتشد فيها تفاصيل ماضٍ قريب، تجاهد في لملمة فوضاه، تعافر على طمره بين ثنايا النسيان كل ليلة وتعجز..

الصورة مشوشة بحبر الزمان، فيها الصبية غارقة بين دفتي كتاب، لحن عتيق يشق سكون الليل بنداء خفي مبعثرًا الأحرف بين عينيها، مفرقًا شفاها الساكنة بتبسم ناعم، تغلق كتابها الدراسي وتسير فوق أطراف قدميها، توارب باب غرفتها بمقدار ضئيل، تتأكد أن الكل نيام فتعود مغلقة بابها موصدة إياه بالمفتاح، تعود خطواتها بحفيف آخر حتى تصل نافذة غرفتها،



تفتح ضلفتيها على مهل دون أن تحدث أي ضجيج لتقابلها سلة الخوص المنتظرة، تتسع ابتسامتها ورأسها يلتف للأعلى، بالكاد الأضواء الخافتة تمكنها من تشفي ملامحه الشابة والحبل الموصول بالسلة ليقرب بينهما مسافة الطابق الفاصل، ترسل له تلويحة كفها ثم تتناول الورقة المطوية من قعر السلة تقرأها بلهفة لا تخفت أو تبهتها الأيام، بل في كل مرة كان يزداد القلب تعلقًا وولعًا بالحبيب، تعيد قرائتها ثلاث مرات قبل أن تتناول دفترها، تدون ردًا مناسبًا لما قرأت من كلمات غزل وغرام خطتها أنامله وتضعها في السلة حتى يعاود سحبها، تمر لحظات وهي متعلقة بخشب النافذة في ترقب حتى تهبط لها مرة أخرى بخطاب جديد..

هكذا كانا يتواصلان وقتما كانت لا توجد وسيلة تواصل غير الهاتف الأرضي القابع بحجرة أشقائها الذكور، هكذا كانا يتبادلان مكنون القلب، يبثها غزلًا وتبثه عشقًا يفيض به شغاف القلب، يقطف لها من بستان الأغنيات أحلاها، يخبرها



أنها كتبت لأجلها، وتتخيرله من بستانها ما تراه يليق به، أحيانًا كان يمضي الليل كله وهما هكذا، يتبارزان بالمشاعر المكتوبة حتى تصيبها التخمة وتصيبه..

تلملم هذه وتضغط فوق حقيبتها بثقل جسدها كله فلا تفلح وتلفظ من بين زحامها ذكرى أخرى؛ أول لفظة حب همس بها دون صوت والجميع ملتف من حولها احتفالًا بعيد ميلادها الثامن عشر، أطفأت وهج شمعات الكعك بخافق مضطرب وخلجات مبعثرة ليسطع وهج العشق بين حنايا القلب والروح، ابتسامته المتسعة بحلاوة التي قابلتها حين رفعت رأسها يطبعها ذهنها في وضاحة كأنما كانت البارحة..

تلملم تلك بعنفوان أشد فتكبلها أخرى بقيد الألم، ليلة خطبتها، لحظة تقوس أصابعه لتدس بالحلقة الذهبية إلى بنصرها، تقبيله لظاهر يدها، تعالي التصفيق والصفير مازال



صاخبًا في أذنيها، لا تذكر أنها تذوقت طعم السعادة على طول العمر مثل تلك الليلة..

ذكرى كل مرة تعلق فيها الفؤاد بخيوط هواه، ذكرى أول لمسة وقبلة مخطوفين من ثغر الأيام في خبيئة ضمتها الضلوع.. أين لها من نسيان وهي من غزلت عشقه بيديها، يكفي أن تلتفت كل ليلة إلى نافذة غرفتها لتهيج بذكراها وتتبعثر بين جنبيها..

لم تشعر ببلل وجنتيها إلا بعد حين، انسلت بجسد منهك دون جهد إلى داخل الفراش تفتش عن نعاس تشحذه في لياليها، لكن أين تجده وصورته لا تفارقها، تطاردها مثل صوته وهو يلفظ يمين الطلاق ثم هياجه في أبيها في خلوة جمعت بينهما؛ يسأله فيها عن دينه ليعاونه على سداده، جاء رده المهتاج مدموغًا باتهام بكونه من فرق بينهما..

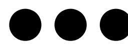
"لو كنت فعلا عايز تساعدني ماكنتش فرقت بيني وبينها.."



وختم حضوره بكلمتين لا تعرف إن كان يقصد أباها أم كانت هي المقصودة وإن كانت غير مرئية لعينيه..

"مش هسامحك"

أحيانًا تستدعي عقلًا فوق الذي تملك حتى تصدق أن كل ما بينهما انتهى، ولا تصدق.



سوط الزمن بيد الذكرى

وبين جلدة وأخرى أثرٌ لا يزول بين حنايا الروح..

في ذات اللحظة التي كانت تلملم فيها ذكراها كان على الطرف الآخر تغتاله الذكرى بطيف حلم، لا يدرك بوعيه المتأرجح إن كانت بفعل صحو أو غياب مع رقوده الغير مرتاح فوق أريكة الردهة تلفه الظلمة من كل جانب، الصورة المشوشة لفتى غادر لتوه سرادق العزاء، ترك من خلفه النواح والسواد المتشح وهبط الدرجات المؤدية إلى البدروم، لم يشعر بالوقت حتى



عثرت عليه خطواتها الباحثة، هبطت الدرجات، جاورته في جلوسه وكفها تحط فوق كتفه، تسأله ببحتها الرفيعة آنذاك:

"قاعد لوحدك ليه؟.."

رفع لها رأسه الساقط في تنكيس بين ساقيه، لتجده غارقًا في الدمعات ونهنهات شفتيه الخافتة تشاركه الحديث:

"بابا وماما ماتوا يا دهب، الاتنين ماتوا وسابونا أنا وبيللا نعيش لوحدنا.. "

لم تهتم بالدمع الذي طفق يتقافز فوق وجنتيها تأثرًا بحاله بينما أصابعها امتدت تمسح له عبراته وتخبره بتحشرج صوتها وشفقته:

"أنا عمري ما هسيبك، متخافش مش هتكونوا لوحدكم أبدًا، متعيطش علشان خاطري"..

ضاقت عليه الأريكة بذكراه، لا شيء حوله سوى الليل والصمت، هاتفه مغلق ملقى بمكان مجهول بعد أن صرخ في



شقيقته حتى تتوقف عن الاتصال وإزعاجه، لم يغادر البيت الذي دق بابه ثلاث مرات وانخرس بعدها، منذ أربعة أيام بحسبة زمنية، انحصر الزمان والمكان ومحل الإقامة فوق الأريكة التي يحتلها جسده.. انقلب على جانبه الأيسر لثوانٍ عاد بعدها لينتهي فوق ظهره شاخصًا ببصره إلى الأعلى دون رؤية حقيقية، تقتله ولا تفارقه صورتها الجامدة المصرة بفراق، يلعنها في خاطره مرة، ويلعن حاله بعدها عشرات المرات بينما يدور في خلده يقينٌ واحدٌ لا يصدق غيره؛ أن ما في الأصل له، سوف يسترده..

ولو بعد حين.



جاء الصباح محملًا بأثقال الأمس..



العالم لا يفهم أن روحك تتفتت ليلًا وأنك تجاهد في جمع شتاتها صباحًا، أنك وبموجب الطبيعة سوف تنطوي مع الأيام شئت أم أبيت..

بعد غياب عشرة أيام عن العمل صارت العودة حتمية، لن تسكن بقية العمر خلف الأبواب المغلقة، عليها أن تبدأ في الاعتياد، أن تشتري خاطر الجدة المكسور وتهدم جدار الخصام الذي أقامته بينهما لأنها لم تسمع لها وخربت بيتها، عليها أن تشاركهم كل مائدة طعام وثرثرة أحاديث، أن تعود إلى نمط حياتها القديم وتعتاده من جديد، أن تعتاد كلمات البشر ونظراتهم المشفقة حتى يملون ويجدون حكاية أخرى تشغل بالهم عنها..

كانت تستعد للخروج في باكورة صباح حين عبر باب غرفته مرتديًا كامل ثيابه في توقيت يسبق عمله بساعتين، تنبهت إليه بسؤال:



- رايح فين؟..

- صباح الخير..

- صباح النور، رايح فين؟..

- هوصلك..

حدجته في استنكار وحدثته بسخرية خالطها حدة غير مقصودة:

- توصلني إيه؟ أنا نازلة شغلي يا عبدالله مش رايحة المدرسة..

"استنوني جاااي"

الصوت المنبعث ببداية إفاقة للشقيق الآخر الذي مر من أمامهما بمنشفته فوق كتفه مختفيًا داخل دورة المياه، مع انغلاق الباب عادت إلى الأول بقسمات متجهمة، مدركة لما يدور في خلدهم، تنفعل مرة أخرى لأجل هذا بينما تسحب معه نهاية طرف الحديث:



- عبدالله أنا كويسة ومش عايزه حد يشغل باله بحالي، تمام؟..

داهنها بتبسم لطيف وقول مراعي لحالها:

- ومع ذلك حابين ننزل معاكِ، إيه المشكلة؟..

لم يأتِ الرد منها بل من الأم التي طلت برأسها من عند المطبخ، تخبر الجميع في ديكتاتورية:

- مفيش حد هينزل قبل مايفطر..

جلست برفقتهم حول المائدة على مضض، تستسلم لمحاولاتهم، لا تملك أمامهم غير الادعاء أنها بخير، هم يعرفون أنها تكذب ويسايرون حتى تمر وتتجاوز، الوقوف لن يجدي وعجلة الحياة دائرة..

أنهت طعامًا لا يحتسب بوداع لأمها وتجاهل مقصود طال الأخوين، حين وصلت البوابة الخارجية وجدت كليهما يتبعانها في صمت، واحد عن يمينها وآخر عن يسارها، حددت كل واحد



بنظرة ساخطة ثم استقام البصر أمامها بغمغمة وتأفف رافض لفعلهما:

- منظري إيه بالله و اتنين شوحطه موصليني..

دنا منها"عبدالرحمن" برأسه مع رد جاهز فوق طرف اللسان:

- نفس منظرنا و أنتِ ساحبانا كل واحد من إيد من ابتدائي لحد إعدادي عشان توصلينا المدرسة..

تابع"عبدالله" بتالٍ موسعًا دائرة الحديث بفكاهة:

- و يعني لما وصلنا ثانوي سابتنا؟ كانت طول أيام الامتحانات و اقفة زي الشاويش عطية قدام باب المدرسة والرايح والجاي يسأل مين دي وبتعمل إيه معاكم..

رد "عبدالرحمن" بتمتمة ثالثة زاحمها انزعاجًا مفتعلًا، متعاونين على اقتناص ضحكة من روحها:



- فاكر الواد ممدوح اللي رخم عليها قمنا اديناه علقة بعد امتحان الفيزياء؟..

جاءت التمتمة الرابعة منها هي؛ بتتابع لقصة الأمس البعيد:

- ورحتوا قلتوا لبابا عشان يمنعني أنزل معاكم تاني..

تبسم لها "عبدالله" بقول مرح:

- نعمل إيه و أنتِ كنت عاملة لنا فيها عشر رجالة في بعض..

استدار"عبدالرحمن" يعاكس الطريق ويواجههما في سيره مكملًا القول السابق لينال منها تبسمًا شمله حنين للأيام البعيدة:

- عشر رجالة في الجدعنة من غير شنبات..

شاركوها عربة المواصلات، حاولت أن تستثنيهما لكن باصرار تابعا طريقهما، انتهيا معها أمام المشفى الحكومي..

حدثها"عبدالرحمن" أولًا:



- لو حد ضايقك كلميني..

وتابع الآخر بجديه تنافي فحوى الكلمات:

- لو عايزة نستناكِ لحد ما تخلصي مفيش مشكلة..

نهرتهما في عجالة وخطواتها تستعد للابتعاد:

- بطلوا أفورة وامشوا يلا شوفوا وراكم إيه، نتقابل في البيت إن شاء الله..

سارت خطوتين توقفت بعدهما، ظلت على حالها لثوانٍ قليلة استدارت بعدها تنظر إليهما في صمت، قطعت نظراتها بعودة وعناق جمع ثلاثتهم و انتهى بامتنان خافت قبل ابتعاد:

- ربنا يخليكوا ليا..

راقبوها حتى اختفت عن أعينهما، عندها زفر"عبدالرحمن" في ابتئاس وأسف محدثًا توأمه:

- ماكنش المفروض نسيبها تنزل، وضعها مش تمام..



عارضه الشقيق برأي مخالف يراه أكثر ماتحتاج:

- هي محتاجة تنشغل عشان تنسى..

سأله الأول في شك:

- تفتكر عزيز هيسبها تنسى؟..

- مش بمزاجه..

أجاب الثاني في صرامة قبل أن يفترقا كلًا إلى عمله.



يحدث أن تغتال الأمس بطوق الحاضر..

تطمس الذكرى بقساوة، لأنك لا تريد أن تتذكر، لا تريد أن تلين..

وهذا ما كانت تفعله، تنحي كل ما يخصه لأبعد زاوية، تتعامل معه كطيف غير مرئي، تحادث ولديها وفق العادة التي دأبت عليها معهما، أحيانًا تلمح خياله يمر لكن؛ لا هي تسأل..



ولا هو يفعل!..

الساعة تشير إلى الثامنة بتوقيتهم، فوق الطاولة الواطئة يلاقونها من خلف شاشة الحاسوب، يفترشان بكتبهما والدفاتر بقية سطح الطاولة، تتابعهما في صمت وهما يعملان على انهاء فروضهما المدرسية، وحين يتعسر عليهما أمر ما يلجأون إليها..

جرس الباب الذي صدح قاطع الجميع، رفع الولدان رؤوسهما عن كتبهما، وتحرك الأب المتشاغل بجهازه الخاص فوق رقعة جانبية ليفتح الباب بينما رفعت هي رأسها عن هاتفها الكامن بيدها لتلتقي مع الصوت الدخيل بوضوح قربته المسافة دون الصورة:

- بعتذر على إزعاجكن بهاد الوقت، بس بدي حبتين بندورة ضروري كتير وعصام مانو هون يعني إذا بلاقي عندكن بكون شاكرة كتير..

استقبل"بكر" مطلب الجارة بكرم حاتمي:



- حاضر، ثواني بس..

تركها ودلف إلى الداخل لتلتفت هي إلى الصغار القابعين فوق الأرضية، يميلان فوق الطاولة المنخفضة وينظرانها، تسأل عن حالهما بوجهها البشوش:

- كيفكن اليوم ياولاد؟ كيف الدراسة؟ عم ندرس منيح ولا مقضينها لعب وتنطيط..

هتف"عمر" بسعادة الإنجازوذراعه يعلو بالقلم:

- أنا قربت أخلص..

- قلبي أنا على الشطور، وسنا الأمورة كيفها؟..

استجابت لاطرائها بتبسم:

- بذاكرأهو يا طنط..



- لك دخيل الله ما أحلاكن، أنا حكيت لبابا إنو أنتوا كتير صرتوا شطورين بالرياضيات وأنا فخورة فيكن، لك راح تجيبوا علامات كاملة وراح تقولوا هك طنط مايا حكتلنا..

عاد"بابا" بمطلبها فحدثته بحرج بينما تتناوله من بين يديه:

- عذبتك معي لا تواخذني..

رد لطفها بلطف وتبسم:

- لا أبدًا مفيش عذاب ولا حاجة..

- ربي يبارك فيك، هلا كنت عم أحكي مع الولاد مشان الدراسة، صايرين عم يهتموا أكتر مو ملاحظ..

- آه الحمد لله أحسن..

- اي والله أحسن كتير، لك يقبروا قلبي شو حبابين وبيطيروا العقل..

- ربنا يخليكي احنا تاعبينك معانا..



- لاه يا أبو عمر ما تحكي هيك، نحنا خلص صرنا أهل وما في بيناتنا شكر وماشكر..

- أكيد طبعا يشرفنا..

- الشرف النا سيدي، يلا بالإذن منكن أنا يادوب لحق الطبخة..

تكاتفت حواس "نادية" مع الحوار القائم من البداية حتى النهاية، لم يروا الأولاد ملامحها المتغضنة في تفكير وهما يعودان لسيرتهما الأولى حتى انتشلتهما من انشغالهما بسؤال:

- هي دي طنط مايا اللي قلتوا بتساعدكم في المذاكرة؟..

أخبرتها ابنتها في ابتهاج لم تفقه كنهه:

- أيوة هي يا مامي، عسولة قوي ومش بتبطل رغي وهزار..

أكد الصغير بدوره:

- وبتعمل لنا أكل سوري حلو قوي كمان..

- ده أنتوا أخدتوا على بعض خالص بقى..



غمغمت بصوت أقرب لهسيس ردته ابنتها بسعادة بالغة:

- احنا كل يوم عندها ولو اتاخرنا عليها تيجي تخبط علينا، أصلها يا حرام قاعدة لوحدها طول الوقت، جوزها أنكل عصام دايمًا في الشغل..

ضاقت حدقتاها في سؤال متردد لم تستطع كبحه:

- ويا ترى حلوة طنط مايا؟..

تولت"سنا" الإجابة وكفاها يشاركانها بحركة مفتعلة:

- دي بتنور في الضلمة يا مامي وشعرها قصير وفظيع بجد، ده حتى بفكر أقص شعري زيها..

ضغطت الأم فوق نواجذها بقول واحد:

- لو قربتي من شعرك يا سنا مش هيحصل كويس..

وتابعت هذا باستطرادة وزعيق:

- يلا ركزوا في مذاكرتكم وبلاش كلام فاضي..



و"الكلام الفاضي" على حد تعبيرها في الحقيقة كان أقرب لأنياب تنهش فكرها.. وإن كان زوجها الذي تظن فيه الظنون غارقًا بمشاكل العائلة وتحديدًا أمر الشقيقة الذي أحزنه بشدة أن يؤول لهذا المصير، لكن هذا لن ينفي سماعها لملاطفته وسعادة صوته بالحديث مع الجارة صاحبة الصوت.. العذوب.



الحياة لا تُوهب..

بل تُبنى بإرادة

بحلم وإصرار

تؤخذ غلابًا إن لزم الأمر..

أن تتذوق معنى الحياة هي غنيمة سيرك بين دروبها..



أن ينتهي بك المطاف بين دفتي الرضا والقبول عما جرت به السنين، وأن تجد حصاد العمرلم يتسرب بين يديك حين تشيخ فتنظرمن ورائك وتجد الأثر، يعني أنك تستحق ما منحت..

تلك المعاني التي تحاول تصديرها طيلة الوقت، طريقتها الفطرية التي تعرف وتؤمن بها حتى أنها تأمل بأن تجني ثمارها..

لكن..

اليوم جاء مختلفًا، لا يندرج وفق مخططات نو اياها بل مرتجلاً من قِبل القدرتبدل فيه الصمت والسكون إلى صخب، صوتها الذي لا يجد من يشاركه الصدى لم يتوقف منذ بداية النهار وهي تهتف في هذا الولد وذاك!..

أبناء"رانيا" المحتلة لمكانة الشقيقة الكبرى لزوجها، ثلاث صبيان أكبرهم"أدهم" صاحب العشر سنوات، يليه"سيف" بعمر السابعة وختامًا بـ"مالك" الصغير صاحب العام الواحد وشهرين..



بدأ الأمر بمهاتفة عادية جمعت بينها وابنة حمويها تحت ظل قرابة وثقتها الأيام بمسمى صداقة، تشتكي لها"رانيا" عن إشكال بينها وزوجها، حيث الحياة تركد بهما في حال غير الحال، ويضيع كلاهما بين شتات الأولاد ومشاكلهم الغير منتهية، عن فقدان تواصل أضحى بهما كلًا في طرف دون سمع أو فهم، ضغط كبير تجد حالها فيه دون تفسير غير أنها متعبة وتضيق ذرعًا من كل شيء..

عقب استماع مطول جاء دور "مريم" لطرح الحلول وحل الإشكال، وكان الأمر كالتالي.. استغلال موعد ذكرى زواجهما الوشيك بحجز غرفة مناسبة بأحد الفنادق، ليلة خاصة تقرب المسافات، يتحدثان معًا ويعيدان كل شيءٍ إلى موضعه السليم..

خطة بدائية لكن تؤتى ثمارها مع الرجال، هكذا أكدت"مريم" في حماس بالرغم من عدمية التجربة..



اعتذرت عن عملها اليوم وبقيت في استقبال الصغار، تركتهم الأم وغادرت حيث الفندق واستعداداتها الخاصة لليلة تبدأ من أول النهار، هاتفتها قبل لحظات تطمئن على حال الأولاد وتخبرها أن الدعوة تم استلامها من قِبل زوجها وأن صوته المتفاجىء عبر الهاتف ينبأ بالبشرى..

أبعدت الهاتف المحشور بين كتفها ورأسها ببنان أصابعها وبشرى النصر ترتسم فوق قسماتها بلا معنى، عادت تستكمل وصلة العجن الخاصة بالبيتزا، الوجبة التي اختارها الأولاد ولم تكن لتعارضهم..

- يا حبيبي بالراحة على أخوك مش كده..

والحديث موجه للكبير الذي يمارس تطبيق لعبته القتاليه على أخيه الأصغر الذي يفضل تمارين كرة القدم، تركتهما ودار بصرها صوب الصغير الغافي فوق الأريكة الفسيحة، تأملته



للحظات وهو يدس بإبهامه بين شفتيه، تبسمت لمرآه الآسر لعينها الخاطف لقلبها ثم عادت لأخويه تنبهما بهتاف خفيض:

- ممكن نلعب بهدوء يا شباب، لو مالك صحي مش هعرف أكمل البيتزا..

ركض إليها الأوسط هاتفًا بحماس:

- احنا ممكن نساعدك على فكرة..

- بجد؟..

سألت في شك دحضه الأكبر:

- طبعًا، احنا بنعمل حاجتنا بنفسنا وأحيانًا بنساعد مامي كمان..

أشرق وجهها بحلاوة تبسم وتحد:

- طيب يلا وروني شطارتكم..



أخذا ينفذان تعليماتها بنشاط وحماس كبيرين، شاركاها في تجهيز المكونات ثم وضعها فوق العجين ودسه بالفرن لينضج، حتى أنهما رتبا فوضى المطبخ معها، في هذا التوقيت استيقظ الصغير من غفوته الطويلة، حملته بين ذراعيها، أغرقته قبلات ودغدغة ثم جهزت له زجاجة الحليب خاصته، أطعمته وهو قابع بأحضانها ويدها تمسد مقدمة جبهته وخصلاته البنية الناعمة في ملاطفة..

شبع الصغير وصادق الأرض بخطواته المتعثرة، لم يترك شبرًا واحدًا دون أن يطأه بدوران واستكشاف، يتعثر ويسقط ثم ينهض مستكملًا وصلته تحت عينيها المراقبة..

جهزت مائدة الطعام ثم دعت الولدين لتناول وجبتهما ليبدآن الأكل بنهم جائع، جلست تشاركهما الطعام بيد واحدة لأن الأخرى حملت بها الصغير الذي قرر مشاركتهما المائدة مع رغبته الشديدة في اعتلائها، رغم محاولاتها في ضبط حركاته إلا أن يده



الضاربة للفراغ دون استكانة استطاعت أن تطال صحن الكاتشب وتنغمس فيه ثم تلاقي ذقنها بمصافحة وسلام، تنهدت في قلة حيلة لمناكفة الصغير وشقاوته وصمتت مع صوت العائد..

كانت تلك الصورة التي التقطتها عيناه حين فتح الباب ودلف عليهم، هي والثلاث أولاد في حالة فوضى مابين طعام وثرثرة، التقاهم في تفاجىء ارتفع له حاجبيه في استغراب والولدان يرحبان به بفكاهة ضحكات:

- هاي يا خالو..

تابع نهوضها بالصغير وتنظيفها ليديه بالمحرمة الورقية ثم اقترابها منه وهي ترى السؤال يلوح فوق أفق عينيه في غرابة، ألقت نظرة على الولدين ثم عادت له بهمس خفيض ورأسها يدنو منه:

- الولاد هيفضلوا معانا الليلة..



قطب جبينه بقلق ترجمه في سؤال:

- فين رانيا؟..

ازدردت لعابها وعادت برأسها تطالعه للحظات صامتة لم تعرف كيف تخبره، لكنها فعلتها في النهاية:

- النهاردة عيد جوازهم ورانيا حبت تفاجيء شريف باحتفال بسيط في الأوتيل اللي اتعمل فيه فرحهم، ويعني هيقضوا الليلة هناك وكده..

ثم حركت له كتفيها مردفة ببديهية:

- وطبيعي الولاد مش هيكونوا معاهم وإنتَ عارف طبعًا طنط ليلى صعب عليها تهتم بالتلاتة، دي بترجع من الجامعة مش قادرة يا عيني..

أذناه مع كلماتها بينما عيناه تحوم فوق قبة ثوبها الملوثة بالخليط الأحمر بغير استيعاب، انتبه لصمتها بعد حين فحرك رأسه بانتباه وهمهم بلا معنى قبل أن يختفي من أمامها صاعدًا



الدرج مناشدًا حمام دافئ يزيل عنه إجهاد اليوم الطويل في روتين لا يتخلى عنه..

فعلت هي بالمثل، أخذت الصغير في دورة تنظيف سريعة شملتها وشملته قبل أن تعود للكبار، تترك أخاهما في عهدتهما حتى تجمع السفرة وقد أتموا وجبتهما، تجفف يديها وتعود مجددًا لتجدهما بدآ في تحديات ألعاب الفيديو الخاصة بهما، ظلت تر اقبهما ما بين خاسر ومنتصر، كانت الغلبه للأكبر حتى قررت تحديه، أخذت الذراع الإلكتروني من أوسطهم واحتلت مكانه ليهمس لها بغل خص شقيقه الأكبر:

- خليه يخسر يا مريم..

وعدته بغمزة خفية أن تثأر له، وصدق وعدها، هزمت الكبير أشد هزيمة والذي راح يبرطم بالكلمات المحتجة:

- أنا تركيزي اتشتت بس..



طالع الصبي"أسمر" الو اقف قرب النافذة حيث أفضل مكان لتغطية الهاتف وأردف بحجة حاكها دماغه خلال ثوان:

- أيوه أنا كنت مركزبس لما خالوعدى من قدامي وقعد يتكلم في الموبايل فقدت كل تركيزي، الدورده يتعاد!.

- إنتَ بتكدب يا أدهم..

اتهمه شقيقه فانفعل الكبيروصاح بحدة:

- وإنتَ مالك يا فاشل، عايز تبقى لاعيب كورة إزاي وإنتَ بتخسرفي چيم أساسًا..

والتالي متوقع، اشتباك بالأيدي والأرجل، حاولت"مريم" التدخل بينهما من جلوسها الذي يتوسطهما فطالت عينها لكمة، تراجعت للخلف مطبقة عليها بكفها باحثة بالسليمة عن الصغيرالذي اختفى من تحت ناظريها، خلال هذه الثو اني توقف الشجارإثرصياحه عليهما:

- بس إنتَ وهو..



صعد الدرجة الفاصلة بين مستوى الأرضية ليردف بزعيق فوق رأسيهما وعقدة جبينه ترهبهما:

- ينفع اللي بتعملوه ده..

بدأ كل واحد منهما في اتهام شقيقه دون تنازل، استمع لهذا وذاك، انتهى الأمر ببدأ جولة جديدة واشترطا أن يبقى شاهدًا عليهما، انتهت الجولة بانتصار"سيف" الذي راح يصفق لحاله بجذل ويتقافز بانتصار كأنما لفوزه دلالة على تصديق حلمه، اقترب من الخال بحماس:

- دورك تلاعبني، أنا عايز حد كبير من مستوايا..

وأخذ يثني لشقيقه الخاسر ذراعه مبرزًا عضلاته في إغاظة كأنما الشقيق ينقصه إشتعال، أخذت تنهاه "مريم" بهتاف محذر:

- يابني قصر لسانك لو قام مسك فيك مش هيرحمك..



لم يلتفت الصبي لحديثها وعاد إلى الخال يمارس معه طقوس الزن:

- يلا بقى من زمان مالعبتش معانا، ولا خايف تخسر؟..

طالعه الخال بنظرات ساخرة من هيئته الأشبه بعود كبريت ويتحدث كفارس حلبة:

- هيبقى شكلك وحش قوي بعد الشوية دول..

حرك له حاجبيه في تحد:

- يلا نبدأ ونشوف..

دون إطالة أمسك كلًا منها بذراع، ولم يمر الوقت حتى مال الخال برأسه يغمزه بأمر محسوم ليلقي الصبي بالذراع فوق الأريكة يغالبه حنق المهزوم، هنا بدأ "أدهم" قهقهة ضحكات تقاطر منها الشماتة، حتى"مريم" الجالسة أخذت تكبح ضحكتها بواسطة كفها حتى لا يحزن الصغير الذي نهض بتحد آخر خص الخال الجالس في ترفع وخيلاء المنتصر:



- طيب لو جدع بقى العب چيم مع مريم، دي حريفة كسبت أدهم مش هتعرف تكسبها..

ربت فوق وجنته بتحذير خافت:

- كفاية عليك خسارة واحدة يا سيف..

و"مريم" الحاضره لم تكن لتترك المياه راكدة بلا حراك، تخلت عن جلوسها البعيد في الحال و اقتربت تحتل مكان الخاسر، تأخذ بالذراع بين كفيها وتغمغم في تحد دون النظر:

- طيب ما نجرب ونشوف؟..

ظل يراقب جانبها للحظات مستطيعًا تشفي نظرات التحدي التي تطلقها فوق الشاشة الكبيرة وتبسمها الواثق، لم يكن بحاجة للكلام وجسده يتحفز مع وضعية البدء التي قاطعها الكبير في حماسة:

- استنوا.. عشان الچيم يبقى حماسي أكتر هنعمل Challenge!



أوضح بإستطرادة في الحال:

- ماما وبابا بيعملوا كده، اللي يكسب فيهم يطلب من التاني تلات حاجات يعملها والخسران طبعًا لازم ينفذها، إيه رأيكم أوك؟..

حركت كتفيها بموافقة سريعة وكأنما النصر حليفها دون شك:

- أنا موافقة..

صاح الصبيان معًا:

- جووووواحنا هنشجعكم..

سخر من ثقتها العمياء وبدأ اللعب في استهانة لقدراتها، استهانة سرعان ما تحولت لتركيز وتحفز جسدي حين وجدها تلعب ب"حرفنة" كما قال الصبي من خلال جلسة مسترخية وتبسم واثق لم يهتز..

ثقة فشل في هزيمتها!..



هللت"مريم" بانتصارها وكفاها يصافحان الولدان اللذان شاركاها فرحة الانتصار والابتهاج بالقفز والتصفيق الحاد وتكالبهما على الخال الساقط في شرك الخسارة:

- استعد بقى يا معلم..

ثأرمنه الأوسط بإغاظة لم يهتم بردها مستقبلًا هزيمته ببسالة خارجية بينما في الداخل كان يحتقن غيظًا، وليزيدوا من غيظه اجتمع ثلاثتهم بحلقة مغلقة جمعت رؤوسهم وهمسهم، يتفقون عليه في مطالبهم الثلاث والتي جاءت أخيرًا بجلوسهم المتفاخر واضعين ثلاثتهم ساق فوق الآخر، رافعين الذقن في إباء وتعاظم ويد "مريم" التي امتدت خفية وبسرعة بديهية تخطف هاتفه القابع إلى جواره في سكون، تغلقه تحت ناظريه وكلماتها تترنم بعبث:

- أول أمر؛ موبايلك مش هيتفتح تاني الليلة..



سخر بوجه جدي لا يشي بمزاح ونظراته لها تبعث في غموض قاتل تلقته في ثبات حتى قفز"سيف" صائحًا بالتالي قاطعًا وصال النظر:

- تاني أمر؛ هنشغل فيلم Ratatouille دلوقتِ وإنتَ هتشوفه معانا..

رفع حاجبيه مستنكرًا فجاء الأمر الثالث والأخير مع "أدهم" الذي قال بنبرة المتغطرس:

- تالت حاجة بقى عايزين عصير فريش..

- نعم؟..

صاح بها مطلقًا سهام النظر في شرر رفعت له "مريم" كفيها بمحاذاة كتفيها في براءة كاذبة:

- والله هما اللي طلبوا، لو مش عايز تنفذ براحتك بس هنعتبرك مش قد التحدي..



وقف يطالع ثلاثتهم من علو يصر فوق أسنانه لبضع لحظات انتهت به متوجهًا إلى المطبخ، مقلبًا بصره في محتويات المبرد بادئًا في تنفيذ عقابه الذي تبسمت له بسعادة تضاهي سعادة انتصارها..

نهضت تشغل الفيلم الكارتوني الذي سبق واختارته بصحبتهما ليكون ضيف السهرة وأخذ كلًا من الأولاد موضعه في الاستعداد، جلست من جديد تتوسطهما وتلاعب الصغير العائد لأحضانها كل حين بينما بصرها يرتفع وير اقب كل حين الوجه العابس بتخبط فوق أرضية المطبخ المكشوف..

عاد لهم عقب حين وبين يديه تراصت أكواب خليط الفراولة بالحليب، تركه فوق المنضدة أمامهم ليتذوقه الأوسط أولًا هاتفًا بشقاوة مغيظة:

- امم مش بطال..



عبث بشعره الأجعد متعمدًا مضايقته قبل أن يرفع رأسه محدثًا إياها ويده تمتد إليها:

- الموبايل..

وأمام نظرته الصارمة لم تكن لتنطق، أخرجت الهاتف من خلف ظهرها ثم تركته داخل كفه المنبسطة بانتظار دون أن ترفع ناظريها شاعرة بحالها قد تخطت كل الحدود متذرعة بوجود الصغار..

أخذ هاتفه في صمت وغاب بغرفة مكتبه بينما بقيت هي والصغار يشاهدون التلفاز حتى رُفع ستار النهاية، أخذت الولدين إلى غرفته حيث لا يوجد حلًا بديلًا، دثرتهما جيدًا وتمنت لهما أحلامًا سعيدة..

الرضيع شاركها غرفتها، أخذت تدور به في ليلها لا تعلم ما أصابه، كل لعب وضحكات النهار تحول لمزاج سيء تُرجم في وصلة بكاء متصلة، يرفض النوم وكل محاولاتها في هدهدته



تفشل، تخطت الساعة الثالثة فجرًا وهي على حالتها تروح وتجيء به فوق كتفها، كان صياحه من الشدة ليأتي إلى بابها طارقًا إياه ثم يدير مقبضه ليدلف سائلًا بقلق عن حال الصغير:

- ماله؟..

أخذت ترمقه في عجزوضيق بين:

- مش عارفة ماله، حاولت معاه بكل الطرق مش عايزينام ولا يسكت..

أنبها بنظرة وقول:

- طبيعي يكون محتاج مامته..

همست له في خفوت وتعب:

- طيب خده شوية دراعي وجعني قوي..



لم تمنحه الفرصة ليعترض، دفعت بالصغير إليه فأمسك به قسرًا بين ذراعيه في ارتباك، سرعان ما عم السكون والصغير يستكين برأسه فوق صدره وإبهامه داخل فمه، طالعته في تبسم متنفسة براحة:

- الحمد لله سكت..

زجرها بهمس طاحن للحروف بين الضروس:

- أيوه أعمل إيه أنا دلوقتي..

تثاءبت بقوة قبل أن تتمتم له وخطواتها تتحرك ناحية الفراش:

- خليه معاك شوية، أنا هموت و أناام..

نهرها بقوة متحكم فيها حتى لا يفزع الصغير:

- إستنى هنا!..

و أتبع هذا باستطرادة حادة:

- أنا مش هعرف أتعامل..



أخبرته وجسدها يندس أسفل الغطاء الوثير تاركة إياه في ورطته:

- هو مش محتاج حاجة، أنا أكلته وشربته وغيرت له، عايز حد يشيله بس و أنا خلاص فصلت مش قادرة أقاوم والله..

لاحقًا..

بعد ساعتين، عندما استيقظت وجدته ممددًا على جانب الفراش بوضع أقرب لقعود، رأسه ساقط إلى الجنب في نعاس بينما الصغير قابعًا فوق صدره ويغفو براحة..

على مهل تحركت ترفع الغطاء عليهما و تخرج إصبع الصغير من فمه ليلوك فكه الهواء قليلًا قبل أن يسكن من جديد في موضعه..

عادت إلى وسادتها وعينها تحيطه مع الصغير دون شبع، حتى أسقطها النعاس بأحباله وبين أهدابها المتلاقية سكنت صورته.





الإهمال وأزمات القطارات عرض مستمر في الشارع المصري..

استهلال جديد لمأساة مكررة تجتاح البلاد، مأساة تختلف في تفاصيلها وتتشابه في لائحة الفقد والألم..

احتاج إلى قدحين من الشاي وواحد من القهوة المرّة حتى ينتهي من تحرير مقاله الخاص بالحادث المؤسف أعلاه، تخير مع زميله الصور المناسبة ثم أنهى الأمر بتسليمه لرئيس القسم وطقطقة عظام رقبته المتصلبة منذ ساعات..

كان يومه الطويل شاقًا وملائمًا ليأتي ختامه مع هاتف غير متوقع بينما كان يغادر مبنى الجريدة حاملًا له نبأ كارثي!..

بأنفاس لاهثة دلف إلى استقبال المشفى العام، شق صخب الأصوات القائم بين جدران المبنى العتيق حتى قابل فتاة الاستقبال، لقنها الاسم الذي يفتش عنه في عجالة:

- فاطمة سلامة..



عقب حوار سريع دلته على الطريق والممرات التي عبرها حتى انتهى أمام حجرة واسعة ضمت أكثر من عشرة أسرة حمل كل واحد منهم مريضًا وعددًا من الزوار يلتفون حول البعض، هي؛ كانت مثل البعض الآخر، تعتلي فراش المرض وحيدة بساق مجبرة، ذراع يرتاح فوق صدرها برباط ضاغط ورأس التف من حولها ضماد أبيض عريض متممًا الصورة..

مع اقترابه المعتلي لإمارات الصدمة رفعت الملاءة البيضاء تحكم غطاء ساقها السليم والمكشوف إثر تنورتها الممزقة بشق جانبي، حاولت التعديل من وضعها المرتاح الذي تتخذه فصدر الأنين الغير إرادي مصاحبًا معه الآلآم متفرقة، رفع لها كفيه في حذر وصدمته على حالها لا تزول؛ ترجمها في سؤال بديهي خرج بلا مقدمات وبصره يتأرجح بين حالها ورأسها المكشوف والفراغ:

- حصل إيه!..



لم تخبره عبر مهاتفها سوى أنها بالمشفى بعد أن تعرضت لحادث وتحتاج إلى المساعدة العاجلة.. أشارت برأسها مع همس خافت حتى يجلس أولًا، محت عبرات وجنتيها بكفها السليم محاولة السيطرة على حالها المبعثر فيما كان يسحب هو المقعد الموضوع جانبًا ليجلس مقابلًا إياها بقسمات مستفهمة وبصره يرتكز فوق الجدار الجانبي مصيخًا لها السمع بكل اهتمام..

لم تطلْ في الأمر، بنبرة متحشرجة أخذت تشرح له كيف غادرت بوابة الروضة التي تعمل فيها كمعلمة بعد انتهاء فترة عملها، تسير بفكر شارد في أقساط الكهرباء المتراكمة ولم تعِ كيف ولا متى هاجمها ثقل شديد من الخلف مكممًا فمها وآخر مقيدًا قدميها بكلا كفيه، حملاها بكل يسر إلى خلف واحدة من البنايات التي تعد مكبًا للنفايات وقاموا بالتعدي عليها بالضرب المبرح حتى غدت بين أيديهما خرقة بالية، حينها جثى أحد الرجال وجذب خصلات شعرها التي سقط عنها غطائها بكل عنف ليهمس في أذنيها بفحيح وشراسة:



"لو عايزه تكملي في القضية إياها قولي على نفسك يا رحمن يا رحيم"

أخذا حقيبة يدها بكل مافيها من متعلقات شخصية تاركين إياها ملقاة فوق القمامة بكسور جسدها وشروخ الروح تأن وتصيح بما تبقى فيها من نفس حتى تجمع من حولها البعض ناقلين إياها للمشفى في الحال..

صمتت بغصة قهر وقفت بحلقها ورأس نكستها في ذل ومهانة أحدثت صداها بين ثنايا الروح، لفظ "عبدالله" حروفه المكبوتة بقهر مماثل:

- أخدوا الشنطة عشان تبان حادثة سرقة عادية ولاد ال...

بتر حديثه بين ضروس طاحنة ببعضها، رفعت له رأسها توضح سبب اللجوء له لا غيره في حرج:



- رقمك سهل كنت حفظاه، وبصراحة ما عرفتش أكلم مين، أنا متأسفة والله بس إنتَ عارف وضع والدي وأمي ست كبيرة ماتعرفش تنزل لوحدها وأهلي...

صمتت لا تعرف بماذا تخبره، هل تقول له أنها لا تملك غير عم أوحد وضعه المدقع أخجلها من اللجوء إليه وطلب المساعدة وهي على يقين أنه سوف يتأذى بحملها ويسمعها مالا يرضيها..

نهض عن جلوسه يقطع صمتها ويرفع عنها الحرج:

- ولا يهمك كويس إنك كلمتيني، المفروض نعمل إثبات حالة عشان نقدم بلاغ، هكلم خالد حالًا هو يقولنا نعمل إيه بالظبط، ارتاحي شوية وراجع لك..

سحب ورقة الوصفة الطبية الموضوعة فوق المنضدة المجاورة وغادرها ذاهبًا إلى صيدلية المشفى يبتاع لها أدويتها التي بحاجتها حتى تتماثل للشفاء، ترك الصخب القائم وارتكن إلى



أحد الزوايا مع وصول صوت الصديق عبر الهاتف القابع فوق أذنه:

- خالد في حاجة حصلت بخصوص قضية فاطمة سلامة.. إيه الدوشه اللي عندك دي، إنتَ فين؟..

قص عليه الأمر في عجالة لأن الصديق عالق في زحام المحكمة، حينما انتهى زفر "خالد" مع سباب لاق بأولاد الأبالسة على حد تعبيره ثم أخبره أن يأخذ إثباتًا بالحالة، وضح عقب هذا تعذر مجيئه في اللحظات الراهنة واتفق معه على موعدٍ مسائي يناقشان فيه الأمر..

أنهى اتصاله وعاد إليها من جديد بصحبة واحدة من الممرضات، ترك بجانبها أدويتها وبعض العصائر المعلبة، بصوت خافت أوصى الممرضة التي طفقت تجهز محقنها أن تهتم بها وتترفق بوضعها الصعب حيث لا أحد برفقتها بينما هو سينتظر بالخارج، قبل أن يبتعد أخبرته بهمس خجول أنها تريد



العودة للمنزل، أبواها بمفردهما وتقلق بشأنهما، أومأ لها برأسه وغادر الغرفة الفسيحة بغضاضة بصر..

ابنة لزوجين بسيطين، لها شقيق أوحد يكبرها بعامين، تنقضي سنوات عمره في بلاد الغربة بحثًا عن الرزق بصنعة يدوية هي ملك يمينه، لا يعرف الكثير عن بقية عائلتها لكن؛ ركضها المتعب بين دروب الحياة يعني أنها بلا عائل أو سند، بلا معين تتوكأ عليه وقت حاجتها، تأخذ على عاتقها مسئولية والدها المريض وأمها المسنة حيث تعمل نهارًا في روضة تعليم ومساءً في مَحَلّ للتفصيل والخياطة، تملك من الشجاعة ما يكفي لترفع صوتها في وجه الظلم والظالمين، تفتش لأبيها عن حقوقه المنهوبة وآدميته المغتصبة، جذع راسخ لطالما تقاذفته الرياح لكن الحياة فيها من القسوة ما يكفي لتحط عليها بأثقالها اليوم، لتسقط وتتهاوى قشرتها الصلبة التي تتوارى من خلفها في ثبات يليق بشخصها المتحامل الصبور..



استطاع من البعيد أن يرى اهتزاز جسدها ببكاء وألم، كبحها لأنينها بواسطة كفها كأنها لا تملك رفاهية الانهيار، كما استطاع أن يرى قبل لحظات عبر نظرات خاطفة؛ خوفها ورعبها المختبئ داخل مآقيها المرتجفة..

أخذت به الر أفة والشفقة لحالها، وقف محتار الفكر والبال في كيفية مساعدتها، نبض اسم شقيقته كطوق نجاة في بحر الحيرة، هاتفها في الحال طالبًا للمساعدة، لكن الهاتف المغلق جاءه داحضًا أفكاره في التو، كرر الطلب مرة بعد مرة حتى يأس، لكن نو اياه لم تيأس لذا هاتف أخرى تحل محل الشقيقة، مخبرًا إياها في إيجاز:

- ندى، عايز منك خدمة..



قبل مرور الساعة كانت "ندى" تقتحم بوابة المشفى بوجه يعلوه الفزع، قبض على حضورها في الحال من وقوفه المنتظر، تلاقت معه بانفعال كبير:

- إنتَ كويس!..

- قلت لك كويس يابنتي بس..

- خضيتني أما قلت مستشفى من غير ماتقول حاجة ولا عايزني أقول لحد، بتعمل إيه هنا؟ وطلبت الهدوم دي ليه!..

- اديني فرصة أقولك..

ازدرد لعابه وخطواته تصحابها على مهل رافق شرحه وتوضيحه للأمر:

- في بنت مسكينة تعرضت لحادث،هنساعدها ونوصلها للبيت، مش هعرف أساعدها لوحدي وحاولت أوصل لدهب بس في شغلها وموبايلها مقفول عشان كده كلمتك، تمام.. وصلت؟..

طوقته بنظراتها المستغربة للأمر ولم تنبس ببنت شفة، تابعت خطواته في صمت حتى وصلت إلى الفتاة المعنية، قام بتعريف مختصر لكلتهما ثم همس لابنة العم أن تساعدها في ارتداء ملابسها وتجهيزها لمغادرة المشفى..

ألبستها ثوبها الذي أحضرته معها بطلب منه، كما غطت لها رأسها على مهل ثم أخذت بثقل جسدها بين ذراعيها، تعينها في مشيها البطيء بين الممرات الطويلة حتى وصلتا لسيارة الأجرة المنتظرة، أغلق "عبدالله" باب العربة عقب جلوسهم وجاور السائق، أصعب ما في الأمر كان صعود درجات البيت وصياح أمها التي تلقتها بين ذراعيها بفزع تبكي على حالها وتندب بصياح فتحاول تهدأتها بحرج مشيرة إلى ضيوف دارهم، أخذوا ب"ندى" واختفى ثلاثتهم بالغرفة الداخلية، استقبل هو عرج الأب الملهوف على ابنته، ساعده في الجلوس ليلتقط الرجل أنفاسه ويهدر من بين تقطعها ويده المرتعشة تشاركه انفعاله الكبير:



- تغور القضية، كله إلا بنتي، احنا متنازلين، قول لصاحبك المحامي يقفلها، قول له إني متنازل عن حقي، مش عايزه، لو هيخسرني بنتي مش عايزه..

لم يجد قولًا مناسبًا، كل ما استطاع فعله هو محاولة تهدأة الرجل ثم تأجيل الحديث والاستئذان بالرحيل حتى يتركه يطمئن على ابنته..

الرجل محق، هذا ما كان يفكر فيه ويشرد أثناء المغادرة، قطعت ابنة العم شرود قسماته بسؤالها المكبوح بحلقها منذ وطأت بقدمها ذاك الدار:

- تعرفها منين دي وقضية إيه اللي بيتكلموا عنها!..

أخبرها في إيجاز مختصر:

- قضية تخص والدها مع واحد كان شغال عنده..

- والواحد ده هو اللي اعتدى عليها بالضرب بالشكل ده؟..



- أيوه..

حدجته بنظرات متشككة:

- ماقلتش برده عرفتها منين؟..

أوضح لها موقفه مع وقوفهما المنتظر مجيء سيارة الأجرة:

- أنا بزورهم كل شهر أوصل لوالدها مساعدة متكفل بيها أهل الخير..

همهت بلا معنى و ابتلعت لسانها في صمت ليس بعادتها، في العادي تفتش وتسأل في أدق التفاصيل بل وتبني بعض النظريات، لكن اراحه سكوتها وتمريرها للأمر بلا تفتيش، أدار دفة الحوار ناحيتها والحدث يستدعي الأهمية:

- مبارك الحجاب بالمناسبة..

لامست أناملها وشاح رأسها بينما ترد مباركته بشكر خافت، خطوة إتخذتها عقب ليالٍ من البكاء الصامت في جنح الليل،



تلجأ للرحيم بكليتها نادمة على فعلتها طالبة للعفو والغفران فالعقاب الو اقع عليها غير محتمل..

حدجها في استغراب لحالها المقلق كحال أخيه، سؤال راوده أفصح عن مكنونه في الحال بنغمة المستغرب:

- مش زعلكم طول المرة دي؟..

اكتفت بتمتمة فاترة وذراعاها يتكتفان بصدود:

- قول لأخوك..

أخذهما الطريق في صمت طويل حتى وصلا أمام البيت، ترجلت أولًا وتركته ينقد السائق، صعدت الدرجات وإذا بالعائد من عمله يقف أمام باب شقتهم مفتشًا عن مفتاحه، توقفت حركة يده مع وقع خطواتها المتباطئة إثر رؤيته، ألقت عليه تحية مترددة وقدمها تنهي آخر درجتين تفصل بينهما في حركة ثقيلة:

- إزيك..



استدار لها بقسمات متجهمة ضاربًا بتحيتها عرض الحائط وقوى الغضب تستنفر في دواخله حملتها أحبال صوته:

- كنتِ فين؟..

تلعثمت في جوابها:

- أناا كنت...

قاطعها بجذبة ذراع قوية وصياحه يعلو بوتيرته:

- أنا مش قايل مفيش نزول لأي مكان بدون إذني؟..

- في إيه يا عبدالرحمن بتزعق لها ليه؟!..

هتف "عبدالله" الذي حضر ليصدمه صياح توأمه القوي بفظاظة:

- مالكش دعوة ماتتدخلش..

عاد إليها من جديد صابًا جام غضبه فوق رأسها وأمام عبرات عينيها العالقة بين الأجفان:



- قلت ولا ماقلتش؟ انطقي! برده ماشية وراء دماغك ومش عاملة حساب لحد..

خلصت ذراعها من بين قبضته بجذبة قوية وهتاف حانق خالطه تهدج:

- ده على أساس إن حضرتك بترد على مكالماتي أصلًا؟..

- ومعنى إني مابردش إنك تنزلي على مزاجك، أنتِ جايبه البجاحة دي كلها منين؟..

- عبدالرحمن!..

فُتح الباب من خلفه حاملًا زعقة أبيه الصارمة واستطرادته التالية:

- إيه اللي بيحصل، في إيه؟..

أمسكت زمام الرد في هتاف سريع، مؤجج بشتى المشاعر، عينها تلاحم عمها وذقنها تتحرك بإشارة إلى خاطِبها الو اقف قبيلها:



- أنا بكره ابنك ده..

صاحت بها وهرولت في خطاها إلى الأعلى، تترك للحبيب في القلب غصة وللعم ثورة:

- إنتَ اتجننت؟ بتكلم بنت عمك كده إزاي وتزعلها..

ولأنه ليس في موضع استقبال لأي إتهام، التفت لأبيه نافثًا بضعًا من سعيره أمام وجهه:

- إنتَ على طول كده تحب تلبسني الغلط والسلام ولا عايز تجامل أخوك على قفايا..

انتفض أبوه وذراعه في انفعال انتفخت له أوداجه غضبًا:

- إنتَ بتزعق وتشخط في مين يا قليل الأدب يا سافل..

هرع"عبدالله" يقف بالمنتصف، يفصل بينهما ويمنح ترضيته لأبيه:

- العفو يا بابا هو مايقصدش..



والأب لا يهدأ، يخاطب زوجته الواقفة بالداخل ويدها فوق صدرها في فزع متابع للأمر دون أن تفقه ماهيته ولا أسبابه:

- واقفه عندك ليه، تعالي شوفي ابنك وهو بيعلي صوته ويبجح في أبوه..

أحاط"عبدالله" بكتف أبيه محاولًا تهدأته باعثًا بتأنيب طال الأخ، يدفعه بنظراته الخفية أن يعتذرلوالده:

- حقك عليَّ أنا يا بابا، جرى إيه يا عبدالرحمن؟..

رد الشقيق تأنيبه بإشاحة ذراع وقرار برحيل، أوقف توأمه حركته بجذبه من تلابيب قميصه وصياح في وجهه:

- رايح فين؟..

وصياح بصياح ودفعة تبعده عن طريقه:

- بقولك إوعى!..



هرول للأسفل تحت نظراته وربتات أمه المتتالية فوق كتفه بفزعٍ حروف:

- أنزل وراء أخوك..

عادت إلى البيت تلحق بزوجها وتركته يلاحق أخيه الراحل بغضبه عنهم، يتبع خطواته السريعة في شبه هروله ونداءات متفرقة باسمه لم يلتفت لها المعني حتى شد من عزم خطاه وقبض على ذراعه يجذبها في احتداد:

- يابني إنتَ، هفضل أجري وراك..

دفع بكتفه يبعد ذراعه المتحكمة فيه:

- ارجع مش عايز حد معايا..

خطا خطوة واحد عاد يجذبه شقيقه في إثرها بقوة وحنق مضاعف:

- اوقف كلمني وبطل شغل العيال ده..



توقف بأنفاس متلاحقة، ينأى بوجهه المحتقن جانبًا وتصله كلمات الآخر الواقف أمامه في عتب:

- ينفع اللي عملته ده؟..

التفت له بسعير النظر والكلمات:

- بص أنا فيَّ اللي مكفيني أقسم بالله ما ناقص كلمة زيادة..

تبع سيره دون تعقيب، جاور خطواته ومنحه فسحة من الصمت حتى يهدأ، انتهى بهم السير فوق مقعد أسفل الشجرة الوارفة يواجه ليل النيل بتموجاته الهادئة، جلس "عبدالله" بساق مثنية أسفل الأخرى مواجهًا جانب أخيه المصمت، حط بيده فوق ساقه يسأله بنبرة مهتم لن يبرح موضعه حتى يعرف ما يقلب كيانه ويعكر صفو أيامه:

- إيه عامل فيك كده؟..

محني الجذع يرتكز بساعديه فوق فخذيه في صمت، احتاج للحظات حتى يحرر همسًا مختنقًا بحروفه:



- مخنوق من كل حاجة..

تعالى رنين هاتف الأول فقطع وصل الحديث، استقبل صوت صاحبه بقول مختصر مؤجلا موعد لقاءهم لوقت لاحق،ترك الهاتف بينهما وعاد للصامت في عبوس يعيد وصل الحديث المبتور:

- مخنوق من إيه؟..

زفر بأنفاسه ومد بساقيه أمامه في تقاطع مغمغمًا بحروفٍ مثقلة:

- مفيش حاجة تتقال يا عبدالله..

- هو أنا هقعد طول الليل أحايل فيك؛ ما تخلص!..

ولأنه في حاجة أن يفضي بما يجيش في صدره إلى نصفه الآخر؛ تكلم..



حينما انتهى؛ انتفض "عبدالله" عن جلوسه صائحًا فيه من علو غير مصدقٍ لما لفظ لسانه من كلمات:

- دفعت له كل الفلوس اللي حيلتك، إنتَ عبيط يا بني ماقلتليش ليه؟!..

رفع رأسه يقابله باحتداد النبرة والزعقة:

- كنت هتعمل إيه يعني؟ ما أنا سألت محامي و اتنين وقالوا مفيش حل غير الدفع، كنت عايزني أعمل إيه، أستنى أما الموضوع يتفضح وسيرتها تبقى على كل لسان و أقعد أسمع محاضرات لوم وتأنيب من أبوك..

هبط انفعال الشقيق عقب كلماته، عاد يجاوره في جلوسه ويربت فوق خاطره بطيب الكلمات:

- تمام فهمتك، إنتَ صح، ماكنش ينفع تسيب الموضوع يطول خاصة مع واحد زي ده مش مضمون ممكن يعمل إيه، حقك عليَّ متزعلش..



سكت والهم يشكل عنوانًا لتقاطيع وجهه، دنا "عبدالله" منه رافعًا ذراعه فوق منكبيه مهونًا من أمره الجلل:

- خلاص بقى روق، كل حاجة هتتحل ماتقلقش..

ندت عنه نصف ابتسامة ساخرة مغمغًا في يأس:

- هتتحل إزاي دي اتطربقت من كل حتة، صاحب معرض الموبيليا كلمني عايز باقي فلوسه عشان يسلمني الحاجة، قلت له اديني يومين واليومين خلصوا و أنا مش عارف أعمل إيه، أجيب تلاتين ألف جنيه منين؟ غير فلوس عبلة طبعًا موال تاني..

أخبره في بديهية صاحبت الوضع المتأزم:

- الصبح بإذن الله نروح البنك سوا، نسحب الفلوس وتاخدها تخلص كل اللي بتقول عليه ده..

حدجه "عبدالرحمن" بنظرات معترضة وازت كلماته الجامدة:



- وبعدين؟ كده نبقى عملنا إيه؟ فكينا أزمة بأزمة تانية.. دي فلوسك وأنا مش هقبلها،ماكنتش عايز أتكلم عشان كده أصلًا..

- وهي فلوسي وفلوسك إيه؟ ما طول عمرنا واحد..

- دي فلوس جوازك يا عبدالله أنا مش بقولك مزنوق في مية جنية..

- يعني أخوك ولا الغريب؟..

- يابني المشكلة تخصني، ذنبك إيه إنتَ تدفع كل اللي حيلتك وماتعرفش تمشي أمورك بعد كده..

- إنتَ عبيط يالا؟ أمور إيه اللي أمشيها، ده على أساس إن العروسة و اقفة على الباب مثلًا وخلاص هتجوزبكرة..

سأله بوضع مزري لا يشي بفكاهة:

- هي الآنسة فاطمة نفضت لك ولا إيه؟..



ضحك "عبدالله" وأصابعه تصنع خطًا طوليًا فوق موضع صدره:

- لا شكله في قفل مصدي هنا لا نافع معاه الآنسة فاطمة ولا غيرها..

دحض "عبدالرحمن" محاولاته في حيز الواقع والحقيقة:

- على العموم مسيرك تلاقي اللي تكسره..

- وقتها تكون فُرجت..

أغلق الحديث بقسم إلهي لن يتراجع عنه:

- والله ما هاخد مليم واحد، ماتخلنيش أندم إني اتكلمت..

طوى تلك الصفحة مع صلادة رأسه وفتح صفحة أخرى يدرك تمامًا أن نصف شقائه معها:

- طيب ماشي سيبنا من ده دلوقتي وقول لي آخرة اللي بتعمله مع ندى ده إيه؟..



ألقى برأسه للوراء مع تنهيدة قوية قابلت رحابة السماء بضيق صدروكلمات أخيه تهدي قلبه الثائربلسم الغفران:

- إنتَ أكتر واحد عارف إن ندى مستحيل تفكرفي حاجة فيها أذى ليها أو ليك، بس واحدة في سنها وقلة خبرتها سهل تقع في فخ نصاب زي ده..

- راحت له برجليها يا عبدالله ماتدافعش عنها..

- تمام هي غلطت مش بدافع، بس اللي حصل؛ حصل و انتهى.. أيًا كان يحسب لها إنها جريت عليك تقولك وتعترف بغلطها قبل ما المصيبة تبقى اتنين، احمد ربنا إن خوفها ماسيطرش عليها وخلاها تتصرف تصرف تاني..

سكت هنيهةً أردف له عقبها:

- شافت فيك طوق نجاة بلاش تكون كرباج كل شوية يجلدها ويفكرها بذنبها..

همهم أخوه:



- بتقول كده عشان أعدي الموضوع رغم إنك لو كنت مكاني ماكنتش هتعديه..

- معاك حق، بس زي ما قلت لك اللي حصل؛ حصل، وصول الموضوع لعمك هيعقد الدنيا أكتر وماتضمنش رد فعله يكون إيه معاها، كمل اللي بدأته وماتحطهاش في موقف زي ده قصاد العيلة والناس..

طرق فوق حديده اللين بقول أخير ألبسه ثوب التفهم:

- أنا فاهم شعورك ومقدره جدًا على فكرة، وفهمت إنك بتبعد نفسك عنها لحد ما تتجاوز غضبك، بس لأ يا عبدالرحمن، انتوا مهم تتكلموا وترتبوا أموركم سوا..

أما قالوا أنَّ: الإخوة معاطف دافئة؟..

كان له مثل هذا التوصيف هذه الليلة.





بيدين مرتجفتين وضع المفتاح بداخل المزلاج، يفتح الباب ويدلف مغلقًا إياه من خلفه، يخلع سترته الرمادية ويلقي بها فوق مقعد المائدة القابع في طريقه، تحفظ خطواته الطريق المؤدي إلى غرفة النوم، يظنها تمكث هناك في انتظاره عقب اتصالها المطالب بحضوره على وجه السرعة، حين ولج واجهه الفراغ، خرج منها ونداءته تصاحبه:

- بيللا.. حياتي أنتِ فين..

- أنا هنا يا سالم..

عاد خطواته حيث البهو ليجدها تحتل جانبه، تجلس فوق المقعد الوثير بحضور مهيمن اقتحمه باقتراب فوق متكأ المقعد ويده تلاطف وجهها بلقاء:

- تطلع إيه الحاجة اللي ماتستناش دي يا روحي وطلبتيني بسرعة عشانها..



أمسك بذقنها يرفع وجهها إليه قائلًا بعبث رأته لم يناسب مشيب رأسه حتى أنه أثارمن حنقها:

- معقول وحشتك؟..

أبعدت يده عن ذقنها في حدة، تهديه نظرة جليدية رافقتها نبرة مماثلة:

- احنا لازم نتجوزرسمي..



(15)

على أعتاب الخسارة ندرك..

نصحو من عالم الوهم والزيف ونتراكض باحثين بقلب واجف عن طوق النجاة، نتشبث بخيط الأمل الضعيف مؤمنين بأوانٍ لم يفت بعد..

هي التي لم تعرف لغير نفسها ونسًا وصاحبًا تشعر بحالها مفقودة، تتماهى مع الأيام بلا معنى أو شعور، تضيع في غيابه الذي فرضه و أقامه، هو من وسم اسمها فوق ثوب زفاف و أهداه له مخلصًا في نو اياه معربًا عن رغباته فلم يجد منها غير الغياب المعنون بالصد والعزوف..

كان ذاك النهار آخر عهدها معه، اختفى من حياتها كأنما لم يكن يومًا، انقطعت اتصالاته، حضوره، لم يتبقَ منه غير ثوبه المعلق



بخزانتها ليذكرها بكل حدث وكلمة جمعت بينهما، أخذ برفضها لدعوته رفضًا أخيرًا لكل ما يحمل من مشاعر فكان عندها الابتعاد وقطع الوصل فرضًا واجبًا على كل عاشق مخذول..

فترة غيابه كانت مرحلة تقييم واختبار لمشاعرها الوليدة بمهد العشق، والتي أعلن فيها القلب بكونه المنتصر بلا خصم، فالمحتل لرتبة زوج بلا شرعية لم يقترب من أسوار الفؤاد الحصينة منذ أن التقيا وحتى هاته اللحظة..

نال الأول عذرية الجسد

والثاني عذرية القلب

- احنا لازم نتجوز رسمي..

قالتها ومبتغاها فض نزاع يربك عالمها، خلاص من واقع ماعادت تطيقه نفسها ولا ترغبه، نفسها التي باتت تشتهي آخر وتتوق لرؤيته في ظمأ يجتاح روحها، ولأنها تعرف الماثل أمامها



كم يهتم لاسمه ووضعه أمام الناس أصابت مسلكها معه، بدأ عرضها مع ارتباك ملامحه وتلعثم حروف:

- أنتِ حامل؟!..

نهضت عن جلوسها تقطع قرب أنفاسه، تسير أمامه ساخرة بضحكة مبتورة قبل أن تستدير له بوجهها الجامد كحال حروفها:

- ومالك اتخضيت كده ليه هو ده مش وارد يحصل؟..

طالعها بنظرات متقدة ينهشها الظنون، دحضت ظنونه مع اردافتها التالية المتأرجحة مابين استهانة وسخرية:

- على العموم متخافش مفيش حاجة من دي..

- امال عايزه نتجوز رسمي ليه..

قالها باستغراب مصطنع ونحنحة دون حاجة بينما يتبع خطواتها السابقة وينتهي أمامها باستطرادة باردة:



- احنا مش متفقين إن اللي بيننا يفضل في السر، إيه اللي حصل؟..

رفعت له عينين صارمتين:

- اللي حصل أن مابقتش قادرة أستحمل الوضع ده، أهلي بدأو يشكوا فيَّ، كل يوم والتاني عريس شكل و أنا حججي خلصت..

- عادي يا بيللا اخلقي حجج جديدة مش هتغلبي!..

قالها في بلادة واستدار موليًا ظهره ثم جالسًا فوق مقعدها السابق بساق فوق الآخر مستمعًا لصياحها وقد نجح في إشعال حنقها:

- لا غلبت يا سالم..

صمت للحظات مفكرًا في كلماتها لحين انتهى به الحال فاتحًا ذراعيه، ماطًا شفتيه في قلة حيلة:



- أنا نفسي تكوني مراتي قدام كل الناس بس صعب يا بيللا ماقدرش أهد بيتي بعد العمر ده كله..

تقدمت تلقي فوق رأسه بمطلبها مجردًا بلا أي التفاف أو تلاعب:

- يبقى نتطلق يا سالم وكل واحد فينا يروح لحاله وتحافظ على بيتك ومراتك..

نقر فوق متكأ المقعد بالسبابة مع سؤال مبطن:

- و أنتِ؟..

- أنا إيه؟..

- في حد شاغل بالك وعايزة تفضي له..

- إنتَ اتجننت!..

نهض عن جلوسه المسترخي بغتةً قابضًا على ذقنها بقوة، قادحًا في عينيها الشرر:



- أوعي تكوني فاكر اني راجل مغفل ومش واخد بالي من تغيرك معايا لدرجة مش طايقة ألمسك ولا أقرب منك..

انفرجت ابتسامتها بين أصابعه دون أن تأبه لشدة قبضته:

- طيب كويس إنك واخد بالك..

ضحك في تهكم:

- شبعتي يا بيللا..

شيعته بنظرة مزدرية ونفضت يده عنها بحدة قول واحد:

- لا قرفت..

قهقه بشدة وخطواته تتركها ليعود إلى جلسته المترفعة، يبتر الضحكة بغتة بكلمات حوافها مسننة:

- ماعنديش مانع نفضها، بصراحة كده مابقتيش عارفة تبسطيني وزهقت..

أتبع كلماته بسبابة ارتفعت باستدراك مردف:



- بس عشان نفضها و نخرج حبايب زي ما دخلنا في شرط..

اكتفت بعقد ذراعيها وعيناها تضيق بنظرتها رافعه رأسها للأعلى في ثبات مع تتابع كلماته:

- الشقة دي ترجع باسمي، مش معقول أسيب لك شقة تمنها يقارب لنص مليون مكافئة نهاية خدمة، كل واحد أولى بحقه يا روحي.. وبالنسبة للسنتر..

طرقت الأرض بحذائها تقاطع استرساله بهتافها الصادح بعلو وثبات ونظرة ثاقبة تخترق عينيه تلو روحه:

- السنتر حقي، كل أقساطه أنا اللي سددتها ومازلت بدفعها..

فكت عقدة ذراعيها وتقدمت خطواتها إليه، ترنو من وجهه بجذعها وتهمس له عقب غمزة عين حملت له تهديدًا مبطنًا:

- ومن مصلحتنا احنا الاتنين يا سالم نخرج حبايب عشان إنتَ عارف أنا وقت الجد مابيهمنيش وممكن أجيب عاليها واطيها في ثانية..



ختمت حديثها بفرقعة إصبع ثم عادت بجذعها تنهي كلماتها بجملة أخيرة زينتها بغنجٍ مسممٍ:

- قولت إيه يا سلومي؟..

تبتسم لها منهيًا ما بينهما ببساطة تليق بوهن مايربطهما معًا، مجملًا إياه بسخرية تشبه خاصتها:

- مش هنسى أيامك يا بيللا..

- أنا بقى هعمل المستحيل عشان أنساها ياروحي..

بسخرية..

بألم..

بشعور حارق أنك بالمكان الخطأ مع الشخص الخطأ، في زمان لا يناسبك..

بأمل يلفظ رمقه الأخير؛ مصدقًا أن أوان الفرص لم يفت بعد.





ليلة قمرية انتصف ليلها مابين بوحٍ وراحة..

وإن لم يتغير شيئًا مما أفضى به، يكفي أن قاسمه أعباء صدره ليخفف عليه من حملها..

عادا جنبًا إلى جنب، يتجاوزان البوابة الرئيسية، يوصيه الشقيق للمرة العاشرة ربما وهما يصعدان الدرج:

- تبوس رأسه وتعتذرله ولو هزقك بكام كلمة تبلعهم من سكات لأنك تستاهلهم.. تمام؟..

نفخ "عبدالرحمن" في ضجر دون رد فلكزه أخوه بكوعه مشددًا على كلماته بتكرار:

- تمام؟..

- تمام ياعم خلاص..



تقدمه "عبدالله" يفتح الباب بمفتاحه الخاص يتبعه الآخر بقسمات خجله مستعدة لمقابلة أبيه الغاضب عليه، لكن؛ الفراغ القائم قابل كليهما مثيرًا زوابع القلق..

- ماما؟..

هتف"عبدالله" متفقدًا المطبخ وغرفة نوم والديه منتهيًا بالشرفة، لم يجد أثرًا لأيٍ منهما، عاد لأخيه الباقي عند الباب بملامح متغضنة بإنصات لهمهمات وأصوات آتية من الطابق العلوي، عندما تأكدت أسماعه دار على عقبيه وقبضة فزع تلكمه آكلًا الدرجات بخطوات واسعة انتهت به أمام الباب النصف مفتوح، دفع به ليجد الجميع حاضرين متفرقين في جلوسهم، مرر بصره فوق"رنا" المحتلة لمقعد المائدة بوجه حفرته آثار البكاء، مع دخول شقيقه نقل بصره إلى عمه الواقف بالمنتصف، اقترب بخطى مثقلة وقلب واجف ملتقطًا



جلسة والديه وجدته الصامتين في الجوار بطرف عينه، توقف أمام عمه بسؤال مبهوت كحال وجهه و أنفاسه المتباطئة:

- ندى فين..

طالعه العم بنظرات مؤنبة أولًا ثم أتبعها بكف حط به فوق كتفه مطمئنًا إياه بطرفة عين:

- بقت كويسة ماتقلقش..

كلماته لم تطمئنه بل ضاعفت من وتيرة قلقه:

- حصل إيه..

بدأ الأمر بها بين ذراعي أمها تبكي بهستيريا وكفها مكور فوق صدرها الذي راح يختض بشهقاتها وضيق تنفسها لتنتهي فاقدة للوعي مع صرخات"رنا" التي صدحت ترج أركان البيت وتراكض لأجلها كل ساكنيه..



- أطمن ياحبيبي تعبت شوية بس كويسة دلوقتي، دهب معاها جوه أستأذن عمك وأدخلها..

أخبرته الجدة التي جاورها الشقيق في جلوسه محاولة تهدأة فزعه البين، عاد إلى عمه بعينين تسألاه الإذن تلون برجاء صامت والأمر يتضح مع نظرات شقيقتها الحارقة التي تشيعه بها، ماحدث لها كان بسبب ما صار بينهما فوق الدرج، ربت العم فوق وجنته بكفه مانحًا له الإذن بتبسم لطيف تبعه إشارة خفية من رأسه قصد بها أباه الجالس بركنٍ قصيّ كي يأخذ برضاه أولًا..

أقبل عليه "عبدالرحمن" مقبلًا رأسه ثم جاثيًا فوق ركبته ملتقطًا يده الحاملة لمسبحته يلثم ظاهرها ورأسه ينكس أمامه في خجل من لقائه الذي أعرض عنه أبوه، وجهه يلتفت جانبًا مستغفرًا بصوتٍ مرتفع وز افرًا ثم عائدًا له بتقريع:



- اللي بينك وبين خطيبتك تحلوه بينكم، احنا مش ناقصين شغل عيال ووجع دماغ..

- حاضر..

دمدم بها في طاعة وقول خفيض رده أبوه بمزاح ثقيل رآه يستحقه:

- خلاص إنتَ هتعيط، قوم شوفها خليها تبطل المناحة اللي عملاها دي..

نهض قاصدًا غرفتها و أقدامه تحفظ الخطى عن ظهر قلب، استمع لهمهمة أبيه المستأذنة برحيل وقد اطمئنوا على وضعها بينما يطرق الباب مرتين ويدلف، وجدها تتوسد فراشها وأمها إلى جانبها تأخذ بها إلى صدرها تنشج فوقه بخفوت بينما شقيقته تمسك بكفها من الجانب الآخر وكانت أول من استقبله بكلماتها وتبسمها:

- أهو جالها اللي هيخليها زي الفل..



لكن زوجة عمه كان لها رأي آخر وهي تستقبله بعتابها الصارم:

- كده يا عبدالرحمن، هانت عليك ندى؟..

نهضت"دهب" التي استيقظت من نومها على صوت صياح أبيها مع أخويها ثم ابنة العم التي هزت أركان البيت، تأخذ بزوجة عمها تاركة للشقيق الفرصة يصلح ما أفسد:

- تهون إزاي بس يا طنط؟ تعالي احنا نخرج ونسيبهم شوية براحتهم وكل حاجة هتبقى تمام..

كان الحوار القصير يدور حولهما بينما "ندى" الغارقة بعبراتها وبكائها الخافت تنكس برأسها وهو ثابت البصر فوقها في صمت ابتلعهما معًا، مرت شقيقته من جواره تطمئنه بكلمات مختصرة وتدفع به ناحيتها كاسرة جموده وصمته قبل أن ترحل آخذة زوجة عمها بيدها..

قطعت أقدامه الخطوات القليلة لينتهي مقابلًا لها بجلوس فوق الفراش، مع اقترابه زاد نحيبها واهتزاز كتفيها دون أن



تواجهه بالنظر، كانت آسفة ونادمة، حزينة لأنه يتبع معها أقسى العقوبات تكفيرًا عن ذنبها، وهذا ما فاق تحملها فسقطت بانهيار..

لم يكن هناك مجالًا للحديث وهو يراها بهذا الحال، أخذ بها إليه معانقًا، تفعل المثل وتذيب مابينهما من خصام مع عبراتها الساقطة فوق صدره وذراعاها يشدان على ضمه بكل قوتها، لم يقطع وصلة بكائها، تركها تنتهي وتسترد أنفاسها على مهل لتبتعد برأسها قليلًا، تقابل عينيه وتهمس بعبرات تلألأت بها مآقيها:

- أنا آسفة..

زفر بتعب وعيناه تعاتبها:

- أعمل فيكي إيه؟ أكسرلك دماغك دي ولا أعمل إيه؟..

عادت تعانقه وحروفها تتشح ببالغ الأسف والنحيب:

- أنا ماعرفش عملت كده إزاي..



مسح عن رأسها بلين صاحب نبرته:

- بطلي عياط طيب..

ابتعدت تمحي عبراتها وتحدثه بشجاعة المعترف بذنبه:

- عاقبتي زي ما تحب إلا إنك تخاصمني وتبعد عني، أي حاجة ترضيك هعملها..

احتوى وجنتها الرطبة بكفه، يقطع سيل عبرة جديدة تسيل بإبهامه ويتبسم لها بلطف داحرًا كل الغضب والحزن الذي قام بينهما:

- يرضيني إنك تعرفي أنتِ إيه عندي فتحافظي على نفسك وتصونيها..

سألته في تحشرج كلمات:

- يعني إنتَ لسة بتحبني؟..

- هو عشان زعلت شوية أبقى بطلت أحبك؟..



- ماكنتش طايقني، خوفت تكون كرهتني..

ختم أحرفها بقبلة مباغتة اجتاح بها وردية ثغرها الشديدة إثر البكاء، قبلة حملت لها مكنون الشوق والعشق قبل أن يبتعد صاحبها ويرتكن بجبهته فوق خاصتها ليبثها إياهم:

- صحيح كنت زعلان وواخد موقف بس ده مايمنعش إنك وحشتيني وإن الحياة من غيرك مالهاش أي طعم..

ابتعد مردفًا لعينيها بثغرباسم:

- قمربالحجاب بالمناسبة..

سارعت هي بالقبلة هاته المرة، واحدة موصولة بقوة مشاعرها النابضة بألم عقب همسه، تقابل عينيه وتهمس بشفاها أمام شفتيه بنبرة النادمة ندم العمر:

- يارب أموت قبل ما أزعلك تاني..

لثم جبينها، هامسًا بخفوت:



- بعد الشر، ماتقوليش كده..

أشرق وجهها عن تبسم ناعم، زاده احمراره حلاوة:

- يعني خلاص سامحتني؟..

رفع لها أحد حاجبيه:

- يعني بعد قلة الأدب دي كلها لسه في زعل؟..

ضحكت بخفة وسعادة قبل أن تستكين قسماتها وتتبادل معه النظرات الصامتة للحظات، سألته بعدها في جدية:

- هنعمل إيه؟..

حركت رأسها يمنة ويسرة برفض واهن مردفة بحزن جلي وكفاها يسكنان كفيه:

- مش عايزة أخليني جنب أمي يا عبدالرحمن..

- مين هيخليكِ أصلًا..



قالها مداعبًا تكشيرة أنفها لتنحي القول جانبًا وتتباحث معه عن حلول و اقعية:

- خلاص نبيع الشبكة ونتجوز..

سايرها في الحديث بجدية مفتعلة:

- نبيع الشبكة ونقول لأبوكِ إيه؟ وبعدين شبكتك كلها على بعضها يا ندى ماتجيبش أوضة النوم..

- مش لازم أوضة كاملة كفاية سرير ومرتبة ومعاهم دولاب صغير..

- سرير ومرتبة!..

- أيوه..

- طيب وباقي العفش؟..

- ما هو نجيب الضروريات والباقي نكمله واحدة واحدة براحتنا..

- والناس تقول علينا إيه؟..



- ده بيتنا واللي مش عاجبه مايجيش..

- والفرح يا مجنونة؟..

- مش مهم..

حك ذقنه النامية مازحًا:

- أنا لو واخدك تخليص حق مش هنتجوز بالطريقة دي..

نهرته بجدية:

- يا عبدالرحمن بجد أنا مابهزرش..

طوى المزاح جانبًا واستعدل في جلوسه متملكًا من كفيها من جديد مخبرًا إياها:

- طيب نتكلم جد، هبيع الشقة ونجيب بدالها واحدة أصغر، وبفرق الفلوس نكمل الناقص ونتجوز..

صمت هنيهةً تابع فيها نظراتها الحزينة، غمغم بأسف:



- كنت مأجل الخطوة دي كحل أخير، كان نفسي يكون في حل تاني بس.. ماتزعليش، بكرة ربنا يعوض ونجيب أحسن منها..

لم تستطع التحكم في ارتعاشة صوتها:

- أنا زعلانة عشانك، عشان عارفة تعبت فيها قد إيه، دي كل شبر فيها معمول على ذوقنا.. بس كل ده بسببي، لوماكنتش اتصرفت بغباء ماكنش حصل كل ده..

طاف بصره فوق وجهها، يده تمسد خصلاتها القصيرة المسدولة على جانبه قبل أن يزيحها خلف أذنها هامسًا لها:

- خلينا نقفل الصفحة دي وننسى، مش المهم إننا سوا ولا إيه..

محت بأصابعها عبرات غبية تصر على الهطول بينما تهز له رأسها في تأكيد وشفاها ترسم تبسمها قسرًا لونته بهمسها الناعم:

- أنا بحبك قوي قوي..



- طيب بذمتك ينفع السهوكة دي تتكروت؟..

وأخذ بكفها لتقابل راحتها شفتيه في لقاء خاص:

- دي يتعملها أحلى فرح..

وغمزة ضاحكة، تسبق لثمته التالية:

- وأجمد دخلة..

وكان للحديث بقية لولا أبوها الذي فتح الباب عنوةً مقتحمًا خلوتهما بهتاف:

- إيه يا حبيبي لسه مخلصتش مصالحة؟..

تنحنح"عبدالرحمن" الذي نهض مقابلًا عمه متبسمًا له في خبث:

- مصالحة إيه بقى يا سيد ده أنا عملت معاهدة سلام..

- وريني شطارتك بقى مع حماتك اللي قالبة عليك..

- منال؟ لولو دي حبيبتي هما بوستين والموضوع خلص..



- طيب اقفلي المبوسة اللي فاتحها دي يا روح أمك ويلا من غير مطرود من أوضة البنت..

قفزت ندى من داخل الفراش تتعلق بذراعه محدثة أبيها بحماس:

- بابا عبدالرحمن هيتعشى معانا..

- كنتِ بتموتي من ساعتين دلوقتِ نفسك اتفتحت؟..

تحركت ضاحكة تعانقه بقوة قبل أن تذهب إلى أمها وتتركه يسحب ابن أخيه لينفرد به داخل غرفة الجلوس، يتقابلان فوق ساحة أحاديث الرجال.. بدأها العم:

- شوف يا عبدالرحمن أنا أما و افقت أجوزك ندى مش عشان إنتَ ابن أخويا وزي ابني وبس لأ.. عشان عارف إنها محمية في ضل راجل سواء أنا موجود أوغايب، أنا ماعنديش مانع تعرفها غلطها، و أنا متأكد إن بنتي غلطانة من غير ما أعرف الحكاية،



هي طالما سكتت تبقى غلطانة، أما يكون الغلط منك بتفضحك وتعيش دور المظلومة..

حاول الحديث فقاطعه:

- معلش سيبني أكمل كلامي، عاقبها وعلمها وشد عليها وقت اللزوم بس بالعقل ما تسيبهاش لحد ما تقع من طولها، الطريقة دي مش صح مع ندى بالذات..

صمت العم للحظات تابع بعدها بحنو أب يبغي لفتياته كنف السعادة:

- ندى شخصية مندفعة معظم تصرفاتها بدون تفكير وده بيخليها تغلط كتير، لو فهمت النقطة دي وتعاملت معاها إن شاء مش هيكون بينكم أي مشاكل..

ثم ربت فوق ساقه بختام حديث:

- أنا مخلفتش راجل أأمنه على أخواته من بعدي، بس إنتَ ابني وأنا بأمنك على حتة مني..



والرد مدفوع بحمية رجل يصدق قوله:

- أمانتك غالية ومتصانة يا عمي..

مواثيق القلوب يكتبها العشاق..

أما مواثيق الصدق؛ يكتبها الرجال.



أرض الفقد شاسعة..

بلا جدارن أو منتهى، فقط تحملك فوق رحابتها وتضيع بها فاقدًا ومفقودَ الهوية، يتشابه نهارك وليلك دون فارق، تتشابك أيامك في حلقة موصولة أولها لا يختلف عن آخرها..

مع غيابها فقد كل معاني الحياة..

تمر به الأيام برمادية مهلكة..

يلوذ بعزلته بعيدًا عن الجميع مستسلمًا للصمت الطاغي بهيمنته..



قتلته بخذلانها وتخليها..

كيف أمكنها؟..

كيف استطاعت رد يده الممدودة لها تتوسلها النجاة!..

أعرضت عنه دون أن تلتفت رغم مناداته، وكأن لم يكن بينهما شيئًا على طول العمر..

طرقات ملحة فوق الباب أخرجته من شروده ليلقي بجهاز التحكم الخاص بالتلفاز المفتوح دون حاجة، نهض في تكاسل يستقبل الصديق الذي يصر على المجيء رغم طرده السابق له..

طالعه"عزيز" بملامح لا تشي بشيءٍ ودار عائدًا إلى موضعه السابق، يلقي بجسده فوق الأريكة بقسمات تتجهم في جمود راقبها الصديق قبل أن يرتمي جالسًا على المقعد المجاور محدثًا إياه:

- روحت لك الكافيه قالوا لي مشيت..



لم ينظره أو يحدثه فعاد الصديق يطارحه المزاح الثقيل:

- وأخرتها معاك يا هاني يا شاكر، هتفضل كده مكتئب لحد أمتى؟..

وسارع باستطرادة حماسية:

- قوم غير هدومك وتعالى أسهرك حتة سهرة تنسيك هموم الدنيا..

شيعه بنظرة حارقة قبل أن يغمغم له في ازدراء:

- أنا مش قايل مش عايز أشوف وشك، إيه جابك؟..

زمجر "سعد" بتأفف مكررًا له كلماته للمرة الألف عله يعذره:

- مش هنفضها سيرة بقى يا عزيز، أنا كنت أعرف منين يعني إن أهلي هيطبوا علينا والدنيا تتلعبك و مر اتك تشوفك..

اعتدل "عزيز" جالسًا يمسك بهاتفه، ينظر إليه ثم يلقي به جوار كلماته الغاضبة بقرف:



- هي غلطتي من الأول، غلطتي إني مشيت وراء واحد وسخ زيك..

- أنا مقدر اللي إنتَ فيه ومش هزعل منك يا صاحبي..

- ما تزعل ولا تغور في داهية..

- ياعم لم الليلة بقى، إنتَ مش أول ولا آخر واحد يطلق يعني، وبدال ما إنتَ قاعد تغني ظلموه قوم شوف حالك ماحدش بينفع حد، وأول ناس إنتَ مش فارق معاهم هما أعمامك..

يأكل صدأ أفكاره بكلماته المسننة..

يعيث بنفسه سموم الأفكار فيدعك صدغه ويأمره بفظاظة وغلظة:

- قوم امشي يا سعد مش ناقصك ولا طايقك..

- همشي وعقلك في راسك اعرف خلاصك، لو احتاجت حاجة كلمني..



يرحل الصديق ويتركه وحيدًا، يلفه الصمت ويقتات ببطء على فكره وروحه.



كان لديها حياة خاصة أقرب لصندوق مغلق..

لا تدري متى امتدت كل تلك الأيدي إلى داخلها لتعيث بها الفوضى..

ماعادت تعرف ماهية الصواب من الخطأ، هل كان الخطأ عندها أم معه؟..

لا تعرف، ولا تبغي الآن، الآن يكفيها لحظات من القلق تكابدها، هاتفها فوق أذنها لا ينقطع فيه الرنين باستجابة تطمئنها، تتخبط خطواتها يسرةً ويمنةً، تذهب لشاشة الحاسوب لعلَّ أحدًا منهما يظهر لكن لا أحد..

على غير العادة طفلاها غائبان الليلة!..



تتفقد أمها حالها القَلِق كل حين، تطالع قلقًا ينهشها فتتمتم لها بحنق:

- جمدي قلبك، دي حركات مفقوسة قاصدها البيه عشان يضغط عليكِ..

تمسد جبهتها والغصة تقف بحلقها، تتجاهل كلماتها وتبدأ اتصالًا جديدًا يمضي به الرنين حتى تفقد أملها بغير جواب..

تهمهم أمها بقولٍ غير مفهوم لا تتبينه ثم تغلق عليها بابها وترحل، تعيد الكرة مرة بعد مرة تنتهي بخيبة رجاء..

بعد وقت طويل وبينما كانت تقف على حافة الجنون وصلها صوت صغيرها، يتهدج ببكاء ويصرخ بحاجة:

- مامي سنا تعبانة..

كفها المنبسط فوق صدرها يختض بفزعها وكلماتها العسيرة:

- أختك مالها يا عمر؟!..



يمسح الصغير عبراته ويأخذ شهيقًا قصيرًا يلضم به أنفاسه ليخبرها:

- الدكتورقال هتبقى كويسة، بس هي لسه نايمة..

هتفت به وصبرها يحترق:

- اديني بابا يا حبيبي..

لحظات وكان يصلها صوته الرخيم في جمود:

- نعم..

تسلحت بالصبر والهدوء الكاذب لتسأله بذات الواجهة الجليدية رغم تذبذب الحروف بانكسار:

- سنا مالها؟..

- دورالحمى اللي بيجي لها..

- عاملة إيه دلوقتي؟..

- أحسن كتيرالحمد لله..



- اتصلت كتير ماكنتش بترد ليه؟..

- نسيت الموبايل، كنا في المستشفى ولسة راجعين..

الكلمات ساكنة بلا روح..

يظللها كآبة وتخنقها أنشوطة الذنب..

كلاهما يشعر بحاله مسئول فيما آلت إليه الأمور..

قد يختلفان في كل الأمور، لكن في واحد هما متفقان..

في تعاسة الصغار كلاهما مذنبان

ران صمت جمع كلًا منهما فوق طرف، حتى قطعته النبرة الدخيلة من ناحيته:

"أبو عمر، بس تفيق سنا طعميها هاي الشوربة وإن شاءالله مافيها إلا العافية.. بدي أستأذن هلا وإذا بدكن إشي بتحاكيني فورًا"



شكرها مغمغمًا بالكلمات وعاد إلى المنتظرة فوق الهاتف بصمتها منذ حين، وجد أنفاسها تُلفظ بعسر منتهية بقول جامد:

- عايزة ولادي، احجزلي على أول طيارة..

قالت هذا وقطعت الاتصال بينهما دون كلمة زائدة لتواجه نظرات أمها الصارمة، والصارخة فيها تتهمها بخبال:

- بر افويا نادية وصلتيه للي عايزه، لوى دراعك وخلاكي تجري وراه زي العبيطة..

- بس بقى ارحميني، بنتي تعبانة ومش قادرة أكون جنبها، أنتِ مش حاسة بيَّ فالحة بس تديني أوامر، أنا مش بجري وراء حد ولا بقيت عايزة حد منكم، أنا مش عايزة غيرولادي..

صرخت فيها بقهرلتصمت..

لتتركها بحالها..



هي ملت أمها وزوجها، ملت هذه الحياة التي تركلها مثل امرأة بائسة مسلوبة الرأي والإرادة، ملت العناد و إثبات أمورلا طائل منها غير أذية طفليها..

سئمت هذا الحال وستضع له نقطة نهاية.



مركز الإحساس لدنه أصابه خلل..

جاءه هاتف خلف من ورائه مجموعة مشاعرتتضارب ببعضها البعض، لا يعلم إن كان سعيدًا، غاضبًا..

ممتنًا، لديه قبول، رفض..

كل هذا و أكثركان يعتمل فيه وهوعائدٌ من العمل، وصل البيت بوجه غلب عليه التجهم، قصد غرفته في الحال ليجد أخاه العائد من الخارج قبل دقائق ينهي تبديل ملابسه..

وقف أمامه يقابله بوجهه ذاك:



- أشتمك يعني دلوقتي، ليه عملت كده؟..

"عبدالله" الذي فهم ما يرمي إليه توأمه تبسم بمحياه اللطيف وأخبره بحنو النبرة وهدوئها المنافي لصخب الأول:

- عشان احنا أخوات فكان لازم أعمل كده..

لأنهما شقيقان سدد عنه دينه و أنهى أمر أثاث بيته العالق مع صاحب المعرض، بل وحول المال المتبقي إلى حساب الشقيق الخاص رافعًا ستار الحرج إذا ما احتاج يمكنه التصرف دون الرجوع إليه..

فعل هذا كله ثم أخبره بهاتف!..

- لا مش لازم يا عبدالله، أنا كنت قررت أبيع الشقة وأجيب بدالها واحدة أصغر و أتصرف بفرق الفلوس..

- عايز تبيع شقتك بعد مادفعت فيها دم قلبك شغل وتشطيبات؟..



صمت"عبدالرحمن" وزفر"عبدالله" بقوة حاطًا بكفه فوق كتفه مردفًا بمفاد الكلام:

- بص يا بني عشان إنتَ زهقتني..

وفرد إبهامه معددًا:

- أولًا؛ ماينفعش تفضل راكن بنت عمك جنبك أكترمن كده، الموضوع طول بزيادة قوي وبقى ضروري يتلم..

أتبع هذا بتالٍ فاردًا السبابة:

- ثانيًا؛ كان لازم نرجع لعبلة فلوسها، بعد اللي حصل مع أختك من أخوها مش عايزين نكون مديونين لهم بحاجة، تمام؟..

والختام جاء مع الوسطى ومحياه الباسم يشرق له بمحبة:

- ثالثًا بقى إنتَ مكبر الموضوع ليه؟الفلوس هتتعوض، أقولك؛ احنا نخلي الحاجة تدخلنا في جمعية حلوة كده ونقبضها، ولا أقولك حاجة أحسن، اتجوز إنتَ بس وهوينا وسيب لي الشقة



هنا أظبطها بفرشتين و أقعد مع الحاج والحاجة أنا وأم العيال..

أعجبه هذا الخاطر الأخير فدمدم في إثره:

- طيب والله الفكرة دي عظيمة ربنا يرزقني بس بنت الحلال اللي تو افق..

كان ينظر له "عبدالرحمن" ممتنًا لفعله، شاكرًا لوجوده الذي لا يعوضه آخر، أخبره حين توقف عن الحديث:

- مش عارف أقولك إيه..

لكن هو يدري..

عانقه بقوة، ضرب فوق ظهره مؤازرًا وسعيدًا..

- مبروك يا عريس..

وليلة كتلك اكتملت مع وجبة عشاء دسمة من صنع يدي والدتهم، و انتهت مع الشاي المنعنع جمع خمستهم داخل



الشرفة الفسيحة، حدثوا شقيقهم الغائب، اطمئنوا على حاله وأولاده، بعدها غاب"عبدالرحمن" مع رنين هاتفه وخلد والديهم للنوم، لم يتبق غيرهما يتجاذبان نهايات الحديث، تسأله"دهب" في جدية باسمة:

- مش ناوي تتلم وتتجوززي أخوك..

رفع لها أحد حاجبيه مستفسرًا بخبث:

- شايفه لي عروسة ولا إيه؟..

- لأ بس أشوف لك لو عايز..

حك رأسه قليلًا مفكرًا ومتمتمًا:

- ماشي، تمام..

ضحكت بخفوت محركة رأسها في يأس أتبعته بصمت، سرعان ما اقتنصه ليبدد وحشته:

- وبعدين يا دهب..



نظرت له في تساؤل مع تقطيبة جبين، تدعي عدم الفهم في حالها الصامت الحزين، يقابلها بمصارحة:

- وبعدين في حالك، فين كلامك عند القوة وتجاوز التجارب؟..

حررت أنفاسًا مثقلة وهمسًا خافتًا بثته بعضًا مما يعتمل فيها محاولة التمسك بثبات النبرة فيفضحها تهدجها الواهن:

- ماكنتش تجربة يا عبدالله، كانت حياة..

تمتمت بهذا ونهضت من أمامه تنهي الحديث، بل تبتره وتقطع كل مايتعلق في أذياله من خيبات وجروح ما تفتأ أن تطيب حتى تعود من جديد..

وظن الجميع أن تلك نهاية الليلة..

لكن؛ قبل الفجر بساعة توالت الطرقات فوق باب منزلهم، ليست طرقات برتمها المعتاد، بل ضربًا كاد يسقط الخشب فوق رؤوس النيام، فزعوا جميعًا، أبوهم القريب وصل أولًا، فتح الباب ليقابله رجل بثياب مدنية من خلفه وقف إثنان



بثياب عسكرية، تقدم الضابط مندفعًا إلى الداخل، تبعه الرجلان مستنفران باتجاه الغرف تحت سؤال أبيهم واعتراضه الذي أوقفه الضابط رافعًا أمام وجهه هويته العسكرية..

نظرته الحادة بثبات التي بادله إياها الضابط كافية ليعرف أنه المعني، قبض على ذراعه بينما الرجال أصحاب اللباس العسكري يقلبون غرفته رأسًا على عقب، يأخذون بحاسوبه وكل ورقة تخصه غير آبهين لصياح أخيه وزعيقه، لا يؤثر فيهم بكاء الشقيقة ولا الأم المتكسر قلبها بتوسل ويدها تمسك بذراع ولدها تأبى تركه، في حين أبيه الواقف سقط فوق المقعد القريب بساقين خذلتاه بعد أن أخذوه من بينهم بأمر اعتقال.



(16)

يُحكى أنَّ..

على حافة الأفق غابت شمس الحقيقة..

لململمت أذيالها وتوارت خلف أسدال الليل بضعف، بخيبة ومهانة يحاوطها انكساروعجز..

قتامة الباطل أعظم، أيدي الظلم أشد بطشًا، حبال الطغيان أمتن، لجة الضيم أعمق وأشد حلكة من شعاع أحمق تخبط بين أعالي السخم..

أحمقٌ صدق أن الحق ممكنٌ له أن يعتلي صهوة جواد ويقتحم حصن الباطل صائحًا إني لمنتصر..

أحمق بارزالخيبة تلوالخيبة بسيف الأمل

صارع جهرالفساد بصرخة قلم..



سقط ومعه كل أشعاره الصادحة بصوت الإيمان والعز والكرامة، جميعهم تمزقوا بضربة واحدة، صاروا مثل قصاصات محترقة تبعثر رمادها في الهواء وحالت هباءً منثورًا..

اختفى بين ليلةٍ وضحاها، أخذ معه معنى الحياة وغاب، بقيت الوجوه كالحة، يخيم فوقها سحابة الكرب بجهل وضياع..

لِمَ أخذوه؟..

لا أحد يدري..

ماذا فعل ليُجازى؟.. ولِمَ هو وليس مرؤوسه الذي يتحمل المسئولية الأولى فيما يصدر عن جريدته؟..

والمعرفة هنا صندوق أسود دليله معه وحده..

وهو غائب..

غائب ودموع أمه تبكيه..

غائب وعجز أبيه ينعيه..



شتات توأمه يسطرعنوان تيه، كالسائربين ربوع صحراء خالية بلا دليل، أولى خطواته كآخرها، لايصل لبر، ولا يدري أي وجهة يتبع..

لم يبقَ أحد من المعارف ذي شأنٍ إلا وتوسلوا مساعدته، مابين صديقه المحامي وضابط شاب ذي صلة قرابة مع زوجة العم الأصغر، السيد المستشار جار السنوات والعشرة، ومن قبلهم كان"أسمر جوهر" طوق النجاة الذي تعلق على اسمه وعلاقاته الواسعة كل الآمال، لكن الحقيقة تنص على انقضاء ثلاثة أيام منذ أن غاب ولا جديد..

يتخبطون بحثًا عن خيط واحد يوصلهم به أو يستطيعون من خلاله الاطمئنان عليه، لكن دون فائدة، كل طرق الوصال مفقودة..

كانت الأم المكلوم جالسة ترغي وتزبد مع حالها، تتسائل بوعيٍ مضطرب عن حال أولادها، مابال الدنيا تصفعهم بلا هوادة،



كلًا بدوره، وكأن ماعاد في الكون غيرهم، لا ترحم ساكن الغربة وتتفنن في كسر قلب وحيدتها المسكينة، وفي الختام تأتي على زهرة عمرها لتجذها وترمي كلًا إلى طرف، واحد يختطفه الغياب والآخر يكاد يتلبسه الجنون، ترفع رأسها إلى خالقها بوهن أم لا تقوى على اختبار وجيعة تطال واحدًا منهم، تعود وتسأله ماذنبهم، يتلوى الفؤاد بين الضلوع فترجوه أن يأخذ من عمرها ويرحم أبنائها، تسمعها الابنة تثرثر بجهل مدمغ بنيران صدرها المشتعلة معترضة على قضاء الخالق فتحثها بلين، بتماسك تدعيه لأجلها و أبيها فيخرج صوتها رغمًا عنها متهدجًا:

- يا ماما أنتِ مؤمنة ماتقوليش كده..

تسكن حلقها الغصة والعبرة تعبأ الجفون الأرقه فتصمت عن المتابعة، تترك "ندى" وأمها و"مريم" الباقية عندهم منذ يومين ليأخذن بها فوق محمل الصبر والتصبر على قضاء الله وقدره بينما تعود هي حيث أبيها الصامت ورأسه المرتكز بجبهته إلى



راحة يده تاركًا لها اليد الأخرى تأخذ منها قياس السكر، تطالع الأرقام المنخفضة فوق شاشة الجهاز الصغير بعين القلق ثم تعود لأبيها ولسانها يستحثه برفق على أهمية تناول الطعام الذي يصوم عنه، لكنه لا يجيبها، يبقى على حاله، تتبادل النظر مع جدتها الجالسة بقربه في قلة حيلة ثم تبادر معه بمحاولة أخرى قطعها عودة الغائبين، شقيقها وعمها و.. من كان زوجها، دلف ثلاثتهم إلى شقة الجدة القريبة حيث يجتمعون بها طيلة النهار، تعلقت بهم الأعين في تمني أن غيابهم الطويل منذ باكورة الصباح أثمر عن نتيجة تطمئن بها الأفئدة المنتظرة، تستقبلهم الأم بهتافها الملهوف أولًا:

- وصلتوا له؟ عرفتوا عنه حاجة!..

والوجوه العابسة تجيبها بخيبة، يحتل كل واحد منهم طرف ويخبرهم العم أن مشوار المحامي لم يؤتِ بذي فائدة تذكر،



فقط وعود بمحاولات لكن لعل مفتاح الفرج بصحبة زوج ابنته وأبيه:

- بس أسمر كلمني وقال إن الموضوع مسألة وقت وهيخرج بالسلامة إن شاء الله..

قدموا المشيئة والأمل بهمهمات مع تبادل لأطراف الحديث في حين كانت عيناه المراقبة تتبع هروبها وخطواتها الراحلة إلى داخل المطبخ، مرر"عزيز" هروبها ويده تربت فوق كف عمه القريب، يشد من أزره باطمئنان يعرف كلاهما أنه بلا معنى..

تصر الجدة على تحضير سفرة طعام، تأمر الفتيات وزوجة ولدها الأصغر بالتعجل رغم الهمهمات الرافضة، تنهرهم وتزعق بغضب حقيقي كيف لهم أن يواصلوا الوقوف على الأقدام دون قوت طعام يقوي البدن؟!..

تجهز السفرة سريعًا فيجلسون جابرين للزاد بلا شهية، يرفض مشاركتهم بقول واحد ثم يبتعد عن صخبهم ويلوذ إلى واحدة من



الغرف، يفكك أول زرين من قميصه محاولًا التخفيف من حالة الاختناق التي تطبق على أنفاسه تاركًا جسده المتعب يسقط فوق الفراش..

تبعت خطواته بحذر، هيئته متعبة، أرق الثلاث ليالي يسور محيط عينيه بوضوح، يقاطع النوم والزاد منذ حينها، تراه واقفًا فوق فوهة بركان لا يتحمل الكلام ولا الصمت يريحه، تتألم على حاله وتقلق ولا تعلم ماذا تفعل، اقتربت بخطوات وئيدة تجاور جلوسه فوق طرف الفراش على مهل، ترى وجهه جامدًا يقابل الفراغ في تجهم وقتامة يغالبان صمته، بعد لحظات سمحت لكفها المترددة أن تمسك بساعده والآخر راحت تمسح به عن ظهره في تروي، تهمس له بقربها ذاك في خفوت:

- حاول ترتاح شوية، بالشكل ده هتتعب..

يضع رأسه بين كفيه ولا يجيبها، تتابع حديثها ترتجي منه السمع:



- عبدالرحمن باباك ومامتك تعبانين كفاية، تماسك عشان خاطرهم على الأقل..

كفاه يضغطان على جانب رأسه وأصابعه تقبض على خصلاته بقهروعجزبان في صوته:

- أنا هتجنن..

- بعيد الشر، عبدالله بخيروهيرجع، ماسمعتش بابا قال إيه؟ أسمرمش ساكت وحتى والده كمان دخل في الموضوع، إن شاء الله هيرجع والأيام الصعبة دي تعدي..

ربتت على قلبه بالكلمات فأدار لها وجهًا مكفهرًا وعينين محتقنتين، يخبرها بصوت صارم يكذب الجميع ولا يصدق غير مايشعربه ويخبره به حدسه:

- عبدالله مش بخير، أنا حاسس بيه..

يزيغ بصره متخبطًا بين الوعود، ماعاد يعرف أيهم يصدق، كلًا يطرح أمله على حدى دون رؤية نتائج حقيقية حتى اللحظة:

- ألف وعد ووعد من وقت ما خدوه، لا عرفنا مكانه ولا يرجع امتى..

في ذيل الأحروف طن جرس الباب برنين وتعالت بعده الأصوات بالخارج، خرج كلاهما ليجد "عبدالرحمن" شابة لم يرها من قبل تقف أمام الجميع بوجه مضطرب وجبيرة قدم داعمة ثقل جسدها وحركتها بواسطة عصا طبية، في حين"ندى" التي تبعته ألفت الوجه الأنثوي في الحال فهتفت باستغراب مقطبة ما بين حاجبيها إثر حضورها الغير متوقع أو مفسر:

- فاطمة؟!..



على حافة أفق القلوب سقطت حكاية..

كان قدرها البتر دون إتمام، ربما لأنها ولدت في زمانٍ خاطئ فكان لابد لها أن تنتهي، لكن بعد تصحيح الخطأ أصبح للزمان فرصة أن يعيد إحياء قصتها المبتورة بسطر جديد..



عقب لحظات مصارحة مع النفس قررت اعتلاء مسرح العرض بعد أن انسحب البطل وترك دوره في الحكاية المنقوصة..

رابضة في سيارتها منذ الساعتين، تنتظر خروجه، تأخذها السكرة وتعصف بها الفكرة، هل يحق لها أن تبدأ صفحة جديدة، نظيفة، مكتوبة بحبر صادق بعد أن مزقت صفحتها السوداء؟..

نالت حريتها منذ أسبوعين، كما تزوجته سرًا باتفاق، انفض مابينهما سرًا وباتفاق كذلك، حيثياتها وتفاصيلها لا تمت لمعنى الزيجة بأصل، بل هي أقرب لصفقة نال كل طرف فيها مبتغاه، صفقة لم يكن صعبًا تمزيق خيوطها كأنها لم تكن ذات يوم..

لكن ما كان يؤرق فكرها على مدار الأسبوعين بل منذ أقرت لحالها بوجود مايربطها بهذا الرجل الذي تجلس في انتظاره منذ حين..

هل يستحق امرأة مثلها؟..



وإذا عرف؛ هل يقبل؟..

هل يغفر؟!..

ياترى إذا أقسمت له أنها حاولت أن تثني حالها عن القدوم، أن تنساه وتمحوه من بين جنبات الذاكرة والفؤاد، هل يصدق أنها حاولت ولم تفلح؟..

هل يصدق أنها نادمة رغم معرفتها التامة أن الندم في حالتها لا يجدي، هل يصدق أنها لو تمنت شيئًا لن تتمنى غير أن يعود بها الزمن لتغير مسار الثلاث سنوات الأخيرة من حياتها وكانت بقيت في انتظاره وحده، لكن لا الزمن يعود ولا نملك مقاليد تبديل الواقع..

رؤيته خارجًا من البوابة الرئيسة للمبنى بعثرت أفكارها، اجتذتها من جذورها وطفقت تسارع بترجل من السيارة، لاحقت خطواته الراحلة بشبه هرولة ونداء خافت لامس عرض منكبيه وقميصه ذا الزرقة الداكنة قبل أن يلامس مسامعه:



- ناصف..

توقفه، استدارته، نظرته بعد أن رفع منظاره الشمسي أعربوا عن مدى دهشته، سرعان ما وأد كل انفعالاته تلك واستبدلهم بوجه جامد ونظرة مماثلة خصها بها دون أن ينبس ببنت شفه، فقط قابلها في وقوفها وعيناه تلتقط هيئتها الأنيقة داخل سروال جينز وقميص سكري بربطة عنق يعلوهما سترة نبيذية زادتها خصلاتها العسلية سحرًا، رمشت عيناه في صمت صاحب إردافتها التالية:

- ممكن نتكلم؟..

- نتكلم في إيه يا عبلة؟..

بللت شفتيها في تلعثم ونبرتها تخبو رغمًا عنها:

- اديني فرصة أشرح لك..

أطبق فوق ضروسه يكبح غضبه الذي تصاعد بغتة بينما يقترب، يدنو منها وبحروف مكبوته يسألها:



- أنتِ شيفاني عيل قدامك كل شوية هتكوني معاه بحال؟ ولا شايفة مشاعري مجال للتسلية؟ لأ ياعبلة..

لا..حادة، باترة، عاد بعدها عن ميله، يعتدل في وقفته ويخبرها بصرامة تالية وتجهم:

- عن إذنك..

لم تمنحه الفرصة برحيل، أمسكت بكفه، ضغطتها برجاء لون نبرتها:

- من فضلك يا ناصف، مش هاخد من وقتك كتير، بعدها عايز تمشي صدقني هحترم قرارك..

لا تصدق أنها تقف بحال المذنب، تتوسل أحدهم لأنها تخاف فقدانه، بل وتتلهف لقبوله ولا تنتظر فتردف تاليًا:

- في كافيه قريب، ممكن نقعد فيه..



طالع يدها المتشبثة بكفه بنظرة متضاربة الشعور رفع إليها بصره بعدها فسحبتها ببطء، انتظرت ثوانٍ كانت أقرب لوقوف فوق مراجل اللهب حتى تكلم ببطء:

- هنروح سوا ولا كل واحد لوحده؟..

تبسمت في وهن رغم عبوس وجهه والكلمات هامسة بتحرك:

- ثو اني أجيب شنطتي..

أحضرت حقيبة يدها من سيارتها التي أحكمت غلقها وسارت عائدة إليه، تصاحبه محتلة المقعد المجاور للسائق بصمت حافظ عليه كلاهما حتى وصلا المكان المنشود، اختار طاولة جانبية بها مزيدًا من الخصوصية داخل المكان الدافئ بألو انه وديكوراته خريفية الطابع، سحب لحاله مقعدًا وجلس تاركًا متعلقاته أمامه بصمت ر افق تكتف ذراعيه المنتظر..

جلست بدورها تقابله، تطالع انتظاره وتتبعثر كلماتها في فوضى، لا تعلم من أين تبدأ، عقلها يلعنها لأنها ارتكبت خطأً فادحًا



بمجيئها له وجلوسها معه بينما قلبها يخبرها أنه من يحتاج وأنها فعلت الصواب، شق يحثها أن ترحل وشق آخر يدفعها بكل أنانية على التشبث حتى آخر رمق وأن تخوض طريقها معه حتى آخره لربما وجدت الفرصة الحقيقية التي تفتش عنها..

زفرت بتثاقل ثم ارتكزت على حافة الطاولة، كف راح عند عنقها وآخر مرتاح أمامها، تبحر داخل عينيه المثبتة فوقها لمحطات بعيدة أولها ندم وآخرها أمل:

- أي كلام هقوله دلوقتي مش مبرر لتجاهل مشاعرك اللي بالمناسبة عمري ما اعتبرتها تسلية أو حاجة تانية غير كونها صادقة وحقيقية..

يدور عتابًا صامتًا بين عينيه وخاصتها تتابع من بعده:

- أنا أما قلت لك مش جاهزة للإرتباط ماكنتش بقول حجج، كنت بقول اللي جوايا وحاساه..



قطب جبينه محافظًا على درب الصمت الذي يتبعه حتى تصل نهاية وجهة حديثها دون رغبة منه بمقاطعة هي أكثر من شاكرة لأجلها، تردف متابعة وصلتها:

- جايز عشان من بعد وفاة أهلي اتعودت ماتعلقش بحد أو حاجة عشان لو اختفت من حياتي ماتوجعش، جايز لأني ماكنتش عارفه أحدد لغبطة المشاعر اللي كانت بتحصل جوايا، جايز كمان أكون خوفت..

أخفضت عينيها، لأول مرة منذ قابلت عينيه تهرب من لقياهم بمتابعة حديث:

- خوفت يجي يوم أشوفك فيه ندمان إنك عرفتني أما تلاقيني إنسانة تانية غير اللي راسمها في خيالك..

رفعت أهدابها، تأخذ بصورته بينهما وتخبره في اضطراب طال حروفها:

- أنا مش بالجمال اللي بشوفه في عينيك يا ناصف..



رافق جملتها عبرتان ثقيلتان جاهدت لمنعهما لكن هطولهما كان أسرع، أطبقت جفنيها في عجز ودارت برأسها جانبًا تمحي أثرهما في الحال، تستجمع رباطة جأشها وتعود له بثبات هزمه بقرب وميل وكفاه يضمان كفيها القابعين أعلى سطح الطاولة، دنا منها مقطبًا بهمسٍ أجش اكتنفها مع نظرة مهتمة:

- ليه الدموع دي؟..

كيف للكلمات أن تنبض بدفءٍ لا يحمله بعض البشر؟..

هربت بعينيها المتعبتين وتركتهما يحطان فوق كفيه المحيطين ليديها كمرسى حطت فوقه بشتاتها:

- بقالي فترة عايشة في ضغط متواصل، حاسة إني متكتفة ومش قادرة أتحمل أو أعمل حاجة..

لا تعلم كيف بدأ الحديث بهما ووصل حد أخيها الذي يتركها قلقة على الدوام وصولًا بابن العم الذي يقلب بغيابه البيت ومن فيه، كثير من الأحداث تبتلعها داخل دوامتها وتجد حالها



تقف على هامشها، لا تجيد الاندماج مع العائلة، لا تجيد تطويع مشاعرها بمواساة وقرب، كل ما تجيد فعله هو الوقوف عند الطرف والمشاهدة في صمت، التألم في صمت، والرغبة العارمة لينتهي هذا كله حتى تعود الحياة لروتينها ومللها، كأنما السنوات كلما تمددت تقيم عشرات الحواجز بينها وكل البشر، أو هكذا ظنت حتى جاء هذا ليخلق له قاعدة تشذ عن كل العالمين..

- في ظابط معرفة، يبقى أخو واحد صاحبي، ممكن أكلمه لو يقدر يساعدنا مش هيتأخر..

هتف ببساطة ما إن انتهت من شرح الوضع المتأزم، تعجبت من استرسالها في الحديث الخاص عن عائلتها وفاجئها هو برده المهتم..

لم ينتظر، أخذ كلماته حيز الفعل في الحال، تواصل الرنين عدة مرات دون إجابة فعاد لها محبطًا:



- مابيردش للأسف، بس أول ما يشوف نمرتي هيكلمني، اطمني إن شاء الله يكون بخير ويرجع في أقرب وقت..

همست في امتنان صادق تألق وهجه بعينيها:

- مش عارفة أشكرك إزاي على اهتمامك ده..

تبسم لها في صمت امتد وطال وبين الأعين وصال لا ينقطع، ضم بكفها المرتاح بين راحته وأشار بالآخر لتقترب مثله، تقدمت بجذعها تدنو وتقاربه بدفء أنفاس متبادل عطره أريج الكلمات:

- على فكرة كل الكلام اللي قولتي أنا فهمته وقدرته، وبناء عليه مش مسموح لك تبعدي تاني أيًا كانت الأسباب، ده أولًا، ثانيًا بقى..

تلذذ برؤية مقلتيها تتحجران وتتسعان بفضول، يراها رغم صلابتها هشة، رغم سخريتها من أمور العاطفة والمشاعر توجد بداخلها امرأة عطشى للاهتمام والدفء، امرأة تعبت من كونها



وحيدة تحيا الحياة على طولها وعرضها بمفردها، تتعلق بأذيالها دون أن تحياها بشكل جدي..

لكن كل هذا انتهى، من اللحظة..

مال برأسه أكثر، يرفع بكفها قليلًا، تلثم شفتاه ظاهره ببطء رافق حروفه:

- ممكن تسبيني أحبك..

لم يكن بحاجة لرد أبلغ من نظرتها بهاته اللحظة، هذا الرجل يجيد اللعب فوق وتر الأنثى فيها، يعرف كيف يخطفها من فوق عتبات الزمن ليعيدها صبية ابنة الثمانية عشر عامًا، صبية تتلهف لتعيش مغامرة عاطفية تودي بها لدنيا العشق، يسرقها من حالها ومن الزمن فلا تجد نفسها إلا وهي راضية، سعيدة بصحبته.



على حافة أفق الحياة يوجد نحن..



متأرجحين بين أمسٍ وغد، نجدل من خيط الأيام حكاياتنا، نسير وفق الدرب بمحض إرادة، في حين يقودنا القدر لمصائر مجهولة، أم علنَّا نترك له الدفة يحركنا وفق رغبته وقد ضللنا الطريق بعد أن فقدنا الدليل..

حكاية بعثرتها الأيام، طمست زهوها بقتامة ظلال، وتعد اللحظة الراهنة بمثابة بداية جديدة لإعادة هيكلتها وترتيبها..

خطواتها وئيدة، تدفع بالعربة الحاملة لحقيبتها على مهل، عيناها تفتشان بلهفة قلب عن وجه صغيريها، تباطئت حركتها مع رؤيتهما متشبثين بيدي أبيهم وأعينهم تشتت يمنة ويسرة بحثًا عنها، تبسمت كأنما يرونها وعجلت بخطاها حتى قابلتهما على بعد خطوات، توقفت ترمقهما بشوق عارم وحنين فاض بتنبيه وكفها يلوح لهما بلقاء، فتحت ذراعيها على اتساعهما تستقبلهما معًا، يتعلقان بعنقها فتضمهما أكثر، تقبلهما، تتنهد براحة أنفاس غابت عنها لفترة ليست بالهينة..



- وحشتينا قوي يا مامي..

- أنتوا اللي وحشتونى قوي قوي..

تقول هذا وتعود معانقة ابنتها بشدة قاطعها الصغير الذي راح يدفع بحقيبتها ويهلل بسعادة:

- يلا هنروح البيت..

تقابلت معه حين اختصرت المسافات مستقبلًا إياها بترحيب باسم:

- حمدلله على سلامتك..

طالعته "نادية" للحظات رددت بعدها في خفوت وكفاها يتمسكان بولديها:

- الله يسلمك يا بكر..

تقلصت بينهم السبل صحيح لكن القلوب على حالها متباعدة، متنافرة، كررتها على مسامعه قبل مجيئها عدة مرات..



"أنا هاجي عشان ولادي وبس"

تمحيه من حياتها، تختار صغارها وهو لن تضعه في حسبتها من الأساس كما سبق واختار الصغار عنها، ذاك ما لن تنساه له أو تغفره ما عاشت..

لن ترأف بهيئته المتعبة، لن تلقي بالًا للهم الجلي فوق قسماته، جرحه لها كان بالعمق البالغ لتغض عنه البصر والفؤاد وكل درب ممكن أن يسلكه..

صادق الصمت طوال مدة قيادته من المطار حتى البيت في حين جاورت هي أبنائها في المقعد الخلفي يستكملون وصلة الشوق واللقاء..

ربما لو لم يكن يستبد به القلق ويقتله لكان بدأ في هدم الحواجز القائمة بينهما، لكن ما حدث لشقيقه وحال ذويه لم يترك له مجالًا ليفكر بحاله، هو فقط بجسده الخاوي حاضرًا هنا بينما روحه ممزقة فوق المسافات دون أن تصل..



ما إن وصلوا البيت حتى سحبها الأولاد في جولة تعريفية سريعة، انصاعت لهما راسمة البهجة قسرًا فوق محياها، تجاريهما في رغباتهما وتنجرف بأمومتها معهما بطبيعة، بعد ذلك تناولوا الوجبة السريعة معًا وسط ثرثرتهم المتدفقة عما شمل أيامهم من دونها كأنها لم تكن حاضرة كل يوم عبر المكالمات المرئية، مرت ساعات قبل أن تغيب داخل دورة المياه لحين نالت قسطًا من الراحة عبر حمامًا دافئًا كانت في أمس الحاجة له، عادت إلى غرفة صغيرها لتجد الولد قد غفى، أخبرتها "سنا" بتبسم لطيف:

- أصله مانمش امبارح خالص كان فرحان قوي إنك جاية وفضل صاحي يحسب الساعات كل شوية..

قبلت الصغير بقوة من وجنته قبل أن تدثره جيدًا وتتحرك إلى ابنتها، تنسل بجسدها إلى جوارها تاركة خصلاتها المبتلة تحيط



بوجهها دون اكتراث، أخذت بها إلى صدرها فاستكانت الصبية بصمت وهمس حررته عقب لحظات:

- ممكن ماتسيبناش تاني؟..

ضمتها بقوة مؤكدة:

- أبدًا أبدًا ياروحي..

صمتت تفكر الفتاة للحظات، مترددة فيما تريد قوله لكن هي تعد كبيرة كفاية لتهتم بشأن أبويها وتصلحه، هكذا أخبرت حالها لتدفق شجاعتها وتتكلم:

- ممكن كمان تتكلمي مع بابي وتتصالحوا، هو زعلان قوي عشان اللي حصل لعمو عبدالله، حرام يا مامي مش صعبان عليكِ وهو قاعد في أوضته لوحده متضايق كده؟..

استمعت لها بقسمات مقطبة لم تعِ بشكل تام فحوى كلماتها السريعة لذا عادت تستفهم على مهل:



- ماله عمو عبدالله، حصل إيه؟..

تغضن وجه الفتاة بضيق وحزن ورهبة:

- البوليس قبض عليه..

- إيه! ليه؟..

اتسعت عينا أمها دهشة مما تسمع، حركت الابنة كتفيها بجهل:

- ماعرفش، ده هو بابا بيتكلم مع عمتو في الموضوع ده كل يوم وأما سألته اتسجن ليه وهيخرج أمتى اتنرفز عليا وقال ماتتكلميش في الموضوع، هو اللي يتسجن بيطلع بسرعة ولا يقعد كتير؟..

ربتت فوق رأسها ببطء قبل أن تاخذها إلى صدرها مجددًا هامسة لها في شرود:

- إن شاء الله يخرج بسرعة يا حبيبتي..



حديث ابنتها أوضح لها لِمَ يختفي داخل الغرفة منذ عادا من الخارج، فقط شاركهم فترة الطعام بصمت ثم عاد ليختفي بعدها ولا يصلها غير صوته عبر الهاتف عدة مرات كانت قريبة فيها من باب الحجرة المغلق، زفرت بضيق وقد اغتمت بما سمعت، نظرت إلى ابنتها فإذا بها تغفو بدورها، تكبرت عن إخبارها أنها لم تنم ليلة البارحة كأخيها، تبسمت لمحياها بلطف قبل أن تقبل وجنتها وتنهض من جوارها، جلست خلف طاولة الزينة الوردية الخاصة بالصغيرة وكلماتها تضرب أسماعها من جديد، دون تفكير زائد أخذت بالهاتف القابع فوق الطاولة وهاتفت"دهب". سمعت منها بقية تفاصيل الحكاية وأنهت المكالمة بدعوة للغائب..

نهضت تغادر الغرفة وتتقابل مع باب غرفته المغلق، شيء ما يدفعها لطرق الباب والاطمئنان على حاله وشيء آخر يسحبها للخلف، توقفت يدها في الهواء للحظات قبل أن تسقطها بجانبها وتتقهر خطواتها للوراء، لم تستطع أن تلبي نداء قلبها، ما



يعتمل فيها من ناحيته أكبر من من كونه حدث مارق يمكنها أن تتغاضى عنه تبعًا للظروف الراهنة، عادت حيث غرفة أبنائها، جاورت صغيرها في فراشه وغفت بقربه، لم تشعر كم مر من الوقت حتى استيقظت على طرقه الخافت و ندائه الهامس باسمها، نظرت حولها بوعي مشتت سرعان ما استعادته لتنهض، شدت رباط مئزرها حول خصرها وفتحت الباب لتجده أمامها بكامل هيئته المستعدة للخروج في باكورة صباح، واربت الباب من خلفها ببطء وعادت تستمع لكلماته العملية:

- المفروض نقعد ونتكلم عشان نرتب أمورنا وحياتنا، لكن مضطرين نأجل القعدة دي لحد ما أرجع..

التقطت عينها حقيبة السفر القابعة من ورائه وبالقرب من باب البيت بتقطيبة جبين و سؤال:

- ترجع منين؟..

- نازل مصر، طيارتي كمان شوية..



- إيه؟..

استقبل صدمتها بسحبه ليدها والسير بضع خطوات بعيدًا عن غرفة الصغار الغافيين، توقف يقابلها بقرب و إيضاح:

- مش هتأخر أكتر من أسبوع..

تشتت نظرها من حولها برهبة وتمتمة:

- أيوه بس..

قاطعها باترًا رهبتها وحيرتها وقد بلغه قلقها:

- ماتقلقيش المكان هنا أمان، مش هتحتاجوا تخرجوا من البيت وهكون معاكم على التلفون لو حصل أي حاجة أو احتاجتوا لحاجة تكلموني و أنا هأتصرف..

همهمت بضيق جلي:

- واضح أنك مجهز كل حاجة خلاص..

رمقها للحظات قبل أن يحرك رأسه بقلة حيلة وعجز:



- أهلي محتاجيني يا نادية، لازم أكون جنبهم..

لم تجد ما تقوله وهي تتفهم كلماته، تقدر الوضع جيدًا عقب مهاتفتها لشقيقته، تمتمت في خفوت:

- تمام معاك حق، ربنا يطمنكم عليه..

- يارب..

تمتم بها ويده تخرج هاتفه من جيب سترته، يطالع الوقت الذي أزف ويعود لها متطلعًا لعينيها المحتشده بعتب العالم، دنا بغتة يمسك برأسها ويلثم جبينها مطولًا، هامسًا بخفوت قبل أن يبتعد:

- خلي بالك من نفسك والولاد..

ودعها باسمًا ورحل فيما تحركت هي تضم جذعها بكلا ذراعيها حتى جلست فوق المقعد، ترمق الفراغ من حولها فتراه يتسع عليها برحابة ويشتد برودة.





- فاطمة؟..

دارت الأنظار إلى "ندى" الهاتفة باسمها بينما تتقدم لترحب بها ثم تعينها على الجلوس وتترك عكازها بجانبها، حالة من الترقب تحيط بها منذ أن وطأت بقدمها أرض البيت، التفتت لهم الفتاة بعينين حائرتين شاملة كل الوجوه الناظرة في طريقها، توقفت للحظات فوق توأمه ترمقه بعجب لشدة مابينهما من شبه، تبتلع غصتها بعسر والذنب في داخلها يزيد من صليل أنصاله، تستقر في النهاية ببصرها فوق والديه وفق تخمينها الصحيح لتتحدث بتهذيب خافت معرفة عن حالها:

- أنتم ماتعرفونيش، الأستاذ عبدالله بس هو اللي يعرفني، أنا اسمي فاطمة..

يجلس الجميع في تحفز سمعي ويبقى توأم الغائب و اقفًا في زاويته، حاصرًا الفتاة في نظرة تضيق بتركيز:

- أنا عرفت اللي حصل عشان كده جيت..



تركت والديه لتقابل عيني توأمه ونظرته المتحفزة تثير بداخلها الرهبة مع إردافتها المترددة:

- اللي حصل له بسببي، هو كان بيساعدني..

تعالت الهمهمات المستفسرة فتابعت بعزم موضحة صعوبة موقفها، تشرح لهم من البداية عن عمل والدها، مرضه، حالهم الصعب وعجزهم عن علاجه، القضية وطلب المساعدة، تخبره عن وقفته وصديقه معها بلا مقابل منبشين بجسارة وشهامة رجال عن حق أبيها الضائع، تقص القصة وتغمغم بنبرة متهدجة عانقت شقيقته بها دون أن تعرف مايجمعه بها من صلة لكن بدى لها أنها تتفهم وتشعر بها:

- والله العظيم ماكنت أعرف أن الأمور هتوصل لحد هنا، أنا أبويا تعبان قوي وكنت محتاجة مساعدته، عشان كده طلبتها منه وهو متأخرش..



هبط بصرها إلى كفيها المتعانقين داخل حجرها مسترسلة في حديثها بغصة:

- كان نفسي نكسب القضية وأبويا يتعالج ويخف بس محصلش..

عادت إلى أبيه المستمع لحديثها بانصات صامت:

- طلعوا عليا اتنين ادوني علقة موت، سرقوني وهددوني عشان أتنازل عن القضية..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

تمتم بها أبوه تحت مسامعها لتتابع بذات القهر:

- احنا اتنازلنا عن القضية، أبويا صمم يتنازل بعد اللي حصلي..

ابتلعت لعابها بحلق جاف قبل أن تستفيض بختام:



- ماعرفش كلامي ده ممكن يفيد ولا لا، أنا بعد ما عرفت اللي حصل من الأستاذ خالد قلت لازم أعرفكم كل الحكاية جايز كلامي يساعدكم تخرجوه أو حتى توصلوا له..

مع ختام حديثها ترك "عبدالرحمن" وقفته المتصلبه ليحتل ناظريها بوقفته وصياحه الذي غطى على كل حديث:

- يعني أنتِ ضيعتي مسقبله وجاية تعرفينا بعد ما خربت؟..

- إهدى يا عبدالرحمن..

يحثه"عزيز" وتهرع"ندى" محاولة إبعاده من أمام الفتاة التي بدأت عينيها في الانتحاب الصامت ليدفع بذراعها عنه ويفرغ ما فيه فوق رأسها بقسوة:

- يا شيخة حسبي الله ونعم الوكيل، أنتِ طلعتي له من أي داهية..

- عبدالرحمن!..



يزعق والده باسمه في صرامة فيصمت على مضض ويغادر المكان غاضبًا، مهتاجًا، تلحق به "ندى" عند مدخل البناية فيمسكها من ذراعها بسؤال تنافر له عرق جبينه والحمم:

- تعرفيها منين؟..

طالعت عينيه المشتعلة برهبة وتلعثم صاحب كلماتها المتسارعة بإجابة:

- أنا حكيت لك عن البنت اللي كانت في المستشفى وطلب مني أروح له عشان أساعدها، البنت دي هي فاطمة..

ترك ذراعها وخطواته تتسارع باتجاه الخارج متجاهلًا ملاحقتها له بقولها القلق وصياحها من ورائه:

- قولي طيب رايح فين!..

عنوان يحفظ طريقه، بناية وباب خشبي بدكانة لون وجرس باب إحتل الجهة اليمنى، وقف يضغطه بلا مراعاة للتوقيت ولا حرمة ساكنيه، حين فتح الباب تصادم مع عينين صغيرتين



تتطلعان له بفزع سرعان ما انضم لهما عيني من جاءه قاصدًا، تطلع له "عبدالرحمن" بعينين مشتعلتين غض عنهما الو اقف أمامه الطرف محدثًا صغيرته:

- ادخلي جوه يا حبيبتي..

أشارلزوجته الو اقفة خلف الباب بفزع أن تتوارى إلى الداخل، حين اختفيتا عن الأعين سحب الو اقف في جمود من كتفه إلى الداخل:

- تعالى يا عبدالرحمن..

والغاضب يدفع بيده عنه، بل يمسك بتلابيب قميصه القطني ويصرخ في وجهه بعتب جريح:

- إزاي تسيبه يا خالد يضيع نفسه ومستقبله، إزاي يا أخي و إنتَ صاحبه..

يمسك"خالد" بكفيه ويحادثه بمداهنة مقدرًا لحاله الذي يتفهمه:



- إهدى يا عبدالرحمن و أقعد نتكلم..

يجلسه على مضض، يقابله فوق مقعد آخر مائلًا بجذعه متحدثًا:

- صدقني لو كنت أعرف إنها هتوصل لهنا ماكنتش قبلت القضية من البداية، أنا يعني هضحي بصاحب عمري عشان إيه ومين؟ وعلى العموم القضية اتقفلت فعلا بعد اللي حصل لفاطمة، هي بس حاسه بالذنب وصممت تزوركم وتعرفكم على أمل تعرفوا تساعدوه..

سأله بشتات يعجزه ولا يفهمه:

- ومادام القضية اتقفلت خدوه ليه؟!..

زفر الصديق قبل أن يشرح له ما يجهله:

- المشكلة مش في القضية يا عبدالرحمن، دي حدوتة آخرها حكم بتعويض مالي لا يذكر بالنسبة لواحد زي السخاوي، المشكلة الحقيقية في الشوشرة اللي حصلت من الإعلام



والصحافة واستغلال المنافسين له، عبدالله بيدور وراه بقاله شهور، آخر كلام حصل بيني وبينه بعد حادث الاعتداء بتاع فاطمة، حذرته يومها وقلت له إبعد، قعد يقولي أن في دليل هيقوم الرأي العام بس مارضيش يوضح تفاصيل و اتفقنا أنه هياخد حذره ويبعد عن أي أذى، لكن تعمل إيه في أخوك، ماحدش قدك عارفه أما يحط حاجة في دماغه..

- وعشان يسكت لبسوه الليلة دي كلها..

- مالهاش تفسير تاني..

مرت لحظات من الصمت المطبق حتى تنازع بسؤال أخير:

- في أمل يخرج منها ياخالد، جاوبني بصراحة..

ربت فوق ساقه برفق حان، مؤازر:

- مش هخبي عليك الحكاية مش سهلة بس طالما رشدي جوهر وابنه في الموضوع ومفيش تهم رسمية أظن في أمل كبير، جايز بيعملوا له قرصة ودن مش أكتر..



- طيب تفتكر لو روحنا قابلناه ممكن نتفاهم؟..

- هو مين؟..

- عاطف ده..

- بتهزريا عبدالرحمن، وهما دول أما يعملوا مصيبة بيكونوا في البلد، عاطف السخاوي له أكترمن شهربرا مصر، وعلى اعتبار أنه موجود وعرفت تقابله إنتَ فاكرهيقولك فعلا حصل تعالى يلا نتفاهم؟ لا ياباشا دول عالم تانية التعامل معاهم عن طريق المصالح والفلوس وبس..

- يعني الحل نقعد نستنى، رجع، مارجعش، عاش، مات، احنا وحظنا..

قالها في عجز تام ثم نهض مغادرًا بحاله الذي جاء به، أمسك"خالد" بكتفه يوقفه لبرهة:

- أول ما أوصل لأي حاجة هكلمك على طول، أصبروخلي ثقتك بالله أكبر..



حرك له رأسه في ثقل دون أن يلتفت، فتح الباب و انصرف نحو الدرج هابطا السبع طوابق على قدميه، قابله فراغ الشارع الفسيح مستقبلًا لهاثه وضيق صدره، تخبط بصره المحتقن بنغزات مؤلمة خلف الأجفان في ضياع قبل أن يرتفع معانقًا السماء بعجز مغالبًا ذاك الشعور القاسم لصدره بألم خفي بينما في ذات اللحظة كان نصفه الآخر ممددًا فوق الأرضية المصقولة بجسد خائر، يكابد آلامه المتفرقة و أنين عظامه معانقًا السماء كأنما يبصرها من بين السواد الحالك الذي يحيط به و أيامه، يهمس بحركة شفاه متباطئة بكلمات مازال يكررها في كل لحظة وحين..

"لا إله إلا أنتَ سُبحانك إني كنتُ مِنْ الظالمين"



(17)

وأخي..

"اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي"

أيّ يكونْ لي عونًا وقوةً، عضدًا أتكئ عليه في مَيلي وألمِي وقلة حِيلَتي..

وهو دون نصفه ضائعٌ، ليس الأمر بيده ليشعر بهذا الخواء الذي ينخر وجدانه، ليس بيده حتى يشعر بأنه منقوص، مقلقل في اتزانه، يقول الجميع أنهم يتفهمون مايمر به، لكن لا أحد يستطيع أن يشعرَ ويعي مدى عمق الترابط الذي جمع بينهما على مد سنين العمر، يرتبط بأخيه الأكبر بميثاق أخوي غليظ وكذلك الأمر مع الشقيقة لكن مع "عبدالله" الأمر مختلف، لا يقلل أخوة الأكبر ولا يعظم شأن توأمه إنما هي طبيعة الخلق



والتكوين، أن يجتمعان برحمٍ واحد، ويخرجان للعالم في توقيت واحد ليصبح كلًا منهما متممًا للآخر في قوله وفكره وجل شئون حياته، مهما تشعبت بهما السبل كانا يلتقيان في نقطةٍ ما، يتشاركان العمر يومًا بعد يوم، لا يذكر أنهما افترقا عن بعضهما من قبل، كلاهما بوابة مؤدية لعالم الآخر، يعرفه أكثر من نفسه لو شاء القول، لا أحد يشعر به غير أمه التي تأخذ به إلى صدرها في صمت كلما رأته ينأى بحاله عن الجميع، يبتعد بالقدر الذي يمنحه التنفيس عما يعتمل فيه دون قيود الأعين..

مر على غيابه أسبوعان، تمامهما الليلة، كل صبح كان يأتي باسطًا أملًا جديدًا ثم ينقطع خيطه مع المساء دون مستجد..

أسبوعان وهو يصادق الصمت مكبلًا بالعجز، تتقاذفه أسوأ الأفكار من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تتركه مهمومًا، حزينًا، تطل كآبة العالم عبر نافذة عينيه..



- بكروعزيزعند تيتة بيسألوا عليك..

تترك العالم وترتكن معه إلى صمته، إلى عزلته فوق سطح البناية بضوئه الشاحب الملائم لحالة السكون التي يحياها، تتشبث بكفه رُغمًا عن إرادته وتبقى إلى جانبه وهي لأول مرة تراه بهذا الحال، تعلم يقينًا كم يعنيان لبعضهما لكنها لأول مرة تمس بأناملها عمق جذوره الموصولة بالآخر الغائب، لن تبالغ لو قالت أنه فاقدٌ للنصف لكل شيءٍ فيه، الروح والوعي ولولا تمام الصورة أمامها لقالت الجسد..

- عبدالرحمن..

نادته بخفوت مكررة سحبه من دوامة الصمت التي يستسلم لسطوتها، يحرك لها رأسًا مثقلًا بتنهيدة نفس بها عن ضيق صدره، قابل عينيها المتلهفة لرؤيته بخير حال مغمغمًا في خواء ورتابة:

- ماشي، شوية و أنزلهم..



يقول هذا ويعود إلى صمته وتجهم ملامحه هاربًا ببصره مع عراء الأرضية المصقلة من أمامه، تتطلع إليه للحظات قبل أن تغمغم في أسف مكورة كفها أسفل وجنتها لترتكز عليه برأسها المائل، تخبره بهمس بحت حروفه و انعقد له حاجبيها بخفة:

- كنت فاكرة إني أغلى حد عندك..

تقوست شفتاها في ادعاء مصطنع للحزن تغالب به حزنه وصمته:

- بس طلع الشيخ عبدالله رقم واحد، بعد كده ياريت ماتقوليش أنتِ أكتر حد بحبه يا ندى وخليها تاني حد عشان أصدقك..

اقتطفت لها من بستان روحه الذابل تبسم واهن ويده تزيح ذراعها المرتكزة عليه بوجنتها ليتمدد بجسده واضعًا رأسه فوق فخذها، يعانق السماء القاتمة بنجومها النادرة من فوقه بلقاء، أصابعها تتخلل خصلات رأسه بحركة رتيبة يحبها قطعها



بعد حين ورأسه يلتف إليها، تبعد يدها عن رأسه لتقابل وجنته على مهل صاحب حديثه:

- تاعبك معايا..

ليس هو بل قلبها من يرغمها على أن تتبعه كظله، أن يتضاعف حزنها لأجله، وأن تدحره قسرًا، تخبئه بين الضلوع وتستدعي مرحًا كاذبًا تتلون به لتختطفه من دوامة الحزن لبرهة فيبدو تبسمها مغمورًا بالشجن:

- نصيبي الحلو لبسني فيك أعمل إيه، أمري لله..

لا يبدو أنه سمعها وعيناه تشرد نحو البعيد، عاد بها بعد حين ليجدها في انتظاره وإبهامها يطوف فوق وجنته بحنو رافق ضمة عينيها القريبة:

- إزاي ماخدتش بالي، كان المفروض أعرف بيعمل إيه و أنبهه..

حركت رأسها بغير رضا، رفضًا لما يقول ويفكر:



- إنتَ بتخلق أسباب عشان تلوم نفسك يا عبدالرحمن..

أقرلها بيقين:

- لأ، هو خبى حوار اللي اسمها فاطمة عن قصد عشان عارف الأذى الجاي من وراه..

- بتقول خبى أهو؛ كنت هتعرف منين إنتَ؟ بطل تلوم نفسك، اللي حصل ده قدر ماحدش فينا كان هايقدر يمنعه..

سكت عقب تنهيدة جديدة تلاقى على إثرها جفنيه في تعب وحركة يدها التي راحت تمسح بها عن رأسه ببطء وروية.. وصمت تشاركه فيه.



قطع غربته بعودة..

صحيح لا يملك من الأمر شيئًا، ولم يتغير الواقع لكن يكفيه أنه يراهم أمام عينيه، يباشر الوضع بشكل حي ويتشارك مع ذويه مصابهم..



أن يشهد ويشد من حال أبيه وأخيه اللذين يرتكنان إلى الصمت بنفس تزهد الحديث والزاد، أمه التي تضاعف شيبها وعجزها فوق سجادة الصلاة بينما تبث شكواها لربها في جوف الليل، ترفع كفيها وتتلمس قربه وعفوه في توسل ورجاء بصحبة عبراتها التي تغرق وجنتيها ليل نهار.. شقيقته التي استقبلته بعناق وبكاء أقرب لانهيار عادت بعده تلملم شتاتها، تطوف بينهم في محاولة منها لدعم الجميع وفي الحقيقة هي أكثر من يحتاج إلى المساندة وكل مابداخلها ينهار على مهل..

قبيل المغرب ليومه الثامن فوق أرض الوطن والموافق للنهار السابع عشر للشقيق الغائب كان يقف خلف سور الشرفة ينهي اتصاله السريع مع أولاده، يطمئن على حالهم الباقي في الغربة وقد اضطر لتمديد إجازته القسرية لأسبوعٍ آخر والوضع المتأزم على حاله، متأملًا ومتمنيًا أن يحول للأفضل رغم انقطاع السبل..



عاد إلى شقيقته، جليسته بالشرفة بسؤال:

- عبدالرحمن لسه مجاش؟..

وهل هناك فرق بين عودته وغيابه؟..

الأمران كلاهما سيان..

وكلاهما عاجز عن فعل شيء معه، هما فقدا الشقيقان معًا وليس واحدًا كما يظن الجميع..

أخبرته "دهب" بقولها الفاتر في إيجاز:

- لسه واصل من عشر دقايق، دخل أوضته..

صدح جرس الباب قبل أن يعاود جلوسه، أشار لها بكفه أن تبقى كما هي وسيتكفل هو يفتحه، مر بأمه الجالسة تؤدي صلاة المغرب فوق سجادتها قبل أن تنتهي خطواته مع إدارة المقبض، تجمد هو والقادم للحظات ومابينهما خطوة واحدة، قطعها "بكر" ويده تمتد قابضة على نسيج قميصه، يجذبه



إليه بعناق استسلم له العائد بتلاقي جفنين وأصابع نشبت في ظهر أخيه الأكبر، أمام ذراعي أمه وعبراتها لم يستطع كبح عبرات طفق بعضها ومات فوق كتفها سرًا غامرًا وجهه فيها، يضم حاله إليها متنفسها براحة، بأمان.. قبل أن ينتهي من لقاء شقيقته و أبيه كانت الجدة وعمه بصحبة عائلته كلهم ملتفين من حوله، يباركون عودته ويهللون حمدًا، وسط كل هذا الحشد والصخب القائم لم تغفل عيناه عن وقفة ذاك المتصلب أمام غرفتهما بسرواله الجينز وثيابه الداخلية ببياضها الناصع كاشفة عن أكتافه أسفل عينين تثقبانه بالنظر في جمود..

رآه "عبدالرحمن" كيف وجد له مخرجًا وقطع دائرة المحيطين به ليتقدم إليه بخطوات صابها عرج طفيف، يدعم آلام ضلوعه النابضة بشدة إثر معانقتهم القوية بذراع التف حول جذعه برفق، يتقدم أكثر لتتضح نيلية الكدمات المحيطة بعينه وهو يهديه تبسمًا مرحبًا، لكن ليس هذا ما أوقف الغصة

بحلقه، بل ذقنه المعتز بها و رأسه المقلمتان بعشوائية مقص وإذلال غيرتا شيئًا من هيئته وصنعت ندبة ما في نفسه بان إثرها في عينه..

لم يتحرك به غير قبضتيه اللتين تشددتا من جانبه لكن حين تتوازن مشاعره المتضاربة سيكون ممتنًا لعودته رغم كل شيء!..

أنهى "عبدالله" مابينهما من مسافة وبصره لا يفارقه بعناق انصاع له جسد الشقيق دون أن ينبس أيًا منها ببنت شفه، فقط أنفاس حارة متبادلة لامست الأكتاف في حين كانت الأجفان تتلاقى بسلام.



تقلبات الحياة مضنية..

إلا أن بالرغم من تلك المحن الشداد إلا أنها دومًا ما تصل بنا إلى عطايا ومنح ما كنا نراها أو نتوقعها ذات يومٍ على عكس



المتعايشين بركود تام، تطيح الحياة بأمواجها وهم على حالهم في منطقة أمان بالنسبة للعيان لكن في الحقيقة هم أبعد مايكونون عن ذاك المسمى..

تسحب المحقن من ذراعه على مهل قبل أن تضعه جانبًا وتناول الجثة الهامدة قرصًا من الدواء، قربت له زجاجة الماء في عملية بحتة ثم أخذت تعيد العلب داخل صندوق العلاج المتوسط في عملية مماثلة وقد أنهت متابعتها الطبية لمريضها السجين، تهكمت في داخلها على التوصيف ورأسها يلتف ناحية الباب المفتوح حيث خرج ينهي اتصالًا ورده قبل أن ينزلا القبو..

ثابت إلى هذا الر اقد في استكانة ترمية بنظرات باردة قبل أن تحمل أغراضها وتنهض، عاجلها بكف حط بها فوق يدها وهمس مبحوح لم تتبين حروفه، نفضت "مريم" يده عنها ونظراتها تحدجه في حدة وقساوة قاطعها بمعاودة سؤاله الخافت عبر حنجرة جريحة:



- مراته، أنتِ مراته..

أجفلت بجسدها بعيدًا عنه دون نهوض، أوقفها بتكرار حديث وبصره يتنقل بين الباب المفتوح وبينها في اضطراب جنوني:

- طلعيني قبل ما أموت..

- إنتَ تستاهل تموت كل دقيقة..

زمجرت بها بنهوض مباغت أوقفه بجذبه لطرف ثوبها الطويل، يعرقل خطوتها لتسقط ما بين يديها في فزع رافق توسله:

- ساعديني وحياة أبوكِ..

عادت تستدير إليه محاولة تخليص ثوبها من بين قبضته بزعيق حاد وكل خلية فيها تنفر من ملمسه:

- شيل إيدك يا حيوان..

قبل أن تتدارك وجوده كانت ذراعه تجذبها بقوة رطمت كتفها في الجدار وقدمه تضرب صدر الرجل بقوة مباغتة أردته عائدًا



إلى رقوده مفلتًا طرف ثوبها من بين قبضته رغمًا عنه، تحت عينيها المحدقة في وجل جثا فوق ركبة واحدة قابضًا على فكه بشدة أصابعه الخمس، يخبره بفحيح قاس لا يخرج إلا له:

- إنتَ هتعيش وتموت هنا يا صابر، إنسى أنك تطلع للدنيا تاني..

تبسم الراقد أظهر تسوس أسنانه الأمامية واصفرارها الشديد، أما قوله ونظرته اتحد فيهما التشفي مع الشماتة رغم هزال الجسد:

- أنا عايش جواك، أنا في يوم كنت أقرب حد ليك..

يصفعه دون تردد فيبرق له الرجل بجنون مستطردًا في عجالة:

- بيجري في عروقنا نفس الدم، اوعى تنسى أصلك يا..

يصفعه ثانية بقوة مضاعفة، يخرسه قسرًا بصياح قابضًا على تلابيبه بكلا قبضتيه:

- إنتَ كده بتعجل بموتك..



- أنا كده كده هموت، بس إنتَ هتفضل طول عمرك عايش زي الميت..

لم يتركه، ظل جاثمًا فوقه يصليه بسعير نظراته، ابتسامة شطرها من أرض الأبالسة ويده تتحكم في كف الرجل، يضغطها ويزيد الضغط فوق أصابعه حتى سمع طقطقة العظام والصياح الذي خرج من الراقد متلويًا في ألم، شعر بكفها تحط فوق كتفه تضغطه برفق وعينيها التي تخفى عنه كانت تموج وتحترق بسجن العبرات، حرر أنفاسًا تنبه للتو أنها كانت محتبسة بصدره عاد معها وعيه، نفضه عنه بحدة ونهض يمسك بذراعها دون أن ينظرها، يدفعها للخارج بصحبته، طقطق المزلاج ثلاث مرات بقوة صدى قبل أن يسيرا الخطوات الفاصلة ليرتقيا الدرجات القليلة مغلقًا من خلفه الباب الآخر مغلقين صفحة القبولحين من الزمان..



سحبت شهيقًا طويلًا مع تلاقي الهواء النقي والإضاءة الجيدة، تفكك وثاق حجابها بعشوائية والكلمات التي سمعت كانت تتردد بصداها داخل رأسها حين عاجلها باقتراب وقول غاضب ظهر فيه احتدام:

- قالك إيه؟..

قولها مازال يرجف إثر الدقائق الفائتة:

- طلب مني بس أساعده يخرج وأما سيبته و اتحركت مسك هدومي يترجاني..

ماج وجهه بتعبير مظلم قبل أن يتكلم بصوت صلب، قاس في مضمونه:

- مش هتنزلي عنده تاني، كفاية تعرفيني المطلوب و أنا أتعامل..

أمسكت جبهتها تمسدها بإرهاق قبل أن تهديه همسًا خفيضًا لا يملك من الأمر شيئًا:



- اللي تشوفه..

ولى الدبر وتركها صاعدًا الدرج إلى الأعلى، بقيت هي جالسة فوق واحد من مقاعد المائدة في خمول وسكون، تعيد تذكر الكلمات، تتخبط بين جنبيها وتفسيرها المنطقي الوحيد: الرجل القابع بالقبو تربطه مع زوجها صلة دم!..

رنين هاتفها القابع بالقرب منها أوقف تصاعد أفكارها، تحركت أناملها تلتقطه وتستقبل البشرى التي زفتها إليها الشقيقة الوسطى، أنهت المكالمة على عجل حين رأته يهبط الدرج وقد بدل ثيابه بما يناسب الخارج، هرولت تقطع خطواته الراحلة هاتفة من فورها بتضارب مابين دمع عينيها و ابتسامة شفتيها:

- عبدالله رجع!..

أتبعت كلماتها بعناق مباغت أخل بتوازنه لثوانٍ قبل أن يتداركه بكفين تمسكا بخصرها ليعود بها إلى ثباته، أنفاسها تلامس عنقه في حرارة، مغمضة العينين تشد على ضمه بقوة



وعقال نبض منفلت فقدت معه الشعور بالزمن، احتاجت للحظات حتى تعي تصلب جسده، فكت طوق ذراعيها متباعدة ببطء، تزيح تهدل شعرها خلف أذنها مقابله عينيه الثابتة فوقها في حرج، محت بقايا عبرات علقت فوق وجنتيها و ابتسامتها تشرق أكثر تحت وقع ناظريه:

- مفيش كلمة شكر ممكن توفي اللي عملته مع عيلتي..

غمغم بقول خفتت حدته وجموده وإن لم يخلُ منهما و أقدامه تتأهب برحيل:

- حمدالله على سلامته..

- يسلم قلبك من كل شر..

قالتها بتبسم، بدفء..

بضياء يتسلل إلى ظلمات روحه في خباثة ليبثها شيئًا من إشراق.





النار الخامدة تشعلها جذوة..

وجذوة الحريق وصلت يديه قبل أخذه بيومين، كان يعمل فوق مكتبه فجاءه طرد البريد من مرسل مجهول، فض الطرد ليجد بطاقة ذاكرة تحمل حقيقة كبيرة بأدلة موثقة تفيد بأن رجل المصنع وشركاءه لا يقتصر أذاهم على العاملين الضعفاء المحتاجين وحسب، بل منتجهم يحوي نسبًا مسرطنة عالية تخالف معايير السلامة، منتجًا يجوب البلاد من مشرقها لمغربها ويهلك أهلها، أرجح أمر المرسل المجهول إلى الأعداء المنافسين المستفيدين من إقصاء غريمهم عن الساحة مقررين الإستفادة عن طريقه، لم تشغله حروب الطاولات الغير نزيهة، شغله أمر الحقائق الموضوعه بين يديه، الأمر تجاوز بدايته بمراحل، الضرر الصغير الجانبي في حقيقته كارثة تسري في الخفاء دون شعور، أخفى الدليل بمكمن آمن بعيدًا عن داره وعمله، كان بحاجة أيام فقط ليرتب خطواته سائرًا في درب الحق الذي يحفظ موقنًا بأن شمس الحق بازِغة وإن حجبها الغمام..



لكن هذا ما لم يمنح، جاءت ضربة الغدرتسابق خطاه، تعرقله وتخمد جذوة الاشتعال..

دلف إلى دورة المياه تاركًا صخبهم قائمًا مخبرًا إياهم أنه قبل أي شيء بحاجة إلى حمامٍ لم يتذوقه جسده منذ غاب عنهم، تركوه ينال حريته، وقف متطلعًا إلى وجهه المعكوس عبر المرآة المستديرة، ظل ساكنًا للحظات ضاقت فيها عيناه واحتدمت بالنظرقبل أن يرفع يده متحسسًا ذقنه متذكرًا اليد التي عاثت فيها الفساد ويداه مغلولة ماطرين أذنيه بأقذر الشتائم التي طالت شرف أمه وسلالته أجمعين، أجفل على مقبض الباب يلتف وتوأمه يقتحم خلوته، يرفع له بجهاز الحلاقة الكهربي فيبسط الآخرقسماته ويدعم ثِقل حركته بارتكازعلى المغسلة، يحدثه أثناء جلوسه على حافة المغطس:

- وريني شطارتك يا هندسة..



سلم له رأسه وذقنه ليجز ما تبقى من سوادهما الظاهر حتى تتساويا دون شعر، يده تعمل وبصره يطوف فوقه للحظات انتهى فيها مع عينيه بلقاء صامت، توسله الجالس أن يكبح سؤاله الواقف على طرف اللسان بارتخاء أجفان بينما الواقف رغم قرائته لتوسله أفصح عما يجول بخاطره بقوله الجامد في تجهم وعبوس:

- عملوا معاك إيه؟..

والسؤال لا يخص الظاهر، بل يعني حقيقة ما يخفي ويحاول جاهدًا تخطيه بواجهة هادئة يطمئن بها قلوب من بالخارج، لكن مع هذا الماثل أمامه لا يملك غير أن ينصاع لحقيقة ما يشعر بتبسم ساخر ندا عن جانبه وغمغمة خفيضة جاءت بمرارة العلقم حررها له بتثاقل المتعب:

- قول ماعملوش إيه..



سباب قذرهو جل ما استطاع لفظه من بين فكيه المتصلبين قبل أن يتركه ينال حمامه، ليس ليزيل درن الجسد وحسب، بل وكل ما علق في ذهنه ونفسه على مسيرة الأيام الفائتة..

حين خرج؛ وجد ابن العم وشقيقته في انتظاره ليكتمل الجمع العائلي، أجلسوه بالمنتصف واحتشدوا من حوله، واضعين إياه تحت مجهر أسئلتهم، جمعها كلها بخيط واحد مده باختصار:

- حققوا معايا كذا مرة، وأما مالقوش إثبات لأي حاجة سابوني..

والتهمة تحمل بلاغًا كاذبًا بكونه تابع لمنظمات تهدد الأمن العام، إطارمناسب تمت حياكته وفق قياسه ليبتعد عن طريق رجل الفساد، خطة محكمة ماكان سيفلت من بين براثنها لولا لطف الخبير ثم تدخل قوة عظمى مضادة استطاعت أن تختطفه من بين براثن الإفك..



أحدهم يزج به وآخرينتشله..

يبدو الأمر مثيرًا للسخرية، بل مثيرًا لسخطه وغضبه المكظوم بجوفه..

قطع استرسال ثرثرتهم بنهوض مباغت رمى من خلف كتفه تمتمة خفيضة عن رغبته واحتياجه الشديد إلى الراحة ليختفي خلف بابه المغلق، تبعته "دهب" من فورها وحاله الخاضع لمراقبتها منذ حين يقلقها، كان في وضع لا يملك أمامه أن يداريه، استدار يسألها وكفه يحط فوق جانب أضلعه بينما قسماته تتغضن بألم:

- دهب شوفي لي مسكن..

اقتربت تبسط راحة كفها فوق موطن ألمه، تخبره بنبرة مشحونة جديتها لا تخفي حنوها:

- ضروري نعمل أشعة..



والكلمات تشبه الركلات القاسية التي تكالبت فوق جسده دون رحمة، أبعد كفها عنه ليمر من أمامها بضيق بين:

- بعدين يا دهب هاتي لي مسكن دلوقتي عايز أنام..

- بعدين إيه بس ياعبدالله و إنتَ بتتألم..

- معلش خليني على راحتي..

قال هذا وهو يجلس فوق طرف الفراش بأنفاس متقطعة دون إجهاد هاربًا من لقاء نظراتها رافضًا الانصياع لكلماتها، حين يئست خرجت وعادت له عقب لحظات بالذي يريد يصحبها توأمه، ابتلع قرصين من المسكن قوي المفعول دفعة واحدة تحت أعينهم الناظره ثم استسلم لصرامة يديها التي راحت ترفع عنه قميصه القطني لترى مدى إصاباته، شهقت بخفوت مع رؤية آثار الكدمات تتماوج باحمرار ونيلية داكنة..

- حسبي الله ونعم الوكيل..



تمتمت بهذا و أقدامها تتحرك إلى الخارج، تغيب للحظات وتعود إليه من جديد، يساعدها الو اقف متطلعًا إلى حاله في صمت على نزع ملبسه، تقف قبيله وتقوم بفرد الدهان فوق مواضعالكدمات، تمررها برفق أنامل وعينيها تتبع تغضن قسمات وجهه، اقتحمت الأم خلوتهم بقلب وجل لتراه مستسلمًا لأيدي أخته في قنوط، تلمست في طريقها آثار آلامه قبل أن تلفها ابنتها بضماد عريض دار حول جذعه ببطء، وقفت أمه تتحسس وجهه قبل تأخذ برأسه تخفي عينيه المحتقنتين داخل صدرها وتصيح فيه بشدة قول ملؤه العتب:

- مالنا ومالهم يا عبدالله، مالنا ومالهم يابني، إيه يوديك في سكتهم..

استكان لضمتها في صمت دون تعقيب حتى جاء التوضيح مع الشقيقة التي تقابله في جلوسها بتمتة شافية لا تقبل الشك:



- فاطمة جات هنا وقالت كل حاجة عن القضية وعن الراجل صاحب المصنع..

طاف بصره فوق أخته ثم أمه وأخيه، شملهم جميعا بنظرة قبل أن يبتعد عن ذراعي أمه، يسحب قميصه ليرتديه بوهن حركة وقول واحد، جامد:.

- البنت مالهاش ذنب في حاجة، أنا كنت بعمل شغلي..

والأم تثير حفيظته بقهرها ودموعها القريبة:

- عايز تموت أمك و أبوك بحسرتهم؟..

ينفض رأسه بتعب، بضيق يزيد عليه الخناق:

- يا أمي ماتقوليش كده..

ينضم إليهم شقيقه الأكبر، يثور بأحقية يمتلكها غصبًا عن شأن صاحبها، يحدثه بنبرة رغم هدوئها بان فيها الحزم:

- ابعد عن الموضوع ده يا عبدالله، الناس دي مابتهزرش..



يدافع "عبدالله" حاملًا منطقه للعيان بانفعال مكبوت:

- أنا أبعد وغيري يبعد ونسيب شوية فاسدين يتحكموا في حياتنا ومصيرنا؟ ده واحد ضلالي فاسد بيستغل حاجة الناس وظروفهم، مش هخاف منه..

- احنا خايفين عليك يا أخي!..

صاح فيه "عبدالرحمن" الصامت منذ حين فزفر المعني بقول وقنوط:

- متخافش..

هزأ من قوله بانفعال ساخر:

- كده اطمننت يعني؟..

هتف فيه "بكر" من جديد:

- اشتري نفسك مفيش حاجة تستاهل تضيع عمرك ومستقبلك عشانها..



وعادت أمه تتشبث بجانب وجنته تناشده بعينيها قبل كلماتها في توسل وهي خير من يعرف ولدها:

- إبعد عنهم يا ضنايا، دول ناس إيديهم طايله وبتوع أذيه و أنا ست كبيرة مش حمل وجع قلب..

غمغم لها في كدر:

- أنتِ كده بتقولي أقعد في البيت..

صمت الجميع مقابل احتداد لهجتها وسبابتها تلوح أمام وجهه في صرامة:

- لو لزم الأمر تسيب الشغل ده خالص وبلاها وجع قلب سيبه، أعمل إيه أنا أما حال البلد يتعدل و إنتَ مش فيها؟..

- يا أمي..

- تولع البلد على اللي فيها، مش ابني اللي يدفع التمن، اسمع الكلام ماتوجعش قلبي..



صاح بانفلات أعصاب وكل مافيه يضطرم بينما ذراعه يمتد نحو الفراغ بغير هدف:

- أنتِ عارفه في كام أم قلبها موجوع من سنين مش أيام؟!..

- عايزني أبقى زيهم يا عبدالله، أهون عليك؟ طيب تهون عليك نفسك..

لِمَ الجميع يتحد على كسر هامته، لم لا يتفهمون ما يعتمل فيه، أي حياة تلك التي يريدونها والرقاب محنية فوق الذقون، هل يتفاوضون بين موت الضمائر والجسد؟..

هتف فيه توأمه بحدة تماثل خاصة أمه بقول أخير عله يعدل عن الطريق الوعر الذي يخطي داخل وحله بكل إرادة تامة:

- لو إنتَ عندك إستعداد تعيش خوف وقلق الأيام اللي فاتت من تاني ماحدش فينا عنده، إنتَ مش عايش في الدنيا دي لوحدك..

تصادمت الأعين بينهما بلقاء محتدم أنهاه المتعب ببتر:



- لو خلصتوا كلام اتفضلوا، عايز أرتاح..

أخبرهم بهذا في فظاظة قبل أن يولي لهم الدبر خاضعا لسلطان الصمت متلحفا بدثار النوم باترا خيط الحوار..

حوار طال مسامع الأب القريب ليتركه ساقطًا بين سندان الخوف والفخر، يقع حائرًا بين الخوف المدمدغ بعار الصمت وبين الدماء التي تحتقن و تفور لأجل الحق والوطن.



كل خطوة أخيرة في قصة منتهية هي خطوة أولى في قصة جديدة مادمنا نتنفس، مادمنا نحيا..

منذ مايقارب الساعتين وهي تتأنق، بدأت بحمام دافىء و انتهت أمام المرآة تتمم زينتها المناسبة لحفل عرس صديقة، هذا ما أخبرت به الجميع المتشاغلين بعودة ابن عمها الغائب منذ الأمس بينما وفي الحقيقة هي تتأنق لأجله، لأجل دعوة عشاء أصر عليها طالبًا أن ترتدي لها ثوب سهرات خاص، خصت



حالها بنظرة أخيرة طالها الرضا لتنهض في حماس ملأها ورنين هاتفها يعلو باسمه..

لم تستقبل اتصاله إلا عندما تحركت بسيارتها باتجاه العنوان الذي أملاها إياه:

- اديني نص ساعة بس وتلاقيني قدامك..

أغلقت هاتفها وثغرها يرسم أعذب ابتسامة عرفها في تاريخه، وصلت حيث واحد من مرافئ اليخوت على ضفاف النيل، وجدته و اقفًا في انتظارها بحلة رسمية تخلى فيها عن ربطة العنق، اقتربت تضفي بذهبية ثوبها جاذبية خاصة مع ملبسه حالك السواد، استقبل قدومها بقبلة لثم بها ظاهر كفها قبل أن يضم عليه داخل قبضته داعيًا إياها للتقدم، رمقت الدرج الطويل بترقب أثناء هبوطها حتى توقفا أمام واحدٍ من اليخوت الخاصة عندها خرج سؤالها بفضول مرح:

- إنتَ عندك يخت؟..



ضحك في حرج مرح دفعها للتبسم:

- هو أنا يعني ابن ناس بس مش للدرجة، ده يا ستي تبع واحد صاحبي..

أعقب قوله باعتلاء لليخت ثم التفت لها مادًا يده لتصحبه، رمقت المسافة الفاصلة في تردد قبل أن تمسك بجانب ثوبها ترفعه وتسلمه يدها الأخرى ليسحبها على حين غرة ثم آخذًا بها من ورائه:

- تعالي أفرجك عليه هيعجبك..

تبعته بحماس وعينها تقيم التفاصيل الأنيقة، ذيلتها باعتراف فوق الجزء الخارجي وتيار الهواء الشديد يبعثر خصلاتها المصففة بعناية:

- حلو قوي بجد..



اقترب ينهي مابينهما من مسافات، أزاح خصلاتها المبعثرة خلف أذنها وترك يده هناك تثبتها للحظات محررًا خلالها همسًا دافئًا غالب به برودة النسيم:

- مش شايف حاجة أحلى منك الحقيقة..

تنحنحت تنبهه لقربه الخطير، تحرك رأسها وتعدل بيديها خصلاتها بينما عينيها تطوف من حولها ملتقطة الصورة الليلية الساحرة ثم تعود له لتسأله بتقطيبة حاجبين مصطنعة:

- فين العشاء اللي عازمني عليه؟..

ابتعد ليدلف إلى الداخل سائلا إياها في مرح:

- علاقتك إيه مع المطبخ الإيطالي؟..

- بحبه..

- يا بخته..

تبعته ضاحكة فالتفت إليها مخبرًا بغرورو اثق:



- هأكلك أحلى باستا معمولة بخلاصة خبراتي وفنوني المطبخية..

وقفت إلى جانبة داخل المكان الضيق هاتفة بدهشة:

- بتعرف تطبخ!..

- العزوبية بتربي والغربة بتعيد التربية..

زوت مابين حاجبيها بدهشة حقيقة هاته المرة:

- كنت مسافر فين؟..

ترك مابيده ونظر إليها زاويًا مابين حاجبيه، متخصرًا من جانبه في عجب:

- إيه ده هو أنا ماقلتلكيش إني كنت عايش في السويد؟..

حركت رأسها نفيًا فناولها طبقًا وحمل آخر، تناولا الوجبة اللذيذة في الهواء الطلق، تحت جنح الحديث والثرثرة:



- سافرت بعد ماخلصت جامعة على طول، عملت ماستر هناك واشتغلت، استقريت فترة مش بطاله لحد ما واحد صاحبي الله يسامحه عرض عليَّ نعمل مشروع المركز الخاص، عرف يقنعني ابن اللذينه ورجعت، نفذنا المشروع وكانت الحياة ماشية بروتينها ومللها لحد ما قابلتك..

تبسمت لكلماته الصادقة والسعادة ترفرف بأجنحتها من حولها، نهضت عن جلوسها، ترتكز بذراعيها على حافة السور وتتطلع إلى المياه الممتده أمامها تلفها المباني الشاهقة بإضاءتها الذهبية المعكوسة فوق صفحتها، حين جاورها بوقوف مماثل أبعدت خصلات شعرها عن عينها ودارت برأسها تسأله بلهجة خبث ملأها الفضول:

- طول فترة وجودك في السويد مارتبطتش بحد؟..

اقترب ملامسًا كتفها بكتفه، يقابل عينيها ويجيبها بصدق:

- كان في حد في وقت ما..



رفع ذراعه، حط به فوق كتفها في إحاطة متصنعًا عدم الانتباه وهو يردف:

- كنا شبه مخطوبين تقريبًا..

أبعدت ذراعه عنها ببطء وقسماتها ترسم التركيز التام:

- هممم وبعدين؟..

- ولا حاجة أما قربنا وعرفنا بعض ماتفقناش فكل واحد راح لحاله..

مر حين من الصمت والأعين معلقة مع الأفق من أمامهم حتى وصلها همسه الدافيء يداعب أذنها:

- و أنتِ؟..

ابتلعت لعابها بعسر دون أن تنظره:

- أنا إيه؟..

- قبل ما نتقابل كنتِ مرتبطة بحد؟..



احتاجت للحظات صمت، طال فيها انتظاره قبل أن تلتف له، تقابل عينيه بهمس فاتر:

- كنت..

لم تتغير تعابير وجهه الساكنة:

- وبعدين؟..

حركت كتفيها بلا معنى:

- اكتشفت إنها غلطة حياتي..

كرر همسه:

- وبعدين؟..

تنهدت بصوت مسموع مزينة قولها المتباطئ بابتسامة شجن التمعت لها مقلتيها:

- بعدين قابلتك، حسيت بمشاعر حقيقة وعرفت الفرق..

صمتت هنيهة ثم تابعت بقول أخير ووصال الأعين لا ينقطع:



- وقتها اتمنيت لو كنت قابلتك الأول..

في قولها ذاك كان كل الصدق، والصدق في نواياها كذلك محسوم، سرها سوف يبقى خبيئة صدرها، هو لن يعرف حقيقة شيء قبل أن يربطها معه ميثاق غليظ، لن تجازف بخسارته وهما على أول الطريق، لن تجازف بخسارته أبدًا..

طوقها بنظرة مطولة قبل أن يخلع عنه سترته، وضعها فوق أذرعتها المعقودة فوق صدرها إثر برودة الجو، ساعدها لترتديها بشكل تام فوق ثوبها وعندها لم يبتعد، ضمها برفق، طوقها بذراعين محبة، لم تملك معهم غير التسليم لتلك اللحظة، لحظة غمر فيها صقيع قلبها بفيض دفئه..

شعرت باهتزاز من تحتها فابتعدت بغتة دون أن تتخلى عن تشبثها بذراعيه، تصيح بفزع:

- ناصف دي بتتحرك!!..

اتسعت ابتسامته بوسامة:



- أيوه ما أنا أخدت اليخت بالقبطان..

لم يبرح الفزع قسماتها:

- هنروح فين!..

- مخضوضه ليه طيب هو أنا خاطفك؟..

هدأ فزعها قليلًا:

- لا بس مش عايزة أتأخر..

- هنكمل سهرتنا ونرجع على طول..

تركها ودلف إلى الداخل للحظات، عاد واللحن الغربي يتعالى من حوله بشاعرية أحاطت به ويده تمتد إليها في دعوة ناوشها بحاجب مرفوع في عبث وازى عبث نبرته الأجشة:

- Shall we dance?



ضحكت برقة ويدها تحيط بكفه الممدودة، مالت بجذعها تخلع عنها حذاءها ذي الكعب العالي بيدها الحرة ثم عادت تستقيم والكلمات تداعب أذنيها وتحملها فوق غيمة وردية..

You can dance every dance with the guy

Who gives you the eye, let him hold you tight

You can smile every smile for the man

Who held your hand beneath the pale moon light

تشاركه رقصة نيلية خاصة حيث وحدهما بمعزل عن المدينة وصخبها..

But don't forget who's takin' you home

And in whose arms you're gonna be

So darling, save the last dance for me

- مش عايزه تستغلي اللحظة الشاعرية دي وتقولي حاجة؟..



كبحت تبسمها قسرًا، أغمضت عينًا وتركت أخرى مستفهمة باستغباء مصطنع ومبالغ فيه:

- حاجة زي إيه؟..

شد ياقة سترته المحيطة بجذعها في فظاظة:

- بحبك مثلا..

صفعت كتفه بظهر كفها بفظاظة مماثلة:

- إنتَ أحول يابني ما أنا لسه قايلة لك في مشاعروبتاع..

- تصدقي بالله؛ أنتِ كان آخرك كرسي على الكورنيش وكوباية حلبسه..

غمغم بها في في حنق فضحكت..

ضحكت ملأ عينيها، ملأ قلبها.



بعض القصص توهمنا بكونها منتهية



بينما وفي الحقيقة نكون مازلنا متعلقين بأذيالها..

كانت جالسة في حجرة المعاينة تمارس عملها كطبيبة بالمشفى العام في روتينية معتادة حين دلف عليها باسم وهمي ذيل الورقة الموضوعة أمامها فوق السطح الخشبي، يوصد الباب من خلفه على مهل تابعته عينيها المحدقة بمفاجأة وهمس خافت عبر شفتيها محملًا باسمه:

- عزيز!..



(18)

آفة البشر التعود..

و آفة القلب في احتياجه، في غياب وليف العمر ومؤنسه..

هي جذره الممتد نحو أبعد نقطة، مهما تعثر كانت تعود به ليستقر، أضحى من دونها بلا جذور تتقاذفه رياح الأيام بلا هوادة، غريب لا يعرف حاله، كانت له الدليل وبوصلة الشمال التي يهتدي بها إلى نفسه وكافة أمور الحياة، حياة أصبحت من دونها باهتة بلا معنى، كل شيء فيها صار شبه أخيه لا لون فيه ولا رائحة..

أشهر مرت عليه وحيدًا، يتيمًا كما يقول الكتاب، حملت له من البرودة والقسوة ما يكفي ليعيد هيكلة أفكاره وترتيب خطوط حياته، أما عن ذاك الفصل البائس منها فقد مزقه، لم يقرب



امرأة غيرها، لم يدون اسمه فوق عقد مزيف منذ حينها ولن يفعل، يريد استعادتها، يريد استعادة حياته المفقودة بها، وقبل هذا كله يريد استعادة نفسه التي يعرفها ويحبها من خلالها، هو هنا لأجل هذا، هنا يخطي أول خطواته في طريقها وقد منحها الوقت الكافِ في تقديره لتنسى ما رأت وعرفت، ليعودان معا يسطران صفحة جديدة بعهود جديدة، صادقة هذه المرة..

- عزيز؟..

هتفت بها متفاجئة من حضوره، هنا حيث مكان عملها بين جدران المشفى، ترتخي أصابعها الممسكة بالقلم فيسقط فوق سطح المكتب دون شعور منها وكل مافيها يرتكز عليه متابعًا حركته بانشداه مسلوب الإرادة، غلقه للباب على مهل من وراءه، خطواته التي راحت تتقدم ناحيتها وبصره مثبت فوقها لا يبارحها، شفاهه تخط تبسمًا مذبذبًا في حين أقدامه كانت تدهس التردد في طريقه، تملكه شيء من خزي ونظراته تعانق



نظراتها هكذا لأول مرة منذ آخر مرة تعانقا فيها بصدق، أنهى خطواته بجلوس مقابلاً لها، يفصل بينهما مكتب بني صغير الحجم عتيق الهيئة، طال لقاء الأعين والكلمات تتبعثر على طرف اللسان، تتلاشى فاقدًا معها كل استهلال، بترت هي اللحظة بعودة وعي، حركت رأسها في التفات متخبط دون حاجة، هامسة بقول بدا عمليًا للغاية رغم خفوته:

- خيريا عزيز، جاي ليه؟..

- وحشتيني..

همس بها في الحال ململمًا شتاتها، عائدًا بها حيث هو وعينيه تطوقانها بشدة رغم الهرب:

- مش عارف أعيش من غيرك..

تكسرت أنفاسها من مطلع رئتيها حتى بلعومها، أطلقتها بعسر وعينيها تهرب من لقياه من جديد بانخفاض وقول اكسبته جفاء مقصود:



- مع الوقت هتتعود..

احتدم صوته وكفه ينبسط فوق السطح الخشبي:

- مش عايز أتعود، عايز نرجع..

لم تتفاجئ بقوله، بل كانت تتوقعه، راهنت مع حالها أن هذا ما سيفعله وكسبت الرهان، عرفت يقينًا أنه سوف يمهلها الوقت أولًا ثم يظهر ثانيًا مقتحمًا بوجوده أيامها بادئًا سلسلة ضغوطاته التي صارت تحفظها عن ظهر قلب، لكنه لا يعي بعد أنها هذه المرة تتطلع إلى الصورة من الخارج، في السابق كانت معه داخل إطار واحد، إطار عشق يكبل قلبها ويعصب عينيها عن رؤية الأمور في نصابها الصحيح..

زفرت أنفاسها بصوت مسموع أثناء نهوضها عن مقعدها، استدارت من حول المكتب في هدوء عبث بأعصابه، شدت معطفها الطبي من حولها قبل أن تجلس قبيله، تبلل شفتيها



بطرف لسانها وتخبره بجدية قسمات قاطعة مع عينيه خيط الأمل:

- إنتَ عارف إنهماينفعش..

بجذبه خاطفه كان يقرب مقعده من جلوسها المقابل، ركبتيه تلامسان خاصتها بقرب أنفاس وصرامة حروف ترفض رفضها:

- لا مش عارف!..

كررتها عليه بصرامة عينين:

- ماينفعش يا عزيز..

راقبت تعسر حركة حلقه وجمود النظرة قبل أن يعاود الحديث بمداهنة ورفق:

- خدي الوقت اللي يلزمك، بس ماتقفليش الباب..

- الباب ده إنتَ اللي قفلته..



لا يبدو أنه سمع لفظتها الجامدة، الجريحة وهو يردف مستكملا وصلة حديثه:

- مش هسمح لك، أنتِ مراتي..

- كنت..

- هترجعي لي..

- اللي بيننا أنا دفنته خلاص..

قبض على ذقنها برفق، يثبت بصرها الحائم من حوله قسرًا، يغمرها بفيض العتب بمقطار نبرته:

- للدرجة دي كرهتيني؟..

اخفضت يده عنها، احتاجت لضغط مهول لما يعتمل فيها من مرارة حتى تخرج حروفها بهذا الثبات والهدوء:

- في النهاية مش هنغير حقيقة إننا ولاد عم وعلاقتنا هتفضل موجودة جوه الإطارده، بس مش هاقدر أقدم لك أكتر من كده،



مش هعرف أرجع أكون لك زوجة من تاني يا عزيز، اللي بتطلبه أصعب من إني أتحمله..

أمسك بكفيها معا بين يديه، يرفعهما أمام فمه دون مساس، فقط ينفث بقربها أنفاسه الحارة، تلتقي أجفانه في خفر متوسلاً إياها بنبرة بُحت دون جهد:

- توبت وندمان والله العظيم، إنسي و اقطعي الصفحة دي أو خليني أقطعها..

أليس ظلمًا أن يحتجزها هكذا وبينهما يلتقي الفؤادان بأنين وسكون؟..

التمعت مقلتيها بغيث العبرات دون هطول:

- ياريت أنسى يا عزيز، أنا بتمنى ده، لكن لا أنا هنسى ولا إنتَ هتعرف، كل مرة نبص فيها لبعض بنفتكر، كل حاجة بترجع تتعاد بالصوت والصورة..

هاجمها في مواطن الضعف:



- أيامنا سوا، ذكرياتنا، كل ده اتنسى مقابل غلطة؟..

وهدفه خائب، ليس ذا فائدة تذكر مع مرماها المهتك:

- كل حاجة اتعكرت زي نقطة حبر وقعت في كوبايةماية، مفيش حاجة بتتعاد وبشوفها كل ما أغمض غير صورتك معاها، دماغي بتصور كل سيناريو ألعن من اللي قبله، وحقيقي مصدومة من تجاوزك للموضوع ببساطة واعتباره مجرد غلطة وعدت!..

احتدت نبرته ببوادر غضب هاته المره متخليًا عن كفيها وقد ضاق ذرعا من ذكرها للأمر مرارًا وتكرارًا:

- عايز اني أعمل إيه؟ أموت عشان ترتاحي..

انتفضت من جلوسها، تطالعه من علوها، تواجهه بصلابة لطالما كانت من شيمها مع الجميع إلاه:

- لأ تعرف حجم اللي عملته، اللي كنت بتعمله ده اسمه زنا عارف يعني إيه زنا؟!.. كل واحدة اتجوزتها عشان تحللها ورجعت



لجوزها هي عايشة معاه في الحرام، و إنتَ.. إنتَ جزء من الحرام ده وهتفضل شايله فوق كتافك وحمله هيتقل يوم بعد يوم لو ماتوبتش صح، اعرف حجم خطيئتك يا عزيز وكفر عنها قبل مايفوت الآوان..

تظن ماحدث كان صادمًا لها وحدها، لا تفهم أنه كان صادمًا له أكثر، ذلك الشعور الو افر بالخزي أغرقه أمام نفسه، وكم كره أن يكون في ذاك الموضع مرة أخرى..

وقف قبيلها، يصد صلابتها بصلابة أخرى وحدتها بحدة مماثلة:

- برده مش مصدقه، مش قادرة تشوفي غير اللي عايزاه عشان تخلقي حاجز مابيننا، بقولك بعدت عن السكة دي، والله بعدت، مش هرجع لكده خلاص ومش علشانك على فكرة، لا عشان قرفت من نفسي ومن الوضع كله..



أذرعتها معقودة فوق صدرها بقسوة تماثل تجهم ملامحها وحرارة أنفاسها المتسارعة في انتظام، تصدقه نعم؛ لكن تخشى عليه من الضعف والهوان المتبوعين بعودة، ما أكثرعهوده وما أسرع نقضها..

بذات التجهم والحال مالت بطرف بصرها، تسأله بما يؤرق لياليها ويقلق مضجعها:

- مافكرتش يكون لك ابن ماتعرفش عنه حاجة؟..

- مستحيل!..

ويقينه يقين رجل لم يطأ ماؤه رحم امرأة -بخلافها- قط!..

كان يعاشرهن دون إتمام، ليس بغرولا غافل ليترك أمرًا كهذا لحسبة القدر..

- إيه يخليك متأكد كده؟..

- صدقي اللي بقوله و اقفلي الصفحة دي أبوس ايديكِ..



صمتت على مضض فاقترب، حط بجبهته فوق خاصتها، ضغط كتفيها بيديه يقربها أكثر بهمس جديد:

- دهب..

يناشدها، بضعف واحتياج وعشق:

- ارجعيلي، محتاج حبيبتي ومراتي..

حين استطاعت تحريك لسانها، خرج صوتها معاتبًا أكثر منه متألمًا:

- إنتَ جاي النهاردة توجع قلبي من تاني..

بضعي منك وكلك مني..

همس بها قلبه و أقر بمفادها لسانه:

- مش قادرعلى بعدك، غصب عني..



قرعِ الباب أنقذها، ابتعدت بغتة تلملم شتات حالها وتنصب بصرها فوق الصوت الدخيل للمرضة التي رمقت وقوفهم القريب بنظرات متشككه:

- دكتور نصر عايزك حالا يا دكتورة..

- قولي له جايه..

همست بها لترحل الدخيله وتعود للواقف مع قوله التالي في جدية حتمية:

- ماعنديش استعداد أخسرك أو أفرط فيكِ..

- امشِ، لو سمحت..

قالتها بشتات..

بضعف..

بخلجات قلب تبعثرت أسفل قدميها.





أشد لحظاتك قتامة؛ يبددها ضوء الصباح..

تلك مسلمات كونية، مهما تعاظمت الظلمة وامتدت على مد لا يُعرف نهايته لابد وأن تمر ويجيء الضياء داحضًا إياها قسرًا وقهرًا..

ثلاث ليال لم يفعل فيهم شيئًا غير النوم، عقب الثلاث عاد له اتزان وعيه ورأسه، ترك الفراش وجالسهم، لم يتطرق أحدًا منهم لفتح الحديث ومن ناحيته أوصده بتصميم..

والآن؛ بعد مرور أسبوع على عودته بدأت الآلام جسده وكدماته في الإلتئام سالكًا درب التعافي، كيف لا يفعل وأمه تحيطه بدفء قلبها واهتمامها الفائض بينما الشقيقة تقوم بدور الطبيبة الصارمة التي لا تقبل تهاون أو إهمال في دواءه..

وجود أخيه الأكبر خفف الكثير، جمعهم من حوله وأزال وحشة الخوف المتناثره بداخل النفوس، بفضله هدأ توأمه و انطفئت مراجله المشتعله..



محاط بعائلة يحبها، يحبها لدرجة كره وجعها فيه، رؤيتهم مفجوعين عليه أربك الرجل الثائر بداخله، سكن بتيه، بأقدام متفرقة، واحدة ناحية طريق يريد استكمال ما بدأ فيه وأخرى في اتجاههم، أضناه التفكير كما لم يفعل من قبل حتى يأس فترك الأمر إلى حين، لينعم الآن بجمعهم، بالتفافهم من حوله وحول الشقيق الموشك على الرحيل..

اجتمع الأشقاء الأربعة فوق بساط الثرثرة الهادىء داخل الشرفة الفسيحة، مكمنهم الأثير حيث نسمات الهواء العليلة تتسرب بين ثنايا النفس بصفاء، على حين غره اقتحم مجلسهم صخب أنثوي، صغرى بنات العم تتقدم نحوهم قارعة أطباق البورسلين بالمعدن وهتافها الحاد يسبقها:

- وسع وسع، أحلى تورتة عمايل الشيف ندى الشيمي على سن ورمح..



تبعتها"ندى" بإجلال و إكبار حاملة بين يديها قالب الكعك الذي قامت بصنعه من الألف للياء، تضعه برفق فوق المنضدة المستديرة والملتفين من حولها مع هتاف "رنا" التالي:

- دي معمولة احتفالا برجوع الباشا، مش عايزه أقولكم إن ندى شغاله فيها من امبارح..

ضربت ساق"عبدالرحمن" بقدمها مردفة بأَنَفْه:

- بنتنا تتاقل بالدهب ومش ناقصها حاجة..

- ياستي و أنا قلت حاجة..

هتف بها قبل أن يكتموا ضحكهم مر اقبين"ندى" المتقمصة دور التباهي بينما تقوم بتوزيع قطع الكعك بأناقه وصمت تتلحف به في تغطرس، لم تجلس في حين جلست شقيقتها فوق ذراع مقعد"بكر" لتتبادل معه الغمزات واللمزات في خبث..

أخذت الو اقفه تتطلع إلى أول قضمة وتذوق تترقب آرائهم بحماس منقطع النظير، ثوانٍ وتعالَ السعال منهم جميعًا،



خفت الحماس مع تمتمة"عبدالله" الجادة وقد هدأ رد فعلهم المبالغ فيه بعض الشيء:

- لله الأمر من قبل ومن بعد..

الآن؛ مات الحماس كليًا وتحولت قسماتها إلى جدية شديدة، تسأل"دهب" أن تصدقها القول والتوقف عن المزاح الثقيل:

- دهب مش حلوة بجد؟..

والمعنية فقدت النطق والحركة لم يتحرك فيها غير بؤبؤي عينيها في اتجاهات متضاربة تعني الحَوَل.."بكر" اكتفى بخلع منظاره الطبي، مسد قصبة الأنف فيما بين عينيه في تسليم وهمس خافت طال إخوته في جدية دراماتيكية:

- وصيتكم العيال..

تحت جلجلة ضحك شقيقتها أدلى الزوج الضاغط فوق عضلة قلبه بوداع وشيك:



- منك لله؛ هموت قبل ما أسمع صباحية مباركة..

بعدها انفجروا جميعًا ضاحكين دفعة واحدة بقهقه شديدة أدمعت لها الأعين وهتاف"ندى" الغاضب والمحتقن بأوداجها المنتفخه يصفعهم جميعًا:

- تصدقوا أنا غلطانة اني عبرتكم أصلا يا عالم يا سخيفة..

وخصت زوجها بقبضة يد طالت كتفه بعنف غيظها:

- و إنتَ بالذات ماتكلمنيش تاني..

تركتهم ودارت تضرب بخطواتها الحانقة، تكبح عبراتها من الهطول حتى لا تمسي تسليتهم لبقية الليلة..

لحق بها "عبدالرحمن" في الحال متحكما في ضحكه، يعيدها قسرًا:

- تعالي بنهزر متزعليش..



دفعت به عنها في ضيق حقيقي فأرضاها بصدق غير مازح رغم تعلق الإبتسامة فوق فمه:

- خلاص حقك عليَّ والله..

عاد بها حيث الشرفة، يحيط كتفيها بذراعه مقربًا إياها من صدره بحمائية رجل قابلتها بوجه عبوس عاقدة ذراعيها فوق صدرها في تزمت صاحب كلماته الصارمة بخفة مازح قاصدًا إخوته:

- نتلم يا أوباش ونبطل غتاته..

وعاد للعابسة بهمس ثانٍ:

- أبوسك قدامهم طيب؟..

لكزت صدره بقوة تآوه لأجلها في صمت.. ما إن عادت تعلو الثرثرة بحلو الأحاديث حتى حضرت والدتهم بمقاطعة:

- تعالي يا بنتي، اتفضلي..



نهضوا جميعًا مستقبلين الضيفة التي حلت على مجلسهم مساءً، تقدم"عبدالله" خطوة مستقبلاً إياها في ترحيب بتبسم رصين:

- إزيك؟ اتفضلي..

أخذتها هيئته المختلفة عن تلك التي كانت تعرفها لوهلة مالبثت حتى تبسمت"فاطمة" لمرآه أمامها بخير، تردد بنبرة خفيضة اكتنفها بعض الحرج:

- الحمد لله، إنتَ إزيك!..

- طيب نستأذن احنا..

تمتم بها"بكر" آخذًا بـ"رنا" أسفل ذراعه بمناكفه في حين توأمه ومخطوبته اختفيا منذ حين، لم يتبقَ معه غير الشقيقة التي رمقته بنصف عين أثناء دعوته للضيفة بالجلوس..

جاورته"دهب" فوق متكأ مقعده، تمازح كلاهما بقولها الملون بخبث:



- هو اللي خارج من المعتقل اليومين دول بيتجاب له شيكولاتة؟..

رمقت"فاطمة" العبلة المستطيلة التي تركتها قبل حين فوق المنضدة بحرج وسرعة توضيح متلعثم:

- أنا يعني ماعرفتش أجيب إيه بس..

سارع بلملمة حرجها في كياسة قول وكوعه يضغط فخذ الشقيقة بتحذير مبطن من التمادي:

- تسلمي طبعًا، معلش احنا كده بنحب نهزر، نسيت أعرفك دهب أختي..

حاول إدارة دفة الحديث فلكزت"دهب" كتفه بأصابعها:

- يابني ركز، احنا اتقابلنا قبل كده وانا اللي معرفاها إنك خرجت أصلا..

دارلها برأسه يرمقها بنصف عين:



- والله؟..

أجابته بإيماءة رأس يصحبها تبسم عريض في سماجة ختمتها بنهوض سريع وغمغمة:

- أما أقوم أجيب لكم حاجة ساقعة تشربوها، ولا أعمل شربات؟..

زجرها بعينيه في حدة فعادت تغمغم بإدعاء وبراءة:

- شربات رجوعك، الله!..

تدخلت"فاطمة" تنهي الحوار:

- أنا ممكن أشرب شاي عادي..

أخبرتها"دهب" قبل أن تغادرهم بلطف صادق:

- من عينيا..

مسح عن وجهه مغالبًا حرجه بتمتة:

- أنا بجد آسف، يعني مش عارف أقولك إيه..



أفتر ثغرها الصغير عن تبسم ناعم صاحب إعتذارها:

- أنا اللي متأسفة على اللي حصلك..

- ماتتأسفيش، الحمد لله..

- لو ماطلبتش منك تساعدني من البداية خالص ماكنش كل ده حصل لك..

- وربنا أراد أنه يحصل، أنتِ مش سبب في حاجة ماتحسبيهاش كده..

سكنت لبرهة طافت فيها فوق قسماته وما تبقى من آثار للكدمات قبل أن تستقر أمام عينيه بسؤال خافت حمل كل المعاني في جوفه:

- إنتَ كويس بجد؟..

تلاقى جفنيه في خفر قبل أن يفرقهما مع تبسم لطيف زين محياه بالرضا والصدق:



- بخيروالله الحمد لله..

انفرجت أساريرها لبضع وتبسمها يزدان بقولها:

- بابا باعت لك السلام، بيقولك ياريت يقدر كان جالك على عينه والله..

غمغم لها في حبور:

- الله يسلمه يارب ده أنا أروح له بنفسي..

ظهرت الشقيقة عن باب الشرفة عائدة إليهم فأتبع قوله بتالي:

- بس الدكتورة تسمح لي أنزل..

زجرته في صرامة ويديها تضع الضيافة فوق المنضدة من أمامهم:

- مش قبل أسبوع كمان متحاولش..

لون وجهه تعبيرًا بائسًا للمغلوب على أمره في حين أشرق وجهها مقابل الضيفة:



- اتفضلي يا فطوم، جبت لكم كيك كمان مع الشاي..

- مش عارفين نودي جمايلك فين الحقيقة..

غمغم بها جوار أذنها في شبه تهكم قابلته بتبسم ولكزة من جانبها:

- مفيش بيننا جمايل يا حبيبي، ابقى اعتذربس لفاطمة بالنيابة عن أخوك أصله لبخ قوي معاها في الكلام المرة اللي فاتت..

تركته أخته أمامها صاغرًا وغادرت من جديد:

- لبخ قوي بجد؟..

اتسعت ابتسامة"فاطمة" في طر افة:

- جداااا..

- أنا آسف تاني والله..

عاد إلى ظهر مقعده ماسحا عن رأسه الحليق دون حاجة مردفا بصبغة حرج:



- عيلتي هعمل إيه..

زينت محياها اللطيف بتفهم وعقلانية وتبسم حبور.

على بعد أمتار..

دلفت"دهب" إلى غرفة أخويها حيث شقيقها الأكبر يقوم بتوضيب حقيبته، اقتربت ير افق ثغرها ابتسامة حنين بدأ منذ الآن:

- خلاص نويت..

بادل حنينها بآخر ويده تطوي قطعة ثياب وضعها بقلب الحقيبة:

- اطمنت عليكم الحمدلله أروح بقى أطمن على اللي هناك..

- ربنا معاك يا حبيبي، بدعي لك ربنا يصلح حالك مع مر اتك ويسعدكم..



طوى قطعة جديدة قبل أن يغمغم لها بفكاهة جادة:

- ركزي مع الدعوة دي وحياتك..

- راضيها إنتَ بس وهي تسامحك، نادية بنت حلال وبتحبك..

تمتم بالمشيئة ويداه تعمل على إغلاق الحقيبة لينزلها أرضا ويأخذ محلها، يقابل جليسته ويحدثها بجدية بالغة:

- سيبك مني وخلينا في المهم..

اعتدلت في موضعها، تتحفز خلاياها مع جديته:

- خير؟..

- عزيز..

- ماله..

- كلمني عشانك، عايز ترجعوا..

أخفضت رأسها للأسفل، تغالب شعورها بقولها السريع، الخافت:



- لأ يا بكر، ولو كلمك تاني بلاش تدي له أي أمل..

اقترب أكثر، يمسك بكفيها الساكنان بحجرها ليحدثها برفق حانٍ:

- ليه يا دهب، الراجل بيقول بس الرضا ترضى، حصل إيه بينكم لكل ده؟..

رفعت رأسها تقابله دون أن تحيد عن موقفها:

- اللي حصل هيفضل بيننا، معلش ماتضغطش عليَّ يا بكر..

- ماهو التكتم العجيب ده مخلينا مش فاهمين حاجة ولا عارفين نتكلم معاكم..

- كده أحسن للكل صدقني..

زفر في قلة حيلة، ديباجة الحديث تتكرر بدل المرة ألف ورأسها على حاله حجر صوان لا يلين، لكن حالها يتعبه، دفنها لحالها



داخل تفاصيل حيواتهم لن يغنيها عن العيش، حين تأخذ بهم مشاغل الحياة وأمورها أين ستكون هي؟..

مسح عن رأسها مرققًا وقع الكلمات بحنو:

- ماأحبش أسمع نغمة الحزن دي في صوتك ولا أشوفها في عيونك، وعشان كده هقولك تاني وتالت، فكري كويس، أنا متأكد إن سعادتك معاه، بالرغم من كل اللي حصل أنتِ لسه بتحبيه..

لمعت مآقيها بنذر قريب وتهدج صوتها رغمًا عنها:

- لو بتحبني يا بكر أقفل السيرة دي وماتتكلمش معايا فيها تاني..

الحديث يؤلمها، يعيد فتح جراحها القديمة ويتركها بنزفها تغرق..

رمقت حقيبته الموضوعه جانبًا عند الباب فغمغت له بضيق صدرها:



- هو إنتَ لازم تسافر؟..

طوقها بنظرة أسف في صمت فطوقته بذراعيها في وداع وعبرات لم تملك أمامها غير تركها لتسيل بصمت مماثل.



يمكن للحياة أن تحمل وجهين..

أحدهم سعيد وآخر فيه كل نقيض للمعنى، تهديك الحظ بيد وتختطفه بالأخرى، تمنحك كل سبل السعادة لكن تبخل عليك بذاتها، تقدم لك كل ما يمكن أن يحلم به المرء وتمنع عنك الشعور بلذته، حياة غنية بالكثير لكن أقدارها قاسية ومضنية..

هذا ما كان يدور بخلده أثناء وقوفه الجانبي أمام الجمع الغفير الحاضر لأجل الحفل السنوي الخاص بمجموعة شركاتهم، ليلة استثنائية يحتفلون فيها بذكرى التأسيس، يشاركون فيها



صفوة رجال الأعمال و رواد المجال حصاد العام كما يعرضون جزءًا من خطط المستقبل القريب..

ختم السيد"رشدي جوهر" كلمته وسط تصفيق حار من الحضور، لم يغادر المنصه ظل مكانه صامتًا يقابل الجمع بتبسم لبق ونظرات شاردة استرعت انتباه الجميع حين طالت، قبل أن تعلو الهمهمات المستغربة عاد يمسك بزمام الحديث من جديد، ينتشر صوته عبر مكبرات الصوت معلنًا عن مفاجأة الليلة في خبر أفاد فحواه عن منح جزء من أسهم المجموعة بنسبة أربعين بالمئة إلى ولي عهده الذي يسير على دربه ليصبح مالكًا رسميًا وشريكًا، يسلمه الولاية العامة ليأخذ محله ويقود هذا الصرح العظيم الذي أقامه بكد وعرق السنين..

تعالى التصفيق هذه المرة وسط الهمهمات مابين مبتهجة وممتعضة، أخرى معارضة وغيرها لم يمثل لها الخبر المعلن سوى مفاجأة الموسم، فالرجل الهَرِم يورث من هو ليس من



دمائه في ماله بل ويترك له مقعده، كانت الأصوات تعلو وتنخفض وهما على حالهما يقابلان بعضهما في لقاء أعين من البعيد..

رجل لـ رجل..

أب لـ ابن..

عيني الشاب اليافع تحمل صدمة المفاجأة مثل الجميع بينما العجوز كان يغمره الرضا والاطمئنان على تعب السنين الذي لم يكن ليرتضي أن يضيع سدى ونجله الذي يحمل دماءه لا باع له ولا رغبة في سوق العمل بل شق طريقه وأختار دربه الذي يهوى حيث الترحال والرحالة..

دعاه بإشارة ليتقدم إلى المنصة، أغلق زر حُلته الرسمية وإنصاع لمطلبه، خطواته العشر هاته التي كان يقطعها جلبت له شيئًا من ذكرى مطمورة حيث أسفل بقاع الذاكرة، الصبي الصغير يركض وسط سنابل القمح بحنك مشقوق عن



الضحكة، أشعة الشمس تعمي بصره و أقدامه تركض وتركض دون تعب..

حين وصل إليه عانقه الرجل وأستمع إلى سؤاله الذي جاء بروح طفل شريد انتشله من الظلمات وخبأه بين جدران مسكنه بأمان:

- ليه كده..

يعلم يقينًا أن هذا الأمر لن ينال رضا الكثيرين، وربما هذا نفسه ما دفع الأول للقيام به:

- عشان إنتَ ابني، وعشان إنتَ الوحيد اللي أقدر أستأمنه على تعبي..

يحدثه بفخر، بارتياح، ولا يمهله الوقت، يطلب منه أن يلقي كلمته الآن بما يناسب منصبه الجديد..

في اللحظة التي كان ينظرله الجميع في ترقب و انتظارلما سيقول كانت عيناه تتناقل فوق الوجوه والأعين البر اقة بواجهات



يحفظها، لا يعلم لم أراد رؤيتها في هاته اللحظة حتى أن بصره راح يتخبط بحثًا عنها، في الوقت الذي كان يفتش عنها فيه وجدها تخرج له من بين الوجوه من موضع قريب أمكنه أن يرى وضاءة وجهها وتبسمها الرقيق الذي يخصه بوضوح، وكأنما كان في انتظارعيناها لتطوقه بنظرتها تلك حتى يتحدث.

طريق العودة كان يشهد انقلاب حالها، ساكنة في جلوسها داخل المقعد تفرك أناملها قماش ثوبها، تبدل كل ماكان فيها من بهجة إلى وجه عبوس وضيق نقش تفاصيله أضافت عليه صمتًا ثقيلاً لم يكن يتوقعه، كل ذاك دفعه ليسأل بإيجاز:

- مالك؟..

- مفيش..



الطريق الطويل لم يحوِ بجعبته غير هاتين الكلمتين، ما أكد له أنه يوجد خطب ما هو صعودها الفوري حيث غرفتها واختفائها خلف بابها دون أن تنبس ببنت شفه..

كان قد أنهى حمامه منذ ثلث الساعة حين طرقت باب غرفته ثم اقتحمتها قبل أن يأذن لها وهو مازال و اقفًا بالقرب من النافذة يتابع أمرما فوق شاشة الهاتف وقد سرقه الوقت دون أن يشعر، الأعمى لكان يبصر آثار البكاء التي حملتهم أعينها، خصلاتها الملتفه فوق رأسها دون احكام في حالة فوضى تزيد من حالتها السوء، وقفت أمامه بمنامتها الحريرية ذات اللون الكريمي والإطار النبيذي وحالتها المضطربة تلك تسأله بجدية دون التفات أو مواره:

- قول لي بصراحة، هو أنا بجد كان شكلي وحش النهادرة؟..

الكلمات التي قصفت مسامعها في نهاية حفل الليلة مازالت تدوي برأسها، سيدتين لهما واجهة مترفة و أنيقة لا تبدو من



خلفها أية وقاحة كتلك التي تساقطت عبر ألسنتهم، لم يتركوا شيئًا فيها إلا وعابوا فيه، بداية من وجهها الغير جذاب، مرورا بثوبها رديء الذوق والخامة، نهاية مع جسدها الممتلئ في حناياه بطبيعة خلق، قالوا أنها بنسبها وعائلتها وهيئتها تلك لا تليق بالمكانة التي تحظى بها، سمعتهم يخوضون في شخصها وعائلتها وجل ما استطاعت فعله هو تبسم رصين أهدته لكلتاهما قبل أن تمر من جانبهم محافظة على هدوئها لبقية الليلة، لكنهم نجحوا في تدمير مزاجها، عكروا عليها صفو الأمسية وحتى النوم لم تستطعه وصدرها يجيش بكل ضيق..

- حصل إيه بالظبط؟..

أخرجها سؤاله من شرودها لتتنبه إلى حالها، تضبط وقفتها أمامه وتمحي أثر الدمعات التي تعيد مناوشتها كلما فكرت في الأمر، تزدرد لعابها وتمسح عن أنفها في محاولة لربط الجأش بينما تخبره:



- في اتنين ستات اتكلموا عني بشكل سخيف زي إن لبسي وحش مابفهمش في الموضة وكلام كده..

مع وقفته الجامدة قبيلها بكف يحوي الهاتف وآخر داخل جيب سرواله مع حاجبين معقودين في إنصات لم تظن أنه سيجيب على ثرثرتها المنفعلة عن حماقات النساء في هذا التوقيت من الليل، لكن ما إن سكتت ومرت برهة حتى حدثها:

- ناس لهم ذوق مختلف عن ذوقك طبيعي يختلفوا معاكي في الرأي، ومش معنى إنهم شايفين كده يبقى صح..

ثم إستطرد في الحال بذات النبرة الأجشة، الجادة:

- المفروض ماتسمحيش لحد يأثر عليكِ أويضايقك بالشكل ده..

حركت رأسها وكتفيها بخفه، تتفق وتختلف معه في آن، جذوة غيظها لم تخمد بعد بل كشفت عنها قسماتها ونبرتها المحتده:

- تمام معاك حق، بس ده مايمنعش إنهم قليلين ذوق و أخلاق!..



طيف تبسم ناوش فمه دون جواب هاته المرة، لكن ثورتها كانت قد خمدت بعض الشيء حين تنبهت لهيئتها الكارثية المعكوسة فوق سطح المرآة التي تقابلها من وراءه، محت أثر الكحل السائل فوق وجنتها بحركة خاطفة وأصابعها تعمل على تسوية خصلاتها مع عودتها له بنبرة خالطها حرج:

- أنا سيبت كلامهم يأثر عليَّ لدرجة نسيت أبارك لك..

انجلى ضيقها خلال اللحظات التالية لتفرق شفاها عن تبسم حقيقي، صادق:

- إنتَ تستحق المكانة دي و أكتر..

أشرق تبسمها أكثر لأن هذا الأمر يسعدها، يسعدها أنه محاط بأناس كهؤلاء الطيبين:

- الناس دي بتحبك بجد، إنتَ ماشفتش طنط ليلى كانت بتبص لك إزاي..



في عيني المرأة فيض أمومة وجد لأجله، وفيضها هي في هاته اللحظة كان يحيط بصقيع قلبه وينير ظلماته بقبس من عشق:

- لو كانت والدتك الله يرحمها موجودة كمان، أكيد كانت هتبقى فخورة وسعيدة بيك النهاردة..

- و أنتِ؟..

همس بها على حين غره والأعين تطوف وتتخبط بتيه سكن دهشة البسمة والنظرة النابضة بلمعة:

- أنا!..

الضحكة المخطوفة بحماقة عشق استنكار منها لحالها:

- أنا عمري ما حبيت حد كده..

سيحاول لاحقًا؛ التذكر كيف بدأ في تقبيل شفتيها دون سابق تفكير لكنه لن يتذكر، لن يذكر غير اللذة التي اقتطفها بثغره من شهد شفتيها، أنفاسهما المتلاحقة بحرارة وكلًا منهما يطوف



فوق وجه الآخر بلقاء حميمي، انصهار المشاعر مع تلاقي الجسدين بعناق و وصال كان في أوجه احتضنه فراشه المرتب ليشهد ميلاد شعلة غرام ما إن غمرت الحجرة بضوئها ودفئها حتى تأرجح لهيبها معلنًا عن خمود قريب، جاهد وجاهدت لتظل بينهما لكن سرعان ما خبت و انطفئت..

ابتعد عنها بعد أن عجز في جعلها امر أته، وكأن أحد ما ضغط فوق زرليتوقف كل شيء قبل أن يبدأ، يرتطم جسده مع برودة الفراش إلى جوارها، يعصب عينيه بواسطة ساعده بينما أنفاسه تختض بداخل صدره المكشوف في عنف، يجاهد في السيطرة على ارتعاشة أطر افه بضم قبضتيه بقوة..

لم تكن أحسن حالًا منه، كل ذرة في كيانها كانت ترتجف، لكن بشعور منها أدركت أنه بحاجتها، وأنها في هاته اللحظة يجب أن تقتحم نفسه مشرعة الأبواب، وجدت حالها تجثو بقربه،



تحيط ما أمكنها من وجهه المحجوب، تهمس له بحرارة أنفاس وأحرف:

- مش مهم، والله مش مهم..

تميل برأسها لتلثم جانب فكه بقوة شفاه مرتجفة قبل أن تبتعد لمسافة قصيرة وقولها التالي يتسرب إليه على مهل:

- احنا عارفين مفيش مشكلة عضوية، دي أزمة نفسية أي حد معرض إنه يمر بيها..

تجبر الرجل فيه، ترمم كسره برفق، لثمتها التالية طالت كتفه، فوق موضع واحدة من ندوبه المنتشرة فوق جذعه وهمس جديد خفت عن سابقيه بعد أن خالطه تهدج:

- مسألة وقت وكل حاجة هتبقى طبيعية، المهم إننا سوا، كفاية عندي أكون جنبك..

رغم الجمود الذي تراه لكن تحت يديها كانت تشعر بدمائه تغلي، حاولت فك عصابة عينيه فلم يزحزحها، فقط أنفاسه



الحاره تخرج بهدير خافت، أمسكت بكفه الآخر، تفكك صلابته قسرًا وتظل بكفيها متشبثه فيه، تتوسله باسمه:

- أسمر..

لا يجيب، ظل حاله ساكن وبقيت على حالها إلى جواره، تمسك بيده، رأسها مائل بثقل وبصرها يطوقه بعذاب من خلف غشاوة العبرات المنسابه فوق وجنتيها في صمت، خمس وأربعين دقيقة مرت على هذا الحال، حين قرربتره لم ينظرها لها، انسل هكذا من جانبها في صمت، وبدورها لم تستطع النظر إليه، هو لا يريدها أن تراه بتلك الصورة فليكن له مايريد، أطبقت فوق أجفانها حتى تلاشت خطواته..

دقائق أخرى وكانت المتاريس الفولاذية تدوي بصداها في جنح الليل، يقف أمام مغتصبه الذي سلب منه الحق في الحياة و الماضي البعيد يتقافز بصوره مرة تلو الأخرى، العينين



المرتعبتان تتبعان تحركه المتباطئ، وقوفه، النظر إليه بصمت موحش كصمت القبور..

الصوت المرتجف زحف كاسرًا السكون بتمتمة متلعثمة، جبانة كصاحبها:

- هتقتل.. عمك.. يا أسمر!..

الصوت التالي الذي اخترق السكون؛ كان لسلاح ناري أخذ وضع الاستعداد قبل أن تستقر فوهته مقابل رأس العم!..



السعادة؛ طائر في رفرفته خفة..

يأخذك فوق جناحيه فتشعر بحالك محمولًا فوق كفوف الحياة، تمر الأيام بحلاوة نسمة صيفية وأن كان قيظها لا يطاق، روحك مفعمة يدب فيها النشاط والحيوية..

السهر فيه لذة..



الكلام فيه سكرة..

وفي اللقاء عناق تقوده الأعين والأنامل..

كلاهما لا يعلم من يمتزج بين ثنايا الآخر، كان كلاهما يدور في فلك الآخر، يكتمل به يومه والشعور والأحلام، صار الحديث عن الغد والمستقبل أكثر ما يجمع بينهما، يتبعان الكلمة وراء الكلمة والحلم مضفور بأمنية يبتغيها القلب فتقرب المسافات وتنتهي بإرادته..

والقلب إذا ما أراد إنقاذ صاحبه..

هي وهو معًا داخل سيارته الخاصة، يصحبهما نغمًا كلاسيكيًا لم تكن تعيره أي انتباه إثر شدة توترها، جففت عرق جبهتها بواسطة المحرمة الورقية تحت وقع ضحكاته الخافتة باستمتاع، مالت تتطلع إلى زينتها عبر المرآة الخارجية، تطمئن أنها لم تفسد بعد ثم تعود بظهرها إلى جلوسها المستريح، قلبها منذ الصباح يقرع بدقاته بين جنبيها، أخذت تروح عن حالها



بواسطة كفها، تلتقط صورته الضاحكة عليها من طرف البصر فتحذره بكلمة:

- ماتضحكش..

كأنما منحته إذنًا بالقهقهه، يدير قرص المسجل فيعلو النغم بصخب، يأخذ بكفها القريب من جهته بين أصابعه، يعانقه بدفء ويلثمه بقُبلة عشق، يبثها طمأنته دون حديث فتلاقيها بتبسم صغير أظهر شيئا من بياض أسنانها دون أن يقتل توترها..

لقاء عائلته حتمًا أمر جلل يستوجب كل هذا القلق!..

خطوة أولى جادة في مسيرتهم وقد مر وقت كافٍ على التعارف ليكونا على ثقة تامة قبل إقدامهم على هذه الخطوة المصيرية..

بناية تحمل عنوانا للترف والفخامة كانت نهاية وجهتهم، قبل أن يقرع الجرس نظرت له للمرة الألف بينما تمسد بكفيها فوق ثيابها الأنيقة بسؤال هامس:



- شكلي كويس؟..

وهو لن يمل من إجابة حملت في كل مرة مرادف مختلف:

- زي القمر..

استقبلتهم الخادمة السمراء بإبتسامة واسعة قبل أن تحمل عنها هدية الزيارة، دلف إلى الداخل ويده بيدها، يسحبها من ورائه حيث العائلة في انتظارها مع دعوة عشاء حملت معنى التعارف إلى عروس ابنهم الأوحد..

فتاتان تصغرانها بالعمر كانتا أول من استقبلها بترحاب حار ولمزات طالت الشقيق القابع بجانبها، في حين والدته كانت ترمقها بدهشة قبل يقدمها لها:

- عبلة يا ماما..

و"عبلة" كأنما أنسلت عن العالم بروحها التي راحت تهوي من أعلى قمة جبل وجدت بالكون تاركة جسدها بين ذراعي المرأة، تقبلها بكياسه وتحادث ولدها و أثر دهشتها لا يزول:



- أنا طلعت أعرف بيللا قبلك يا دكتور..

- وحياتك يا رجاء؟..

- احترم نفسك يا ولد..

وقع الخطوات القادمة أوقف الحوار الدائر ليستدير وهي من ورائه..

لنقل بداية تعارف أو عودة لقاء، لم يعد للمسميات معنى ها هنا:

- أقدم لك عبلة يا بابا..

لم يرَ صدمة "بابا" ولا تضارب الألوان بوجهه بينما يحط بذراعه فوق كتفيه ليستكمل وصلة التعارف بفكاهة قول وانبساط ملامح:

- سالم باشا، الكبير بتاعنا..



الآن؛ صار من حق الروح أن تهوي من أعلى القمة إلى أبعد سفح في ارتطام أخير.



(19)

ماذا بعد السقوط؟..

ما التالي لتهشم الروح!..

الوجه الباهت هربت منه الدماء فكان أقرب لتمثال شمعي لم يعرف معنى الحياة يومًا، القلب صار بين قبضة الزمن، يعتصره بقسوة، بشدة تخبرها أنها خسرت كل شيءٍ في لحظة، أن المرة الأولى الذي اختارفيها القلب نيابةً عن العقل تم دهسه بأسوأ طريقة ممكنة..

خافت أن يطاردها الماضي ويبقى عالقًا في أذيالها، لم تكن تدري أو جال في خاطرها أنه يحاصرها من الأمام، وأنه يتلبس الحاضرلدرجة تحرمها من عيشه..



لم تكن ترى صنوف الطعام التي تراصت بأناقة لأجلها، وبالرغم من كونها تلوك نذرًا منها بين فكيها لم يكن بها قدرة على تذوق الطعم والمرارة تستحلب كل خلية فيها، طرف بصرها يلمح مجاورها ومنه إلى أبيه..

هل قال أباه؟..

وهذه المرأة التي تستقبلها في منزلها بترحاب حار هي لاغيرها أمه!..

دونًا عن العالمين أجمعين هؤلاء هم أهله، أي عبثٍ يحدث، أي حظٍ غابر هو حظها..

- عايزة أقولك إنه أول ما عمل باسورد للموبايل بتاعه قفشناه فورًا..

- هو طول عمره مفضوح قوي الصراحة..



يحدثها شقيقتاه بمرح فوق مائدة الطعام، تقربان المسافات بمحبة وحبور شاركت فيه الأم بحديث يخصها ونظرة سعيدة طوقت بها ولدها في رصانة:

- لو تعرفي بقالي قد إيه اتحايل عليه عشان يعرفني على البنت اللي خطفت قلبه..

جل ما استطاعت تقديمه طيف من تبسم لون ثغرها قبل أن تقابل وجهه الذي مال إليها يحدثها بطرافة فيقع بصرها فوق أبيه بغصة حلق وقلب:

- لا وكنت عامل فيها حويط و أقولها اصبري مفاجئة فتطلعوا عارفين بعض و أنا اللي أتفاجئ في الآخر..

تستطيل الثرثرة برأس شقيقته الصغرى المهتز في فضول أنثوي:

- مش تعرفونا بقى اتقابلتوا إزاي..

كان يتكفل بكل الإجابات، كانت سعادته جلية، وكانت إلى جواره أتعس مخلوق على وجه البسيطة:



- عندي في المركز، الآنسة كانت محتاجة تصحيح إبصار..

يلتقي كفا الشقيقة في تأثربالغ:

- وإنتَ بقى اشتغلت على العيون والقلب سيدي يا سيدي..

يتبادلون الضحكات الخافتة تختتمها والدته بقول الصدق:

- مش عشان ابني على فكرة، بس بجد عمرك ما هتلاقي حد حنين ويعرف يحب اللي معاه زي ناصف..

كان العالم بأسره يقف متفرجًا عليها مطلقًا قهقهاته في سخرية للوضع الذي كانت تكابده، كم رغبت بالهرب، بالركض بعيدًا لكن الماضي يقيدها، يسلسل وجدانها بقيود صدئة كالسؤال الذي خرج من فم أبيه في هاته اللحظة كاسرًا به صمته الذي طال في ديناميكية أثناء مضغه للطعام في تباطؤ:

- وعلى كده أنتوا تعرفوا بعض من زمان؟..



توقف بصرها عليه، وحدها اشتمت رائحة السؤال النتنة، وحدها شعرت بغايته وما يواريه بينما الجميع يترقب، وهو!..

هو يتطلع إليها من جديد بتبسمه الجذاب، يضم كفها القريب براحة يده أسفل المائدة ويجيب السؤال دون أن يفارق عينيها غافلًا عن هلعهما الخفي:

- ممكن نقول سنة كده..

وغمزها خفية لأن التاريخ التقريبي يعود إلى أول مرة رآها فيها، يوم زارته كمريضة واختار هو أن يكونا حبيبين..

رغمًا عنها فارقت موج عينيه الحبيبة لتعود تلتقي مع عيني أبيه المشتعلة بغضب يخبئه عن أعين الجميع إلاها، كان يتصرف بكياسة حتى هاته اللحظة، تفجرت الدماء في رأس الرجل الستيني وهو يرى ولده يهيم في من كانت امرأته!..

- أنا مش موافق على اللي بيحصل ده..



صاح بهذا ثم نهض بغتةً ضاربًا بالمحرمة البيضاء فوق المائدة بأسلوبٍ فظ طال الجميع فأصابهم الحرج، أخذت الأعين تتبع خطواته الراحلة حتى اختفى عنهم خلف باب مكتبه المغلق بعنف في الوجوه، لحظات طغت بثقلها قبل أن تنهض زوجته، أهدتها وولدها تبسمًا معتذرًا ثم لحقت بخطواته على عجل وحرج، تبدل كل شيء كوجه "ناصف" الذي صار الآن يحمل علامات الغضب المكظوم، حاولت شقيقتاه الثرثرة بكلامٍ فارغ والتغطية عما يحدث لكن صوت والده كان جهوريًا كفاية ليخرس الجميع..

"جايب لنا واحدة من الشارع لا نعرف لها أصل ولا فصل وسايب بنات الحسب والنسب، ابنك ناوي يفضحنا على آخر الزمن يا هانم"..



راقبت شهقة أختيه المكتومة بأيديهما قبل أن تهمس بخفوت وبحروف جامدة، مثقلة، متحدثة لأول مرة منذ جلوسهم فوق المائدة:

- أنا عايزه أمشي..

صاحب قولها نهوضها السريع، حملها لحقيبة يدها وخطواتها الباحثة عن الرحيل في تخبط، لم تكن تستمع لاعتذارات أختيه ولا خطواته اللاحقة بها كانت تبغي الرحيل وحسب، اشتهت أن تختبئ خلف باب بيتها لكنه أوقفها، أمسك بمرفقها وأخبرها في صرامة وأمر عند الباب:

- استنيني هنا..

تركها وذهب حيث بقي أبوه مجلجلًا بكلماته وأمه متعلقة فيه تسأله خفض صوته، تستجديه الصمت لأجل سعادة ابنه لكن الحقائق كانت أقرب لسنون حادة تضرب فوق سقف بيته دون هوادة..



اقتحم "ناصف" الحجرة الداكنة في هيئتها، يضغط فوق مقبض الباب محاولًا التحكم فيما يعتمل فيه من اضطرام، يحدثه بلهجة حادة وعينين هاج بحرهما بشكل خطير:

- عبلة من عيلة محترمة، مش هسمح لك تتكلم بالشكل ده عن البنت اللي هاتجوزها..

لم يفهم مغزى ضحكته الساخرة المبتورة بزعيق حاد لا يقبل التراجع:

- أنا مش موافق على البنت دي وتقطع علاقتك بيها فورًا..

ضروسه تتلاقى بطحن ويده ترتفع أمامه في صرامة لن تقبل التراجع:

- دي حياتي أنا وده اختياري، مش من حقك تعترض أو تفرض أوامر، خاصة يعني إنك عايش حياتك ومش سائل في حد..

صاح بهذا في وجهه ثم التفت غالقًا الباب بحدة شابهت خطواته وحركته الملتقطة لمتعلقاته من فوق المنضدة



الواطئة، تناولهم بيد وباليد الأخرى أخذ بكفها وغادر، فتح لها الباب لتجلس بصمتها ويأخذ هو مقعد السائق بذات التجهم، زأر المحرك و انطلق في الحال، كان بصرها يصطدم مع الطريق أمامها، لم تستطع التحدث، بالكاد كانت أجفانها تطرف، تلك الحركة اللاإرادية كانت لها متعبة، استقرت بهم العربة على مهل أمام محل عملها، حيث أخذها قبل ساعات وقلباهما يقرعان بالحماس والسعادة، كيف كانا وكيف بهما الآن، استطاعت عقب لحظات من الصمت الممتد أن تستدير إليه برأسها، ترى عبوس ملامحه وضيقه الجلي، تستمع لحروفه الجامدة التي خرجت من بين شفتين مطبقتين بقهر:

- طول عمره مش شايف غير نفسه ورغباته واللي قدامه يتفلق مش مهم..

أخذتها نبرة صوته لأيام سابقة، حين كانت الكلمات بينهما تصل عائلته، أبوان انقضى بهما العمر لاهثين خلف الأعمال ورفع



مستواهم المعيشي، حتى صار البيت مجرد محطة ليلية، والنتيجة عائلة من خمس أفراد لكل واحد فيهم حياة خاصة فيه لا يعرف عنها البقية غير القشرة، لا يجتمعون على سفرة واحدة ولا جلسة سمر تضمهم، غرباء تحت سقف واحد، أخبرها كيف وجد في الغربة الراحة والاستقلال التام، كان بعيد عنهم لدرجة لم يجد الكثير ليقال..

- والدك معاه حق يا ناصف..

همست بها في جمود ميت ونظرات خابية تطوف فوق ملامحه، تردف تاليًا بثبات تدعيه:

- مانتفعش لبعض، اتسرعنا في قرار الارتباط..

دار يقابلها بعينين محتقنتين كحال نبرته، يرى الخبال في حروفها:

- بتقولي إيه!..

ضرب فوق المقود بكفه وصياحه يعلو بغتةً بحدة نفضتها:



- هو ماله أصلًا..

ليس من حقه أن يفرض عليه أوامره في شأنه الخاص، ليس من حقه أن يمارس طقوس أبوة لم يكن يومًا أهلًا لها..

استطرد في تصميم وعناد:

- هروح لأخوكِ أتكلم معاه، أنا مش محتاج له..

هتفت وكفاها يتشنجان مع حدة هتاف:

- الأمور متتاخدش كده، إهدى وبعدين نتكلم..

سيطرت على ارتعادة أوصالها بفتحها للباب، ترجلها وهمسها الخافت له دون أن تنظره:

- اتأخرت، هروح..

وصلت سيارتها بخطوات متخبطة، بأصابع مرتجفة فتحت بابها وألقت بجسدها، قبل أن تغلقه كان حاضرًا، ينفث أنفاسه الثقيلة بقول هدأت ثورته بعض الشيء:



- خليني أوصلك..

حركت رأسها رفضًا ويدها تدس بالمفتاح، تعود له بعينيها مع وقع كلماته الخابية كسعادته:

- الليلة متمتش زي ما اتمنينا، مش عارف أقول إيه غير حقك عليَّ..

حررت أنفاسًا عسيرة وقولٍ خافت غلفه تهدج هربت منه بتبسم كاذب:

- و إنتَ ذنبك إيه بس..

حررها من أسر عينيه بابتعاد وهمس:

- هكلمك..

تركها تغادر، تتخبط بها الطرقات والخطوات مع رنين صوته وكلماته السابقة في وضع ربط بينه و أبيه الذي تعرف..



"علاقتي بوالدي مش قد كده، تقدري تقولي عمرنا ما اتفقنا على حاجة، هو دماغ و أنا دماغ تانية خالص.."

"مش قادر أتجاوز فكرة إنهم حطوا شغلهم وحياتهم العملية قبلي أنا وأخواتي، في أيام كانت بتعدي ماكنتش بشوفهم نهائي، متخيلة؟.."

"أكيد مش واخد موقف بس كنت أتمنى لو العلاقة بيننا أفضل، أنا كنت قريب من عاليا ونور بس بعد سفري وفترة غيابي اللي طالت بقينا شبه أغراب.."

"ظهورك في حياتي جه في توقيت صعب كله مشاكل وضغوطات ومحاولة للتأقلم، كنت بهرب من كل ده معاكِ.."

- إزيك يا بيللا..

لم تتنبه لتحية "رنا" وخطواتها المثقلة مازالت تصعد الدرجات بعقلٍ غائب، حين أغلقت بابها من ورائها وقفت من خلفه لبضع



لحظات، تتطلع لما حولها بتيه، تأمل أن هذا كله محض كابوس، حتمًا هي تعاصر كابوس ولا بد أن ينتهي..

بذات التيه عبرت الردهة حتى غرفة النوم، أمام طاولة الزينة أخذت تنبش في أدراجها واحدًا تلو الآخر، تبعثر محتواهم في فوضى واضطراب انتهى وسكن والورقة الخاصة بالمعاينة الطبية القديمة والمطبوع عليها اسمه تنتهي بين يديها، تنهض شفاها بهمس مسموع طال أذنيها في تأكيد في حين كانت أقدامها تنثني تحتها لتسقط فوق الأرضية على مهل..

"ناصف سالم"

لطمت وجنتها بوعي..

بحقيقة..

" ناصف سالم"

لم يكن كابوسًا..



ماعاشته كان و اقعًا..

"ناصف سالم"

ترددها بمرارة..

بخسارة وألم.



الماضي صندوق مغلق..

تُطوى فيه سنين العمر كلما تقدم بك الزمان، تأخذه معك أينما ذهبت، في صحوك ونومك، فيه حنينك وألمك وماجرت به السنون من عقبات ومسرات، فيه جُل علاماتك الفارقة وكل محطات الحياة..

هو لم يحمل صندوقه بل انطوى بداخله، تلحف بإزاء الماضي في صرامة، بكل قسوة على ذاته، فكرة التنصل كانت شاقة والماضي يطارده في صحوه وبين ثنايا أحلامه، لا يفتأ أن يفارقه حتى يعود ليلتحم فيه كجلدٍ ثانٍ..



والآن؛ صندوق الماضي قيد العرض، تبعثر كل مافيه في لحظة توقف معها الزمن، نبش قاعه في لحظة غضب..

القاع يحمل صباه، عالمه، أم وأب وشقيقة رضيعة كانوا له العالم بأسره، أسرة صغيرة وبيت في ضواحي الريف جدرانه من الطوب وأسواره شجيرات العنب، عالم بسيط ضم سعادة قصيرة المدى..

يتذكر كيف كان يلاحقه، يتعلق بجلبابه ويسأله بفضول صبي لم يتجاوز السادسة بعد..

"مصر حلوة ياعم صابر؟"

كان يحبه..

شقيق أبيه الأصغر والأوحد، المقيم بالمحروسة، يعمل بأحد مشافيها الكبيرة ضمن فريق التمريض وكان قد تزوج بامرأة تخلت عنه بعد فترة ليست بالمديدة..



يوم يأتي إلى زيارتهم كان يوم عيده، يصحبه إلى مكانه الأثير، أسفل شجرة الليمون الوارفة، يجالسه ويمضي وقتًا برفقته، يتمازحان ويضحكان بصدق، أحبه لدرجة تمنى أن يكون والده بدلًا من أخيه حاد الطباع..

مضت الحياة بنهجها في روتينية قاتلة، حتى جاء ذاك النهار الذي تبدل بعده كل شيء..

البيت، بيته، أصبح كتلة ضخمة متوهجة، رآها بعينه ما إن عاد من مدرسته، ظل و اقفًا ولهب النيران يتر اقص بمقلتيه، الناس متجمهرين من حوله يضربون كفوفهم ببعضها والبعض الآخريحاول إخماد اللهب، بسبب إسطو انة غازخسر بيته وعائلته في لحظة..

لحظة موت تبدل بعدها الحال مثل بقايا الدار المتفحمة، أخذ العم بكفه وارتحل حيث المدينة المزدحمة بساكنيها وبناياتها..



الصبي ابن السادسة يخطي أول خطواته داخل الشقة الصغيرة القابعة بالطابق الأخير لإحدى البنايات العتيقة، تركه يكتشف محيط حياته الجديد ويعايش حزنه بصمت، صبي لا يعرف ماهية الموت، لكن يعرف جيدًا أن الميت لا يعود أبدًا، ظل يبكيهم كل مساء حتى تضايق العم ونهره آمرًا إياه أن يتوقف عن جلب الصداع لرأسه، ظل يبكي سرًا داخل دورة المياه ثم اعتاد غيابهم فتوقفت عيناه عن ذرف العبرات من تلقاء نفسها..

طوت الأيام بعضها البعض وهو جليس هذه الجدران، يغادره العم صباحًا ويعود قبيل المغرب، يأكلان معًا وجبة سيئة مثل طبق فاصوليا أتم يومه الخامس بالبراد، لكنه مجبول على الصمت والقبول لأن العم يغضب مع أي إعتراض..

لوقتٍ طويلٍ يطالعه ولا يحيد ببصره عنه، كان يرتاب ثم يؤول هذا محبةً منه، ثم وفي ذات ليلة انحشر العم معه داخل



الفراش الضيق، أخذ يمسح عن رأسه بحنو غريب، يكسر الصمت بينهما بكلمات:

"ماتزعلش، أنا هكون مكان أبوك وأمك، هجيب لك كل اللي نفسك فيه.."

تضطرب أنفاس العم وهو يتابع حديثه ويلتصق في الجسد الصغير المنكمش أكثر:

"هنلعب كورة ونخرج نتفسح.."

يتعرق جبينه، تتلعثم حروفه بانفعال مضاعف و يده تتجرأ وتلامس عورته..

"لما تسمع كلامي هعملك كل حاجة حلوة"

لا يعلم أحد أن تلك الجدران تواري من خلفها فاجعة كبيرة لصبي سقط طريدة سهلة المنال لمخلوق أضحى عبدًا لشهو اته واعوجاج فطرة دنستها عظيم الخطايا.. صبي صارسجين حبل غليظ يحد حركته داخل غرفة محكمة الغلق يليها بابًا آخرًا



يخرج منه صاحبه كل صباح ويعود قبيل الغروب ليمارس على برائته كل فحش منكر، في البداية استحل عورته بعبث ماجن ثم أجبره على رؤية مقاطع لأناس عراة ليطلب منه بشبق غريب كان فوق استيعاب عمره أن يطبق مايراه وكل رفض منه يقابله صفعة، ركلة..

كل صرخة ألم مبحوحة باطنها استغاثة ورفض يوازيها حرق بظهر ملعقة معدنية غادرت اللهب لتكوي جلد صدره وظهره حتى اكتملت خارطة البغي والاختلال في ليلةٍ ما باعتداء كامل!..

كان يتوسله، لم يتوقف لحظة عن توسله..

"وحياة النبي لأ ياعم صابر"..

ينظر له بأعين مذعورة وقلب الآخر لا يلين، صار لا يعرفه، يبتلع أقراص بيضاء صغيرة ثم يتحول لآخر غريب غير ذاك الذي كان يسعد لرؤيته، صارت رؤيته تقبض روحه..



أزيز الباب كان يملك بداية ملحمة الذبح ونهايتها، وتلك الجدران وحدها كانت شاهدة على ماحدث للجسد المسجى فوق الأرضية المصقلة يستقبل أقبح أنواع الانتهاك، وستظل أبد الدهر تحمل دليل اغتياله بدمائه التي سالت من بين فخذيه ولاحقت خطواته حين كان ينهض ويرتكز على كفوفه الصغيرة فوق الجدار، يبحث عن سرواله المنزوع قسرًا فيرتديه بانتفاضات متتالية لأطرافه الأربع، يقاوم ألمًا كاسحًا يقصم ظهره قبل أن يخمد ذعره وخوفه فوق الفراش وحيدًا، متلويًا،منتظرًا ليلة الغد لتبدأ ملحمة جديدة بغزو جسده الصغير..

لثلاث مرات أتم انتهاكه حد التمام، عقب المرة الثالثة كان قد اتخذ قراره، رآه يترنح بجسده الثمل وقد ارتوت غرائزه حد السكرة، يلقي بجسده فوق أريكة منفردة تحتل الردهة واضعًا ذراعه فوق رأسه يغط في نومٍ عميق تاركًا له فسحة من الوقت يلتقط فيها أنفاسه، تصنع الهدوء والنوم حتى تأكد أنه لن يشعر بخطواته المتحركة في هذا السكون من الليل ولا ارتجاف



أطرافه، كان الليل فرصته الوحيدة لأنه مع طلوع الشمس سوف يحتجزه داخل الغرفة بحبلٍ غليظٍ ويغلق عليه بمفتاحها، جر أقدامه بحفيفٍ خافتٍ، أدار المزلاج ثم أغلق الباب من ورائه ببطءٍ موازٍ، بعد هذا استدار تاركًا أقدامه الحافية تسابق الرياح، ثمانية طوابق أكلهم بتوقيتٍ لا يذكر، كل مايذكره هو نصل أنفاسه الحادة وهو يعدو ليلًا بلا وجهة، يركض ويركض شاقًا الظلام على طوله، يلف رأسه إلى الوراء بنظرة ذعر ثم يعود إلى ركضه من جديد، قطع مسافات ومسافات لا يعرف تفاصيلها، أبنية تستطيل بلا عنوان، ينتقل من شارع إلى آخر بجهل، لا يحمل شيئًا معه غير عبراته التي أغرقت وجهه حتى وصل الشارع الرئيسي، وكلما تباطئت خطواته بتعب شعر به قادمًا من خلفه فيعود لعدائه مرة أخرى حتى ضربت الإضاءة الشديدة بصره، تعميه وتسقطه صريعًا أمام الارتطام الشديد للسياره القادمة في عتمة الليل، سقوط أخير اكتملت معه سلسلة التغييرات في حياته..



أوقف تدفق الماضي بروز الحاضر، خرجت أمامه تتطلع إليه بذعرها، تقف حائلًا بين الرجل وفوهة السلاح بجسدها، يداها ورأسها يتحركان برفضٍ لنواياه، لنظرة عينيه المرعبة في هاته اللحظة..

- لأ، لأ..

تغمغم بها وكل ما فيها يرتعد بينما الماثل أمامها لا يرى غير القابع من خلفها، عمه الذي أخذ من عمره عامًا كاملًا استباح فيه الروح قبل الجسد، عمه الحامل لدمائه وملامح أبيه الراحل، تجتذه من ماضيه بحروفها المرتعدة:

- قتل لأ يا أسمر!..

- يستاهل الموت..

خاطبها من لا وعيه، صاح بها دون دراية أن بعينيه تعلقت العبرات دون هطول..



تجابه ثورته في الحال، تقترب منه خطوة ثم تعودها برشد ويدها فوق صدرها الصاخب بنبضه:

- هو يستاهل يموت ألف مرة بس إنتَ لأ ماتستاهلش تعيش بذنب فعل زي ده..

- ابعدي..

أمرها بصياح واصطكاك أسنان المرتعب من خلفها تنقر ظهرها، تغالب قواها الخائرة بهمس بح برجاء:

- الموت راحة ليه افتكر كلامك..

وتشهق في انتحاب:

- عشان خاطري نزل المسدس..

ولا تتركه لأفكاره، تسحبه إليها بشهقة جديدة بينما يده المحيطة تزيد من ضغطها، تزيد من رغبته:

- أسمر أنا مرعوبة؛ حاسة إن قلبي هيقف!..



خفتت آخر حروفها بأنفاس متقطعة، كفها يضغط فوق صدرها المتألم ونحيبها الشديد يتردد بصداه من حوله مشتتًا من وعيه..

في الزاوية وبعيدًا عن مرمى الهدف ضغط فوق الزناد لتدوي الرصاصات ثلاث مرات بتتابع زمني لا يذكر حتى فرغت الطلقات ومازالت أصابعه تضغط، وهي على حالها في محلها، تحجب عنه ماضيه، تصم أذنيها وتبكي بصوتٍ متعالٍ في ذعر، حين توقف الدوي أبعدت يديها ببطءٍ تطالعه، عينان جاحظتان بجنون داخل وجهٍ محتقن يصب عرقًا وأنفاسه الحادة تتناحر بين أضلعه في جمود تلبسه كجن مارد، جرت أقدامها جرًا وعبراتها تنزلق فوق وجنتيها بلا توقف حتى تصل إليه، تطوقه بصمت وإن لم يفعل بالمثل، يداه متهدلة إلى جانبه يتدلى منها السلاح الفارغ وبصره لا يرى غير القابع أمامه طاويًا ذراعيه فوق رأسه في لحظات توجها الهلع بخرس تام..



غاب عن البيت أربع وعشرين ساعة انتظرته فيهم فوق الأريكة بقلبٍ يأكله القلق وعينان معلقتان فوق الباب، حين عاد كان وجهه لوحة جليدية في جمودها ألم وفي أحرفه القليلة التي لفظها دون أن ينظر إلى عينيها نهاية الحكاية:

- هنطلق..



الليل مغزل الحكايا..

انتصف بها الليل داخل الفراش، بين يديها يهتز هاتفها مضيئًا باسمه في إصرار، لا يقبل النقطة وختام السطر، يريد إحياء النبض الميت، يريد إعادة بناء ما تم هدمه..

حين توقف الرنين عاد ينبض بهزة طفيفة معلنًا عن وصول رسالة جديدة يبثها من خلال أحرفه وجودًا وهيمنة وإن كان غائبًا..

"واحشني حضنك"



- وأخرتها معاك يا عزيز..

تهمس بها لحالها في حيرة..

كيف للدروب أن تتلاقى والخطى متفرقة؟..

**

على مفترق الحياة نحن رهن اختيار..

ترفض قربه، تتعامل معه بتجاهل، جل محاولاته للعودة بالحياة إلى سيرتها الأولى محض عبث، المياه بينهما تعكرت و انتهى..

ساهرة فوق أريكة البهو تتصفح كتابًا في ليلة أرق، الصغار نيام في أسرتهم التي تشاركهم فيها منذ عادت إليهم ولأجلهم، يراقبها منذ حين، يعرف أنها تسقيه من ذات الكأس التي أسقاها منه سابقًا ولذا يتفهم ويصبر ويستغل الفرص ليرأب الصدع الكبير في جدران نفسها وكرامتها، يقترب، يجلس فوق المنضدة أمامها، يختار أقرب بقعة ليقابلها، يأخذ بكفيها معًا بين يديه، يترك



داخل راحتيهما قبلة طويلة عبقتها دفء أنفاسه وهمسة قلب يشتاق وليفه:

- والله بحبك..

- وجعتني يا بكر..

- عشان نكون سوا..

- واحنا سوا عشان الولاد..

اختيارات أولية ذات نهايات حتمية.

**

نهايات يخرج من عبائتها بدايات، طرق منتهية تصل بنا لمحطات أخرى..

بنكهة لاذعة وجنونية تحاصره فوق بقعتهم الأثيرة، تصب حنقها وغضبها فوق رأسه..

- في إيه يا بنتي؟..



- في إني مش عارفة أتلم عليك، فينك؟قاعد مع عبدالله.. فينك؟ نازل مع عبدالله، على فكرة أنا خطيبتك مش عبدالله!..

يطالعها من وقفته المقابلة لها في تعجب واستغراب شديدين:

- اتهبلتي يا ندى، مطلعاني على ملى وشي عشان كلامك العبيط ده؟..

تحتد نبرتها في جدية:

- أنا متضايقة بجد يا عبدالرحمن ماتخدش كلامي باستخفاف من فضلك..

يرتفع حاجبيه في فطنة متأخرة لحالها المتغير منذ أيام:

- أنتِ غيرانه من عبدالله؟..

ترفع ذقنها في أنفة ومجابهة أسقطت فيها راية النكران:

- أما تكون مش مركز غير معاه حقي أتضايق زي ما إنتَ بتزعل أما أنشغل عنك..



أحاط كتفيها بيديه، يشتري خاطرها بلطف الكلمات:

-ياندى يا حبيبتي ما أنتِ شايفة قدامك نطلع من بلوة نلبس في التانية وبعدين مش اتكلمنا من يومين في ميعاد الفرح وأنتِ قلتي مش قبل امتحانات رنا!..

بادلته النظر في إحباط وسبابتها تشير إلى حاله كدليل دامغ:

- شوف بتتكلم عن جوازنا إزاي من غير نفس كأنه حاجة عادية، فين فرحتك وحماسك راحوا فين!..

أكد لها وطمأنها مع عذوبة الإبتسامة:

- هيحضروا أول مايتقفل علينا باب واحد..

تنهدت دون رد فحدثها:

- ماتزعليش بقى..

ثم داعب أرنبة أنفها بمزاح:

- بقيتي قماصة قوي على فكرة، هرمونات دي؟..



وهي مازالت تتخذ من موقفها الجدية، ومن حول خصره التف ذراعيها بلقاء وعناق انتهى برأسها ملاصقًا لصدره:

- مش زعلانة بس إنتَ وحشتني..

- يعني أنتِ تجرجريني للرذيلة وأبوكِ يكتبني تعهد عشان مقربش منك، الإعدادات اللي بتلعبوا فيها دي في رقبة مين؟..

ضحكت فوق صدره بمرح:

- نسيت أقولك إنه حالف يطلع شهرعسل مع ماما بعد فرحنا..

- يعني ينيمني أنا بتعهد ويشتغل هو، طول عمره خلبوص يابخت منال..

- احترم نفسك يابني..

حفيف الخطوات القادمة أوقف جلجلة الضحكات، تنحنح كلاهما فاضين التصاقهما مع ظهور الظل المقترب على مهل، كان هو أول من لمح طيف الحاضره باستغراب:



- بيللا؟..

- أنتوا هنا..

همست بها في خفوت لتستقبلها "ندى" بنبرة محب مهتمة:

- تعالي يا روحي، أنتِ كويسة؟..

أسفل سقيفتهما شاركتهما الجلوس بتبسم باهت وتوضيح في هذا التوقيت الذي تخطى منتصف الليل بنصف الساعة:

- صحيت من النوم ومعرفتش أرجع أكمل فقلت أطلع أشم شوية هوا بس..

التفتت جانبًا، تتطلع إلى الظلام الدامس والمحيط بعينين متألمتين وعقل متعب، ثلاث ليال تتعايشهم داخل البيت بقلق ورعب من القادم، ثلاث ليال مرت لم يحدثها فيها لمرة واحدة لا لخير أو لشر، هو من كان يهاتفها بدل المرة مرات، وهذا إذا ما كان يعني شيئًا؛ أنه صار على علم تام بالحقيقة..



آهة وجع ناح بها قلبها في صمت قبل أن تنهض ململمة بعثرة كيانها الخاوي وعينيها المحتقنتين بهمس مضعضع كنفسها:

- بردت هنزل، تصبحوا على خير..

اختفى ظلها في الحال كما ظهر، بقيا يتبعانه حتى انتهى فعادت أعينهما تتلاقى بقرب وتمتمة ذكورية في تساؤلها حيرة:

- مالها دي كمان؟ هو البيت ده ماله بقى كئيب كده بكل اللي فيه..

ذيلت "ندى" الو اقع بحقيقة غائبة:

- احنا محسودين..

شماعة المجهول خير مشجب لحيرة أمرنا.

**

خطاه حائرة..



أنفاسه تخالط نسائم الفجر بعشق أبدي، يسير في الطريق الذي تحفظه أقدامه عن ظهر قلب بأجفان مرتخية، أنهى للتو صلاة الفجر وأخذ طريق العودة بفكر حائر يحمله معه أينما كان، مشغول البال والحال على الدوام، ما إن دلف إلى البيت حتى وجد أباه ينهض بصعوبة وقد أنهى صلاته بدوره، أمسك ساعده يعاونه على النهوض مع تمتمة الأب وآهات عظامه المتفرقة:

- المرض حرمنا من نعمة الصلاة في الجامع..

- أجر وعافية يا حبيبي..

ألقى بجسده الثقيل فوق المقعد في لهاث أنفاس قبل أن يخاطبه:

- روح أعمل لنا كوبايتين زنجبيل بالعسل وتعالى عايزك..



كان الصباح بدأ يشق الأفق بضيائه حين عاد بالمشروب الدافيء إلى أبيه، يشاركه إياه ليعيد على أسماعه للمرة المليون فوائده العديدة والتي اختصرها بجملة واحدة ماسحًا بيده عن صدره:

- الكوباية دي تاخدها على الريق الصبح تجلي صدرك من كل البلاوي وتخليك زي الفل..

همهم على كلماته في صمت قطعه والده بعد حين:

- إيه بقى اللي شاغل بالك..

كأنما كان في انتظاره ليزفر ويضع الكوب أمامه محدثًا أبيه عن ذات قرب وأهمية:

- مش قادريا بابا..

ويستطرد في وصلة توضيح:



- مش عارف أقول يعني هي جات على دي وأنيم ضميري، حاسس إني متكتف وخايف يوم ما أقف بين ايدين ربنا يقولي كان في إيدك تكشف باطل وسكت..

- بس ربك قال ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة..

- نصرة الحق ودحض الباطل مش تهلكة، دي المفروض غاية كل مخلوق، من رأى منكم منكرًا فليغيره..

صمت أبوه للحظات سأله بعدها في شك:

- هو الموضوع خطير للدرجة دي؟..

اكتفى أن يوصل له بالغ الأمر دون توضيح أو استفاضة:

- وأكتريا أبو بكر..

امتد السكوت للحظات طويلة، حبات المسبحة رهينة أنامل الرجل الكهل يلفظ استغفاره بهمس خافت، والآخر المنتظر لكلماته تعلق فيه بصره كدليل لا يخطأ وجهته:



- إنتَ ابن كلب طالع للي خلفك غاوي وجع قلب ونفخ في قربة مقطوعة..

والتنهيدة المثقلة في ختامها الدليل:

- اعمل اللي يخليك تنام مرتاح يابني..

ويردف له بقلب أب يفخر فيه ويخاف عليه على حد السواء:

- ماقدرش أمنعك عن الصح ولا ربيتكم على العكس، بس هقولك احسب خطوتك كويس قبل أي حاجة، وقوفك في وش القطر مش شطارة لأ.. احسبها صح و افتكر دايمًا إن لنفسك عليك حق، اوعى تفرط فيها أو تستهين بأمرها..

يأتيه تائهًا، متخبطًا بين لجة الظلام فيعود بقبس من نور يضيء له موضع قدميه نحو الطريق المستقيم، طريق الحق..



حطم قلبها قبل أيامٍ بقراره..



وأخذتها به رأفة لن تنكر، تتفهم شعوره وتعلم ماذا يخفي خلف السكوت الكبير، ربما لأجل هذا مازالت هنا تطلب إذنًا بمنح بعض الوقت قبل أن تذهب لأهلها وتحادثهم بشأنها، وهو منحها الوقت الكافي، قال خذي مايلزمك وسننتهي بفراق، لم تستثنِ قراره أو تراجعه بقول لكن عبراتها فعلت وقابلها هو بغض الطرف..

اقتحمت عزلته بمكتبه، تقدمت وبين يديها قدحين من القهوة، أعدتها له كما يحبها تمامًا..

- ممكن نتكلم شوية؟..

همست على استحياء فنهض من خلف مكتبه داعيًا إياها للدخول، لآخر مرة سوف يتجاذبان أطراف الحديث، لم يكن له بساطٌ واسعٌ على كل حال..



أخذت بفنجانها في صمت، سبابتها تدور حول حافته والحروف تتثاقل داخل حلقها، تقاومها بتبسم لطيف، تدعيه رغم تذبذب نبرتها:

- بكرة هتكلم مع بابا وبعدها نبدأ في إجراءات الطلاق على طول..

طالعها للحظات وغصتها تزوره، تثقل صدره فيمررها بهزة رأس صامتة..

تناول قدحه، تذوق قهوتها ببطء ثم أتبع هذا بقول فقدت فيه الحروف معاني الروح:

- تستاهلي حياة أفضل مع حد شبهك، انفصالنا هيديكي الفرصة دي..

قابلت حروفه بارتعاشة قلب وكلمات:

- أنا اتمنيت الحياة دي معاك..



ولامته بعينيها، نبرتها المردفة كان في طياتها عتب كبير:

- بس إنتَ رافض تقرب من اللي حواليك، عايش مع الكل على الهامش ومتمسك بالماضي..

رفع لها عينين جامدتين، تصدان عتبها وحزنها بضيق لا يملك أمامه أي سبيل:

- الماضي ده عايش جوايا..

حركت له رأسًا ترفض تمسكه، ترفض بقاءه داخل كهف نفسه المعتم:

- لو كنت مكانك كنت هعمل المستحيل عشان أقلعه من جذوره، كنت هتمسك بأي فرصة تاخد بإيدي للحياة والنور..

- وأنا متمناش أبدًا إنك تكوني م.. كا.. ني..



تبعثرت آخر حروفه مع ثقل لسانه ورأسه الذي راح يتمايل بترنح، ثوانٍ تالية وسقط برأسه جانبًا وقد أضحى غائبًا عن الوعي تمامًا!..

راقبت كل هذا بنظرات متحفزة، ما إن مال فوق الأريكة من خلفه حتى تخلت عن قدحها بسرعة فجائية ونهضت عن جلوسها بغتةً، ربتت فوق وجنته وهمست باسمه، تتأكد أنه راح في سبات عميق بفعل المخدر الذي دسته له بقدح القهوة الخاص فيه..

تركته وبحركة عجول راحت تفتش عن رزمة المفاتيح التي لا يتركها بعيدًا عن مرماه، وجدتها فوق سطح مكتبه، أخذتها وغادرت الحجرة بشبه هرولة، تبدأ مهمتها التي طلبت لأجلها البقاء بضع أيام معدودات، سوف تحرره من ماضيه حتى لو كان الثمن حياتها معه، حتى لو كان الثمن رحيلًا مدمغ بفراق أبدي..



وصلت الباب المؤدي للقبو ثم عادت خطاها المتعثرة إلى المطبخ، تمسك بالسكين الضخم وتقبض عليه بقوة يدها، تعود حيث القبو والأبواب المغلقة، تفتحها واحد تلو آخر، ترتبك يدها وتعيد الكرة، تصل الرجل فتجده غافيًا على جانبه أسفل الجدار تحيطه الظلمة كما اعتاد البقاء، في الحال جثت فوق ركبتيها، بأيدي مرتجفة لا تتخلى عن السكين كسلاح حماية يدعم خوفها، تخلص قدميه من القيد المعدني الذي يكبله، تخبره بحروف مذبذبة بهلع وبصرها يرتحل من يديها لعينيه المفجوعة:

- هخرجك..

تنهي الأمر بتخبط وتنهض من فورها، السكين في وجهه والفاصل بينها وبينه خطوتان، تهتف فيه بنبرة تهديد:

- روح لأبعد مكان..

تؤكد له بلهجة حادة:



- إياك تخليه يعرف طريقك، لو وصلك هيقتلك..

لا يصدق الرجل هذيان المرأة بهيئتها المذعورة، لكن الباب مفتوح والسجان غائب، بصعوبة بالغة انتفض، يغالب تيبس جسده وعضلاته وقذارة هيئته بنهوض، يتمتم لها بغير تصديق:

- كتر خيرك ياست، كتر خيرك..

تسوقه من خلفها، يتبعها بفرج قريب، تتعاقب خطواته خلف خطواتها بتعثر، تفتح له الباب على مصرعه، تتركه يعبر، يقابل الحياة التي سلبت منه لأشهر طوال امتد عمرها لعامين ويزيد ضريبة عمرٍ كاملٍ سلبه إياه من قبل..

رأته بعينيها يركض فرحًا بالنجاة وملاقاة الحياة، حينما ابتعد بقدرٍ كافٍ عن ناظريها عادت تدلف إلى الداخل، تتطلع إلى ماحولها بمشاعر متضاربة، تعود إليه، زوجها، تقف أمام الحجرة تنظره، بعد حين تستدير عنه وفوق أقرب مقعد داخل البهو الفسيح تسقط وينزلق من بين أصابعها السكين، ترمق



الفراغ أمامها بأعين جاحظة تنتظر مصيرها، لا تعلم ماهية مافعلت، لا تخمن لأي درجة قد يصل رد فعله حين يفيق من غفوته القسرية التي دفعته داخلها..

هي فقط؛ أرادت له النجاة وحسب.



(20)

كل نهاية حتمية يسبقها قرار..

كل سقطة أخيرة يسبقها خطوة، لكنها أرادت له النجاة، بغت له الحياة..

أدارت جسده الواقف فوق حافة الهاوية إلى الجهة الأخرى، حيث هي والحياة ملأ ذراعيها مفتوحان من أمامه، تبصر عنه الطريق حين كان الغمام يحجب النظر، كان القاع يجذبه ليلقي بحاله في جوف الظلمات، إن تركته يفعل ما كان له من بعدها قيام وقد رأت في عينيه مقتل الرجل محتمًا، أدركت أن دماءه سوف تلتف حول معصميه ما إن يلفظها خارج حياته، رأته ينطوي على ذاته متعذبًا بما جنت يداه، ليس لأن المقتول لا يستحق، بل لأن إراقة الدماء تحتاج قلبًا قاسيًا ينوء بحمل

ذاك الفعل ورهبة بشاعته وليس هو من يتحمل ذاك الشعور، لو كان يستطيع لكان فعلها منذ زمن..

أصلحوه من ظللوه تحت جنح أمانهم، أصلحوه وغفلوا عن ماضيه المتسرب أسفل الجلد فكان يحيا به ويحيا فيه، أصبح لابد من بتر الجزء المتضرر حتى يعيش بقية الجسد دون أن يفسد، لأجل هذا أخذت نيتها حيز التنفيذ مادام النسيان ليس بالأمر اليسير..

في غفوة منه سلخت عنه الماضي و انتهى!..

لست ساعات سرى المخدر داخل جسده، حين مروا نهض متخبطًا في تيهٍ برأسٍ ثقيلٍ يدوربه، احتاج للحظات حتى تحمله أقدامه إلى الخارج، أصابعه تفرك جبهته ورأسه معًا، أجفانه تنقبض وتعود إلى طبيعتها في محاولة لرؤية واضحة..

شهقة الفزع الكبيرة انسابت من بين شفتيها مع ظهوره، جالسة بجسد متصلب منذ ساعات، لم تكن ساعات كانت سنوات في



حكم الانتظار القاتل، عرفت ارتجافة الخوف طريقها لتعبر من بين أوردتها وعينيها الجاحظة بهلع نافس صخب أنفاسها..

- آآآآ..

غمغم بلا معنى وخطواته تقترب، العالم بدأ يستكين، حالتها غير مطمئنة، كأنما تبصر شيطانٍ رجيم، حررت حروفًا جامدة، متكسرة بفعل ارتجاف صوتها وظله يشرف عليها بقرب:

- أنا عملت كده عشانك..

قالت جملتها وغصت أنفاسها بشهقة جديدة، ضاقت عيناه ملتقطًا السكين الواقع بالقرب من قدمها، ارتج رأسه للأعلى بغتةً مصوبًا بصره باتجاه القبو والعالم الباهت يتضح بصياح وركض ونبرة من بين ثناياها انطلقت شرارات الجنون:

- عملتي إيه!..

انطوت الأرض أسفل خطواته الواسعة، يعبر الأبواب المفتوحة على مصراعيها، يقتحم غرفة سجينه ماسحًا فراغها ببصره



قبل أن يعود أدراجه والجنون الفعلي يسبق خطواته، وجدها تقابل تقدمه بوقوف انتهى وعنقها بين أصابعه، يدفع جسدها بقوة غضب كاسح وصياح ارتجت له الجدران الساكنة:

- عملتي إيـــه..

يضرب ظهرها في الجدار مرةً أخرى ويده تزيد من خنقها في اختلال مضاعف:

- انطقي!..

جُلَّ ما استطاعت فعله والروح فيها تتنازع هو إشارة يدها ناحية الباب بينما الأخرى تحاول تخليص عنقها من بين أصابعه، تركها تنكفئ على حالها في سعال والهواء يضرب رئتيها دفعةً واحدة و خطواته راحت تتسارع في خبال عابرًا الباب، يركض فوق أسفلت الشارع الهادئ من جهة اليمين ثم يدور من حول نفسه ملتفًا إلى اليسار مقتفيًا أثره بمد البصر، لم يلمح له أي



أثر فعاد أدراجه بركض آخر، غطى صياحه على سعالها مصوبًا عليها لهيب عينيه المنبعث وتأكيدًا لصدق وعيده:

- هتدفعي تمن اللي عملتيه ده كويس..

متمسكة بقولها، لن تبرح حتى تبلغ به موطن الحياة، تصيح من بين انهمار العبرات:

- والله عشانك، عشان تنسى..

قابل قولها بدفعة لجسدها وغلظة:

- مش عايز أنسى..

صياحه صدم صفحة وجهها:

- ومش عايزك..

دفعة أخرى أشد غلظة أسقطت جسدها أرضًا:

- اطلعي بره..



أشهر ذراعه على طوله بصياح أخير طال حالها الساقط بالقرب من قدميه:

- أنتِ طالق..

ظلت فوق الأرضية ترتكز بكفيها، رأسها محني للأسفل يستقبل سهامه التي ختمها بيمين انغرز برأسه المسممة في موطن الفؤاد، كانت غارقة في نحيبها والعبرات تغسل وجهها حين مرت خطواته من جوارها آخذًا بمفتاح سيارته والسترة مغادرًا المكان وصرير العجلات يعني أنه لم يرتضِ النهاية التي خطتها بقلمها، أنه للمرة الثانية راح يلاحق ماضيه، يعود به حيث هو وطبق الانتقام البارد الذي يتذوق مرارته عن ذات إرادة..

بقيت على حالها لثلاث ساعات، ترتكن بظهرها إلى الباب المغلق وذراعاها يضمان بساقيها إلى بطنها، عيناها الذابلتان باحتقان تطالع الفراغ بخواء استعمر فيها الروح، حين دق جرس الباب على حين غرة انتفضت من جلوسها بنهوض سريع، تمني نفسها



أنه عاد، أن رشده عاد وكل شيء سيكون على مايرام لكن حين اصطدمت بوجه السائق العجوز توقفت أفكارها عن الطنين..

- أسمر بيه باعتني أوصلك عند والد سعادتك..

بالكاد استجمعت رباطة جأشها لتخبره أن ينتظرها لبضع دقائق بالسيارة، تحركت في آلية تصعد الدرجات، تبدل ملابسها وتلقي نظرات مودع أثناء خطواتها الأخيرة الراحلة، حينما استقرت بالمقعد الخلفي داخل العربة أدارت وجهًا تغالبه العبرات..

- أنتِ كويسة يا بنتي؟..

لم تحتج غير تلك الأحرف من السائق العجوز حتى تلقي برأسها فوق ظهر المقعد من أمامها وتنهار باكية.



كان في غيابه اليقين..



أدركت بحدسها أن خلف هذا الغياب الأمر جلل، مربها الوقت كالمطعون بالسكين وفي انتظارسحبه حتى يحق لها شهقة ألم، لا تدري كيف انطوت الساعة وراء الساعة والليلة بعد الليلة وهي تتقلى بجنبيها فوق جمر خطيئتها المتقد..

هذا الصباح احتاجت لقدحين من القهوة وقرص مسكن حتى يصمت الضجيج برأسها حيث تبقى في محل عملها بحضور جسدي فقط، العقل والروح تفرقوا عنها في مواضع مختلفة..

رأسها قابع بين كفيها من خلف مكتبها، تطرق ببصرها فوق الخشب دون رؤية واضحة، كان يشوش عقلها آخر عهدها معه، لقاءها بعائلته الطوفان الذي دمر بعده كل شيء..

أخرجها أزيز الهاتف من ضياعها، قبضت عليه تتطلع إلى الأرقام الظاهرة بجهل قبل أن تستقبل اتصالًا حوى جمل واضحة لم يكن ليضع صاحبها مقدمات..

"قابليني في الشقة، أظن فاكرة العنوان كويس.."



- عايزإيه يا سالم!..

"بخصوص ناصف، ضروري نتكلم.. مستنيكي ماتتأخريش"

مابين برودة القول وصياحها تمت المهاتفة، لم تكن بحاجة للتفكير والقلق مع الخوف يجوبان عروقها، الأمر يحتاج إلى نقطة واضحة توضع آخر السطر..

كانت تحفظ طريقها، وجدت باب الشقة في استقبالها بمواربة أغنتها عن قرع الجرس، دفعت به لتدلف وطرقات حذائها تر افق وجيب النبضات، خطوة وثانية و..:

- أهلًا بيللا..

والنبرة لرجل كانت تصفه بالحبيب قبل أيام!..

استدارت ببطء تقابل الأزرقين وقد غمر صفاءهما خيوط من لهب، جالس فوق المقعد المنفرد في هيمنة بذراعين مفرودين على جانبه فوق المتكئ..



ازدردت لعابها بصعوبة هامسة حروف اسمه بمواجهة قابلها بسخرية في طياتها نضحت مرارة:

- حلو بيللا، لايق عليكِ..

والنبرة تحمل خذلان، خيبة أمل وعشق لامرأة حملها مكنون قلبه بكل إخلاص، امرأة أراد لها الجنة فألقت به في قعر الجحيم..

الحقيقة في عينيه كانت تلوح مجردة، حقيقة فتش سرها أبوه في لحظة انفراد وغضب جمعت بهما بعد صراع دام لأيام أجج منزلهم بحريق لا تخمد ألسنته بل تعلو وتلقي بسوطها بلا رحمة، يأمره الأول أن يقطع أوتار وصاله بها ويصيح هو أنه ليس بالرجل الذي يتخلى، صراع جاء ختامه في مقر الشركة الخاصة بأبيه، قول بنهاية صارمة كونه متشبث بها حد الموت و أنه كأب مجبول على القبول بها كواحدة من أفراد عائلته، فجاءت الصفعة قاسية لطم بها وجهه بلا مقدمات..



"هتتجوزواحدة كانت مع أبوك يا ناصف!.."

لم تكن صفعة، كان اصطدامًا كاملًا بجسده أسقطه من علو شاهق، ظل ينظره بلا استيعاب والرجل فيه أنفة وقسوة يقابله بهما بوقوف في وسط الحجرة مستمعًا هسيس حروفه الميتة عن ذات قرب..

"إنتَ بتقول إيه.."

والنبرة مجلجلة بصدق، لا تخطأ أو تناور..

"بقول اللي سمعته، كان بيني وبين عبلة ورقة عرفي، وكنا بنتقابل في شقة المنيل.."

جحظت عيناه بجنون ضاربًا جانب رأسه براحة يده في رفض لكل مايقول:

"إنتَ مجنـــون؛ عشان تفرق بيني وبينها تقول كده!.."



الحدة في صوت أبيه قاسية، ذات سنن تنغرس برؤوسها في عمق قلبه:

"أنا بقول الحقيقة وتقدرتروح تسألها، مش هتنكر.."

ثم شد الأب من قامته، عدل ربطة عنقه الأنيقة دون حاجة و عاد مسترسلًا في حديثه غافلًا عن أن الكلمات بمثابة سيف نحر به عنق وليده مقدمًا مبرراته فوق طبق بارد:

"كانت نزوة وراحت لحالها، إنتَ عارف وضعي مع والدتك عامل إزاي، حياتها كلها في الشغل و أنا راجل ليا متطلبات مالقتهاش في بيتي ضعفت ودورت عليها برا، إنتَ راجل ومؤكد فاهمني.."

"أفهم إيه أسكت.."

هتف بها وأصابعه تحيط رأسه، يحميها من رصاص الكلمات التي تضربها بلا رحمة:

"اقطع كل حاجة تربطك بالبنت دي، علاقتك بيها محرمة.."



صرخ فيه:

"أسكـــــــت!.."

وهذا ليس بوقت السكوت، هنا تتجلى الحقائق عارية بكل دنس وعهر شمل تفاصيلها:

"مش بعيد تكون عارفة إنك ابني وبتخدعك، أنا في الأساس بعدت عنها أما اكتشفت إنها زبالة كلبة فلوس.."

اشرأب عنقه بجنون ماثل مايتكلم به من حقائق:

"هي زبالة كلبة فلوس و إنتَ إيـــه؟!."

ابتلع الأب ثورته على مضض متصنعًا الهدوء، مضى حين والصمت المستعر قائم بينهما حتى تكلم الوالد:

"أنا مقدر صدمتك يا ناصف، مش هحاسبك على أي كلام يتقال دلوقتي، في النهاية إنتَ ابني و أنا ماعنديش أغلى منك.."

غمغم بحروف ميتة، قتلها الصقيع:



"إنتَ ماعندكش أغلى من نفسك يا سالم يا رويني.."

خطوته تقترب، يواجهه وجهًا لوجه، يشير إلى صدره بسبابته دون ملامسة وقسماته يملأها الاشمئزاز:

"شايف العك بتاعك وصلنا لفين؟.. أمي اللي بتعيب فيها دي استحملتك عشان خاطرنا طول السنين دي كلها، أوعى تفتكر إنها مغفلة ولا نايمة على ودانها، كلنا عارفين قرفك اللي مابيخلصش وساكتين عشان الفضايح و إنتَ بدال ما تعمل حساب لينا ولنفسك داير تلف كل شوية وراء واحدة من دور عيالك.."

ابتعد ما اقترب من مسافة، يتطلع إليه شاملًا إياه من أسفل قدميه حتى قمة رأسه وقرفه يتضاعف لا يزول:

"عمرنا ما كنا كفاية بالنسبة لك والنهاردة دمرت كل حاجة ممكن تربطني بيك.."

قبل أن يغادره أنزل الستار بقول أخير:



"إنتَ عارمش أب.."

اختفى عن محيط الجميع لليلة كاملة تجرع فيها مرارة ماعرف قطرة تلو القطرة، يضع كلمات أبيه في قالبها ويعيد شريطها معه من البداية حتى النهاية..

في الصباح التالي اقتحم حجرة والده بغتةً ففزعت مديرة مكتبه عن ساقيه وغادرت بتلعثم حروف ليبقيا وحدهما من جديد، حدجه من عليائه بلا معنى ثم أمره أن يهاتفها ويطلب رؤيتها بمقر لقائهما القديم، لم يخبره عن نو اياه، كان و اقفًا على حافة الجنون فلم يملك الوالد غير الانصياع له وتلبية رغبته..

أمنية حمقاء داعبت شغاف قلبه بأنها لن تأتي، وأن كل أحاديث أبيه كاذبة، لكنها دحضت كل هذا بقدوم مؤكدة صدق أبيه وغبائه منقطع النظير..



تقابلا بمواجهة صامتة، عين بعين وفؤاد يلتقي بنظيره في مكاشفة، في غضب بارد ينهش دواخله وألم صامت تنوء به كل جوارحها..

- كلميني عن شعورك و أنتِ مع واحد وتروحي للتاني، لا ومش أي واحد، ده واحد و أبوه..

خرجت الأحرف ميتة، قادمة من بعدٍ موازٍ، جامدة في ذيلها استطرادة تنبعث منها الحمم رغم صقيعها ولباس الهدوء الذي يشملها:

- كنتِ عارفة إنه أبويا؟..

تنفي بهزة رأس سريعة، بلا روح كحال خاصته:

- عرفت في آخر مرة كنا فيها سوا..

ضحك بانفعال ساخر مبتور في استدراك:

- عشان كده قلتي معاه حق..



صمتت، امتد بهما الصمت والأعين تخوض لقاء عسير قطعته بدوران بعيدًا عن مرماه، توليه ظهرها وأصابعها العشر تحط فوق مقعد المائدة، تتحلى برباط جأش وثبات خارجي يخبأ من ورائه الكثير:

- كنت متأكدة إنه هيقولك..

قالتها بهمس فاتر في ذيله تعلق طيف ابتسامة مريرة منحتها لحالها قبل أن يجذب ذراعها لتعود إليه بمقابله و نصل ثالم عرف مواطن النحر فسلك نهجه بكل قسوة:

- عارفة قالي ليه؟ خاف يحصل بيننا حاجة و أنتِ تقبلي، شايفة نفسك رخيصة لدرجة إيه..

لم تأبه لطعن كلماته، كانت تنظر لعينيه وهما يسكبان الألم سكبًا مع كل نظرة وكلمة وحرف:

- اتمنيت مايقولش عشان ماتتوجعش..

عبرة حارة انزلقت رغم إرادته محركًا لها رأسه في إيجاب و اقع:



- بس قال.. و اتوجعت..

والألم صداه عندها رغم الثبات الواهي ومغالبة الألم:

- حاسة بيك..

شد على قبضته المحيطة بذراعها، يهزها في عنف صائحًا في وجهها بغلظة وقهر:

- ماتقوليش حاسة بيك، أنتِ عمرك ماهتحسي بيَّ، مش هتعرفي يعني إيه الست اللي حلمت بيها في حضني كانت نايمة في حضن أبويا..

يستطرد بذات الحال وجسدها بين يديه يرتج وفي عينيها العبرات تعلقت ولا تشاركه راحة الهطول:

- مش هتعرفي حسيت بأيه و أنا بكتشف البنت اللي حبيتها و اتمنيت أبني معاها عيلة هي نفسها اللي كسرت أمي، أمي اللي كانت عارفة إن جوزها مع واحدة تانية سارقة عقله وقلبه وماله..



نفضها عنه والاشمئزاز يتربع فوق عرش قسماته لتنال نصيبها من القول:

- بر افو يا عبلة عرفتي تسعري نفسك وتكسبي..

حدجها في شماتة واضحة قبل أن يردف:

- بس مكسب مؤقت طلعتي مغفلة، أنتِ لو عرفتي سالم الرويني كويس كنتِ هتعرفي إنه مابيشتريش حد، وإن البيع أسهل وأسرع صفقة عنده..

استدار عنها، يمسح عن وجهه بكلا كفيه في صرامة قبل أن يفارق قربها ببضع خطوات انتهت به خلف زجاج الشرفة، يضع يديه بجيبي سرواله ويحدثها من خلف كتفيه بصقيع سيرته الأولى:

- كنتِ ناوية تستغفليني لحد امتى؟..

رددت من خلفه بصقيع مماثل:



- كنت هبعد..

التفت بحدة يشهر سبابته في وجهها بتكذيب:

- ده لما طلع أبويا، إنما لو كنت ابن أي راجل تاني كنتِ هتكملي خداع وكدب لحد ما ألبس فيكِ..

- أنا مضربتكش على إيدك يا ناصف عشان تحبني، ولا كنت أعرف إنك ابنه أما حبيتك، هو ماكنش معرفني أي حاجة تخصه أو تخص حياته وعيلته..

خطى إليها من جديد بقرب، يجلدها بسوط الحقيقة في قسوة:

- ماهو أنتِ كنتِ بالنسبة له نزوة، قال بيننا ورقة عرفي حتى مقالش مراتي في السر، عارفة يعني إيه؟ يعني كنتي بتيجي برجليكِ لراجل تبسطيه وتمشي..

اتسعت له ابتسامتها في همس بحت حروفه دون جهد وتلألأ معه طيف العبرات:



- معاه حق، كانت نزوة فعلًا، هو كان عايز جسمي وأنا كنت عايزة فلوسه، حاجة رخيصة..

- إحساس مقرف قوي صح؟ بس عارفة إيه الألعن منه..

عقدت ذراعيها فوق صدرها، تلجم انتفاضة جسدها بشدة وتلقي بوجهها جانبًا مستقبلة المزيد من خناجر القهر المطعون بها سلفًا:

- لو كنتِ خلفتي كان أولادك هيبقوا أخواتي، يعني أنا في مقام ابنك..

أتم قوله بإردافة تالية كانت أقرب لبصقة في وجهها:

- أنا في حياتي ماقابلت ناس مقرفة زيكم، إنتوا إزاي كده!.

عادت تتطلع إليه وتهمس بحلاوة روح وقد استنفذت كل قواها:

- مهما زاد الكلام آخرته سكوت..

ثم تأهبت خطواتها برحيل:



- انسى يا ناصف، أنا و أبوك نستاهل القلم ده بس إنتَ لأ، ماتقفش هنا ودورعلى سعادتك مع اللي تستاهلك..

أفسح لها المجال لتعبر، لتمضي منه وعنه، لتحمي أثرها للأبد:

- أكيد هنسى متقلقيش، أي حاجة رخيصة في النهاية مسيرها تتنسي..

غمغمت على كلماته بتأكيد و ابتسامة مودع:

- معاك حق، كل رخيص مسيره يتنسي..

حملت ارتعاشة صوتها وهبطت الدرج بنصف وعي، الطريق تشوشه العبرات وطنين الكلمات يُعاد ويتردى صداه بلا هوادة، لا تنتبه للسيارة المسرعة التي كادت تصطدم بجانبها، فقط تشعر بيدين صلبتين امتدتا لتجذبانها بقوة:

- حاسبي يا ست، يا ست حاسبي!..

يصيح فيها حارس العقار بغضب فتعود إلى وعيها بشهقة والتفات متخبط ثم هرولة خطوات تنتهي بها داخل سيارتها، تديرها وتتحرك بها في الحال، تهرب من حكاية سيئة الحظ والسمعة، تهرب منه ومن حالها ومن ذاك القدر الذي جمع بينهما، تهرب وتصب فوق القلب العليل بعشقٍ محرم بالفولاذ المذاب ليكون بمعزل عن وجه الحياة.



للقلوب أرزاقها..

نجد أحدهم مطرودًا من جنة العشق بينما آخر يحيا ويتلذذ بمذاقه..

أمام كاميرا هاتفها المفتوحة والمثبتة فوق طاولة الزينة تمايل خصرها في انسجام وانسيابية مع اللحن الشرقي المنبعث في مياعة ناسبت تفاصيل الجسد المغوية داخل السروال الأسود المتلصق بساقيها وبلوزة لها ذات القتامة بلا أكمام، فقط



حمالتان عريضتان كشفتا عن قشدية بشرتها الصافية وأبرزت مفاتنها بسخاء..

قتامة ملبس منحت الوشاح الأحمر المحيط بردفيها نارية الاشتعال..

اقتحمت شقيقتها الصغرى عزلتها وفي يدها ملخصات مادة الكيمياء رفيقة ليلها بينما النغم الصادر كان يصل الخارج ليدفع بفضولها حتى تنهض وترويه بفتح الباب المغلق وسؤال:

- بتعملي إيه يا رايقة؟..

التقطت "ندى" الهاتف تتطلع إلى مقطعها مخبرة أختها بابتسامة متلاعبة من بين لهاثها الخافت:

- بحيي في بودي شغف الجواز، أصله مات بعيد عنك..

- الله!..



صاحت بها "رنا" في اقتحام مغلقة الباب من خلفها، وقفت بجانبها تشاهد تقليمها لمقطع الفيديو الحامل لوصلتها الر اقصة قبل أن تقوم بإرساله، انتظرت كلتاهما في ترقب دون نتيجة حتى زفرت "ندى" بإحباط:

- أووف شكله نام..

هتفت الأخرى عقب برهة تفكير:

- مافتكرش لسه الساعة عشرة..

عادت الأولى تندب حظها:

- يابنتي بقولك شغفه مات وبقى ينام من العشاء..

- يامرك ياندى..

هتفت "رنا" في جدية حتمها الأمر الجلل بإرداف:

- مابدهاش بقى رني عليه صحيه..

قطبت حاجبيها باعتراض:



- لاياستي هيصحى ويقفش عليَّ..

شجعتها الشقيقة ودفعتها لتمضي قدمًا في نواياها بنبرة خبيثة:

- مايقفش المهم الشغف يصحى!..

ملأها العزم فتمتمت بهزة رأس:

- عندك حق..

أجرت اتصالها فورًا، رنين متواصل تعاقب مرة بعد مرة إنتهى به مستسلمًا لإزعاجها ويده تلتقط الهاتف، يضعه فوق أذنه بإستجابة وأجفانه تتلاقى بنعاس:

"عايزه إيه.."

قابلت انزعاج نبرته بهتاف حاولت قدر المستطاع أن تبدي فيه الجدية البالغة:



- احم، عبدالرحمن في فيديو بعتهولك ياريت تشوفه دلوقتي ضروري..

غمغم بلفظ بذيء قبل أن يقطع في وجهها الاتصال، لم تمر الخمس دقائق حتى عاود الإتصال استقبلته بترحاب سريع وأذن الشقيقة تلتحم بقرب يصل كلتيهما:

"ندااااا.. ارحمي اللي خلفوني"

على إثر جملته انفجرت ضحكاتهما بلا توقف حتى قطع الاتصال بينهما دون نية في معاودة، حين هدأت نوبتهما التي تركت الأعين دامعة دفعت بالشقيقة إلى الخارج، لتستكمل كلًا منهما وصلتها الخاصة، تذمرت الصغيرة بحنق:

- ناس تتمايص وناس تذاكر، إيه الظلم ده..

وأردفت بنداء خص أمها:

- ماما جوزيني من فضلك..



- على مذاكرتك يا بنت..

عادت لدراستها وعادت الأخرى تلقي بجسدها فوق الفراش وتعاود اتصالها بمشاغبة استقبلها الحبيب بتذمر مصطنع متقلبًا في فراشه عقب استفاقة جاءت بفضلها:

"منك لله يا شيخة.."

تلاعبت بخصلاتها القصيرة ونبرتها تكتسب غنج مباح:

- طيب تعالى نطلع فوق عايزه أقولك كلمة سر في بوقك..

تثاؤبه عبر الأثير فتأففت بعبث مقصود تترنم فيه الضحكة بخفوت:

- النوم الكتير ده مؤشر غير مبشر بالمرة على فكرة..

"اتهدي بقى وارحميني.."



لم تتحدث هذه المرة اكتفت بإرسال عشرات القبل ممزوجين بهمسات عاشقة، لم يجد أمام فيض أنوثتها التي تغازله بجبروت غير الاستسلام والمجاراة ولا عزاء للعم والوعود:

"أنا بقول تولع رنا بامتحاناتها ونقدم ميعاد الفرح.."

رنت ضحكتها في انتصار لشغفه الناهض من سباته واستطرادته المتبوعة بعبث خطير:

"لا بس الشامة موقعها استراتيجي.."

من هنا استلم هو دفة سفينة العشق التي لا ترسو بينهما بل تظل متأرجحة في خضم البحور الواسعة، تبحر حيث عالم وردي لا يعرفه غير أهل الهوى.

قبل أن ينتصف الليل قرع جرس الباب، غادرت "ندى" غرفتها لتجد ابنة العم الراحل تحتل صدر الردهة وبين ذراعيها كيس كبير، تقف بين أمها وشقيقتها وتسبقها بحديث و ابتسامة:



- هدية الفرح اللي وعدتك بيها يا عروسة..

اقتربت المعنية بتكذيب لما ترى، تفتش الكيس ليبرز ثوب الزفاف بروعة طلته:

- بتهرجي يا بيللا صح!..

غمغمت بها وأصابعها تمسد صدر الثوب بانبهار..

قابلت "عبلة" فرحة عينيها بقول باسم:

- مش بهرج طبعًا، إلا لو الفستان مش عاجبك؟..

- ده تحفة جدا!..

هتفت "رنا" بحماس وزادت أمها:

- بس ده كتير قوي يا بيللا..

- مفيش حاجة كتير على ندى ياطنط..

ثم عادت للعروس تسألها بشك:

- ماسمعتش رأيك ياعروسة؟..



أخبرتها "ندى" بما لا يحتمل الشك:

- حلو جدًا طبعًا يا بيللا، ده أحلى من اللي كان في خيالي كمان بس يعني مش هينفع أقبله، لازم أقول لعبدالرحمن الأول..

قابلت حيرتها بجدية تنهي بها الأمر:

- مالكيش دعوة بالعريس، سيبيهولي..

ولم تنتظر حضنتها وقبلت وجنتها بمباركة مقاومة حشرجة النبرة:

- مبروك عليكِ ياروحي..

في لحظة شجاعة قررت التخلص من آخر خيط يربطها بعشقها الآثم، ثوب زفاف حمل اسمها ذات نهار بتوقيع رجل أهداها قلبه من قبله..

هي امرأة تجيد كي مواطن الوجع حتى لا يبقى منها غير الأثر.





التفاهم أساس العلاقات..

التغافل يمدد عمرها..

المشاعر هي نثرات السكر التي تضفي عليها مذاق الحلاوة..

اختلالهم جاء بعد تنقيص الأساس معتمدين على مخزونهم الكبير من المشاعر، زيادة السكر أفسد الطعم لم يصلحه..

معادلة حياتية عتيقة عرفوا قواعدها حديثًا وأكدوا على صدقها لكن دون نتيجة، دون قدرة على تخطي الشرخ القائم فيما بينهما، جمعهما سقف واحد والقلوب على حالها متنافرة، يتظاهرون بأن مركب الحياة يسير على ما يرام لأجل الصغار لكن في الحقيقة قاع المركب مثقوب، ثقب صغير لا يُرى بوضوح لكنه لم يمنع مياه الغرق من التدفق بخبث..

- لك والله ما الي عارفة لشو ميبسة راسك، من حكيك الزلمة بيحبك وشاري خاطرك..



علاقة صداقة وجيرة جمعتها مع الجارة سورية الجنسية إثر تعلق صغارها بها وود المرأة الكبير الذي تلقي بحباله إليها في غربتها فوجدت معها الونس والصحبة بين خضم فراغها ومللها الكبير..

ناولت جليستها قدح القهوة التركية مغمغمة في ملل:

- مش هتفهميني يا مايا..

تناولت الجارة القدح من يديها، ارتشفت القليل قبل أن تضعه أمامها وتحدثها بعقلانية:

- امبلا فهمانة عليك منيح، أنتِ بتحبيه لجوزك بس واخده على خاطرك كتير منه، ماعم تقدري تسامحيه..

أوضحت لها كاشفة عن شعورها الذي تغذيه أمها على الدوام:

- هو حسسني إني ماليش قيمة عنده، كل ما قلبي يهدى من ناحيته أرجع أفتكر وأغضب غضب عني..



ربتت "مايا" فوق فخذها بمداهنة:

- يا نادية يا عيوني هدول الرجال بدك تطولي بالك معهن بتعرفي ليش؟ لأنه هيك الله خالقن بعقل طايش بس يعصبوا حتى يبلشو يخبصوا هون وهون مابيعرفوا يتعاملوا متلنا..

أخفضت الجارة صوتها في تنبيه عما تغفل عنه باستطرادة:

- وبعدين إذا زعلانة على جوزك لك بتتركيه هيك؟ إذا خطفته واحدة تانية منك شو بدك تساوي وقتها..

- بكر!.. تؤ مستحيل..

- إيه ضلك إحكي مستحيل ومو مستحيل حتى يدخل عليكي بمرته التانية وقتها عن جد راح تحكوا خليكي مشان ولادك أو يلا على بيت أهلك ست نادية..

صمتت "نادية" والكدر يخلط قسماتها بتفكير عادت تقطعه جليستها بمحاولة جديدة:



- لا تقلبي بوزك هك مو نحنا رفقات، أنا عم بحكي لمصلحتك، المرأة الشاطرة إذا بدها تحاسب جوزها على عمايله مابتشد حبالها على الآخر لأنه هيك راح ينقطع اللي بينهم ولا كمان ترخيها فيفكر إنا بلا كرامة لاسمح الله، يعني بدها تعرف كيف تدير أمورها صح..

تأففت بنزق:

- مايا؛ أنتِ صدعتيني وبجد مش فاهمة عايزه تقولي إيه..

أشهرت لها إبهامها في بداية:

- شوفي لك أول شيء راح تبطلي كل ماشفتي خلقته لجوزك تحكي له انا هون مشان الولاد، إلا إذا بدك يطق قلبه ويطلقك بعيد الشر..

ثم تابعت بتالي:

- تاني هام بدك تبطلي تنامي بغرفة الولاد..



زجرتها بنظرة فردتها الجارة بحرج طفيف:

- ماتطلعي في هيك عرفت من الولاد بدون قصد، كانوا عم يحكوا عادي و أنا فهمت..

تجاوزت هذا وعادت تأخذ بها حيث المفيد:

- أنتِ هيك عم تعوديه على غيابك، أنا قلت لك هاه حتى لا تلومي حدا غير حالك بعدين..

و"مايا" التي تأخذ على عاتقها الإصلاح فيما بينهما لن تترك الأمر حتى تلين رأسها اليابس بعناد:

- بيكفي زعل ونكد نادية، خلاص افتحوا صفحة جديدة، مشان الولاد إذا بدك بس تذكري إن ولادك سعادتهم الحقيقة مع سعادتك، معك رجال كويس، لك غلط مرة معك كل الحق بس إعترف بغلطته وإعتذر،مين فينا منزه عن الغلط؟ كلنا بنغلط وكلنا لازم نغفر ونسامح إذا بيقبل الأمر، اقفلي باب الشيطان بيناتكم بيكفي الأيام اللي راحت..



في المساء وجدت حالها تقتحم غرفته رغم ادعائها طيلة النهار أن الكلمات لم تؤثر بها وأنها على حق في موقفها الصارم، خطت تتجاهل جلوسه فوق الفراش بمرور واستعداد للنوم رمقه بحاجب مرفوع في تعجب لون سؤاله:

- خير؟..

أبعدت الشرشف بفظاظة وحدة طالت حروفها دون إرادة:

- في إيه هنام!..

سخر منها عن قصد:

- ما أنتِ بتنامي مع الولاد، إيه جرى وغير رأيك..

تأففت قبل أن تتحدث بغطرسة ويدها تنفض خصلاتها المسترسلة فوق كتفيها بخفة ونعومة إلى الوراء:

- الولاد داخلين على امتحانات وضغط مش حابه أشغل تفكيرهم بوضعنا الخاص..

عاد يضرب فوق لوحة جهازه المحمول مغمغمًا بغيظ مكبوت:

- آه طبعا كله إلا راحتهم النفسية..

أهدته تبسمًا لزجًا قبل أن تهمس بقوة مولية له ظهرها:

- طبعا..

كانت النية رأب الصدع لكن انتهى الأمر بينهما برد الصاع لأسلوبها الفظ بضوء مغلق موليًا لها ظهره من جانبه.



الطرق الغير معبدة، تؤلم الأقدام..

كان طريقه وعر، مليء بالعثرات والأشواك، أضناه على طوله و أتعبه حتى ظن أن ليس له نهاية، غفل عن كون النهاية واحدة من أهم الحقائق المسلمة، كل شيء إذا ما ابتدأ لابد وأن تأتي به نهاية حتمية، نهاية تصل إلى نقطة أخيرة لا تقبل تكملة..

وجده..



استطاع أن يصل إليه..

ولِمَ العجب؟..

أما عرفتم بعد أنه وماضيه مربوطان ببعضهما بوتد لا ينبغي له انحلال، يدوران بفلك واحد دون انفصام، قد يفنى العالم وهما على وثاق لا ينفك..

أو هكذا كان يظن قبل أن يعثر عليه جثة هامدة مضرجة بالدماء!..

أثناء هروبه وركضه المتخبط صدمته سيارة لم يستدل على سائقها بعد، صدمته وفرت..

و اقفًا على مقربة منه، يتطلع إليه، ملقى فوق سرير مشفى ضئيل الإمكانيات بهيئة رثة بلا هوية، بلا أحد، وكأن الدهر يلتف ويعود به حيث كان هو قبل عشرين عامًا ويزيد بحال مشابه، هروب واصطدام ودماء..

لكن الأمر اختلف بمفارقة..



بختم أبدي يدعى الموت..

- تعرفه يا أستاذ؟..

لا يصله صوت الممرضة وبصره ثابت فوق الجسد المسجى وقد شج رأسه بالمنتصف فغطى الوجه سيل الدماء، لا يستطيع تشفي ملامحه التي يحفظ، هل هذه عدالة السماء، هل هذا هو القصاص الرباني العادل أم هو المجني عليه الذي تحول لجاني وأطاح به دون رحمة؟!..

- يا أستاذ إنتَ مابتردش ليه؟..

تنبه للصوت القريب ونقرات الأصابع توكزكتفه برفق، مال إلى الممرضة يقابل وجهها الممتلئ باستدارة مستمعًا لتأففها:

- بقالك نص ساعة و اقف وبكلمك مابتردش..



حرك رأسه نفيًا لسؤالها و انسل بجسده تاركًا ماضيه من خلفه يبتعد، يصغر، يتلاشى ويذوي بلا وجود..

لم يشعر بالوقت الذي مروهو جليس سيارته في صمت مطبق، كل هذا البراح من الصمت كان يضيق عليه، يطبق على أنفاسه بقبضة غليظة استسلم لها في سكون تام..

قبيل الفجر عرفت أقدامه طريق العودة إلى منزل أهله، أناس رمموا فيه ما أفسده الزمان فاستحقوا اللقب دون مغالاة، عاد حيث هي هناك تسكن غرفته وفراشه بقلب مفطور هشمه بيديه صباحًا، باقية على عهدها كلما قطع حبل الوصال جدلت آخر غير سامحة لليأس أن يسطر تاريخه..

دلف ببطء، مرت لحظات وقف فيها يرقبها كيف تنطوي على جانبها بشبه قعود بمنتصف الفراش في غفوة قسرية سقطت فيها وخرجت على صوت إغلاق الباب وحفيف خطواته، عدلت من وضعها وعيناها الدامعة تتعلق فيه..



كانت أمامها الفرصة لتغادر كل هذا..

لكنها اختارت البقاء، اختارته هو دون غيره، أرادت أن يجدها في انتظاره حين تنتهي حروبه، يأتيها فيجد عندها الملاذ والسكن وهدنة روحه المتعبة..

سقط جسده فوق حافة الفراش موليًا لها ظهره، يحاول فهم مايعتمل فيه ويتركه بهذا الحال المتخبط والمتعب حد الهلاك..

- مات..

سكب بين يديها حمولة صدره فاقتربت تلامس كتفه بأصابع مرتجفة، تهدئ فزع قلبها بقربه..

- سيبته في المستشفى ومشيت..

يكلمها وحروفه تعلو بوتيرتها وتنخفض، تلتحم فيه أكثر، كان كلاهما في أمس الحاجة لضمة طمأنة يستكين بها الجسد الذي بانت ارتجافته فوق كفيه ورأسه الملتف ليقابلها بقرب ونبرة حملت من الارتجاف نصيبًا:



- قلت لهم ماعرفهوش..

انتقلت لها ارتجافته، سيطرت على حالها وكفها يحيط بجانب وجهه، تربت عليه بحنو و تميل بجبهتها فوق خاصته بقرب ودفء أنفاس، تأد شعوره بالتيه مؤكدة له أنه لم يفعل غير الصواب:

- ماتعرفهوش، إنتَ ماتعرفهوش..

تضرب الارتجافة سائر الجسد وحروفه الخافتة تتكسر بينهما بغصة وعبرة سالت فوق وجنتها نيابةً عنه:

- مات يا مريم!..

لا تتركه، تحيط وجهه بكلا كفيها، تفرض سيطرتها على ارتعاشة جسده بين يديها، تأخذ بيده من الوهم الساقط فيه:

- خد جزاءه بحكمة ربنا، الشخص اللي أذاك خلاص مابقاش موجود..



كانت تعلم أنه يعيد شريط الماضي برأسه، يتجلى في داخله بتفاصيله بواقع ملموس وإن كانت هي تجهل تلك التفاصيل يكفيها رؤية أجفانه المطبقة فوق بعضها بشدة، ارتجاف جسده وفكه تحت يديها، محاولته لالتقاط أنفاس بدت عسيرة وصعبة في هاته اللحظة..

- تعالى..

همست بها ويدها تمحي عبرات وجهها، تسحبه قسرًا ليتمدد، تدثره بقلبها قبل اللحاف ولا تفارقه، تلثم شفاها رأسه في اعتذار منها نيابةً عن العالم الذي خذله وبخل عليه بالراحة، تهديه بهمسها بلسمًا تطيب به أوجاع الروح:

- خلاص انتهى..

ظلت تمسح عن رأسه المستريح بالقرب من صدرها ولسانها يلهث بتراتيل تحفظها عن ظهر قلب حتى هدأت روحه



واستكانت، ومن خلف الأجفان المطبقة سالت العبرات في صمت.



دروس الحياة قاسية..

صفعتها هي كانت مدوية، جاءت في مقتل إن صح القول..

لكنها على مد ثلاثين عامًا ويزيد تعلمت كيف تعبر فوق الأزمات، تتجاوز بمهارة منقطعة النظير، تدفن الألم جوار أخيه وتغلق عليهم ليكونوا بمعزل عنها وروحها، هكذا هي وهكذا أرادت ولم يوجد مجالًا لغير ذلك..

لكن ليس كل ما نبغيه ونتمناه سوف نجده في كل مرة..

تلك قوانين البشر..

العين بالعين..

الألم بالألم..



هذه بـ تلك..

وصلت البيت مساءً عقب نهاية عمل ماثل سابقيه، ترجلت من السيارة وبصرها يلتقط وجود سيارة "سالم" التي لا تخطئها عينها أبدًا، بقلب واجف صعدت خطواتها، درجة تلو أخرى، في عقلها تتضارب الظنون، هل قرر الحقير فضحها عند أهلها؟!..

تلكأت خطاها عند الطابق الأول حيث باب شقة عمها المموارب برحابة وأصوات الرجال الصادرة تصدح بعلو، اقتربت تمد بصرها بحذر فتنال رؤية متزمتة لـ"سالم" وطلة رسمية جامدة لـ"ناصف" وبضع كلمات منمقة أقرب لقنبلة موقوتة سوف تجهز على الجميع دون رحمة:

- سيد حامد يشرفنا نطلب إيد كريمتك الدكتورة دهب لـ ابني الدكتور ناصف..



(21)

عصابة غضب تحجب العينين..

ابنٌ مخذول

عاشقٌ مغدور

رجلٌ مطعون في قلبه وشرفه وكبريائه، دمرا عالمه، نحراه وتركاه ينازع الروح برمقٍ أخير، برمق طيرٍ مذبوح يتخبط بجناحيه ودمائه الحارة تغرق ما حوله بصبغٍ قانٍ لوَّن حياته..

يستولي عليه هذا الشعوربعد أن قلبَا حياته بين ليلةٍ وضحاها وقالوا هاك الو اقع، اقبل، مررصدمتك وتجاوز، ابحث لك عن طريقٍ آخر، انسَ..



من أين يبتاع النسيان حتى يمحي كلمات والده، بل ليمحي أبوته تمامًا مع صورتها وصوتها وكل لحظة دنست فيها أيامه بحضورها..

هل يداوي النسيان فؤاده المليء بعشقٍ محرم؟ من يدفع ثمن خطيئة القلب هذه!..

من يحمل عنه الشعور حين يمر بخاطره أنه أحب واشتهى امرأةً سبقه إليها أبوه!..

كيف يقتلع عشقها، يريد جزه من عنقه لكن يجهل الطريقة، كيف ينظف حاله من كل هذا الوسخ الذي يغطيه ويشمل العالم من حوله حد أنه صار يختنق مع ظلال التعاسة والقهر التي تغيم فوق رأسه وتتلوى بألمها أحشاؤه..

ويقولون انسَ!.



لن ينسى قبل أن يثأرلنفسه وقلبه، أقسم بداخله على هذا، لن يفعل قبل أن يرد لكليهما الصفعة التي لطما بها وجهه بلا أدنى شفقة..

خلع ثوب الطبيب المهذب الوقور وارتدى ملبسًا يليق بقذارة أفعالهما، ذهب إلى عقر دارها طالبًا الزواج من ابنة عمها، طليقة شقيقها، يريد رؤيتها وهي تتلظى بندمها، ستموت كل لحظة تراهما معًا وسكين الخزي تنحرها في كل مرةٍ تلتقي عيناها بخاصته..

والأمر هنا لا يشملها وحدها، حسابهما مشترك، سيدفعان فواتيرهما معًا..

قبل أن يقدم على تلك الخطوة ساوم أباه، أن يمتثل لمطالبه وإلا سيحدث مالم تحمد عقباه، كان يهدده بغلظة وفظاظة، يحدثه بلهجة عدوٍلدودٍ وليس ابنٍ لأبيه، أمربأن يصحبه قسرًا،



وأن يقوم بواجبه كأب على أكمل وجه، كما يفعل أي أب محترم في حق ولده حين يبغي الزواج بإحداهن..

كلماته أنصال حادة تنحر في طريقها بلا هوادة، كان أقرب لمغيب وغضبه الأعمى يعمي بصره وبصيرته فلم يجد الوالد غير أن يخضع لمراده وعندما فكر مليًا وجد أنه لمن الأفضل تركه يفرغ شحنات غضبه كما يريد، يلبي له رغباته ويمشي معه لآخر الطريق في النهاية لن يخسر كلاهما شيئًا.

يرتخي جالسًا في دوران طفيف مع المقعد الجلدي، يتلذذ بفكرة وجودها بالخارج منذ ساعة ويزيد غير سامحٍ لها بالدخول إثر انشغاله بمعاينة المرضى، حين غادر آخرهم طلب من مساعدته أن تتركها في محل انتظارها حتى يخبرها بغير ذلك، يبدو أن أمر الخطبة المسائي وصلها سريعًا لتأتيه في النهار التالي من فورها، لم يكن يدري أنها تلقت صدمتها في وقتها من خلف الباب الموارب قبل أن تحملها بين جنبيها وتصعد بها بساقين



متخبطين وقلبٍ مشطورٍ لنصفين، صدمة كان من الصعب احتمالها أو تركها تأخذ براحها، كان عليها أن تنهي القصة قبل أن تبدأ، أن تبعد النيران المقتربة من المناطق القابلة للاشتعال، لم تنم في ليلتها للحظة واحدة، انتظرت حتى طلع النهار وجاءت لتجده متلبسًا هذا البرود خلف مكتبه الذي اقتحمته بغتةً وقد ضاقت ذرعًا من انتظارها الغير منتهي وكلها يقين أنه مقصود من قبله..

قابلت بروده الجلي بضربة جامدة من راحة يدها طالت سطح مكتبه الفاصل بينهما بزعقة عالية دوى صداها بين الجدران:

- ابعد عن بنت عمي يا ناصف..

ميل رأسه الجانبي رافق استفزاز نبرته:

- دهب؟..

استدعت هدوءًا كاذبًا وهي تشد من قامتها بوقوف، تجاريه في استفزازه بصبر نافذ:



- أيوه دهب..

عاد برأسه إلى الوراء، يرتخي في جلوسه أكثر، بين أصابعه قلمًا جافًا يتلاعب به في صمت و ابتسامة جانبية علقت فوق جانب فمه ليزيد من وقع حنقها الظاهر:

- و أبعد ليه؟ ده طوب الأرض شكر في الدكتورة وأخلاقها، عروسة مناسبة بحسبة كل المقاييس..

ثم عقد حاجبيه وتقدم بجذعه للأمام في استطرادة تالية لونها باستنكاروعتب مصطنع:

- ولا يكون نسبنا مايشرفكمش، لا يا بيللا أزعل بجد..

- ناصف!..

صاحت فيه بغضب فصاح فيها بجدية وشرر انطلق من بين عينيه:

- وطي صوتك وأخرسي أنتِ في مكان محترم..



أعقب هذا بنهوض، وقف قبيلها خالعًا واجهة البرود بأخرى حقيقية يؤججها الصرامة والاشتعال في نظراته، قابلته بجدية موازية بلهجة آمرة وسبابتها تتحرك بعصبية ونفور فيما بينهما من فراغ:

- تبعد عن سكة دهب وتقفل الباب ده للأبد، حسابك معايا أنا مش هندخل حد مالوش ذنب فيه وخصوصًا لوكان الحد ده من عيلتي، مش هسمح لك إنتَ فاهم..

طالعها وخصها بازدراء القول والنظر:

- أنتِ مدية نفسك أكبر من حجمك على فكرة، راجل عازب وقررت أتجوز إيه مشكلتك؟..

- وهما بنات الناس خلصوا؟ مالقتش غير بنت عمي وطليقة أخويا عشان تتجوزها..

- والله دي حاجة تخصني مالكيش رأي فيها، الدكتورة عجبتني وشايف إنها أكتر من مناسبة ليا..



احتدت نبرتها بما يناسب قوله ونواياه التي تراها واضحة كشمس ظهيرة ويتلاعب بها من وراء حجاب مكشوف:

- عزيز ناوي يرجع دهب يا ناصف، الاتنين بيحبوا بعض وبينهم عشرة عمر، مش هيسمح لك أصلًا، وفر على نفسك حاجات كتير إنتَ في غنى عنها..

فتح لها ذراعيه قبل أن يدور على عقبيه، وقف جوار النافذة راميًا بجسده فوق الجدار من خلف، ساقاه يتقاطعان من أمامه في هدوء رافق حركة يديه المندسة داخل جيبي معطفه الطبي، يتبع منهجه ببراعة وثبات:

- والله أنا أما كلمت عمك ودخلت البيت من بابه مالقتش غير الترحيب، وبأمانة: شخصيًا مرتاح وعندي قبول فظيع حتى بلغت عمك بده وفي انتظار رأي العروسة، ياريت تتوسطي لي عندها ده احنا في حكم أهل وكنا في يوم حبايب..



اقتربت ما ابتعد، تنهي المسافة الضئيلة بلقاء أعين عادت لعهدهما القديم دون إرادة أصحابها فأشاح بوجهه جانبًا قبل أن تطرق أسماعه الكلمات الخافتة بهمس مبحوح:

- إنتَ مش كده، بتعمل كده ليه؟..

عاد لها بناظريه، تتقد فيهما جذوة القهر للحظة قبل أن يخمدها بماء الانتقام البارد المتحدث بها:

- بدوقك من نفس الكأس، إيه غلطت؟..

ظهر ازدراء لعابها العسر داخل بلعومها قبل أن تهتف في خفوت بكلمة واحدة علها تستثنيه بحروفها الخمس:

- هتندم..

صبغ وهن كلماته بابتسامة صغيرة في رسمها مرارة:

- معلش، ماحدش بيتعلم بالساهل..



- لآخر مرة هقولك إبعد عن بنت عمي و إنهي الموضوع، إنتَ كده بتقوم حريقة مش عارفين ممكن توصل لفين..

- خايفة من الفضيحة قدام أهلك؟..

سكتت فأناب عنها بالإجابة:

- متأخرة للأسف، كان لازم تفكري فيهم من بدري، قبل ما تسلمي نفسك لراجل قد أبوكِ..

طالعته ببغض في هاته اللحظة، من إرغامه على اجترار خطيئتها معه في كل حين دون السماح لها بنيل ندمها وعقابها لوحدها، كلما طوت صفحتها عاد يعبث بها ويعرضها أمام وجهها لتقرأ ما وجد فيها وتصغر أمام حالها بخزي وخجل يتدفقان في دواخلها بغزارة، تقاوم كل هذا بقشرة صلبة، صلدة اعتادت الضربات القاسمة:

- إنتَ بأي حق و اقف تحاسبني؟ روح إتجوز، عيش حياتك وحل عني..



ارتفعت الوسطى والسبابة في تلاحم لتشيران إلى صدره، موطن الفؤاد وماتخفي الضلوع من خبيئه خلف ظلالها:

- بحق اللي هنا..

تبادلا النظر في صمت للحظات أعقبتها باستدارة ورحيل وكلها يقين أن الحديث معه لن يجدي نفعًا، نو اياه جادة في إصرار..

قادت سيارتها حيث وجهة أخرى معاكسة، تلك الزيجة لن تتم، لن تترك خطوط الجميع تتشابك ببعضها البعض حتى لو حتم عليها إشعال النار بيديها..

صفت السيارة أمام مقهى الشقيق، سألت عن وجوده أحد العاملين فأشار لها نحو الطابق العلوي حيث حجرة الإدارة الخاصة تحتل الجانب الشرقي، صعدت الدرجات الفاصلة بقفزات متسارعة في حين خلف الباب المغلق كان يدار حديثًا هامًا:

"دي طاقة قدرو اتفتحت لك ماتبقاش فقري.."



اقتحامها كان أشبه برياح خماسين محملة بغبرة وأتربة شديدة بترت الحديث من منتصفه مع نهوض"سعد" المرحب بحفاوة:

- ده إيه الخطوة العزيزة دي يا بيللا، للكِ وحشة..

لم تعيرترحيبه أدنى إهتمام وهتافها الأقرب لزعيق خص أخاها المضطجع في جلوسه بأريحية تامة غافلًا عما يحدث:

- إنتَ قاعد هنا نايم على ودانك مش داري باللي بيحصل..

ألقى أنبوب النارجيلة عن يده بنهوض حاد وهتاف فزِع رادف مجيئها العاصف:

- حصل إيه!..

شيعت بطرف بصرها الصديق الواقف بينهما في صمت فهم فحواه في الحال فتمتم بالقول آخذًا بهاتفه عن المنضدة محدثًا صاحبه:



- طيب أطير أنا دلوقتِ ياعزيز ونكمل كلامنا بعدين..

انتظر كلاهما حتى غادر ومع انغلاق الباب كان يهتف الو اقف بقسمات مشدودة:

- حصل إيه انطقي؟..

- دهب هتتجوز..

هبطت الحروف بأنصالها الحادة لتجمد كل مافيه،كان عقله عاجزًا عن تشرب المعنى الذي يراوده لأول مرة بشكل و اقعي، صحيح أن بينهما انفصال تجاوز العام لكن وصاله بها لم ينقطع، لطالما كانت امر أته، في بعدها وقربها امر أته، وعودتها تحت جناحه أمر محتم، ترك لها حرية الوقت وماتلزم حتى يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح وهي راغبة ومحبة كما اعتادها، أو هكذا كان يظن!..

تحرك عن وقوفه، دار حول المكتب ليقابلها بسؤال خرج بهسيس خفيض ر افق ضيق نظر اته المتحجرة بقسوة وليدة:



- وهتتجوزمين بقى أن شاء الله..

حركت كتفيها في ادعاء بجهل مقنع:

- ماعرفش، كل اللي أعرفه أنه دكتور، جايززميلها..

وجادت بتوضيح يلزمه:

- هو جه وقعد مع عمك وأولاده ليلة امبارح وواضح أنهم مرحبين قوي بالموضوع وشايفينه عريس لقطة، فلو يعني لسه عايزدهب الحق كلمها قبل ما يأثروا عليها..

جملتها الأخيرة خاطبت بها الهواء، تركها تبعثرحروفها من خلفه وانطلق بخطاه الغاضبة يدك الأرض في طريقه دگًا، تبعته بشبه هرولة وشبه نداء..

ولا حياة لمن تنادي!



تلبسه جن مارد، لم يكن يبصر الطرقات المنطويه من أمامه إثر القيادة المتهورة ولا يصله الضجيج القائم من حوله، كان غائبًا تتقاطر الحمم عبر مسام جلده..

كانت الشمس تميل إلى صفرة غروب حين اقتحم بيت العائلة بحالته السابقة، قصد باب عمه الكبير وراح يدكه بقبضته الغاضبة، طرقات استجمع لها ساكني الجدران بفزع ولقاء استقدمه "عبدالرحمن" بفتح الباب واستقبال، دفعت بصدره يد الغاضب ليعبر قاصدًا الو اقفة أمام غرفتها بوجل ويدها تسكن صدرها الفزع:

- مادام نفسك مفتوحة على الجواز قوي كده كنتي بتقفلي الباب في وشي ليه؟ ولا الدكتور فتح لك نفسك..

- عزيز!..

الزعقة جاءت من خلفه عن لسان عمه أما الجذبة الفظه لقميصه كانت من شقيقها "عبدالله" الذي ثارت حميته لأجلها:



- إنتَ بتكلمها كده ليه؟ اتجننت ولا شارب حاجة..

وجذبة بدفعة وهدروصياح نفرت له عروق الجباه:

- مالكش دعوة يابتاع قال الله وقال الرسول إنتَ، أنا عارف محدش مقويها ضدي غيرك..

- اخص عليك ياعزيز، ده إنتَ في حسبة ولادي..

بقولٍ مستنكرعاتبته زوجة العم وهي تحيط بكتفي ابنتها، ابنتها التي احتل الكظم صفحة وجهها في قتامة ونذيرالعبرات شملها بخرس في حين الشقيق الآخر كان يفصل بينه وتوأمه بزعيق طال الغاضب:

- مش طريقة دي يا عزيز..

تدخل عمه الواهن كان أشد وقعًا فوق رأسه:

- يمكن فاكرنفسه اشتراها ولا حاجة..

استدارفي حدة يقابل عمه بتجهم وغضب وفظاظة:



- أنا كنت شاريها بالغالي بس أنتوا اللي بعتوني عشان تشتروا الغريب..

جاءته الدفعة الغاضبة في كتفه:

- وهو مين اللي سابها تنزل من بيته في نص الليل وطلقها؟ ولا جاي دلوقتي تعمل فيها راجل يالا..

- بس يا عبدالله..

- لا يا بابا هو فاكر نفسه مين!..

رماهم "عزيز" شذرًا بنظرة واحدة:

- خلاص كلكم بقيتم ملايكة وعزيز هو اللي شيطان..

اقترب خطوة، يقابل عينيها المسلطة عليه في صمت غير آبه بأمها وأخويها من حولها، متحدثًا بشروقسوة فقد معهم لجام السيطرة:



- لو كنتِ فاكرة إنك كده بتوصلي لي إنك مش عايز اني فأنا اللي بقولهالك دلوقتي يا دهب، مابقتيش تلزميني، في ستين داهية..

جملته الأخيرة خرجت بزعقة نفضتها، وكما ظهر أمامهم بغتةً غاب بغتةً، تركها واقفة بالمنتصف تستمع لغضب أشقائها وأبيها، عجب أمها وتعجبهم من حاله، تركها تستدير بظهرها لهذا كله وتدلف إلى غرفتها دون أن تنبس بحرف، تتوارى خلف بابها المغلق ويدفع هو بابًا آخر وغضبه الحارق لا تهدأ ثورته، اقتحم مكتب الصديق ليجد عنده إحدى الزبائن، نفض المرأة الثلاثينة ذات التنورة القصيرة بصياح ماجن وذراعه يلوح ناحية الخارج في حدة وفظاظة:

- قومي يا ست اطلعي بره..

- اتجننت بتطرد الزبونة!..

صاح فيه "سعد" وفزعت المرأة بشهقة وركض إلى الخارج، في إثرها ضرب الباب بقدمه بقوة لينغلق بإحكام قبل أن يستدير



قابضًا على تلابيب الصديق، يلقي به فوق المقعد ويجثم فوقه، ركبته تغوص في بطنه وفحيح النبرة يتلبسها شيطان رجيم:

- الجوازة دي لو تمت هتكون على جثتك يا أُس المصايب، سامعني يا سعد؟..

ردد "سعد" في طاعة، يتقي شره في هاته اللحظة:

- سامعك ياعزيز سامعك يا أخي، استهدى بالله بس عشان أفهم..

وهو ليس بعقل ليشرح، هو هنا ليحقق مراده:

- سكك الوسخة كتير، تقب وتغطس وتجيب لي قرار الدكتور ده، دور وراه واطلع لي بأي مصيبة أقدر أشيله بيها من سكة دهب، إنتَ فاهم؟..

ربط الحديث ببعضه وفهم سر جنون الصديق:

- فاهم والله فاهم إهدا بس وهعملك كل اللي عايزه..



دفعه عنه بغلظة واستقام بأنفاس تلهث، أما نظرته كانت تبرق بوعيد، وشر واحتدام..



إذا ما أراد العقل شيئًا..

انصاعت له الجوارح في عزيمة وإصرار، وهو رجل لا يهنأ له بال حتى ينال مراده..

تناول الصحيفة المقررة للغد، يلامس دفء الورق القادم لتوه من قسم الطباعة من يد زميله، فتشها يطالع الخبر الذي ينتظر والبِشريلون قسماته، حدث به زميله الواقف:

- تسلم يا محمود..

حياه الزميل بإشارة كف وقول قبل أن يتركه:

- أي خدمة يا عُبد..



طوى الصحيفة بحماس وراح يجمع أغراضه ناويًا الرحيل وقد أنهى دوامه لليوم، في خضم انشغاله جاءت المقاطعة مع نبرة أنثوية دخيلة:

- اسمح لي أبدي إعجابي الكبير بمقالك الأخير..

اعتدل عن ميله مقابلًا الفتاة المحتلة لحيزه بملامح منمنمة ونبرة ذات وقع عذب صبغت عليها تبسم مماثل بينما تعرف عن حالها في زهو كبير:

- سارة عبدالعظيم متدربة جديدة معاكم وممكن نقول زميلة باعتبار ماسيكون في المستقبل يعني إن شاء الله..

حياها بهزة رأس وتبسم رصين لوجهها المرح بطبيعة:

- متشكر جدا يا آنسة سارة وتشرفنا يا زميلة المستقبل..

ضحكت في خفوت قبل أن تتابع في ثرثرة وكفاها يجتمعان معًا أمام صدرها:



- بصراحة كده كنت عايزه منك خدمة و اترددت كتير قبل ما أكلمك..

أولاها جل تركيزه باستفسار وتقطيبة حاجبين:

- خير، اتفضلي؟..

راحت تشرح في حماس:

- أصل أنا بحضر لرو اية فكرتها عن أدب السجون..

تمتم لها بتشجيع:

- مشروع كاتبة كمان، هايل..

حركة يديها المبالغ فيها كانت تميل وتنبسط إلى جانبها بغرور مصطنع:

- يافندم ماتعدش المميزات، بس الكاتبة عايزه تاخد ر أيك في كام نقطة كده يخصوا الرو اية لو وقتك يسمح طبعًا..

- يسمح ياستي، تحت أمرك في أي وقت..



غمغم ببساطة فطالعته باندهاش ناطقة بجذل في آن:

- بجد والله؟..

- والله!..

اندفعت مغمغمة بلا تفكير:

- طيب ما إنتَ عادي أهو أمال بيخوفوني منك ليه..

افتعل الدهشة:

- خوفوكي!..

تضاربت صفحة وجهها في حرج سرعان مادارته بفكاهة ومرح:

- اووتش! طيب احنا نعدي الدبش اللي فات ده ونرجع لموضوعنا، ها نقعد فين عشان نتكلم؟ ممكن أعزمك على حسابي في أي مكان تحبه..

حمل حقيبته وأغراضه مخبرًا إياها بإيجاز:

- أنا موجود هنا من 9 لـ 3 أي وقت تعالي والشاي على حسابي..



ظهر الامتنان عليها جليًا:

- متشكرة جدًا جدًا..

وأردفت في الحال مفسحة له المجال ليمر:

- اتفضل بقى عشان عطلتك كفاية..

افترقا بتحية وابتسامة عبرت فمه ما إن أولاها ظهره مع هزة رأس متعجبة..

لم تكن وجهته المنزل، كان الوقت باكرًا على عودة توأمه لذا قصد موقع عمله، ما يحمله من خبر لا يحتمل الانتظار، حين وصل موقع البناء أجرى اتصاله به، رافق حديثه تلويحة كف التقطها الآخر من ارتفاع خمس طوابق ليبادله الإشارة ويسارع بهبوط انتهى به إليه في أقل من دقيقتين، يخلع عنه خوذة الرأس البيضاء تاركًا إياها تتأرجح بيده في اقتراب عقد له الحاجبين في استغراب:

- إيه الزيارة الغريبة دي، خير؟..



- وأنا ورايا غير الخيريا هندسة..

- ياعم انجز..

قدم له "عبدالله" الصحيفة بنبرة مختالة:

- خدت لك بتارك..

حدجه "عبدالرحمن" بنظرة متوجسة متناولًا الصحيفة من يده، ما إن فتشها حتى أطرق له بأصابعه حيث يكمن المفيد..

أتبع إشارته ونظراته تتوجس أكثر حتى التقى مع صورة ذاك الحقير فتحول التوجس لتحفز وعيناه تمر فوق الأسطر المكتوبة بنهم..

والخبر العريض يخص المنتج السينمائي "مراد سرحان" الذي تم القبض عليه ليلة الأمس حيث يوقع بالفتيات الشابات في شباكه الخادعة ليستغل قلة حيلتهم فيما بعد قائمًا بابتزازهم لدفع المال، تمامًا كما سبق وفعل مع "ندى"..



- ينصر دينك يابني والله..

صاح "عبدالرحمن" بقوة قابلها الشقيق بنزق:

- لا حاف كده مايكلش دي قصادها عزومة غداء محترمة أو نعتبردي هدية الفرح ونسك على السخان اللي دبستني فيه..

- أجمد عزومة للشيخ عُبد اللي مشرفنا..

- حبيب عُبد، يلا أشوفك في البيت..

لاحق "عبدالرحمن" خطو اته المبتعدة بهتاف:

- وبالنسبة للسخان؟..

- ماليش فيه..

- عيب عليك يالا أخوك مفلس..

أهداه تلويحة غيرمكترثة قبل أن يغيب عن ناظريه.



بعد عمرمن اللاحياة..



جاء موت الجاني مغتصب الحياة ليمنحه الحق في إطلاق أنفاس العيش، كسر قيود الماضي التي تحد من حركته، العصفور السجين غادر القفص، رفرفة جناحيه متخبطة لا تسعفه لطيران لكنه حر طليق تلك حقيقة مؤكدة..

هو توقف قبل زمان لكن الزمان لم يتوقف، كانت السنوات تتراكض خلف بعضها البعض، جاراها بظاهره، خاض غمارها كما استوجب القدر وحاز على تلك الصورة المكتملة التي يراها الجميع لكن في داخله بقي رهين لحظة الألم، العينان معصوبة لا ترى، الآذان محجوبة السمع، العقل يستحضر عاما واحد من عمره في عرض مستمر، أقدامه كانت تعود به حيث الوراء دائما، تسابقه برغبة عارمة في الانتقام..

واليوم؟..

في هاته اللحظة..

يسأله الطفل المتخبط فيه بين جنبي الحياة ماذا جنى؟..



ليعجزه السؤال عن الإجابة..

يعجزه قول أنه لم يجني غير لعق نزف أوجاعه، في كل مرة كان يرى فيها ذاك الرجل كان يعيد فتح باب الماضي، يستجلب أقسى ما مر فيه فتنزف جراحه مرة بعد مرة بلا أمل أو نية شفاء..

الآن؛ يقف مواجها حاله بالحقيقة العارية، بكونه حرر الطفل بداخله ليخرج إلى العالم، منحه أحقية العيش، لاكتشاف العالم ومداوة الجراح الدفينة..

موطن وجعه الأكبر كان أمامه..

عودتها إلى كنفه كانت حتمية حين عاد محطمًا و وجدها في انتظاره، عادت له زوجة قبل أن يسقط بين يديها في نهاية جولة مدمرة..

لليلة واحدة شهدت فيه طفلا متألما ليس رجلا بالغًا يقف جيش من العاملين الشداد خلف كلمته، أسدل عليهم الليل بستره



وأبقى ما بينهما لهما وحدهما حتى أشرق الكون بضياءه، مع الصباح ترك محله باردًا، عاد يختبأ خلف واجهة الرجل الذي تعرف ويعرفه الجميع..

يهرب هو من لقاءها بانغماس في عمل وتهرب هي بتخبط وتيه وفراغا تسمح له أن يسبح في فضاءه بكل حرية، وفي اللحظات القليلة التي يتقابلان فيها تتصرف فيها بعادية متوترة ويمررها هو بصمت يصحبه..

بقاءهم لدى عائلته أمر مبرر ومشكلة مواسير الصرف الخربة التي تجهز على طابقهم السفلي بالكامل لم تحل بعد، تلك الحيلة التقليدية التي طرحتها مبررة مجيئها وبقائهم الليال الفائتة، لم يرد العودة لذاك المنزل، ولم ترد نفس الشيء، اكتفت بالذهاب لمرة واحدة خلال النهار لجلب بعض الأغراض الهامة لكليهما قبل أن تعود وتستقر في انتظار لأي قول يصدر عنه، لكنه ظل يلوذ بحاله جانبًا، يصعد إلى الغرفة عقب



الفجر، حين يتأكد أنها خلدت للنوم، تهديه سبل الراحة بخداع، تركته يعتاد حقيقة وجود امرأة تشاركه فراش واحد، فراش لا يقربه أكثر من ثلاث ساعات ليغادره..

مابينهما كبير..

يحتاج إلى بداية صحيحة..

وتلك البداية مفقودة، أو ربما عليه تحسس خيطها وسط العتمة..

احتل الفراغ أمامها بحضور، تعلقت أنظارها بقربه، بجلوسه فوق المنضدة القابعة أمام الاريكة التي تحتلها، يهديها فسحة صمت فينبت فيها الأمل، يقبض على تلابيب الأحاديث بقوة لازمة مع نبرة أجشة رغم هدوئها:

- أنا مسافر بكرة..

خبى الأمل ومات الألق في عينيها جوار تتابع الحديث:



- هغيب من أسبوع لعشرة أيام حسب ظروف الشغل..

تعلقت الحروف بعسر جوار نظرتها و دفء أنفاسها القريبة، زفر بتثاقل قبل أن يستطرد وصوته يخفت بلا إرادة:

- عايزك تكوني في بيت والدك الفترة الجاية..

- مش إنتَ رديتني صح!..

هتفت بقسمات جزعه فأدرك قوله بآخر:

- لفترة بس..

توسلت وتهدج أحرفها قريب:

- ليه طيب..

زفر مرة أخرى قبل أن يخفض بصره بعيدًا عن عينيها المتعلقة فيه:

- عشان نكون مع بعض لازم نبدأ صح، محتاج أخد الخطوة دي..



غلفت الرجاء بسؤال:

- مش عايزني أكون معاك؟..

- هكون مرتاح أكترو أنا لوحدي..

أخفضت رأسها تخفي حزنها الجلي، كلما ظنت أنها قطعت معه شوطًا عادت إلى نقطة البداية خائبة الرجاء، زفرته هذه المرة جاءت من داخل صدره، احتاج للكثير بداخله حتى يمسك بكفيها المتعانقان داخل حجرها، يضم عليهما برفق ويدنو منها بقرب:

- لفترة بس، بعدها هحتاج لك جنبي..

رفعت له عيون دامعة، حزينة، تغالب حزنها ذاك لأجله:

- طيب أوعدني..

قطب جبينه بجهل فأوضحت:

- أوعدني إنك تاخد خطوة العلاج بسرعة وإنك ماتتأخرش عليَّ..

أطرق بجفنيه في قبول لقولها وفي الأصل هذه نواياه:

- أوعدك..

سكت للحظات قبل أن يطلب منها القول ذاته:

- أوعديني أنتِ كمان لو قلت لك في يوم مفيش أمل ولازم نبعد تو افقي وتشوفي حياتك..

ظلت تتطلع إليه بصمت ترفض بعيناها ويصر بخاصته حتى طاوعته بهزة رأس دون أن يفعل اللسان.



هل يمكن للحياة أن تستمر بقلب مفطور؟..

ماذا لو تركنا له مهمة ضخ الدم، أصل وجوده وحسب..



ألن نرحم حالنا من لواحق الدهر، ألن نحمي أنفسنا هكذا من توابعه الأليمة؟..

سابقًا؛ كانت تقول بئس الحياة بلا سوار العاطفة المحيط بالفؤاد، كيف للإنسان أن يعيش بلا وليف تأنس به الروح!..

اليوم هي تلعن العشق ومريديه، تلعن القلب المتسلط بعشق مؤذي وتلعنه هو لأنه يؤلمها بعشقه و ذكراه، يجيد تسديد ضرباته القاصمة، كلما انتصب عودها تجد حالها تميل وتنحني، يتركها متهشمة، ضعيفة، تكابر وتكابد لأجل النهوض وما إن تستوي حتى يعيد الكرة..

لا يمل ولا يرحم..

جالسة فوق الأرضية تتلحف بإزاء الصلاة وقد أنهت لتوها صلاة العشاء، تضم بساقيها إلى صدرها، ترتاح عليهم برأسها، تطالع الفراغ بأعين فارغة، تعيد أسماعها كلماته الساقطة كقنابل فوق رأسها قبل أيام، ترى غضبه وتشهد ألمه المتواري



خلف أضلعه، لا تبررشين أفعاله لكنها تستطيع أن ترى حقيقة ما يخفيه، وحدها تستطيع أن ترى ذلك..

لكنه لا يرى حقيقة ما وصلا إليه، في الأصل "عزيز" لا يرى إلا نفسه ومايبغيه..

أغمضت عينيها بتعب، بثقل يجثم فوق صدرها..

الجميع تخلى عنها، قالوا خذي قرارك كما تشائين..

أمامها طريقان أيهما تختار..

هل تتبع العقل وتفتش عن راحتها..

أما تعود إلى درب القلب وتتحمل شقاءه..

أم تبقى على حالها بلا وجهة، تقف بالمنتصف وتترك الحياة تمر من بين جنبيها بلا طائل يخصها..

"ياارب"



تحرك بها لسانها وفاضت بها جوارحها، هي امرأة اعتادت اللجوء إلى ربها حين يستعصي عليها الحال، تطلب عونه ومعيته وتهتدي بنوره في طريقها..

محت عبرتين انزلقتا فوق الوجنتين بدفء حرارتهما ونهضت تقيم استخارتها للمرة الثانية، تطيل في سجودها هذه المرة ثم تغفو فوق سجادتها حتى مطلع الفجر.

تمخض فكرها طيلة النهار، في المساء شاركت الجميع سفرة عشاء أعلنت فوقها قرارها الأخير بنبرة بان فيها انهزام القلب:

- أنا مو افقة يا بابا..

طالعوها جميعًا بالنظرات دون أن يتكلم أحدًا منهم مما دفعها لتحتد بقولها وتندفع:

- بتبصوا لي كده ليه؟..

- فكري كويس يا دهب..



همهم بها "عبدالرحمن" برفق فغضبت عليه:

- أنا فكرت كويس وده قراري، واحدة مطلقة ومابتخلفش هتلاقي فرصة زي دي فين..

لم يعلق أيٌّ منهم، حالتها المتعبة كانت تخرس الجميع عن كل قول، صوت عقلها كان عاليًا، قاهرًا للمرأة فيها، ضاغطًا فوق قلبها بقسوة وهي تتمتم لهم في حنق بغير محله:

-ولا أنتوا مستكترين عليَّ أعيش حياتي زي بقية خلق الله؟ ما كل واحد فيكم عايش حياته ومبسوط..

تهمهم بما ليس فيهم بوعي متضارب، مسحت أمها عن ظهرها تهدأ من روعها المشحون:

- لا حبيبتي، أنا صحيح كان نفسي ترجعي لعزيز وده لأني بعزه زي ابني، بس طالما سعادتك مش معاه خلاص وبعد اللي عمله مالوش عندنا حاجة، مطرح مايحط رأسه يحط رجليه، احنا كلنا عايزين راحتك..



هنا تدخل "عبدالله" ينبهها في صرامة وحزم:

- عايزين راحتك بس ماتكونش مبنية على هروب من شخص تاني، تحترمي وتصوني الراجل اللي هتكوني على ذمته، ده جواز مش لعب عيال..

رفعت له رأسًا تقابله بنظراتها الصارمة:

- متخافش يا عبدالله أختك تعرف الأصول وحق ربنا قبل الراجل اللي هتكون على ذمته..

- صليتي استخارة؟..

سألها أبوها في هدوء قاطعًا حدتهم القائمة فأجابت بخفوت وحرج يكتنفها:

- قراري أخدته بعد استخارة الحمدلله..

تمتم عقب قولها بقول ونهوض حاسم:

- طالما كده خلاص، الخيرة فيما اختاره الله..



بعد شهرين..

صبيحة يوم الخميس، الضجيج غالب على المكان، الأقدام تتسابق بانشغال والوجوه تتقابل بسعادة ومرح..

ليالي الأعراس مميزة، وأن كانت تتلخص في عقد قران بمنزل العروس وحسب..

تركت لزوجة عمها وبناتها الثلاث أمورعناية البشرة ومايليها من تحضيرات، تركت حالها بين أيديهم يقومون بإعدادها، تتظاهر بالسعادة، بل تبالغ أحيانًا في إظهارها..

في الحقيقة كان هذا ما تريده لنفسها، سعيدة مرتاحة البال كحال أي عروس، لكن ما بداخلها مغاير للإرادة، يغلب عليها التوتر، الخوف..

مطمئنة للرجل الذي ستسلم له اليوم مقاليدها كاملة، ومتوجسة خفية من أهله وطباعهم الغريبة عنها..



طردت وساوس الشيطان قسرًا، تخبر حالها أن هذا كله محض وهم تغالب به حقيقة مشاعرها الباهتة..

يتخبط فكرها في مقارنة ظالمة، بين عروس الأمس وعروس اليوم، كيف كانت الصبية اليافعة تشاطر الفرح تفاصيله وكيف هي اليوم، امرأة ناضجة تحمل خيباتها وذكريات العمر بين جنبيها في صبر وصمت، بإرادة حرة تخطي فوق حاجز الوجع وتمنح حالها بداية جديدة وقد وضعت للماضِ نقطة أخيرة، تقطع خيوط عشقها العزيز من قلبها واحدًا تلو الآخر، تخلص حالها من أسر مشاعر لن تعود عليها بغير الضرر، ذاك الرجل سطر نهاية الرحلة يوم وجدته بين ذراعي أخرى ينهل منها وتنهل منه فوق فراشها، تلك خاتمة حكاية لا تستطيع أن تحوز على بطولتها مرة أخرى..

- بصي كده يا عروسة، تمام ولا إيه؟..



سحبها النداء من دوامة الفكر البعيدة، طالعت المرآة من أمامها، تقيم كحل العين المرسوم بحرفية ابنة العم قبل أن ترفع لها بصرها وتذيل شكرها بإبتسامة:

- جميل قوي يامريوم، تسلم إيدك..

- يلا نحط آخر اللمسات..

مرطب شفاه وردي رافق زينة العين ولم تزد من الأمر شيئًا آخر، اكتفت بهما مع ثوبها الأبيض الرقيق والمنساب فوق جسدها بنعومة الشيفون السادة وجاذبية قطع الدانيل الملتفه حول معصميها..

نهضت عن جلوسها، تمسح بيديها عن ثوبها معدلة من وضعه وبصرها يطوف فوق أرجاء غرفتها، مع كل خطوة ولمسة كانت تغزل عينيها ديباجة وداع مع رحيلها الوشيك..

- المأذون وصل..



هبط قلبها عند قدميها مع استدارتها ناحية الصوت القادم بصخب، عانقتها "مريم" بقوة مباركة قبل أن يلتف النسوة من الأهل والصديقات من حولها، تصدح الزغاريد وتتناثر القُبل، حين دلف شقيقها خف الزحام، وقف قبيلها متطلعًا، يبتسم لها في طمأنه فتتعلق يداها بكفيه تكابد دحر العبرة لكنها تلمع بين عينيه هو فيتعانقان بهدوء ومحبة، لا يفلتها يبقيها بين شدة ذراعيه، يخبرها في ضمته أنه يشعر بما يثقل صدرها وتداريه عن الأعين..

- الكحل هيبوظ ياعبدالرحمن كفاية..

تباعدان إثر الزجرة، تمحي أناملهم بقايا الدمعات العالقة بضحكة ومزاح باغتياظ مصطنع جاء من"ندى" القريبة:

- عقبال ليلتنا يا بيبي..

طالعت"دهب" وقفتهما معا بنظرة أسف قبل أن تخص أخيها بعتب:



- ماكنش له لزوم تأجل فرحك..

يحيط كتفيها بذراعه جوار كلماته الصادقة:

- هكون مرتاح و أنا مطمن عليكِ..

ثم غمغم بملل قاصدًا إغاظة الحبيبة:

- وبعدين ما ندى قاعدة أهي هتروح فين يعني..

تزمجر بحنق و قبضتها كالعادة تصيب ذراعه في قوة:

- أمال لو كانت عينيك زرقاء وحلوة زي العريس اللي بره كنت عملت فينا إيه؟..

يأخذ بعنقها أسفل ذراعه الآخر، يلويه برفق محدثا زوجة عمه:

- زغردي يا منال بنتك هتطلق الليلة..

تبادلوا الضحكات والأحاديث المرحة حتى جاء الشقيق الآخر فعم السكون، اقترب مقبلا جبهة العروس متمتمًا بقرب ونبرة حنون:



- ألف مبروك يا حبيبتي..

ما إن ضمها بين ذراعاه حتى صدح هتاف"رنا" قاطعًا حلاوة اللحظة:

- أهو جه التاني عشان يعيطها، ده أنتوا عيلة نكدية وأوفر بجد..

يبتعدان رافعًا لها ذراعه لتتعلق فيه بدعوة:

- يلا بينا؟..

تهديه ابتسامتها وذراعها يتعلق فيه، تخطي خطواتها الأخيرة برفقته، يسلمها لزوجها الذي استقبلها بنهوض مقدمًا لها باقة الورد الحمراء، يأخذ بيدها لتجلس محلها ويصمت الجميع إستعدادًا لبدأ مراسم عقد القران..

تبدأ بخطبة صغيرة يلقيها عليهم الشيخ الكبير، قبل أن يصل نهايتها اقتحم السكون الصوت المألوف:



- أتمنى ماكنش اتأخرت!..

بـ طلة أنيقة نافست طلة العريس احتل مجلسهم، التفت الرقاب إلى الدخيل ومن معه، تقدم وفي خطواته الخيلاء، يترفع بكلمات في ظاهرها محبة وباطنها خص فيه عيني عمه:

- مايصحش اتأخر في ليلة زي دي، ده اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد، مش كده برده يا عمي؟..

بادله عمه النظر في سخرية متوارية شاملاً المرأة المتعلقة بذراعه:

- طول عمرك تفهم في الأصول يا عزيز..

أهداه تبسمًا واسعًا قبل أن يتوقف بالمنتصف، يطوق صاحبته بنظرة خاصة ثم يعود لهم بتعريف:

- بالمناسبة السعيدة دي أحب أعرفكم على لورا..



يحيط خصر المرأة مقربًا إياها لصدره برفق مستكملاً حديثة بتتمة تقليدية أقرب للقطة سينمائية في فيلم عربي عتيق:

- مراتي..

كان دوي الكلمة شديد، ثبت فوقه بصر عريس الليلة بسخرية وتلاقت أجفان "دهب" في صمت محاولة السيطرة على ارتجافة كفيها المتعانقان في حين كان يتقدم هو أكثر ونواياه غير قابلة للردع، أوقف "عبدالرحمن" تقدمه بلقاء أعين احتد بقرب خطير وهمس يخشى الفضائح:

- خد النمرة اللي معاك دي وإمشِ يا عزيز..

يقابل زمجرته الخفيضة بتقبيل للوجنتين وربتة طالت جانب العنق بهمس آخر لا يصل غيره جاء كفحيح قاتم:

- بلاش إنتَ يابودي عشان بحبك..

غمغم ساخرًا وتجاوزه ليجد توأمه في مواجهته، يلتقيه بصرامة مماثلة اشتدت لها النواجذ:



- إنتَ مابتشبعش فضايح؟..

ربت"عزيز" فوق ذراعه مع ابتسامة قاسية وقول يعني تمامًا جديته:

- إوعى من قدامي يا عبدالله عشان الجوازة اللي فرحانين بيها دي ماتقلبش جنازة..

تخطاه وراح عند عمه، مال إلى كتفه لثمه في تبجيل ثم هلل بمباركة حاره..

أتبع هذا بجلوس إلى جانبه مخرجًا بطاقته الشخصية من جيب سترته، وضعها أمام المأذون الشرعي ثم رفع بصره مقابلاً عيني العروس الصامتة بلقاء قريب:

- ألف مبروك يا بنت عمي..

و أتبع هذا بتبسم وتتمة أخيرة خص بها الجميع:

- ماحدش هايشهد للعروسة غيري..



(22)

خلف الأبواب المغلقة..

عوالم خفية

"قبل شهرين"

نعود بالزمن حيث روابط الصداقة الموصولة، ربما لم تعد كسابق عهدها من حيث الأشغال والمصالح المشتركة لكنها بقيت على حالها ما بين مدٍ وجزرناسب وضع حياته القائم..

كان خلف مكتبه العريض حين اقتحم خلوته في وقت العصر على غير العادة، لطالما كان يحضر مساءً، يضطجع بأريحية صاحب مكان بشكلٍ مائل مطالعًا شاشة التلفاز من أمامه والتي كانت تعرض فيلمًا أجنبيًا وبين يديه أنبوب النارجيلة يرسم من خلاله سحابات الدخان فوق رأسه في صمت كسره



دخول الصديق الذي يشع حماسًا مجهولًا، لم يطل الوقت وكان "سعد" يقبض على تلابيب الحديث ويفرد البساط في إتقاد:

- عندي ليك مصلحة إنما إيه..

- تاني يا سعد!..

غمغم بها في سخرية ومبسم النارجيلة عالق بين شفتيه، لقد ارتحل عن ذاك الطريق منذ زمن ولا ينوي العودة له مطلقًا، وكان في نو اياه الصدق واليقين هذه المرة..

لم يتحرك، يوليه جانبه مستمعًا لهسيس الكلمات الصادرة بشغف المتكلم:

- لا ما أنا عارف إنك قفلت الصفحة دي من زمان اللي بكلمك فيه ده حوار تاني خالص، مشروع جواز، جواز بجد قدام كل الناس..



لوح له بالأنبوب في استهانة واضحة وبصره يرتكز فوق الشاشة وذروة الفيلم:

- لا جواز ولا طلاق، لم حوارتك و اتكل على الله..

- ياحبيبي اسمع مني للآخر وإن ماعجبكش الكلام ماتشتريش..

المقاطعة الإعلانية جاءت لتمنحه استدارة ومواجهة استغلها الصديق بلا مقدمات:

- واحد من البشوات بيني وبينه معرفة قديمة، ناوي يترشح لمجلس الشعب بس في عقدة كده و اقفة في طريقه عايز يفكها..

تململ "عزيز" بضجر:

- لخص وهات من الآخر يا سعد..

تحرك ذراعه من أمامه يشاركه حموة الثرثرة:



- عنده بنت يا سيدي جايبة له مشاكل الدنيا، مخلية عينه في نص راسه، الراجل عايز يجوزها لواحد يقدر يشكمها ويكون مسئول عنها ويتفرغ هو بقى لمصالحه ويشوف أحواله..

سايره المستمع في حديثه بغير اقتناع:

- والباشا ده بقى مفيش حد حواليه، قريب، حبيب، يشيل الليلة..

يؤكد، يصر، يفند بوضوح:

- بقولك بتاعة مشاكل ماحدش قادر عليها، ده غير إنها بنته في النهاية وعايز الموضوع يكون في وضع طبيعي قدام الناس..

عاد بظهره إلى الوراء مغمغمًا بعين تسبر أغوار جليسه:

- طيب ماتتجوزها إنتَ؟..

ضرب بكفه فوق المكتب في حسرة:



- ياريت كنت أنفع يا أخي، بس للأسف متجوز وعندي عيال والراجل طلبه واحد خالي يركز مع البنت وياخد باله منها، أنا قلت مفيش أولى منك يا صاحبي بالمصلحة اللوزدي، واد طول بعرض خالي ومعاك مفاتيح كل الستات..

قرن جملته الأخيرة بغمزة قبل أن يتابع بجدية أجشة:

- أنا كده كده عمولتي محفوظة سوا إنتَ أو غيرك وشوف كام واحد ماهيصدق، قبل ما ترفض احسبها صح، لو الراجل كسب في الانتخابات هتبقى نسيب سيادة النائب، هتناسب الحصانة ياريس ويطولك من العزجانب..

نقر"عزيز" فوق السطح الخشبي الفاصل بينهما بجدية متكلم:

- الحوار ده مش داخل عليَّ يا سعد وفيه إن، باشا إيه ده اللي يجوزبنته بالطريقة دي؟ ده ولا اللي بيرميها حتى، ولا ده باشا على ماتفرج..



- طيب وحياة عيالي باشا وسيد البشوات، بقولك أعرفه من زمان، بس من كتر ما البنت مجنناه عايز يخلص منها بأي طريقة، لو اقتنع بيك هيديلك المبلغ اللي تطلبه، خليني أحدد معاه ميعاد نتقابل وتقرر بعدها، إيه قولك؟..

- قولي إنك تحل عني بحوارتك المش سالكة دي، كفاية آخر فضيحة خدتها من تحت رأسك الله يحرقك..

داهنه بالقول اللين:

- طيب أقولك حاجة؛ إنتَ ممكن تتجوزها فترة، قول لحد ما الانتخابات تخلص وبعدها نشوف أي مخرج وتخلع بس هتكون خدت لك مبلغ محترم وتروح لطليقتك تشغلها اسطوانة مش قادر على بعدك ومش عارف أعيش مع ست غيرك، الدخلة دي هتخليها تلين وكده تبقى ضربت عصفورين بحجر..

عاد إلى الوراء ساحبًا شهيقًا طويلًا من التبغ زفر دخانه ببطء قبل أن يخبره:



- لا ياعم حد الله، خلاص جبرنا عن الشمال وبعدين لو طاوعتك وعملت زي مابتقول عمرها ماهتبص في وشي، دهب نوع تاني من الستات اللي زيك عمره مايعرف قيمته، لامؤاخذة يعني يا أبو السعد..

- ست ولا مش ست يا عم النحنوح، في الآخر لا يفل النسوان إلا النسوان..

- يخربيت معرفتك السو..

- دي طاقة قدرو اتفتحت لك ماتبقاش فقري..

وصلة حديث مبتورة إثر حضور الشقيقة الغير متوقع وبين يديها خبرًا كالقنبلة ألقت به في وجهه بلا مقدمات:

"دهب هتتجوز"

خبرٌ تركه في حالة خبال، محاولاته في الإصرار عليها كانت تزداد يومًا بعد يوم، فسر تجاهلها والسكوت ليونة أصابت عضلة القلب العليلة بعشق العمر وإذا به يفسح المجال لرجل آخر



يأخذ مكانه، طبيب مثلها، زميل على الأرجح، كانا يتبادلان الإعجاب في اللحظة التي كان يفكر فيها ويبثها شوقه، تلك الأفكار أججت رأسه المشتعل، رأى حاله أحمقًا كبيرًا ورأى فيها الغدر والهوان، أسقطها عنه بجفاء وفي لحظة غضب، خلعها عنه قبل أن تفعل هي، ودار من خلفها يفتش عبر الطرق الملتوية عن ثغرة تمكنه من هدم الأمر على رؤوسهم جميعًا لكن لم يجد ثغرته وأخوتها يقفون له كالسد المنيع يمنعوه عنها، يظللون عليها بحماية وكأنه شيطان رجيم سوف يصيبها بضرر..

هم الشياطين، هم من دفعوه لتعرج أقدامه إلى طريق السوء وكان قد أراد الصلاح، قبولها برجل غيره هو من دفعه ليعدل عن فكرة رفضه ويقبل عرض الصديق الغير شريف، أن يتزوج بامرأة غيرها، تفوقها مالًا وجمالًا، أن يصفعها بذات الكف ويقبض الثمن، ولم لا؟.. يرون فيه السوء، هو سوف يريهم السوء بعينه، عقده سبق عقدها بساعات، حدد اليوم ذاته وجاءهم بعروسة يتباهى، ينحرها بقصد كما فعلت بقبولها من



غيره، بل ويفرض اسمه فوق وثيقة زواجها، شاءت أم أبت هو موجود بين ثنايا الروح والجسد، وسيظل موجودًا بينها وبينه وإن غاب طيفه سيبقى حاضرًا بذكراه التي لن تنساها ما حيت..

- ماحدش هايشهد للعروسة غيري..

قالها والغضب البارد ينضح من بين عينيه، توترت الأجواء وارتفعت الهمهمات تخشى الفضيحة القريبة، تقدم "عبدالله" ناويًا اقتلاعه من مقعده ولكمه في منتصف وجهه ربما لكن كف أبيه أوقفت حركته بحزم وجمود خاطب به ابن أخيه:

- وماله يا عزيز، مفيش أولى منك، ابن عمها وفي حسبة أخوها..

يوجعه بذات الألم الذي أراده لابنته ويخرس الألسنة قبل أن تمسها، يدفع بالمأذون ليبدأ عقد القران، تركه يتلظى وهو يراه يضع يده بيد زوجها، يسمع قبولها الخافت بالاقتران بغيره، يقبض على كفه بقوة حين كانت تمهر الأوراق الرسمية بتوقيع



يمنح الرجل الذي يواجهه الأحقية في أن يمتلكها من رأسها لأخمص قدميها، أن ينعم بضمة ذراعيها الحنون وقلبها الرؤوم، ومع كل ما يعتمل فيه لحظتها استطاع أن يصل بقوله للنهاية، أن يترك اسمه فوق عقدها في خانة الشاهد وينهي الأمر بنهوض صامت وسريع، يقبض على كف زوجته ويسحبها من خلفه راحلًا من بينهم مخلفًا من ورائه الزغاريد تعلو وتصدح..

- عزيز..

أوقفه النداء القوي عن الصعود إلى السيارة، وقف بين بابها المفتوح وداريقابل وجه شقيقها المقترب، يقف قبيله من الجهة الأخرى، يحدج المرأة القابعة بداخل السيارة بنظرة ساخطة يعود في إثرها إلى ابن العم الماثل أمامه ليس بالواجهة الباردة التي كان يتخذها قبل لحظات بل بهيئة رجل محطم، خاسر في قدر العشق:



- طول عمري معتبرك أخ تالت ليا حتى بعد ما طلقتها، ماكنتش أحب إنك تنزل من نظري للدرجة دي..

سخر منه بنظرة ونصف ابتسامة وقول:

- معلش يا عبدالرحمن، خليها عليَّ..

قسوة النظرة اقترنت بزجر الحروف:

- أقسم بالله يا عزيز لو وقفت في طريق أختي مرة تانية لأنسى كل اللي بيننا وتشوف رد يليق بقلة أصلك..

ترك وعيده وتحذيره معلقًا بابتسامة مستفزة وتحية رأس بواسطة السبابة والوسطى حياه بها قبل أن يلقي بحاله خلف المقود وينطلق بصرير عجلات عبرت عن غضب صاحبها..

الهواء البارد يصفعة عبر النافذة المفتوحة على آخرها بينما الكون على اتساعه كان يضيق أمام ضيق عينيه المستعرة بالنظر..



- العروسة حبيبتك؟..

تسللت النبرة الباردة إلى أذنيه بسؤال رد عليه بالتفات صاعق، طالعها بنظرة ساخطة قبل أن يستدير عنها، نفخت دخان سيجارتها بترو ٍ وهدوءٍ أشد لاحق استطرادتها ورأسها يميل إلى الوراء باسترخاء:

- بس حلو العرض اللي قدمته، كلهم ولعوا والعروسة كانت هتعيط يا حرام..

ضحكت ضحكة صاخبة قبل أن تلوح بكفها محدثة حالها:

- إنتَ تشهد على جواز حبيبتك من راجل تاني و أبويا عشان يخلص مني يبيعني ليك..

تضحك مرة تالية بمجون رافق دفقة الدخان الكبيرة التي سحبتها:

- و إنتَ تقبض، وسعد يقبض..



تستدير ناحيته لترسم له دائرة قريبة بخط الدخان المتصاعد عبر السيجارة العالقة بين إصبعيها:

- كلكم كلاب..

تعود للوراء بغتةً وقد ذابت ضحكتها الساخرة وتلاشى صداها داخل بؤرة الصمت العميقة ورأسها المثقل يميل فوق الزجاج..



خلف الأبواب المغلقة..

قلوب محطمة

في هاته اللحظة التي تعلو فيها زغاريد الفرح هي مجرد امرأة، لا هوية، لا ماضي، لا شيء على الإطلاق غير كونها امرأة ترتكن بظهرها إلى بابها تبكي في حرقة و سمعها يزف الرجل الوحيد الذي أحبت إلى عروسٍ غيرها، كفها فوق فمها يحد من تصاعد الشهقات والانتحاب الشديد يتدفق بوجيعة قلب، جسدها



كله يهتز وينوح معها في كسر، نازفًا فيض نبضاته الأخيرة للروح الوحيدة المعذبة.

لم تكن"عبلة" هي الروح الوحيدة المعذبة بفقد بين جدران هذا الدار، من تحتها في الطابق الذي يسبقها وعقب انتهاء الليلة كانت"مريم" ترتكن بجسدها إلى زاوية الفراش، بين يديها قبع هاتفها، تتطلع إلى رسالتها الأخيرة والمبعوثة منذ صباح اليوم ولم يأتِ في عقبها رد، يغمرها شعورٌ بالضيق لأنها فقط أرادت الاطمئنان على حاله، لم ترد غير معرفة أنه بخير، على مدار الشهرين الماضيين اللذين قبعت فيهما بين عائلتها كمحل إقامة جبرية بعد أن فرض عليهما البعد كاختيارٍ لا ثاني له وهي ترضى بنذره القليل من التواصل، رسائل مكتوبة يطمئنها من خلالها على وضعه بعد سؤال منها، ولا يوجد قول آخر، الفراغ بينهما يتسع، ما تقلص بينهما من مسافات عاد يتمدد مرة أخرى، فجوة الصمت تتسع وتتركها فوق حافتها بحيرة قاتلة..



من أين تأتي بالمبررات لتزيل شكوك أهلها حين تبطل حجة السفروالاشغال؟..

وما يدريها إن كان قد قررالبدء في علاجه أم لا وهو لا يتطرق إلى هذا الأمرأبدًا، ماذا إن كان لم يتخذ خطوته بعد؟..

إلى متى يجب أن تبقى هنا تنتظربجهلٍ تام عما يحدث معه؟!..

- أنا بجد مش قادرة أستوعب اللي عمله عزيز، جواه جبروت يخربيته..

رفعت رأسها وقد جذبها حديث شقيقتها الوسطى بنبرتها الحانقة بعيدًا عن شرودها، كانت الصغرى تتمدد داخل فراشها المقابل حين هتفت بدورها في تثاؤوب:

- ده اتجنن رسمي، شفتوا مراته؟ اتجوزها امتى ده ولا عرفها فين وازاي يتجوزمنه لنفسه من غيرماحد يعرف!..



تمددت"ندى" بشكل عرضي عند موضع قدمي الشقيقة الكبيرة، ذراعها يرفع برأسها في وضع اتكاء وتحليلها لأحداث الليلة الساخنة يأخذ مجراه:

- أنا حسيته عايز يكيد دهب، عمايله السوداء دي مالهاش معنى غيركده، الله يسامحه بجد عكنن على الكل وقلب الليلة..

تركت"مريم" هاتفها واسترخت في قعودها باضطجاع، تطالع شقيقتيها معًا وتتكلم بنبرة خفيضة:

- أنا عكسكم، حسيت أن لسه بيحب دهب و إنه بيعمل كدة قلة حيلة، يعني مش قاصد يوجعها هو بس موجوع، ودليل كلامي غياب بيللا عن الليلة، طبيعي تكون زعلانة على أخوها..

امتعضت الوسطى من ذاك المعنى:

- يحطها في موقف زي ده ونقول بيحبها؟ هو لو بيحبها بجد ماكنش قدريعمل فيها كده ولا كان طلقها من البداية..

غمغمت"مريم" ثابتة على موقفها:



- ما أنا بقولك مش قاصد، غصب عنه..

واعتراض"ندى" لا يزول:

- لا ياحبيبتي، كل الفكرة إنه شايف إنها بتاعته وعادي تفضل مركونة على الرف وحياتها و اقفة قصاده لكن تشوف حياتها لأ يتجنن ويعمل ألف فيلم، أنتِ ماكنتيش موجودة ولا شوفتيه أما جه زعق فيها وفي عمك بكل بجاحة وقلة أدب..

غمغمت في ضيق ونبرة محبطة:

- مش عارفة صعبان عليَّ..

اعتدلت"ندى" لتحشر جسدها إلى جانبها ولسانها يغمغم بحدة المغتاظ:

- عشان أنتِ طيبة بس، زمانه مبسوط مع مر اته أم تاتو صايع دي ومقضيها لا فاكر دهب ولا عمه وولاده اللي حرق دمهم ومشي..



مالت عليها بجانبها الملتصق في مكاشفة:

- قولي إنك محموقة قوي كده عشان عبدالرحمن..

دافعت بجدية والضيق يلون قسماتها بتذكرلتفاصيل الليلة:

- متضايقة عشان دهب قبل عبدالرحمن، متستاهلش يحصل معاها كده في ليلة زي دي، دي ياحبيبتي منطقتش كلمتين على بعض من بعد ما دخل ولونها اتخطف وتحسها راحت لدنيا غير الدنيا..

صادقت على قولها هاته المرة وجسدها ينزلق داخل الفراش:

- في دي معاكِ حق..

أطفأت الضوء الخافت ليعم الظلام وكلتاهما تسلمان الراية للنوم وقد سبقتهم الصغيرة منذ زمن، بعد أن أغلقت"ندى" عينيها أعادت فتحهما وقد تذكرت شأن الشقيقة الرابضة إلى جانبها، تسألها بهمس قريب ورأسها يلتف ناحيتها:



- جوزك رد عليكِ؟..

طرقعة لسان نافية كان ردها الذي استدارت الأخرى على عقبه لتحط بكفها فوق كتفها بمراضاة:

- ماتزعليش أكيد مشغول ماقدرش، أول ما يقدر هيكلمك..

- أو مايتكلمش، براحته..

غمغمت بها في جفاء وحنق هما رفيقا ليلتها وقلبها.



خلف الأبواب المغلقة..

ثمة بداية

بداية حكاية، بداية حياة

والبداية هنا ليست مثالية، ليست عادلة مع امرأة مثلها، أعطت دون بخل، منحت حتى رمقها الأخير وحين استحال عليها



العيش رحلت في صمت بلا أذى، لم تؤذه بمقدار، لم عساه يتفنن بأذاها؟!..

هل يؤذها لأنها اختارت السير، أم يعاقبها على كسر قيود اليأس، عن تخليها لموضع الخسارة والتشبث بفرصة الخروج من ذاك القمقم الضيق، عن ردمها لكل خيبة وحسرة بداخلها، لبحثها عن أنفاسٍ الحياة حتى لا تبقى رهينة الوحدة والألم طوال العمر..

خلف باب وباب تجالس الصمت فوق حافة الفراش، بصرها الجامد يحدق من أمامها فوق نقطة وهمية دون رؤية حقيقة، إلى جانبها انبسط كفاها بهوان يلامسان دفء الفراش، وشاح رأسها الأبيض مستلقي جوارها وفوقه قبعت باقة الورد الحمراء، لا تعلم ماهية ما تشعر، دواخلها مبعثرة، ضباب كثيف يحجب عنها الرؤية والشعور، تشعر بروحها هائمة بعيدًا عن جسدها في تيه، الشيء الأكيد الذي تدركه أنها تقاوم



الغصة الواقفة بحلقها، تقاوم سقوط العبرات بكل ما أوتيت من قوة وصلابة وكأن تلك الشعرة الواهنة إذا انقطعت ستعلن لها هزيمتها أمام حالها، سوف يصدح صوتٌ مجهولٌ يصفعها بحقيقة كونها امرأة حمقاء وسيئة لدرجة أنها تزوجت برجل في حين مازالت تترك لآخر يحتل دواخلها ويؤثر بها..

منذ دخل عليها بعروسه وهي تقاوم بقساوة، تقاوم بثباتٍ واهٍ استمدته من عيني أبيها وأخويها، من الرجل الذي اختارت أن تصاحبه بقية العمر وفي نواياها الصدق والخير، لو تركت لحالها الفرصة لكانت هربت من ذاك المشهد الظالم ولحقت بأربعتهم الخذلان، كان لابد أن تقسو على حالها، أن تتركه يصيبها في مقتل وحين ينتهي ينفض يداه عنها ويرحل..

والآن...

في هاته اللحظة التي تستوجب بداية جديدة..



هي فاقدة لكل شعور، لا تجد توصيفًا يليق بما يعتليها، لكن بداخلها جبل شاهق من الجليد، يجمد أعضاءها من الداخل وحتى الأطراف، ينشر فيها صقيعًا وبرودة تغالب ألمهما بخدر..

مر أكثر من الساعة وهي على هذا الحال الجامد بين جدران بيتها الجديد، داخل غرفة نومها بالتحديد..

أخيرًا تحرك الباب ببطءٍ فصنع شعاعًا رفيعًا اخترق الإضاءة الخافتة ورفع برأسها الساقط إلى الأسفل ببطءٍ موازٍ، تتطلع إلى الظل المقترب، إلى زوجها، لا تعرف كيف، لكن كان له واجهة تماثل خاصتها، وكأنه يملك صقيعه الخاص الذي يحتل كيانه ويصنع منه القطب الآخر..

وماذا تنتظر منه بعد عرض الليلة؟..

سيطرت على ارتجافة أطرافها بنهوض، قابلت اقترابه بلقاء أعين مضطرب، دكانة عينيها تمتزج بزرقة خاصته، توقف



قبيلها، يخضع صورتها لأفق البصر، لأول مرة كان يفعل بهذا القرب وهذه الدقة..

نحن البشر مشاعر مضفورة في بعضها البعض، يعتلينا الفرح في حين ونخضع للتعاسة في آخر، حين نقسو نحجب عن أعيننا حقيقة ما نكون، نمتثل لبغية العقل بشدة وصرامة، نكره الانهزام لأنه يكشف عن سوءة الضعف فينا، نمقت الخسارة فيتيه عنا الرضا والمعرفة بكون طبيعة الحياة في أصلها المشقة..

لم ينل نشوة الظفر بغياب، لم يرها تتألم وهو يتزوج بغيرها، فقط شاهد عرضًا بائسًا من قبل شقيقها المنتفخ كطاووسٍ أحمق، ظل يرمقه بسخرية واستهانة حتى انتهى مقاومًا رغبته الشديدة في صفعة، ربما لو كان يهتم لشأن أخته كما يهتم بشأن المرأة التي أحب لما كان هو هنا الآن، يقف أمام امرأة لا



يعرفها، فقط يتابع شموخها ومرورها فوق شظايا الألم بأقدام جريحة وأعين لا تلتفت للوراء أبدًا مهما كلفها الأمر..

والغريب أنه هو نفسه لا يشعر بأي معاني النصر، وكأنه ركض دون وعيٍ منذ زمن حتى انتهى به الحال أمام جدار شاهق لا يبصر آخره، فقط ينظره ويلهث بتعبٍ، بروحٍ منهكةٍ وجسدٍ خاوٍ مجردًا من كل شعور..

تحركت يده تتخلل خصلاتها الحالكة المسدولة في استقامة من مقدمة الجبهة حتى منتصف كتفيها، لمرتين راح يتخللهم ببطء وضيق عينين مع قرب أنفاس لامس بها أجفان عينيها المتعانقة بسكون قبل أن يجمع شعرها كله على يسارها ويده الآخرى تحرر سحاب ثوبها ببطء رافق ميل رأسه وقرب جسده، يسقط معها وبها حيث اللامكان، فقط سقوط وغياب وصمت..

وجد لديها هدنة عابر سبيل أضناه طول الطريق فامتلكها كزوجة، برفق ولين وقبلة جبين كانت ختام اللقاء قبل أن يتركها



بنهوض وابتعاد وجبال الجليد فيهما تذوب بعودة الحياة مع مطلع الفجر.



خلف الأبواب المغلقة..

تدارالطواحين صانعة دوامات لولبية بعواصف وقتية، يتحول الثابت ويتغير المعتاد فتسطع معاني الحقيقة جلية، لاشيء يبقى على حاله، الحياة عبارة عن دورة تغييرات لا تتوقف، تتبدل ترتيباتك فتجد حالك أمام حال مغاير لما أردت، لما خططت ورسمت له..

وهي امرأة ترهب التغيير، ينحاش كل مافيها إلى جنب ويصيبها ذعر داخلي يتركها في حالة يرثى لها و أنياب الخوف تنهشها..

قطع عمله وعاد يسبق خطواته الفزع، هاتفته قبل حين تطلب عودته بشكل مستعجل وفوري، كانت حروفها مختنقة، تخنقها العبرة، وليست امرأته صاحبة العبرات القريبة، بل



لديها مدامع عزيزة لا تنهار إلا للشدائد، ولج البيت بتخبط، تباحث بصره حتى سقط فوق ولديه وإذا بهما بخير، يجتمعان خلف شاشة الحاسوب بتسلية وقد أنهيا فترة اختباراتهما النهائية قبل أيام..

اقترب منهما، يلثم رأسيهما مطلقًا أنفاس الراحة بسؤال:

- ماما فين؟..

- في أوضتها..

أخبرته ابنته المنشغلة بتحدي شقيقها الذي لم يسمعه من الأساس، أغلق باب غرفتهما عليهما وخطا باتجاه الغرفة المجاورة، فتح بابها فوجدها جليسة جانب الفراش، لم ترفع رأسها، ظلت صامتة مغبونة الوجه والقسمات، جثا أمامها بقلب واجف يعتليه القلق يسألها عما يحدث، عن سبب مهاتفتها العجول والغير مفسر، رفعت له عينيها بضياع وأصابعها المضمومة تنفرج كاشفة عن الشريحة البلاستيكية



ذات الخطيين الزهريين بوضوح، نبرتها زفت له الخبر بلباس المصيبة:

- أنا حامل..

ارتفع حاجباه لأعلى في صدمة..

ليس لحدوث الأمر، فالأمر محتم بين زوجين اجتمعا بفراش واحد بعد زمن من الفراق، كان من الطبيعي أن يخضع كلاهما لنداء رغبة الجسد الملحة رافعين لها راية الاستسلام..

لكن صدمته جاءت لأنها تأخذ الأمر بحيطة شديدة!..

وهذا تمامًا ما دفعه لينفجر ضاحكًا بلا توقف، حتى عندما صاحت فيه بجنون ثائر:

- إنتَ بتضحك..

أخذت ترميه بالوسائد واحدة تلو الأخرى وهو على حاله فاقدًا للجام السيطرة حتى نهضت من جانبه تتخبط بقولها:



- أنا مش عايزه طفل تالت..

تقلب يديها وتدور حول نفسها بعجز وضيق:

- مش هاقدر، دي حاجة فوق طاقتي..

ثم تواجهه بثبات وقرار وليد اللحظة:

- أنا هنزل البيبي يا بكر!..

قابلها بجدية وأدت ضحكاته السابقة:

- لازم اتجننتي عشان تفكري كده..

صاحت فيه وكفاها يحيطان برأسها المتألم:

- إنتَ مش فاهم حاجة!..

قالت هذا وعادت جالسة فوق الفراش، غطت وجهها بكفيها وراحت تنتحب في انهيار، لحق بها آخذًا بجذعها بين ذراعيه، بتفهم ومراعاة وقول هادىء صاحب يده الماسحة عن رأسها:



- أنتِ خايفة من تجربة الحمل والولادة، خايفة من تعب أول سنة، شايلة هم المسئوليات اللي هتزيد..

صمت للحظة، أبعدها فيها ليقابل عينيها المبتلة وإردافته التالية تصاحب حركة إبهام يده الناعمة في محو العبرة ومداعبة الوجنة:

- وخوفك الأكبر إننا منكملش مع بعض..

أكدت له مخاوفها بدليل قاطع ونبرتها تخفت قسرًا مع حنو لمسته فوق وجهها:

- احنا بنتخانق أكتر ما بنتصالح..

مازح بتبسم لطيف:

- وده ملفتش نظرك إنك نكدية مثلا..

مسحت عن أنفها بحدة ناسبت قولها الحانق:

- و إنتَ إيه أن شاء الله، أصلا الحمل ده حصل بسببك..



رفع لها حاجبًا واحدًا في عبث أعادهما معًا لعهد قديم:

- ماهو لازم يكون بسببي أمال بسبب مين؟!..

طرقع لسانها برفض:

- يا بكر أنا مابهزرش..

- أنا بقى بهزر ومبسوط..

- ماهو إنتَ مش هتتعب في حاجة، فتزعل أو تضايق ليه؟..

- عشانك مثلا..

احتشد الدمع في عينيها بغزارة وغصت بنحيبها قبل أن تعاود ذراعاه ضمها:

- أنا معاكِ مش هسيبك، كل صعب هنعديه سوا، مش عايزك تخافي طول ما أنا موجود..

لثم رأسها القريب مطولًا قبل أن يداعبها بالحديث في همس وحميمية:



- ده أنتِ حبيبتي وأمِ العيال اللي ماقدرش أستغنى عنها..

محت سيل العبرات ببنان أصابعها قبل أن تتشبث بقميصه وتبادله الهمس ببحة خافتة:

- أول مرة تقولي الكلام ده..

- بجد؟..

- اها..

- كنت فاكر إني بقوله..

- تؤ..

- طيب آسف..

- على إيه؟..

- على احساس عدم الأمان اللي وصلك..

- أنا كمان آسفة..

- على إيه؟..



- على حاجات كتير، أولها الأيام اللي عدت بيننا وكل واحد في مكان..

- بس احنا سوا دلوقتِ..

- وعلى طول..

بعناق..

بعهود محبين..

بتفاهم وتفهم ومراعاة..

بالمودة والرحمة، التربة الصالحة التي تنمو في أرضها عشبة الحب وتزدهر.



الأبواب هنا فتحت على مصراعيها..

تم كشف المستور بضربة قاضية، بسبق صحفي حصلت عليه الجريدة..



الأوساط تشتعل، جذوة النار تلتهم الجذور وتتصاعد نحو الأعلى ببطء مستمر، ما إن تصل النهاية حتى يحصل الانفجار العظيم وتلتهم كتلة النار أهلها..

أهلها الظالمين..

كان اسمه يرن بتكرار بين الموظفين الزملاء وجميع العاملين، يهنئونه ويتغامزون بشأن الترقية القريبة..

اقتربت على استحياء تجذب مقعدًا صغيرًا جوار مكتبه، حيث اعتادت على مدار الشهرين الماضيين أن تجلس وتحتسي منه الخبرات قطرة تلو القطرة، تراه كيف يشغف حبًا بالعمل والقلم، كيف يحمله بأمانة وشرف..

كان يلوح لها بالقلم أمام عينيها ويخبرها بصوت أجش، عميق ليذكرها كل حين:

"ده مش شيء جماد، دي الدفة اللي بتوجه عقول البشر"

القلم؛ به يكون الصحو و الغفى للأمم أجمعين..



لذا يجب أن ينطق بالعدل، يتحرك بإنصاف ويسمع دون إغفال..

يحدثها عن دورهم كمسئولين للإعلام، بكونهم عين وأذن ولسان الشعب..

علمها كيف تكون إنسانًا ناطقًا بالحق طالما منحت الوسيلة..

كيف ترتقي وتسمو برفعة ولا تدنس بالوضاعة و إتباع الباطل..

أن تخلق بداخلها ضميرًا حيًا، يقظًا على الدوام..

وأن تمتلك الشجاعة الكافية لتقوم بكل ماسبق..

- أنا بتنبأ بمنصب رئيس القسم مثلًا..

هتفت بها في زهو قبل أن تترك كوب الشاي أمامه وتجلس ليردد من خلفها:

- رئيس القسم مرة واحدة..

- أقل واجب يا أستاذ، وهما الكسبانين كمان..



- ماشي ياستي كتر خيرك..

غمغم بها وبصره يتشاغل مع ما يدونه بخط يده، حديثها التالي دفع برأسه ليلاقيها:

- ده آخريوم ليا هنا..

- بجد؟..

قبض على لجام حاله المنفلت باعتدال و انتباه وبصر حط بعيدًا عن وجهها وإن كانت مسامعه كلها مع بحة صوتها الرقيقة والتي تنضح بحزن جلي:

- للأسف، التلات شهور بتوع التدريب خلصوا..

تنفست بعمق قبل أن تعاود الحديث بضحكة مبتورة وأعين تلألأ فيها الدمع بطبقة شفافة:



- بص أنا ايموشنال جدا وعلى تكة أصلا وأعيط، اتعلقت بيكم هنا والشغل وكل حاجة ومش عارفة أعمل إيه بس لازم أركز مع الامتحانات الجاية دي وإلا هضيع و أنا عايزة أتخرج وأخلص..

تبسم لها برفق مهدئًا من انفعالها الواضح:

- إن شاء الله تخلصي على خير وترجعي تاني تشتغلي معانا..

التصق كفاها ببعضهما في تمني ودعاء، تلضم الكلمة وراء الكلمة بثرثرة وحركة جسد تغمرها الحياة والحيوية:

- بالمناسبة، أنا قربت أخلص الرواية وقريب قوي هعرضها على الدار لو اتقبلت أول نسخة موقعة هتكون من نصيبك، هستنى رأيك من دلوقتي..

لا يعلم ماذا يحدث له بالتحديد، لكن الفتاة بها شيءٌ يجذبه رغمًا عنه، شيءٌ يضفي جمالًا ويترك وقعًا حلوًا داخل نفسه..

- مستني نسختي، بس خدي بالك أنا ماعرفش أجامل..



ضحكتها المتسعة بعذوبة أجبرته على غض الطرف والاستغفار داخل نفسه متنهدًا في صمت..

غادرت للحظات، سرعان ماعادت حاملة بين يديها علبة مستطيلة يغطيها المخمل الأزرق، قدمتها له مع همس خجول:

- هدية صغيرة يارب تعجبك..

خص العلبة بنظرة قبل أن يرفع لها بصرًا متسائلًا عن السبب فأفصحت له بلتقائية:

- شكر بسيط قصاد تعبك معايا، كان ممكن تعمل زيهم وتطنشني وتشتري دماغك لكن إنتَ عملت العكس، مابخلتش بأي معلومة أو دعم وتشجيع، هفضل ممتنة ليك طول عمري و أقول إنك قدوتي وأستاذي..

أخبرها بصدق جاد وأجفانه تتلاقى للحظة في خفر:

- ده واجبي يا سارة، وحقيقي مفيش داعي للشكر وكلامك ده كله..



قربتها منه أكثر بإصرار و إبتسامة:

- ده النبي قبل الهدية، هتكسفني؟..

- عليه أفضل الصلاة والسلام..

لاحقًا؛ وبينما كان و اقفًا بمنتصف الغرفة كانت ترتخي ملامحه الرجولية الخشنة بابتسامة أظهرت أسنانه وبصره يتأمل القلم الر اقد داخل العلبة المخملية والحامل لاسمه بالخط العربي البديع

(أ.عبدالله الشيمي)

أغلق العلبة وتركها في الجزء الذي يخصه داخل صوان الألبسة، مع استدارته اصطدم صدره بيد أخيه القوية وهي تصفعه بواسطة الصحيفة الكامنة بيده، يصيح فيه بلا مقدمات وبزعيق حاد:

- مش هترتاح غير أما ياخدوك تاني من وسطنا، مش كده؟..



أبعد"عبدالله" يده عنه زافرًا، راح يشرع في تبديل ملابسه، محدثًا إياه من خلف ظهره:

- إنتَ مش قريت المكتوب؟ عايزني أسكت إزاي يعني..

اقترب"عبدالرحمن" يواجهه بنبرة ثائرة:

- في حكومة دورها تحقق وتتعامل مع المجرمين دول من غير ما تورط نفسك إنتَ معاهم..

قابل ثورته بأخرى:

- و أنا دوري أكشف الحقيقة، أوعي الناس وأعرفهم..

واستطرد بصوت أعلى وسبابته تشير باتجاه الخارج:

- المتضرر هنا الناس يا عبدالرحمن مش الحكومة، والناس لازم تعرف..

حرك الشقيق رأسه وصوته يخفت في قلة حيلة:

- مفيش فايدة، مصمم تنفخ في قربة مقطوعة..



اغتاظ من تلك النبرة والنظرة فاحتد عليه بالقول المتحدي:

- مش قربة مقطوعة ولا حاجة، بكرة تشوف أما المجرم يتحاسب و..

تصاعد رنين الهاتف أوقف الحوار القائم ما بين مد وجزر في احتدام، تناول "عبدالله" الهاتف مستقبلًا مكالمة واردة من جهات العمل، طفقت تتلون قسماته المشدودة بغبن وضيق أفشى تفاصيله تحت عيني أخيه المتابعة، حين انتهى وسقطت يده مع الهاتف في تخاذل سأله توأمه في توجس وريبة:

- حصل إيه؟..

تعثرت أنفاسه بحنق وضيق وقول ساخط رافق جلوسه وأصابعه الماسحة عن رأسه بعنف وعجز:

- صدر قرار بتوقيفي عن العمل وقبضوا على رئيس التحرير..

طالعه "عبدالرحمن" من وقوفه بضحكة بلا معنى، فاضت مرارة:

- وتقولي بكرة تشوف؟ أنا شايف كويس قوي المهم إنتَ اللي تشوف..

ختم كلماته بإلقاء الصحيفة عن يده فوق الأرضية بفظاظة..

تلك الحقائق المطبوعة مصيرها القمامة أو امتصاص زيت الأطعمة..

وما غير ذلك؛ مجرد وهم وحماقة ارتضاهم صاحبهم لنفسه.



الليل يهيمن بلحظات السكون..

بلحظة صقيع شديد في ذروة شتاء تتسلى عليه فيها الحقائق الساطعة بلا رحمة..

كان وحيدًا داخل مقهاه الفارغ والمظلم، يجلس خلف مكتبه البقعة الوحيدة المضيئة في هذا التوقيت من الليل بقسمات قدت من الصخر، يلقي ببصره الثابت خارج النافذة القريبة بلا هدف واضح، رغمًا عنه اجتر عقله هيئتها داخل الثوب الأبيض



ليلة الأمس، وهي تلفظ مو افقتها على أن تقترن بغيره، لا يتوقف خياله عن نسج صورتهما معًا، هي وهو وحدهما بمعزل عن الجميع، تضطرم أنفاسه رغمًا عنه وترتجف بحلقه رغم أنه أقسم في اللحظة السابقة أنه أحرق ذكراها وماعادت تهمه مثقال ذرة، ضرب بكفه فوق السطح الخشبي ليصدح الصوت ويخرجه من تلك الفقاعة المقيتة، يحررزرًا من قميصه غيرآبه لخيط الهواء البارد المتسرب إلى جلده، ربما ينجح في إخماد نيرانه المتقدة والتي تنتظر الفرصة لتعبرعن حالها بانفجار..

نجح حفيف خطوات الصديق القادمة في إخراجه من تلك الهوة السحيقة التي تقتات على ما تبقى من عقله، زفر دون صوت وتعانقت أجفانه بتعب، آخر ما يحتاج في هاته اللحظة هو "سعد" وثرثرته وسخافاته الغيرمنتهية لكن هيهات..

جلس القادم وفي وجهه زحمة حديث غيرمقروءة، احتاج للكثير من الشجاعة حتى يأتي ويحدثه، بدأ بحروفٍ مترددة:



- عزيز في حاجة مهمة عايز أقولهالك بس متردد..

حدجه بنظرة جانبية مستعرة بينما يحدثه بصوتٍ آتٍ من قعر الجحيم:

- عايز تقول إن لورا الطوبجي..

وسحب سبابته أسفل أنفه بحركة خاطفة قبل أن يستطرد:

- شمامة..

ثم حرك عنقه لليمين طاعنًا اياه بنظرة نافذة:

- عايز تقول إنك كنت عارف وداريت عني عن قصد عشان المصلحة تمشي؟..

اضطرب الصديق و ابتلع لعابه في عسر، طفق يتحدث بتأتأة محاولًا تمرير الأمر:

- بتشم بودرة، بتشم بلاء أزرق إنتَ قلت شوية وهتطلقها تفرق معاك في إيه، وبعدين أنا جاي لك في حوارتاني أهم..



حرك له رأسه بتمهل قاتل وبصره المتقد لا يحيد عنه:

- ماشي يا سعد..

تحدث"سعد" سريعًا، بجلجلة:

- فاكر أما قلت لي دوروراء الواد الدكتور؟ أنا من ساعتها بدور، الشهادة لله الواد سمعته زي البرلنت بس أبوه وراه وساخة الدنيا، نسوان وسكروعربدة وحاجة آخر مليطة..

أهداه نظرة ساخطة وقولٍ فظ رافق نهوضه المباغت مع نية الرحيل:

- مال أمي أنا بقى بالحوار الزبالة ده..

- أبو ناصف كان متجوزعبلة يا عزيز..

لفظ الجملة دفعة واحدة بلا فواصل أوقف حركة الناهض ليعود له بجذع مائل قابضًا على تلابيبه باستفسار صاحب ضيق نظرته:



- عبلة مين؟..

اجترَّ ريقه بصعوبة بالغة قبل أن يكررها على مسامعه بيقين العارف:

- عبلة الشيمي، أختك..



(23)

من دون رداء الستر نحن خطايا..

خطايا حية تتنفس وتنهش ذواتنا بأنياب العاروالخجل..

في لحظة تقصي خبيثة التفاصيل انزاح رداء سترها وتجلت الخطيئة بوضاحة أمام عيني الشقيق، في لحظة انسل من جسده الهم والغم والانهزام ليعتليه القهروالجنون، وإن كان يحمل فوق عاتقه جبلًا من الخطايا، في هاته اللحظة هورجلٌ مطعون الشرف، رجلٌ مستباح عفة أهل بيته حتى الرمق الأخير..

في لحظةٍ انتصف فيها الليل منذ ساعة كان ظله يتأرجح فوق رأسها الغافي، مرت لحظات من الصمت الثقيل وهو يحيط جسدها ساكن فراش النوم بسوار من نار أحاط بالمقل الغير



مصدقة، ينتزعها من غفوتها بإضاءة المصباح ليعم الضوء بغتة وتنهض من نومتها بشهقة فزع وبصرها يلتقط هيئته الجامدة من أمامها بقلب واجف:

- عزيز!..

- إيه بينك وبين سالم الرويني؟..

من دون استهلال، ليس الوقت مباحًا لعرض مقدمات، هو بحاجة لمعرفة إجابة مجردة، لو قالت لا تعرفه سوف يصدقها القول ويكذب الصديق والعالم أجمعين، احتل فزع عينيها بقرب خطير، مال إلى وجهها ليسكب الحقيقة الجلية بين يديها بخزي وعار دهس كلاهما في طريقة:

- قولي إن سعد كداب، وإن بواب العمارة وسكانها كلهم كدابين، قولي إنك ماحطتيش راسي في الطين وبيعتي نفسك لراجل قد أبوكِ يا عبلة..



عيناها بلورتان من زجاج تلتمع فيهم العبرة دون هطول أو جواب، خلع خلجاتها بصياح فظ في وجهها القريب:

- ساكتة ليه، انطقي!..

جاءه جوابها في تنكيسة رأس وشهقة بكاء عبرت حلقها والسكون التام لتكون له جوابًا كافيًا شوش عقله بإدراك لكن لم يعجز يده عن صفعها مرة واثنين وثلاث بسرعة وازت صياحه الماجن:

- بتعيطي يا فاجرة..

أصابعه نشبت في شعر رأسها بكل قوة وقسوة، يجرها من الفراش، يسقطها بمنتصف الحجرة، يحتجزها بين ساقيه وصفعاته الغير منتهية، غير مستمع لتوسل شهقاتها..

- بيعتي شرفك لواحد قد أبوكِ يا رخيصة..



صفعاته تترادف بجنون فوق وجهها الغارق بعبرات حارة وصيحات متقطعة، لم يكن يرى أو يسمع غير تلك القوارض التي تنهش عرضه وشرفه بكل صورة فجة..

- جيبتي لنا العار..

قالها متخليًا عن تكبيل جسدها بنهوض، سحب حزام سرواله وهبط به فوق جسدها المسجى من أمامه في انهيار، كفاها يغطيان وجهها في وضع حماية لا إرادي بينما جسدها المغلوب على أمره كان يتلوى بعذاب تحت قدميه أمام سوط ضرباته وهو مستمر بهذيان، بقسوة وخنجر ثالم يشق ظهره على طوله:

- جيبتي العار لأبوكِ في قبره..

اهتز جسده ويده وصوته مع قوله الأخير، رفع يده عنها بلهاث وجحوظ عينين، بواقع مؤلم لأنصال حادة تضرب سائر الجسد، في حين جسدها لم يتوقف عن التواءته بنواح وشعورٍ قاسٍ بالخزي المضاعف انغرز بين ثنايا الروح دون الخروج..



تقهقر للخلف تاركًا الحزام يسقط عن يده مع سقوطه جوار باب الحجرة المغلق، كل مافيه كان يتساقط، الغرور والشرف والعبرات..

في لحظة سقوطه تلك اجترله العقل كل ما اقترفت يداه على مد العمر، تجلت أمامه كل المرات التي كتب فيها اسمه فوق عقد زواج يحمل شرعية زائفة..

الآن، رفعت أغطية الستر كاشفة له وبصره عن كل المرات التي اختلى فيها مع امرأة لا يعرف عنها غير اسمها، امرأة لا تحل له بمقدار أنملة أسقاها من شهد رجولته وشرفه، تجلت له عينا "دهب" وهي تراه عاري النفس والجسد لا يستر سوءته شيء ليرى كم أبخس نفسه في عينها وحقها في ذاك الزمان..

يضرب رأسه في الجدار بقهر وعجز كبلت بهما يداه، في لحظة غير محسوبة طعن فيها ظهره بخنجر ثالم ولم يعِ غير الآن أنه كان في



يده منذ البداية، طعنة عرفت طريقها لتهديه كسرًا لا جبر له، تهديه عطبًا لا دواء ولا شفاء منه..

مقعد طاولة الزينة كان المتكئ لرأسها الثقيل وهي تتحامل عليه بذراعيها لتعدل من وضعها بقعود قابل جلسة الشقيق، كل ضربة من رأسه للجدار كانت تحط بقلبها بقهر مماثل، كل عبرة ذرفتها عيناه بألم وحسرة كان في مقابلها فيض منها وشهقات ونواح لا يخفت بل يتردد بين طياته لفظة "بابا" التي تنخلع من صدرها بخلجات الموجوع والمحتاج..

أن تكون الكبيرة وتصغر أمامه بهذا الحال كان أكثر ما تخاف، والآن لم يعد هناك ما تخافه أكثر، دنسها ملأ عينيه ولن تملك معه حق التطهير..

- احمدي ربنا أنه مات وماشفش اليوم ده..

أخرج همسًا منهكًا من قرارة نفسه البعيدة قاصدًا أبوهما الراحل والمحتل لهمس نواحها ليزداد وطأة وغزارة أمام كلماته،



تهديه لحظة انهيارها المتأخر بجملة جمعت فيها خلاصة الشعور من بين كسرات النشيج:

- أنا بموت يا عزيز..

والرد قد من صخر الأسى:

- ياريتك تموتي..

مضت ساعة كاملة لا صوت غير نحيبها الذي راح يعلو ويخفت بوتيرته كل حين وكلًا منهما يحتل الأرض من موضع قابل به الآخر دون النظر حتى أخفض لها بصره النازح عنها ببروة وجمود عادا يحتلان أوصاله عقب اشتعال وقد بدأ عقله في نسج الخيوط القريبة من بعضها البعض:

- الزفت اللي اتجوز دهب؛ عارف اللي بينك وبين أبوه؟..

لاقت نظراته الأقرب لنار خامدة يتطاير منها دخان الحريق بانتباه لم تملك أمامه غير تحريك رأسها في إيجاب صامت رافق انهمار العبرات الغير منتهي، مسح عن وجهه واحتدت لهجته



بنهوض وقرب احتل حيزها وقبضة أمسكت بمقدمة رأسها يرفعها لأعلى بمواجهة ووعيد عينيه يبرق:

- أمال كدبتي ليه وقلتي ماأعرفهوش؟ ويعني إيه الواد يتجوز دهب و أبوه كان...

سكت عن التتمة ويده تفلت خصلاتها بحدة مستديرًا عنها، حرر أنفاسًا مضطرمة حين كانت تغمغم قولًا مبحوحًا آلم حلقها:

- اتجوزها عشاني..

عاد إليها بحدة ورأسه يرتج بجنون، يده تلوح وتمتد من أمامها في انقباضات منفلتة:

- طلعي كل اللي مخبياه، يلا..

قصت من البداية، الزواج العرفي بخلفية سرية بمنافعه المترتبة، لقاء ناصف وتبدل الحال، التشبث بمراد القلب والفرصة النظيفة، تهدم الأحلام لحظة التصادم مع الحقيقة



الغابرة، نية ناصف في كسرها وسعيه للانتقام، توسلها له عن العدول، شتى محاولاتها القصوى في إيقاف الزيجة والتي باءت كلها بالفشل الذريع، كرت له خيط الحديث من أوله حتى آخره وهي ترى تتابع وقع الكلمات فوق صفحة وجهه المتبدل من الاختلال إلى الجنون، دارهما من حول نفسه ما إن انتهت مرددًا معاني الكلمات بشيء من مرارة كانت تتساقط من جانب فمه:

- يعني اتجوزتي الراجل الكبير عرفي، بعدين قابلتي الواد فحبك وحبتيه، بس طلعتي مرات أبوه وخدتوا قلم معتبر وعشان مش قادر يطولك اتجوز بنت عمك، اللي هي دهب، عشان ينتقم منك ومن أبوه الوسخ..

طيف لضحكة عاجزة برق فوق الفاه محدثًا نفسه بخبال وأصابعه العشر تنغرز برأسه:

- يا فرحتك يا عزيز..



تحرك خطوة على غير هدى عادها بسرعة مواجهًا إياها باستفسار تشبث فيه بجدران العقل حتى لا يزهق روحها في هاته اللحظة بيديه:

- تمام أنتوا تلاتة أوسخ من بعض تسحبوا دهب لدايرتكم ليه؟.. هاه.. ليه؟.. ابن الكلب ده ناوي يعمل فيها إيه، انطقي!..

نفت برأسها سريعًا من بين تهدج النبرة:

- مش هيعمل فيها حاجة، ناصف مش وحش..

وقف أمامها تتجلى فوق صفحة وجهه تقاطيع الألم وقد بحت نبرته المجهدة وفي شحوبها انخفاض أقرب لهمس:

- ماقولتليش ليه، ماقولتلهاش ليه، بكلمة منك ماكنتش حاجة هتم..

سكبت له عجزها في نظرة احتشد فيها الدمع:

- ماقدرتش، والله العظيم ماقدرت..



فرد ذراعه نحو الخارج وعاد به إلى صدره، يفصح لها عن ألمه الذي لا يستشعره أيًا منهم:

- سيبتيه يتجوزها و أنتِ عارفة إني بحبها..

تحرك كفتيها في قلة حيلة لم تكن تملك غيرها:

- سيبته يتجوزها و أنا ماحبتش غيره..

فوق هذه الرقعة كانت نقطة التقاء ما بين الخطيئة والعقوبة بالحرمان، أرض الخطيئة التي فرقت بينهما بترحال بعيد كانت تنتظرلتجمعهم معًا فوق بقعة واحدة وقد كان.

لم يغادرها ليلتها، ظل جليس الردهة بظهرمحني ورأس ساقط بين كفيه حتى انجلى الليل وطل النهار..

حين عاد لها وجدها جليسة حافة الفراش بجسد متصلب، أعين ملطخة غائرة وشعر مشعث كما تركها قبل ساعات، رمقها كمن ينظر إلى شيء بخس لا يساوي مقدار ذرة، متحدثًا بصيغة الأمر:



- هاتتجوزي سعد..

هكذا ببساطة، كشيء عابر لا يستحق الوقوف، لكن الانتفاضة منها حق مستحق:

- سعد مين؟..

والسؤال لا يحمل جهلًا بالمعني بل استنكارًا ضخمًا زاحم صدرها بضيق فوق الضيق فزداهم بالهم ونبرته الثلجية تحدثها بحقارة مستحقة في نظره:

- عندك حل تاني نداري بيه الفضيحة قبل ما توصل أعمامك والناس؟..

اعتراضها تخبط بين جدران اليأس:

- ده أصغر مني ومتجوز ومخلف..

غمغم بجمود من خلف خبو النظرات:

- كتر خيره طلب يسترك..



صارحته بقولها المستنكر عن نوايا الخبيث التي تترك لدنها تفسيرًا منطقيًا:

- ده طمعان فيَّ مش عايز يسترني، إنتَ مابتشوفش بيبص لي إزاي!..

وكأن ما تقوله يشكل فارقًا!..:

- ما غيره بص وشبع، هتفرق إيه بالنسبة لك؟..

ابتلعت كلماته كالزقوم ونبرتها ترجوه بكسره:

- عزيز ماتعملش فيَّ كده..

- أنتِ اللي عملتي في نفسك كده، وبعدين أنا مش باخد رأيك، كتب كتابك على سعد يوم الخميس الجاي، مالهاش حل تالت يا كده يا أقتلك وأخش فيكِ السجن، بالنسبة لي أرحم من العار والفضيحة..



كرر على مسامعها القول البارد بكلاليب لا تملك أمامها فرار قبل أن يغادرها باستدارة:

- يا سعد يا الموت، مالهاش تالت..

ولأنها تعرفه، وترى الجحيم بقعر عينيه مشتعل لحقت بخطواته، أوقفته بهمس متردد، خائف:

- ناصف مالوش ذنب يا عزيز، هو مجرد طرف مظلوم في الحكاية دي..

استدار يقابلها والسخرية تتمخض عنها قسماته:

- قلتي لي مظلوم..

مد يده، يهدي وجنتها عدة ربتتات باردة صاحبت الكلمات وسعير النظر:

- اخلص منك الأول بعدين أصفي حسابي معاهم، ونعرف وقتها مين الظالم من المظلوم..



تركها شاحبة الوجه والنظروغادر، هبط الدرجات قاصدًا أوله حيث تقطن الجدة، ثلاث طرقات صدحت قبل أن يقابل وجه "عبدالله" بعزوف بارد وإشاحة جاءت من كلا الطرفين بينما يدلف ويلتقي بجلوس عميه من حول جدته، وقف من أمامهم، يديه داخل جيبي سرواله ورأسه مرفوع في أنفه:

- سعد طلب مني إيد عبلة، اخدت رأيها وهي مو افقة و أنا مو افق..

هتف فيه العم الأصغر حين كان الأكبر لا ينظره:

- مش ده صاحبك المحامي؟ مش متجوزده؟!..

تبسم له في سماجة مجيبًا إياه في برود:

- أيوه هو والشرع حللهم أربعة..

عاد يشملهم جميعًا بنظرة جادة لا تقبل نقاش:



- كتب كتابهم هيكون الخميس الجاي، حاجة على الضيق كده اللي عايز يحضر منكم أهو عرف الميعاد واللي مش عايز واجبه وصل..

- إنتَ خلاص عيارك فلت وكبيرك رأسك، الله يرحمك يا محمود الله يرحمك يا ابني على دي خلفة..

طالع جدته حتى أنهت كلماتها الغاضبة فأهداها واحدة من ضحكاته المتعلقة بجانب فكه:

- البركة في ولادك الباقيين ياحاجة وعيالهم، ربنا يخليكم لبعض..

أعقب كلماته بربتة ساخرة فوق كتف "عبدالله" القريب ثم استدار عنهم راحلًا دون أن يلفظ قول آخر تاركًا إياهم يتضاربون بالكفوف فوق بعضها البعض تعجبًا وسخطًا من أفعاله.





خطايا القلوب غير قابلة للغفران..

قلوب في عشقها نجاة وبغضها هلاك..

في خديعتها النهاية..

وفي جفائها تيه، حيرة وشتات..

قلوب نابضة تحيك خباياها خلف ساتر الضلوع..

وهي امرأة في قلبها عفة، في عزوفه طهارة ولينه حياة..

حياة تسعى لها جاهدة، تتحسس دربها على مهل، تترك الحصوات تنهي دوامتها وتستقر بالقاع فيصفو مائها ويترقرق بنقاء..

"تتفهمه"

علقت تلك اللافتة بعقلها منذ أول ليلة جمعت بينهما، تتفهم الصمت والجفاء والابتعاد، أيما رجل لن يقبل أو يمرر ماحدث، أن يضع زوج امرأته السابق بصمته فوق عقدها معه أمر



بغيض وفيه إهانة، وهو مرر الإهانة لأجلها وعائلتها تجنبًا للفضائح وهي ستمرر الجفاء، سوف تمنح مابينهما الفرصة حتى يلين ويعتدل..

ستصدق أنه من اليوم التالي لزواجهم كان العمل يحتاجه بالفعل، وأن عودته المتأخرة أمرٌ اضطراري كحال غيابه اليوم منذ طلعة النهار، سوف تتقبل أن سفرة طعام في معناها المفهوم لم تجمع بينهما حتى الآن لأن الفرصة لم تسنح بعد، سوف تتفهم كل هذا وتقف بمطبخها لأول مرة حتى تطهو له بيديها أطيب أطعمتها، وأنها سوف تنتظر عودته طويلًا ولن تمل..

ستقاتل الوحشة والغربة وشعور الوحدة المنفر وهم يطوفون من حولها من غرفة إلى غرفة ومن زاوية إلى أخرى، تستحضر طيف إخوتها فتأنس الروح وتهاتف أمها مرتين بحجج فارغة



حتى يمضي بعضًا من الوقت الطويل دون أن تشعر بثقل حركة عقرب الساعة ورتابته..

تصنع الوهم وتصدقه حتى ترسو مراكبها التائهة، هذا أفضل من ترك باب الظنون مواربًا فيقحتم قلبها مالا تريد أن تراه، عليها أن تفتح لقلبها بوابات الأمل والسكينة والغد الذي تحلم فيه وتغلق عنه مادون ذلك..

وجدت الساعة تخطت العاشرة مساءً بنصف حين اعتدلت من غفوتها فوق ذراع أريكة الردهة لترمق البهو الساكن من حولها بأعين خاوية، تناولت هاتفها من جانبها، استخرجت اسمه وظل إبهامها معلقًا فوق بقعة الإتصال، هل تفعل هذا الشيء الثقيل أم تنتظر بعد، لكن إلى متى؟.. من الصباح وهي تنتظر، توجس قلبها قلقًا بمكروه قد أصابه، وهنا كان الأمر محسوم بوقوف جسد متوتر وإتصال، في الوقت ذاته أعلن الباب عن عودته، تقابل كلاهما بين الطنين المنبعث بإزعاج من



بين أصابعه ويدها العالقة فوق أذنها، أنزلت يدها على مهل، تقتطف من بستانها الذابل تبسمًا رقيقًا تستقبله فيه وتبرر في الحال بنبرة خجلة:

- أما اتأخرت قلقت عشان كده كنت بتصل، حمدالله على السلامة..

هرب من لقاء نظراتها بقوله الفاتر والجاهز فوق طرف اللسان:

- ضغط شغل وطبيعي أتأخر..

قال هذا واستدار ناحية الغرفة مكملًا جملته الجافة من وراء كتفه:

- وأما أتأخر مفيش داعي تستنيني..

زفرت بصبر وخطواتها تتبعه، تغض الطرف عن الكلمات ومحتواها الجاف بقول لين ويدين مدتهم ناحيته:

- هحضر لك العشاء..



طالع يديها بجهل فمال بصرها فوق سترته الكامنة بين أصابعه:

- الجاكيت..

تناولته منه وتحركت ناحية خزانة الملابس تعيده إلى موضعه والكلمات تنقر رأسها من الخلف:

- ماتحضريش حاجة، أكلت بره..

توقفت يدها في موضعها عن العمل للحظات قبل أن تعيد غلق الخزانة ببطء والاستدارة إليه بمواجهة:

- ناصف..

و"ناصف" يحيا في كرب الأيام بعد أن ذهبت السكرة وبقيت الفكرة، فكرة خلوته بامرأة كما تنص الحقيقة هي زوجته ومن المفترض أن يتعامل معها كزوج، يبدو كل شيء مشوهًا بزيف، والعالم كله يطبق فوق صدره ويتركه مخنوقًا تتكالب عليه الهموم..



شعر بها تجاور جلوسه المتحفز فوق جانب الفراش في تردد وبصر هارب نحو كل العالم إلا عينيه:

- اللي حصل ليلة كتب الكتاب مجرد موقف وعدى، عزيز ابن عمي و اتصرف على الأساس ده مش أكتر، خلينا نتخطى اللي حصل كله عشان مانفضلش و اقفين في نفس النقطة..

والثورة والغضب والبحر الهائج بعينيه حق مكتسب بعد ذكر المعني:

- مين عزيز ده أصلًا عشان أعمل له اعتبار..

نفضتها زعقته في محلها واستطرادته التالية كانت أقرب لصياح آمر:

- مش عايز اسمه يتقال تاني في بيتي، مفهوم؟..

رفعت كفيها في محاولة تهدئة للوضع المحتدم:



- تمام، مفهوم، أنا بس كنت بوضح الموقف عشان شايفاك متضايق..

أشاح بوجهه جانبًا دون جواب، علته به، في داخله، والغضب الذي يكبحه بين أوردته يتركه متلظيًا فوق صفيح ساخن..

- إيدك مجروحة؟..

عاد برأسه مع نبرتها الخافتة، طالع كفه التي أشبعت الجدار بكلماتها فتركت آثارها الخشنة إثر تهتك الجلد فوق ظاهرها، احتوت يده بين كفيها وإبهامها يمسح عن جروحه برفق ناعم..

وجرح الفؤاد من يمسح عنه ويداويه؟..

طرق السؤال رأسه وهو شاردٌ في يده الكامنة بين يديها وجانب وجهها المائل فوقها باهتمام، تعامله بلطف شديد وتستقبل كل شحنات غضبه بقبول يثير فيه الغضب أكثر لأن هذا تمامًا ما يكبر الذنب فيه ويجعله غير محتمل..

سحب يده من بين أصابعها ببطء وقول خافت:



- جرح بسيط ماتشغليش بالك..

تدفق الضيق في قلبها بفيض غزير وهي تشعر بحالها غير مرحب بها، كأنما لا يطيقها لشخصها، وهذا تمامًا مالا تستطيع تمريره أو غض الطرف عنه:

- هو صدر مني حاجة أو تصرف ضايقك؟..

سألت وعينها في عينه، متجاورين فوق فراش جمع بينهما كزوج وزوجة، وهذا أيضًا ما لا تستطيع تفسيره، ولا هو هنا يستطيع، لذا أجاب بإيجاز:

- لأ..

- أمال إيه طيب..

تسأل والحيرة تطوف بعينيها، تردف بغصة ما مستقرها الفؤاد:

- مالك؟..



تصمت هنيهةً، تنكس برأسها، ثم ترفعها وتعود إليه من جديد، تلاقي عينيه خامدة الروح بحيرتها وارتجاف غير ملحوظ رافق حروفها الخافتة:

- ندمان إنك اتجوزتني؟..

- مفيش حاجة من اللي في دماغك، أنا بس مخنوق شوية بسبب مشاكل في الشغل..

قال هذا بجفاء ومباعدة قبل أن ينهض مغادرًا الغرفة، ظلت تتبعه بعينيها حتى اختفى من أمامها مغلقًا الباب من خلفه لتعود برأسها عن التفاته وأصابعها تقبض فوق الفراش البارد من تحتها، تجاهد وتكابد مايعتمل فيها بأعين تائهة..

في النهاية، اهتز جسدها ببكاء.



رداء الماضي أكثر ثقلًا من خطيئة حية..



يريد خلعه وإسقاطه عنه، بكل النقص والخطايا والألم المتواري بين ثنايا خيوطه، وفي ذلك يكمن نصف النجاة، نصف طريق الشفاء..

وهو به إرادة خطى بها نصف الطريق، يريد الحياة، ضاقت نفسه ذرعًا من سياج الماضي التي تحجب عن روحه براح العيش، أتعبته برودة الكهف، مل طول العتمة والوحدة..

حين اتخذ خطوته من قبل عادت أقدامه إلى الوراء قبل أن يثبتها على الطريق، لم يستطع أن يفعلها، الأمر أشبه بالوقوف عاريًا أمام الغرباء، تكشف لهم عن سوءتك بلا ساتر، تكشف لهم عن خبايا نفسك الدفينة، ترفع الغطاء عن أشد لحظاتك قتامة وبغضًا وتقابل وحشك الكامن بلا حاجز، وإن كان هؤلاء الغرباء طبيبًا يأخذ بيده إلى طريق الشفاء..

لكنه اليوم هنا أمام الطبيب الأربعيني سيفعلها، لأجل نفسه، لأجلها، تلك التي أمسكت بيده رغم كل المرات التي تخلى فيها..



سيفعلها لأنه يبغي الحياة في المقام الأول..

منذ نصف الساعة وهو يحدث حاله بهاته الكلمات، يدفعها دفعًا للتقدم، لكن أقدامه الثابتة هناك مايعيق تقدمها..

لم ينطق سوى كلمة واحدة حين سأله الطبيب عن اسمه في بداية تعارف ودود:

- أسمر..

حين تكلم الرجل وهو ويضطجع فوق مقعد مقابل بوضع يوحي بأريحية بوح وتقريب مسافات كأصدقاء قدامى جمع بهم الزمن بعد طول فراق لا معالج ومريض:

- تحب نبدأ منين يا أسمر..

لم يستطع التحدث، مر الكثير وهو متصلب الجسد والبصر معًا، عندما استطاع التحرك حمل هاتفه المرتاح إلى جانبه ونهض مغادرًا دونما التفات، دون أن ينبس ببنت شفه، ظل



رابضًا بسيارته لوقت طويل حتى انتهى به الليل ضيفًا ثقيلًا لا يزوره النوم إلا لمامًا..

الآن، في الوقت الراهن حيث العمل كله بقي من خلفه وهي من أمامه، يفصل بينها وبينه نافذة ومسافات لا تذكر، كان يراقبها في صمت..

تجثو برفق حتى تضع للقطيطات مأكلهم ومشربهم كفرض أبدي لا تنساه أبدًا وهذا الزجاج العاكس الذي يقف من خلفه يمنحه حرية الشوف ويبخل عليها بالمثل، يراها واقفة عاقدة الذراعين في هذا الطقس القارس وشدة الهواء تكاد تقتلعها بينما تراقب الحيوان الأليف بشرود لم يكن يستوضحه حتى يفسره، وإن فسره ربما لم يكن ليعرف أنها لا تشرد ولا تغيب ذاكرتها إلا معه وفيه، وأنه رغم غضبها وحنقها من تجاهله لها منذ أيام لا تستطيع إلا أن تفعل، لم تكن تعرف بدورها عن حاله المتوتر والمثقل بزيارة الطبيب التي لم تسفر عن شيء،



يظنها غاضبة لتجاهله لذا لم تحاول الاتصال ولو لمرة ولو كان بإمكانه البوح لأخبرها أنه لم يستطع، هو فقط لم يستطع، لا يريد أن تشعر أو تراه بهذا الحال البائس المتأرجح فوق صفيح الإرادة والتخاذل، هذا الأمر يترك بداخله أثرًا سيئًا لا يطاق، يحتاج أن يثبت أقدامه قبل أن يدعوها إلى اقتحام عالمه من جديد..

طرقات سريعة و اقتحام عملي من مساعدته الشخصية أخذ برأسه إلى الاتجاه المعاكس، تركت قهوته فوق المكتب على مهل وبملامح باسمة رفعت رأسها تخبره ويدها تشير ناحية ما أحضرت للتو:

- بعتتهم الدكتورة مع إبراهيم السواق ووصتني أقدم لك منهم مع القهوة..

طالع قطع البسكويت الراقدة جوار قدح قهوته بنظرات صامتة، شعر أنها طالت حين رفع رأسه فوجد مساعدته



مازالت و اقفة تتطلع إليه بذات الوجه الباسم لم تتخلَ عنه حتى فرقع لها إصبعًا أمام وجهها محركًا رأسه باستفسار لاقته بنحنحة معتذرة واستدارة سريعة..

امتدت يده إلى قرصٍ من البسكويت، قلبه بين أصابعه قبل أن يستقر في النهاية على وجه الإبتسامة التي تحمل واجهته، إبتسامة دفعته ليخط مثلها فوق ثغره ولو بشكل طفيف..

احتاج للحظات من التردد قبل أن يتناول هاتفه من أعلى المكتب ويعود إلى النافذة حيث هي مازالت هناك، أجرى اتصاله بها وهي أمامه، تخرج خاصتها من جيبها على مهل قبل أن تجد اسمه فتتجمد للحظات ثم تستقبله بإستجابة..

ثلاثون ثانية مرت بصمت تام..

ف"مريم" الغاضبة ترسل له البسكويت لأنها تهتم لشأنه لا مشكلة لكنها لن تبدأ حديثًا أبدًا، وبصمتها أتاحت له الفرصة حتى يتكلم أولًا:



- إزيك؟..

ربما وصلته تنهيدتها الخافتة وربما هي مجرد وهم افتعله خياله:

- الحمد لله بخير، إنتَ عامل إيه؟..

- الحمدلله..

تمتم بها وسكت، فلم تجد غير الكلمات تتسرب من فمها عاجزة عن كبحها وقد خالطها بعض العتب:

- ليه ماجيتش كتب كتاب دهب؟ فضلت مستنياك على أساس هتيجي!..

تنهيدته هو كانت مسموعة لأذنيها:

- كان عندي شغل ماقدرتش وكلمت والدك إعتذرت منه..

هتفت بحدة مختصرة:

- تمام..



دون قرب يستطيع أن يرى العبوس الذي احتل وجهها عقب هذه النبرة، طالع القرص القابع بيده، أخذ يحركه بين أصابعه بإستدارة قبل أن يخبرها بهمس خافت:

- شكرًا على الهدية..

نسيت حنقها السابق وارتسمت فوق ثغرها عذوبة هامسة بالمثل:

- بتنسى نفسك ومش بتأكل، عجبك طعمه؟ أنا اللي عملاه..

وجد حاله يرفعه إلى فمه، اقتطف قضمة صغيرة تذوقها في الحال قبل أن يعود لها بجواب:

- حلو قوي، تسلم إيدك..

ردها ثابت لا يتغير، في الغضب والابتسام، في الحضوروالغياب:

- يسلم قلبك من كل شر..

حين امتد الصمت مع نفاذ الكلمات افتعل استعجالًا:



- مضطر أقفل، ادخلي الصيدلية الجو برد..

مع لفظ جملته ارتج رأسها للأعلى، تخبط بصرها دون رؤية واضحة ويدها ارتفعت بلا إرادة في إشارة سلام جاور همسها المودع وعنه، لم يترك النافذة حتى رآها تضم معطفها من حولها وتدلف في الحال..

لم يطل بقاؤها، كان الجو غائمًا ويحمل نذرًا قريب بهطول الأمطار، عادت إلى البيت قبيل المغرب، ساعدت أمها في إنهاء وجبة الغذاء المتأخرة، ثم كالعادة تستلم هي ترتيب المطبخ عن أمها لأن "ندى" لا تشارك بأعمال المنزل هذه الأيام بكونها تحظى بمنزلة العروس المدللة الراحلة خلال أسبوعين من الزمن، أما الصغرى اختارت أن تدلل حالها لأنها فتاة في مقتبل مسيرتها الجامعية الآن ولديها الكثير من الأمور التي تشغل يومها وترهقها، ونكاية بكلتيهما أخبرها أبوها وهما يرتشفان شاي ما بعد الغذاء:



- غيري هدومك يا مريم..

- خيريا بابا؟..

- نازل وسط البلد، تعالي معايا أخلص مشواري ونتمشى شوية..

نهضت في الحال حيث تلك الشوارع الأنيقة تحمل لها عشقًا خاصًا ولا سيما في فصل الشتاء، رفض الأب رفضًا قاطعًا أن يصطحب أيًا من الأختين اللتين تعلقتا فيه بإلحاح وتشبث هو برفضه بكونه لا يريد اصطحاب أحد غير حبيبته "مريم"، حين فقدتا الأمل في الخروج ضربت "رنا" بقدمها الأرض بسخط وتذمرت العروس بتذكر:

- طيب إيدك بقى على ألف جنية ناقصني شوية رفايع..

مسكها أبوها من قبتها، قربها إليه بتهديد:

- هي الرفايع اللي خربت بيتي دي مابتخلصش ليه؟..

- الله؛ و أنا مالي يا سيد، كل العر ايس كده..



- مفيش حاجة تاني هتتجاب، خلاص شطبنا..

- يرضيك يعني ابن أخوك يعايرني ويقولي ياللي جاية من غير رفايع؟..

- آه يرضيني، يلا يا مريم، يلا بنتي سيبك منهم جوز المجانين دول..

ضحكت "مريم" وعلقت يدها بذراعه الممدودة لها ليغادرا معًا، دور واحد من الدرجات هبطاه حتى اصطدما بوجه "عبدالرحمن" الذي اتسعت ابتسامته حتى ملأت وجهه مقابلًا عمه بذراعين مفتوحين:

- في حما قمر كده؟ والنعمة أنا محظوظ..

وفي كل مرة يتبع قوله بعناق حار مقبلًا وجنته بقوة حتى يبعده العم قسرًا مصطنعًا ضيق النفس فيغمزه بعبث وإغاظة:

- بنفك الترابيس عشان بنتك..

- يلا ياااا....



في الغالب يتممها العم بمزاح ذكوري فج بتره هذه المرة لأجل حضور ابنته المتعلقة بذراعه وتشاركه الخطى الهابطة في حين كانت الأخرى تتسلل فوق أطراف قدميها داخل خفها البيتي ويدها تنشب في ظهر الو اقف باحثًا عن مفتاحه، جذبته قبل أن يدلف فاستدار، أخذت بذراعه تسحبها ناحيتها بقوة:

- تعالى اتغدى عندنا، عاملين محشي..

أوقفها مقلبًا الأمر في رأسه لثوانٍ أعقبه برفض:

- لا الحاجة أمي كلمتني ومستنياني..

كورت قبضتها ولكمت كتفه بقوة مغتاظة:

- أنا غلطانة، روح لأمك..

أمسك يدها التي لكمت وقام بلفها خلف ظهرها بحركة خاطفة بينما الأخرى جعدت مقدمة كنزتها الصوفية بقوة قربتها منه لدرجة خطيرة:



- إيدك طولت يا ندى؛ هاه..

حركت له حاجبيها باستفزاز، تكبح ضحكتها وعينها تشير إلى موضع يده:

- إنتَ قد الحركة دي؟..

- قدها هتعملي إيه؟..

- ممكن أضرب تحت الحزام..

انفلتت ضحكتها الماجنة فعض فوق شفته السفلى وظل يقترب من وجهها ويقترب حتى انبثق وعيد أبيها الراحل لا يدرون من أين..

"أقسم بالله لو طلعت همسح بكرامتكم الأرض"

انتفض كلاهما بإبتعاد سريع ورنت الضحكات مابين ركض ابنته لأعلى ودخول ابن أخيه السريع صافقًا الباب من خلفه،



حين وصل الوالد إغلاق الأبواب عاد إلى الواقفة، سحبها من جديد زافرًا بحنق:

- أنا مش فاهم لازمته إيه الفرح ووجع الدماغ ما كان خدها على كده وخلصنا..

رفعت يدها الأخرى حتى بات ذراعه في موضع احتضان وهي تجاريه في سير خطواته السريعة وغيرته المفضوحة:

- يا بابا سيبهم يفرحوا..

- وهو أنا كده ماسكهم..

- آه ساعات بتحبكها..

- يعني أربي وأكبر وفي الآخر ياخدوكم على الجاهز..

مالت بوجنتها فوق كتفه وسترته الدافئة، تتمسح فيه بمراضاة:

- ماحدش يقدر ياخدنا منك أبدًا، ده إنتَ حبيبي..



رمقها بطرف بصره في عبث:

- أنا حبيبك وسي أسمر إيه؟..

تبسمت ورأسها تهتز في صمت وقلة حيلة من طرافته الماكرة..

لم يكن له حاجة بالنزول، هو فقط أراد أن يختلي بها ويمنحها حرية البوح، داخل واحد من مقاهي المنطقة التي تعج بالرواد والأغاني العتيقة، جلست وإياه جنبًا إلى جنب، طلب لها مشروب الشيكولاتة الساخنة التي تفضله وأخذ هو قدحًا من الشاي المنكه بالقرنفل..

ارتشف من مشروبه ببطء وحدثها بحنو أبوي:

- أنا وأمك حاسين بيكِ على فكرة، اوعي تفتكري أننا مش واخدين بالنا من حالك، احنا بس سايبينك على راحتك وقت ماتحبي تتكلمي..

أبقت بصرها فوق مشروبها، تدور فوق حافة الكوب بواسطة سبابتها وتهمس بخفوت:



- أتكلم في إيه يا بابا، أنا كويسة..

أحاط كتفيها بذراع، يقربها منه ويدنو إلى أذنها بجدية تامة لا تحمل أية مزح:

- كويسة بجد ولا كده وكده؟..

صمتت بتنهيدة كبيرة فعاد يحدثها من جديد بذات النبرة المهتمة:

- بصي يا مريم، قلتي جوزي مشغول وهقعد معاكم فترة، احنا مسألناش عن تفاصيل عشان بيت أبوكِ تقعدي فيه العمركله معززة مكرمة، بس أما نشوفك أغلب الوقت متضايقة وتحاولي تداري لازم نسأل في إيه؟..

سكت هنيهة وهي على حالها صامتة مستمعة، سألها دون مواراة:

- جوزك مزعلك ومش عايزة تقولي يا بابا؟..



نفت برأسها وهمسها:

- لا والله يا بابا أبدا..

- طيب حد من أهله داس لك على طرف؟..

- خالص يا حبيبي بالعكس..

- أمال إيه طيب، جوزك عيان لاسمح الله ومخبية؟..

ارتجت برأسها وبصرها الجاحظ ناحيته:

- يالهوي يا بابا بعد الشر عليه..

ضحك بمناكفة فضحكت:

- شوف البنت اتخضت إزاي..

ضبطت ضحكتها بوقع تبسم لطيف زين محياها وهي تلاقيه بصدق الكلمات:

- متقلقش عليَّ يا بابا، هو فعلا في شوية مشاكل صغيرة كده وبنحاول نحلها مع بعض، ماتشغلش بالك أنا كويسة والله، ولو في حاجة تستحق أكيد هلجأ لك بدون تفكير..

شد على ضمها تحت ذراعه تاركًا شفاهه تلثم جانب رأسها بدفء قلب:

- أنا مش عايز غير أكون مطمن عليكِ وأشوفك مبسوطة وبخير..

مادام هو هنا ترتكن إليه فيسندها لن تخاف، يكفيها هذا القدر من الأمان وربتة السكينة من يده الحانية لتصدق وتتيقن بصبر أن القادم أفضل.



لا يتبع وهمًا ولا يشتري حماقة..

إنما كله باليقين، بالسعي، لن يأتي المراد ونحن نقف لا نحرك ساكنًا، نكذب الأمل ونملأ قلوبنا بالهزيمة دون سجال..



هو تعلم أن يأمل ويحلم ولو من خلال ثقب إبرة، هذا الشيء الضيئل يكبر حين نصدقه، ونصدق أنفسنا من قبل، حين نقول نستطيع فإننا نستطيع..

مدونة إلكترونية تكفل حرية التعبيرعن الرأي في عصر النهضة التكنولوجية الحديثة و إنطلاقها بين أروقة العالم كانت فكرة زملاء العمل في دعم القضية التي يحارب لأجلها وتم إيقافه عن العمل في سبيلها، خطوة جادة أخذت حيز التفعيل في الحال بحماس شبابي منقطع النظير، حملات توعية تشن وأعداد كبيرة تستجيب، الحقائق تذاع والعالم يتحرك..

العالم يتحرك وأمه على حالها!..

تنهي أمور مطبخها وبيتها، تصنع مشروبها الدافئ وتجالسه مزاحمة رأسه المشغول بفكرة العروس لا سيما وهو قرين البيت هذه الأيام..

- شوف بقى أنا جيبت أخري معاك..



تقتحم خلوته داخل الشرفة، تجاور جلوسه حول الطاولة المستديرة قاطعة انغماسه مع حاسوبه:

- لا إله إلا الله، ليه كده أنا عملت إيه؟..

وضعت الأكواب عن يديها بحدة فعل وقول:

- لا بقولك إيه سيب البتاع ده وبص لي عشان ما اتعصبش عليك..

رفع لها يديه في استسلام مرح:

- أنتِ جاية من جوه متعصبة، ماعملتش أي حاجة والله!..

استرخت في جلوسها، تأمره بصرامة مازالت تجيد رسمها فوق وجهها:

- إشرب السحلب ده خليه يدفيك الأول..

- حاضر..



تمتم بها مغلقًا جهازه، ضم دثار الصوف الذي يتلحف به حول جذعه ورأسه ثم تناول مشروبه الأبيض واسترخى مثلها مستمعًا لوصلتها التي لا تمل ولا تكل من تكرارها:

- صلي على النبي..

- عليه أفضل الصلاة والسلام..

شدت من شالها حول كتفيها ويدها تمتد له بلقاء أصابع في استفهام:

- دلوقتي إنتَ ناوي تريحني ولا هتفضل كده تاعبني؟..

طقطق لسانه معترضًا:

- الله يسامحك يا فوز، بقى أنا تاعبك؟..

وهي حازمة الليلة، لن تترك الأمر يأخذ سبيل المزاح وينطوي تحت جنح الليل دون فائدة:



- طبعا تاعبني، أما أشوف الكبير والصغير شايف حياته و إنتَ قاعد لي كده لازم أتعب..

لا تمنحه فرصة الحديث، تطرق فوق الحديد الساخن بمبدأها الذي تعرف:

- يا ابني يا حبيبي ده الست تملا عليك دنيتك، تشوفلك لقمتك وتغسلك هدمتك..

ناوشت البسمة ثغره من فوق حافة الكوب بينما يخبرها:

- ما أنتِ شايفة لقمتي وهدمتي ومالية كل دنيتي..

حدجته بنظرة نصفها خبث ونصفها مكاشفة:

- هتتلائم ياواد؟ طب تدفي فرشتك وتآنس وحدتك، تناغشك وتناغشها، تناكف فيك وتناكف فيها بدال لفك طول النهار وتيجي آخر الليل تتكلفت باللحاف وتقولي سقعان سقعان..

قهقهة رجولية سرت ليلًا واستقرت بقلبها:



- اضحك؛ اضحك بكرة أما تعرف قيمة الست جنبك تقول أمي قالت..

مازحها بقسماته الضاحكة:

- مش سهلة أنتِ يا فوز..

رفعت ذقنها في تباهي وطيب الحديث يأخذها حيث الأيام الخوالي:

- طب تعرف؛ أبوك ده كان يخلص شغل ويجي جري على البيت، يلاقيني مجهزة له اللقمة الحلوة والهدمة النضيفة، ولو البال رايق كنا نشغل الست ولا عبدالحليم ونسهر ويا بعض للفجر، كان دايما يقولي حسك مونس أيامي..

جلجلت ضحكاته من جديد قبل أن يغمزها بعبث:

- وخلفتونا بقى في ليالي الروقان دي..



وارت ضحكتها المغمورة بخجلها الفطري قبل أن تعود لسيرتها الأولى معه:

- ها قلت إيه؟..

أغمض عينيه بقوة فاركًا مابينهما بأصابعه قبل أن يعود لها متنهدًا:

- قلت حاضر..

- يعني هتفكر في الموضوع بجد وتقولي إختارت فلانة يا أمي ولا ده كلام فض مجالس عشان تسكتني؟..

دنا آخذًا بكفها مقبلًا ظاهره في تبجيل:

- لا بجد عشان أريح قلبك وتبقي راضية عني، ادعي لي أنتِ بس يا أمي ربنا يفرجها وأرجع شغلي..

أحاطت وجنته بذات الكف القابع بالقرب منه، تربت عليه وكل مافيها يتسم بالرضا:



- ربنا يراضيك ويرضى عنك يا نورعيني و أفرح بيك مع اللي تليق لك وتسعدك..

خبط فوق الطاولة في مقاطعة بتذكر:

- شوفتي خدتيني في الكلام ونسيتيني مشواري..

- هاتروح فين دلوقتي؟..

- مشوارفي السريع كده وراجع، عايزه حاجة من تحت؟..

- عايزه سلامتك يا حبيبي، تقل هدوم بس و أنت نازل..

بدل ثيابه ونزل في الحال، أوصل الأمانة الشهرية للحاج "سلامة" الذي استقبله بترحاب شديد ككل مرة، بعد وصلة أحاديث سريعة جمعت بينهما تنحنح الرجل في تردد لم يطل وراح يلقنه ما في خاطره:

- شوف يا عبدالله إنتَ عندي زي مصطفى ابني تمام، من أول مرة دخلت فيها بيتي وقلبي اتفتح لك ربنا العالم..



ربت فوق ساق العجوز بمحبة وحبور:

- ربنا يكرم أصلك يا عم سلامة، ليا الشرف أكون زي ابنك..

ربت الرجل فوق يده متبسمًا ومتابعًا فيما يريد الوصول إليه:

- أنا خلاص رجل بره ورجل جوه زي ما إنتَ شايف..

- ربنا يرزقك الصحة ويبارك في عمرك يارب..

صمت الرجل هنيهةً متنهدًا في تعب ثم تابع:

- طالت ولا قصرت يا ابني آخرتها رحيل، هي حاجة واحدة بس شاغلاني، ماعنديش أغلى منها ونفسي أطمن عليها قبل ما أقابل وجه رب كريم..

أنصت له بإهتمام وإجلال كبيرين فاستطرد الرجل بإتمام:

- أنا بطلب منك تتجوز فاطمة بنتي يا عبدالله على سنة الله ورسوله..



ما إن أنهى الرجل كلماته حتى وجد محياه الباسم يتقلص رغمًا عنه!..



لكل خطيئة عقاب ولكل سقطة ثمن..

والليلة هي تتم ثمن خطيئتها، تصحح خطأً فادحًا اقترفته في صفحتها، تمحي لطخة عارلم يفتأ الشقيق أن يسكت عنها حتى يذكرها كي لا تنسى..

الشقيق الذي يأخذ الأمر كله على عاتقه ويريد إغلاقه بأقرب وقتٍ ممكن و اقفًا أمام طوفان العائلة التي أبدت اعتراضًا كبيرًا تهاوى أمام إعلان مو افقتها ووقوفها في صف أخيها الذي اختلق أمورًا كثيرةً اقتنع بها البعض ولم يفعل آخرون، لكن لا يهم ما دام ما يريد يمضي في طريقه الصحيح مثلما تمضي هي الآن كمن تُساق إلى سرادق عزاء لا للزواج..



تم الأمر في شقة الجدة وتحت ناظري الأعمام والأهل رغم موقفهم الر افض..

في النهاية كان يجب أن يتم الأمركما تقتضي الأصول..

زوجتُك موكلتي..

قبلتُ زواجها..

وزغرودة باهتة التفاصيل ناسبت الوضع القائم ووجه "عزيز" المغبون، الصامت..

ما إن تم عقد القران ودون إنتظار حمل العروسين وغادر بهم حيث منزلهم، تنطوي المسافات تحت الصمت المطبق والأنفاس المثقلة وقلقلة "سعد" المبتهجة كمن قدم معروفًا لكل العالمين:

- وحدوووه، ماتسمعنا صوتك يا أبو نسب..

لم يسمعه "عزيز" حتى ينظره، بقي على صمته الكبير خلف طارة القيادة وطرفة عينه الرتيبة تبعث الشرررغم السكون..



التف "سعد" برأسه إلى الخلف مطالعًا عروسه الصامتة كأخيها، محدثًا إياها بمرح مفتعل وإبتسامة واسعة سخيفة المعنى والمظهر:

- ماسمعتش مبروك منك يا عروسة..

حدجته "عبلة" بنظرة جانبية لم تخفِ عنها قرفها من لزوجته وسماجة كلماته وضحكه الغير مبرر قبل أن تعود إلى النافذة بعينيها وذراعيها معقودين فوق صدرها بصمت آخر..

دلفت بأقدام مثقلة إلى بيت الزوجية الذي تم إعداده كيفما اتفق وبما منحته الستة أيام من وقت، أعينها الواسعة تشمل الوضع كله بنظرة بدت كأنها تسكب الكآبة في هاته اللحظة..

ترك أخوها حقيبتها الضخمة إلى جوارها واستدار ليرحل دون أن ينبس بشفه، أمسكت بذراعه ونداءها الخافت يستجديه:

- عشان خاطري يا عزيز..



تستجديه وتتوسله أن يغلق الأمرهنا، أن يعي بكون الذنب ذنبها وهي ارتضت دفع الثمن بالزواج من هذا الكائن الذي لا تطيق، ارتضت ومضت قدمًا فيما أراد فلينهي المسألة ها هنا، لكن رده جاء في نفض يدها عنه ونظرته تطعنها بالمنتصف، هي مثلهم جميعًا طعنت ظهره وأهدته الخذلان على طبق من فضة..

خلفها من ورائه تسدد دين خطيئتها بمفردها وذهب حيث بقي نصف عمله عالقًا، كل مخطىء سوف يدفع الثمن، كل من أجرم في حقه سيقتلع حقه من بين عينيه وأول هؤلاء أقربهم للقلب..

وصل البناية التي تقطن فيها وزوجها الحقير_كما ينعته_ في تمام الحادية عشر مساءً، لم يجد سبيللا للدخول والبوابة الرئيسة موصدة، بقي داخل سيارته رابضًا مراقبًا البوابة حتى انفرجت في الصباح الباكر مع خروج أحد ساكنيها، حينها



وجد حاله يتسلل سريعًا، أكل الأربعة الأدوار بقفزات متتابعة فوق الدرج..

طنين جرس الباب المتواصل أيقظ النيام بقلوب وجلة طرقها الفزع، ما إن فتح "ناصف" الباب وقبل أن يعي ما يرى ويحدث في هذا التوقيت كان قد سبقه القادم بتحية:

- وكمان لابس لي روب...

الجملة رافقت الجبهة التي ضربت منتصف الوجه تمامًا، دفع به إلى الداخل ودلف بعده صافعًا الباب من خلفهما بقوة ارتجت لها الجدران!..



(24)

على حافة الأفق سردنا الحكايا..

مابين خطيئة وخديعة..

سقوط ونهوض..

بقاء ورحيل..

قتال الإرادة والتخاذل..

نضال الخيروالشر..

نمضي سيرًا فوق ذاك الحد الرفيع حاملين فوق عاتقنا بغية العيش، الحلم والأمنيات، خبايا الضلوع ومكنون الفؤاد، تنطوي بنا الحياة ونحن رهناء هذا المطاف لا نحيد..

نعل الضمير يثقل الخطوة فيخلعه البعض ويرفض آخرين، يسقط حلمًا، نراه يتهاوى مهشمًا بلا صوت حيث اللاشيء هو



المنتهى، ينشطر الفؤاد في رحلة العمر وجميعًا مجبولون على المضي قدمًا، الزمن لا يتوقف مادام النبض فينا حي، لكن وحدنا نختار متاع أحمالنا، وحدنا نقرر حين ينتهي بنا وقت المسير إلى أي وجهة نريد أن نصل..

يحدث أن نختار وجهة لا نبغيها حين تفقد بوصلتنا خاصية الإرادة، حين نُسقط عنا أحقية الاختيار، وقتما تثقل خطانا نوقع عنا الذنب باعتراف، بمكاشفة مع النفس نرتضي فيها العقاب حتى ننجو من شر السقوط..

وهي ارتضت العقاب بطيب خاطر حتى تكفر عن خطيئتها، خطيئتها التي تقف أمامها بعين النادم المتلحف بإزاء الاعتراف، لا تحمل أحدًا من أمرها شيئًا ولو مثقال ذرة، هي هنا نتيجة ما اقترفت يداها وسوف تتحمل هذا حتى تصل لنقطة ارتكاز تمنحها أحقية الشعور بطهارة الروح والبدن..



يدها من خلف النافذة تزيح الطبقة الرقيقة وتتشبث بها أصابعها، بصرها يرقب رحيل الشقيق بعد أن أودعها مثواها الأخير، قلبها المهموم تقبضه أصابع الخوف من نو اياه الخفية، لا تدري عما ينتوي لكن ما ظهر في عينيه المصمتة بغضب بارد لا يعني الخير أبدًا..

- الليلة في قمرين، واحد في السما والتاني و اقف قصادي..

تلاقت ضروسها وأجفانها بتنهيدة مكتومة، يدها الحرة تدفع بصدره و أنفاسه المقتربة منها بخبث دون النظر، تقطع تودده البغيض باستدارة ووجه جامد لم تتكلف معه عناء تبديل قرفه الظاهر بأَنَفَة:

- بلدي قوي ده يا سعد..

مال جانب فمه بتبسم لئيم وقول اقترن مع طرف سبابة حطت فوق كتفها وراحت تمضي سيرًا على طول ذراعها:

- وماله نجدد بس ننول الرضا..



رمقت قربه الشديد بثبات وطيف تبسم جامد تعلق فوق شفتيها بقسوة خالطت هسيس الأحرف الهادئة:

- بقولك إيه يا سعد؛ ماتخلع توب الجدعنة ده عشان مش مقاسك وخلاص عزيز مشي..

ضحكة ثعلب ماكر رنت بقرب، تبعتها يده المتسللة بخبث نحو ظهرها وراحت تنزح ببطء حتى أسفله فيما كانت النظرة تشتعل برغبة مفضوحة، همسه الفج لفح وجهها بحرارة أنفاس:

- نفسي فيكِ يا بيللا..

اتسعت له ابتسامتها القريبة مصبوغة بإشمئزاز، وهي بذات الجمود تحركت يدها توقف يده عند حدها وتدفع بها في غلظة وفظاظة:

- عارفة..

ثم استطردت بورق مكشوف:



- عارفة إنك بتستغل الوضع بأقذرطريقة ممكنة..

عرض زواج في ظاهره نية ستروفي باطنه كان يحمل طمع العالم والرغبة في جسدها، يظن أنها بذلك أصبحت لقمة سائغة سهلة المنال..

- بس ده عشم إبليس في الجنة..

قالتها له بعين قوية ويدها تدفع بجسده ليعود خطوة للوراء قسرًا، تحدج تبسمه المستفزبسخط من أعلى لأسفل وسبابتها تنقرجانب رأسها بقول أخير، صارم في حروفه:

- إن ماكنش بمزاجي، ماتحلمش..

انتهت وخطت أقدامها تطرق الأرضية بقوة، تأخذ بحقيبتها المتروكة عند الباب وتسحبها من خلفها بحدة اصطدمت بها خطواته التابعة وثعلبية الضحكة العالقة فوق ثغره لا تزول:

- ومين قال إن عايزك غصب؟..



ثم غمزها بفجاجة أثارت حفيظتها:

- أنا عايزك تطلبي و أنا ألبي..

- مُقرف..

بصقتها في وجهه قبل أن تدلف إلى الغرفة وتغلق عليها بابها، طقطقة المفتاح رافقت كلماته الباردة حد السخف من خلفه:

- نورتي بيتك يا دبدوبي..

بصقتها التالية كانت حقيقة بمعناها حتى لو وقف الباب حاجزًا يحيل رؤيتها، مسحت عن جبهتها شعورًا بالإعياء قبل أن تترك الحقيبة خلف الباب الموصد و أقدامها تخلع عنها الحذاء ببطء رافق سير خطواتها المنتهية خلف النافذة الصغيرة وبين يدها قبع هاتفها يشهد تشتت بصرها في تخبط، ترفع عينيها عنه لتتصادم مع قرص القمر الباهت ببعد وغيمات وقد عاد القلق يسطر خطوطه فوق القسمات والعقل يتيه بشرود مع الشقيق الغائب ونواياه..





في رحلة مسيركان البطل الأوحد في روايته..

رجل القلم والكلمة واضح النوايا..

يخوض غمار الحياة بنهج مستقيم لا يعرف للإعوجاج مسلكًا، لا ينظر إلى طول الطريق أو قصره بل يتطلع إلى منتهاه، طامعًا في غنائم حقيقية..

رحلة مسيركان فيها العقل دائمًا سيد الموقف، لم يكن للقلب مجالًا لحضور، ربما تعثر، تألم في زمان ما وعصفت دواخله بخواء الصاحب، لكن أبدًا لم تعلو كلمته، لم يكن عليه يومًا بسلطان، كان ومازال أميًا في دنيا العشق والنساء..

"أنا بطلب منك تتجوز فاطمة بنتي على سنة الله ورسوله"

فاجئه الرجل، أخذه على حين غرة لدرجة لم يجد ما يقال، ظل ساهم النظر حتى أطرق برأسه مجليًا حنجرته بحرج وتبسم بان



فيه التكلف والثقل الذي لم يكن ليخفى عن محدثه الذي عاد ليربت فوق ساقه بلين حديث:

"مش عايز رد منك دلوقتي، خد وقتك وفكر براحتك، أنا مش بحطك في موقف محرج لا سمح الله، أنا قلت لك إنتَ زي ابني، ولو يابني شايفها مش مناسبة ليك تقدر ترفض ببساطة"

تمتم له حينها في حرج بين، خاضعًا بحروفه لوضع التجميل..

"بنتك تستاهل كل الخير يا حاج سلامة، لو في حاجة مش مناسبة فهي أنا وظروفي"

"و أنا شوفت فيك كل الخير وإلا ماكنتش اتكلمت معاك وكلي عشم"

يعاود مطلبه بكلمات منمقة وينهي الوضع بينهما برفع الحرج ومنحه حرية التفكير والعودة إذا أراد القبول، أو تجاوز الوضع بتجاهل وصمت في حين كان قراره الرفض..



ظل هائمًا بشرود طوال طريق العودة، دلف إلى غرفته بذات الحال، وجه عابس بوضع تفكير، يخلع عنه سترته الثقيلة ملقيًا بها فوق الفراش الفارغ، يفك عن عنقه كوفية الصوف بحركة فاترة كحال يده مع الهاتف والمحفظة الجلدية وهو يضعهم فوق المكتب الصغير الفاصل بين السريرين..

- جيت ياعبدالله؟..

أخرجه صوت أمه من فقاعة الشرود جاذبة إياه إلى حيزالو اقع بالتفات ناحية الباب ومقابلة الصوت القادم:

- أيوه يا أمي، أنا هنا..

تمسكت بمقبض الباب ولسانها يحدثه بنبرة نعسه سبقها تثاؤب:

- طيب ياحبيبي أنا داخلة أنام، عايز حاجة؟..

طالع الفراغ من حوله بسؤال:



- عبدالرحمن فين؟..

- كنت سيباه هنا بيكلم ندى، تلاقيه طلع فوق..

- ماشي؛ تصبحي على خير..

اختفت عن ناظريه لوهلة عادتها سريعًا:

- في بسبوسة عاملاها منال، لو حبيت تأكل هتلاقيها في المطبخ..

أجابها بهزة رأس رحلت في إثرها، جلس فوق حافة الفراش معانقًا سجاد الأرضية الداكن بنظرة شاردة وفي رأسه كانت تدوي جملة بعينها..

"نفسي أطمن عليها قبل ما أقابل وجه رب كريم.."

لو تجاهل دوي الأحرف داخل نفسه لا يستطيع أن يفعل مع نظرة الرجل المتعلقة فيه كأنه طوق نجاة..

من بين أضلعه حرر تنهيدة كبيرة قبل أن يستلقي للوراء مضطجعًا وذراعه يحط فوق رأسه بتفكير حائر، لا يعرف



ماهية مايريد، لو عزل مطلب الرجل إلى جنب واضعًا كينونة الأمر تحت مجهر العقل لوجد الفتاة تُناسبه، لكن تحت مجهر القلب يجد حاله لا يشعر بأيما شيء، يستحضر العقل صورة فتاة أخرى جذبت الرجل فيه بخفة روحها لن ينكر، لكن ذاك الشعور سرعان ما اختفى بعد حين ولا يدري إن عاد ورآها من جديد هل سيعاوده أم هو في الأساس كان شعور مارق و انتهى..

حين يعود بالذاكرة قبل عامين ويزيد حيث عهد الخطبة المنتهية يجد في نفسه بهجة لا يجدها اليوم، هل الأمر متعلق بنضج الأيام أم للقلب في الأمر مسألة!..

حرك أهدابه بتنبه مستغفرًا بهمس مسموع لأذنيه باترًا عن عقله وصلة التفكير، الفتاة تزوجت منذ زمن ولعلها أنجبت الآن، ما باله يبدو كالأحمق تتلاعب به الأفكار من المشرق إلى المغرب دون فائدة!..

سوف يتحدث مع شقيقته، يفضي لها بحيرته فتجود عليه بمشورتها والصواب..

هكذا حسم الأمر مع حاله بقرار

والأرق رفيق ليله..



في رواية متعددة الأوجه قرر في لحظة تجبر أن ينال لحظة السطوة..

في حكاية تمدد فيها الوجع وتشعب أراد أن يكون فيها الجراح المستخلص للأرواح المعذبة بيد حادة لا تترد في لحظة البتر وإنما ترقب لحظة الاستشفاء والخلاص..

آلام الروح مُهلكة، منذ أسبوع وهو يتعايش بنصلين مغروزين في أعماق بدنه، واحد في منتصف القلب وجاء الآخر ليطعن أسفل الظهر..



هيئته الثائرة وهو يقتحم عليهم البيت في هذا التوقيت الباكر صنعت منه صورة أقرب لمخبول لاسيما والسواد والغضب يسوران عينيه بدمامة، قوة اللكمة التي ضربت منتصف وجه الآخر وجعلته يتقهقر للخلف بغير اتزان تعني أن ما بداخله يحترق، وأنه فاقد تمامًا لزمام السيطرة بينما يدفعه ويصفع الباب من ورائه بحدة ارتجت لها الجدران وقلب الراكضة خلف زوجها داخل الرواق بهلع استوطن جنبيها قابلت فيه حضوره وصياحه النافر في وجه المحتجز بين شرارت غضبه وقبضته:

- ماكفكش اللي أبوك عمله، بتتناوبوا عليها يا...

سُباب قذر، سُباب فج يتساقط عبر لسانه كقذائف حرب مشتعلة تضرب دون رحمة وهي تقف جوار الجسدين المتلاحمين في قتال مصعوقة مما ترى وتسمع ولا تفهم..



"ناصف" المأخوذ على حين غرة يفطن ويدرك ويشتعل، يتملك ويسيطر ويدفع بيد من حديد أسقطت بنصف"عزيز" فوق مائدة الطعام ليجعله تحت سطوة قبضته التي استدارت وارتفعت لأعلى بجل غضب ثم هبطت بأشد عزم فوق فك هذا المحترق:

- و إنتَ كنت فين..

يضربه لمرة ثم ينكب فوقه، يقبض على تلاتبيه ويصرخ في وجهه عن ذات قرب رادًا له صاع الإتهام:

- ماحمتهاش منه ليه، مش إنتَ راجلها المسئول عنها؟!..

بعض من إدراك عاد لها ودفع بأقدامها لتتحرك، أن تقترب من ساحة القتال وتجذب ذراع زوجها عنه وكل ما فيها يرتجف، العين والقلب واللسان:

- في إيه!..



تناظر الآخر الملتوي بألم صدغه بلمحة خاطفة وتعود للأول بذات الحال وارتعادة البدن:

- بتتكلموا عن مين؟!..

رفع"ناصف" اللاهث كفًا يمسح بظهرها عن فكه خيط الدماء السائل من جانبه، يحدج الدخيل المتبجح شذرًا ويشيح برأسه بعيدًا عنها وعنه فيما كان الآخر ينهض فاركًا صدغه وحممه لا تهدأ، يقابله بتبسم قاسٍ عنوانه الثأر:

- قولها، هات الحكاية من الأول خليها تعرف حقيقتك وحقيقة أبوك الكلب..

علت وتيرة صوته مع آخر الجملة وهم بلكمه من جديد لولا أن تفاداه الآخر بدفعه وأسرعت هي تقف في المنتصف بمنامتها المشجرة بأوراق الخريف كحال قلبها في هاته اللحظة وبهوت خصلاتها المسدولة فوق كتفيها بانهزام شابه روحها، تفرد ذراعيها من جانبيها عازلة بينهما بجسدها ورأسها يرتج ويلتف



مرة بعد مرة ناحية كليهما، تكابد ثِقل لسانها بهمس مختنق لا تتباحث فيه عن قول، هي زهدت القول والفعل والألم، ماعادت تريد أن تعرف أي شيء، تريده أن يرحل عنها ومنها وحسب:

- امشي يا عزيز..

و"عزيز" يشد على نواجذه ويقترب، يستحوذ على عينيها بسعيره المتفاقم حد علو ألسنته لخارج المُقل، كفها الممدودة بحائل تلامس صدره كلما اهتز بالجسد الثائر فتقلب جمره الراكز بقعر الفؤاد:

- جوزك و أبوه استحلوا عرضي وشرفي..

تخرج الكلمات بمرارة علقم يلوكه بين الفكين وينزل بعصارته إلى الحلقوم، يبصقها فتتساقط بأحرف زنخه:

- أبوه ضحك عليها و أتجوزها عرفي، اتجوزها في السر من وراء أهلها..



مبهوته، مصدومة، جاحظة العقل والعين:

- عبلة!..

تلفظ اسمها بغير تصديق وعقلها الباطن يستحضرصورة حموها فتصعقها الفكرة، يؤكد لها بهزة رأس شملها اليقين والاحتراق:

- أيوه عبلة، أختي..

يرفع عينين كارهتين إلى الماثل من خلفها بقسمات تنضح بغضًا وغضبًا في صمت و إنصات لقوله التالي الذي جاء باستطرادة سريعة وذراعه يمتد إليه بإشارة:

- بعدها اتقابلت مع الدكتورالمحترم في المركزبتاعه وحبوا بعض وكانوا ناوين يتجوزوا بس العلاقة الوسخة اتفضحت و اتحرموا على بعض..



بصرها الشاخص عليه جمد لحين حتى تحرك رأسها بتثاقل إلى الجهة الأخرى حيث يقف الآخر، زوجها، تقابله بلقاء أعين هرب عنه بمصادمة حانقة مع المتكلم فحمل لها سكوته الجواب..

عادت برأسها المثقلة إلى الأول وذراعاها المتصلبان يتدليان إلى جنبيها بانخفاض ونفحات الصقيع تهب عليها من كل حدب وصوب مع استطرادته الأخيرة بوتيرة خفضت عن سابقتها بخبو نبرة:

- البيه مكفاهوش اللي عمله أبوه و اتجوزك عشان يحرق قلبها، للمرة التانية يستحلوا عرضي وشرفي..

مع ختام قوله وجدت حالها تقابله بكليتها، يتفسر لدنها لغز زيجة شقيقته من صديقه الوضيع الذي يصغرها بالعمر ومتزوج من امرأة غيرها، تهتز عيناها بجنون ويعلو صوتها بحرقة ظهر فيها الغضب والبغض في آن:

- قلت لي عرضك وشرفك..



والغضب يصير ثورة، بركان الصلابة تفجرت فوهته بصياح وقبضتاها تضربان صدره وتدفعانه بحدة دون شعور:

- عرضك وشرفك سلمته لسعد؟..

تقابل عينها بعينه، يدار حوارًا سريًا خلال طرفة الأهداب، يجتر كلاهما العمر الذي جمع بهما في لحظة ويداها تضربان صدره من جديد والجنون يتلبسها هذه المرة بزعيق مخيف، بُحت الأحرف من شدته:

- سلمت عبلة لسعد ياعزيز!..

يوقف ثالثتها ذراع زوجها التي حالت بينها وبين الأول، يسحبها للوراء قسرًا وصيحتها الأخيرة مجروحة بألم حلقها، أطلقتها في وجهه رغم تقهقرها:

- صلحت غلطة بغلطة وسيبتها له؟..



بحدة وبغض دفعت يد هذا الذي يحتجزها عنه ساقطة فوق مقعد المائدة بتهالك، تحيط صدغيها بكفيها ولهاث قلبها وأنفاسها خاطب الفراغ بلوثة عقل وضياع:

- حرام عليكم، والله العظيم حرام..

قابله "ناصف" المتحكم في انفعالاته بثبات بدا مزلزلًا ويده تدفع بكتفه في غلظة:

- اللي استحل عرضك وشرفك مش هنا، روح استعرض رجولتك عليه وحاسبه بالطريقة اللي تناسبك وتناسبه..

نبض عرق جبهة "عزيز" بعصبية مكبوتة متصنعًا الهدوء وخطوته الوحيدة تقترب حتى كاد يلاصقه في وجهه نافرًا بقربه حمم أنفاسه بتأني مدروس:

- هاروح وهحاسبه ماتقلقش، بس مش قبل ما نصفي حسابنا..

وقبض على تلابيبه بعنف، يهزه بشراسة وزمجرة آمرة:



- طلقها..

كان رد"ناصف" لكمة ودفعة وصياح بطرد:

- اطلع بره..

بادله النظر بشر قاتل قبل أن يعاود هجومه بلكمة مماثله أبعدته عن طريقه وأوصلته إليها، يشرف عليها بحاله المروع صارخًا فيها بكل مافيه:

- اطلبي الطلاق وهاخليه يطلقك ورجله فوق رقبته..

ترفع له عينين محتقتنين بالدمع والدماء، مصمتتين بالقهر ورجفة شفاه لم تجد مايقال فأناب عنها بصراخ تال:

- مش هاسيبك معاه، ميستاهلكيش واخدك تصفية حساب..

ختام حروفه صاحب هجوم الآخر ليسقطا معًا فوق الأرضية وينهال كل منهما فوق الآخر بكل ما أوتي من عزم وكراهية، يتقاتلان تحت ناظريها ولا تملك في حيلتها غير صياح بغير نهوض:



- كفاية..

تشهق وتغص وتسيل عبراتها بحرارة:

- كفايـة..

تنهي مابها بصيحة كبيرة فرقتهما عن بعضهما بلهاث حاد وأجساد مطروحة أرضًا بان عليها أثر الكدمات ومابين سباب الأول ووعيد الثاني صدح رنين هاتف "عزيز" الساقط أسفل المائدة بإلحاح، اعتدل يلتقطه بنهوض متطلعًا إلى اسم شقيقته، استقبل الإتصال بلا سابق تفكير بوجه مكفهر، خمس ثوان وكانت قسماته تتمخض مصعوقة بالصدمة:

- بتقولي إيه!..

انتبه كلاهما؛ الجالسة بتهالك والناهض بصعوبة لنبرة صوته الفزعة، ترنح خطواته ثم اصطدام كتفه بإطار الباب قبل أن يتجاوزه برحيل وركض دون أن يلتفت أو ينبس بحرفٍ زائد!..





العشق هو الإضافة الوردية لكل رواية..

النكهة الحلوة بين الأسطر ولمسة الدفء فوق برودة الورق..

تسير بحذر فوق أصابع قدميها صوب باب المنزل وعقرب الساعة شارف على بلوغ الثالثة صباحًا، لاحقها همس شقيقتها الصغرى بتحذير شديد الخطورة:

- لو ماما أو مريم صحيوا وقفشوكي هاتتنفخي صدقيني..

رفعت لها سبابتها فوق شفتيها تحذرها بحدة:

- ششش وطي صوتك..

تتبع تحذيرها بخطوة أخيرة تدير معها مفتاح الباب ومقبضه بحذر متناهي حتى لا تصدر صوتًا جوار همسها التالي لوجه أختها القريب:

- لو حد منهم صحي رني لي و أنا هنزل بسرعة وتتصرفي وتعديني من غير ما حد ياخد باله، تمام؟..



كتفت "رنا" ذراعيها برفض محتج فعادت تناشدها بإلحاح:

- خليكِ جدعة بقى..

- اخلصي طيب و إياكِ تتأخري..

أهدتها قبلة هوائية و أقدامها تهرول إلى الخارج صعودًا حيث سطح البناية وهو باقٍ في انتظارها بعد أن طلب رؤيتها في ثوب الزفاف..

حين وصلت وقبل أن تخطو للداخل تركت تنورة الثوب من بين أصابعها، مسدتها بعدة ربتتات ثم تقدمت والبسمة تتلاعب فوق ثغرها دون أن تراه:

- يلا جاهز؟..

جاءها صوته بفضول المنتظر:

- جاهز من ساعة..



تقدمت بخطى متباطئة مانحة إياه براح النظر وإبتسامتها تتسع ببطء وازى تقدمها في حين كان يرقبها تقترب داخل الثوب بتركيز وابتسامته تتسع مثلها، ثوب ذو لون سكري مشغول بالتطريزات في أناقة تصميم كان هدية ابنة العم لهما..

أطلق لها صافرة إعجاب خافتة رافقت انبهار النظرات التي عكستهما عيناه، قابل اقترابها بكف امتدت لتأخذ بيدها في يده، يرفعها لأعلى لتدور حول نفسها وتنتهي بين ذراعيه، تترنم شفاها ضاحكة وحاجباها يرتفعان بسؤال:

- إيه رأيك، أنفع عروسة؟..

شد بكفيه على خصرها بقرب وجبهته تلاقي خاصتها، البسمة قبيل البسمة والهمس الحميمي يتدفق بحرارة:

- أجمل ما شافت عيني..

تحركت أنامله على طول أذرعتها مارًا بين فراغات التطريز مردفًا بنبرة متوجسة:



- بس الدراعات المكشوفة دي هتتغطى ولا أمة لا إله إلا الله هتعاين وتتفرج؟..

رفرفت أهدابها مع نبرة طائعة مبالغ فيها:

- هتتغطى ياحبيبي طبعًا..

أودع جبينها قبلته:

- شاطرة ربنا يهديكِ..

لفت ذراعيها حول عنقه بغمغمة مرحة:

- حبيبي بقى..

داعب ذقنها بحركة أصابع امتزج فيها العشق بالعبث:

- ده إنتَ اللي حبيبي يا باشا، وعشان المصداقية..

وراح يعدد لنفسه بعين مغلقة وهمس خفيض قبل أن يعود لها متابعًا:

- أنتِ خامس حد بحبه..



- إيه كل دول!..

زمجرت بشفاه مقلوبة فتصنع الجدية بتقطيبة المفكروضحكة مكتومة آخذًا بها بين ذراعيه معددًا لها بعادية مغيظة:

- عبدالله.. دهب.. بكر.. أمي و أبويا..

تمتت هازئة والحنق الجدي يناوش نبرتها:

- وعم سعيد البقال وست هنية بتاعة الجمعية..

صدح بقهقهته عاليًا قبل أن يشدد على ضمتها بميل متلذذًا بطبعها الغيور، ضربت كتفه بقبضتها المضمومة ورأسها يغوص بصدره:

- بس ياكياد..

خفتت ضحكته حتى استقرت مع تبسمٍ عذبٍ رافق أصابعه التي تحكمت في ذقنها لترفع له وجهها بلقاء عينين وهمس حمل مكنون القلب بصدق خالف مزاحه السابق:



- كلهم في حتة و أنتِ لوحدك في حتة تانية خالص..

جديته سرعان ماتحولت لعبث صريح ارتسم داخل نظراته الساقطة فوق شفتيها:

- يعني مثلًاماينفعش أعمل كده مع عبدالله..

وقبلها بحلاوة قطعة سكر سقطت في كوب ماء وذابت حتى آخرها..

- شوفتي بقى أنتِ مميزة إزاي..

تغضن ماحول عينيها إثر اتساع الإبتسامة وذراعاها يلتفان من حول خصره بتشبث، ترتاح بذقنها فوق صدره بغنج أنثى محركة له حاجبيها بشقاوة مماثلة:

- بتعرف تاكل بعقلي حلاوة في الوقت المناسب و أنا بحب كده الصراحة..

- سوسة..



اكتفت بتعبير دعم الوصف الذي خصها فيه قبل أن تتنبه لحركة يده الخبيثة والسارحة فوق ظهرها، دفعته عنها وصوتها يتحول بخشونة:

- هي إيدك بتعمل إيه ياكابتن؟!..

حدثها بتقطيبة جبين وجدية بالغة:

- ندى أنا مش لاقي مكان السوستة!..

غادرت حيز ذراعيه بهتاف ادعت فيه الجدية والصرامة:

- اتلم! كفاية إني سمعت كلامك وحرقت مفاجئة الفستان..

ظل يتطلع لها بخبث دون أن يتحرك، فأخذته على حين غرة تدير دفة الحديث وهيئتها تعود ترسم صورة الحمل الوديع الذي راح يفرك كفيه عائدًا خطوته هامسًا بدلال:

- بودي..



ضبط وقوفه داسًا يداه داخل جيوب سرواله مستفسرًا عن تاليها بهمهمة متململة تابعت على إثرها بقسمات راجية:

- هو مفيش أمل نسافر خالص؟..

- جينا بقى لوصلة الزن..

غمغم بفتور فتشبثت أصابعها بكنزته الصوفية بتحايل:

- أسبوع واحد والنبي يا عبدالرحمن..

- لا احنا متفقين..

لفظها ناهية فعادت تكرر بتنازل وتحايل مضاعف:

- طيب تلات أيام، تلاتة أيام بس عشان خاطري..

حدثها بجدية خالطها كثير من اللين:

- ما أنا خيرتك يابنت الناس وقلت لك يا فرح يا سفرية، قلتي ماينفعش مااعملش فرح، إيه بقى..



هي أكيدة أنه يقدم جل ما بين يديه لكن هذا لا يمنعها من الحلم بصحبته والضيق الحقيقي لأن الفرصة لا تسمح وتحول بين نفحات السعادة التي تتمنى:

- أووف، هو ليه كل حاجة متعقدة كده..

طالع كدر وجهها للحظات زفر بعدها خاضعها لرغبتها بإلتواء منطق والبغية مرضاة لخاطرها:

- طيب عشان مايهونش عليَّ زعلك و أنتِ عروسة حلوة كده هقول إن ليكِ في ذمتي سفرية، بس من غير ما نحدد وقت، يعني بعد شهر، اتنين، سنة، وقت ما ربنا يسهل نعتبرها شهر عسل مؤجل..

ومال برأسه مداعبًا ضيقها الذي بدأ بالتسرب لتعود الضحكات تسطر عذوبتها في تناغم جديد:

- تمام كده ياصاحبي، مرضي؟..

- مرضي يا أبو الصحاب..



أسبت عينيه بحلاوة الضحكة النابعة من القلب وذراعاها يلتفان حول عنقه بحرارة عناق و انفعال، عاد يقطب جبينه بتركيزويده تتخبط دون هدى:

- الفستان ده مالوش سوستة صح؟..

قفزت من بين يديه والضحكات تتردى بصداها هاتفة له بغيظ وسبابتها تدور من جانب رأسها بعلامة تفكير:

- قدامك أسبوعين اقعد فكركده زي الشاطرممكن تكون فين عشان ساعة الصفرماتضربش لخمة..

لاحق خطواتها بإحباط مفتعل:

- غششيني طيب..

- ده مجهودك الشخصي يابيبي..

انتفاض الهاتف بين يدها برنين دفعها لترفع ثوبها بين يديها على عجالة مهرولة بهبوط:



- يالهوي ماما صحيت وهاتنفخني..

تبع خطواتها حتى انتهت أمام باب البيت المموارب لها سرًا، قبل أن تدلف اقتربت منه على حين غرة، تركت شفاها تلثم وجنته سريعًا بقبلة خاطفة هامسة له بعشق قبل إختفاء:

- بحبك أكتر حد ياغلس..

تشبثت أصابعه بمرفقها في معاندة باسمة أفلتت منها بدفعة سريعة ورأسه يشرأب متطلعًا لما وراءها قبل أن تقطع مع وجهه الوصال بباب مغلق!..



النعاس أقرب لأغلال تقيد وعيه بغياب لم يدرك معه رنين التنبيه الصادر عن هاتفه حتى صمت الهاتف ورأسه مدفون أسفل الأغطية، شيء ما يصدم ساقه بجلافة، يضربه مرة بعد مرة وهو من قعر اللاوعي يقاتل لتبينه لكنه لا يراه، داهمه



الصحو مع إزاحة الغطاء بغتةً ليصطدم دفء جسده بلسعات البرد والضوء المنبعث يعمي عيناه المنفرجة باستفاقة:

- إنتَ يابني نايم ولا داخل في غيبوبة..

مسح "عبدالله" عن وجهه بصحو متطلعًا إلى شقيقه المحتل لوسط الغرفة وبين يديه منشفة عريضة يفرك بها رأسه المبتل عقب حمام متأخر أنهاه للتو، غمغم ويده تفتش عن هاتفه القابع في الجوار:

- الفجر أذن؟..

- من شوية وبصحي فيك و إنتَ ولا هنا، قلت هطلع من الحمام ألاقيك نزلت مش بعادة تتأخر..

أزاح بقية الغطاء الثقيل عن جسده، يدلي ساقيه إلى خارج الفراش متثائبًا بإرهاق وجسده يتماطىء في تكاسل:

- ماكنتش عارف أنام فضلت سهران قلت هسمع الأذان ومش فاكر الباقي..



رماه" عبدالرحمن" بالمنشفة الرطبة في وجهه غامزًا إياه متشدقًا بمزاجه الثقيل:

- شكلك كنت سهران بتفكر في القلم اللي في الدولاب وتتأمل جماله..

طقطق الجالس لسانه باحتجاج ونهوض عابس لاحقه أخيه من وراء ظهره بإرداف:

- أقطع دراعي أن ماكانت العلبة القطيفة هدية من واحدة، هاه، واحدة بتاء التأنيث يا شيخ عبدالله..

نهره دون أن ينظره عابرًا من بين إطار الباب:

- مش فايق لرزالتك..

لاحقه من جديد بصوت عابث مسموع:

- أول طريق التنازل يبدأ بخطوة على فكرة، روح اتوضى خلينا نلحق الفجر ربنا يهديك ويصلح حالك يابني..



عاد ومياه الوضوء تقطر من وجهه وأذرعته، تتخبط حركته باستعجال، يباغته الشقيق بخروج وسباق:

- الكوفية بتاعتك معايا عشان مادورش عليها..

- مش هنبطل استهبال..

تمتم بها ويده تجذب السترة والطاقية المغزولة بخيوط الصوف، يرتديهم كيفما اتفق قبل أن تظهر أمه أمام ناظريه بصحو مبكر:

- هو الفجر أذن؟..

- خلاص على إقامة..

تمشي خطوتها اتجاه دورة المياه ثم تعود له بالتفات المفكر:

- بقولك يا عبده..

رفع لها بصره بينما ينتعل حذاءه ويهم بمغادرة:

- نعم ياحبيبتي..



- ناوينا بأمر الله نعزم أختك وجوزها بكرة، إيه رأيك البوفتيك أحسن ولا البانية؟..

- إيه ياماما؟!..

هتف بحدة أجفلتها:

- في إيه يا واد!..

يده تغلق سحاب السترة بانفعال وقول:

- ما تسألي دهب ولا أي حد أنا إيش عرفني!..

أشاحت له بيدها في عبوس:

- ماحدش يستفاد منكم بحاجة، امشي اجري الحق الصلاة..

أغلق الباب من ورائه وراحت تقفز خطواته فوق الدرج بتتابع خفتت وتيرته على حين غرة وقبضة ما تلتوي بصدره اختلجت منه رجفة خطر بنداء فَزْع غير إرادي:

- استنى يا عبدالرحمن!..



أنهى حروف اسمه وفي الثوان التالية كانت الطلقات النارية تدوي بغزارة وتصدح عن ذات قرب انتفض لها جسده الو اقف بمنتصف الدرج!

**

في زمانٍ غابر أراد كاتب أحمق أن يخلق من الخير بطلًا مغورًا، بطلًا يزهق روح الظلم ويقاتل الباطل فينتصر، وضع بيد البطل الجسور القلم وقال: هاك سلاحك!..

سراجك المنير في دربك العثر..

سر أيها الشجاع ولا تخشى العتم..

لكن وحوش الغدر متى كانت مرئية!..

المشهد ذو تصويرٍ بطيء..



كل شيء يتحرك ببطء شديد، لا شيء يعلو غير الأنفاس المترددة بين أضلعه بعسر مؤلم، أقدامه تعدو في سراب لأن المسافة القصيرة لا تنتهي، كانت تطول وتجمد مع كل طلقة نار تخترق جسد توأمه بشدة ووقع نافض..

يركض والصوت بداخله يتردى..

"ده أخويا.."

"ده أخويا مش أنا!.."

أخي وشقي ياملاعين الظلم البين..

نصفي ياوطن أبخس مافيك أغلاك..

يتردى الصوت بتزاحم أحرف ولا يغادر حلقه، مع الصرير القوي لعجلات سيارة النصف نقل الراحلة وقد أتمت مهمتها عادت الصورة لطبيعتها وسقط أخوه فوق ركبتيه بفم مفتوح تنحر عنقه شهقات الموت!..



تنتهي المسافات ويصل نصفه الآخر، يتلقفه على صدره قبل أن يرتطم مع الأرضية فيلتحم الجسدان بلقاء، يسقي جفاف ملبسه بفيض دمائه المتدفقة بغزارة ودفء، تتحشرج الأنفاس بحلق المتألم مترددًا صداها في حلق الآخر المأخوذ لعالم الألم، من بين جب التيه يريحه ويشرف عليه، يحاول السيطرة على انتفاضات جسده الشديدة فتنتقل إليه الرجفة وتسري، بأيدي خرقاء يحاول سد نبع الدماء غير مستكشف موضعه مع دكانة النسيج وشحوب الإضاءة الأقرب لصفرة خالطت خيوط الفجر بغروب مقبض هو من صنع البشر..

تقبض أصابع المسجى مضرج الدماء على عباب صدر الذي يضمه بقلبه قبل ذراعيه، تلك الدقائق الأخيرة كانت أقرب لعرض شريط العمر، بدأت بهما كتفًا إلى كتف، نصف ونصف، تشاركا رحمًا واحدًا، رضعا الحليب ذاته، منضدة دراسية واحدة، الرفقة والأصحاب، يكملان بعضهما البعض، الفرح مقسوم والحزن مقسوم، يزود عنه مرة ويزود له مرة،



كان يتسع العالم وينتهي بهما غنيان ببعضهما عن جميع العالمين..

هل يترفع الآن على أن يفتديه بروحه؟..

وما الدنيا دونه!

تبدو له نهاية مرضية أن تتشابك المصائر بإرادة ربانية ويسبق خطاه المحفوظة فوق قارعة الطريق فتتبدل خطوط القدر بمصير محتم وينتهي هو بدلًا عن أقرب إنسان كان له النصف في كل شيء وأحلاه..

مر شريط العمر في لحظة أمام ناظريه جوار الشهقات المتقطعة في بحث عن نبض تحيا به الروح المغدورة، داخل المقلتين المتراقصتين بطبقة من العبرات الشفافة تعبأ مابين الجفون دون أن تسيل، فقط تتراقص جوار قبضات الخوف، خوف من القادم، الوجه الآخر لحقيقة الوجود..

الموت!..



ماذا ينتظره بقبر يضم جسده الفاني بلا روح، ماذا وراء هذا الغيب العظيم!..

هو الإنسان الضعيف يهلع من المصير المجهول، والذي بات قريبًا، قريبًا جدًا كأنفاس أخيه..

شد على ضمة أصابعه الواهنة بارتجاف فيه لغة الجسد بينما يحرك لسانًا ثقيلًا يلوذ به إلى حاميه والدماء تسيل عبر فتحات الأنف والفم مغرقة وجهه بحمرتها القانية نافرًا برذاذها فوق وجه أخيه القريب برجاء:

"ما تسبنيش.."

كان الذعر يغلغل النبرة، يسلسل الأحرف بشدة قتلت الحي ورأسه يرتج بذعر مماثل وكل ما يستطيع فعله هو الأخذ به وألمه بين ذراعيه، الرجل الكبير صار طفلًا صغيرًا تائهًا بين جنبي الألم، لم يدرِ ولم يكن يعي كيفية التصرف، جُل ما استطاع فعله هو إطلاق صيحات استغاثة نحو أمه و أبيه..



هلموا إلي القلب ينقسم

هلموا إلي الروح تنفصم

يستغيث آخذًا بجسده المتراخي بين ذراعيه أكثر وأكثر، يشهد بعينه كيف للروح أن تستخلص حالها من الجسد، تبدأ من القدمين وتأكله حتى آخره ثم تبقى له العينين شاخصتين فوقه بجمود..

قبل ختام رواية أركان العدل فيها مبتورة..

كُسر القلم

وسكت الراوي

حين صعدت الروح البرية واستكان الجسد المُغتال سكنة أبدية.



(25)

أيها الفقد تعال..

اتبعني..

أعبر طرقات مشفى طويل تصطبغ جدرانه بالبياض المقبض، اشتم رائحة الدماء وأنصت إلى أنين الأفئدة، قلب ناظريك فيما حولك وتمعن في الوجوه..

قف أمام كهل يشهق في بكائه كولد صغير ستقرأ اسمك مكتوبًا فوق الجبين..

أنظر إلى امرأة تضرب صدرها في لوثة ما أصابت عقلها ستعرف كم أن الغدر كافر لا دين له..

لا تتوقف..



التفت إلى الشقيقة المفترشة للأرضية تطوقها أذرعة ابنة العم التي عرفتك قبلًا ولا تبغض سواك، أنظر كيف يترنح الجسدان معًا بنواح، تلك الصرخات ليست من الفم، هي قادمة من قعر الأفئدة..

لا تدروجهك!..

كن شجاعًا كقسوتك وطالع..

طالع ابن العم وهو يقلب وجهه فوق الجدار البارد، ينزف حزنه في اهتزازات متألمة وإلى جانبه العم يبكي ولدًا لم يقدر له أن ينجبه فأهداه إياه القدر ثم وفي لحظة خاطفة اختفى من بين أعينه، أترى قهر الرجال، أتسمع أنينه؟!..

أنتَ هنا يا عزيزي..

حاضرٌ بين الأضلع، تشق القلوب دون رحمة وتعتصرها بجبروت..



ماذا لو حدثتك عن حبيبة غائبة عن دنيا البشر بوعيٍ مسلوب؟ هل تستطيع أن تواجهها؟ كيف ستبرر لها وجيعتك؟ أتراك تستطيع أن تفعل؟..

أنظر خلفك، أنظر من جاء..

هرولة الأقدام والأنفاس هي للشقيق الغائب، هو يعدو لأجل وداعٍ أخير، يقف بينهم في المنتصف وتلفظ عيناه الدمع مبهوتًا، كان يأمل على طول الطريق أن مايحدث مجرد كابوس، خطأ ما يستوجب التصحيح..

هل تظننا انتهينا؟!..

لم نبدأ بعد..

رحلتك طويلة ومقبضة..

تعال لندفع بباب الحجرة الموارب، ضع أقدامك فوق الأرضية العارية ولا تخشى الصقيع، الصقيع الحقيقي يكمن هناك حيث النصف الحي يقف رابضًا قبيل نصفه الميت المسجى



فوق المنضدة يلف جسده اليافع البياض التام إلا من الوجه أبقوه مكشوفًا ليودعه الشقيقان الغائب والحاضر..

قرب أذنك وأصغ لهمس الشفاه، جمع شتات الأحرف المتقطعة..

دع عبرات الحاضر تتساقط على ثقلها رغم جمود الجسد، وتابع خطوات الغائب الذي ترتبك بولوج، يكاد أن يسقط فيتحامل ويقترب، أصابعه المرتجفة تلامس البشرة الباردة وتلتصق شفاهه فوق جبين الراحل من بين شهقات البكاء، يودعه بضمة أخيرة ويسحب الغطاء سريعًا فوق وجهه ثم يتحرك إلى الشقيق الحي بلا روح، يضمه كولده فيطلق الأخير بين ذراعيه صرخة ألم عنوانها انقسام..

هل تجلس في الزاوية وتبكي الآن؟..

انهض..



اتبع خطاهم وهم يحملوه فوق الأكتاف حتى يودعوه مثواه الأخير، راقب الأحبة كيف تواري أحبتها بالثرى، كيف تغلق القبور وتترك قطعًا منها بين وحشتها وترحل مرغمة لتتعايش معك في كل صبح ومساء، في الصحو والغفى، يرحلون هم وتبقى أنت بديلًا، تصغر وتصغر بمرور الأيام لكنك لا تزول، تبقى عالقًا كالغصة في الحلق والوجدان، نراك في المقاعد الفارغة وطيف الضحكات المفقودة، ستكون حاضرًا في حكايا الأمس، سوف تتوهج بألمك مع كل ذكرى..

أيها الفقد..

أنتَ شعور ملعون حتى قيام الساعة.



شاشة سينمائية ضخمة..

تعرض فيلمًا كئيبًا لنسوة تتشح بالسواد، تعلو أصواتهم بالنواح والعويل كل حين ثم تخفت، تمر من جانبه بلا ذرة



اهتمام أو تأثر، تدلف إلى المطبخ لتصنع مشروبها الصباحي، ترفع غطاء العلبة البلاستيكي، تتناول ثلاث قطع من بسكويت القرفة ثم تعيد إحكامها حتى لا تصاب القطع بالرطوبة وتنهرها أمها بكونها المهملة الوحيدة في هذا البيت، توصل مسماع الأذن وتأخذ أصابعها في الفرقعة بينما تنتظر غليان الحليب فتباغتها أختها من عند إطار الباب بسؤال متوجس:

- بتعملي إيه ياندى!..

تخلع واحدة من مسماع الأذن وتخبرها بإشراقة وجه صبوح:

- شاي بلبن، أعملك معايا؟..

ترمقها الصغيرة المتشحة بالسواد كغيرها بأعينها الحمراء الذابلة من شدة البكاء والمصدومة في هاته اللحظة قبل أن تستدير عنها وتذهب فتشيح الأولى بذراعها وتعيد المسماع مستكملة وصلتها، كالعادة في اللحظة الحاسمة تلتفت فيعلو الحليب وينسكب خارج الإناء، تتأفف من حالها وتتحرك سريعًا



تنظف ما اتسخ ثم تحمل مشروبها الساخن وتعود إلى غرفتها، تضع الكوب فوق طاولة الزينة وتفتح صوان الألبسة، كعادة صباحية حديثة تهدي ثوبها طلتها و ابتسامتها الأولى، تعود إلى فراشها المبعثر تتباحث عن هاتفها حتى تجده بين الأغطية، ترسل رسالتها الصباحية إلى الحبيب كعادة قديمة العهد لا تتخلى عنها أبدًا، تضع الجهاز وتعود لثوبها المعلق، تلمح في جانبه شقًا فيفزع قلبها، تتفقده سريعًا وتتأكد من وجوده، تحمل الثوب فوق ذراعيها وتخرج باحثة عن أمها، حين تجدها تحدثها بتهدج وكدر:

- يا ماما شوفي فستاني..

تبحلق فيها الأعين وتنهض"مريم" سريعًا، تحيطها بذراعها وتديرها عائدة بها إلى الداخل، من ورائهم أمها تخبىء وجهها بين كفيها في انتحاب شديد فيما همس النسوة ونظراتهم المتعجبة يستمر ويستطيل فيما بعد حتى يلبسون ابنتها ثوب الجنون..



داخل الغرفة يتهدج صوتها أكثر:

- بصي يامريم..

تخفي الشقيقة دمعاتها وتسايرها في قولها المتهدج، تجلس برفقتها بجانب الفراش ممدين الثوب أعلاه، تلتفت وتحدثها بتبسم مصطنع أخفى شحوب النبرة بعد أن تفقدت الثوب:

- ده قطع صغير خالص، هنصلحه حالا متزعليش..

تنهض وتعود بعلبة الخياطة، تحيك الشق الصغيروهي تتابعها، حين تنتهي تنفرج قسماتها برضا وغمغمة:

- يمكن اتقطع مني وقت ما ماما كانت بتظبط لي الوسط..

ثم تميل إليها، تردف بهمس خافت وأصابعها تضيق بقدرأنملة:

- اهي مش حاجة صغيرة قد كده واتصلحت بس لو قلت لعبدالرحمن هيديني محاضرة طويلة عريضة وقد إيه أنا مهملة في حاجتي..



تنهض بخفة حاملة ثوبها حتى تعيده إلى مكمنه، تلتف برأسها في طريقها تحادث أختها بتشدق مرح وحاجبيها يرتفعان لأعلى:

- يارب أتلم بقى و أبطل ألبسه كل شوية..

تنهض"مريم" تلحق خطواتها، تتمعن في وجهها بصمت، تبتلع لعابها بعسر دون أن تعرف ماذا يجب أن يقال، تراها تغلق الصوان ثم تلتفت لها باسمة راضية فتجد حالها تضمها لصدرها، تطوقها ذراعيها بقوة كابحة أنين بكاءها بصعوبة شديدة فيما كانت تبادلها الضم بصمت مبادل..

في الليل..

حين يعم السكون والكل يسقط نيامًا تعبًا وحزنًا ترتدي ثوبها، تسير فوق أطراف أقدامها بحذر وتغادر المنزل، ترفل بثوبها إلى الأعلى حيث سطح البناية..



حين وصلت وجهتها وقبل أن تخطو للداخل تركت تنورة الثوب الثقيلة من بين أصابعها، مسدتها بعدة ربتتات ثم تقدمت والبسمة تتلاعب فوق ثغرها:

- يلا جاهز؟..

احذر ألمك مرة

واحذر عقلك ألف مرة..

سوف يناورك، يلتف بكَ ويأخذك بعيدًا ليضعك بمعزل عن موطن الألم حتى ينجو بك من شرر الصدمات التي قد تودي بحياتك في لحظة!..



جو غائم..

سماء ماطرة برذاذ خفيف..



بينما كانوا جميعًا يأخذون في الفقيد العزاء كان هو هنا، حيث من المفترض أن يكون..

جالسًا إلى جانبه، قريبًا لا يفارقه، يؤنس وحشته حتى لا يخاف، يحدثه أنه قريب، يبقى رابضًا طيلة النهار ومع أفول الشمس تقترب خطوات "عزيز" الوئيدة، يقف للحظات يرقب فيها القبر ويقرأ ساكنه الفاتحة، يمسح عن وجهه طفق العبرات مستجمعًا شتات نفسه المبعثرة حتى يعين الجالس بشتاته عنهم، يمسك بذراعه وتخرج أحرفه باهتة مبحوحة كأمس وقبل أمس:

- قوم معايا..

يرفع له وجهًا كالحًا بصره زائغ:

- خليني معاه..

لا يتركه، يسحبه حتى ينهض ليغادر به عن الليل ووحشة الفقد المروعة:



- الصبح هنيجي له..

يقف وينظر حيث بقي أخيه، تطرف أهدابه ولا يتحرك حتى يحيط كتفه ابن العم ويمضي به سيرًا إلى الدار المعتمة أطلالها بظلال الموت، لا يرتقي به درجات، يودعه بين يدي الجدة في بيتها، تظهر الشقيقة بواجهة تماسك تدعيها لأجل أخيها، ولأجل أمها الر ابضة بفراش المرض و أبيها الصامت بعبرات جارية..

- شدي حيلك..

يغمغم لها بها "عزيز" ونظر اته تطوقها، لايبدو أنها سمعته لكن عيناها المحتشدة بالدمع تقول العكس، يرحل ابن العم ويبقى الشقيق، تأخذ به نافضة الغبرة عن ملبسه قبل أن تدفع به إلى دورة المياه حتى يغتسل، ينصاع بجسده وروحه تفارقه، هي حائمة من حوله تتخبط بضياع، حين ينتهي تجلسه فوق الأريكة الجانبية داخل الحجرة المتوسطة، تشعل المدفئة وتجفف له رأسه المبتل ثم تضع فوق أكتافه الدثار الثقيل



الداكن قبل أن تجلس إلى جانبه ترقب جانب وجهه المصوب نحو الفراغ بأعين خاوية، تدلف عليهم الجدة حاملة بوهن أيدي شيء من زاد الطعام، تضعه أمامه وتربت فوق كتفه لاثمة جانب رأسه قبل أن تتوكأ على عصاها وتغادرهم بأعين يشوشها الدمع الحارق تمحيه بطرف وشاحها دون أن تنبس شفاها بحرف..

تحاول جليسته دس اللقمة بفمه لتقوي البدن الصائم منذ أيام فيرفضها بإزاحة يد وهزة رأس صامتة فيما يبدأ الارتجاف بالزحف إلى أوصاله..

- عشان خاطري..

ترجوه بهمس ميت فيرفض بهزة أخرى صامتة ووجه ينكمش بألم، تتحشرج أنفاسه باختناق وتختض أضلعه باحتضار، تتطلع إليه لحين ثم تسقط عيناها العبرات بدلًا عن عينيه المتعبة، تبدأ عيناه في ذرف مائها، تسقط عبرة خلف عبرة،



هكذا ببساطة القول، لم يعد الأمر يحتاج لمقدمات ولا تصدي من الأجفان للوخزات، إنها تسيل هكذا في كل وقت وزمان حتى جريانها بدا وكأنه صار أسرع، تحيط "دهب" جانب وجهه بكفها بينما تلتصق بجبهتها فوق وجنته، يسري النواح رغمًا عنها في تخاذل وصليل مؤلم قبل أن ينهض عنها ويدفن رأسه أسفل الوسادة وتحت الأغطية، يختطفه النوم لساعات وهي إلى جانبه، ترعاه وتتولى أمره فيما تترك أمر والديها لشقيقها الأكبر، تدثره ويدها فوق رأسه، تربت وتمسد وعبراتها تسيل في صمت، حين يشتعل الفؤاد بنيران الفقد وتبدأ في فقدان سيطرتها تأخذ بمصحفها، تقرأ ماتيسر لها من الذكر الحكيم وماجادت لها أعينها المتعبة باستطاعة قبل أن تضم بالكتاب إلى صدرها وتسقط رأسها فوق رأس الغافي بأنين شفاه لا يسمع..

مع اقتراب الفجر يفزع بجسد متعرق، يزيح الأغطية ومايقبض صدره لا يزول، تهرول أقدامه وتسابق سكون الليل والخواء،



هنا تستيقظ فزعة تناظره كحال الثلاث ليال الماضية، كيف يتخبط بضياع من جهة لأخرى، يطوف بين أركان البيت مرة بعد مرة، حين يبدأ صوته في لفظ الأنين بصوت مسموع ويداه تضرب الجدران تستل هاتفها سريعًا، تحادث أخاها بعجالة مستنجدة فيه بنبرة بدأ يزلزلها الارتجاف:

- أنزل بسرعة يابكر..

يهبط الشقيق ركضًا، وحدها وجدتها لا تستطيعان احتواء ثورته، لا تجد بحالها قوة وهي ترى روحه المعذبة تتلوى أمامها من جدار إلى جدار بارتطام وصيحات تنحر الحلقوم، تحاول إيقافه فيدفع بها عنه ويصرخ، لا يتوقف عن إيذاء نفسه حتى يجثم عليه"بكر" يكبله قسرًا وأطرافه تقاوم سعير الفؤاد بتخبط، يشقيه ويتعبه حتى يعود به إلى الفراش والصراخ المرتجف لا يتوقف، يبكي بحرقة صبي لا رجل على مشارف الثلاثين..



يلتحم فيه كليهما، يدفئان النصف المفقود فيه ولا يشفع، يحيط رأسه المنكفئ والنابض بألم بكلا كفيه، يضغطها بقوة وازت نزف الكلمات:

- قالي ماتسبنيش يا دهب..

ينتفض قلبها بين أضلعها وتنوح مثله، يرتجف بردًا وألمًا، يسل دمعه و أنفه وينظر أخاه:

- خد كفني يا بكر، كنا نازلين نصلي وقتلوه، خدوه غدر..

كل فجر يقص عليهم القصة كأنهم لا يعرفون، كأن نار الفقد لا تلهب جوفهم، يضمه أخوه بشدة دون أن يجد قدرة على حديث أو تهدأة وقد أنهكهم الحزن جميعًا و اقتات على كل مافيهم..

انفرج الباب وظهرت الأم المتشحة بالحداد من رأسها حتى أخمص قدميها، تطالع ثلاثتهم وفراغ رابعهم يرديها قتيلة اللحظة، تلملم شظايا روحها لأجلهم، لأجل هذا الذي يحيا ويموت ألف مرة في الليلة بغياب نصفه، يفسحون لها المجال



حتى تتوسطهم وتجلس إلى جانبه، تشده إليها فيأبى، يحجب عنها وجهه وينتحب بشدة فتعاود جذبه، تأخذ برأسه إلى صدرها غصبًا عن إرادته، تربت فوقها ودمعها يتساقط..

- قتلت لك حبيبك..

يلفظها متقطعة ورأسه نائم بين أضلعها، تنطلق الأحرف بوجيعة فتنهره بصوت شاحب، ضائع:

- أسكت..

يتعلق فيها ذراعه أكثرورأسه يغوص بين أضلعها بشدة والأحرف تطعن بمعانيها بلا رحمة:

- مات بسببي يا أمي..

تشد على ضمه وزعقتها حادة رغم بهوتها وتهدجها:

- إياك أسمعك تقول كده تاني..

يرفع لها عينين تسكبان الألم:



- راح وسابني..

تدعي صبرًا، تدعي قوةً وتطفىء لهيب جوفه المتقد بدمعها:

- أمر الله هنعمل إيه، راح للأحن مني ومنك..

- كنا هنجيب بدلة فرحه وبكر قال استنوني..

"بكر" الصامت إلى جانبهم يطرق برأسه متذكرًا مهاتفته الأخيرة فتتعانق أجفانه بألم العبرات الحارقة قبل أن تزحف الحشرجة إلى حلقه بألم وحسرة..

تمسح الأم وجهه المبتل بكفها، تتمخض قسماتها بالمقاومة بينما ترتجف أحرفها بهمس يقال لها منذ أيام كنوع من التصبر الذي لا يغني ولا يسمن من وجيعتها بشيء:

- عريس في الجنة ياحبيبي، عريس في الجنة..

يلتف إلى شقيقته الرابضة فوق رأسه بدورها، يسألها بلوثة عقل ونظراته تتخبط يمنةً ويسرةً بتيه:



- هو مات بجد يا دهب؟..

تميل"دهب" برأسها فوق كتف أمها بنحيب علت وتيرته فتربت الأم فوق وجنتها بصمت قبل أن يعود لها ولدها الكامن فوق صدرها من جديد:

- عبدالرحمن مات خلاص يا أمي؟..

تسقط كل ادعاءتها في لحظة، يسقط الصبر والتماسك وتتخبط معه بين جنبي الألم بنواح:

- مات خلاص، أخوك مات..

تتردى الآهات بصداها من صدره لما بين الجدران فتزيد على ضمه وكفها قابع فوق صدره المحترق تربت عليه بوهن وصبر فيما تمتد ذراع بكرها ليحيط بكتفها وأخته معًا..

على أعتاب الفقد نحن رهناء لحظة الألم..

ولا شفيع هنا غير الزمان.





سرداب الفقد معتم

دربه طويل، بارد

توحشه الذكرى

وهي امرأة صارت موشومة بالفقد، كم فقد مر بحياتها حتى صارت تدرك أبعاده، كم وجيعة قلب صادقتها..

والدان..

حبيب..

حتى عذرية الجسد فقدتها حين فرطت..

والآن!..

الآن جاءها الفقد من جديد يحفر خطوطه بقساوته المعتادة دون رحمة..



من أين تأتي لها بقلب يساع كل هذه الآلام وهي ترتكن إلى زاوية الأريكة، تتجرع مع حالها أوجاعها، تتعايش مع ألمها من جديد، تتعايش مع ألم أحبتها وهو ينبض حيًا بين جنبي الجميع...

فُتح الباب ودلف ببطء وازى إغلاقه، اعتدلت ترمق حضوره، تنزل ساق وتبقي الآخرى مثنية من تحتها، اقترب يشرف عليها بطوله للحظات، نظرات طاف وتبدل فيها الأسى كعنوان لهاته الأيام..

- العزاء خلص، المفروض ترجعي بيتك..

لم تنزل بصرها، ظلت تتطلع إليه بنظراتها المتألمة بجمود حتى جلس إلى جانبها، وجدت حالها تهمس بقول خافت بلا روح:

- بيت سعد زي الجحيم..

التف رأسه ينظرها لحين والحزن يستوي في عينيه بلا حاجب:

- جحيم سعد أرحم من جحيم العاروالفضيحة، كنتي هتعيشي عمرك كله ورأسك في الأرض مش قادرة ترفعيها..



تنهيدتها القوية سحبت معها حرارة العبرات التي راحت تنهمر ووجها يلتف بعيدًا عنه، أطرق بوجهه ونأى عنها بالمثل، ظل يسير فوق نقوش فرش الأرضية للحظات قبل أن يحدثها دون أن يرفع رأسه:

- مش هتفضلي على ذمته، هخليه يطلقك بس لازم نعدي شوية وقت عشان كل حاجة تبان طبيعية..

عادت له برأسها وعبراتها تزداد غزارة، شعرت بالأحرف تدعهما بشكل ما بينما يسترسل وهو على حاله المطرق:

- اوعي تخافي منه ده فأر، أصلًا مايقدرش يإذيكِ هيخاف مني وأنا..

رفع رأسه وداريقابلها بلقاء:

- عارف أن ميتخافش عليكِ، وإلا ماكنتش سلمتك ليه..

ضاقت أنفاسه للحظات فبتر النظر متطلعًا فيما حوله حتى ثبت بصره من أمامه متحدثا بنبرة خافتة، مهتزة رغم صلابتها:



- لو حصل لي حاجة هتتكلمي مع بكر وهو هيتصرف، هتقولي إن أقنعتك بالجوازة و إنك صدقتيني بس طلع مش كويس، قولي أي حاجة غير الحقيقة..

ما إن أنهى حديثه حتى طوقته من جانبه بكلا ذراعيها، منحت حالها براح الأنين والهمس ورأسها يحط فوق كتفه:

- لو حصل لك حاجة أنا هموت بجد..

قبض بأصابعه فوق ساعدها الممتد فوق صدره وصمت، بدا كأنه يجاهد الغصة، يجاهد ويجاهد حتى اهتز رأسه وصوته راح يتهدج وقد خنقته العبرة:

- مات وهو زعلان مني يا عبلة..

قالها بندم..

بألم..

بحشرجة وبكاء.





نحن لا نختار الألم..

بل نمضي في طريقه مجبورين، نخضع بقدر محتم بلا حولٍ منا ولا قوة..

وهي قدرها السير بين درب الألم لأميال وأميال..

ولأن القلب اللين في الأساس كان معتل بما فيه من عطب لم يتحمل تلك الضربة القاصمة التي شطرته لنصفين، لم تتحمل الصورة الحية التي شهدتها عيناها فسقطت متعبة بإنهيار..

عقب انتهاء العزاء أصر على اصطحابها، رفضت لأجل شقيقتها، قالت أنها بحاجتها وإن كانت لا تشعر بشيء، وإن كانت غائبة في عالمٍ آخر بعيدًا عما يعايشون، تعللت بحاجة الجميع لها وغضت الطرف عن كونها مثلهم، متألمة ومتعبة حد الرمق الأخير، لذا أصر عليها ودفعها أبوها لتذهب، قال أن كل شيء



انتهى ويجب على الحياة أن تمضي وتستمر، قالها بواجهة تعكس مايقول..

بعد طريق مصمت وصل بها حيث الفندق النيلي، ذات الحجرة التي استقبلتهما ضيوفًا لثلاث ليالٍ من قبل كانت في انتظارهم الليلة..

تتوسط الفراش بساقين متقاطعين من تحتها، وجهها الباهت ونظراتها الشاحبة يطوقان الفراغ من أمامها بنظر ساهم، بين أضلعها تجوب أنفاسًا كئيبة كلون ملبسها القاتم وعقدة رأسها المهملة، تطرف أهدابها برتابة متباطئة وصورة شقيقتها لا تغادر مسرح الخيال..

ظهر خياله يقطع الصورة أمام بصرها باقتراب حتى قابل جلوسها بجلوس، أحضر لها المشروب الدافيء لأجل معدتها المضطربة ودفع به بين يديها فضمت عليه أصابعها بوهن قبل أن ترفع له وجهًا متعب القسمات زائغ البصر، كان يجيش



صدرها بزحام الحديث وكانت بأشد الحاجة لتفرغ مافي جوفها من ألم..

أرادت أن توصل له مكانة الراحل، أن تخبره كيف يمتد فيها الوجع حتى أبعد نقطة داخل الفؤاد، اختصرت وجيعتها في كلمتين جافتين بجفاف حلقها:

- كان أخويا..

منحها ماتحتاج بهزة رأس تعني تفهم ورقعة استماع امتدت بينهما واتسعت، منحها حرية محو عبرتها المنزلقة ببنان أصابعها قبل أن تعود متابعة:

- كلهم قريبين بأمانة بس هو كان غير، من بعد ما ارتبط بندى وهو خد مكانة تانية، بقى أخ بمعنى الكلمة..

طيف تبسم مر فوق شفاها لذكرى ماضية، ذكرى على قدر حلاوتها جاء ألمها في هاته اللحظة:



- عمري ما شوفت بابا فرحان زي يوم كتب كتابهم، كانت ليلة حلوة قوي، كنا كلنا مبسوطين لدرجة مش عايزين ننام..

هطلت عبراتها وصوتها يتهدج بحشرجة:

- كان دايما يقولي متخافيش من حاجة وراكِ رجالة..

سحبت نفسًا طويلًا استجمعت فيه حالها للحظات ثم تكلمت من جديد وعينها تلاقي عينيه بقرب ووصال:

- عارف، وقت ما اتقدمت لي أنا كنت مش عارفة أفكر خالص، فضلت مخنوقة لحد ماطلع عندنا وقعد معايا يسمع كلامي اللي مالوش أي معنى، فضل يتكلم ويسمع لحد ما حسيت نفسي فوقت وخرجت كل اللغبطة اللي جوايا وجاهزة إني أفكر صح و أقرر..

اهتز رأسها بأسف، بخسارة:

- من وقت ما بابا قال له أنت ابني ودول أمانة عندك وهو دايما قريب ومهتم..



ختمت هذا و ابتدت من جديد، تلحم ذكرى خلف أخرى، ذكرى حية قريبة كقرب الأمس بتهدج و انفعال كبيرين:

- من كام يوم كان تحت وندى طلبت منه حاجات، بعد ما خلص معاها قالها اديني مريم، فضل يقولي أجيب لك إيه، و أنا أحلف له إني مش عايزة حاجة وهو مصمم، قعد يسمي لي كل الحاجات اللي قدامه في السوبر ماركت ومارضيش يقفل لحد ماقلت له..

اهتز بدنها وتساقطت القطرات الدافئة فوق يدها قبل أن يحمل الكوب عنها، يريحه فوق المنضدة القريبة ويعود إليها بقرب أكثر عن ذي قبل، يشعر بكل حرف تتلفظ به ولا يجد لدنه حرفًا واحدًا يعزيها فيه..

- وندى!..

همست بها بعينين متسعتين، تردف تاليًا وألمها يتضاعف بين جنبيها، يفيض عن قلبها الذي استقبل ضمة كفها من فوقه:



- يا وجع قلبي عليها، بتتكلم عنه وتكلمه كأنه موجود، دي لبست فستانها وطلعت له!..

التف رأسها من حولها بحيرة وضياع، بعجز وقلة حيلة وارتجاف يعانق الحروف:

- أما تفوق من صدمتها هنقولها إيه؟هتموت مش هتتحمل، أنا خايفة عليها ومرعوبة..

مالت إليه بوجهها، تسأله، تتباحث عن إجابة توقف بها صليل الألم النابض في الأدمغة:

- ليه تتخطف فرحتهم بالشكل ده..

تتساقط عبراتها غزيرًا فيرفع كفًا إلى وجنتها، يلاقي إبهامه القطرات المتساقطة محررًا همسًا خافتًا يقابلها فيه:

- قدرهم، الله يرحمه..

تحتد حروفها بإعتراض:



- ليه عبدالرحمن يا أسمر؟ ليه ده معملش حاجة وحشة عشان يحصل فيه كده..

ختمت ثرثرتها باستنتاج كبير وانهيار مشروع حدث بين ذراعيه وفوق صدره:

- أنا بكره الموت والفراق قوي ومع ذلك كل اللي بحبهم و أقرب منهم يبعدوا عني ويفارقوني..

ضمته الحنون كانت أقرب لوعد:

- مفيش فراق تاني..

وعد بوصال بعد طول فراق..

وعد بحياة.



متى يبرأ القلب من أوجاعه؟!..

ما أطيب العيش والتمني..



وما أبعده عنها..

ما أقصاه وما أقساه..

ما أقسى الحقيقة حين تلوح أمامك وتتجلى لتخبرك أن قلبك ماعاد صالحًا للحياة، انتهت صلاحيته، بات مجرد خرقة بالية لا يشفع بنبض أو حياة..

أربعون ليلة مرت..

أربعون ليلة من الألم..

من الخسارة..

ومن الفقد..

غاب وغابت معه كل الحياة..

ما كان يقتات عليها من قبله لم يعد ذا معنى، ما كان يؤرق مضجعها لم تعد تفكر فيه، رجحت كفته عن الجميع رغمًا عن أنف الغياب..



- عارف أن الوقت مش مناسب بس عندي أمل تسمعيني لأول وآخر مرة..

انتشلها صوته بانتباه، انتباه أنها حاضرة هنا بين جدران بيتها الذي لم تعد تعده كذلك، جالسة مع الرجل الذي من المفترض أنه زوجها بعد أن هاتفها ليلة الأمس وطلب رؤيتها لأجل أمرهام، ثم طلب على استحياء أن يكون اللقاء هنا، في البيت الذي جمع بينهما كزوجين..

وهي حاضرة بجسد جامد فوق المقعد لا يتحرك، أعين خاوية تنظر الفراغ و لم تنظره ولا لمرة، حضرت وجلست بصمت تستمع لقوله وإردافته:

- تسمعي الحقيقة مني زي ما سمعتها من ابن عمك..



جالس من جانبها فوق المقعد القريب، مايفصل بينهما مسافات القلوب وليس الأرضية القريبة، بدت أميالًا كصوته في هاته اللحظة وهو يرفع رأسًا يواجهها بصدق كلماته والشعور:

- أنا معترف إن ظلمتك، معترف إن غلطت في حقك..

تتحرك يداه بعشوائية، يفند ماحدث وكان وصار وهي على حالها ثابتة، تستمع دون النظر، دون أي شعور ينبت في دواخلها:

- تخيلي نفسك مكاني، إنسان مغدور من أقرب الناس ليه، مش عارف يفرق بين الصح والغلط..

صمت هنيهةً يعرف صعوبة ما يتفوه به ولا يملك غير المتابعة:

- الإنسانة اللي ارتبطت بيها وكنت ناوي أتقدم لها طلعت متجوزة أبويا..

ضحكة ماسخة، مبتورة، ويتابع:



- القلم لففني حوالين نفسي، مابقيتش شايف حد ولا حاجة، وهبقى كداب لو قلت لك إن كنت شايفك وقتها..

أمعن فيها النظر للحظات محاولًا تشفي أي حركة أو فعل يصدر عنها ولا شيء، أكمل وبصره يلتف عنها:

- حسبتها حسبة عبيطة، قلت كده كده البنت اللي كنت عايزها اتحرمت عليَّ، خلاص أي واحدة مش هتفرق، إيه المشكلة لو الواحدة دي تبقى بنت عمها، إيه يعني أما أوجع قلبها زي ماوجعتني وخدعتني..

سحب شهيقًا طويلًا أطلقه ببطء مسترسلًا في حديثه:

- طول الوقت كان الشيطان مزين لي أفعالي ومعيشني دور الضحية لحد يوم كتب الكتاب فوقت..

أصابعه تعبث بخاتم الزواج المحيط ببنصريده وكلماته المجهزة سابقًا تتساقط بتتابع:



- فوقت بعد ما جمعنا بيت واحد، لقيتني بسأل نفسي إيه اللي عملته ده، أقول وهي ذنبها إيه؟ و أتعذب بالذنب كل ما أبص لك..

عاد إليها ببصره، وإن كانت لا تنظره ولا تراه كان ينظرها هو بعين النادم والمذنب، مذنب لأنه يزيد وطأة جراح الفقد بنذالة فعل صدرت عنه ولم تعد الساحات متاحة ليلتقيان بحساب، فالجميع في هذه الحرب جر أذياله للخلف بإنهزام:

- أنا بعترف لك بغلطي يا دهب، جوازنا كان أكبر غلطة غلطتها في حقك و أنا مستعد أصلحها بالطريقة اللي تناسبك، لو قلتي طلقني حالا هطلقك، عايزه تفضلي على ذمتي للفترة اللي تقريها براحتك، عايزه الشقة دي تكون باسمك معنديش أي مانع، تحت أمرك في كل اللي تطلبيه..



ثم وبحركة متباطئة خلع خاتم الزواج عن إصبعه، تركه يرن فوق زجاج المنضدة من أمامه حتى سكن قبل أن يغمغم بنبرة خائبة بان فيها تحطمه:

- في جميع الأحوال أنا مسافر، خلاص مفيش حاجة تخليني أفضل في مصر..

- أنا حامل..

نبضت نبرتها الجامدة وتحرك رأسها ناحيته، عيناها تقابل عينيه المصدومة بلقاء ظهر فيه كل شعور ينفيه الجسد مع تتابع قولها:

- حامل من الغلطة اللي بتقول عليها..

الله أخذ

الله أعطى

هي أقدار مكتوبة في ثناياها حكمة غالبًا ماتكون في وقتها مفقودة.



(26)

"ضد مجهول"

تقييد أخير في قضية شاب لاقى مصرعه بعد تسع رصاصات غادرة سكنت الجسد..

حادث مأساوي يتوسط الصحف ويطرق الأسماع فينال طرقعة لسان آسفة قبل أن تطوى الوريقات وتعود الأيدي تلقي بالزهر في تبادل فوق طاولات المقاهي ثم تتعالى الضحكات بشتى المواضيع الأخرى..

حادث عابر مع غريب اعتاد قراءة وسماع تلك الأخبار بين الصفحات وفوق شاشة متلفزة تنقل الأخبار بينما لو نقلناه بعدسة مكبرة سنرى القهر متجسدًا في معناه مع صيحة الشقيق المنحور بسكين الظلم والطغيان..



"أخويا مماتش أخويا اتقتل، أنا عارفهم واحد واحد!.."

يعدد الأسماء، يخبر القصة للضابط المسئول عن التحقيق في قضية مقتل أخيه، يجهر ويغضب بقوله فيأد أبيه قوله بقول آخر جاء بعد تلميحات الضابط أن ما يتفوه به ولده لا يحمد عقباه، يتكلم الأب المكلوم في واحدٍ من أبنائه برأس منكس ذليل حتى لا يخسر الآخر..

"ابني مكوي بنار أخوه، عقله غايب مش عارف بيقول إيه.."

ملف قضية تم غلقه ثم قام الموظف الحكومي بحشره بين مئات الأخريات وقُضي الأمر.

العدل والحرية كذبة كبيرة يصدقها الحمقى أمثاله ويدفع ثمنها الأبرياء أمثال أخيه..

لا يوجد مايسمى بالوطن..

ذاك وهم كبير مغزول بمشاعر زائفة..



اخلع عنك ثوب الفضيلة وألقِ به جوار ما تملك من مبادىء وإنسانية، كمم فمك وخذ لك من الحياة بقعة على حد الأفق وعش على الهامش.

ترك لهم دنياهم بخيرها وشرها، طواها على طولها وعرضها وبما فيها خلف الظهر واختار العيش على هوامشها، استبدل القلم بمعول الهدم، أذرعته تضرب الصخر طيلة النهار، يهدم جدار ويبني آخر، يبدأ اليوم في الصباح الباكر وينتهي قبيل الغروب..

شمس ظهيرة اليوم حارقة تلهب الجباه، يرتكن بجذعه إلى العامود الخرساني، بين أصابعه كوب شاي ثقيل تتصاعد أبخرته بحرارة فيما تشتعل ثرثرة العمال الجالسين بالقرب من بعضهم البعض في وقت الراحة..

- تعالى أجبر الزاد ياعبدالله..



يحدثه الرجل الخمسيني بوداد، أكبر العمال سنًا وأكثرهم محاولة لخلق جسر تواصل معه، عندما أدرك البقية عدم رغبته في الحديث أو الانخراط توقفوا عن النظر له بعين العجب، أما هذا العجوز لا يتوقف عن التمعن فيه ولا يمل المحاولات، شكره بحركة رأس صامتة قبل أن ينهي قدحه ويتركه ناهضًا، يشد على عصابة رأسه ويمسك بمعوله ثم يبدأ في ضرب الجدار المطلوب هدمه مرة بعد مرة..

- أخينا ده مابيتعبش!..

تصله الهمهمات المتعضة بلهجة ريفية من وراء ظهره ولا يلتفت، بصره ثابت أمامه، حركته تتواتر بآلية، بروح خاوية ككل شيء فيه.

يختتم نهار الشقاء بخطوات تحفظ طريقها إلى المقابر، هناك يجد بعضًا من السكينة وحاله التي يعرفها، يجلس بقربه، يقرأه



السلام والفاتحة ويصمت، أحيانًا يشتهي الحديث فيكلمه وهو على يقين لن يجد ردًا..

ستة أشهر مرت وألم الفقد يدمغ الروح لا تهدأ أوجاعه، ستة أشهر لم يتخلف عن زيارته، عن المكوث إلى جانبه حتى يشعر بالإعياء فينهض مغادرًا..

منزل الجدة صار مسكنه، يدلف بهدوء ناسب عزوفه عن دنيا الأحياء، يحيا بمعزل عن الجميع بحال صامت، وحيد نادر الحضور، يلوذ للعمل صباحًا ويغرق حاله فيه وقاية من جنون التفكير والفراغ وحتى تغنيه الجنيهات المجنية عن الاحتكاك بالبشر القريب منهم والبعيد، يرتاح لهذا الحال ولا يبغي سواه..

- جيت يا عبدالله؟..

تلحق الجدة خطواته بوهن، ترقب حضوره داخل الحجرة المتوسطة بهمهمة تالية دون أن تنتظر ردًا لن يأتي به صاحبه:

- هسخن لك الأكل على ما تاخد دش وتغير هدومك..



يزيل عنه أتربة اليوم بحمام سريع وملبس مريح، في زاوية الغرفة يؤدي ما تبقى من فروض يومه المجمعة بوعي مشوش و أقدام متعبة لم تطأ مسجدًا منذ ليلة الحادث..

عندما ينتهي يجلس فوق طاولة الطعام بشهية غائبة، طعامٌ تعده أمه وتأتي به إليه كل يوم، يتناول منه النذر اليسير تحت مظلة أحاديث جدته التي تجاوره فوق مقعد قريب، تؤنس صمته بلين الأحرف:

- أمك فضلت قاعدة مستنياك أما اتأخرت طلعت..

يلوك الطعام ببطء وبصره ساقط فوق الصحن، تكلمه بقولها التالي بنبرة مهتم:

- بكر كمان سأل عليك..

تصمت هنيهة يطوف فيها بصرها فوق وجهه ذي النظرات الفارغة، حين يستوي العالم بلا أهمية يصير النظر ميتًا كعينيه السوداوين هاتين، لا شيء يجذبه أو يسترعي انتباهه، كل



الأشياء مثل بعضها باهتة وبلا معنى، لحيته مستطيلة أكثر من العادة، أمر تهذيبها صار يتناساه وإن تذكره مرره كأمر لا يستدعي التوقف، تتطلع إلى خشونة يديه و آثار الشقاء تحفر تفاصيلها فوق راحتهم وعلى الظهر فتتغضن أعينها شفقة على مآل حاله، يوجعها أن يدفن شبابه بين شقوق المشقة هربًا من الجميع وألمه وذنبه، ترى التعب يرزخ بأحماله فوق كتفيه وأجفانه ويعاند..

تكرر عليه قولها، ترجوه بلطف الكلمات أن يترفق بحاله و أبويه:

- لو بس تسمع كلام أخوك، عليك بأيه من الشقا ده كله..

- مرتاح كده..

يغمغم بإيجاز خافت فتعاود الحديث بشيء من حدة غاضبة له لا عليه:

- هي فين الراحة دي، مالك إنتَ بشغل العمال والصنايعية..



تحرك رأسها بقلة حيلة ثم ترتكن بها إلى عصاها مع فتور الأحرف وغصة قلبها:

- لو كانت بهدة الحيل والشقا كنا كلنا اشقينا، لكن اللي بتعمله ده واجع قلب والديك عليك ومش هيرجع اللي راح..

ينهي وجبته متجرعًا كوب الماء على آخره قبل أن يعيده إلى موضعه وبصره الجامد ثابت من أمامه، يستمع لنبرة التقريع واللوم الخفي بين طيات الكلمات المعادة على مسامعه كل عشية:

- بقالك قد إيه ماشوفتش أبوك؟ لو منزلكش هو ماتطلعش تطمن عليه، كده يا عبدالله؟ هو ليه مين غيركم يشيله في كبره..

يلتف لها برأسه، يلتقي بصره بعينيها وبينهما يدار همس مثقل:

- بكر معاه مش سايبه..

- وهو بكر هياخد باله من مين ولا مين بس..



يزوغ بصره عنها، يطوف ويتخبط من حولهما فتضع كفها المتغضن فوق عضده وتداهنه برفق:

- يا حبيبي أنا عايزاك ترجع وسطنا، وسط أمك وأبوك تبل ريقهم، كفاية حزنهم على أخوك ماتبقاش إنتَ وهو..

كالعادة لا يجد مايقول فينسحب وينهض بصمت، يتوارى خلف باب مغلق ملقيًا بجسده المنهك فوق الفراش، ينطوي على جانبه عاقدًا ذراعيه فوق رأسه، يسحبه بساط النوم ويسلبه الوعي قسرًا حتى يحين الفجر ويحين معه موعد كوابيسه المدمرة، كل ليلة في التوقيت ذاته يفزع جسده المتعرق لاهث الأنفاس، يحتاج إلى لحظات من الزمن حتى يستكين ببطء، يبقى بصره شاخصًا فوق السقف بلا حراك حتى طلوع الشمس، عندها ينهض إلى عمله ليبدأ يومًا جديدًا لا يختلف كثيرًا بتفاصيله عن الراحل.



الفجر ليس أسوأ أوقاته وحده، عمه وزوجه يتشاركان فيه الكرب ببصر مراقب لخطوات ابنتهم داخل ثوب الزفاف وهي تمر عائدة من سطح البناية، تدلف إلى غرفتها بحذر ثم تخلع عنها ثوبها وتضعه بالخزانة قبل أن تندس بفراشها ومع الليلة القادمة تعيد الكرة بعقل قرر قمع الحادث والاحتفاظ بآخر ذكرى حية تاركة أبويها ينوبان عنها بالوجيعة والألم والحيرة..

- وبعدين..

تسأل الأم بأعين ملتاعة وجسدها يسقط جوار زوجها الجالس بجذع محني، يشقيه حال ابنته ولا يعرف من أين يأتي لها بعقار الشفاء وهي لا تصدق غير نفسها نافية بكل الطرق أن بها علة..

- بنتي بتروح مني..

تهمس المرأة تاليًا وكفها يغطي فمها فيأخذ بها زوجها إلى صدره، ترتكن إليه ويستند عليها بقهره وعجزه وقلة حيلته.





أن تكون كبيرًا يعني أنك تعس الحظ، فالحزن مع الكبار معضلة..

ستكون مجبورًا على لملمة ألمك قبل الأوان ودفنه بأعماق الروح، الإنهيار ليس رفاهية متاحة طويلًا، عليك أن تصلب ظهرك ليستند عليه البقية، أن تتجاهل تلك الوغزات والآلام الحارقة التي تصيبك وتمضي لأن الوقوف معك نهاية..

سوف يتحدث عنك مشيب رأسك قبل الأوان وأطلال النظرات الخابية، ستعرف من قسماتك العابسة رغمًا عنك أن مادفنته فيك حيًا، نابضًا يشتعل دون رؤية.

قرار البقاء صار حتمي، عودة أخيرة للديار والأهل، ولو كان يقرأ الغيب لكان عجل بالقرار، لكن كتب عليه قدريًا أن تكون النهاية على هاته الشاكلة..



يبدو الأمر هزليًا حين يفكر، يتذكر كم خاض وامرأته خلافًا ونشبت بينهما الحروب وكلًا متشبثٌ برأيه حتى فصل بينهما القدر بنهاية غير محسوبة..

أنتَ تريد و أنا أريد

والله يفعل مايريد..

تلك المقولة هي ختام رحلة العائد بلا حسابات..

طوفان ضرب حياته، احتاج لأشهر حتى يعاود الإتزان، يعاود التعايش بين أروقة الوطن الذي هجره لأعوام طويلة، أن يرسو بأسرته فوق ميناء هادىء..

كانت فكرة العمل أصعبهم وأعسرهم، أن يخوض رحلة بحث عن وظيفة مناسبة ثم يتقيد بمقعدها لينال مبلغًا زهيدًا لا يرتقي به لنصف المعيشة لهو ضرب من التعاسة جوار تعاسة الأحبة وليته يفلح، ليته ينجو بهم ومعهم من هموم القلب وذكرى الراحل حية نابضة بين الأعين والجنبات الخاوية..



أنقذته "عبلة" حين مدت له يد العون بعرض شراكة، أن يضم المبلغ المالي الذي يملك إلى عملها ويتوسعان في المجال، وعلى هذا يسير الحال..

كان الليل قد انتصف حين دلف إلى البيت عائدًا، توقف الولدان عن الركض خلف بعضهما والتزمن بالهدوء والصمت لأن "بابا" الصبور صار غضبه حاضرًا، يغضب من الصوت العالي ويثور مع الإلحاح، كل صغائر الأمور التي كان يمررها أصبحت محل زعيق وتعنيف، لا يحزنهم هذا لأنهم يتفهمون معنى أن يفقد أحدهم شقيقًا يحبه بشدة بين ليلة وضحاها، قالت "ماما" أن الألم غير محتمل لذا تكون أفعالنا غير محسوبة وعلى الأحبة أن تتحمل بعضها البعض حتى تعود كل الأشياء حيث كانت.



راقبت حضوره من خلف المرآة العاكسة، واقفه تصفف خصلاتها المبتلة، طالعته لحين قبل أن تسأله السؤال الروتيني المكرر عن حمويها:

- ماما عاملة إيه النهاردة؟..

أجابها من خلف النسيج القطني للكنزة الذي شرع في ارتدائها:

- ماشي الحال..

تمدد فوق الفراش مستطردًا:

- جات عبلة خلصنا شوية حسابات وقالت هتروح مع ماما بكرة إستشارة الدكتور..

- والله بيللا طلعت جدعة قوي وحقيقي خسارة في جوزها التنح ده..

تمتمت بها وخطواتها المثقلة داخل ثوبها الفضفاض القصير تقترب فيما الزوج يؤكد:



- بيللا طول عمرها جدعة، في وقت الشدة أول حد يكون حاضر ويسد..

فردت الشرشف الخفيف قبل أن تندس بجسدها إلى جواره على مهل، تميل على جانبها ناحيته ومرفقها يستقبل ثقل رأسها بسؤال تالي:

- شوفت عبدالله؟..

رأسه المرتاح فوق الوسادة يتنهد، يلتقي بصره مع السقف الأبيض بقول فاتر:

- لأ، كالعادة يا نايم يا بره، بس كتر خيره بقاله أسبوع ملتزم بميعاد رجوع ورحمني من اللف وراه..

ضمت جانب وجهه داخل راحتها، تربت عليه بحنو الكلمات وصبرها:

- معلش، هيبقى كويس هو بس محتاج شوية وقت عشان يقدر يقف على رجليه من تاني، سيبوه ياخد وقته..



ليس هذا مايراه أويبديه الشقيق، طالعها والنظرات الناضحة بألم تكشف عن فتح الجرح الغائر:

- خايف أسيبه يروح هوكمان..

- بعد الشر ماتقولش كده..

هتفت توقف نزف الذكرى، تستبدلها بأخرى ويدها تمسح عن بطنها المنتفخ بأشهره الأخيرة وعلى ثغرها ترتسم عذوبة الإبتسامة:

- كلها كام يوم وعبدالرحمن يشرف..

لفظ الاسم دومًا يصحبه الحنين الممزوج بالأسى، بنبض صورة حية لآخركان يعده في منزلة ولده قبل الشقيق، يغالب مايعتمل فيه بتبسم باهت وتقديم للمشيئة.



في الموت عبرة..



معه تعيد ترتيب الحياة، تزيل ماكنت تظنه ذا أهمية قصوى وتلقي به أسفل القائمة، ترفع ماكنت تهمله لمنزلته المستحقة، تعيد ترتيب كل الأشياء والأشخاص..

مصاحبة الألم تصنع إنسانًا أكثر نضجًا ووعيًا مع الأيام..

ومعاشرة الذنب تولد الشعور الفاقم بالندم إن كان داخلك لم يفسد بعد..

اتحاد الألم مع الندم فيها دفعوا بها لمعاينة دفاترها القديمة، البحث عن أضلع عائلة تحتمي بها وتدفيء صقيع الروح، أن تتلمس بقربهم الحياة رغم الحطام الذي يكونه الجميع، يظن"بكر" أنها ساعدته بينما في الحقيقة هو من ساعدها، أقام بوجوده حائط أمان تستند عليه ولا تخاف تقلبات الزمن، ينتشلها من ركود الحياة والذكريات المقيتة إلى دنيا الأعمال والصخب التي تحب، أتاحت لها فرصة الشراكة أن تعود



وتحتل الصورة العائلية من المنتصف، أن تمتزج بتفاصيلها وألا تكتفي بالنظر من البعيد..

تطمح هي و ابن العم بضم أخيها وأخيه إليهم، أن يكون لاسمهم سلسلة محال تنتشر في أرجاء البلاد ويذاع الصيت، تتسع رقعة الحلم برفقة الأحبة وتكبر..

أخذها الجلوس في بيت عمها حتى تأخر بها الوقت، أو هي من تتعمد التأخير نكاية في هذا الجالس فوق الأريكة متابعًا التلفاز وبين يديه طبقٌ كبيرٌ من الفاكهة يتناولهم بالتناوب، ترك التفاحة عن يده بحدة وازت دخولها مستقبلًا إياها بصوت جهوري زاده انفعال مبالغ فيه:

- ما لسه بدري يا هانم، كنتِ باتي بره البيت بالمرة..

حدجته بطرف بصرها بإزدراء واضح قبل أن تهتف بواجهة باردة توازي خاصته:

- المرة الجاية حاضر..



تخلى عن جلوسه بنهوض سريع يقابل وقوفها بوقوف قريب، يمنع مرورها وتلون يجيده كل حين:

- بقلق عليكِ يا دبدوبي..

تلاقت أجفانها مستغفرة ربها بإنفعال مسموع قبل أن تعود إليه بالنظر:

- تاخد أوسكار في تقل الدم..

وأردفت بحدة حانقة:

- أوعى كده عديني..

قاطع خطوتها تاليا ونظرته الفجة ترافق خبث الكلمات:

- هو أنتِ على طول حامية كده، ده النهاردة الخميس وفيلم الوسادة الخالية شغال و أنا و إنتَ والحب تالتنا..

- يا الله يا ولي الصابرين!..

صرخت بوجهه فرفع كفيه مستسلمًا:



- خلاص خلاص من غير زعيق..

دفعت كتفه بقوة أزاحته عن طريقها قسرًا، تخبره من خلف كتفيها:

- روح اتخمد ياسعد..

أصاب ظهرها بأسهم الكلمات قبل أن تنتهي داخل الغرفة المغلقة:

- أنا مش عاجبني علاقتك بابن عمك، رغي في التلفونات ودخول وخروج من غير حسابات، إيه يا دبدوبي، إيه النظام، مدام نادية فين أمال..

توقفت خطواتها بإستدارة حادة وعودة إليه بقرب ولقاء أعين تنذر بشرر:

- بتلمح لأيه؟ قول تاني كده ماسمعتش..



شد من جذعه بشهيق طويل وكفين حشرهم داخل جيوب سرواله البيتي مغمغما وعينيه في عينيها لا تحيد بلقاء مغيظ:

- بقول نفسك مش بتروح غير للمتجوزين ولا إيه، الأول الراجل العجوز ودلوقتي ابن عمك أبو العيال..

- اخرس قطع لسانك، ابن عمي أنضف وأشرف منك يا حقير..

بصقت الأحرف بمنتصف وجهه فعاد يتقهقر بالكلمات بتجميل كاذب:

- طيب ماتتحمقيش قوي كده أنا عامل عليكِ، مش عايز الناس تجيب سيرتك بالعاطل إسمك مراتي ومحسوبة عليَّ..

ربتت فوق كتفه وحدتها تتحول لمسار الغيظ بكراهية معلنة:

- جدع طلقني بقى..

استغل قربها بقرب:

- اتحايلي عليَّ شوية..



حركت كتفيها بلامبالاة وابتسامة مستفزة ترتسم فوق شفاها خصته بها قبل أن تخطي باستدارة وجلوس فوق المقعد القريب، تترك حقيبة يدها أرضًا وترفع ساق فوق أخرى في كبرياء:

- واتحايل ليه ادينا قاعدين فوق قلوب بعض أما نشوف نفس مين أقصر..

راقبت اقترابه المتمهل، ارتكاز كفيه فوق جانبي المقعد من حولها، احتجازه لها بين محيط ذراعيه وصدره الذي أخذ في الميل والاقتراب لحد تبادل الأنفاس:

- طيب مفيش شكرًا للراجل اللي سترك ونجاكي من الفضيحة؟ أنتِ وأخوكِ ناكرين جمايل على فكرة..

هدوئها وابتسامتها الباقية أتاحت له فرصة الإقتراب حد مناوشة ثغرها وأتاحت لها القبض على وسطى أصابعه وجذبه



بشكل مباغت إلى الجهة العكسية حتى وطأ مسامعها قرقعت العظام المكسورة تبعها انتفاضه وصياحه الماجن:

- يابنت الـ.. آآه..

صرخاته ترافق قفزاته ونفضه ليده المصابه بينما نظراته كانت ترديها قتيلة اللحظة وهي تنهض بهدوئها المعتاد، تحمل حقيبتها عن الأرض وتسأله برأس مائل ونبرة لونتها بغنج أنثى:

- دي العاهة رقم كام يا دبدوبي؟..

أطلقت ضحكتها لتختلط بتأوهاته والسباب الذي أمطره لسانه قبل أن تقطع مابينهما بباب مغلق، تبدل ملابسها لأخرى خاصة بالنوم ودندنة عذبة ترافق حراكتها حتى سكنت فوق الفراش وراح صوتها يخفت تدريجيًا مع حركة أهدابها المتباطئة..



سوف تنهي هذا الفصل الهزلي من حياتها لكن حين تستقر أمور العائلة ويكونوا على إستعداد لاستقبال خبر جديد، فما يحدث كثير فوق الاحتمال.



على متن الحياة تسير أشرعتنا..

رغباتك هي الربان والقائد، نو اياك البوصلة والدليل..

في لحظة اختلال تاه شراعه وضل، فقد الطريق والعتم يحيط به من كل جانب، لم يتخبط ويهلع بحثًا عن نجاة بل ساير العتم، صادق الظلمات و اتخذ له من الوحدة خليلًا، في حسبة سريعة مع النفس وجد أن رحلته بالفعل خاسرة ولأجل هذا قرر المضي تبعًا لما تشتهي الرياح والأقدار المكتوبة..

بعادات تعاكس البشر كان ينفض عنه رداء النوم، الساعة تتخطى العاشرة مساءً، غادر الغرفة المعتمة بخطى مثقلة ليصطدم بالضوء ضاربًا بصره قبل أن يلتقط صورتها فوق



مائدة الطعام بسروال قصير للغاية وكنزة فضفاضة ذات كتف ساقط تهدل مع خصلاتها الباهتة، يعج سطح المائدة من حولها بأكياس المتجر الشهير والتي تمتلئ بشتى صنوف الغذاء والبقالة، عادة شهرية حرص عليها "عدنان الطوبجي" وفي قول أيسر حماه الموقر، رجل الأعمال الخاسر في دورة كرسي البرلمان..

السيجارة المشتعلة تتدلى من جانب فمها بينما إصبعاها الوسطى والسبابة محشوران بفوهة العلبة الزجاجية لزبدة الفول السوداني، تأخذ سيجارتها باليد الحرة وتدعك أنفها بظهرها قبل أن تلعق الخليط بواسطة أصابعها تحت أناظره المارة من أمامها بقرب وتمتمة متهكمة:

- ارحمي نفسك..

استغرق ثلاثين دقيقة لينهي حمامًا باردًا، طالع سطح المائدة الفارغ منها بعين ساخرة قبل أن يدلف إلى غرفته بمئزره



الحالك ومنشفة لها ذات اللون كانت تلاقي وجهه ورأسه بتجفيف، حين أبعد يده وجدها تعتلي فراشه، تتمدد فوق بطنها وترفع بساقيها لأعلى مع إبتسامة لعوب ترتسم فوق شفتيها ذات الحمرة القانية..

- أنا منبه ماتخطيش جوه الأوضة دي..

هتف بحدة ويده تشير للخارج مستطردًا بطرد و انفعال حقيقي أخشن له صوته:

- قومي اطلعي بره..

انقلبت على ظهرها بجسدها النحيل للغاية فارتفعت بلوزتها حد الكشف عن تفاصيل بطنها المسطح، تنهي التفافها المائع باعتدال وجلوس فوق حافة الفراش، تأخذ بالصورة المؤطرة له وزوجته السابقة في لباس عروسين يستنير وجه كليهما بضحكة واسعة وضاءة تعيد معها الزمن للوراء بضع سنين



وتضعها الآن بين يدي هذه المتكلمة بأحرف تنضح شماتة وسخرية:

- مش عايزني أدخلها عشان دي أوضة حبيبتك؟..

وأخذت تلوح بالصورة بين يدها، اقترب يجذبها منها بحدة، يفتح أعلى أدراج الكومودينو ملقيًا بها داخله قبل أن يغلقه بحدة تالية تستقيم على أثرها الجالسة وتمرر ظهر سبابتها فوق جانب وجهه الرطب، تتلكأ فوق شعيرات ذقنه النابتة ببطء وهمس مستفزلونته بغنج مفتعل:

- ياربي، قد إيه إنتَ حنين وواطي..

قبض على مرفق يدها ليهبط بها بعيدًا عن مرماه ثم سحبها من خلفه دافعًا بها إلى الخارج بغلظة:

- يلا ياختي مش طالبة سهوكة..

طرطق لسانها معترضًا باستدارة داخل إطار الباب تواجهه بعناد:



- مش خايف أشتكيك لبابي ولي نعمتك..

- اشتكيني للجن الأزرق..

أنهى كلماته ويده تدفعها ليغلق الباب لكنها أمسكت ساعده بكلتا يديها، أمعنت فيه النظر للحظات ثم مالت برأسها تلثم جانب وجنته بشفاها:

- برافو، تعجبني..

تدور بضحكاتها حول نفسها وخطواتها تبتعد بتمايل متراقص، تتركه متطلعًا في إثرها صاغرًا ثم معلقًا:

- ده الصنف عالي..

تركها بدوره واستدار صافعًا الباب بعنف، يلقي بالمنشفة فوق الفراش ويتحرك ناحية صوان الألبسة، ينهي ارتداء ثيابه ويقف خلف المرآة مصففًا خصلاته استعدادًا للخروج، بقاؤه في البيت لأجل النوم فقط، منذ رحلت عنه صاحبته وأصبحت



هذه الجدران مجرد فندق يستقبله نزيلًا لساعات وحسب، ستة أشهر ويزيدوا عشرة أيام وهي تشاركه بيته بهذا الحال..

وهي هنا تعود عليها..

"لارين الطوبجي" الشهيرة بـ"لورا" فتاة تنتصف العشرين توشم ساعدها الأيسر برسم أفعى، تتعاطى المخدرات وتعاقر الخمر أحيانًا، أما الدخان فهو صديق مقرب على الدوام، وهذا كله يتركها بنصف عقل غالب الوقت..

وكل ماسبق لا يعنيه أو اهتم بمعرفته هو فقط أدركه مع مرور الوقت، جل ما يدركه ويحفظه عن ظهر قلب هي جملة واحدة كررها أبوها حين انعقد بينهما إتفاق انتهى بزواج..

"لورا حصانك الأسود طول ما هي على ذمتك"

ولأجل تلك الكلمات مازالت ابنته المخبولة تسكن بيته وتعقد على اسمه.





غزلت لحالها بدرب الخيال حلمًا بعيد المنال، كانت تحلم ببيت جميل تقوم بتأثيثه حسب ذائقتها المحبة للألوان، يكون ذا شرفة نيلية تملؤها المزروعات وهي وهو معًا، حلم كان فيه الاستحالة ومع ذلك لم تتوقف يومًا عن تمنيه والدعاء لأجل تحقيقه..

قبلاً كان محال، اليوم تلامسه الأنامل بحقيقة الوجود..

نهارربيعي يشبه ألوان منزلها البهيج والر ائحة الشهية التي تفوح من بين أركان مطبخها، تنهي إعداد الطعام وتفك رباط المريول عن خصرها، تزيل رائحة الأطعمة بحمام عطري ثم تنتقل بين زوايا الردهة الأنيقة متشاغلة بالهاتف تارة والتلفاز تارة، معظم الأمسية تقضيها داخل الشرفة، اختفي سحر النيل الذي تعشق هذه الليلة لأن عقلها معلقًا مع عقارب الساعة، تدفع بها لتمضي حتى يعود..



أصبح الأربعاء اليوم الأطول في الأسبوع، حيث ينهي عمله ثم يذهب إلى جلسة العلاج الجماعي، تجربة جديدة يخوضها بين مجموعة دعم يتشارك فيها عدد من الأشخاص مروا بتجربة الاغتصاب التي مر بها زوجها، هذا النوع من التضامن يخلق لديهم نوع من القبول الذي تلتئم به ذواتهم المعطوبة، أكدت لها الأخصائية التي يقومان بزيارتها كجزء آخر من العلاج أن نسب الشفاء عالية..

وهي ليست بحاجة لأطباء ومختصين حتى يخبرونها أنه قطع شوط كبير ويسير على درب الشفاء بخطى ثابتة، كل ما تحتاجة لتدرك معنى ذلك هو العودة فقط للوراء وتمشيط الذاكرة، رائحة القبو العالقة بأنفها حين التذكر خير دليل، حالهما كغريبين تحت سقف واحد دليل آخر، طرقهم الغير متلاقية وكل عثرة أزاحتها عن طريقها بصبر وأمل حتى وجدت لهما نقطة التقاء خير الأدلة..



وحدها كانت شاهدة على حطامه، بيديها لملمت رفاته المتساقط لتعيد ترميمه مرة بعد مرة غير سامحة له بالانتهاء، كان من الظلم أن ينتهي وألا تعرف الرجل الرائع الذي يكونه..

الجميع يفخر بظاهره أما هي تفخر بالصبي داخله، ذاك الولد الصغير المحطم كليًا يغالب ألمه ونزف جراحه و اقفًا على قدميه بعناد، بإرادة ونصر..

كل ما تحتاجه هي نظرة واحدة نحو بيت سابق كان لهما وبيت حالي هو بهما لتعرف أن الفرق بين الأمس واليوم لا يحكى..

بل مقروء بين أسطر الزمان..

صوت المفاتيح يعلن عن عودته، تتنفس براحة وتهفو خطواتها من الشرفة إليه بلقاء، كل ليلة يلتقي فيها مع ماضيه تقسم بداخلها أنها سوف تتعامل بعادية تامة كما يرغب لكن رغمًا عنها يطوف بصرها فوق وجهه، تطمئن بروحها أن نكأ الجرح لا يصيبه بألم، تستقبله بإبتسامتها الدافئة المتأرجحة فوق ثغرها



قبل أن تدفنها فوق كتفه، يطول عناقها له عن المعتاد، لا يبعدها، بل يستوطن ضمتها كشربة ماء بعد نهار طويل قيظه شديد، في النهاية تبتعد وكلها اطمئنان أنه بخير، كل مرة سوف يكون أفضل..

تأخذ بيده إلى الداخل، تدفع الأمور العالقة بنغمة مرحة:

- طبخت أكلة جديدة، هجربها فيك..

رغمًا عنه يكون فاقدًا للشهية، ينهي وجبته في وقت قياسي وينهض، يميل للتوحد مع الأشغال والتوتر يكون رفيقه، يحتاج ليومين عقب كل جلسة حتى تتوازن بينهما الأمور، صارت تحفظ أحواله وتجيد التعامل..

العلاقة بينهما كزوجين لم تتحقق بعد بشكل مقبول، مازالت في إطار المحاولات مابين الفشل و الاعتذارات المرتبكة، يتقدمان ببطء لكن هي يكفيها أنهما يتشاركان غرفة واحدة ويجمع بينهما الفراش ذاته، بل تكون بالقرب الذي يتيح لها استنشاق عطره



بلا أي عوائق وبساط الحديث يمتد ويتسع تحتهما براحة للحد الذي يدفعه أن يبتدي هو كاسرًا صمته عن ذات إرادة:

- أخبار ندى إيه؟..

يهتم بشأن شقيقتها الذي يُتعب الجميع بل ويبحث لها عن الحلول من خلال طبيبه الخاص..

تنهيدة قوية رافقت غلقها للكتاب الكامن بين يديها قبل أن تضعه جانبًا وتقابله بالتفات وقول فاتر:

- النهاردة دكتور جديد شافها، قال نفس الكلام اللي بيتقال، فقدان ذاكرة نفسي بسبب الصدمة ونصح ندخلها مصحة بس بابا رفض طبعا..

عاد لظهر الفراش في وضع استرخاء رافق حديثها القلق:

- أنا قلقانة على بابا قوي، سكره رجع يعلى تاني، طول الوقت يكابر ويقول كويس بس هو مش كويس..



- غصب عنه شايل هم ندى..

أكدت على قوله بتمتمة وهزة رأس:

- قوي، شايل همها وخايف من اللحظة اللي تفوق فيها..

اختنق صوتها رغمًا عنها في ختام أحرفها، غالبت ضيق قسماتها بالتفات جانبي قطعه بأخذها إليه، تستوطن صدره برأس ارتاح فوق كتفه وذراع التف حول خصره بصمت ليتقاربان في حميمية وألفة..

ظل شاردًا ببصره وأصابعه تضم على كتفها بقرب، للحظات طغى عليهما السكون قبل أن يقطعه بخفوت:

- النهاردة بنت اتكلمت عن أبوها اللي فضل خمس سنين يعتدي عليها بدون ما يحس بذرة ندم، كانت بتتكلم بشكل يقول إنها تجاوزت التجربة رغم صعوبتها بس ماقدرتش أمنع تفكيري عن طبيعة وجود شخص زي ده، إزاي في أب يقدر يعمل كده في بنته!..



تحركت يدها من جانبه واستكانت فوق صدره، تمسح فوق النسيج القطني ببطء رافق تتابع حروفه الخافتة:

- من لحظات بس كنت بفكر إن مفيش أب كويس لحد ماجات سيرة والدك، حبه ليكم بيظهر في الكلام قبل الفعل..

تبسمت ويدها ترتفع إلى وجنته، تمسح عنها برفق مغمغمة بنبرة فيها عذوبة:

- بابا أجمل وأحن أب في الدنيا، وأنكل رشدي كمان، وعمو حامد وبكر ابن عمي، وناس كتير أعرفهم وسمعت عنهم، الدنيا زي مافيها الوحش فيها الحلو..

أخفض لها بصره ليلاقي عينيها القريبة بلقاء وتبسم لطيف تبادل فوق الشفاه، تعانقت أجفانها ودنت تلثم جانب فكه قبل أن تعود لعينيه هامسة بخفوت سر عميق لا يخص سواهما:

- وإنتَ كمان هتكون أب جميل..

امرأة بنكهة حياة..



تلك هي امرأته.



للحزن مع الناس مذاهب..

هي نالت أسوأهم، ذاك الذي يسري فيك بصمت، يعبر الأوردة ويصب في الفؤاد بنيرانه، تحترق من الداخل بينما في الخارج لا يظهر عليك غير الجمود، ليست صلابة وإنما خواء، كأن ما فيك يموت ببطء وتنتهي أنت معه ببطء مواز..

لأول مرة تختار "دهب" لأجل نفسها قبل أيٍّ كان، لأول مرة تختبر شعور الأنانية عن ذات إرادة، أن تقرر التخلي دون شعور يتفاقم بالذنب..

أن تبتعد بالقدر الذي يمنحها فسحة الصمت والفراغ ليعبر وجعها عن حاله دون قيود، أن تعيد هندمة حياتها الخربة بمفردها، كان حزنها أكبر منها وكانت بحاجة أن تتعايش معه، تركه يمر فيها ويضخم قلبها بالألم، أن تبكي بالقدر الذي ترغب



دون أن تزيد وجيعة أحبتها، أو أن تدفن مابداخلها لأن هناك من يجب أن تهتم بأمره..

تعلم حاجة الجميع لها ورغم ذلك اختارت نفسها، اختارت الرحيل والانتهاء فوق مقعد هزاز خلف شرفة عريضة بمدينة ستوكهولم السويدية..

بقعتها مع كل صباح باكر، تجلس وتعانق ببصرها الأفق الممتد، ترقب رحيل العتم و انشقاق الضياء، تدرج السماء حتى تستوي زرقاء صافية أو غائمة برمادية، تجلس وتهتز برفق فتتبعثر الذكريات، تجيش بصدرها فتنزلق العبرة حارة بلهيب جوفها المحترق..

بين أيديها قبعت صورة فوتوغراف تجمع أربعتهم فوق شاطيء البحر، اثنان عن جنبيها وثالثهم الراحل يعانقها من الخلف، الوجوه ضاحكة، سعيدة، لم تكن تحسب حساب الفقد آنذاك..



تغفو في جلوسها دون أن تشعر فتراه بين أحلامها، هي وهو وحدهما والفضاء من حولهما يتسع بفراغ، تتطلع نحوه ويدها تمتد إليه بدعوة متلهفة..

"وحشتني قوي، تعالى.."

ينظرها دون أن يتحرك، تطرف أجفانه ببطء وعيناه ثابتة عليها لا تحيد، تقرن قولها التالي بنية نهوض و اقتراب:

"طيب آجي لك أنا.."

"لا خليكي!.."

يقولها بغتةً ويده تمتد ناحيتها توقف نو اياها وتعيدها حيث مجلسها، ينفرج فمه عن تبسم لطيف ويده تعود حيث كانت فوق ركبته، مغمغمًا لها بمحياه الباسم:

"خليكي معاهم كلهم محتاجين لك، بنتك وعبدالله يادهب، عبدالله"



شهقة صغيرة تعبر فمها برجفة خاطفة تخرجها من غفوتها القصيرة، يد تحط فوق بطنها المنتفخ بينما الأخرى ترتفع على مهل تقطع سيلان العبرة فوق الوجنة، جسدها المنتفض يعود إلى استرخائه فوق المقعد المتأرجح ببطء، تستكين بصحو وذاكرتها تقرأ تفاصيل زائر الحلم، أنامل الحنين تتبع قسمات وجهه الذي تحفظ بلهفة، خيوط الشمس المقتحمة للشرفة تعاكس عينيها فتطرف أهدابها مرة بعد مرة ثم تسيل العبرات في صمت وعن ذات إرادة هذه المرة..

على بعد خطوات خلف النصف جدار للمطبخ ذا الطابع الأوربي يقف "ناصف" مشاهدًا المشهد المكرر على مدار ستة أشهر، امرأة بلباس حداد يتسع ويتبدل وفقا لانتفاخ بطنها، تقيم عزاءها الخاص بمعزل عن الجميع، تصادق حزنها داخل زنزانة منفردة، ستة أشهر ولم ينتهِ حدادها بعد، مازال سرادق العزاء قائم بين جنبيها، أحيانًا يتغير البكاء الصامت ويتحول لنحيب حارق، يراها تنكفىء بجذعها إلى الأمام، تكبح ضجيج



نواحها بكف يكمم فمها، تفرغ ما بهما ثم تنظر العالم بأعين فارغة..

قبل الستة أشهر وضعها فوق مفترق طرق، قال اختاري ولك حريتك، لكن جاءه ردها مخالفًا لما عرض، أخبرته أن الأسف وحده لا يغفر، وأن تصليح الأخطاء يستوجب الاعتراف بها وتحمل عواقبها..

والعواقب جنين يكبر حتى بلغ من العمر سبعة أشهر، طفلة قادمة إلى الحياة بين أبوين يعرفان بعضهما كالغرباء وتجمع بهم حياة صامتة تحت سقف مسئوليته التامة..

يعاصر حزنها كل يوم، يتشاركان مسكنًا واحدًا ولا يتحدثان إلا للضرورة القصوى، كل الأحاديث مؤجلة حتى تضع طفلتها، هكذا نصت بقية أقوالها وهو مجبول على القبول بعد أن سحبت منه زمام القرار..



أنهى إعداد شطيرة الجبن وتسخين كوب الحليب ثم حملهم وسار بهما حيث تجلس جوار الشرفة تتبع الأفق بأعين خاوية يسورها السواد..

- صباح الخير..

ترك مابيده فوق المنضدة التي تجاورها، قرب أدويتها لتصبح لها في متناول قبضة اليد ثم حمل الصمت خطواته برحيل إلى العمل.



حاضرٌ رغم الغياب

غائبٌ رغم الحضور

يقضي نهار الجمعة بصحبته هاربًا من فراغ الساعات، ينظف المدفن، يجمع الأوراق المتساقطة من الشجر والنفايات النازحة بفعل الرياح، يبخ المياه فوق الأرضية الترابية مبردًا إياها، أفعال رتيبة تنطوي مع أيامه..



وقع الخطوات القادمة اقترب فأنزل الدلو أرضًا، راقب وقوفه أمام القبر للحظات انتهى فيها من الدعاء للغائبين قبل أن يعانقه "عزيز" بسلام وسؤال عن الحال..

حرك "عبدالله" رأسًا بجواب مصمت أعقبه بعد حين بقول مرادف وحدقتيه تضيقان قبيل شمس الظهيرة:

- إنتَ كويس؟..

طالعه "عزيز" متمتمًا بنبرة هامدة:

- يعني ماشي الحال..

ضحكة ماسخة افتعلها مردفًا بذات النبرة:

- كل ما تضيق عليَّ ألاقيني جاي على هنا، تخيل ماتلاقيش حد فوق الأرض فتيجي تدورعلى اللي تحتها..

ظل يرمقه "عبدالله" للحظات قبل أن يحدثه بروح ضامرة، لا تمررالأيام، بل باقية عالقة مع لحظة الفقد والخسارة:



- الله يرحمهم..

يغادران المدفن معًا، يفترقان عند أول الطريق، يرحل ابن العم ويعود هو إلى جدته، يفعل ما يفعله كل مساء، جسده صار يحفظ التحركات وينفذها بلا وعي من صاحبه، حمام دافيء ثم تأدية فرضه منتهيًا فوق المائدة يلوك الطعام بشهية مفقودة قبل أن يرتمي فوق الفراش، كل شيء مر بروتينية حتى موعد كوابيسه، قبل أن تحين فزع من نومه على صوت صراخ يطرق ذهنه، انتفض بنهوض مغادرًا الغرفة ليصطدم مع جدته الفزعة بدورها تتخبط بوهن حركة مرددة بهلع:

- سترك يارب سترك..

تجاوزها فاتحًا الباب و أقدامه الحافية تهرع نحو الأعلى..

**

عودة سريعة بالزمن لما قبل حين ومحاولة أبوين في إعادة وعي ابنتهم الغائب عن دنياهم، قبل موعدها الليلي بالصعود إلى



سطح البناية مرتدية ثوب عرسها قام أبوها بإخفاء الثوب عنها..

حين حان موعدها تخبطت أذرعتها داخل الصوان ببحث، تخبط سرعان ماتحول لهذيان وصياح، العقل المبرمج يختل فاقدًا ترتيب الحدث الذي يحفظ..

أشعلت المصابيح وهرولت الأقدام، تلقفها أبواها بين أيديهم مرددين اسمها بهلع حتى سقط جسدها المنتفض من بينهم فوق الأرضية بأطراف تعارك الفراغ، رأسها يرتج يمنة ويسرة برفض وصدرها يختض بشهقات حادة، شقيقتها الصغرى، عمها وزوجه، جميعًا بالقرب منها محاولين السيطرة على انفعالها الحاد بالقول والحد من تخبط أطرافها، حضر الراكض فوق الدرج ليجد الباب مفتوحًا على مصراعيه وجميعهم ملتفون من حولها..



مع ظهوره توقف كل الضجيج وعينا الباكية تتعلق فيه من خلفهم بنداء مبحوح:

- عبدالرحمن!..

انتفضت من بين أيديهم بنهوض، أقدامها تقطع المسافة القصيرة في هرولة أقرب لركض، تلقي بحالها فوقه وذراعاها يطوقانه بقوة توازي انهيارها الباكي..

دارت الأعين تلتفت ببطء مع وقع اللحظة وتنتهي فوق عيني المتصلب بجسده و أنفاسه تحت وطأة العناق.



(27)

لحظة اختلال..

سقط فيها الوعي بمنطقة ضبابية وتعلق القلب بأحبال العشق رافضًا التخلي..

لحظة قمع..

للحدث، للذكرى، للألم..

لحظة ارتطام..

بين جسدين وزلزلة سقوط قبل اتزان بعناق، لحظة تيه أعقبها أمان وذراعاها يضمانه بتشبث، تحمل عبراتها الشكوى وتعبر وجنتيها بغزارة قبل أن تنتهي فوق كتفه..

لحظة أشبه ببرقة رعدية تركته مصدومًا لا يؤتي على حراك، جسده المستقيم جامد في صلابة وأنفاس محتبسة، لم يشعر



بضمور رئتيه حتى شدها أبوها قاطعًا العناق بسرعة مباغتة رغم هالة الصدمة التي تكتنف الكل، استدار الجامد على عقبيه هاربًا دون أن ينبس ببنت شفه، صوتها و أقدامها تلاحق رحيله بتأنيب شحبت أحرفه إثر النوح:

- إنتَ رايح فين وسايبني؟..

عاود أبوها جذبها من إطار الباب الذي تحتله بزعيق شديد نفض به زوجته الجامدة كحال الجميع:

- خوديها جوه..

ترددت الأصوات فوق مسامعه وأنفاسه الحادة تجوب بين فراغ أضلعه بعسر وتخبط، أثناء هبوطه المضطرب اصطدم مع عيني الجدة الصاعدة بثقل الخطى حتى بلغت منتصف الدرج بحشرجة أنفاس وسؤال تلقاه كلكمة ضربت معدته فانحنى لها سائر الجسد:

- بنت عمك مالها؟!..



تابع خطواته دون رد، دلف حجرته صافقًا بابها من خلفه، تخبطت أقدامه دون هدى في منتصف الغرفة والفراغ الضئيل قبل أن ينتهي جالسًا فوق جانب الفراش، تضيق أعينه وترتكز فوق نقطة وهمية محاولًا استيعاب ماحدث قبل لحظات، كيف ضمته ونعتته باسم أخيه!..

هذا الالتباس تركه يقظًا طوال الليل يتقلب على جنبيه والأرق يحل عليه ضيفًا ثقيلًا، ينهض في موعده مع باكورة الصباح ويرحل إلى عمله، لا يسأل عما يحدث مع ابنة العم ولن يفعل، يخضع عقله للصمت قسرًا، يزيد من جرعة الشقاء فلا يجلس كغيره للاستراحة رغم الإنهاك، لا يترك مجالًا للأمر الذي يضيق بصدره أن يعصف برأسه..

حين وصل البيت وجد كل ما هرب منه ليلًا ونهارًا متجسدًا أمامه، جالسة فوق الدرج تترقب مجيئه، أو مجيء توأمه إن صح القول..



اتبع درب التجاهل مصطنعًا عدم الرؤية وخطواته تشتد قاصدًا باب جدته القابع على بعد قريب..

- عبدالرحمن!..

تقطع نواياه وتبثه الجمود كليلة الأمس، يستديرلقربها ملتفتًا، تمعن عيناه النظرفي وجهها رغمًا عنه، كان يتباحث عن معنى لما يحدث معها لكنه وجد أخيه قابعًا هناك بين عينيها التي تتطلع إليه بهما والحزن يخط تفاصيله فوق وجهها المضرج بآثار البكاء..

- بابا بيقول هنأجل الفرح عشان عندك مشاكل كتير في الشغل..

كذبة ارتجلها أبوها بعد حدث الليلة الماضية وهو يرى انفلات الأموريأخذ مسارًا آخرًا، يحاولون معها برفق، هشاشة الروح التي بها تجعلهم أكثرحيطة وحذرفي التعامل..

تهدج صوتها رغمًا عنها ونظراتها تتبع درب اللوم:



- ليه خبيت عليَّ؟..

لا ترى انقباض وجهه بينما تتحول نبرتها رغم بحتها لزجر واستنكار:

- ليه تتعاملوا معايا كأني عيلة!..

انزلقت عبرة محتها بظهر كفها في صرامة قبل أن ترفع ذقنها مستطردة بصلابة ظاهرية وتحد، تخبره أنها ليست تلك المدللة الطائشة التي يظنونها:

- أنا مش عيلة وبعرف أتحمل مسئولية كويس قوي..

تبتلعه دوامة خرس، ينظر ويسمع ولا يعرف ماهية القول، لفت أصابعها حول ساعده قابضة عليه بضمتها، تهزه ونبرة صوتها المتعجبة تعلو بتحشرجها:

- إنتَ مابتردش عليَّ ليه؟!..



خلص ذراعه من بين أصابعها بالتواء وخطوة تقهقرها للخلف آمرًا إياها بالقول الجاف:

- ندى لو سمحتِ اطلعي فوق..

أعقب هذا بإستدارة سريعة ينوي بها ابتعاد قطعتها ويدها تجذب جانب قميصه تعيده إليها بزعيق مماثل:

- مش هطلع قبل مانتكلم و أفهم هنعمل إيه..

صاح في وجهها بغلظة فاقدًا السيطرة والشعور:

- بقولك اطلعي..

- إنتَ بتزعق لي ليه، أنا ذنبي إيه!..

غمغمت بها باكية وقبضة يدها فوق جانبه تضم على النسيج وتجبره على بقاء..

هبط أبوه عوضًا عن أبيها الغائب تتقدمه شقيقتها الصغرى بفزع مبعثرين بأصواتهم الصورة الو اقعة..



- تعالي يا ندى..

يسحبها أبوه عنه، يأخذ بها أسفل ذراعه ويستدير حادجًا ولده بنظرة مصمتة قبل أن يصعد بها إلى أعلى ومن خلفهم تتبعهم شقيقتها بوجه لونه الأسى، تميل برأسها فوق صدر عمها، تسأله من بين نحيبها والنهنهات المتقطعة:

- عمو حامد هما بيعملوا كده ليه؟..

تقصد أباها والحبيب، تتعجب أفعالهم والتعمد لكسر خاطرها وفرحتها معًا، يشدد العم على ضمتها متابعًا صعوده المتباطىء آخذًا بها على محمل الغياب الذي تعيشه:

- معلش تعالي قولي لي مين مزعلك..

لا تجيبه، بل تنظر ولده الباقي أسفل الدرج متطلعًا إليهم وشاخصًا ببصره في صمت، حزن عينيها عاتبه كما يفعل المحبين:

- زعلانة منك بجد..



تختفي بصحبة أبيه ولا يستطيع تمرير الأمر هذه المرة، امسك بهاتفه المتروك بإهمال فوق منضدة الفراش وأجرى وصالًا مع شقيقته البعيدة فحواه ومضمونة صاحبة العقل المعتل بغياب الحبيب.



لحظة إدراك قاسية..

بل قاتلة..

هو لا يحمل دماء أخيه المستباحة غدرًا وكفى، بل وذنب ابنة العم علق بجيده، العروس التي تحول زواجها لمأتم، الأب الذي كُسر بفقد والأم المتعايشة بالحسرة بين جنبيها، الشقيقة التي تتألم صمتًا وبعدًا، والأخ الكبير الذي يواري حزنه ليمتص أحزان الجميع، كل تلك الأوجاع التي تصحبهم هو المتسبب الأول فيها، كل تلك الذنوب التي ينوء بحملها تقصم ظهره وتترك هامته محنيه..



منذ أن علم بحالتها وكل السوء بداخله يتحول لأسوأ، مثل عصا خفية تعبث بجمر صدره فيتوهج بنيرانه ويتلظى، صار يتأخر في عودته عن عمد، يترك الليل يسحبه في حلكته حتى يشارف على الإنتصاف، يجوب الشوارع على غير هدى أو بغية، لا يريد أن تراه فتظنه أخاه وتعاد الكره، لا يريد أن يتقابل مع أيٍّ منهم، كان الخزي والكرب يعتليه ويتركه شخصًا أصمًا بعقل مشوش يرى الكون من أمامه مقفرًا وضبابيًا..

حين عاد في الوقت المتأخر ذاك وجد أباه حاضرًا بجلوس إلى جوار الجدة بصحن دارها، مرر عليهم السلام الخافت قبل أن يوقف أبوه خطاه المثقلة بقول صارم:

- ادخل غير هدومك وكل لك لقمة، قاعد مستنيك عايز أتكلم معاك..

نقل"عبدالله" بصره فوق جدته المتلحفة برداء الصمت ثم استدار ماضيًا دون حديث..



ظل يتبعه بنظراته مقلبًا كلماته بين جنبي رأسه حتى انتهى جالسًا إلى جانبه في صمت، عندها تكلم الوالد بلهجة خرجت رغمًا عنه حادة:

- قلت هتخرج من عزلتك أما تشوف الهم اللي عمك والكل عايش فيه..

رفع له وجهًا كالحًا مصمتًا كصمت القبور للحظات، غمغم بعدها بنبرة خفيضة:

- مطلوب مني إيه؟..

صاح الأب بانفعال علت وتيرته فبات أقرب لزعيق ويده تنتفض بالمسبحة المعلقة بين أصابعه:

- مطلوب منك تفوق، تشوف أهلك محتاجين إيه حواليك وتسندهم، أما أنتَ الراجل تقع هسيب أمك وأختك ورايا لمين؟..



يلضم الكلمة وراء الكلمة، السابقة تتبع التالية وتطرق أسماع الصامت بنبرة تقريع ولوم مجدولة بسوط الخذلان:

- بنت عمك تعبانة، الناس بتقول اتجننت، طال الكلام ووصل شرف أخوك الميت، قالوا خلى بيها وتمم جوازه منها، البنت متحملتش وعقلها هرب..

تمخضت قسمات المستمع بالآسى والعبوس بينما أبيه يتابع غيرسامحٍ له بفراغ يلتقط فيه الأنفاس:

- عمك جاله السكر، ركبه الهم والمرض من الزعل..

صمت أبوه وزفر أنفاسه المثقلة بعد أن صارحه بالحقائق الغائبة، مال المدرك بجذعه آخذًا برأسه بين كفيه، لم يدرِكم مضى من الوقت حتى تكلم أبوه بصوت بعيد، قادم من قاع سحيق:

- هتكمل اللي أخوك بدأه..



ليس بشدة، بل ببطء شديد رفع رأسه المحني حتى قابل عيني أبيه ليرى الماكث فيهما لا يسره و انعقد له الجبين:

- يعني إيه؟..

سأل بصوت جامد فهتف الأب بوضاحة شمس النهار:

- تتجوز ندى..

لم يؤتِ أي فعل، ظل على حاله الجامد دون حراك والأب يسهب تاليًا بإيضاح لازم:

- البنت فضلت تلات سنين على ذمة أخوك داخلين خارجين سوا قدام كل الناس وبعد تعبها ده لو إنتَ ماخدتهاش محدش هيرضى بيها..

انتفض من جانبه و اقفًا، يقابله بأعين مصعوقة غير مصدقة، نهض الأب بدوره يقابله بصرامة القول والنظر:



- مش مشيل نفسك مسئولية اللي حصل؟ شيل اللي سابه وراه، خطيبته وشرفه اللي الناس واخدينهم سلاوة في قعداتهم..

- ملعون أبو الناس!..

صاح بها في وجه أبيه قبل أن يرفع يديه صانعًا منهما قوسين وضع في أوسطتهم كلماته التالية:

- وبعدين ماتقولش خطيبته، قول خد حياته وعيش بداله كده الكلام يبقى معقول..

- قول اللي تقوله مابقتش تفرق، المهم تشوف الحال اللي احنا فيه وتتصرف زي الرجالة، تقف في كتف عمك وتقوله بنت عمي أنا أولى بيها..

تقهقرت أقدامه للخلف ناقلًا بصره بينهما، مشهرًا بسبابته في وجه أبيه وجدته الصامتة بقبول لكل كلمة قيلت وتقال:

- الموضوع ده مايتفتحش تاني..



استدار عنهم بحدة رافقت خطواته المتخبطة، انتهى بين جدران المطبخ الضيق يدور من حول نفسه بشتات، لمح ابريق الماء موضوع فوق الرخام فاقترب يسكب الماء، حاول رفع الكوب فتساقطت القطرات إثر إرتجافة يده، أعاده إلى موضعه في حدة محاولًا السيطرة على ارتعاشة الجسد وسخونة رأسه النابضة، ارتكز بكفيه فوق حافة الرخام مائلاً بجذعه مطلقًا سهام النفس الملتهبة، مضى حين من الوقت وهو على هذا الحال قبل أن يعاود الخروج، يمر من أمامهم دون النظر وينتهي صافقًا الباب من خلفه عقب رحيل.



لحظة حقيقة..

استحوذ فيها القدر على ريشة الرسم ثم فرض خطوطه حتى شكل لوحة الحياة بو اقعية..



رسم له صورة عائلة مكتملة التكوين، زوج وزوجة وطفلة على طريق القدوم..

صورة أقرب للمثالية، أقرب للكمال لا تشوبها شائبة أمام أعين الناظرين..

بينما في الحقيقة وحتى اللحظة يجهل ماهية مشاعره إتجاه تلك الطفلة القابعة برحم زوجه، لا يعلم ماذا تشكل له ولا ماذا تعني مع هذا الإنتظار والترقب لقدومها، جل ما يعتريه شعور الواجب والمسئولية التي طوقت عنقه دونما يحسب لها حساب ولم يستطع إلا أن يحملها ويتقبلها حتى لا يكون نسخة رديئة من الآباء، نسخة رديئة مثل أبيه..

مضطجعًا جسده بأريحية يوم العطلة فوق الأريكة العريضة فاردًا ساقيه المتقاطعين من أمامه، بين أصابعه قبع جهاز التحكم الخاص بالتلفاز يتنقل بين القنوات برتابة وملل بينما تركيزه كله مع الغاضبة إلى جواره..



- أنتوا أكيد اتجننتوا يا بكر، إزاي تفكروا كده؟ وإنتَ إزاي توافقهم مش فاهمة!..

منذ الساعة والهاتف معلق فوق أذنها آخذة بجانب الردهة ذهابًا وإيابًا، تزعق تارة وتستمع بصمت تارة أخرى، هاتفت أبويها ثم تبعتهم الآن بشقيقها الأكبر، ترغي وتزبد بإنفعال شديد ويدها الحرة فوق بطنها المنتفخ حينًا وخلف ظهرها حينًا آخر..

- متحاولش تقنعني بكلام بابا، ندى هتتعالج وتبقى كويسة بس مش كده، مش بالطريقة دي، عبدالله فيه اللي مكفيه سيبوه في حاله..

امرأة عجيبة لديها القدرة التامة على الإهتمام بالجميع رغم ما تحمله بداخلها، تهتم بشأن أخيها الكبير وتتابع تطور عمله ولا تكل من دفعه ومده بالكلمات المشجعة..



أما الصغير تضعه في منزلة خاصة، تحنو عليه كولدها وليس أخيها، تسأله عن مأكله ومشربه وتجبره على القسم أنه يفعل، لا تتوقف عن رعايته وحبه ولا تعيقها مسافات..

تهاتف أبويها مرتين مع كل صبح ومساء، كما تحفظ مواعيد أدويتهم ومعيناتهم الطبية حتى تذكرهم فيها، تحادث الطبيب ولا تتوقف عن القلق حتى تطمئن بنفسها..

عرف عن وضع ابنة عمها المريضة بأدق تفاصيله من خلال ثرثرتها مع الشقيقة الكبرى للمعنية، تمضي بهم الساعات وكلتاهما تتباحثان كطبيبتين عن الحلول عبر شبكات التواصل وكل السبل المتاحة..

تهتم بحال الجميع وحين يسألون عن حالها تخبرهم أنها بخير حال حتى وإن كانت طريحة فراش المرض..

- طيب أنا عايزه اكلمه أطمن عليه وهو مابيردش عليَّ، روح عنده يابكر لو سمحت وخليه يكلمني..



لا تكل أو تمل، ولا تعرف معنى الاستسلام..

معجونة بالاصرار..

لا تسأم المحاولات..

- أنا هادية وكويسة ماتقلقش، هستنى تلفون أما تروح له، مع السلامة يا حبيبي في حفظ الله..

أنهت اتصالها وأدارت جسدها ناحية الشرفة مغمغمة لحالها بضيق مازال يجوب أضلعها:

- الله يسامحك يا بابا..

عادت مستديرة الخطى في الحال، كادت أن تتجاوزه بذهنها الشارد حين أتاها صوته الهادىء محدثًا إياها على حين غرة:

- على فكرة تفكيروالدك منطقي..

توقفت تنظر جلوسه المرتاح من علوها، تصب فوق قوله جام غضبها بنبرة محتدمة ظاهرها فظاظة:



- منطقي من أي اتجاه معلش!..

وقف قبيلها متحدثًا بعملية:

- من اتجاه عبدالله اللي عايش بذنب أخوه، هو تفكيره كأب عايز يخرج ابنه من الحالة دي ومن اتجاه تاني بنت أخوه اللي بتمر بظرف صعب ومعتبرها في مقام بنته..

ضربت بكلماته عرض الحائط بإعتراض صارم:

- تفكيرهم ده كله مش صح..

نبرته خفيضة بطبعها الهادىء رغم أعاصير الغضب الحانقة التي تنفثها في وجهه:

- أنا مابقولش صح ولا غلط، أنا بوضح لك حقيقة تفكيروالدك اللي أنتِ مش شيفاها من الأساس وسط انفعالك..

وكأن لفظه لكلمة إنفعال زادت من وطأة مايعتمل فيها حتى عكسته فوق قسماتها المشدودة:



- المفروض بابا يكون عارف أن اللي بيطلبه من ابنه صعب عليه يقبله..

حدثها بمنطق العام:

- كل حاجة في الغالب بتكون صعبة ومستحيلة والتجربة وحدها تحكم..

جاء ردها بتجهم وجه وأحرف باطنها يتعمد الطعن بتصرف وقد أثار غيظها بحديثه:

- ده حقيقي بس مش عبدالله اللي يتجوز واحدة مش شيفاه أيا كانت الظروف أو الأسباب..

صمته الذي امتد مع نظراته الجامدة أكدا أنها أصابت الطعن فيما قررت الصمت عنه، وجد صوته الهادىء بعد حين ليغمغم بلا معنى:

- كل إنسان وله طبيعته يا دكتورة..



قال هذا واستدار عائدًا إلى موضعه الأولي، التفت ناحيتها قبل أن يجلس مستطردًا بنبرة بدت تتعمد إثارة غيظها:

- وبالمناسبة مفيش داعي لانفعالك ده كله وإصرارك على الرفض، وصلتي رأيك خلاص شكرًا، الموضوع مايخصكيش بشكل شخصي عشان تحطي فيه قرار مصيري، سيبي عبدالله يفكر ويقرر بدون ما تأثري عليه بكلامك أو تخلقي جبهة مضادة تضغط عليه بزيادة..

نجح في إخراجها عن طورها وانتفاخ أوداجها بحنق شديد، رمته بغلظة قبل أن تستدير عنه:

- ده أخويا واللي يخصه يخصني وبعدين أنا مطلبتش رأيك!..

مط أحرفه بلا اكتراث:

- والله أما توطي صوتك وتقفلي السنترال المفتوح فوق دماغي أبقى أحتفظ برأيي لنفسي..



حملت غضبها وذهبت إلى المطبخ، أخذت تتحرك بعشوائية تمسك هذه وتلقي بتلك وكلماته تدق رأسها، تشتعل مراجل غضبها فتنظره من خلف النصف جدار المستدير هاتفة من موضعها بثورة حانقة:

- أنا أتكلم براحتي وأعلي صوتي براحتي واللي مش عاجبه هو حر!..

أمام هدير حنقها رفع أحد كفيه مستسلمًا بزفرة أنفاس:

- تمام أنا آسف، على راحتك خالص..

بدت موافقته على حديثها الفظ كأنه يخاطب مخبولة آخذًا بها على محمل عقلها الصغير..

وهذا تحديدًا ما ضاعف من غضبها!..



لحظة خوف..



تدفعك للتحرك والتجديف لتنجو بأحبتك من حدود الخطر..

كانت ترى العذاب في حال شقيقتها رغم طبيعتها التي لم تتغير، تتألم نيابة عنها وتفيض حزنًا لما آلت إليه الأمور، بدافع من هذا الشعور حملت حالها وهبطت الدرج في الخفاء، تقرع جرس باب الجدة وتنتظر، انتظرت لوقت طويل حتى تبدى أمامها وكان الليل قد أسدل استاره، قابل توتر قسماتها بقول خفيض:

- جدتك نايمة..

عاجلته بغمغمة:

- أنا جاية لك إنتَ مش تيتة..

تبادل مع صغرى بنات العم النظر الصامت قبل أن يستدير عنها وينتهي جالسًا فوق مقعد المائدة المحتلة لمنتصف الردهة، أبقت الباب مواربًا ثم تبعت خطواته، جلست بصمت ماثل خاصته محاولة إستجماع خيط الحديث الذي جاءته لأجله، ازدردت لعابها وأخفضت وجهها الشاحب مسلطة بصرها فوق



كفيها المتعانقين من أمامها، تخوض في درب الحديث دون استهلال:

- أنا عارفة إنك موجوع ومش ناقص..

تعانق جفناه تحت ناظريها فاطنًا لقولها التالي بينما تتابع"رنا" ما جاءت لقوله:

- بس أختي مالهاش ذنب تتحرم من حبيبها وفرحتها تتقتل، وياريت لحد هنا وبس لأ كمان يتقال عليها مجنونة!..

أنهت أحرفها بتهدج وعيناها تفيض بدمعها رغمًا عنها، كفاها ينقلبان فوق سطح المائدة بجهل وحيرة، عبراتها تتساقط بلا رادع بينما الشهقات تكسر الأحرف وتترك فراغًا بين الكلمات:

- مش عارفة كلامهم صح ولا غلط بس لو جوازك منها هيخلي ندى ترجع لنا من تاني أرجوك و افق، جايز وجودك جنبها يخفف عنها الصدمة..



احتوى وجهه بين كفيه مرتكزًا فوق المائدة بمرفقيه وكلماتها تتدفق وتنسكب داخل أذنيه بنحيب شديد:

- جايز تشوف كلامي أناني وبيوجع وآسفة جدا على اللي هقوله ده، بس إنتَ أخوك مات خلاص مفيش حاجة في ايدينا نعملها لكن أنا أختي لسه عايشة وبتتعذب..

توقف سيل العبرات، تلتقط أنفاسها برباطة جأش قبل أن تتابع وصلة حديثها:

- ندى حالتها صعبة قوي يا عبدالله..

تتوجع عليها وتستفيض بالحديث عن حالها:

- بابا حابسها في أوضتها مانعها تنزل وهي فاكرة أن عبدالرحمن سايبها مش سائل عنها، كلمته مرة وعشرة وأما ماردش عليها انهارت من العياط..

أبعد يديه عن وجهه مقابلًا وجه الصغيرة الباكية بصياحه المكتوم:



- أنا مش عبدالرحمن يا رنا..

- بس عقلها مقتنع إنك هو..

- عبدالرحمن مات..

- ماهي دي المشكلة، أن عبدالرحمن مابقاش موجود، وندى لازم تفهم الحقيقة دي وتقبلها وإلا هتحصله..

تسكت ويسكت، يبقيان بين أروقة الصمت والإضاءة الشاحبة حتى تقول من جديد:

- هي محتاجة لك إنتَ بالذات، محتاجة لك و إنتَ عبدالله قبل ماتكون عبدالرحمن..

لا يفهم معنى ماتقول الصغيرة لكنه يعي أمرًا واحدًا لا يعيه الجميع:

- أنا آخرواحد ممكن حد يحتاج له..

- متهيألك..



حينما امتد الصمت من جديد نهضت وتلاشت من أمامه بعد أن أثقلت دواخله بأحرفها.



لحظة ميلاد..

صرخات الحياة تتردى بقدوم..

بعد يومين من ولادته حمله وذهب به إلى أمه، وجدها عند الجدة تنتظر عودة الغائب، وضعه بين ذراعيها برفق هامسًا لها بحنو الأحرف:

- عبدالرحمن..

لم يخبرهم من قبل عن نيته في اعطاء مولوده اسم أخيه الراحل، بكت الأم ونبض قلبها بالوجيعة:

- ليه كده يا بكر، ليه يا ابني..

لثم رأسها من ميله القريب:



- عشان يفضل اسمه عايش على لسانك ووسطنا..

ضمت الصغير لقلبها وكفها يربت فوق كتف أبيه وظهره:

- ربنا يبارك لك فيه ياحبيبي ويكفيك شروجيعة الضنا..

فتح الباب ودلف العائد قاطعًا تبادل الكلمات، استقبلته أمه بهتاف داعية إياه للإقتراب:

- شوف عبدالرحمن الصغيريا عبدالله..

اقتربت خطاه حيث تجلس بالصغير، راقب الوجه المنمنم والغافي بين ذراعيها للحظات قبل أن يلاقي والده الواقف بقربه بطيف تبسم طوق به مباركته:

- مبروك يا بكر..

عانقه شقيقه سائلًا عن حاله قبل أن تجذبه الجدة بوصلة أحاديث عن زوجته وطفليه، تركهم مع وصلة أحاديثهم وانسحب إلى غرفته في صمت، فكك أزرار قميصه ببطء وازى



جلوسه فوق جانب الفراش، تناول هاتفه الموضوع فوق المنضدة متفقدًا إياه بروتينية، كالعادة شقيقته تترك له المكالمات الفائتة وبضع رسائل تنهره فيها على عدم رده، صندوق الوارد يحتشد برسائل الأصدقاء على مدار أشهر واسم "فاطمة" يتزاحم بعدة محاولات، ككل يوم يعيد الهاتف إلى موضعه دون أي رغبة في الرد أو المحاولة..

- جاي أقعد معاك شوية تسيبني وتدخل..

ولج أخوه قاطعًا خلوته، ناظره من جانبه متمتمًا:

- معلش راجع تعبان من الشغل..

جاوره جالسًا رافعًا ذراعه فوق كتفه، يحدثه بنبرة مناكفة لا لوم:

- مش عايز تشتغل معايا برده..

محاولته المرحة في خلق دائرة حديث باءت بالفشل مع حدة الشقيق:



- كل واحد فيكم عايز مني حاجة وشايف رفضي تقصير من غير ماتفكروا إذا كنت قادر أصلا أو لا..

أوقفه"بكر" بعزل الأمور عن بعضها البعض مدركا الحقيقة وراء إنفعاله:

- موضوع الشغل حاجة وموضوع ندى حاجة تانية ياعبدالله..

- أنا مش هتجوز حد يا بكر..

- براحتك محدش يقدر يجبرك..

نهض عن جواره بغتة مقابلًا إياه بسخط بين وزعيق علت وتيرته:

- تمام قول لأبوك يقفل الموضوع ده وإلا..

- وإلا إيه يا عبدالله؟..



جاء الاستفسار من أبيه الواقف بين إطار الباب، يحدجه بالنظر ويتقدم داخل الغرفة حتى وقف قبيل الغاضب يعيد سؤاله:

- كمل كلامك وإلا إيه؟..

- وإلا هسيب البيت..

- اعملها عشان أغضب عليك ليوم الدين..

- مالوش لزوم كلامك ده يا حاج..

يحثه ولده الكبير ويحد من انفعاله بينما الأب يستفيض بغضب عارم وسخط بين:

- خلاص كل واحد بقى همه نفسه مابقاش للكبير كلمة ولا رأي، روح الله يسهلك و أنا ربنا يعوض عليَّ في الاتنين اللي ماتوا..

- كفاية يا حامد!..



اقتحمت الأم الغرفة بزعيق حاد، تأخذ بصف ولدها الماثل بجموده وصمته وتزعق من جديد:

- سيب ابني في حاله، قالك مش قادريبقى خلاص مش قادرمش هتيجي عافية ولا غصب..

انتهى الاحتدام بأخذ "بكر" لأبيه خارجًا، أغلقت الأم الباب من ورائهم بحدة واستدرات باقية وحدها معه، ترقب جموده فتهدر أنفاسها مستغفرة، تقترب لتأخذ به، تحثه على التحرك فيأبى، يدفع بيدها عنه في غضب مكظوم فتستحوذ على وجهه المتجهم بحرارة بكفيها ثم تضمه بذراعيها، تشدد على ضمه حتى تهدأ روحه الثائرة، عندها تأخذ به قسرًا ليجلسان معًا فوق الفراش، تسحبه ليرتاح برأسه فوق صدرها فيميل هذه المرة دون إباء، ظلت تمسح عن رأسه بصمت حمل كلاهما تحت جنح الليل، تربت وتهدهد روحه بحنو الكلام:



- ماتزعلش من أبوك ده مابينامش الليل من وجع القلب والزعل..

تتنهد ويدها تمسح عن رأسه ببطء:

- هو لا فارق معاه الناس ولا كلامهم، هو خايف عليكم من بكرة، بيقول احنا مش هنعيش لهم العمره كله، عايز يلمكم سوا عشان قلوبكم تدفدف وتحن على بعضها..

جسده راسخ وبصره شاخص، توقفت يدها عن حركتها للحظات شردت فيها، حدثه الجميع عن شأن الزيجة إلاها، لم تطرق الأمر من قبل أبدًا، والآن ترى الوقت قد حان لتحدثه بينما يدها تعاود سيرها فوق رأسه:

- مش هكدب عليك أول ما أبوك قالي حسيت قلبي اتقسم بين ضلوعي، ماتمنتش أبدا حد ياخد مكانه حتى لو إنتَ، كلتني الحسرة وسكت..

سكتت هنيهة لمعت مقلتاها فيها بالحنين قبل أن تتابع:



- بعدين افتكرت كلامه وهوو اقف عند الباب نازل لجيشه، كل أجازة وهو ماشي كان يوصيني عليها، يقولي ندى أمانة عندك يا ماما، خليها بين عينيكِ وأما أوحشك احضنيها بدالي..

تهدج صوتها وبكت رغمًا عنها بينما تتابع:

- بعدد أيام غيابه كانت هي اللي تنزل تحضني وتبوسني وتقولي دي أمانة عبدالرحمن..

استجمعت رباطة جأشها متابعة:

- ندى حتة منه يا عبدالله و إنتَ نصه التاني زي ماكان دايما يقول..

التف ومال بوجهه حتى صار مدفونًا فيها كأنما يعتصر الألم عساه يبرحه وحديثها يختتم بقول أخير ماهو إلا تتمة لما سبق:

- اتجوزها وصون أمانة أخوك، حادي عليها وأحميها من الناس والزمن..



في الليلة التالية لهذه وقف أمام باب عمه، استقبله الأخير بدعوة للدخول فتقدمت خطاه العازمة ومن خلفه أبيه يلحق به ويشد على كتفه..

عبر ثلاثتهم الردهة قاصدين حجرة الجلوس، تقدمهم العم صاحب الدار ثم تبعه أبوه، قبل أن يتبعهم أدار رأسه حيث طيفها سكن طرف بصره ليتلقي معها، و اقفة أمام غرفتها تتعلق عيناها الدامعة فيه كأنه الكون المنطوي، اهتز رأسه و انخفض متابعًا سيره قاطعًا معها وصال النظر بباب مغلق قبل أن ينضم إليهم..

حيث المجلس المغلق والخاص بأمر الزيجة.



(28)

شروق وغروب..

تضاد يشطر الكون إلى نصفين وبين نصف ونصف ينبعث الوجود بما يسمى الحياة..

تمضي الأيام بين الأسود والأبيض..

تمضي والقلوب المتصلة ببعضها تتأرجح بوتين الوصال وعلى بساط الو اقع تنتصر العائلة والأعراف..

يشد أبوه على كتفه ويخبره أنه لطالما كان محط فخر لا يؤتيه الخذلان أبدًا في حضرته، يؤكد له أنه فعل عين الصواب بقرار القبول..

يخبره "بكر" أنَّ الأمر ليس بالسوء الذي يراه، وفي الحقيقة الشقيق لم يرد غير أن يلقي به بين زبد الحياة ليعاود التعارك



معها والقتال، ما أراد غير أن ينفض عنه أتربة الحزن ويفكك عنه سلاسل الذنب التي يكبل حاله بها وقد رآه فريسة للانهزام والتحطم الذي لم يعرفه يومًا، لم يكن يرى معضلة في أمر الزواج ولا في كون "ندى" ذاتها هي العروس المعنية..

عينا أمه مفضوحتان، واحدة تبكي الراحل وأخرى ترقبه، تنظره بدعم وتدعو له بسبل الراحة أينما حلت..

وهو؟!..

هو ممزق إلى نصفين، الأول فيه رغبة ملحة بالابتعاد عن كل هذا الضجيج واللغط، أما الثاني لم يعد يستطيع غض الطرف عن كل ماحدث ومازال يحدث، لم يستطع الهرب وعينا "ندى" المتعلقة فيه تطارده مثل كوابيسه كل ليلة..

كل شيء تغير في الليلة التي تحدث فيها أبوه بالنيابة عنه إلى عمه..

- عبدالله طالب ندى للجواز..



ينظره عمه بمفاجئة و أبوه يواصل قوله:

- هو أولى ببنت عمه وبنت عمه أولى بيه..

لا يتطرقان للقيل والقال، فحوى الكلمات يصل الجميع وسياط الألسنة سوف تكف حينما تتزوج البنت، هكذا يؤكد أبوه والجدة وهما يتبادلان الأحاديث في الخفاء، نكس العم برأسه إلى الأسفل ولم يتكلم، لم يره بمثل هذه الصورة المتعبة من قبل، كأنما الكهولة صارت تسري في عروقه وليس بجانبي رأسه فقط، كان ظهره مائلًا ومحنيًا بشكل فعلي لا مجازي، عندما تحرك لسانه وراح يخوض غمار الحديث تكلم عن حال ابنته غاضًا الطرف عن عرض الزواج الذي تقدم قبل لحظات، يحكي ويسهب ثم يتنهد ساكتًا وأصابعه تتشابك من أمامه بينما رأسه منكس على حاله..



أبوه لا يترك الأمور عالقة أو محطة للشكوك، يهتم بشتى التفاصيل الكبيرة والصغيرة آخذًا عنه بناصية الحديث والفعل، تاركًا إياه فوق رقعة الحاضر المستمع..

حدث أخاه:

- من الناحية دي اطمن؛ أنا سألت أهل العلم والفتوى وكلهم أكدوا أن مفيش مانع من الجواز مع مراعاة حالتها و إنتَ عارف عبدالله مايتوصاش، هيحطها بين عينيه ويخاف ربه فيها..

أبوه يركض سعيًا لاتمام الأمر، يسابق الزمن لأنه مدرك، جميعهم مدركون إذا خرجت "ندى" من صدمتها وعاد وعيها لسلامه لن تقبل بهذه الزيجة أو غيرها أبدًا، يريد أن يكون لها طوف النجاة أثناء الغرق في يم الحقيقة المفجعة، الذراع الذي يمتد لها في كل مرة تختار السقوط بالهاوية، يعيد ويكرر على مسامعه حاجة عمه له، جبره بفقدان نعمة الولد الذكر الذي يحمل عن أبيه أعباء الحياة ويتكئ عليه في عجزه، ثم يعود



بالحديث إليها، صبية صغيرة كيف لها أن تجابه الحياة بعد كل ما طالها؟..

ألبسه ثوب المسئولية وكله يقين أنه لن يتنصل عنها، لن يستطيع أن يولي الدبر ويخرج يده عنهم، لكنهم جميعًا غافلون عن كونهم يلبسون إياه حياة أخيه المسلوبة طالبين منه القبول غير مدركين عما يعتمل فيه جراء هذا الشعور..

- أنا كفيل ببنتي وقادر أراعيها في الصحة والمرض..

يردد العم في خفوت، يقول هذا رافعًا عن الجالس بينه وأخيه عناء الحرج، خالعًا عنه ثوب المسئولية الذي ألبسه إياه أبوه قسرًا كما هو واضح..

- أنا طالبها في الحلال يا عمي..

تكلم أخيرًا بلا مقدمات ويده تحط وتقبض على فخذ عمه القريب، كانت عيناه السودوان تضيقان بالجدية التامة:



- اديني فرصة اساعدها تتجاوز صدمتها بعدها اللي ربنا مقدر بيه يكون..

يخرج حاله من دور البديل الذي وضعوه فيه آخذًا له دورًا مباحًا، يجهل كنهه ومسماه في لحظته هذه لكنه لن يكون بديلًا لأخيه أبدًا..

لم يرَ القبول في وجه عمه آنذاك لكن..

عقب تلك الليلة تغير كل شيء.



التوبة نقطة تضاد مع الخطيئة..

الثبات بعد الزلل، العودة بعد الشتات إلى كنف البيت والعائلة وروابط الدم، الأرض الثابتة التي تقف عليها وجمعت لها مع ابن العم نقطة التقاء..

رقعة عمل تجمع بينهما، إرادته ترادف حماسها:



- كده نبقى حلينا مشكلة المخزن الحمد لله..

استطاعوا عقد اتفاقية مع صاحب البناية التي يحتل متجرها أسفلها، اتفاقية تخص الطابق الذي يعلو خاصتها تمامًا، وضعوا مخططًا لفتح الطابقين على بعضهما ونقطة الاتصال بضع درجات، والآن بعد أن تم الشراء يعملون على تجهيز الطابق ليضم مجموعة جديد من الألبسة المستوردة..

- أول ما المكان يجهز نحدد ميعاد الافتتاح..

يخبرها من جلوسه المقابل لها خلف مكتبها، توافقه الرأي وتجود بتذكر وكلاهما غارق بين الورق والدفاتر وأمور الحسابات التي لا تنتهي:

- محتاجين نظبط أمور الدعايا..

- ماشي نظبط..

"بيللا حياتي!.."



ارتج رأساهما الساقط بتركيز مع نبرة الدخيل، كانت أول من استقبله بسياط النظر، تحدجه شذرًا وتستنكر وجوده:

- إنتَ بتعمل إيه هنا!..

هنا في محل عملها أخذ ينقل "سعد" بصره بينها و ابن عمها الجالس قبيلها، خاطبه بقسمات باردة وتبسم لزج تعمد إظهاره:

- إزيك يا بكر..

و"بكر" لا يطيقه ولا بمثقال ذرة، بادله ذات النبرة المصبوغة بسماجة العالم:

- أهلا سعد..

رفرفت بكفها في وجهه تحدثه بحدة تزيدها فظاظة بشعور لا إرادي:

- أيوه يعني عايز إيه، جاي ليه؟!..



من جانب المكتب دنا جذعه بعض الشيء، يقابل وجهها بقرب وقول لا يتوقف عن إشعال مراجلها:

- ماتتخضيش ياروحي، جات لي سفرية للبلد مستعجلة، الوالد تعبان شوية، قلت أعدي أسلم عليكِ وأبلغك أصل عارف بالك هينشغل عليَّ وتقلقي، مش هطول عليكِ يومين اتنين وراجع على طول..

حاجباها يرتفعان لأعلى غير قادرة على استخلاص جواب شاف تمنحه إياه بينما "بكر" المتابع للحديث ينظره بعين لا تطيق، ناوشت فمها الضحكة رغمًا عنها إثر نظرته الهائمة بدرجة ممثل قدير:

- ماشي يا سعد، الله يسهلك طريقك، متشغلش بالك بيَّ وخليك مع الوالد براحتك خالص..

اعتدل يهندم ثيابه دون حاجة قائلاً:



- أصيلة ومن بيت أصيل يا حبيبتي، أي خدمات من هناك؟ جبنة حادقة، بط، وزاؤمريني بس..

سايرته في مسرحيته الماسخة أمام ابن عمها، تحجب ضحكتها بأصابع كفها:

- ميرسي يا سعد ربنا يخليك..

راقبت وجليسها رحيله المتبختر وهو يمضي في خيلاء متطلعًا لما حوله بعين المراقب حتى اختفى عن أعينهما فعاد كلاهما لعمله السابق وضحكتها الخافتة مازالت تتوالد مع نفسها..

- إيه وقعك في برميل البرود ده..

أوقفت استرساله في الحديث بكف قائم وبصر ساقط فوق ماتسجل:

- أسكت يابني النصيب..



ثم تركت القلم عن يدها واضعة كفيها فوق بعضهما، تدير دفة الحديث في اتجاه معاكس يتركها قلقه:

- بقولك إيه عزيز مش عاجبني، إنتَ بتقعد معاه كتير مش بيقولك حاجة؟..

ترك مابيده مثلها فاردًا ساقيه من أمامه، متحدثًا:

- زي إيه؟..

حركت يديها بشرح متخبط، حائر في أمره:

- يعني زي تعبان من حاجة، مرتاح مع البتاعة اللي متجوزها دي ولا لا..

- سألته كتير وكل مرة يقول تمام مفيش حاجة و اتكلمت معاه في حوار الشغل ألف مرة ومفيش فايدة برده..

- طيب معلش عشان خاطري خليك قريب منه إنتَ ليك سكة معاه، مش مهم حوار الشغل دلوقتِ طالما مش عايز، أنا بس



نفسي يرجع وسطنا تخيل مش بشوفه غير كل فين وفين وبعد خمسين مكالمة..

- حاضر، أصلا ناوي أقابله الليلة..

ناظرته بامتنان قبل أن تضرب فوق سطح الطاولة بتذكر:

- ها قول نأكل إيه، أنا ميتة من الجوع..

حدثها بينما ينهض عن جلوسه متحركًا وبين يده قبع هاتفه آخذًا بتركيزه:

- اطلبي لنا على ذوقك على ما أكلم نادية أطمن عليها والولاد..

العمل، السعي..

المثابرة والاجتهاد..

طريق شاق نعم؛ لكن حتمًا حصاده الوصول.





قانون التضاد سقط بحكم البتر، هو نصف مبتور من كل شيء..

الوطن

العائلة

العشق

قطع جذوره بالوطن بعد إتمام دراسته مباشرة، أواصر العائلة لم تكن قوية حتى تضعفها الغربة والمسافات، هي ضعيفة مشتتة منذ أول الزمان، الشيء الوحيد الذي آمن بقوته وعمل على امتداد جذوره وتثبيتها كان أكبر كذبة عاشها..

كذبة تركت ندبتها فوق جدار قلبه، ندبة لم يزلْ أثرها بعد ويظن أنها لن تُمحى، ستبقى وصمة عار يحتفظ بها فؤاده أبد الدهر، في كل مرة يتقابل فيها مع عيني أبيه سيتذكرها، سيتذكر خيبته فيه، في أبوته، لو كانت "عبلة" طعنته مرة فطعنة أبيه كانت بمقدار ألف مرة..



بتريعمل على تخطيه، على التعايش مع نتائجه الحتمية، هكذا هو وهذا دربه وتعاطيه مع آلامه ومنغصات الحياة، يبترها، يسقطها عنه قسرًا، تظل بقاياها عالقة فيه لحين ثم تتضائل وتنتهي بمرور الزمن، هو رجل لا يجيد التوقف، ربما هذا ما أورثته إياه الحياة العملية والمجتمع الأوربي الذي لا يتوقف كثيرًا مع الأمور والعاطفة مهما اشتدت صعوبتها مثل عالمه الشرقي.. ومثلها!..

تلك التي تربك مساره بوجودها القريب، تضرب وجوده كله بعرض الحائط وتمس فيه دون قول أو قصد أجزاءه المبتورة، تكشف له عن معنى العائلة، أمورٌلم يختبرها من قبل ولا تذوق معانيها، كيف لمجموعة أناس أن يجتمعون معًا داخل حلقة واحدة!..



كيف يمكن للقلوب أن تمتلك أذرع فتتعانق وتضم على بعضها، قلوب تتناوب في الخوف والقلق على بعضها البعض قبل ذواتهم..

لا ينكر امتلاكه لشعور الغبطة أحيانًا، أن تجد مخلوقًا واحدًا في هذا الكون الشاسع يهتم لأمرك ويمنحك كل هذا القدر من الاهتمام والحب حتمًا هو أمر مثير للغبطة والدفء الروحي..

"هل تشرد كثيرًا هذه الأيام أم تلك الأوهام خاصة بي؟.."

عينان خضراوان بلون الشجر وغرة بندقية كثيفة تمتد بذيل حصان لامع ارتاح فوق كتف الطبيبة الحسناء والزميلة بذات المشفى، تميل بكتفها فوق باب الحجرة بينما تحدثه بلكنة سويدية وذراعين معقودين فوق صدرها..

بادل تبسمها الودود بآخر ورأسه يعود للوراء بأريحية فوق المقعد:



- أظنك تتوهمين بترا..

تركت الباب وتقدمت تقابله بعين متفحصة، ترتكز بكفها فوق حافة المكتب بميل طفيف ويدها الآخرى تتوسط خصرها:

- صدقني عندما أقول أنك متغير ولم تعد نفس الشخص قبل رحيلك للوطن..

أخذ يتحرك ببطء شديد بالمقعد يمنةً ويسرةً، يطالعها بصره من فوق رأسه المرتاح ويسألها بإستهجان فاتر:

- أي تغيير تقصدين؟..

انتصبت في وقفتها تشير إليه بكفها كمن ضبط المدان بالدليل:

- رباه؛ أنظر إلى حالك كيف تتطلع وتتحدث مثل عجوز بائس..

تعانق جفناه في خفر والتبسم يفرق بين شفتيه:

- لا تبالغي..



- صدقني ناصف أصبحت عجوزً ممل يقدس الهدوء والمنزل، هل هذا مايفعله الزواج؟ لا أظنني سأفعلها أبدًا، شكرا لك..

رفع لها حاجبيه بالتوازي مع نهوضه عن المقعد:

- قناعاتك لا تتغير لذا سألزم الصمت..

خلع المعطف الطبي عنه، علقه فوق المشجب وأخذ بسترته القاتمة، يرتديها تحت ناظريها فيأتيه سؤالها من خلف كتفيه:

- كيف حال زوجتك؟..

دار يقابلها معدلًا من ياقة قميصه بجواب روتيني بمحياه اللطيف:

- بخير، أشكرك..

زاغ بصرها محركة كفها في يأس:

- حسنا؛ فقدت الأمل في التعارف عليها..



أخذ بهاتفه عن سطح المكتب الأنيق ملتفتًا لها من جديد بقسمات معتذرة وجواب روتيني آخر يحفظه عن ذات قلب:

- أعتذر بترا، أنتِ تعرفين مشكلات الحمل لا تنتهي..

تبسمت له قائلة بجدية:

- لا عليك أتفهم الوضع، أرسل لها قبلاتي..

تأهبت خطواته برحيل، مازحها قبلا بذراعين مفتوحين كمن يعتلي خشبة مسرح:

- حسنًا؛ العجوز أنتهى من عمله وهو ذاهب إلى منزله الآن..

اتسعت ضحكتها أكثر وكفاها ينزلقان بجيبي معطفها:

- ألقاك غدًا يا صديقي البائس..

انتهى خلف مقود السيارة ومسافة طريق يحفظها منذ سنوات، علاقته الوطيدة مع البعض هي من سهلت عليه العمل داخل هذا المشفى في السابق وبعد العودة من الوطن، عاد باحثًا عن



حياته القديمة، حياة لم تعد تناسبه بشهادة الصديقة، لم يعد يناسبه السهر برفقة الأصحاب والبقاء خارج المنزل أكثر من داخله، التخييم والتنزه لأيام متنقلًا من مدينة إلى مدينة دون ارتباطٍ بشيء أووجود لأحدهم صارجزءًا لا يتجزأ عن حسباته..

وتلك الأحدهم وجودها يشكل فارقًا رغم فقدان لغة التواصل وحاجز الصمت القائم بينهما، فارق لدرجة القلق الذي اكتسحه حين وصل المنزل ولم يجد لها أثرًا!..

تفقد المنزل بأكمله، توقف بالمنتصف حائراً متخبطا بأفكاره، لأول مرة تغادر المنزل بمفردها، لم تغادره من الأساس إلا للمتابعة الدورية مع طبيبتها النسائية، لا تملك بطاقة اتصال خاصة بالبلد لذا فكرة الوصول لها عبر الهاتف مستحيلة، أول ما طرأ له أن سوءًا ما قد حدث، بعد ثلاث محاولات وصل لمساعدة الطبيبة خاصتها والتي أكدت له بنبرة متعجبة أنها لم تحضر للمعاينة وموعدها القادم بعد أسبوع من تاريخ اليوم،



مع انتهاء المحادثة كان يخطف رزمة المفاتيح مهرولًا إلى الخارج، أخذ يدور بالسيارة بين الشوارع القريبة، بصره يمتد لخارج العربة بحثًا عنها، يفتش عنها بين الوجوه ولا يجدها، ظل يدور لحين ثم وجد حاله عائدًا إلى البيت متأملًا عودتها لكن للمرة التالية الفراغ يصدمه، أفكاره القلقه تتوهج أكثر، أين يمكن لامرأة بوضعها أن تذهب، لا يجد منطقية سوى بفكرة سوء و اقع اضطرها لمغادرة المنزل..

بينما كان غارق في لحظة اضطراب وتخبط فتح الباب معلنًا عودتها بظهورهادىء عاكس الموج الهادربعينيه..

- السلام عليكم..

- أنتِ بتستهبلي!..

قابل هدوئها بزعيق غاضب مستنكر، خلعت عنها حقيبتها بذات الهدوء لتعلق بها فوق المشجب من خلفها، وضعت الخبز



الذي تحمله فوق منضدة الطعام القريبة وعيناها تتناقل بين الفراغ وثورته بسؤال:

- في إيه؟..

تسأل!..

كانت تسأل بحق عن ماهية مايحدث وكأنما لم يحدث شيئًا بالفعل!..

- في إني ليا ساعتين مش عارف أنتِ فين ولا عارف أوصلك، أنا نزلت أدورعليكِ في الشوارع!..

- ليه شايفني طفلة هتوه..

نطقتها بقسمات مجهدة، مستنكرة، تنفست بعمق ثم عادت تتحدث بنبرة هادئة أكثر من المعتاد بان فيها الغرابة وعيناها تناظره:

- كنت محتاجة أشم شوية هواء ومارحتش بعيد..



كانت ثورته تقريع، غضب وخوف يجهل تفاصيله:

- البني آدم يسيب ملاحظة أو يبعت رسالة، عندك فكرة كام مصيبة جات في بالي و أنا و اقف مكاني متكتف..

توقع أن تصرخ مثله وتصد بعزوف عن كل قول وفعل منه، أن تخبره أنهما مجرد غريبين يتشاركان السكن حتى تضع مولودتها ثم ينظران في أمرهما ويتحدثان كشخصين بالغين يتحملان أفعالهما ويتخذان القرارات الصائبة بعقلانية الكبار..

لكنه لم يجد هذا كله، وجد قلقًا تواريه صاحبته وتعمل جاهدة على قطع الحديث وانهاءه بتوضيح واعتذار عابر:

- الوقت عدى ومانتبهتش، آسفة قلقتك على الفاضي..

أوقف تحرك خطواتها الثقيلة وعيناه تضيق شاملًا إياها بتفحص دقيق، تخمد ثورته المشتعلة بماء القلق وسؤال باطنه اهتمام، أقدامه تتقدم من حيزها دون شعور، أصابعه تلامس مرفقها:



- حصل إيه؟..

تخبط بصرها لثوان وكفها فوق جبهتها يدعكها بحيرة قبل أن تهديه جو ابًا مختصرًا:

- مفيش، محتاجة أرتاح بس..

تقول هذا وتغادر حيزها، تتركه و اقفًا من خلفها جاهلًا بأمرها ولا تفصح، تغيب تحت رشاش الماء لحين ثم تنطوي على جانبها بمئزر الحمام فوق الفراش وخصلاتها المبتلة تغرق الوسادة من تحتها، لا تتعانق أجفانها، عيناها تواجهان الفراغ بتحديق جامد وكفها قابع فوق بطنها لا يتحرك..

خلفية هيئتها هو ماطال بصره المتلصص من جانب الباب المو ارب، طال وقوفه الجامد قبيل وضعها، لا يعلم إن كان بها شيء أو هو أمر طبيعي مصاحب لكل من في وضعها، لا يملك الحق في تخطي حاجزها والاقتراب مادامت لا تريد وترفض..



رشح عودة الأمر لعائلتها التي تكترث لوضعها المقلقل هذه الأيام وتتركها تحت وضع الضغط الدائم، عاد إلى الردهة مفككًا أزرار قميصه ساقطًا فوق الأريكة الفسيحة، تنقل بين قنوات التلفاز لدقائق قبل أن يعاود اطفاءه، رفع ذراعًا فوق جبهته وبصره الشارد يلاقي الفراغ..

بشكل ما كان يراها تشكل له الجزء المنقوص..

ليس كشيء دخيل تمم الصورة بل كفرع نما من جذعه المبتور!..

هو الغريب

وهي الوطن..

هو الوحيد بدنياه..

وهي مركز الاحتضان..

وما بين بتروطرح هل يثمر العشق؟..



هل يمكن أن يشكلان الثلاث عناصر المفقودة لكليهما ذات يوم؟..

مضى وقتٌ طويلٌ وهو على حاله الشارد الساكن، كان يخوض مخاضًا عسيرًا مع حالها، يشرد ويغيب مفكرًا ومستكشفًا لتفاصيل الأنثى فيها، دون شعور تسلل له صوتها القريب بارتجاف واضح:

- ناصف..

أبعد ذراعه و انتفض بجلوس يستقبل بقية كلماتها بذات النبرة وكلا كفيها يحيطان بطنها المنتفخ:

- مش بتتحرك!..

الوطن..

العائلة..

العشق..



ثلاث معاني مفقودة في حالة شتات بين ثنايا الأرواح.



من مالك لكل تضاد يكتمل به المنقوص لفاقد لكل مفردات الأبجدية..

بل قوانين الكون أجمع..

سابح في فضاء سرمدي لا بداية له ولا نهاية، لا يخضع لجاذبية، لا حياة، لا شيء على الإطلاق سوى الفراغ الممتد من عينيه لأبعد نقطة في الوجدان..

مايحاك داخل تلك السريرة هي ملك صاحبها وحسب، مهما حاول جليسه و كل من حوله الوصول إليها لن يجدوا غير الفراغ، كل محاولاتهم تبوء بالفشل لأنها تعارض إرادة صاحبها الحرة، جل ما ينالون أطلال نظرة فارغة باطنها قتامة ونبرة ساخرة أصبحت عالقة بفمه طيلة الوقت:



- مش متأخر شوية جو لم الشمل ده يابكر، عايز تلم بعد إيه، بعد ماخربت؟..

يختم كلماته فتكركر مياه الأرجيلة جراء شهيق أنفاسه المسحوبة من مبسم الأنبوب اللين والممتد منها لفمه، ينفث دخانه في وجه محدثه الصارم بأحرفه:

- هي إيه اللي خربت يا عزيز؟..

يهزأ بحركة رأس من تلاعب ابن العم، كلاهما يدرك المقصد، وجليسه هذا خير العارفين، راح يلف ويدور مثله متبعًا دربه وجسده يسترخي في مقعده ونبرته ضجرة:

- مش عارف يا بكر..

خاطبه "بكر" بوضوح:

- بطل تبص لوراء عشان تعرف تعيش..



تجاهل النظر والرد فتابع الآخر بوضوح أشد فيه بترًا لكل مشاعره المعلقة بوهم الخيال:

- أقفل صفحة دهب يا عزيز هي خلاص على ذمة راجل تاني وكلها أسابيع وتبقى أم..

حدجه بطرف بصره ونظرته تقدح بشرر دون مواراة:

- ياريت أعرف أعمل زيها..

- ما إنتَ اتجوزت قبلها ولا نسيت؟..

ضرب براحة يده فوق السطح الخشبي من أمامه، مائلًا بجذعه مقابلًا جليسه بنزعة غضب استخرجها ابن العم عن قصد ويستحق ماينال:

- اتجوزت آه بس مانستش زي أختك ولا عايش..

لا يستطيع الوصول لمنطقة فهم، كيف أمكنها الوثوق به والبقاء معه بعد كل ما عرفته من حقائق، كونها لم تكن سوى



جسر عبور لبغية الإنتقام، لم يكن يراها لا زوجة ولا امرأة من الأساس، كيف قبلت!..

ليست "دهب" من تقبل دور الموضوعة على الرف، ليست هي من تقبل الدور الثانوي أو تقبع خلف الستار مهما جارت الظروف، أكون أو لا أكون، هذه هي ولم يخلق بعد من يحفظها ويعرف خبايا تفاصيلها أكثر منه، من أين جاءت بكل هذا الغفران لتسامح ذاك الملعون؟!..

هل جادت له بما بخلت عليه؟..

أي ظلم بين ذاك!..

يستنكر أخوها عليه تفكيره، يستنكر زج أخته بزاوية صاحب الذنب المخطئ وكأنها مسئولة ومجبولة أن تكون طيعة أمره ومراده طيلة الزمان:

- لا إله إلا الله، وهو مين جبرك على الوضع ده؟..

زعق فيه بفظاظة وغلظة:



- خلاص فضها سيرة يا بكر، كترالكلام هيزعلنا من بعض..

أغلق الآخر دائرة الحديث بنهوض وقول:

- ربنا يهديك..

- رايح فين، خليك..

- مروح، أختك المفترية مصحياني من ستة الصبح مش شايف قدامي خلاص..

مازحه قبل ابتعاد مقلدًا بنبرته كليشيه سينمائي عتيق:

- قول إنك سايبني ورايح لمراتك يا خاين..

قطع الراحل خطوته مستديرًا وضاحكًا:

- ده إيه النباهة دي، بطل غباوة بقى و أقفل مشروعك الفاشل ده وتعالى شاركني أنا وأختك، ده عرض مش هتلاقيه على فكرة أما البلية تلعب..

قهقه بدوره آخذًا بحديثه على محمل المزاح:



- يا سيدي تلعب بس و أنا أرقصهالك..

- مفيش فايدة فيك، سلام..

تعثر الخارج في خطوته فلاحقه بالقول:

- اسند نفسك يا أبو العيال..

مع رحيله دار بواسطة مقعده ليواجه النافذة العريضة والمفتوحة على آخرها، أصابعه العشر تتشابك من خلف رأسه وبصره يعانق الليل..

طنين رسالة صدح بين الصمت والسكون جاذبًا انتباهه، مد يده ملتقطًا هاتفه، قارئًا فحوى الرسالة المستلمة..

"هخلص الليلة"

خرج من صندوق الرسائل ليجري اتصالًا مع مرسلها، طن الرنين عدة مرات قبل أن يفتح الخط بينهما بوصال هو من ابتدأه بوعيد دون إستهلال:



"أنتِ لو مخلصتيش الليلة يا سونيا هيبقى لنا كلام و اتفاق تاني مش هيعجبك، تمام؟.."

طرقع لسان محدثته بامتعاض مستنكر:

"ده أنا هفاجئك بس الصبر"

"نفسي أصدقك"

"وشرفي"

"لا مدام حلفتي بالغالي مضطر أصدقك"

رنت ضحكتها الخليعة مخترقة مسامعه بصخب قبل أن يهتف لها بتأكيد:

"رقاصة رقاصة مفيش كلام"

بقسمات ظافرة أعاد الهاتف إلى موضعه وتناول نيابة عنه أنبوب الأرجيلة، يعود لموضعه المضطجع المسترخي ساحبًا أنفاسه بمهل وازى لفظها و أفكاره تبحر نحو السديم..



لا تضاد هنا..

هو والليل حلفاء.



ثلاث نقرات فوق الباب أيقظتها..

راحت تتقلب بينما مقبض الباب يدار ويدلف أبوها بهدوء نافى صخب قلبه، وقف للحظات يتطلع إلى ثوب الزفاف المفرود فوق الفراش المقابل وإلى جانبه كان الحذاء الأبيض الصغير بنعومة ذائقتها..

- صباح الخير يا بابا..

قطع النظرة هتافها المتماطىء وهي تعتدل من رقودها، نظر إلى إشراقة وجهها الصبوح فجرت البسمة ترتسم فوق شفتيه و أقدامه تخطي بقرب وقول حنون وازى ضمة العينين:

- صباح الجمال يا حبيبة بابا..



مال رأسها جانبًا ومنامتها الوردية تعكس حمرة خاصة لوجنتيها، كانت السعادة تطفق من عينيها وتفيض من قسماتها ببهجة وفرح عارم، جاورها جالسًا مبرزًا الأوراق التي بحوزته، يخطابها بقول خافت بان تعثره فوق لسانه:

- ندى؛ في مشكلة في عقد الجواز في المحكمة ومحتاجين نوثقه تاني..

قاطع حديثه هتافها الجزع وجسدها يختض داخل الفراش كما صوتها:

- مشكلة إيه تاااني!..

لامست راحته وجنتها بحنو مجبرًا فمه عن الافتراق بتبسم لطيف هدأ به جزعها:

- مشكلة بسيطة يابنت وبتحصل كتير ماتتخضيش..

ثم أردف على عجل واضعًا لها الأوراق مع القلم فوق المنضدة من جانبها:



- المأذون جاب الأوراق امضي عليها بس وأنا هكمل باقي الإجراءات..

- حاضر..

تمتمت بها ويدها تنتقل من ورقة خلف أخرى مذيلة إياهم باسمها دلالة القبول وعينا أبيها ترصدها بقرب، بمحبة وخوف..

خوف عليها من الغد البعيد ليس القريب، غد لن يكون فيه حاضرًا ليزود عنها ويظلل عليها بجناحيه، خوف من أجل قريب قرب أنفاسه عندما يحين لن يؤخر في ساعته أو يقدم، ليس قنوطًا ويئسًا بل واقعًا لا مفر منه، واقع مؤلم دفعه ليسلم بها إلى رجل يستأمنه على نفسها وقلبها المعطوب، رجل لن يتخلى، سيكون لها خير معين وخير سند يغنيها شر العوز والحاجة..



وهذا أقصى ما يتمناه رجل وضع أقدامه بعمر الخمسين؛ أن يترك فتياته الثلاث بين أيدي أمينة حتى يرحل عن دنياه بسلام وقلب مطمئن..

- اتفضل ياحبيبي..

انتهت ومدت يدها بالقلم والورق تنضح عن وجهها الفتنة البهية، في قلبها رفرفة طير فرح باليوم الميمون الذي طال انتظاره..

- بلاش دموع والنبي يا بابا..

تهتف لمرأى الدمع في عينيه عالق، يغالب أفكاره بضحكة ونهوض وأصابع عبثت بخصلاتها المشعثة:

- دي دموع فرح يا عروسة..

عبرات جاهد في كبحها ويده يعانق يد ابن أخيه أمام كاتب العدل وتحت صدى الصيغة المعتاد ترديدها..



"اطلب منك أن تزوجني ابنتك.."

يشدد على كفه دون شعور، يجاهد الغصة بحلقه وقلبه معًا ومع ذلك يخرج صوته مهتزًا، متهدجًا رغمًا عن صاحبه..

"زوجتك ابنتي.."

بأعين وصوت ثابت يردد الآخر..

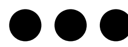
" قبلت منك زواجها.."

عقد قرآن صامت تم بزاوية المسجد القريب بحضور مختصر قائم على أبيه، والد العروس، أخوه و ابن العم اللذان قاما بدور الشاهدين، لا أقارب لا أصدقاء مع الوضع الاستثنائي الذي انتهى بإتمام أصعب خطوة كان يجب أن تؤخذ بحذر شديد وبعيدًا عن موضع أنظار"ندى". فأي عبث أو مساس بذكرياتها القديمة والمحفوظة بقرار مكين داخل رأسها قد يؤدي لضرر بالغ كفقدانها الكلي للذاكرة..



هذا ما قيل له حين وجد حاله أمام طبيبة أربعينية لها هيئة وقور تمنح شعورًا بالراحة مع محدثها، وكان هو"عبدالله" محدثها والمتابع الجديد لحالة"ندى" برفقة شقيقتها"مريم"، قابل الطبيبة حتى ترشده إلى خطوات الشفاء القويم والتي سوف يتم اتباعها، والاتباع هنا عائد وقائم عليه، العنصر الأهم لدى الحالة والمحتل لصورة الحبيب، صورة لن تتغير وتعود إلى أصلها حتى تعترف بالحدث وهذا لن يحدث بغير علاج..

والحروف الأربع الأخيرة؛ هي مسعاهم جميعًا في الوقت الراهن.



بدأت الليلة باكتمال القمر..

تقف خلف المرآة، تطالع حالها داخل ثوب الزفاف وقد اكتملت زينتها، تناوش البسمة ثغرها المنمنم بوردية صبغة فتنسكب السعادة من حولها وتحيطها داخل هالتها الخاصة..



سعادتها في قلبها لا تنقص أو تختطف، حتى لو حتمت الأمور الصعبة إلغاء حفل الزفاف والاكتفاء بثوب العرس لتنتقل من بيت أهلها إلى بيتها وسط تجمع عائلي بسيط وحسب، ظن الجميع أنها سوف تبكي وتعترض دون أن تتفهم وضع زوجها الصعب، لكن لا أحد يعرف أنها هي المتسببة في هذا الوضع الحرج، لذا ستكون على قدر عال من المسئولية والقبول بما تجود به الظروف، هذا ما تفعله الزوجة الصالحة وهذا ما دأبت عليه أمها وزوجة عمها على تعليمهم إياه من قديم الزمان..

سحبت شهيقًا طويلًا اتسعت ابتسامتها على إثره قبل أن تهدي حالها داخل المرآة قبلة وثناء بهيج:

- قمريا نودي..

ضحكت مع حالها قبل أن ترفع ثوبها وترفل في خطواتها إلى الخارج، تقابلت مع أبيها المنتظر في منتصف الردهة، راحت



ابتسامته تتسع وعيناه تلتمع مثل قناديل مضاءة تنير لها دربها حتى استقرت قبيله، ترى حالها أميرة في حدقتيه اللآمعة، تسأله بحلاوة النبرة:

- حلوة يا بابا؟..

تعض فوق شفتها السفلى قبل أن تعاود سؤالها بصيغة أخرى فيها شقاوة ودلال:

- هاعجب عبدالرحمن؟..

جوابه عناق، يضمها بين ذراعيه، يشد على ضمها مستجمعًا رباطة جأشه فتستسلم وتستكين لدفئه لحين حتى يبتعد ببطء وازى قبلة شفاهه لجبينها وهمسه الشاحب بشحوب أحرفه:

- زي القمر يا حبيبتي..

تطالع الحزن البادي فوق صفحة وجهه فتتحرك شفاها بأسف مدرك لحال أبيها، تراضيه:



- ياحبيبي ماتزعلش أنا مش هسيبك أصلا، هتلاقيني زي فرقع لوز كل شوية فوق دماغك، وليك عليَّ ياسيدي أي وقت أوحشك فيه بس اديني تلفون و أنا اجي لك جري..

تدير وجهها جانبًا لتجد أمها وشقيقتها الصغرى يكفكفان عبراتهما في صمت، ليلة زفاف"مريم" وفراقها تتكرر معها، يصيبها الكدر لمرأى دمعاتهما ويتهدج صوتها رغمًا عنها:

- ياجماعة بطلوا عياط، هعيط أنا كمان بجد..

لا يترك لها أبوها مجالًا، يحدج زوجته وابنته بنظرة تعني التوقف عن ذرف العبرات ويرفع لعروسه ذراعه باسمًا لتتعلق فيه ضاحكة، يسايرها في وهمها، في هاته اللحظة لا يهم، سوف يتمم لها لحظة السعادة التي تتمنى، يهبط بها الدرج وذراعها معقود في ذراعه، يمازحها ويضحكها، يبهج روحها بمشاكسته حتى وصل بها حيث التجمع العائلي المنتظر داخل شقة الجدة، وقف الجميع مستقبلًا العروس، تتنقل بين الأذرع بعناق



ومباركة حتى ينتهي الزحام عنده، تطرق برأسها في خجل فطري حتمته اللحظة في حين عيني الماثل أمامها كانت تنتقل فوق الوجوه الحاضرة من خلفها، دارت من أمامه لتقف بجانبه، كلا ذراعيها يتعلقان بذراعه ووجهها السعيد يلاقي العائلة بمناوشات وأحاديث التزم بها الجميع لأجلها..

- يلا يا عزيز عشان توصلهم شقتهم..

يتحدث "حامد" سريعًا فاضًا التجمع وململمًا الليلة التي يرى ضغطها فوق وجه ولده، ولده الذي تتعلق "ندى" بذراعه بينما الذراع الآخر ينتهي داخل جيب سرواله وأصابعه تقبض على مفتاح شقة أخيه الراحل سابقًا ومنزل الزوجية له الآن..

قبل الرحيل عانقه عمه طويلًا، لم يتحدث كلاهما، كانت كف العم الرازح فوق ظهره فيه وصايته الأخيرة، استقبلها "عبدالله" بربتتات متتالية تعني أن صمته مفسر قبل أن يفترقان برحيل..



قاد بهم "عزيز" سيارته وإلى جانبه والدة العروس، لم تكن المسافة بعيدة، كانوا جميعًا حريصين على قرب منازلهم المنفصلة من بيت العائلة الكبير..

بيت العروس كان مستعدًا لاستقبالها، عملت أمها وشقيقتها على هذا الأيام الفائتة، داخل حجرة النوم ضمتها أمها مطولًا وهي تقوم بتوصيتها ببعض الأمور الخاصة آخذة بها برفق الحديث، ما بغت تركها حتى ناداها "عزيز" الو اقف عند الباب جوار ابن عمه يتعجلها..

تركت ابنتها محلها وخطت راحلة ماحية عبراتها، في طريقها للخروج تعانقت نظراتها برجاء مع زوج ابنتها الغائبة بالداخل:

- خد بالك منها يا عبدالله، أي حاجة تحصل معاها تكلمنا فورا..

استقبل نظراتها القلقة بأخرى مطمئنة لقلب الأم فيها وهزة رأس صاحبت كلمته الوحيدة التي تحرك بها لسانه بعد صمت طويل:



- اطمني..

آخر شعور عائلي كان كف "عزيز" الذي ربت فوق كتفه قبل أن يختفى مع زوجة عمه..

أحكم إغلاق الباب من خلفهما محررًا أنفاسًا حارة كانت حبيسة صدره منذ طلعة النهار، خطواته تتقدم إلى الداخل بتثاقل، يطالع المكان من حوله بأعين خاوية، ارتكز بكفيه فوق زجاج المائدة المستطيلة وجذعه يميل إلى الأسفل بينما أجفانه تتعانق في لحظة صمت، لا يعلم كم مر به الوقت على هذا الحال حتى أتاه صوتها الرقيق يناوش أسماعه بنداء مستهجن:

"عبدالرحمن؟.."

افترقت أجفانه في الحال معتدلًا في وقوفه بوعي تام والنداء يتلون بغنج أنثى في أحرفها نعومة:

"يا بوودي!.."



تأهب تركيزه مع كلمات الطبيبة، بلا إرادة راح عقله يردد كل أحرفها بروية حاسبًا خطواته القادمة والمهمة التي سوف يخوض غمارها مع وعيها..

ثلاث مرات راح يقبض كفه ويفردها قبل أن يمسك بالمقبض ويديره بولوج..

تقف بجانب الفراش القابع بمنتصف الغرفة، تخلت عن طرحتها فوق الفراش وبقي الثوب وخصلاتها المسدولة حد كتفيها، كفاها متشابكان من خلف ظهرها وتناظره بعشق، قابل تبسمها البهيج بمحاولات فاشلة تكلف بها لأجلها، عيناها لا تفارقه، تتعمق فيه بالنظر للحد الذي يخترقه ويصيب الوجدان..

- أخيرًا..

تلفظها بأحرف المتعب بطول المسافات ولا يصدق لحظة الوصول، توقفت أقدامه على بعد خطوات لم يستطع بعدها



التقدم أكثر، كان بوقوفه لحظة انطلاقها، أقدامها الصغيرة الحافية تختصر المسافات بسرعة مباغتة انتهت بصدام مع جسده وذراعاها يلتفان من حول خصره، ذقنها يستريح فوق صدره وعينها عن عينيه القريبة لا تحيد:

- أنا زيك مش مصدقة إننا في بيتنا مع بعض..

تقفز كلمات أمها قبل قليل إلى عقلها فتتلاقى أهدابها في تذكر لتوصيها بالتعقل و إبداء الحياء تاج الفتاة الذي يزينها في عين زوجها، انفلتت ضحكتها رغمًا عنها إثر الأفكار البالية التي يعتنقها الأهل، ولو كانت صحيحة فهي و"عبدالرحمن" قاعدة مستثناة من كل تلك الأحاديث، هما يتحابان وفقط دون حسابات..

على حين غرة وقبل أن يجد الفرصة ليعي ويمسك بزمام الأمور رفعت حالها فوق أصابع قدميها، ألصقت شفاها فوق شفتيه، تقتطف لحالها رشفة عشق مسكرة قبل أن تبتعد هامسة..



- بحبك..

قبلتها عشق..

جموده هروب..

أحرفها وَلَه..

صمته هروب..

نظرتها رغبة..

شتاته هروب..

هي ليلة تضاد بين الوهم والحقيقة.



(29)

مناجاة الوهم..

السير في متاهات العقل المعقدة، مقاتلة اللاوعي بمشروعية السلم لا الحرب..

فالبغية هنا نجاة لا غرق، حياة لا موت..

عودتها للواقع هي الحقيقة الناجية والأسلم مهما أنكرتها وهربت عنها..

"إنتَ هتتعامل مع عقل ندى مش ندى نفسها.."

تحدثه الطبيبة بعملية، تخاطب وعيه ليعي..

"آلية عمل العقل بتفرض السلامة العامة لكل الأعصاب ولو على حساب الجسد نفسه وعقلها عشان مش هيستحمل وقع



الصدمة قرر الإنفصال، والانفصال هنا حصل في صورة فقدان ذاكرة نفسي، يعني مرتبط بالحدث فقط لا غير.."

الأمر أقرب لشعرة شديدة الرقة مجبر على السير من فوقها بحرص شديد..

"بس سيطرة العقل مهما كان مش دايمة، كل اللي بيعمله ده مجرد مسكن لحد مايشوف هيتصرف إزاي، وسط الضغط ده كله فجأة لقى بديل!.. والبديل ده كان إنتَ ياعبدالله اللي بتملك صورة قريبة جدا جدا من أخوك الله يرحمه.."

هو هنا متواجد شاء أم أبى، النصف الآخر مازال يحيا، مازال ينبض..

"عقل ندى اللي بيمارس أقصى حالات الإجهاد في السيطرة مع لحظة تواجد الحل الجاهز المريح اللي هيخليه يرجع يشتغل من تاني كان صعب يرفضه، عشان كده في ثانية خد القرار وحط عبدالله في صورة عبدالرحمن.."



لا يضعه في إطار الشكل والصورة الظاهرة فقط بل ينشئ مزيجًا خاصًا فيصبح النصفان واحد صحيح..

"أكيد بتسأل نفسك وهي ندى مش قادرة تفرق بيننا وهي في العادي أكيد كانت بتفرق؟!.."

لا انفصام هنا وليت الحقيقة تستتر بالوهم..

"لا هي فعلًا شايفة مفيش فرق ومش عشان الشبه بس، العقل مش بيستسلم للبديل ويقول خلاص، لا ده بيأمن نفسه من أي عوارض خارجية أن البديل ده ممكن يرفض أو يتعامل بطريقة تزيد صدمتها، هو هنا بيأمنها ويخليها تتعامل مع عبدالرحمن فعلا.."

"علميًا نظرة العين هي الصورة الثابتة اللي بيفضل العقل محافظ عليها بعد وفاة شخص ما، عقلك مع الوقت هيمحي تفاصيله ويسيب لك نظرته وصوته بس،وده اللي بيعمله عقل



ندى بالظبط، بيستخدم البقايا دي على هيئة عبدالله اللي هو أصلا توأم مماثل لعبدالرحمن.."

"ولأن العقل نوعين، وعي ولاوعي، نقدرنقول الوعي عند ندى في أجازة وسايب فرصة للاوعي يفرض سيطرته، وده طبعا عشان يفرض وجود عبدالرحمن، مفيش عبدالله في الصورة، نظرته ممسوحة تمامًا، ورغم اختلاف رد فعل عبدالله طول الوقت إلا أن اللاوعي بيتعامل بسيطرة تامة يخليها تشوف ده رد مناسب من عبدالرحمن.."

أين السلام؟..

في جنة الوهم أم نارالحقيقة؟..

ما عاد يعلم!..

"اللي حاصل لندى كأنك دوست على زرار يوقف حياتها رغم الظاهراستمرارها، لكن فعليًا هي لسة و اقفة، وماينفعش حد و اقف ومدي أمان نيجي على خو انه ندفعه مرة واحدة، كده



كأننا بنجبر عقلها على حاجة مش عاوزها وفي الحالة دي عقلها مش هيغلب وممكن يقرر يريحها خالص ويدخلها غيبوبة أو يعمل فقدان كلي للذاكرة.."

تغزل الطبيبة الحكاية بخيوط الوهم والحقيقة ثم تلف بها من حول يده، تتأكد من متانة الإمساك قبل أن تسهب في قولها وجذبها للخيوط..

"ندى محتاجة تدرك وتستوعب الغلط اللي كلنا شايفينه، وده هيحصل عن طريق العلاج.."

ترسم بعملية طبيب الطريق الذي عليه إتباعه، تضع أمام بصره اللوحات الإسترشادية حتى لا تتخبط خطاه..

"ارتباطك بالحالة حصل سبب الشبه، واحنا هنستغل الرابط ده ونبدأ علاج، هنمررلها الفروقات واحدة واحدة.. عقلها هنا هيكون مجبر يخضع للتطور ومش هيجازف بيها لأنه في الأساس



بيعمل كده عشان يحميها، هيشوف دي فرصة يشيل بيها الضغط من عليه ويبدأ بدوره يمررلها الصدمة تدريجيًا.."

من جانب كانت أحاديث الطبيبة أشبه بعاصفة ثائرة تلتف بعقله دون هوادة، من الجانب الآخر كانت كلمات عمه التي كررها أكثر من مرة تطن كناقوس خطر..

"أنا مش هدخل بنتي مصحة، مش هدمرها بأيدي!"

بين هذا الضغط القائم والصراع العقلي العنيف جاءت قبلتها المباغتة لتوقف كل الضجيج وتفقده زمام السيطرة التي كان يظن أنه ملك يمينه، كان من السهل أن يأخذ على عاتقه مسئوليتها لكن في اللحظة الحاسمة كان الوضع بداخله لا يحتمل ولا يتبع درب الوهم بل يتبع دربه هو، درب الحقيقة..

- المفروض نصلي!..

غمغم بأول ما قفز إلى خاطره و أنفاسه إثر قبلتها تتناحر، سحب حاله من بين ذراعيها لا يذكر كيف، لكنه انسل بجسده



وخطى إلى الخارج يقطع اللحظة ململمًا شتات حاله بلا قول زائد، دلف دورة المياه، وضع رأسه أسفل الصنبوريغمرها بالماء البارد لحين، يجدد وضوءه ثم يبدل ثيابه بأخرى بيتية وجدها مطوية جانبًا لأجله، يعيد هندمة ملبسه و أنفاسه بشهيق طويل وخروج، وقف مستقبلًا القبلة في الحال، حين وصله حفيف خطاها من الخلف أقام الصلاة دون النظر..

تأنى في تلاوته وتحركاته، شعر بتشنج جسده يسترخي، أنفاسه تستكين وعقله الصاخب يهدأ، أنهى الصلاة بسلام، كفاه فوق ساقيه ساكنان، أجفانه تتعانق في خفروسكون مماثل، لسانه رطب، يذكرالله مرة بعد مرة، لحظة خلوة مع ذاته انتهت بمشيها فوق ركبتيها بواسطة الإزاء الفضفاض، تسللت بذراعيها من فوق كتفيه ومالت عليه بعناق، أصابعه فوق ساعدها المحيط بعنقه، في دواخله كان يجاهد ليتعامل ويدير الأموركما يجب، لكن كل الكلام عسير، كان أخوه حاضرًا، في حديثها و أنفاسها وقبلتها، شعربه جالسًا مر اقبًا في زاويةٍ ما..



ببطء راح ينهض وهي تتبعه، بصره ينتقل بين وجهها المشرق بإبتسامته وطي السجادة بين يديه، وجد مخرجًا مع الطعام المتروك فوق المائدة، حدثها في الحال بنبرة حرص لتخرج بثبات و اتزان:

- مش جعانة؟..

- ده أنا ميتة..

هتفت بتذكروجوع حقيقي حيث لم ينزل جوفها إلا كوب حليب وقطعة كعك تناولتهما صباحًا، رمقت سفرة الطعام بنظرة سريعة عادت بعدها بهتاف عجول:

- هجيب حاجة نشربها..

اختفت بالداخل و انتهى هو فوق المقعد جالسًا ومبتهلًا بداخله أن تمر الليلة الثقيلة بسلام، لحظات وعادت مصادمة بصره بثوب كريمي يعلو ركبتيها بمقدار ورائحة العطر الأنثوي تسبق خطاها فتنهد بداخله راميًا النظر إلى جانبه، وقفت عند الطرف



تسكب المشروب البارد داخل الكأسين وخصلاتها القصيرة تتمايل وفقا لحركتها، تحدثه أثناء فعلها:

- زعلت على بابا حبيبي قوي..

بصره ساقط فوق الطعام في تجاهل لا يملك غيره سبيل، تضع القنينة الغازية وتحمل الكأسين بثرثرة تالية:

- لو كنت أعرف إنه هيزعل كده ماكنتش سيبته..

تقولها بنبرة دلال والنظرة تطلق سهام العبث، لم تجد لهما صدى وبصره يجنح بعيدًا عنها، وضعت الكأسين بحدة حد انسكاب بعضًا من السائل فوق زجاج الطاولة وكفاها يتخصران بهتاف مغتاظ:

- أنا هفضل أكلم نفسي كتير؟..

أفزعته حدتها فغمغم بلا تفكير:

- أقول إيه!..



تأففت بصوت مسموع حاشرة جسدها في المكان الضيق بينه والطاولة لتنتهي جالسة فوق ساقيه، تحيط عنقه بقرب وقول لم يرحل عنه غيظه بعد:

- هي الناس بتقول إيه في ليلة زي دي؟..

يداه حائرتان بين جسدها والطاولة، في النهاية استقربهما فوق حافة الطاولة، يسوق الأسباب التي تتلحف بها في دنيا الوهم ليتخذ منها مخرجًا بقول خفيض:

- أنتِ عارفة مشاكل الشغل الأخيرة، كل حاجة باظت وكمان..

أمعن في عينيها النظر بينما يتابع بحذر شديد، وحروف متباطئة:

- وكمان غياب عبدالله في يوم زي ده..

غمغم بذلك وصمت، لم يجد ما يتمم به قوله فأخذ بصره يطوف من حولها..



لوهلة شعر بالخبال يسكنه!..

مالت برأسها جانبًا، تخوض غمار الفكر لثوان، تعقبها:

- اممم على فكرة معاك حق تزعل منه، أنا لو أختي مكانتش جنبي في يوم مهم زي ده مستحيل أكلمها تاني أو أقبل أي عذر..

ثم عدلت من وضع رأسها المائل بحركة خاطفة وضحكة رائقة بان فيها الخبث:

- أقولك؛ إنتَ تخاصم عبدالله بتاع شهر كده..

لا تبدو مزحتها لاقت معه قبولًا حتى تنفرج قسماته العابسة، تدرك جيدًا إحساس التقصير الذي يعتليه فيتركه مهمومًا عكر المزاج، تنهدت وذراعاها على حالهما يطوقان عنقه بينما أصابعها تداعب نهاية رأسه ببطء ورقة وازت أحرفها التي خرجت بعقلانية علها تهون لديه وطأة الشعور:

- حبيبي ماتزعلش، مش مهم أي حاجة في الدنيا المهم إننا سوا، مش ده كلامك..



سكتت للحظات ثم ضحكت بحلاوة وأهدابها ترفرف ببراءة مصطنعة:

- شوفتني و أنا عاقلة حلوة إزاي؟..

كانت تثرثر بلا فواصل كأنما الأحاديث ستنتهي، كانت رائقة، مرحة، تضوي بعينيها لمعة سعادة جعلت منه تمثال بشري يتابع ويتنقل فوق ملامحها ولا يستطيع أن يأتي بأية فعل..

- لو تعرف حلمت كام مرة بالليلة دي..

ودارت بغتة فضربت أطراف خصلاتها وجهه، التقطت أناملها قطعة لحم مشوي ثم عادت تدسها داخل فمه عنوة متممة كلماتها السابقة:

- بس الحقيقة طلعت أجمل من الحلم بكتيييير..

كانت أطول عشرين دقيقة في عمره، وهي جالسة هكذا بين ذراعيه تصر على إطعامه بيدها وتثرثر دون أن تترك فسحة للفراغ أن يأخذ براحه أو تترك له الفرصة ليجد حلًا غير أن



ينتهي معها و اقفًا أمام الفراش من جديد، يتقابلان بقرب تقدم فيه فروض العشق برغبة مفضوحة، تهمس أمام شفتيه بغزل الكلمات و أناملها تناوش أزرار قميصه، أنفاسها العطرة تقابل تعثر أنفاسه وهمس خفيض حرره في تثاقل ويده تقبض على كفها توقف حركتها القريبة:

- مش هينفع..

رأسه مائل، أجفانه متعانقة، تخبط أنفاسه يصلها، أبعدت رأسها بمقدار يتيح لها فرصة السؤال المستغرب:

- مش هينفع إيه؟..

- معلش أنا آسف..

- في إيه ياعبدالرحمن..

- مفيش بس معلش سيبيني دلوقتِ..



يتلعثم بالكلمات وهو على حاله الهارب منها، قطبت جبينها بقلق رددت مضمونه ويديها تحيطان خصره بقرب وقول مضطرب:

- في حاجة طيب إنتَ خوفتني..

لم يأتِها جواب غير صمته والجمود الشارد بعيدًا عن عينيها، عندما طالت اللحظات فكت حصار يديها بحرج عائدة بخصلاتها خلف أذنيها، تحركت إلى داخل الفراش وشعورًا بالخيبة يجتاح دواخلها، غالبته بمحاولة تمرير مع قول جديد خرج فاترًا رغمًا عنها:

- هتفضل و اقف عندك؟..

أخذ جانبه من الفراش بحال متجهم صاغر، ظلت ترمق جلوسه الصامت وتحاشيه النظر بقلب واجف يستشرى فيه القلق، في النهاية مع فقدان الأمل تمددت على جانبها والضيق يحول صفو مزاجها لعكر، تنطوي الدقائق بتثاقل وكلاهما على



حاله، وجدت حالها تغمغم عقب حين كاسرة ثقل السكون وجمود جلوسه بيد أمسكت بذراعه القريب تجذبها:

- ممكن أنام في حضنك طيب؟..

يظن أن جسده أخذ رد الفعل دون الرجوع إلى العقل مستجيبًا لجذب يدها بميل واضطجاع لظهر الفراش، رأسها سكن كتفه وكفها ارتاح فوق موضع قلبه، جسدها يقلص المسافات الضيئلة بتلاحم، تدس بحالها فيه رغمًا عنه وعن خطب يعتليه تجهل كنهه حتى سقطت بين براثن النعاس غير سامحة له بنهوض مع شدة تشبثها فكانت كلما حاول تموء برفض وتلتحم فيه أكثر، حاول مرة بعد مرة وفي النهاية..

استسلم لحصار ذراعيها.



كانت خائفة..



صارت ترعبها فكرة الفقد، فكرت أنه يطرق بابها لمرة جديدة، فكرت والندم يزحف إلى داخلها حتى غطى على كل شعور تملكه، قبل يومين وعلى مدار ثمان أشهر كاملين لم تكن سوى مجرد شيء ينمو بداخلها، شيء دفعها لإتخاذ القرارات وفقًا لوجوده، شيء أخبرتها الطبيبة أن نوعه أنثى ولم يتحرك بها ساكنًا، كان مجرد خبر لم يدوِ بأي وقع على نفسها، شيء تمنته كما لم تفعل مع آخر قديمًا وحين جاءها لن تقول أنها لم تعد راغبة لكنها كانت فاقدة لكل معاني الحياة فلم تكن تشعر بأي حال أو شعور معها..

لثلاثة أيام لا تشعر بحركتها التي اعتادت عليها، فجأة عم السكون وزارتها الوحشة في أحشائها، خافت أن ترحل هكذا ببساطة دون أن تخبرها أنها آسفة لكون حزنها على شقيقها أنساها إياها فلم تمنحها فسحة تخصها، في هاته اللحظة تشعر أنها كانت تحبها طيلة الوقت وتنتظرها كما لم تنتظر أحدًا من قبل، كانت بحاجتها أكثر مما تظن أنها تفعل..



هي التي تختار وتفضل المواجهة ولو كانت قاسية؛ مؤلمة في جل شئونها خافت وهربت من ملاقاة الحقيقة، فضلت أن تعايش الشكوك وتقتلها بقلقها على التأكد من ما لا ترغب فيه، كانت في حالة ذعر وإنكار داخلي رغم الثبات والصمت من الخارج، مع حلول الليلة الرابعة انفرط عقد مخاوفها وطفق فوق قسماتها يرتع، كانت ترجف في صوتها وأطرافها وهي تخبره بصوت مختنق ويداها تلتفان حول تكور بطنها:

- مش بتتحرك..

فزع من رقوده مع قولها، احتله شيءٌ مما يعتمل فيها والنظرات بينهما موصولة في لحظة ساد فيها الوضوح التالي:

- تلات أيام تقريبا مش حاسه بأي حركة..

عقب اللحظة تحرك دافعًا باضطرابه عن عينيها المحدقه، يأمرها بأحرف جامدة متجاوزًا إياها ليفعل المثل:

- غيري هدومك..



أوقفته بهمس سكب كل مخاوفها دفعة واحدة:

- هيقولوا ماتت!..

عاد تجاوزه آخذًا بها وفزع عينيها في ضمة جاءت عنوة ببداهة شعوروقول:

- أكيد لأ..

ينفي ظنونها بيقين لا يملكه، ينكره بتأكيد تال وذراعاه يطوقانها بكليتها رغم حالة التخبط التي يجتاح كيانه ويتركه في لحظة شتات:

- إن شاء الله لأ..

ابتعد بمقدار يرمق جمودها والمخاوف تخضعها رهينة لدنها، تلطفت بها أحرفه ورأسه يميل بقرب من خاصتها:

- هنروح المستشفى دلوقتِ عشان نطمن، تمام؟..



هزت رأسها بإيجاب صامت ثم تحركت تتبع قوله بوجوم كبير، طوال طريق الذهاب بقيت تحيط بطنها ولسانها يلهث بالدعاء، كانت أحرفها تخرج من بين الأنفاس الهاربة فبدت لاهثة ومتعبة، بصرها ثابت فوق نقطة وهمية تتسع فيها الدوامات الغير مرئية وهو إلى جانبها ينقل بصره بينها والطريق كل حين، كل الاطمئنان الذي حاول زرعه فيها كان يحصد خلافه في داخله، كان يغالبه شعور من وصل خط النهاية دون أن يدرك وبصره معلق بما فاته ولم يره..

دقائق الإنتظار كانت قاتلة، "ناصف" عن يسارها قابضًا على كفها بيده بينما الأعين والأنفاس معلقة عن يمينها مع الطبيب الذي يخضعها للفحص الطارئ، حدثهم بكلمات سويدية لم تعِ مضمونها فدار رأسها بصبر راحل تتعلق عيناها بشفاهه التي راحت تحدثها في الحال و انفراجة الطمأنينة تلوح في الأفق:

- بيقول زي الفل، اطمني..



لم تشعر بتساقط عبراتها إلا عقب قوله، كانت أنفاس الحياة ترد لرئتيها وقلبها معًا متمتمة بالحمد مرة بعد مرة قبل أن يصلها الصوت الذي أطرب روحها وأمطرها بغيث الرحمة، فرج ثغرها عن ضحكة عذبة مع العيون الندية فكانت لقطة استحوذت فيها على بصره وروحه معًا:

- قلبها بيدق!..

تبسم لتبسمها ويده تضغط على كفها أكثر مرددًا قولها في تأكيد أزال التعجب:

- بيدق..

نقل لها أقوال الطبيب كوسيط مترجم، لايوجد ما يستحق القلق، الأمور بخير والصغيرة تستعد للخروج ليس إلا، لقنها بعض التعليمات الخاصة وأكد عليها أن تعود للفحص لو شعرت بقلة الحركة من جديد..



رحلا بحال غير الذي أتيا به، ضمها لبطنها كله ارتياح وطمأنينة، كله وعود وإعتذرات صامتة للصغيرة، يهمس لها قلبها أنه مرحب بها لدى"ماما" وأنها تحبها بشدة كما تتلهف للقائها، كانت تتذوق معنى الأمومة لأول مرة وفوق شفتيها يرتسم طيف ابتسامة احتفظت به لأجلها..

خرجت من شرودها على توقف السيارة بجانب الطريق، التفتت تتطلع إليه في صمت قطعه هو بالتفات ناحيتها، هتف بقول ظهرت فيه الجدية وجاء بلا مقدمات:

- ممكن أما يحصل حاجة زي كده تبلغيني على طول أنا مش ضيف شرف في الليلة دي..

كان مستاءً من الوضع كله، لا هما زوجان بمعنى ما يربط بينهما ولا هي تعرب عن رغبتها في الانفصال بوضوح، وضعهما المتأرجح الذي قررته يتركه بحال مذبذب ومتضارب لا يعرف له محلًا من الحياة التي يتشاركان فيها..



سحب نفسًا عميقًا قبل أن يستطرد برغبة صارمة بوضاحة:

- دهب خلينا نتكلم من فضلك، احنا محتاجين...

- لأ!..

قاطعت كلماته ب_لا باترة، حادة، تابعت وملامحها الصارمة تموج بالضيق قبيل عينيه:

- هي مفتاح الكلام بيننا، بعد ما توصل بالسلامة نتكلم ونحط كل النقاط على كل الحروف..

ازدردت لعابها متابعة قولها ووصال الأعين معه لا ينقطع:

- من غيرها كل اللي بيننا منتهي، مفيش حاجة ممكن تتقال..

عادت تستند بظهرها إلى المقعد وقول أخير جاء بنبرة إغلاق الستار:

- و إنتَ باباها محدش قال إنك ضيف شرف..



قطعت كل طرق الحديث، وضعتها كمركز التقاء جمع بينهما ومن دونها لن يحدث أبدًا، كانت كلماتها تلفظه بعيدًا عن مدارها، تركته في مواجهة ما يخصه وحسب، وضعت حالها خارج نطاقه تمامًا، استاء لأن حساباته تشملها والصغيرة معًا كشيء واحد أما هي أسقطته و أقصته عنها بكل صراحة، استاء لدرجة الغضب الذي طفق بداخله وماج ولا يملك معه حق البوح..

في تلك الليلة..

أدرك أنها تمثل له أكثر مما يشعر..

و أنه يريدها أكثر مما يظن.



لعل الخطأ كان في البداية..

الآن صار يدرك حقيقة ذلك، رغبة الثأر لم تنجح في التئام الجراح كما تصور بل كانت تزيد من حفرها، كانت تتعمق للحد



الذي تساوى فيه الألم مع عدميته، ليس لأن المغتصب لا يستحق بل لكونه هو لم يكن يستحق أن يصاحب قاتله، سار الأمر على نحو خاطىء، الآن بعد هذا الشوط الكبير يعترف لحاله أولًا ثم لطبيبه الجالس بأريحية خلف مكتبه مستمعًا لأحرفه المتساقطة بروية من خلف النافذة، يقف ثابتًا، يداه في جيبي سرواله وبصره ممتد يرافق الليل وبقع الأضواء المتناثرة..

- رغم غضبي الشديد وقتها ورد فعلي العنيف من جوايا كنت حاسس إن أنا اللي خرجت من سجني مش هو..

يسأل الطبيب بخفوت نبرة لا تقطع هالة الهدوء المحيطة بكليهما:

- وده يخليك تروح تدور عليه؟..

يتغضن وجهه بطيف منعكس فوق الزجاج القاتم:



- مش عارف، زمان كنت بجري عشان أهرب منه ومن سجنه بس مهربتش فضلت عايش وراء قضبان الذكرى كل يوم، جايز يومها كنت عايز أشوف إني بره القبضان دي..

الطفل المنتهك بداخله هو من أراد، أراد أن ينظره بشجاعة، أراد أن يجرده من شعور الخوف للأبد..

تقف القصة مع الشعور، لا يذكر البقية، لا يقول أنه وجده جثة مضرجة بالدماء و أنه لم يستطع أن ينظر لعينيه أبدًا، يركز في قصته على كونها أنقذته، كان يهديها نجاته..

- أشكر مريم بالنيابة عني..

يلتفت مقابلًا ابتسامة طبيبه بأخرى أفترت عنها شفاهه في تبادل ثم تتمه صريحة جاء بها الطبيب:

- مستنيك تكلمني عنها بالمناسبة وتقول ليه إختارتها هي مش حد تاني..



يبقى على ابتسامته الثابتة ولا يجيب، فقط يعود بأنظاره إلى النافذة متطلعًا لما وراءها في صمت..

يعتدل الطبيب ويبدأ في تدوين أمر ما فوق الورقة البيضاء الساكنة أمامه، يمرر سؤاله عبر صيغة مرحة أقرب لحديث رائق:

- توقعت تكمل في جروب الثيرابي، معرفش إنك هتخلع بسرعة كده..

لم يستطع استكمال رحلة العلاج الجماعي وقطعها بعد مرتين لا ثالث لهما، وضعه الإجتماعي الذي يتركه عرضة لكشف الهوية يشكل معضلة كبيرة، لا يريد أن يتعرف أحدهم على قصته، ولأجل هذا ترك اسمًا مستعارًا قبل أن يدلف إلى طبيبه أول مرة بعد أن اختار آخر موعد في القائمة، حيث ينتصف بهما الليل ولا مرضى غيره، وعلى هذا النمط سار الأمر حتى عرض الطبيب فكرة الإنضمام للمجموعات العلاجية بدور الممول



الداعم لتلك الحالات وليس فردًا منهم، أخبره أن الأمر سوف يشكل فارقًا كبيرًا في رحلة علاجه ويقصر الطريق الطويل، وافق ثم تراجع من بداية الطريق، نستطيع أن نخفي الهوية، نبدل الأسماء، ويمكن أن نكف اللسان ويصمت للأبد، لكن الأعين المفضوحة من يخبئها!..

كانت عيناه تحمل نظرة تشبه جميع من جالسهم..

- أفضل نكمل جلسات خاصة..

غمغم بذلك وتحرك متطلعًا إلى ساعة يده التي تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، في العادة تنصرف المساعدة ويبقى وطبيبه الذي احتل مرتبة تقارب الصداقة منفردان وحدهما..

- زي ما تحب، وعلى كل حال وجودك هناك كان بيمثل دور ممول وداعم مش أكتر، ماكنتش هتحصل حاجة من اللي بتفكر أو خايف منها..



- مش خايف يا يوسف!..

هتف بها في حدة صاحبت وقوفه خلف ظهر الأريكة المستطيلة، يرتكز عليها بكفيه ويجابه بقوة النظر الثاقبة التي استقبلها معالجه بقبول وتفهم وقول:

- كل مرة توصل بالكلام لحد الحادث فتلف وترجع، لوماكنش ده خوف من المواجهة تسميه إيه؟..

كل شيء يبدو يسيرًا قبل أن نتوغل فيه، ونفسه الذي توغل فيها لم تكن يسيرة أبدًا، لدرجة لم تمكنه حتى اللحظة بقص تفاصيل الحادث نفسه، يلتف حوله ويدور، حكي ما سبقه وخاض غمار ما تلاه، لكن ذكر الأمر نفسه مازال عصي عليه، عصي على نفسه الكارهة لشعور الذل والكسرة..

مضت لحظات الصمت ولا شيء غير نظراته تعاكس عيني الطبيب في جمود، انتهى زافرًا دون قول ثم امتدت يده نحو



سترة بذلته ومتعلقاته المتروكين فوق الأريكة، يحملهم ببطء ناويًا الرحيل..

جاءه الصوت الهادئ يتسلل برفق:

- كتبت لك نوع جديد، هيريحك..

قال هذا ومد له بالورقة التي دون عليها أسماء العقاقير الطبية، تبادل وإياه النظر قبل أن يقترب، يسحب الورقة العالقة بين أصابعه بصمت فيحدثه الطبيب تاليًا بالنحو ذاته:

- أتمنى تبدأ تقلل الجرعات بالتدريج، حاول..

من الخارج يبدو كل شيء جيدًا، بل جيدًا جدًا في الحقيقة..

لكن من الداخل الأمر مازال معقدًا بعض الشيء، يحتاج إلى القرص المضاد للإكتئاب والقرص الذي يساعده في النوم، خاصة في المرات التي يلاقي فيها امرأته بلقاء حميمي متعثر ويضطر إلى الإعتذار والإنسحاب، ربما عندما ينتهي ذلك لن يعود بحاجة للأدوية والمضادات..



- أسمر..

أوقفه عند الباب بنداء حازم رغم ليونته:

- قطعنا شوط كبير، خليك واثق في نفسك، نفسك اللي قاومت كتير تقدر توصل للحظة تعافي حقيقية..

ظل واقفًا موليًا ظهره والسترة فوق ذراعه خاملة، مضت لحظات ثم اختفى من أمامه.

مع عودته تخلع عنه كل الأعباء، تضمه بذراعيها فتسقط كل أحماله عليها، يبتعد فيشعر بحاله أفضل كحال ابتسامتها وأطباقها الشهية التي تستقبله..

يكفي أن تمس أناملها الأشياء لتزدهر بالحياة، تربة صالحة لغرس جذوره المعطوبة وطرحه العاجز، حين تغدق عليه بعطاء قلبها دون ملل أو إنتظار لعطاء مماثل لا يسعد، بل يغمره الضيق والشعور السيء بكونها تستحق الأفضل، تستحق قلبًا



دافئًا كقلبها، تستحق الكمال الذي ينبغي لها أن تناله في الحياة والمشاعر والأحاديث لا القفر الذي يملكه..

- إيه يجبرك تتحملي وضع زي ده؟..

- ليه السؤال الغريب ده؟..

- مجرد سؤال..

بدا غريبًا طرح سؤال كهذا بينما رأسه يتوسد فخذها منذ عودته قبل ساعتين، في العادة ينال حمامًا دافئًا وطعامًا وغيابًا بغرفة مكتبه مع فسحة من الصمت، لكن الليلة استبدل كل ذلك حيث كانت تجلس بالردهة في انتظاره، تمدد بجسده فوق الأريكة وترك رأسه مرتاحًا عليها لوقت طويل، أصابعها تتخلل خصلاته برفق ورتابة والبرنامج الغنائي الذي يعرض فوق الشاشة المتلفزة يكسر السكوت، خفضت من صوت التلفاز قبل أن تترك جهاز التحكم جانبًا وتتحكم بميل وجهه، تديره إليها فيتخلى عن جانبه الذي يوليها ويصير على ظهره، وجهه



إليها، وجنته أسفل راحتها، عيناها تدنو وأحرفها المتباطئة تعانق قلبه:

- مش مجبورة، أنا معاك عشان بحبك..

صارت تعرف تلك الحالات التي يمر بها، تقاتله أفكاره فيتحسس من القرب والأحاديث وتصير عصبيته ملحوظة، كما يتعثر في خطاه بين درب المشاعر، موطن غريب لا يجيد التحدث بلغة أهله ويرى حاله منبوذًا من بينهم:

- جايز يكون شعور بدافع من شفقة مثلًا، أنا معملتش معاكِ حاجة تستحق الحب اللي بتتكلمي عنه..

- مش محتاج تعمل حاجة أنا بحس لوحدي..

يتغضن جبينه وتستهجن نبرته بحدة فيها طيف سخرية، منه ومن حاله ومن زهور عشق لا يعي كيف تنبت في أرض قاحلة:

- بتحسي بأيه يا مريم؟ أنا حرفيا مبقدملكيش أي حاجة المفروض يقدمها أي راجل للست اللي معاه..



تمسح عن وجنته بظهر أصابعها والبسمة كبلسم باق لا يزول:

- بحس إني مش خايفة من أي حاجة في الدنيا عشان إنتَ موجود..

يطوف بصرها لوهلة فيما حولها وتعود لعينيه بقول تال:

- أما تسافر وتغيب كام يوم كل حاجة بتكون باهتة ومالهاش معنى..

تتوقف أصابعها عن الحركة وتديرها عائدة لضم وجنته بحنو اللمس والكلمة:

- كفاية أحسك جنبي عشان أكون سعيدة..

لم يقطع اللقاء مع عينيها، ظل رابضًا بهما حتى غمغم بعد حين:

- كلامك ده يخليني أقول تستاهلي الأفضل..

تحفر صدق أحرفها القوية داخل عينيه وعقله:



- لو الأفضل ده مش معاك مش عايزاه، أنا بحبك إنتَ ومبسوطة معاك إنتَ، فين المشكلة!..

- المشكلة فيَّ مش فيكِ..

يعبر الأسى فوق قسامتها لأجله فتتنهد بتسليم وتداهن برفق:

- طيب أفتح لي قلبك، اتكلم معايا جايز ترتاح، أوعدك هسمع بس مش هتكلم..

ينقلب على جانبه عاقدًا ذراعيه ببعضهما دافنًا برأسه فيها مغمغمًا بأحرف مختنقة:

- صعب..

تضم رأسه المدفون فيها، تتخلل خصلاته برفق وهمسها ينساب بين نسمات الليل:

- عارفة والله أنه صعب قوي، أنا حاسه بيك، بس كل ده هيعدي، أكيد مش هيستمر للأبد، صدقني..



في الصباح إفاقتها هي كانت الأبكر، لم تنم غير ساعتين، إستيقظت بعدهم بروح نشطة، قضت وقتًا بين أرفف المطبخ ثم راحت تزيح الستائر، غمر الضياء الأرجاء فتسلل العتم هربًا، اقتربت توقظه بهزات متتالية وقبلة خاطفة لاطفت بها وجنته الخشنة:

- صباح الخير، يلا متأخرين..

قالت هذا وغادرت الغرفة، عادت بعد قليل كان قد اعتدل جالسًا يفرك جانب رأسه بصحو ومحاولة وعي لحالها الذي يدور فوق رأسه بنشاط منقطع النظير:

- هو في إيه؟..

- إنتَ لسه قاعد!..

استنكرت ثم دفعت جسده دفعًا إلى دورة المياه قاطعة عليه سيل الأسئلة والتعجب بصرامة:



- ممنوع تسأل حالا..

أنهى حمامًا منعشًا وعاد ليجدها تنهي لف حجابها وقد أتمت استعدادها للخروج فيما يبدو بسترة من خامة الجينز وسروال فضفاض، ألقى بالمنشفة فوق الفراش في استهجان:

- أفهم في إيه بقى؟..

طالعته من خلف المرآة برجاء متعجل:

- طيب ممكن تلبس عشان متأخرين..

- مريم أنا كده هتأخرعلى شغلي..

- هقولك والله بس انجزوالبس الهدوم اللي مجهزهالك دي..

حرك رأسه بلا معنى وراح يكمل ارتداء ثيابه، قبل أن ينتهي كانت تقترب، بين يدها هاتفها موضوع على مكبر الصوت ومرفوع بالقرب منه، حدثت القابع على الخط بصوت مرتفع:

- أنكل رشدي؛ أسمرسامعك، اتفضل..



تغضن جبينه ويده تمسك بالهاتف مستمعًا للصوت المنبعث عبر الوسيط:

"مريم طلبت لك أجازة النهاردة و أنا و افقت.."

حدجها بنظرة ضيقة فهزت له رأسها مؤكدة وصوت أبيه يأتيه تاليًا:

"بس ماتتعودش على كده، يلا سلام.."

قطع الإتصال في الحال، اختطفت هاتفها من يده دافعة به ليتعجل:

- يلا بقى مالكش حجة دلوقتي، وهقولك كل حاجة في السكة مفيش وقت..

- أنتِ مش طبيعية بجد..

ضحكت بمزاج رائق وتحركت تنهى أمورها العالقة سريعًا بينما تحدثه:



- عملت مخبوزات تجنن، هنفطر على الطريق..

تلوح له من البعيد بحافظة القهوة قبل أن تجد لها جانبًا في زاوية حقيبة الظهر التي أنهت تجهيزها وصارت جاهزة للحمل..

- قهوتك معايا كمان..

حين قالت تلك كانت خارج باب الشقة المفتوح، رمقها للحظات بغرابة تتضاعف ثم تبع خطواتها في صمت، أسفل البناية تحرك قاصدًا المرآب فقاطعت خطواته سريعًا ليلتفت بتنبيه مع قولها:

- عمو إبراهيم هيوصلنا..

رمق السائق العجوز الواقف في إنتظارهم على جانب الطريق بنظرات مماثلة لخاصتها، تبعها بصمت آخر مستنكرًا كل مايحدث ومتطلعًا لنهاية كل ذلك..

مكالمة هاتفية مع أمها شغلت كل الطريق الذي يحفظه السائق على مايبدو وعندما سأله عن وجهته تصنع الرجل عدم



الاستماع من الأساس، انتهى الأمر بين زحام البشر وصوت زامورالحافلات يخترق الأذان، ترجلت سريعًا فتبعها متطلعًا إلى المكان الذي يطأه لأول مرة، كانت هي تلتفت يمنة ويسرة ناظرة للورقة بين يديها حتى صاحت ويدها تسبقها بإشارة:

- هو ده..

هرولت بإتجاه الحافلة الكبيرة الو اقفة بالجوار، صعدت الدرجات الصغيرة، تتحدث مع أحدهم بالداخل لثوانٍ وتعود للقادم من خلفها، لحق بها ثم توقف أمام الباب المفتوح يعبأ نظر اته الإستغراب بينما يدها تمتد مقربة المسافات:

- يلا اطلع..

يحرك فمه ناويًا سؤالًا باترًا فيسبقه صياح الرجل الثائر:

- هتطلع يا أستاذ ولا نتحرك؟..



رمق الرجل وعاد إليها بصره بإستفهام فدنت منه خطوة بمحياها اللطيف الباسم وشمس الصباح تعاكس عينيها، ترمش أهدابها قاطعة حيرته بحيرة أكبر ويدها مازالت تمتد:

- تروح معايا لآخر الدنيا؟..

باب صغير يفصل بينهما، هي بالداخل وهو بالخارج وبينهما وصال أعين لا ينقطع، همهمات ساخطة ومتعجلة لمجموعة شباب تصدح من خلفها..

اهتزت له يدها بإصرار فمد يده أخيرًا معانقًا خاصتها بإستجابة، تسحبه بصعود فتتحرك الحافلة في الحال وتسير حيث "آخر الدنيا" هي الوجهه.



في عتمة ليل..

خلف ظلال قتامة النفس سار، بدو افع الثأر صعد الدرجات وطرق الباب، نو اياه الليلة تصادق الشياطين والإصرار فيه أتيا



من قعر الجحيم، لا تراجع، لا مجال وأمام عينيه كانت تستعر أشد الصور قساوة وفجور..

استقبلت طلته بترحاب حار وذراع امتد ليجذبه إلى الداخل:

- نورت يا زيزو..

أغلقت الباب من خلفه وهتافه يلتف إليها بإستعجال:

- فين الفيديو؟..

اقتربت بهمس مغناج مدمغ بإلحاح:

- مستعجل ليه؟ أقعد أشرب حاجة..

نفض همسها بزعيق:

- اخلصي هاتيه..

طرقع لسانها بإمتعاض وراحت تنفث داخل قبة ثوبها المكشوف بسخاء:

- بالراحة عشان بتخض..



تركته باستدارة، غابت في الداخل لحين عادت بعدها تدفع له بالهاتف المفتوح:

- اتفضل عاين بنفسك..

التقط الهاتف وضغط فوق مقطع الفيديو القابع فوق شاشته، يشاهد وجانب فمه يرتفع بثعلبية، ستون ثانية، دقيقة واحدة تحمل فضيحة مفخخة سوف تجوب جميع وسائل التواصل والصحافة الصفراء تحت مسمى مغامرات رجل الأعمال "سالم الرويني"..

خطة بسيطة وضعها مع الماثلة أمامه لتوقع العجوز بشباكها واستدراجه إلى أحد الشقق المستأجرة لليلة واحدة ثم تقوم بالتقاط مقطع مصور لهما معًا مخل بكل قواعد الآداب، لم يكن عصيًا على أمثالها الفعل فلم يطل الوقت وكان منكبًا على وجهه في منتصف شباكها..



دقيقة واحدة كلفته عشرة آلاف جنيهًا، لكن لا يهم المال أمام شعوره في هاته اللحظة، كان منتشيًا بانتصاره، منذ أشهر ونيران الغضب تأكله في صمت، الآن فقط برد وسلام..

- الله ينوريا سونيا..

و"سونيا" راقصة بأحد الملاهي الليلية عرفها ذات يوم عن طريق "سعد" ولم ترده حين طلبها..

- عجبتك؟..

سألته بلهفة نبرتها اللعوب بينما يقوم بنقل المقطع إلى هاتفه المحمول، رفع لها عينيه المركزه لما بين يديه حتى يغمزها برضا:

- معلمة..

سحب من جيب سرواله بقية المبلغ المتفق عليه وناولها إياه، أخذت رزمة المال وردفاها يضربان جانبه بخفة:

- ماتخلي يا زيزو..



حدجها بنظرة لؤم عاد بعدها يتابع المدة المتبقية لوصول المقطع معلقًا بسخرية:

- واضح إن الباشا كان مبسوط..

أطلقت ضحكة ماجنة أعقبتها بتعليق و اقتراب:

- كان هيموت فيها أما سرحته قبل ما يعمل حاجة، راجل مقرف..

- ده باشا ده..

هتف بسخرية فهتفت بإمتعاض:

- على نفسه..

ثم طالعته بنظرة عميقة قبل أن تلتحم فيه بقرب أخير وأصابعها تناوش ياقة قميصه:

- تحرم عليَّ لمسة أي راجل غيرك، أنا حالفة يمين..

أنزل يدها ونظرته ترتحل لعينيها بمكر:



- ابقي صومي تلات أيام كفارة..

غمزته وخصرها يتمايل أمامه في غواية:

- إيه راجل، ماحنتش لأيام زمان؟..

رسم الأسى مع السخرية:

- وحياتك يا سونيا قرفان من الصنف كله..

ضربت فوق صدرها بانفعال دراماتيكي مبالغ فيه:

- يا حبيبي! عقدتك اللي ماتتسمى..

حادت بالحديث إلى مساره المحظور، بدلاً عن الرد شيعها بنظرة محذرة مكتفيًا بقسمات صبغتها الجدية التامة وكف لوح لها بوداع مصمت في إثره رحيل.

دلف منزله قبيل الشروق، مر بين الفراغ والصمت مقلبًا بصره في الأرجاء والعبوس يحفر خطوطه فوق صفحة وجهه، انتهى داخل غرفته، ينزع ثيابه ويستل هاتفه بوقت واحد، يجري



اتصالًا هاتفيًا، جاءته الاستجابة قبل أن ينقطع الرنين، ما إن فتح الخط حتى أخبر القابع على الطرف الآخر دون استهلال بنبرة فاضت بعدم الاكتراث:

- بنتك لها 84 ساعة غايبة عن البيت، قلت أبلغك جايز يهمك أمرها..

ودون أن ينتظر ردًا قطع الإتصال وضغط فوق زر القفل مطولًا حتى انطفئ الجهاز تمامًا، مال بعنقه يمنة ويسرة مطرقعًا عظام الرقبة المتشنج ثم ألقى بجسده المتعب فوق الفراش وراح يغط في سبات عميق.



(30)

بياض يعلو سواد ليلٍ حَالِك..

لحظات السَّحَر التي تسبق انصداع الفجر المنتظر.

ظلمة الليل الطويل تنجلي برؤية ضبابية وخطواته تسابق بعضها البعض في تؤدة بذهن شارد وعضلات وجه مرتخية، يداه في جيبي سرواله القطني ورأسه ساقط النظر نحو الأسفل، حين تضيق عليه الجدران وتطبق على أنفاسه بثقلها يلجأ إلى عادته الأثيرة، يمضي سيرًا فوق الطرقات الخالية من البشر النيام، تتزاحم داخل رأسه تفاصيل ليلة الأمس الراحل، هيئتها في حلة العروس، فرحتها، عشقها، تشبثها فيه وفقدانها الأمل الذي سبق سقوطها في بؤرة النعاس ورأسها راقد فوق كتفه، لجوءه هاربًا إلى الصمت هو كل ما استطاع فعله والأمور تفلت من بين يديه، عندما سحبها الغفى لحد عميق دثرها وتركها



تضم حالها إلى حالها وقام هائمًا على وجهه بين زوايا البيت حتى ضاق عليه فنزل هائمًا على وجه الدنيا..

كل ليلة كوابيسه تقض على مضجعه حتى يفزع منها متعرقًا مفتشًا عن الدماء المتقاطرة من بين أصابعه بأعين جاحظة، الليلة لم ينم فلم تأتِه لكن طيف نصفه يسكنه منذ طلعة النهار، يستشعر الآن خطواته تتبع قدماه، ذراعه ينسل ببطء ويمر به حول منكبيه حتى يستقر بكفه فوق كتفه، صوته ينقر مسامعه فيجفل جسده وأجفانه المتراخية، يتصلب جسده لثوانٍ بوقوف واعتدال مقلبًا البصر من حوله فلا يجد غير الفراغ يصاحبه، يلفظ أنفاسه المحتبسة ثم يمضي في سيره حتى تتوهج الشمس في كبد السماء وتقترب معها الظهيرة، يحمل أقدامه المتعبة وبضعًا من تجلد أقام به نفسه عائدًا إليها حيث تبقى، تاركًا الوقت والقدر يلعبان دورهما المنتظر.



ما إن دلف حتى تأهبت كل حواسه مع انغلاق الباب، استدار فزعًا ورزمة مفاتيحه تسقط عن يده دون وعي، وعيه كله كان منصوبًا مع رائحة الحريق النفاذة وخيوط الدخان السابحة في الهو خروجًا من المطبخ ومن خلفها ظلال النيران تتراقص مثل خصر الغانية..

هرول مسرعًا وصياحه باسمها يتردد صداه بين أضلعه قبل أن يرتطم بزوايا البيت الساكن، بحركات غير محسوبة أطفأ نيران الموقد وحمل المقلاة المسطحة التي كانت تنفث لهبًا عاليًا من جوفها ليلقي بها داخل حوض الجلي فتخمد نيرانها وتبرد مع تدفق المياه الغزيرة، طفق يسعل مرة بعد مرة ويداه تتناقل مابين موقد الغاز محكمًا إغلاقه بتأكيد وبين فتح النافذة الجانبية لتهوية بقايا الدخان، جاءته شهقتها القوية من الخلف تشق السكون، هيئتها داخل مئزر الحمام والمنشفة الضخمة تضم رأسها تظهر من خلف الضباب الزائل، أصابها بزعقته القوية في انفعال شديد:



- أنتِ غبية!..

ألجمها وأوقف تقدمها، كانت قد وضعت قدر السلق للبيض وإلى جانبه مقلاة القلي لأجل أصابع البطاطا، تركتهم دقائق معدودات حتى تمام النضج، بضع دقائق فقط فكرت استغلالها في حمام صباحي سريع، لم تكن تعلم بخبراتها الضئيلة أن مياه السلق القريبة سوف تغلي وتلقي برذاذها فوق الزيت الساخن فيشتعل وتعم الفوضى!..

- الحمد لله ربنا ستر..

همست ويدها فوق صدرها الهابط بتنهيدة، لكن انفعاله لا يهدأ أو ينطفىء وأسوأ الصور تعتمل بخياله:

- الشقة كانت هتولع و أنتِ جوه مش دريانة..

صاحت بدورها وقسمات وجهها تنكمش بغضب و انفعال وليد اللحظة:

- أنا كنت بحضرلك الفطار ومتأخرتش أصلا..



ثم تهدج صوتها مع بقية قولها في نبرة عتب شديد:

- وقبل ماتزعق لي زعق لنفسك عشان نزلت وسيبتني، مفيش راجل في الدنيا يعمل كده مع عروسته على فكرة..

أتبعت هذا باستدارة حادة ورحيل حيث غرفتها صافقة بابها من خلفها بعنف الغاضب.

ظل و اقفًا يتبع إثرها في صمت مطبق و انفعالها قد غطى على خاصته، أخرجه حريق إبهام يمناه من حالة الخرس القائم، تحرك غامرًا يده تحت الماء الفاتر لحين ثم وبحركة رتيبة طفق يعيد ترتيب فوضى المطبخ وتنظيف بقايا الزيت المتراشقة هنا وهناك، انتظر بعدها حتى تخرج فيمر الحدث من تلقاء نفسه لكن اختفاؤها خلف الباب الموصد لوقت طويل يعني أنها مازالت غاضبة وإصلاح الأمر وقع عليه، فرك جبينه وزفر للمرة التي يجهل إحصاءها، أخذ فكره حيز الفعل وتحرك صوبها، نقر خشب الباب بخفوت المستئذن قبل أن يدير المقبض ويقابل



جسدها المنكمش على حاله فوق جانب الفراش، تقدم يجاورها بجلوس، مرر النظر فوقها ثم انصرف به نحو الفراغ، قدم اعتذرًا خافتًا:

- آسف عشان انفعلت وزعقت..

ما إن أنهى أحرفه حتى اعتدل جسدها الراقد بغتة، لفت ذراعيها تطوقه بلجوء ورأسها يرتاح فوق كتفه بنهنهات باكية:

- خوفت أما صحيت مالقتكش جنبي وحاولت أكلمك موبايلك مقفول، قولت أشغل نفسي بأي حاجة لحد ماتيجي معرفش إن ده هيحصل..

أجبر جسده الجامد في كل مرة تلامسه على اللين والمعاملة، رفع يده فوق ظهرها بمراضاة صادقة:

- حقك عليّ..

أبعدت رأسها تناظره وتغضن قسماتها السابق تبدل لإشراق، سبابتها تزيح خصلاتها الغير مهذبة جانبًا ثم تنقر فوق وجنتها،



تطالبه بقبلة عربونًا للصلح، تطلع إليها للحظات أجبر فيها عقله الصاخب على الدوام على الصمت قبل أن يأخذ رأسها بين يديه، أودع قبلته فوق جبينها وهمس خفيض أخذ معها وقعًا مغايرًا ودغدغها بدفء قريب:

- خدي بالك من نفسك و أنا مش موجود..

بادلت دفئه ذاك بطاعة هامسة:

- حاضر..

ثم تحول همسها الرقيق وأصابعها تجذب قميصه لدلال ظلل عمق النظرة:

- طبعًا إنتَ هتعوضني عن الفطار اللي اتحرق ده وتخرجني الليلة..

مكر أنثوي ومض بعينيها متجاهلاً صمته:

- ممكن أنا كمان..



قطب حاجبيه بعدم فهم فأوضحت:

- أبوسك..

وأردفت بغنج باسم:

- بوسة واحدة بس..

تجاهلت انكماش قسماته المرتخية بقرب سريع ولثمة شفاه قوية طبعتها فوق وجنته وراحت تسير ببطء حتى الوصول لحدود الشفتين توقفت بهدير أنفاس قريب، أناملها تداعب وجهه، كلها بين ذراعيه مشرعة أبوابها بدعوة وقبول صدها بعزوف ورغبة ابتعاد واضحة، افترقت أهدابها المتراخية بهمس قريب لامست فيه الأحرف بشرة عنقه:

- عبدالرحمن في إيه!..

تسأله بوضاحة همس وكفها يحيط وجنته برفق:

- مش عايز تقرب مني ليه؟..



كل مرة تنظره بعين العاشقة تضرب هدوءه المفتعل في مقتل، تسقطه في حيز شديد الضيق، صحيح أنه يلعب دور أخيه في لاوعيها لكن هذا لا يمنحه أحقية أخذ دوره في الفراش وأشد اللحظات حميمية..

تخبط بصرها بحيرة أمام عينيه:

- ده إنتَ كنت مستني اليوم ده أكتر مني!..

في إثر كلماتها كان وجه أخيه الفرِح حاضرًا، وصلت الأحرف لحلقه ثم تبعثرت بشتات، نهض عن مجلسه بحدة ينهي اللحظة كما ليلة الأمس مع رغبتها بصد وجفاء صامت تبعه انشغال كاذب في حقيقته هروب، لم تستطع أمام غرابة حاله واضطرابه الواضح إلا أن تهاتف شقيقتها، تلجأ لها بحيرتها بهمس خفيض حفاظًا على خصوصية الحديث:

- مريم الحقيني..

تتباحث في قاموسها عن المعنى القريب وتستطرد بإيضاح:



- عبدالرحمن قافش..

"يعني إيه قافش!.."

- يعني مش بيقرب مني خالص، خالص أنتِ متخيلة؟! حتى كلامه قليل، مش عارفه ماله ولا أعمل إيه!..

لم ترى كفها وهو يضرب جبهتها، استجمعت خيوط الحديث سريعًا وأوصلته معها بهمس جاد:

"ما تعمليش أي حاجة يا ندى، والأفضل ماتتكلميش أو تلمحي للموضوع عشان دي حاجة حساسة بالنسبة لهم وكلامك هيضايقه، سيبيه براحته وقت مايكون مستعد هيقرب.."

سألتها بنزعة قلق:

- يعني ده طبيعي؟..

اضطرت لرد متمايع:

- عادي آه..



غمغمت لها بإحباط:

- أنا كنت فاكرة الجواز حاجة تانية..

"عشانك قليلة الأدب يا روحي.."

عندما حل المساء تعلقت في ذراعه بفرحة طفلة تدون أشياءها الجديدة مرة تلو مرة:

- دي أول خروجة لينا سوا..

العشاء الأول..

الشجار الأول..

القبلة الأولى!..

كل حين تحصي شيئًا أول كأنما ميلادها كان بالأمس فقط ولم تهترأ كافة الأشياء بينهما من قبل..



استغلت أناملها خلوة المصعد وراحت تداعب قبة قميصه معدلة إياها دون حاجة، تسأله في حماس منقطع النظير:

- هاتعشيني فين؟..

في حضرة خفتها يختبىء الصمت، في لحظة تسحبه لدنياها الحية بعد أن كان يبتعد أميالًا مثل الشارد بالقفر الشاسع، تضعه معها داخل الصورة وتغلق عليهما بإطار محكم، يلتف صوب ثغرها الباسم القريب إثر التصاق جسدها في جانبه، يتكفل بتبسم رصين بادل فيه بهجة عينيها:

- المكان اللي تحبيه..

تقفز سعادة بروحها لا جسدها، تنهي التصاقها فيه عقب مغادرة المصعد دون أن تفلت أصابعها عناق يده:

- يبقى نروح المكان بتاعنا..

كرر سائق عربة الأجرة السؤال عن الوجهه لمرتين، ظل ينظره خلالهما بصمت مطبق غائبًا في جهله، حين استقر وعيه التام



من تشوشه وجدها تنظره بعجب سرعان ما بددته بتبسم ورأسها يميل فوق كتفه وقد دلت الرجل على الطريق.

مطعم يعلوه الصخب والزحام ناسب ذائقة "ندى" و إقبال شهيتها على شطيرة برجر ضخمة التهمتها ما إن وضعها النادل وسط ثرثرة متصلة بلا فواصل، عن المسرح الذي تشتاقه، عن أصدقائها ومآل بعضهم بعد أن فرقت بينهم السبل وتشتت الأخبار، ترغي وتزبد في عشرات المواضيع وهو ضائع أمامها رغم إنصاته الشديد، يفهم القليل، يفسر البعض من سياق الحديث، وحديث آخر يجهله تمامًا مثل هذا الذي تستجديه لأجله ويدها تقبض على كفه المرتاح فوق الطاولة الصغيرة القابعة بينهما بتوسل شديد مصبوغ بغنج أنثوي معجون بفطرتها:



- شوفت صور لتايلاند بجد خرافة، أنا خلاص قررت هي تايلاند، نثبت الهدف بقى ونحوش له وافق يلا، عشان خاطرييي يا بودي!..

رغمًا عنه ضاقت نظراته بجهل تام سرعان ما صدته بثرثرة تالية عجول:

- أيوه استهبل بقى، أنا مش هتنازل عن السفرية دي خلي بالك، وإنتَ وعدتني..

هذه المرة لم يكن الجهل عقبة الصمت، بل الصخب الأنثوي القائم على الجهة المقابلة، استدارت برأسها تتطلع إلى تجمع الفتيات الملفت والأكثر إلفاتًا كانت عيني إحداهن المصوبة عليه بقوة المتفاجىء، عادت إليه فوجدته يبادلها بدوره النظر وإن كان بأقل قوة واندهاش، أحاطت وجنته بكفها، تعيده إليها في الحال:

- ممكن تطلب لي آيس كريم؟..



- أنا بقول نقوم كفاية وناخد كل اللي عايزاه معانا البيت..

- خلينا شوية، القعدة حلوة و أنا مبسوطة..

راقبت انصياعه المرغم، تتبعت نهوضه قبل أن تلتفت برأسها ناحية الفتاة التي ظلت تتبع خطواته بدورها قبل أن تنقل عينيها إليها وما إن فعلت حتى حدجتها "ندى" شذرًا مما أخجل الفتاة ودفعها لتصرف ناظريها بعيدًا..

مرت الدقائق التالية في تثاقل واضح والنظرات الثلاث تروح وتجيء بغير هدى حتى قررت صاحبة الأمر النهوض والرحيل، فتح لها باب السيارة لتتقدمه، قبل أن يجاورها جاءه الصوت المألوف مذبذبًا ذرات الهواء من ورائه:

- لحظة من فضلك..

أغلق باب السيارة واستدار بذات الهدوء عائدا إلى الرصيف، يبتعد بمقدار لايسمح للجالسة داخل العربة بالاستماع بادئًا الحديث في وداد قديم:



- إزيك يا سارة..

و"سارة" يخفق قلبها بقوة تضاهي لمعة عينيها في هاته اللحظة وهي تقف معه هو؛ الرجل الذي سكن أحلامها لعام ويزيد وكانت تظن أنها أحلام قابلة للتحقيق حتى تحطم كل شيء في لحظة، تهندم دواخلها المبعثرة سريعًا برد حاضر:

- الحمد لله تمام، إنتَ ازيك!..

ترتجل الأحاديث من فوق طرف اللسان بانفعال كبير:

- ماكنتش مصدقة أما شوفتك جوه، حقيقي انبسطت جدًا بالصدفة دي..

تبتلع لعابها مردفة دون أن تمنح السكوت فرصة، يدها تشير إلى الخلف وبصرها يتردد بينه والجالسة خلف زجاج السيارة بقسمات متجهمة في غيرة واضحة:

- صحابي بيحتفلوا بيَّ، الروا ية بتاعتي نزلت المعرض.. فاكر!..



- بجد؟ مبروك يا سارة..

تصلها جميع أخباره من خلال أصدقائهم المشتركة، تفاصيل حادث أخيه، حالة الحزن الشديدة التي التقمته من بعده، وكما عرفت السابق مؤكد وصلها نبأ زواجه الصادم من مخطوبة أخيه الراحل لكن لم يخبرها أحد أن العالم أجمع انطفأ من بين عينيه..

عيناه شعلة الأمل العنيدة خمدت!

آلمها أن تراه في وضع كهذا رغم مداراته.. همست برجاء:

- ممكن ثانية واحدة؟..

همست بها في صعوبة و أقدامها تعود للوراء بينما عيناها تتوسله الانتظارللحظات، ذهبت في خطوات واسعة وعادت في غضون ثوانٍ لاهثة الأنفاس وأكثر رباطة جأش، تقدم له مولودتها الأولى بقسمات فرحة..

- هفضل ممتنة لك طول عمري..



تناول الكتاب يتبع تفاصيل غلافة الداكن قبل أن يفتش أوله ويظهر الإهداء الذي خصه قلبًا وقالبًا فأوقف حركة يده..

"إلى مُعلمي الذي لوح لي بالقلم ذات نهار وأخبرني أنه ليس بالشيء الجماد وإنما الدفة التي توجه عقول البشر"

رفع لها عينين ومض فيهما شيء من ماضٍ لم يطل والحاضر يفرض حاله بقوة..

"حبيبي يلا!.."

بنبرة قوية، متأففة فيها معزوفة حنق ووعيد استدار معها رأسيهما وعاجلت "سارة" بسؤال لا معنى له وجوابه واضح:

- زوجتك؟..

عاد لها بتبسم مجامل وتعريف:

- ندى..



بالغت في إظهار سعادتها لأجله، تذبذب ابتسامتها أوضح كم كانت كاذبة:

- ربنا يسعدك يا عبدالله..

ودعها بكلمات مجاملة ومكررة قبل أن يجاور زوجته التي لم تتفوه بكلمة احترامًا لوجود السائق الغريب مكتفية بعقد ساعديها وحفر كوعها بين أضلعه، صمت انتهى مع العودة والوقوف بمنتصف الردهة مواجهًا وابل الاستفسارات التي بدأت وانتهت بمن تكون تلك!..

والجواب واحد، صادق بما يكفي:

- كانت زميلتي في الشغل..

- مكلمتنيش عنها ليه قبل كده؟..

- بقول كانت ياندى..

- وأما هي كانت، كانت مركزة معاك ليه؟..



- متهيألك..

- أنا متأكدة و إنتَ كمان بصيت لها..

تسطو على دوره في الحديث وهي ترغي وتزبد في استطراد ممتعض:

- أمال لو كانت حلوة يعني دي دمها تقيل من بعيد..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- المرة الجاية هخزق لك عينيك، ماشي؟..

لم تكن تفتعل شجارًا، بل كانت غيرة امرأة على رجلها ليس إلا، ملامحها والكلمات مفضوحة لحد التفسير والفهم، تركته صاغرًا دون قول واختفت بالداخل حين عادت وجدته غائبًا داخل دورة المياه، يدها داهمت مقبض الباب عنوةً، تهدل كتفاها بخيبة وهي تراه موصد من الداخل، همست باسمه فلم يصلها غير خرير الماء، تركته وراحت تنتظره بغرفتهما حتى طال



غيابه فعادت له مرة أخرى لتراه قد اتخذ من الأريكة منامًا، قرفصت إلى جانبه، تهزكتفه برفق:

- عبدالرحمن..

تقاوم غصة حلقها:

- بودي إنتَ زعلت مني؟..

تهزكتفه من جديد:

- قوم نام جوه طيب..

النداء الثالث جاء خافتًا عن ذي قبل ولا مجيب، لملمت جانبي مئزرها الحريري بنهوض وخيبات تعثرت بها خطاها والكامن بين الضلوع، ضغطت مكبس الضوء في طريقها فانتشر الظلام..

بعد أن تلاشى ظلها من فوقه افترق جفناه المتلاقيان منقلبًا على ظهره متنهدًا وغافيًا بصدق رغمًا عنه هاته المرة، لا يعي متى سقط في النعاس ولا كم مر عليه من الوقت عندما انتفض



متعرقًا في بدنه كله تسري قشعريرة، يبصر شعاع الضوء المتسرب إليه بتيه ملتفًا يمنةً ويسرةً بأنفاس لاهثة لا تهدأ، يقسم أنه كان هنا، أنه رآه رؤيا الحق، شفتاه تهمس وعقله ينبش عن الحقيقة من بين براثن الحُلم، احتاج الى نصف ساعة كاملة حتى تهدأ فرائصه المنتفضة ويستطيع القيام، يسبغ جوارحه بماء الوضوء ويشق الظلام سيرًا ومأذن الحي ينادي نداء الإقامة، أول فعلٍ كان سجودًا طويلًا سكنت له أطرافه وانسكب معه سائر حمول الجسد، انتهت الفريضة ورحلت الصفوف القليلة، لم يبقَ إلاه والشيخ "محمد" إمام المسجد ومفسر الرؤى والأحلام الذي تربطه معه علاقة وثيقة..

اقترب جاثيًا من أمامه في تبجيل، قص عليه منامه الذي أيقظه قبل لحظات، أخبره عن يده الشريفة التي كانت تربت فوق كتفه وشعربها حقيقية الوجود، عندما انتهى بسكوت أفترفم الرجل المسن عن تبسم وضاء فيه هدوء نسائم الفجروبشراه:



- دي رؤيا من حبيبك النبي، جاي يطمنك على أخوك المتوفي..

ثم تراخت أجفانه بإرداف فصيح و أنامله تتبع حبات المسبحة في حجره:

- يطمنك ويعاتبك على غيابك عن صلاة الجماعة، يقول لك بفمه الطاهر الشريف:

ألا تحب لقيانا يا عبدُ اللّه؟..

حين سمع ذلك نكس برأسه خافيًا تغضن قسماته وترقرق الدمع بين أجفانه.



الليل تهويدة الأحبة..

اختطفته من ثغر الماضي، كان على وشك السقوط مهزومًا أمام كهوف ظلامه المعتمة، نوبات اكتئاب تجتاحه على فترات، تصنع منه شبحًا أسود يهيم بلا مستقر، اختطفته هذه المرة غير سامحة له بغياب..



"تروح معايا لآخر الدنيا"

مدت له يديها، فعانقها بقبول..

ثلاث ساعات ونصف كانت بعدها و إياه ينفصلان عن ضوضاء المدينة وصخبها القائم، لاشيء يلفهما غير ذهبية الرمال التي تحبو على مداد البصر، في عينيها كان مدًا آخر يسحبه حد العمق، يبصر روحها تشع بهجة وهي تتقافز فوق الصخور المنتشرة بالمكان، ينظرها ليرى من أين تنبعث تلك السعادة وسط هذا القفر؟.. يتباحث ويفكر في كونه شعور طيع ملكتها، لا تحتاج كثيرًا لتسعد، فقط وقتما تريد تفعلها دون عقد..

هذا ليس مسًا من خبال أصابه، إنما هو الفراغ الذي يلفه ويجعله يفكر هكذا وقد قطعت بقولها فور لحظة الوصول كل دخيل غيرها..

- هنا مفيش شبكة خالص فمتحاولش..



تعانق يده كما فعل مسبقًا، تسحبه من بين جماعة الرحلة ليبقيان بمعزل وحدهما، تقدم له وجبة الغذاء التي أعدتها لأجله حسب معرفتها التامة بكونه لا يتناول أيما طعام، بعدها لا تكثر من الثرثرة، كانت تجمع وتوافر له لحظات السكينة ليجلس هكذا فارغ الرأس والعالم كله يتلاشى من وراءه، يشرد ويضيع فوق حدود الأفق البعيد شاعرًا في حاله خفة، السكوت هنا لا يعني الوحشة، بل كان صفاء من نوع خاص وهو يجلس فوق الصخرة الكبيرة مغمورًا بالسلام..

محمية وادي حيتان التابعة لمحافظة الفيوم كانت مفهومها الذي تراه متجليًا في تعريفها لـ"اخر الدنيا" ومع إقبال الليل كان قد عرف بدوره.

هيبة الصحراء وفتنتها نهارًا تضمحل وتخبو أمام سحر السماء المتشحة بملايين النجمات اللامعة ليلاً وهي إلى جانبه تضع فوق كتفيها دثارًا ثقيلًا يقيها صفعات الخلاء الباردة، عيدان الحطب



تجمعت في كومة ناريعتليها براد شاي منكه بالقرنفل في استثناء خاص أراده فكان بنفحة مال، كل صمت النهارلملم أذياله ورحل تاركًا البراح يجوب ويحشو هذا الفراغ الكبير بالكلام..

- ده أكترمكان ممكن أحبه في العالم..

صفاء دواخله صنع تبسمًا رقر اقًا ر افق همسه القريب عقب لحظات أطال إليها فيهم النظر:

- تعرفي إنك شبهها..

تتبسم بفضول وسؤال فيهديها راحة الجواب بكلمة تخضب لسانه لأول مرة معها:

- أمي..

لفظ الكلمة أوضح أنه يعني تلك التي جاءت به إلى الدنيا لا من أقامت عوده، لأول مرة يسحبها هو إلى بقعة من ماضيه، إلى أفضل ذكرى باهتة تحملها ذاكرته البعيدة، يوضح:



- أقصد شبه الروح مش الشكل..

تحاوطه بظلال دافئة أصلها ثغرها الباسم لا النيران القريبة بينما تسير معه فوق ذاك الدرب المعتم بكل رفق:

- فاكر ملامحها؟..

يهز رأسه بالنفي، تلاشت كل ملامحها مع احتراق البيت ومرور السنين، لم يعد يبقى منها شيئًا سوى طيف غير مرئي يستحضره في لحظات عابرة فييتشعر مسحة يدها الحنون دون أن تكون..

طغى الصمت لبرهة ومضت خلالها الشُهْبَان الساقطة داخل عباءة الليل البهيم، دارت إليه برأسها تقتنص الفرصة وتخلق مجالًا جديدًا للأحاديث:

- في أسطورة قديمة بتقول لو اتمنيت حاجة وقت نزول الشهب هتتحقق..

ثم شدة من جلستها في حماسة، تغمغم في لهجة آمرة بتسلية:



- يلا؛ غمض عينيك و اتمنى..

تعلم أن تلك الأفعال لا تليق به ولا يفضلها، رغم ذلك أخرجت يدها من أسفل الدثاروراحت تحثه أن يفعل بوكزات مازحة:

- أسمرباشا مش هتخسرحاجة أما تجرب..

يعترض ببصره تاليًا فتناوشه بمزاح أكبر:

- مش هفتن عليك والله، يلاا ا..

استسلم لإلحاها البغيض بإنغلاق أجفان، مرت لحظات حتى فرقهما ببطء، وجد عيناها المتطلعة تضمانه دون عناق وتسأل في فضول كبير:

- اتمنيت إيه؟..

استغل فضولها برفض مشاكس:

- الأسطورة بتقول مانقولش لحد..

- يا عم و إنتَ بتصدق التخاريف دي!..



يرتشف من شايه ويسبح بصره نحو الظلام المقيم رافضًا إرضاء فضولها المتقافز، مرت برهة وصورته وحده تسكن أفق عينيها وبسمة الشفاه، تفصح له عن أمانيها دون سؤال هامسة بدفء الكلمات:

- أنا اتمنيت تحبني قد ما بحبك..

ظنته لم يسمعها حين بقي على حاله لم يحرك ساكنًا، مضى حين حتى تكلم وبصره يرتحل إليها:

- المفروض تتمني حاجة مش عندك..

ثم قطب جبينه في جدية لمحتها من بين ضوء اللهب:

- مش الأسطورة بتقول كده؟..

كانت التماعة عينيها أشد سحرًا من وضاءة السماء وهي تنظره بعمق قلبها وفي تبسمها اتساع الكون، تضبط هذا كله عقب ثوانٍ وأسنانها الأمامية تضغط فوق شفاها السفلية، يتراقص ارتباكها فتدير رأسها ترمق مجموعة الشباب المتحلقين على



بعد قريب، عادت له بعدها وذراعها المتلحف بالدثار يفتح عن نصيفه:

- مش بردان؟..

ينظر دعوتها الخجول بضحكة خبئها جوف الليل في أعماقه وهو ينضم إليها متلحفًا بدفئها..

أعينهما ترتحل معًا إلى السماء المضيئة في صمت مراقب ويده تبحث عن خاصتها دون النظر، عند التلاقي كانت تتشابك الأصابع وتنتهي بعناق في لحظة سحر.



وحدة الليل..

مرآة الساهرين المثقلين بأوجاع الماضي.

عودتها الروتينية تسبق انتصاف الليل بساعة في الغالب، تدلف بجسد مرهق من طول النهار، تضع ما بين يديها فوق طاولة الطعام المستديرة، تنال حمامًا دافئًا يساعدها على



النوم بشكل أكثر راحة مع منامة قطنية وخصلات طليقة تتنفس، ثم تنهي الأمر برذاذ معطر تسكنه مكامن النبض، خطوات تقوم بها وحفظها جسدها كل ليلة، تلك عادتها منذ كانت صبية تتقافز فوق عتبات المراهقة..

غادرت الغرفة بمعدة تقرقر جوعًا لتجد حمولة يديها المتروكة فوق السفرة قيد الفوضى والالتهام من قبله، تأففها مسموع وهي تتخذ لحالها مقعدًا مقابلًا، تجذب ماتبقى من طعام وتشرع في تناول وجبتها متجاهلة إياه عن عمد..

أنهى حركة شفاهه الصامتة في عملية حسابية سريعة كان مفادها حديثه إليها:

- عشوة زي دي مكلفاكِ في الميت خمسمية جنيه..

حدجته شذرًا دون رد وهي تراه يفترس فخذ الدجاجة المشوية بطريقة مقززة تركت فوضاها بين أصابعه وحول فمه الممتلىء والمتكلم في آن، حاولت غض الطرف عنه حتى لا تفقد شهيتها



لكنه أبى إلا أن يخرجها عن طورها بتفكه فريد الطراز تحت توقيع المبجل"سعد أبو عريشة"..

- بدال المصاريف دي كلها كنتِ عديتي على الواد عصام الفرارجي جبتي لنا جوز شمورت وطبختيه..

غمغمتها صاحبت جانب فمها المرتفع بفظاظة قول ومعنى:

- ناقص تقول خرطي ملوخية وقمعي بامية..

دفع قطعة كبيرة من اللحم تابعًا إياها بمعلقتين ممتلئتين من الأرز متكلمًا من بين ماتبقى من فراغ ضئيل داخل فمه منتفخ الجانبين:

- ومالوا، هي الست اللي مالهاش في المطبخ ست!..

قابلت حديثه بتبسم سمج وهتاف أكثر جلافة:

- أنا ماليش وخد الكبيرة؛ مابحبوش..



اتسعت ابتسامته بنهوض عن مقعده المقابل ليجاور جلوسها فوق آخر قريب منها ساحبًا معه ما تبقى من طعام ، رائحتها العطرة تخالط أنفاسه فتسكره دون خمر وتجيء غمغمته بنغمة تعظيم:

- حقك، الأيدين دي يوم ماتخش المطبخ تعمل بقلاوة، بسبوسة..

زجر جاد لا يحتمل مزاح رمت بأسهمه إليه:

- تعرف تطفح و إنتَ ساكت؟..

قهقه عائدًا لسيرة الطعام:

- مقبولة منك يا دبدوبي..

- دب أما يجيب أجلك قول يارب..

- من وراء قلبك عارف..



كزت أسنانها فوق قطعة الخبز كاتمة صرخة بداخلها وطاقتها في التحمل تكاد تنفذ، فعند لحظة نفاذها سوف ترديه قتيل اللحظة دون أن يطرف له جفن أو تعتليها ذرة ندم وهذا المحتم القريب ما تعمل جاهدة على ابعاده ويقربه هو بكل ذرة برود تخالط دماءه:

- ماتشغليني معاكِ يا بيللا؟..

لم تفتها نغمة الجدية في حديثه المتحول، رمته بنظرة من طرف بصرها ثابت بعدها عنه في إستهانة واضحة:

- أشغلك إيه بقى أن شاء الله، شيال؟..

نهض مسرعًا نافضًا عن يده ما علق فيها من غذاء، يحوم من حولها ويلتف مثل أفعى ترغب في صيد ثمين رغم معرفتها التامة بصعوبة الأمر، لكن كلا وله نقطة ضعف وهو يعمل على دراسة طريدته عن ذات قرب حتى يصل مبتغاه:

- مش مقامك ولا مقامي ياروحي ده أنا اسمي جوزك برده، أكيد محتاجة مستشار قانوني أو محاسب أمين يحافظ لك على مالك.. فكري وهتلاقيني تحت أمرك، من إيدك دي لايدك دي زي مابيقولوا..

غصت بشربة ماءها، أبعدت الكوب عن فمها وضحكتها تنفلت رغمًا عنها في رنانة خالطها إستنكار كبير:

- محاسب إيه ياعينيا؟..

يحوم ملتفًا إلى الجهة الأخرى، يوضح، يفند، سالكًا دروب الإقناع:

- ما هو ساعتها هنكون شركاء ومالك على مالي يبقى مالنا سوا وشقانا..

رمته بنظرة الكاشف لكل نو اياه الخبيثة وأهدته الراحة الأبدية مقننة في بضع كلمات لا تقبل احتمالات أو شك:



- ريح نفسك ياسعد، كل اللي بيدور في دماغك عشم ابليس في الجنة..

انتفض جذعه عن ميله باعتدال، محتجًا في اغتياظ:

- ليه يعني ماشبهش ابن عمك..

نهضت بخفة وقد أنهت وجبتها ومعها انتهى وقت هذا الماثل أمامها، ربتت يدها فوق كتفه في طريقها:

- بصراحة كده ماتشبهش وخليني ساكتة..

حدثها من وراء ظهرها مفتعلًا العتب بنبرته:

- بتجرحيني قوي أنتِ يا دبدوبي، مش كفاية حارماني من حقي الشرعي ومستحمل لأجل الود والعشرة..

دارت تعاكس وجهتها بنداء ناعم وثغر باسم:

- سعد..

أجاب في انشراح:



- نعم يا روحي..

- جاك كسر حقك..

قالتها في مقت واضح اختفت بعده خلف باب دورة المياه، تغسل يديها جيدًا وتفرش أسنانها استعدادًا للنوم، أعادت المنشفة مكانها فوق المشجب وقد أنهت آخر طقوسها أخيرًا..

مستلقيًا فوق الأريكة متخمًا بمعدته الممتلئة متشاغلًا مع هاتفه، رمته بنظرة جانبية في طريقها إلى غرفتها، لم تطوي أقدامها غير نصف المسافة الصغيرة حتى أجفلها صياحه واعتداله المباغت مهللًا في انفعال كبير..

- دي البت سونيا، أقطع دراعي إن ماكانت هي، يا ابن اللعيبة يا عزيز!..

تطلعت صوبه مقطبة مابين حاجبيها في جهل ما كاد أن يمتد حتى بتره بإستطراد الخبر العاجل:

- أخوكِ فضح سالم الرويني فضيحة بجلاجل..



بهتت ملامحها مع ذكر اسمه ولكمة ما أصابت معدتها والماضي كله يجتر في لحظة عصفت بكيانها كله، بصرها معلق فيه باستفسار غير منطوق جاء على إثره اقتراب خطاه عارضًا شاشة هاتفه:

- خدي شوفي بنفسك..

الرجل الستيني عار الجسد إلا من نصف ملبسه الداخلي وربطة عنق التفت حول رقبته وانتهت بيد امرأة لم يظهر منها غير خلفيتها في عرض سافر اعتلى فراش البغي..

صدمة جلية طفقت من بين نظرة عينيها الذاهلة، مقطع فيديو مسجل مدته ستون ثانية تضج به المواقع الإليكترونية ويتربع فوق عرش أخبارها مثل النار السارية في قلب الهشيم..

- سكتي يعني، ولا فكرك بالذي مضى..

لم تعرْ نبرته الشامتة بالًا، دفعت له بالهاتف مستفسرة عن قوله السابق بعين قوية:



- ليه بتقول أن عزيز وراء القرف ده؟..

أشار صوب الهاتف مغمغمًا في ثقة أقرب لليقين:

- البنت اللي مع سالم في الفيديو تبقى سونيا، دي رقاصة أعرفها أنا وعزيز عز المعرفة، صحيح وشها مش باين بس اللي يعرفها زيي يطلعها من وسط مية، الله يمسيها بالخير كان عليها هزة وسط تدوب الحجر..

أصابتها لوثة إثر الكلمات، لم تعِ كيف ومتى بدلت ملابسها بأخرى ولا تخبط خطواتها بغضب إلا عندما أمسك بذراعها يوقف تقدمها:

- رايحة فين الساعة دي..

نفضت ذراعها عنه في احتدام قدح بعينيها و أنفاسها معًا:

- هروح لعزيز، ولو كلامك طلع صح تبقى ليلتكم مش فايته معايا..



تلوى لسانه بسواد نفس يبهجها طقطقة الحطب بين البشر:

- و أنا يعني هكدب عليكِ ليه..

قادت السيارة برأس نابضة بمراجل الغصب طاوية من تحتها المسافات، اقتحمت خلوته داخل مقهاه مثل ريح غابرة وهو كان جذعًا ثابتًا راسخًا في أرضه منذ ألف عام، مضطجعًا فوق واحدٍ من المقاعد التي تتقدم مكتبه الخاص رافعًا ساقيه المتقاطعين فوق الآخر المقابل، أرجيلته الأثيرة إلى جانبه مدندنًا مع أم كلثوم في حفل تبثه قناة كلاسيكية تاركًا العالم يحترق من ورائه، ثباتٌ لم يحركه اقتحامها العاصف ولا دفعها بالهاتف إلى وجهه دون استهلال، فقط زعيق حاد:

- إنتَ وراء القرف ده؟..

مال بطرف البصر متطلعًا دون أن يغادر مبسم الأرجيلة فمه، شاهد عشر ثوانٍ فقط طقطق بعدها لسانه في اعتراض مشمئز:



- أخص على الرجالة..

حنقها يتضاعف، غضبها يتصاعد حد رعشة يدها القابضة على الهاتف بقوة صرير أسنانها وهو على حاله يقابلها في جلوسه الهادىء حد فوران غيظها:

- رد عليّ، إنتَ وراء فضيحة سالم!..

- اسمعي الحتة دي هتعجبك قوي..

غمغم لها مشيرًا ناحية التلفاز في حماسة جادة بواسطة أنبوب الأرجيلة..

"وعايزنا نرجع زي زمان قول للزمان أرجع يا زمان.."

صاحبت دندنته الموازية حالة من السلطنة والهيام دار بها يناظر شقيقته، يذيقها حلاوة الطرب في تأني:

- وهات لي قلب لا داب ولا حب ولا انجرح ولا شاف حرمان.. آآه يخربيتك يا ست..



وقفت تنظره من عليائها، تنغلق قسماتها في حسرة وتسقط يدها بالهاتف إلى جانبها، من مثلها تعرفه وتحفظه عن ظهر قلب، تكلمت بيقين قتل كل الشكوك:

- يبقى فعلا زي ما قال سعد..

ليس بالهدوء الأول، كان أكثر انفعالًا وهو يتخلى عن أنبوب الأرجيلة ناهضًا عن استرخائه، يقطع وصلة الطرب بغلق الجهاز ثم قابل وقوفها بواجهة اعتلاها الاستخفاف هاته المرة حاشرًا يديه في جيبي سرواله:

- بيقول إيه المتر..

تبادلت و إياه النظرات الصامتة قبل أن تخبره بصوت عميق، جاء من بعيد جوفها المحترق:

- قال أخوكِ فضح سالم وكشف سترك معاه..

انجلت كل التعابير الكاذبة وحلت الشراسة فوق قسماته ونبرة صوته الخشنة:



- ماتخلقش اللي يتعرض لك بكلمة و أنا عايش..

لم يفلح قوله، في إثره التمع بين جفنيها رجفة خوف لمحها فزعق فيها بغضب حارق:

- خايفة من إيه؟ راجل زبالة وريحته فاحت احنا مالنا..

زعيق بزعيق وصياح يعلو خاصته بأصابع نشبت في خصلات رأسها في حالة ندب داخلي وسخط:

- إنتَ عارف واحد زي سالم ده علاقاته واصله لفين؟ عارف لو عرف أنك وراء الفضيحة دي ممكن يعمل فيك إيه، ده ممكن يسجنك!..

استدار عائدًا حيث مجلسه الأول، يجلس واضعًا ساق فوق الأخرى في رفعة المنتصر وملامحه تتغلف بزهو شيطاني:

- يفوق بس من الوقعة دي ولو لسه فيه النفس يوريني شطارته..



تطلعت إلى قسوة نظراته قبل أن تردد في وهن المتعب و أقدامها تقودها إليه في تؤدة:

- ليه..

تعانقت أجفانه لبرهة قبل أن يفترقان في جمود قابلها فيه برفعة رأس:

- ليه إيه؟..

تمخضت الكلمات والملامح بشتى التعابير:

- ليه عايزني أعيش عمري كله أدفع تمن غلطة واحدة غلطتها..

جانب فمه ارتفع بتبسم مرير مرره إلى مسامعها قبل أن يثوب ببصره عنها ويقيم به عند ظلمة النافذة المفتوحة:

- غلطتك غلطة عمريا بنت أبويا..

- عرفت..



همستها في الحال بحدة و انحدارعن موقعها بخطوتين قطعت فيهم بصره السابح نحو الفراغ بمثولها أمام عينيه الشاردتين تجبرهم بلقاء:

- عرفت وبدفع تمنها كل يوم و أنا عايشة تحت سقف سعد، مش كفاية بقى؟..

رمقها في جمود لا يتأثر أويلين:

- بالنسبة لك كفاية، إنما أنا ولا ألف فضيحة تبرد ناري وتشفي غليلي، العين بالعين وده حقي..

ضاقت عينيها واحتدت نبرتها بسؤال المستنكر:

- حقك في إيــه؟..

اتسعت حدقتاه مع حدة الجواب:

- حقي في شرفي، شرفي اللي كلكم دوستوا عليه، بداية منك لحد سالم الكلب و ابنه..



تحدته بعينيها المتحفزة قبيل كل حرف يلفظه:

- سكت ليه ماتكمل، قول و دهب..

أهداها قولها في عناد مغيظ غير آبه بمقاصدها:

- و دهب يا بيللا..

أفترت شفتيها عن تبسم شحيح المظهر باهت المعنى، كان يعتمل فيها شيءٌ آخرٌ خالطه خذلان وخيبة:

- إنتَ بتنتقم لنفسك يا عزيز، حرقة قلبك دي كلها عشان دهب معاه دلوقتِ، عشان حامل وهتخلف منه هو..

أطلقت ضحكة مفتعلة ليس بها فكاهة، كان في مضمونها وضاحة ساطعة لكل دواخله التي يخبئها وراء ألف قول:

- إزاي هو مش إنتَ!..

دنت خطوة أخيرة كانت تفصل بينهما، مالت بجذعها تقابله عن ذات مقربة، لم تترك فراغًا إلا ليدها التي راحت تلوح بها أمامه بنظر ثاقب وإرداف أخير:

- ماتقولش عشانك، إنتَ عمرك ماعملت حاجة عشاني..

أهداها الصمت جوابًا، ففي قولها نصف الحقيقة..

والنصف الآخر لمن أراد أن يرى.



في سكون الليل تكون مناجاة المجروحين..

يحمل همساتهم، تموج بين طياته حتى تذوب وتذوي مع طلعة النهار ومع حلول المغيب تعاود الظهور في تردد خجول..

تغير ملموس يشهده منذ طرق الخوف بابها وظنته فقد جديد قادم، قساوة الشعور زلزلتها فدب فيها نذر من حياة جعلتها أكثر تفتحًا بعد ذبول ليل طويل، صارت تهتم بمأكلها ومشربها،



أدويتها، نومها، حتى البيت نال قسطًا من اهتمامها وإشراقها الخجول..

تتفتح هي ويراقب هو..

يتابع خروجها من شرنقة الحزن وتنشقها لأنفاس العيش، ضحكتها التي صارت تنبض بين السكون القاتل، يراها تنساب مرة وتنحسر مرة، مرات تكون فقط رائقة يؤاطرها صبر ورضا ينضح من جوانبها السكينة، في عينيها ينابيع حنان، طرفة أهدابها مثل ضمة أم رؤوم كلها عطف ومحبة..

تذوب نتف الثلج المتساقطة طوال النهار مع لحظة دخوله البيت، لا يشعر بأيما صقيع من حوله والدفء ينتشر ويتمدد حتى يصل قلبه فيصير دافئًا مثل كل الأشياء من حولها..

صار يحبذ العودة إلى المنزل، هذا أول اعتراف يقربه لنفسه في مكاشفة واضحة، أحب رؤية المنزل مرتبًا ونظيفًا تفوح منه رائحة عطرة، كما أحب رؤية ثغرها الودود وهي ترد تحيته من



خلف جدار المطبخ المقسوم، أحب نبرة صوتها الهادئة وهي تطلب منه أمرًا يخص البيت وطريقة سكبها للحساء الساخن في وجبة صارت تجمع بينهما مؤخرًا، لم يفكر من قبل أنه قد يحب رائحة الكعك التي تعبق أركان البيت إلا عندما استيقظ عليها ذات صباح، لم يفكر من قبل أن كل تلك الأمور الصغيرة قد تشكل فارقًا لديه لكنها فعلت.

ليلة الأمس اتفقا على الخروج لأجل تسوق مسلتزمات الصغيرة التي اقترب موعدها، وصلا المتجر الكبير قبل ساعة ومنذ حينها وهي تتأمل الألبسة المنمنمة بألق يومض بحدقتيها كل حين، تبسط كفها وتمسح على ظاهرهم برقة ثم تنتقي على ذائقتها ما يعجبها وتضيفه إلى العربة التي ارتكن إليها في صمت بعد أن ضربت بكل اختياراته عرض الحائط، فهذا"مفتح زيادة هيبردها" وذاك"قماشته خشنة هتضايقها" والأخير لم تخبره عن العلة فيه واكتفت بتناقض مريب لم يفهم كنهه"هو لذيذ بس ماينفعش"..



حمل خيباته المتتالية ووقف صامتًا يراقب أمومتها وليدة العهد وهالتها المحيطة، دون قصد منها كانت تتسرب تفاصيلها إليه ويمتصها متذوقًا عذوبتها على مهل..

أقبلت تقطع مراقبته الصامتة والتي صارت تثير حفيظتها وضيقها فتتبع معها درب التجاهل عن ذات قصد..

- إيه رأيك، ده ولا ده؟..

تبدلت نظراته بين الثوبين اللذين لهما الشكل ذاته، الإختلاف كان في اللون فقط، ولأنها وقعت بينهما حائرة لجأت إليه لحل المعضلة..

- الأصفر..

اختارفرمقت الإثنين مرة تلو مرة من جديد، انتهى الأمرباختيار الثوب صاحب لون اللافندر الباهت عائدة بالأصفر إلى موضعه، عندما فعلت هذا برأيه لمرة رابعة طقطق لسانه



بعجب غير مستاء وطأ مسامعها فتجاهلته وطيف التبسم عالقًا فوق فمه لا يزول.

جذب أنظاره ركنٌ تراصت عليه الكتب الخاصة بالتربية منذ أول يوم للمولود حتى مرحلة المراهقة وما تلاها، راح يتنقل بينهم بإعجاب كبير وانشغال منحها حرية النظر إليه دون أن يكشف أمرها..

الآن تفكر؛ كم واجهت هاجسًا قويًا لفترة لا بأس بها، كانت بها مخاوف شديدة أن ابنتها حظها التعس منحها أبًا سيئًا، من يختار امرأة وسيلة للثأر حتمًا لا يؤتمن على بنوة، ظلت تقاتلها الفكرة طيلة أشهر حملها الأولى حتى بهتت هواجسها مع الوقت والقرب، صحيح ليس بينهما قربًا بمعناه الحرفي لكن العيش معه تحت سقف واحد منحها حق المعرفة في حقيقة من يكون، تراه يقف فوق عتب الأبوة بأقدام متعثرة، يستعد وبداخله رهبة، لا تعلم عن أفكاره لكنها تخمن أنه يحاول استساغة



الفكرة والتعامل معها طيلة الوقت، حتمًا ذلك لا يغفر له ذنبه معها التي تؤجل محكمتها البت في قضيته لكنها أيقنت أن ذنبه الكبير معها لا يصنع منه أبًا سيئًا مع ابنته، لن تنكر الاطمئنان الذي راح يتوالد داخلها يومًا بعد يوم حتى امتلأت به.

تخير الكتاب الذي نال استحسانه وقام بإضافته إلى العربة قبل أن يتحرك إليها وتغض هي البصر المعلق فيه..

- خلصتي؟..

- اديني نص ساعة كمان..

سأل وأجابت ثم دارت على عقبيها تنهي أمر بقية المستلزمات فيما انشغل هو مع رنين هاتفه المتصاعد، لم تمضِ من نصف الساعة غير دقائق معدودات حتى أقبل عليها بوجه مكفهر غير الذي كانه أو رأته من قبل، دون سابق قول سحب ما بين يديها وألقي به داخل العربة في فظاظة واضحة جوار أمر صارم:

- يلا..



تحيرت من حاله مرددة:

- لسه باقي..

- بعدين..

قاطعها بنظرة صاعقة وقرار باتر تحرك في إثره وتبعته صاغرة متوجسة من حاله المنقلب، شعرت به يغلي فوق مراجل اللهب وهو ينهي أمر حساب المشتريات، بذات الحال قطعا المسافة الفاصلة إلى السيارة، ألقى بالأكياس في المقعد الخلفي ثم فتح لها الباب لتمر ويمر معها بصرها المضطرب فوق صفحة وجهه الغائمة بنذر مخيف، صفع الباب من جهته بقوة زامنت التفاتها ناحيته ويدها تعمل على تثبيت حزام الأمان:

- حصل إيه؟..

تسأل بقلق عارم والبركان القابع خلف المقود لا يسمع أو يرى، فقط تنهمر حممه دون جواب، أصابتها سرعته وقتامة نظراته بنوبة ذعر داخلي، هتفت به وأجفانها تتعانق بقوة:



- على مهلك!..

تمتمت بالشهادة مرتين فوروصولهم، تركها ضائعة فيما يحدث معه واختفى بحاله خلف باب موصد، لا تراه لكن جنون صراخه كان يصلها بوضوح تام..

"أنتِ السبب.. كله منك.. قلت لك طلعيه من حياتنا، أهو فضحنا عـاجبك كده!.."

خطواتها تتعثر داخل الردهة وبصرها معلق مع الباب، يصرخ تاليًا فترتعد فرائصها رغمًا عنها..

"ماتقوليش أبوك!.."

السُباب الذي ظنته لا يعرفه كان يتراشق بجفاء واضح حد تساقط شظاياه فوق رأسها بينما عقلها حتى اللحظة مازال لا يعي أن قساوة أحرفه عائدة على أبيه رغم وضوحها التام..

"لو رجعتي له زي كل مرة أقسم بالله ماهتشوفي وشي تاني، أنا قرفت منكم كلكم بجد.."



لم تستطع الإبتعاد أكثر وصوت الارتطام الشديد يضرب أسماعها، إقتحمت الغرفة التي تعمها الفوضى إثر تناثر الأغراض فيها بقلب واجف، يتصاعد بصرها حتى يصل إليه فيهولها منظره المتصلب، عيناه دامية وعروق رأسه النافرة تنبض بألم أنبت العرق فوق الجبين..

تكرر سؤالها بإرتعادة أحرف وعيناها تتوسله البوح:

- فهمني حصل إيه..

وبساطة الأحرف لا تناسب ضخامة الحاصل، مد لها يده بالهاتف والمرارة تنضح عبر أحرفه:

- خدي شوفي مافضلش غيرك..

تناولت الهاتف المثبت شاشته على مقطع الفيديو، عيناها تجحظ مع مرور الثوان وقبل أن تبلغ الثلاثين منها كانت أناملها تغلق الجهاز وتلقي به فوق الفراش بعيدًا عنها محاولة السيطرة على إرتجافة جسدها بجلوس سريع، شفاها تتحرك في



استعاذة غير منطوقة من شر ما رأت، نظراتها المشفقة تحوم حول تخبطه مثل طير ذبيح تنفر دماءه الحارة تحت مرأى ومسمع منها..

- بيعمل فينا كده ليه!..

ليس استفسار بل خبال ولوثة أصابت عقله وخطواته تروح وتجيء من أمامها على غير هدى..

- قلت لها طلعيه بكل قرفه من حياتنا ماسمعتش كلامي..

لا يصدق أنها مازالت توجد له المبررات وتصدقها، التفت لها شاكيًا حاله بنظرة وقول كأنها على دراية تامة بتاريخهم الأسود:

- لسه بتسمع له، يقولها أي كدبة خايبة ماتتصدقش بس هي تصدق وتعديها وتقولي مهما عمل هيفضل أبوك، مش عايزه تفهم ليه أن الراجل ده ماينفعش يكون أب..

أبصرته واقفًا على حافة مصرع الجنون، يحزنها أن ترى ابنًا مكلومًا في أبيه على هذه الشاكلة، موازين العالم مختلة..



تمتمت له في استجداء صارم عله يتوقف عن الاحتراق بداخله:

- ناصف أهدى هتحصلك حاجة..

سقط إلى جانبها ورأسه المحني بين كفيه يجاور صمتها، كل الأحرف تتلاشى بعجز في قاموس الأبجدية، مضى وقت طويل وهما على هذا الحال بين صمت وصمت حتى رفع رأسه بالتفاف نحوها وسؤال ضاع بين جنباته القاتمة:

- أما الابن يكون عاق أهله يتبروا منه، طيب أما الأب يكون جايب لاولاده العار المفروض يعملوا معاه إيه؟..

ليتها تملك جوابًا لأحرفه الشاحبة وبحة صوته الكسيرة، ليتها تملك حلًا للقهر السابح بين أجفانه أو لديها ما تقيم به انحناء ظهره وأكتافه، لم تكن تملك إجابة أو حلول لكن في كتفها كانت رحابة استقبلت رأسه الساقط عليها بكل أحماله ويدًا ترددت للحظة ثم ضمت وربتت.





ظلام الليل متاهة الغافلين..

صمت ثقيل يغلفه عبر به باب بيته قبيل الفجر، زيارة أخته أفسدت ليلته، رحلت تاركة إياه بمزاج عكر، خلع عنه ملبسه وغاص بالمغطس غامرًا جسده بالكلية لبضع حين، دقيقة، إثنان، ثلاث، قبل أن تنقطع أنفاسه يرتفع صدره بشهيق، كرر الأمر بضع مرات ثم استقر مسترخيًا في غفوة كاذبة لم تدمْ طويلًا والطرق المزعج يدب فوق بابه في هذا التوقيت الحرج..

ما إن فتح الباب حتى ارتطم جسدها في صدره بقوة دافعة، دفعها أبوها ودلف من خلفها صافعًا الباب من ورائهما، صائحًا في احتدام:

- اتفضل مراتك رد الأقسام..

تم القبض عليها ضمن مجموعة شباب في حفلة تعاطي، هذا عهدهم، يجتمعون معًا بأحد الشقق أو الفيلات المستأجرة،



يقضون الليل بطوله في حالة عربدة وسكر حتى طلعة النهار التالي..

نهار كامل وليلة قضتهم فوق أرضية صلدة وخلف قضبان زنزانة عفنة حتى استخلصها أبوها وعاد بها إليه، يدفعها عنه مثل قذارة عالقة، كادت أن تسقط لولا جسده الذي تلقاها، انتفضت عنه في حالة هياج بالغ عائدة إلى أبيها وكره العالم يحتشد بين أجفانها، بينها وبينه حرب قائمة لا تنتهي أو تبرد، هي مشعثة مجنونة، تهذي بحمم ثائرة:

- مش هتخلص مني، مش هترتاح أبدًا..

بغضب مجنون يدفعها من جديد حتى تسقط بجسدها الهزيل فوق الأريكة، يلطم وجهها بصفعات متتالية انبثقت في إثرها الدماء من زاوية شفتيها، يختتما بميل وتهديد:

- هقتلك يا لورا..



دفعته عنها برفسة قدم وكلماته لا تؤثر بها أو يجد لهم صدى، التفت ملقيًا بسوط غضبه فوق هذا الماثل بدور المتفرج والمستمتع كما يبدو على صفحة وجهه وميل كتفه المرتاح فوق الجدار، أشهر الرجل سبابته في وجهه بتهديد قاصدًا فيه كل حرف منطوق:

- رصيدك في البنك مش بيزيد كل شهر عشان اللي بيحصل ده، لو مش هتشوف شغلك كويس هيكون ليا تصرف تاني..

حدج ابنته بنظرة ساخطة ثاب بعدها إلى محدثه الصامت بقسمات لا مبالية بأمر أخير سبق رحيل:

- دي ماتخرجش من البيت حتى لو هتموت..

دون حرف زائد غادرهم صافعًا الباب من ورائه بقوة اعتدل في إثرها "عزيز" عن ميله وقسماته تتحول من اللامبالاة للأسف الشديد محدثًا الجالسة قبيله في تحفز وشراسة:

- ينفع كده نزعل بابي..

أهدته زمجرة صارخة ضحك لأجلها ثم أوصد الباب بواسطة المفتاح قبل أن يخرجه ويحمله معه عائدًا إلى دورة المياه مستكملًا حمامه المبتور، حين عاد وجدها تضرب مزلاج الباب محاولة بشتى الطرق فتحه، أخبرها في طريقه:

- ماتتعبيش نفسك..

دلف إلى غرفته قاطعًا عنها مجال الرؤية بباب موصد، ارتدى ملابسه البيتية وأخذ يصفف خصلاته من خلف المرآة، لحظتها فتح الباب عنوة، وقفت أمامه بحالتها المروعة وفي يدها سكين مطبخ، تتقدم نحوه في تهديد جاد:

- لو مافتحتش الباب هقتلك!..

هبط بصره إلى السكين ثم ارتفع إلى عينيها الغائرة بضياع ثم نأى عن كليهما في تهكم صامت مالبث أن يطلقه حتى اندفعت تهاجمه ونو اياها تستهدف العنق، نو ايا تحطمت في الحال ويده تقبض على ساعدها، قام بثنيها خلف ظهرها في حركة خاطفة،



ضغطها بقوة قاسية حتى أفلتت السكين من بين أصابعها فركلها بقدمه جانبًا، دفع جسدها بقوة ويدها من خلفها مكبلة، وجهها إلى الجداروظهرها إليه، يضغطها بغلظة هامسًا في أذنها:

- واضح أن عدنان باشا ماكنش فاضي يعلمك أننا لما نعوز نطلب من حد حاجة نقول لو سمحت، من فضلك..

صرخت وذراعها المثنية تؤلمها بشدة:

- إنتَ وعدنان مقرفين زي بعض..

- ريحتك مقرفة أكتر..

أخبرها بذلك في تقزز، ابتعد قابضًا على ذراعها في غلظة، سحبها بالقوة إلى دورة المياه، ترفض ويدفع، تلكم فيصد، تصرخ بجنون وبذاءة فيصرخ عليها آمرًا بالصمت وعيناه تبرق بغضب حارق..



غمرتها برودة المياه متسللة من بين النسيج إلى جسدها دفعة واحدة، تقاوم أذرعتها بتخبط، تلقاها كلها بسيطرة تامة ورسغاها داخل أسر قبضتيه، تضربها القطرات القوية فترجف شفاها بأنفاس متقطعة نافرة برذاذ الماء من بينهم، ظلت تقاوم وتقاوم حتى خارت قواها وبحت حنجرتها وشراستها تتحول رويدًا رويدًا إلى أنين مسموع حتى صار الأنين شهقات بكاء أخذت تختض بها أضلعها مرة بعد مرة وجسدها يهبط على مهل، حرر قيد يديه حين عقدت ذراعيها فوق حافة المغطس ومالت عليهما برأسها، أغلق رشاش الماء وغادرها دون قول، عينيها الغائرة بالدمع مشوشة الرؤية تستحضر وجهًا مألوفًا لامرأة حفر الحزن قلبها حتى صنع منها جثة هامدة مشقوقة الرأس ومضرجة الدماء أسفل الشرفة، وجه أمها الحاضر بقوة في هاته اللحظة و يومض من خلف غشاوة العبرات، مر وقت طويل حتى سكن صوتها بصمت، ومر حين آخر قبل أن تتحامل على أقدامها بنهوض، تبدل ملابسها المبتلة بأخرى جافة ورجفة



جسدها تزداد، تمسح سيل أنفها بظهر سبابتها وخطواتها تتسارع إليه، تطرق بابه في استئذان عجول، تقتحم خلوته هذه المرة بوجه آخر، جسدها كله في حالة اضطراب إثر غياب جرعة المخدر التي اعتادها، تحاول فرض السيطرة والثبات، تتوسله بهمس خفيض، مرتعد:

- لو سمحت أفتح الباب..

ترمق اضطجاعه على جانب الفراش قبل أن تمسح أنفها السائل من جديد وتجثو فوق ركبتيها، تتشبث في يده بتوسل أكبر:

- تعبانة مش قادرة..

تحيط رأسها النابض بألم شديد بكفيها المرتعشان وتنظره بعينها المحتقنة والسائلة بدمعها:

- أرجووك!..

إعتدل جالسًا، ينظرها بوجه مصمت خال من كل التعابير:



- مش هينفع، سمعتي أبوكِ قال إيه..

نشبت فيه بيديها بقرب مباغت:

- مش هتأخر، أوعدك مش هتأخر..

نظرها صامتًا دون جواب وهي تنكمش بالقرب من أقدامه، تضم حالها بذراعيها وتتلوى في حالة عذاب، تهذي بتوسل مرة وتكبح سبابها مرات حتى لا تثير غضبه فتضيع كل آمالها، كل دقيقة تمر كان يسوء وضعها أكثر تحت قيد أعينه المراقبة، في النهاية رأته ينهض، يتحرك خياله ويحوم من حولها وفوق رأسها كأنما يعيش مخاضًا عسيرًا مع التفكير، في النهاية دنا من رأسها الساقط فوق الأرضية، أخبرها بذات الواجهة المصمتة:

- قومي هفتح لك الباب..

لا تصدق أنه رضخ أخيرًا، انتفضت من رقودها، سارعت بخطى متعثرة إلى الخارج، تحمل هاتفها وحقيبتها ثم تنتعل حذاءها في صعوبة بالغة، يقبل عليها وقد بدل ثيابه بأخرى، تنظره بغير



اهتمام وكلها تطلع إلى الباب حتى وصلها طقطقة المزلاج ثم انفراج الخشب فألقت بحالها خارجًا في الحال، أمام بوابة البناية الحديدية أمهلتها خطواته الملاحقة، ناظرته بسؤال خالطه استهجان:

- رايح فين؟..

والجواب المختصر تزامن مع يده التي عدلت من جهة سيرها وسحبتها صوب سيارته..

- معاكِ.



(31)

الوهم بو ابة الهروب من طوفان الحقيقة..

درب الخيال مكمن النجاة الكاذبة، نجاة وقتية يزول أثرها مع مرور الوقت، فمواجهة الحقائق الغائبة موطن النجاة الحتمي..

تحت ظل إرشادات طبيبتها التي يتبع؛ ظل يرواغ عقلها بخداع خبيث متسلل إلى المناطق المعتمة بظلال الوهم، يحدث الخلل والصدع بين منطقتي الوعي واللاوعي لديها..

"فاكرة صاحبتك العروسة اللي جبتيها لعبدالله؟ كان يوم مايعلم بيه إلا ربنا.."

"الساعة اللي جبتهاله في عيد ميلاده.."

"سهرة الخميس ولمتنا طول الصيف.."



صمتها الذي يلي مواجهة الحقيقة كان مليء بالشكوك التي يسعى لنبشها والمرور من خلالها، يدفعها دفعًا للتذكر، لوضع كل وجه منهما في محله، يربكها للحظة ثم يعود بها لمنطقة آمنة بلا ضغوط غير محتملة، مثل زبد البحر، يموج بمد وجزر، يلقمها الو اقع برفق متناهي فاتحًا بذهنها بو ابة الماضي على مصرعيها، يسحبها للوراء بضع سنين، لأيام الطفولة والصبا، حقيبة الذكرى تعج بوفرة أحاديث مطبوعة بعمق الذاكرة، يقص عليها مو اقف لاتنسى جمعت كلاهما معها ثم ينتقي الحكايا بشكل فردي لكل منهما، يبغي زحزحة الصورتين التي ألصقتهما معًا لتنجو بحالها ويعيد كل نصف إلى حاله الكامل.

ليس وحده ينوء بحملها، العائلة بأكملها كلًا يقوم بما يتطلب، والتجمع العائلي الكائن بردهة منزلهم كان واجبًا محتمًا، تنثر جدتها صور الفوتوغراف التي تهوى تجميعهم منذ سنين بما يحملون من ذكريات غالية، يتناوبون في الأحاديث عنها تاركين



لأعينها ومسامعها حرية التقاط المضمون ومقابلته بالتجاهل الهارب من ألم ضاري يركض وراءها بغية نهشها..

ينتظر "بكر" أن تقدم له قدح القهوة وقبل أن تمر من جانبه يحدث شقيقه القريب بقول جهور:

- بقولك يا عبدالله..

تضطرب يداها فتتضارب حافة الأقداح ببعضها البعض، ينهض أبوها مسرعًا ضامًا بكفيه على يديها الممسكة بحواف الصينية وهو يهديها واحدة من ابتساماته المطمئنة في صمت.

تتعمد أمها التي تقوم بترتيب الثلاجة نيابة عنها بالقول الذي يخفي حذرًا كبيرًا ويظهر عادية لا بد منها، لأجلها تفعل:

- ندى أهتمي بالخضار، عبدالله بيحبه..

تحتد وتنفعل عليها بلا مقدمات:

- بطلي تعامليني كأني عيلة..



تعلم أن السبب وراء انفعالها الكبير ليس مضمون الأحاديث لذا تقبل وجنتها وتضمها بين ذراعيها طويلاً، خلال استكانتها تفكر أن تسأل أمها عن زوجها الذي يهجر فراشها ليلاً!..

تفكر أن به علة وليس أمرًا عاديًا كما قالت أختها، ثم تفكر أن تلك الأمور الخاصة لا يجوز معها البوح كما علموها..

تفكر وتفكر وتنتفخ أوداجها حرارة حتى تتململ بين ذراعي الأم وتقرر أنها تذكرت أمرًا هامًا حتى تبتعد دون أن تنظرها أو تتحدث.

ينتهي التجمع ويرحلون تاركين من خلفهم بعض الفوضى، تبدأ في لملمة الأكواب الفارغة حين يمر من أمامها، يغيب للحظات بالداخل ثم يعود بقميص آخر غير الذي كان يرتديه مستكملًا وصلة الترتيب بصحبتها، لا يتكلم، فقط يحاصرها ها هنا جابرًا عقلها على استحضار الإثنين معًا، تتحدث هي، تغالب كل هذا الارتباك بثرثرة تخصها معه، حبيبها وزوجها..



- عبدالرحمن؛ لبنى صاحبتي عايزه تيجي تزورنا إيه رأيك تكلم يوسف تعزمه ونقضي اليوم كلنا سوا؟..

يبدي جهلًا كبيرًا بغمغمته:

- مين يوسف؟..

شهد زواج الرجل ويعرفه خير المعرفة، ترميه بشك لأجل هذا:

- جوزها!..

تمضي عنه بذهن شارد إلى حوض الجلي، تضيع بدهاليز عالم مذبذب لا يرسو، يجبرها عقلها على السؤال حينما يقترب واضعا مابيده داخل الحوض:

- هو عبدالله مجاش معاهم ليه؟..

يمررلها الجواب بثقل غريب:

- يمكن مشغول..



يدها تتلوى بالصابون داخل جوف الكؤوس، تومض برأسها بعضا من ذكرى تتركها حائرة وكلها يقين أن"عبدالله" لا يتشاغل عن نصفه بل يكون حاضرًا على الدوام!.. تتجاهل هذا مجددًا وتمضي في تجهيز سهرة مسائية تسحبه إليها..

فيلم أجنبي، مشروب بارد وحلوى شرقية أمام أريكة واسعة ضمته وهي أسفل ذراعه تتابع بشغف كبير، تعلق على هذه التفصيلة وتلك ثم تفرض توقعات، تضم بين أناملها قطعة حلوى وتستدير إليه برأسها القريب، تدسها بفمه ثم تعود إلى المشاهدة، أصابعها تتخلل أصابع يده في مداعبة، ثم تصعد أناملها فوق ساعده في حبو، تشرد عن فيلمها ويشغلها صمته، تلتفت إليه توليه جل تركيزها ويدها تصل منابت شعره، تتخلل خصلاته في حركة يحبها ثم تهبط إلى وجنته وثغرها يفتر عن تبسمٍ ناعمٍ، تقول بهمس قريب وقد أثار الفيلم نزعة الأمومة بداخلها:



- تعرف نفسي في إيه؟..

تعدل من وضع جلوسها، تعتلي الأريكة جثوًا على ركبتيها، يداها تتوسعان من حولها وعيناها تومضان بحماس منقطع النظير:

- يكون عندي ولاد كتيييير مش اتنين بس زي ما كنا متفقين، ممكن خمسة أو ستة، أكيد بتقول صعب بس تخيلهم بيتنططوا حواليك، تخيلهم كبار و اقفين جنبك محاوطينك و إنتَ راجل عجوز!..

لا يدري كيف لكنها أصابت حلمًا كان يراوده حينما كان هناك متسعٌ للأحلام، أحب بشدة أن يكون له أولاد يتقافزون من حوله ويصبحون سندًا وقتما يشتد عودهم وينحني عوده..

ليس بحماسة أو جنون بل مثل نسمة هادئة مرت بها وهي تتكىء على جانبها ورأسها مرتاح فوق ذراعها، حملت أحرفها و أفضت بها إليه..

- بحبك قوي..



ماذا يفعل الإنسان عندما يمتلىء بالشيء؟..

ببساطة يفيض..

قلبها الصغير لا يحمل عطبًا مثل عقلها، كان يفيض بما يملأه وحسب..

- بتحبني؟..

أخذته على حين غرة، أربكت عقله الشارد على الدوام على المثول أمامها، الخضوع لنظراتها المقابلة له في انتظار..

ازدرد لعابه بعسر وجسده يتحفز جوار تمتمة خفيضة:

- أكيد..

التقى حاجبيها في تغضن قبل أن يعلو صوت الطلقات النارية بغتة مغيرًا الحال من همس وسكون لذعر نقشته قسماتها حول أعينها المغمضة، يداها تضغطان فوق أذنيها بقوة مطلقة صيحات مرتعبة، جذبتها أذرعته إليه، تطوقانها بشدة كفعل



أولي لا إرادي، الفعل التالي كان كتم صوت التلفاز ليصمت صخب الأعيرة المندفع وقد أصابها الصوت المباغت بهلع مجهول من قبلها ومفسر من قبله، يشدد على ضمتها وأحرفه تلامس رأسها المختبىء بين أضلعه:

- متخافيش..

تعرضها لأشياء تحمل ذكرى الحادث الأليم قد تصيبها بنوبات هلع لن تدرك أسبابها، ما سبق وأخبرت به الطبيبة يتحقق.

مضى حين وهي ساكنة بين ذراعيه، أنفاسها تلهث ببطء وعيناها المغلقتين على حالهما تثيران قلقه..

- ندى..

يناديها بهمس تحركت في إثره أهدابها وأخذ جسدها يبتعد بمقدار يكفي لتفوه خفيض:

- أنا كويسة، الصوت خضني بس..



مسح عن رأسها وهو يناظرها عن كثب متأكدًا من كونها بخير بالفعل حتى تبسمت له في اطمئنان تبعته بنهوض وغياب قرر استغلاله بمحادثة طبيبتها، قبل أن يأخذ أفكاره حيز التنفيذ كانت تعود إليه مبعثرة النظرات مثقوبة الظنون، تقف قبيله بنظرات تضيق بشك، تسأله في توجس مكرر تريد أن تغلق به كل ثقب تعبر من خلاله الشكوك الغير ممكنة:

- عبدالرحمن إنتَ بتحبني صح؟..

عدل من جانبه بشطر استدارة يقابلها وجهًا لوجه، الهاتف متدلي مقبوض عليه داخل راحته والجواب كالمرة السابقة، جامدًا، يترنح بخفوت الحائر بين الصمت والكلام:

- أكيد يا ندى..

نظرة عينيها التي ظلت تحدق فيه لحين قبل أن تستدير عنه دون أن تنبس ببنت شفه سوف تبقى عالقة بذاكرته لوقت طويل.



لملمت حالها حتى توارت خلف باب غرفتها بمعزل عن أعينه، جسدها ينبض بقشعريرة واهنة، تعتلي الفراش ثم تضم حالها في تكور وقعود، بصرها مصوب باتساع نحو الفراغ، كل هذا السكون الظاهر لا يشبه احتدام الداخل، في داخلها كانت تتناحر الأشياء وتطفو واحدة تلو أخرى..

أولها كان إجابة سؤالها المعتاد..

"أُحبك وقُبلة وعِناق"

هكذا يجب أن تقال..

علامة استنكار ضخمة تدمغها..

ف"عبدالرحمن" لا يلفظها أبدًا خاوية المعنى وبينهما مسافات!..



إجادة الهروب تصنع منه عادة..



كانت في البداية مجرد رغبة في التلاشي من واقع مقيت يضيق عليها بكل جوانبه، مجرد تجربة ما الضرر؟!..

تجربة وراء أخرى حتى صارت الرغبة عادة أدمنها جسدها وعقلها، التخلي بخفة وسمو نحو الفراغ، حيث لا شيء هناك، لا حاضر، لا ماضي، لا مسقبل، كل المشاعر ومراكز الاحساس في حالة خدر تام، اليوم والأمس والغد جميعهم سواسية، بلا حسابات أو تشكيل فارق..

هروب من الحياة بأكملها بجرعة مخدرة عبرت الجسد الثائر قبل حين حتى استكان لنشوتها براحة ورأس مائل فوق زجاج العربة البارد بفعل نسيم الصباح الباكر، تطوف فوق حافة الوعي بترنح وشحوب أحرف..

- عمره ماحبني..

أناملها تمضي ببطء خلف قطرات الندى المنزلقة فوق الزجاج من الخارج وهمسها يعاود الظهور:



- ولا حبها..

كانت صبية لم تتجاوز الثمانية عشر، لا تعرف شيئًا عن دنياها غير دراستها والشاب الذي تحبه ويحبها، لم يكاد يذاع خبر خطبتهما حتى توارى تحت ظلال الجبروت، كان أبوها أكثر مالا وقوة ليحظى بما أراد، ساقوها إليه في عشية وضحاها غصبًا وقهرًا..

- ماتت بسببه..

نال كل مافيها عدا القلب، نجح في قتل روحها ليلة بعد ليلة، حتى فاضت عنها لتكون جسدًا خاويًا بلا أمل، يستقبل صفعات الحياة بلا أدنى شعور..

- قربه كان كفاية عشان تقررتنهي حياتها بنفسها..

تكاد تسقط بغياب لكنها تعود سريعًا متشبثة بوعي ولحظات بوح تفرج بها عن خبايا نفس مكنونة، تدور له برأسها في بطء



متناهي، ترمق جلوسه الصامت خلف المقود وتحدثه بوجه خالي من كل التعابير:

- نظرتها كانت بتقول سامحيني مش قادرة، بس أنا ماسمحتهاش عشان هي اتخلت عني، سابتي معاه ومشيت، هي مشيت وحازم كمان، كلهم اتخلوا عني..

تحولت قسماتها الساكنة للنقيض و ابتسامتها تتسع بشر:

- بيكرهني عشان بفكره بيها، بفكره انها فضلت الموت عليه، اما أقوله كده يتجنن، بحب أشوفه متجنن..

ختمت بوحها بتنهيدة كبيرة وراحت تميل على جانبها في انكماش وتثاؤب الناعس، تطرف أهدابها بتثاقل في حين بصره كان متشاغلا مع السيارة الرابضة خلفهم منذ أن غادرا البيت وتوقفا أسفل بناية قديمة من ثمان طوابق وبها أحد منافذ بيع تذاكر الهيروين..



أنهى تفحصه وعاد إليها، يجذبها من براثن النعاس بسؤال ولكزة ساعد:

- مين حازم؟..

همست بروح نعسة:

- حبيبي..

غمغم ساخرًا ويده تعمل على تشغيل محرك السيارة:

- يا عيني..

تململت بتثاؤب أكبر، تسرد له تفاصيل الحكاية دون سؤال:

- بس عدنان بعده عني، مش عايز حد يحبني أو يقرب مني..

- أبوكِ شكله بيراقبنا..

انتفضت إثر كلماته تناظر حولها بهلع وتخبط، أعادها إلى موضعها بجذبة ذراع وبصره فوق المرآة الجانبية يتبع سير السيارة المراقبة:



- اهدي، طالما ماتقبضش عليكِ احنا في السليم..

أخذت تتراخى مع انتظام المسير، تشطح ببصرها خارج الزجاج ثم تعود برأسها إلى المقعد وتناظره، تتبع تقاسيم وجهه الجانبية في هبوط متباطىء، عيناه السوداوان كثيفتا الأهداب تتطلع من الأعلى على الدوام، أنفه المستقيم وشفاهه المصبوغة بسخرية باهتة يخص بها العالم أجمع، توقف بصرها قليلًا عند انبعاج ذقنه قبل أن تعود لعينيه المصوبة فوق الطريق بسؤال خافت مبحوح النبرة:

- بتعمل معايا كده ليه؟..

طرفها بشبه نظرة بلا معنى:

- أعمل إيه..

انخفض بصرها للأسفل، إشارة منها إلى الحال والوقت الراهن:

- ده..



تملمت من جديد باسطة يمناها أسفل رأسها المرتاح، تسأله بوضوح أكبر:

- مش من مصلحتك تخالف عدنان، يبقى ليه؟..

طرفت أهدابها ثم سكنت بإرداف وسكون لا يشبهها وقت الجموح:

- عايز تساعدني؟..

رماها بنظرة خاطفة خالطها استهزاء ثاب بعدها إلى الطريق:

- هو ده مفهومك عن المساعدة..

- إيه طيب..

- ولا حاجة، اعتبريها خدمة مجانية..

- ميرسي..

أهداها نظرة مصمتة لم يلتفت بعدها حتى توقفت بهما السيارة، أول ترجل منها صاحبه دوار أودى إلى ارتطام طفيف



أصاب رأسها وعاد بها إلى جلوسها الأولي، أمسكت برأسها المتألم والغير متزن تفرك جانبه وتطلق تآوهات خفيضة، في صمت مطبق دار حول السيارة حتى وصل إليها، أخرجها بقبضة التفت حول ذراعها بقوة وسحبة واحدة، أحكم إغلاق العربة وسار بجسدها المتمايل، دلف بها إلى المصعد دون أن يحررها من يده، تنظر إلى حالها داخل المرآة، تدقق النظر في عينيها الغائرة بين وجهها الشاحب وقامتها شديدة النحافة، تحاول شد عودها دون دعمه، دون أي حد، لكن مجرد المحاولة تدفعها للسقوط، تتشبث أصابعها في ذراعه باعتدال وعينها عنها لا تحيد، تهمس لها أو له لا تعرف، كانت لحظة مكاشفة وشفقة مع حالها لذاتها:

- أنا مش حابه أكون كده..

عيناه تلاقيها فوق السطح العاكس بعمق النظر رغم طيف الاستهانة وتوقف المصعد يهديها وضوح الكلام:



- مفيش حد يحب يكون كده..

أفصح عن هذا وترك عيناه القابضة عليها تخبرها أن: الهروب حيلة الضعفاء.



الهروب من الذات..

من ملاقاة القبح الكامن فينا، من تلك الزاوية التي لا يراها أحد، لكن نعرفها نحن حق المعرفة، الجزء السيء الذي نواري فيه حقيقة من نكون..

لحظات مكاشفة مع النفس تنتصف الليل وهي تقابلها خلف المرآة، كفاها يتماوجان ببعضهما بفعل الكريم المرطب في حركة متباطئة غيرواعية فيما عيناها تلتقي مع نظيرتها داخل السطح العاكس، تدقق فيها النظر كأنما تسبر أعماقها، تضيق عليها الحصار حتى ترفع أمامها الراية بسقوط المستسلم، عندها يطفو الندم في مكمن العزلة ويأخذ براحه، تميل إليها بنفس



لوامة، ترفع وجهها المحني في مذلة وتسألها عما جنت في حق نفسها؟!..

تسألها هل يغمرك الرضى؟..

فتهز رأسها نفيًا..

هل وجدت السعادة حقًا!..

لا تجيب..

تنوب عنها بصراحة وقسوة..

ذاك الماضي المتسخ يسلب سعادتك..

مهما هربت وعلي مقامك في داخلك منهوبة، جدرانك ملطخة بآثار الخزي..

تبدأ في النشيج الصامت، فتنهرها..

توقفي!..

هذا الضعف خزي فوق خزي..



تحاول التمرد على كل القيود راغبة في الفرار، فتخرسها بقساوة..

هذا العقاب مستحق..

هذه المنزلة مقامك..

لم يأتِ بك أحد..

كان اختيارك..

تصفعها بالكلمات مرة بعد مرة، فتصمت في خنوع..

تحاول صرف النظر عنها لكن الحزن الهائل في عينيها يكبلها وتبقى معها رهينة اللحظة..

عبر النافذة المفتوحة تمر نسمات قوية فتخرجها من شرودها الذي طال، يداها الجامدة من أمامها تهبط ببطء بينما تتطلع إلى لمعة عينيها المثقلة بالعبرات دون هطول، تسحب نفسًا عميقًا فتبتلع أجفانها ما يثقل دواخلها متحركة إلى الفراش،



تزيح الشرشف وتتمدد على مهل، تطبق أجفانها وتدق أبواب الغفى..

تستشعر في غيابها يده تمر فوق جانبها، تتمهل فوق ذراعها ثم تمضي متعثرة حول جذعها، أنفاسٌ حارة تعانقها بلهاث من فوق خصلاتها، قبلات نهمة بها خفة بدأت بالتساقط فوق خرائطها، يدفعها الصحو بغتة فتبرق عيناها شاقة الظلام بوعي تام، تتخبط بنهوض فتصدمها خطوط الاضاءة الصفراء للردهة، لا تعلم كيف فك الباب الموصد وانتهى معها فوق الفراش بنصف جسد عاري معربًا عن رغبته فيها..

- يا حيوان!..

سبته وهي تفارق الفراش في هرولة وتخبط، يقطع عنها الطريق بدفع وسقوط أعادها به إلى الفراش المبعثر:

- وبعدين بقى أنا صبرت عليكِ كتير..



يقولها بشبق ويداه تداهم مفاتنها، ترفسه بكل ما أوتيت من قوة فيرتطم جسده مع صوان الألبسة، تستغل الفراغ بوثبات وهروب يقطعه بجذبة قوية مزعت أزرار منامتها العلوية ومنحت عيناه حرية العبور إلى الصدرية المكشوفة، خصها بنظرة ثعلبية ويداه حول خصرها، تعيدها إليه بجذبة أقوى وفحيح خرق به مسامعها:

- مابلاش دور الشريفة ده يا بيللا، مش لايق عليكِ..

ومن ثم!..

ارتطام تلاه سكون..

مزهرية الخزف التي كانت تتوسط منضدة الزينة تعلو بواسطة ذراعها المشرع بينما جسد "سعد" يتهاوى أمام عينيها ببطء حتى تمدد فوق الأرضية بلا حراك والدماء القانية تنساب من جانب رأسه..



شهقة الوعي أدركتها مع تأوهاته التي راحت تتقلب مع ألمه النابض ويده تحط فوق شج رأسه، سحبت هاتفها القريب من فوق حافة المنضدة وهرولت أقدامها في تعثر حتى اختفت داخل دورة المياهموصدة بابها عليها، أصابع مضطربة مثل كل كيانها كانت تضغط فوق الهاتف، تنتظر الرنين بصبر فارغ ونبرة استجداء متهدجة باختناق كل ما أستطاعت لفظه بعد أن وصلها صوته:

- الحقني..

تركت جسدها خائر القوى يسقط خلف خشب الباب، تحاول لململة شتات حالها المبعثر فيفزعها صياحه الغاضب من وراء الباب..

"عايزه تقتليني يا بيللا.."

تلعنه وتطلق أنفاس راحة لكونه مازال حي يرزق وليست ضمن عداد القاتلين..



"وحياة أمي لأربيكي، إن ما كنت أفضحك عند عمك مايبقاش اسمي سعد.."

تسقط رأسها بين كفيها وتبقى على حالها الساكن حتى يصلها طنين الجرس المتتابع بقلق صاحبه، ثم تعالي صوته الذي ظل يصدح باسمها..

نهضت في تسارع ساترة تمزق منامتها بمئزر الحمام، صياح "سعد" يخترق كل الجدران محدثًا شقيقها الحاضر:

- أختك عايزه تقتلني يا عزيـز، سابتني غرقـان في دمي..

هرولت إليه فاستقبلها بذراع مفتوح، يأخذ بها أسفله ويسألها بشك متناقلًا ببصره في قلق فوق بعثرة ملبسها:

-أنتِ كويسة؟..

- ياجدعان ياهووو أنا اللي دمي سايح!!..



لا يعيران صياحه بالًا، تهزله رأسها في تتابع واهن ماحية بيدها نذر العبرات العالقة، تهمس له وجانب بصرها يثوب ناحية ثالثهم في طرفة عين:

- هددني أنه هيفضحني عند عمي..

ارتج رأسه نحوه دفعة واحدة مطلقًا سعير النظر بينما يده تربت فوق كتفها بهسيس:

- تمام ادخلي لمي هدومك، مستنيكِ..

انتظرها حتى تختفي بالداخل ثم راح يتقدم بالخطى ويتقهقر "سعد" في تراجع ولعثمة كلمات:

- يرضيك عمايلها دي يعني يا عزيز؟ اقعد ياجدع خلينا نتفاهم..

دفعة "عزيز" بكلا يديه حتى سقط جالسًا فوق الأريكة الداكنة من خلفه، رفع بقدمه إلى جانبه، يدنو منه بقرب مخيف فيصيح الجالس:



- ياعم والله..

خرس حين وجده يمسك برأسه، يديرها يمنة ويسره في تفحص ثم يخبره بلامبالاة:

- بسيطة يعني مالهاش لازمة ولولة النسوان بتاعتك دي..

لم يمنحه الفرصة ليعِ فعله التالي، تفاجىء به يقبض على تلابيبه بكلا كفيه، يضغط عليه باختناق كبير وتخرج أحرفه بوعيد من بين أسنانه:

- هددتها بأيه بقى يا سبع؟..

جبن بتراجع:

- وإنتَ تصدق برده أعمل كده ياصاحبي؟ دي، دي لحظة غضب..

يزعق فيه بقوة تطاير معها الشرر:

- لا شكلك نسيت نفسك..



يثور محدثه بدوره في دفاع يرى فيه استحقاق محاولًا الاحتفاظ بمكانته:

- يا عزيز أختك فاتحة دماغي، كانت هتقتلني وتقولي نسيت نفسك! ده كويس إني مامدتش ايدي عليها..

- تمد إيدك على مين يابن الـ...

يرميه بسباب بذيء ثم يعود ضاغطًا عليه من علو يوقعه فريسة أسفل ساقة:

- أنت نسيت نفسك بجد يالا؟ لا فوق كده واسمعني عشان الجاي يخصك، اللي بينك وبين أختي جواز على سنة الله ورسوله وخلص..

ابتعد عنه معتدلاً دون أن ينزل قدمه نافضًا يديه بزعيق حاد:

- فضيناها خلاص..

ثم عاد له بتهديد صريح بانت فيه كل الجدية الممكنة:



- كلمة تطلع منك يا أبوعريشة هلبسك قضية أسجنك ومش هتاخد في إيدي غلوة، تاريخك الأسود كله معايا وإنتَ عارف، سامعني؟..

تلعثم الساقط بين يديه في قوله محاولًا إصلاح الأمور التي فسدت:

- جرى إيه يا عزيز جرى إيه يا أخي هي دي طريقة تفاهم؟ انا برده أضربيللا بحاجة!..

- أنا جاهزة..

طالع حضورها الماثل لثوان استدار بعدها يأمره بفظاظة:

- طلقها..

أظهر "سعد" ترددًا فضربه بساقه:

- اخلص إنتَ هتعيش الدور..

وقف أمامه صائحًا بعلو وغيظ كبير:



- ياعم طالق ياعم، أختك طالق بالعشرة..

قالها بانفعال كبير متحسسًا جبهته بألم، فحدثه"عزيز" بلهجة ساخرة سبقت رحيل:

- اكبسها بن وهدي نفسك..

دون قول زائد تحرك يسحب الحقيبة الضخمة ويأخذ بيد أخته التي عبرت دون أن تلتفت لمرة واحدة ومرا راحلين.

انتهى بهما الطريق القصير أمام بيت العائلة رابضين داخل السيارة في صمت يولي كلًا منهما النظر نحو الأمام بلا حراك، لم يكن هناك مجالًا للأحاديث أو مرتع والحكاية تصل آخر السطور..

- خلاص خلصت يا عبلة..

قليلة هي المرات التي يحدثها فيها بأصل اسمها وينظرها بتلك العين المجردة بلا أية سخرية أو غضب، فقط نظرة شقيق لأخته..



تمتمت من ورائه بخفوت مماثل ويقين:

- خلصت..

تحرك رأسها باتجاه البيت الذي تحفظ تفاصيله ثم عادت إليه توليه النظروالقول:

- رجعت لأول السطر..

دار يطالعها بهدوء، كأنما مايحدث هو المرتقب والمنتظر منذ زمان:

- ساعات الرجوع يكون مكسب..

أخفضت بصرها، تخفي طيف الندم العابر بين اعينها، تطبق فوق شفاها معتصرة زبد الكلمات الثقيلة، تحدثه بها وبصدق قلبها النادر:

- حاسه إني خسرت كتير..

يرمق الأفق البعيد، بعدها يقول:



- كل خسارة ممكن تتعوض..

تسأله في جدية وترقب:

- حتى نفسي؟..

يجذبها إليه بعناق، مغطيًا أحرفه ببلسم الطمأنينة:

- حتى نفسك..

لحظات وكانت تدلف وإياه، يدفعان بباب الجدة فتلاقيها برفقة عمها الكبيروزوجه، تهبط أبصارهم إلى حقيبتها العائدة برفقتها ثم يعودون إليها، تنظرهم جميعًا وتقود دفتها حيث الوجهة الصحيحة، تغالب شعورًا سيئًا يموج بداخلها وتخص عمها ببضع كلمات:

- مكاني لسه موجود وسطكم ياعمي؟..

والإجابة..

كانت بين أذرعته المفتوحة على الدوام.





الهروب وسيلة تتحقق بها الغايات..

كانت غايته ابتعاد لا ينكر، ابتعاد عن أسرة ووطن لا يوفران له شطرًا من الأحلام والمبتغى، أراد الفرار من واقع يحتم عليه رؤية والده يتبع امرأة تلو أخرى قاذفًا بنفسه وماله عند أقدامها، هرب من رؤية أمه التي صارت تتقبل شين أفعاله مثل أمر منتهي ذا لافتة ضخمة شديدة الوضوح..

"مادام منطقتي آمنة افعل مايحلو لك"

لا يفهم أي منطق ذاك، حاول الفهم مرة وعشر حتى فقد الأمل، حاول هدم تلك الجدران المليئة بالسخام وبناء أخرى نظيفة مهيأة لضم أسرة حقيقة يكون هو ربها، لكنها أمه رفضت!..

قالت أنه لايستطيع توفير الحياة لهم كما يفعل أبوه رغم عيبه، حتى أختاه أبدتا قناعة بتلك الأقاويل آنذاك، وحده غدى



محلقًا خارج السرب، ذاق الغربة وهو بين ربوع الوطن أولًا ثم سلك دربها عن ذات إرادة فيما بعد.

كما ذيعت الفضيحة ذيع خبر تكذيبها، قيل مقطع مُفبرك ولعنة الله على من اخترع الشياطين الصغيرة، قيل هناك من يترصد للسيد المحترم ويتبلى، قيل الكثير مما لا يطمس الحقيقة لكن يخفيها تحت خربشات قلم، خربشات تجدي وسط مجتمع أبيه، فإن لم تزلْ الشكوك يكفي أنها تخرس الألسنة وتترك له متسعًا يرفع فيه رأسه كأن شيئًا لم يكن، تجدي مع أمه التي أخذت الأمر على محمل سابقيه، بل وبدأت إقناعه بالأقاويل الصادرة، قالت اشتر راحة بالك وصدق.. وليت الأمر يأتي معه هكذا ببساطة القول.

وضعت الطبق الأخير فوق مائدة العشاء المجهزة قبيل عودته، سحبت مقعدًا وجلست بثقل شهرها الأخير، انضم إليها بعد أن بدل ثياب العمل بادئًا وجبته تحت ظلال الصمت الثقيلة..



منذ تلك الليلة وهو غارق في بحور الكآبة، في البداية كان يغلي مثل جوف بركان، فقط يغلي من الداخل دون حمم خارجه، بعدها سكن وخمد، لا يتحدث إلا لمامًا، وإذا تحدث تكون أحرفه فاقدة للروح..

شاشة الهاتف الصامت والقابع إلى جانبه فوق المائدة تومض كل حين باسم والدته، يبدي تجاهلًا كبيرًا من خلال طرف بصرها المراقب خفية، تتململ في جلوسها، تدفع بالطعام إلى فمها بفكر مشوش، حائرة بين التكلم والسكوت، بين التدخل فيما يخصه أو البقاء بعيدًا، في النهاية إلحاح المرأة فوق الهاتف هو من دفع أحرفها للخروج وملعقة الحساء تقابلهم بدفء، لم تكن بحاجة مقدمات، تكفي نبرتها الهادئة كاستهلال:

- كان المفروض تسمع الكلام وتسافر، ماينفعش تبقى الدنيا مقلوبة في مصر وإنتَ هنا..



لا نظر، لا تخلي عن طعام، بذات الهدوء وغلاف الرسمية للأحرف:

- ماينفعش تفضلي لوحدك و أنتِ ممكن تولدي في أي وقت..

تخلت عن ملعقتها بالتفات، تقابله من جانبها بحزم قول ونو ايا:

- كنت هتصرف، اتصل بالطوارئ أو أروح المستشفى عادي مجرد ما أحس أن خلاص..

ظنته غير مرحب بالحديث من ناحيتها فيما يخص عائلته لذا اكتنف الصمت دون النظر وقبضتاه المضمومتان فوق المائدة ترتاحان بسكون، مضى حين حتى رفع رأسه إليها، يحدثها بوضوح دون حواجز:

- أنتِ فاكرة لو نزلت كانت حاجة هتتغير؟..

لا يترك مجالًا لتثقبها الظنون، يستطرد في الحال بنبرة منفعلة وقبضتيه تشدان الضم من حولهما:



- نفس اعتذراته بتاعة كل مرة، نفس ضعفها اللي مخليها على ذمته لحد النهاردة، وفي الآخر ماتبقاش ظالم يا ناصف، لو إنتَ مش محتاج أب أخواتك محتاجين، إيه مزعلك ما إنتَ سايبنا، ماتدخلش في حاجة مش فارقة بالنسبة لك، واضطر اسكت وأنا مش عارف ده الصح ولا الغلط..

استنكار جلي تلونت به نبرته قبل قسماته وسخط العالم يتراكض بين أعينه:

- مابقتش فاهمها، مش فاهم لأي درجة من البرود وصلت عشان تشوف خيانته بعينها وتفضل برده على ذمته..

دوت أحرفه الأخيرة مثل غارات حرب، ذكرتها بما تتناساه وترميه بعيدًا آخر حدود الذاكرة، هدرت أنفاسها وأحرفها في وجهه بانفلات حاد رغم تيبس الجسد:

- مش برود يا ناصف، مفيش ست في الدنيا تشوف جوزها مع واحدة تانية ويبقى احساسها هو البرود!..



تتنفس بعمق برباطة جأش، تعيد هندمة دواخلها وتوليه جل تركيزها من جديد:

- أنا معرفش والدتك عن قرب عشان أقدر أخمن أسبابها بس وارد تكون بتحبه رغم كل شيء، وارد حسابات مجتمع، ممكن تكون خايفة من الوحدة، وجايز ضعف زي مابتقول، لو قعدنا نفكر هنطلع بألف سبب واحتمال إلا البرود، ماتظلمهاش في دي..

دحض كل الاحتمالات بجملة صادقة كانت في الماضي القريب:

- قلت لها أنا معاكِ..

يوضح بإرداف:

- قراري بالاستقرار في مصر كانت طرف فيه، كنت عايز أريحها..

أرد أن يقيها شر الخيانة، أراد أن يرد كل الاعتبارات لكرامتها المهانة بالتخلي عن رجل لا يو اتيها حقها..



لم تكن"دهب" تتعاطف مع موقف المرأة، هي فقط ترفض وضعه لها في خانة المذنب جوار أبيه، لذا كانت تتلبسها روح المدافعة بضراوة:

- إنتَ ابنها، هو جوزها، مش هتحل محله حتى لو مفيش زيك..

دفاعات في نظره واهية يقابلها بمعول الهدم الحاضر:

- وجوزها حب ستات الدنيا إلا هي..

بعض الكلمات تجيء مثل نثر الملح فوق الجراح العميقة، نظن أنها طابت لكنها تنبض بوجع حين تمر بها رياح الذكرى، تتنهد بنبرة متعبة ورأسها يميل فوق راحة ذراعها المرتكز على حافة الطاولة:

- ده سبب أدعى يخليك تقرب منها مش تبعد، بعدك خسارة تانية أكبر من الأولى..

- هي اختارت الخسارة..



جفاء نبرته يصيبها بالحدة الطفيفة:

- يبقى اختيارها وتتحمل توابعه وأنت عشان ابنها الوحيد واجب عليك تكون جنبها لحد ما الوضع السيء يتغير للأحسن..

يصد قولها برفض صارم:

- أنا مش هوافقها على غلط..

تحتد نبرتها عليه مقاربة حد الصياح:

- بقول جنبها يا ناصف مش معاها، الله!..

بذات النبرة الغاضبة تردف في استنكار كبير، لهجتها موبخة وأذرعتها تنفرد من أمامها أعلى المائدة بانفعال كبير:

- وأصلًا فكرة الخصام دي كلها من أساسها غلط! دي مامتك فاهم يعني إيه؟ اتكلموا واختلفوا وحتى اتخانقوا بس متخاصمش مهما حصل!..



عم السكوت إلا من لاهثها الخافت وحروفه الخابية التي تسللت ببطء بعد حين وحاجبيه يرتفعان في استنكار ضئيل لا يقارن بخاصتها:

- ليه الإنسان يبقى زعلان ويتزعق له، ليه بجد؟!..

هبط معدل الصرامة للحد الأدنى وقد وعت لحالها توبخه بالفعل!..

- ماقصدش والله..

توضح موقفها بإرداف تال تلون بالحرج الشديد دون أن تتخلى عن واجهتها الجادة:

- يعني يبان إني بزعق بس ده مجرد انفعال، فاهم!..

تحلى بذات الجدية بتغضن جبين وبالغ في توجسه:

- معنى كده في ليفل تاني أعلى من ده؟!..



طالعته مصعوقة لثوان مالبثت حتى انفرجت ضحكتها تلاقي تبسمه في تبادل مر بينهما حتى تلاشى مع ومضات الشاشة التي عاودت الإلحاح باسم المتصل ذاته..

حطت يدها فوق قبضته المرتاحة بقربها أعلى المائدة، تضغطها برفق ونظرتها تفيض بأمومة خالصة:

- عشان خاطري رد عليها وطمنها..

استقر بصره عند كفها المحيط للحظات غدى فيها يخوض غمار الفكر العسير قبل أن يحط بكفه الحر فوق يدها الساكنة، يديرها ليظهر باطنها فيميل إليه بلثمة شفاه بث فيها امتنانه الكبير على مهل قبل أن يعود لعينيها بهمس قريب:

- عشان خاطرك، حاضر..

انسل هاتفه من جانبه ونهض تاركًا إياها تضم بكفها إليها، تتطلع إلى موضع قبلته بجبين معقود وعينين مذبذتين تبعتا إثر



خطاه المبتعد ثم طفقت تدفع هذا كله بجمع سفرتها وتجاهل تام في حقيقته هروب.



نهاية كل هروب إما ضياع..

إما عودة..

لم يكن مسموحًا لها بالضياع لذا عودتها كانت حتمية، ذاك الركن الذي تقبع فيه متحاشية النظر متلحفة بدثار الخوف ركن معتم، بارد، لن يغنيها عن دنيا العيش، لو بقيت كان سيقتلها يومًا حين يضيق عليها الخناق وقتما تعي أنها محتجزة رهينة لحظة الألم..

كان لابد من جذب حبل الوعي في الوقت المناسب، وقتما تكون جاهزة، جلوسها المنفرد لفترات طويلة يعني أنها صارت جاهزة، انفعالها الكبير ورفضها الواضح لأبسط الأشياء يعني بداية عبور الألم لأوردتها، خواء نظرتها وتخبطها كأنما العالم يتجرد



من حقيقته الى قفر واسع تنظره بتيه، تلك الدلائل كلها توصلهما معًا للحظة الحاسمة والأخيرة..

"جه الوقت يا عبدالله، لازم تختفي من محيطها.. تمامًا"

حان الوقت لتعِ لحظة الفقد والخسارة.

بينما الشمس تسقط داخل الأفق الذي تلون بشفق الغروب كانت تتململ فوق فراشها بصحو، اضطراب النوم الذي يصحبها يتركها ضحية للسقوط بين براثنه طيلة النهاروعندما يحل العتم يهرب عنها ويتركها وحدها عرضة لأرقه وطول سهاده..

نهضت بأقدام مثقلة وجسد مترنح، تشق السكون وتدهس فوق الصمت بخطى متباطئة..

- عبدالرحمن..



يرتد إليها الصدى بخواء، تدور حول نفسها والهلع يقترب منها، تنظره يمنة ويسرة ومن ورائها بتعثر، تتلحف بأذرعتها وتعيد نداءها الخافت، مبحوح الطيات:

- عبدالرحمن إنتَ هنا؟..

تصطدم ساقها مع حافة الطاولة القابعة بمنتصف الردهة، تبصر صور الفوتوغراف المتراصة فوق بعضها البعض فتقترب منها ببعثرة، ترفع أناملها واحدة ظهر فيها ثلاثتهم بعمر الطفولة فوق رمال الشاطىء، البحر الساكن من الخلف وهي بالمنتصف تطرف بأهدابها التي تعاكسها وهج الظهيرة، عن يمينها "عبدالرحمن" يقف منتصبًا بسروال البحر الأحمر حاملًا الكرة أسفل ذراعه فيما شقيقه من الجهة الأخرى يماثل الأول في كل شيء إلا بلون السروال الأزرق ويده التي ارتفعت عند جبهته في تظليل أمكنه من فتح أعينه..



صورة تالية كانت لـ"عبدالله" في ثياب التخرج، يثني ذراعه بانتصار فيما يدي توأمه تضغط فوق كتفاه بقفزة أظهرته من الوراء والسعادات العارمة تلتف من حولهم،سقطت هذه عن يدها وأناملها تسحب ثالثة منفردة للحبيب مرتديًا كنزة الصوف الداكنة التي أهدتها له في مساء ماطر، لقطة بزاوية جانبية مرتكنًا فيها إلى الجدار عاقد الساعدين فيما تتسع ضحكته حتى امتلأ بها وجهه..

ضمت هذه الأخيرة مع الأولى إلى صدرها ورأسها يميل بانتباه إلى الكتاب الذي أهدته له الفتاة البغيضة تحت مسمى الزمالة القديمة..

"سارة محفوظ"

تهمس باسمها المطبوع ثم تقلب الغلاف فتقابلها الأسطر الداكنة تحت مقولة اهداء خاص، تقرأ شفاها الكلمات ببطء..



"إلى معلمي الذي لوح لي بالقلم ذات نهار وأخبرني أنه ليس بالشيء الجماد وإنما الدفة التي توجه عقول البشر"

ينحدر بصرها إثر الكلمات إلى صورة تعتلي البقية لـ"عبدالله" خلف مكتب خشبي بمقر عمله، بصره ساقط مع القلم في يده، يخط شيئًا ما فوق الورقة البيضاء وإلى جانبه كومة جرائد وكوب شاي نصف فارغ..

صدرها يعلو ويهبط بسرعة فجائية، جسدها تقهقر للوراء حتى اصطدم مع مائدة الطعام، استدارت بحدة فسقط بصرها فوق علبة المخمل الزرقاء، امتدت أصابعها المرتعدة تكشف عن محتواها، وجدته راقدًا، قلمٌ أنيقٌ تزين جانبه بالخط العربي حاملًا اسم صاحبه

(أ.عبدالله الشيمي)

ضمت يدها على القلم وجسدها يختض بدوران وضياع أصبغ صوتها بتهدج:



- عبدالرحمن روحت فين؟!..

لم تنتظر صدى الفراغ يدوي بين أضلعها من جديد، فتحت الباب وعبرت هاربة دون ارتداد، أقدامها تسابق الرياح بهرولة وداخل أحضانها تضم القلم والذكرى وطيف الضحكة المبتورة..

تصل بوابة البيت ولا تقف لالتقاط أنفاسها، تركض برمق منحور، يدها تلامس سور الدرج وفي عينيها طفق الدمع الغزير دون هطول، بينما تهرول صعودًا شعرت بحالها تهرول نزولًا، تضيع بين هذه الصاعدة وبين تلك المرتعبة التي تلاحق صوت الصرخات والنواح..

ما إن بدأت الضرب فوق الباب بقوة قبضتيها المضمومتين حتى استقبلها أبوها المنتظر عودتها حيث بدأ كل شيء، تقف أمامه بملبسها وخفها البيتي مشعثة الرأس في خارجه والداخل، عيناها الغائرة والمرتعبة تسقط العبرات الثقيلة واحدة تلو



أخرى، تلملم رباطة جأشها فتخونها قدرتها وتظهر كلماتها متقطعة بشهقات مبتورة:

- مين.. مين فيهم اللي معايا.. يا بابا..

ولا مناص عن قول الحقيقة لتسطع بعقلها الواهم:

- عبدالله يا ندى..

تسقط عن يدها حمولتها وارتعادة جسدها تتضاعف، أنفاسها لا تخرج، تتكسر بحلقها في أنصاف شهقات مبتورة، بصرها يدور، يلمح طيف أمها وشقيقتها يقترب، ترتحل إلى أبيها من جديد بسؤال مغبون:

- وهو فين؟.. عبدالرحمن فين..

تصم أذنيها حتى لا يأتيها الجواب المقروء من بين شفاهه، تغمض عينيها تود لو أن أنها تهرب من اجترار عقلها للحادث المتدفق بغزارة، تود لو تشرد بعيدًا لكن صوت الأعيرة النارية يعبر مسامعها، ينفضها من فراشها، كأنها تطفو و أقدامها



تلاحق الآخرين الراكضين فوق الدرج، لا تدري كم شطرًا من فؤادها فقدت مع كل خطوة كانت تقربها لتراه بوضوح، تراه مضرجًا بدماءه مفارقًا للحياة بين ذراعي توأمه..

مع نبض الذكرى الحي داخل رأسها كانت تسقط فوق ركبتيها، تنحني بجذعها لتقارب الأرضية بصرخة عذاب مسطورة بحبر الفقد الأليم.



(32)

إضاءة ملونة تحد البهجة حتى آخر حدودها..

صخب الأغنيات الكلاسيكية يزاحم فرحة العروسين أثناء تبادل خواتم الخِطبة، سطح الدار المزين لأجل أبنائه يضج بزحام راقص كانا يتشاركان فيه من طرفهما حين جذب مرفقها مقربًا إياها بهمس جاور أذنها:

- تتجوزيني؟..

هدأ الصخب وتلاشى الجمع، عيناها تحدقان فيه باتساع، ما إن عادت أنفاسها الجامدة كحال بقيتها قبضت على كفه تشق به الخطوات من بين الجموع، تصل رأس الدرج ولا تتوقف، لن تمنحه حق إفساد اللحظة، شدت على عناق كفه وأخذت تهبط



الدرجات في تسارعٍ، كاد أن يتعثر من خلفها فسبها بنغمة المبتهج:

- يابنت المجنونة..

انتهيا معا عند مقدمة الدرج بالتفاف سريع حيث الضوضاء من فوقهم تخفت ويعلو نبضها ملونًا صفحة وجهها بشتى الانفعالات:

- قلت إيه واحنا بنرقص؟..

وارى تبسمه الماكر خلف واجهة جهل متصنع وعينيه تضيق بتذكر محال:

- قلت إيه؟ مش واخد بالي..

- عبدالرحمن ماتستهبلش!..

زاد مكره بصمت متلاعب فجر حنقها، نيتها الجادة في الصعود صاحبها تأفف مسموع وتخبط أقدام ساخطة، بتر كلاهما



بجذب مباغت لذراعها حتى تواريا معًا في الحيز الضيق شحيح الضوء أسفل الدرج، يظلل عليها بقامته وقرب أنفاسه محيطًا قلبها دون مساس:

- قلت بحبك..

تحشرج أنفاسها ولهفة المقل العاشقة كشفا عنها في وضاحة، لسانها الخافت كان يتعثر باحثًا عن تأكيد تصك به اللحظة:

- بحبك بتاعة كل الناس؟..

امتزجت ضحكته الخافتة بقرب أخير تلاقت فيها الأنفاس الصاخبة للحبيبان بمصارحة أولية ولقاء:

- بحبك بتاعة تتجوزيني.

صمت في حقيقته ضجيج مرعب..



تكتم أنين قلبها النابض بذاكره الحية فلا يتحرك جسدها المتشح بالسواد والراقد على جانبه في سكون كبير، فقط تفيض عيناها بالدمع الغزير فينساب من تحت ساتر الأجفان..

لا تشعر بأيما حركة خارجية، لا حفيف خطوات شقيقتها المارة عليها كل حين ولا عيني أبيها المطلة من بابها الموارب ترمقانها بعجز منذ عادت إليه ومعها ألم عظيم تواريه خلف الضلوع، أعادت للجميع لحظة الفقد، أعادت بنواحها نبض الذكرى الذي كان منذ أشهر، بداخل كل واحد منهم سرادق يقام في صمت رادف انهيارها المشهود.

تركوها تبكيه وتقيم عزاءها المنقوص بوعي تام تزاحم فيه اليقين للحد الذي فاق الاحتمال، في الليلة الرابعة همدت، سقطت بكليتها داخل بؤرة الصمت الكبير إلا من عينيها، وحدهما بقيتا تفيضان كل حين..

- على حالها، نايمة طول الوقت..



يستدير أبوها بهمس خص ابن أخيه الواقف من ورائه متابعًا وسائلًا عن حالها في روتين يومي، الرد جاء مثل أمس وسابقه، تحيا بعزلة فوق فراشها، تغيب عن أحزانها بالنوم الكثير مقاطعة في طريقها كل حديث ومأكول..

- بعد إذنك هدخل لها..

يطلب الأذن في محادثتها وكله يقين أن هذا الصمت الهائل من الخارج يخبىء في داخله ما يعاكسه تمامًا، ربت العم فوق كتفه وابتعد فاسحًا له المجال ليمر..

اقترب من رقودها في تؤدة كاشفًا عن قبضتها المكورة أمام فمها وبصرها المصوب بنظراته الضائعة ناحية الفراغ، سحب المقعد الصغير منتهيًا قبيلها في جلوس، فقد كل استهلال مع لقائها، ما العزاء الذي يمكن أن يقال، مايشاطرها إياه من شعور لا يجدي معه مواساة العالم أجمع، لن يؤتي بنفع مع لهيب الجوف المحترق، كان يشعرها وإن لم تتحدث، يكفيه أن



يرى التيه ممزوجًا مع الخواء محتلًا عينيها ليعرف، لكن يجب عليه أن يحادثها، هكذا راح يفكر، يجب أن يضع الأمور كلها في نصابها الصحيح حتى لا تتفاقم الحسرة بداخلها، أن ينوء عنها بذاك الحمل الثقيل فلا تزيد وطأة الجراح، ظل رهين لحظات الصمت لوقت طويل وكل الأحرف عسيرة ملتصقة في حلقه، يجاهد لتخرج في محلها الصحيح والمنطوق..

- ندى..

يهمس باسمها محاولًا أخذ بصرها المعانق للفراغ، لا تحرك ساكنًا فيميل بجذعه قليلاً، يلاقي عينيها المحتشدة بالدمع الثقيل، يواري مايعمتل فيه خلف نبرة رصينة وكلمات تراصت لأجلها، للشد من أزرها:

- أنتِ مش لوحدك، كلنا جنبك..

عندما سكت تحرك بؤبؤيها ليستقران عليه، أردف لحظتها:

- كل حاجة حصلت عشان نقدر نساعدك..



يرمي إلى زواجهما دون وضاحة، يخفف عنها ثقل الأمر كما فعل أبيها من قبله بكلمة_لأجلك_ لأجل مرضك ولأجل حالك هذا، حتى لا تضيعين منا، حتى لا نفقدك وأنتِ بيننا، يفندون الأسباب والتوابع أمام ناظريها لكن هذا لا ينفع، في الوقت الراهن خوفهم والكلمات لا تشفع، روحها المعذبة تنوح في الداخل ويتصاعد النواح دون قدرة على إيقافه حتى يعبر فمها، تلتف دافنة برأسها بمتتصف الوسادة فيخرج أنينها مكتومًا، معذبًا، تبكي لأنها ملطخة بالخيانة، بدلًا من أن تبكيه وتأخذ فيه العزاء كما يجب تزوجت بأخيه!..

تلعن حالها وتكرهها، تبغض"عبدالله" لأنه فعل، تكرههم جميعًا فردًا فردًا ولا تملك حيلة غير العويل، غير الضياع فوق عالم قفر من دونه، تهرول أمها إليها مع علو وتيرة نواحها، تجبر جسدها المنطوي على حاله أن ينتهي بين ذراعيها، تسكن اهتزازتها ضلوعها واسم الله يحفها، ترفع الأم عينين محزونتين



إلى" عبدالله" الجالس بصمته، يتبادلان قلة الحيلة قبل أن تحمله أقدامه برحيل.



صمت في دواخله انهزام..

يشبه الوصول لخط النهاية، تسحب أقدامك المتعبة لتمضي مقاوما السقوط الأخير، في لحظاتك تلك أنت مهشم الأمل محطم الأحلام لا ترى أبعد من أقدامك، لا يوجد ما يضلل عيناك، طريقك ذوضوء شاحب مثل عيناك، رغبتك في العيش تساوي الموت، كلاهما سيان، لكنك مجبر على المضي، لأجل كل من حولك عداك، تمضي و في داخلك راية ترفرف باسم الخاسر في معترك الحياة..

توقف بعد طول مسير ينظر اللافتة الضخمة للحظات نكس بعدها رأسه ودلف إلى الداخل في تردد، لا يعلم ما الذي أتى به إلى أخيه الأكبر في محل عمله لكن شعور ما يساوره أنه بحاجة



إلى رؤيته و أنه يشتاقه، لا يدري إن كان الالتحاق بدربهم سوف يفلح معه أم تضيع خطاه أكثر، يبدو مثل صغير متعثر الخطى، يبغي ولا يستطيع، يقاوم ما يموج في داخله من ضلال وشتات ويمضي إلى الداخل أكثر..

- عبدالله!..

تهتف "عبلة" من وقوفها الجانبي ما إن وقع عليها بصره، تتخلى عن الثوب الكامن بين يديها لمساعدتها وتتقدم إليه بقسمات فرحه، تحيطه بترحاب حار:

- إيه المفاجأة الحلوة دي..

ولا تمنحه الفرصة، تحدثه وخطاها تتقدمه في الحال:

- تعالى ده بكر هيفرح قوي..

صعد من خلفها بضع درجات حتى انتهيا بالطابق العلوي ونبرتها تسبقها بحبور تحادث شقيقه:



- شوف مين عندنا..

يلاقيه أخوه بعناق طويل مربتًا فوق ظهره براحته مرة بعد مرة حتى يبتعد وينظره بسعادة، يدعوه ليجلس فوق أريكة جانبية، يسحب كرسيًا منفردًا ويقابله، يد تضرب ساقه بخفه وأخرى تضبط منظاره الطبي فوق جسر أنفه وهو يسأله:

- قولي تشرب إيه؟..

وثبت ابنة العم الجالسة فوق متكىء الأريكة بحماس منقطع النظير مصفقة بكفيها في خفة ومرح:

- هطلب لكم مانجا بمناسبة طلاقي..

يقهق "بكر" محدثًا إياها قبل اختفاء:

- ارحمي نفسك دي عاشر مرة تشربيني..

يصلهم صوتها المبتهج دون رؤية:

- خليهم حداشر يا روحي..



يعود الكبير لأخيه بقول هادىء لا يتجاوز محيطهما قاصدًا بفحواه الذاهبة قبل حين:

- هي صحيح دماغها ناشفة بس من زمان ماشفتهاش مرتاحة زي اليومين دول..

يغمغم"عبدالله" بعد طول سكوت وجذعه يميل ميلًا طفيفًا مرتكزًا بساعديه على فخذيه مشبكًا أصابعه مع قول لم يكن مستبعدًا من قبل الجميع:

- كلنا قلنا لها سعدماينفعكيش، بس هي وعزيز صمموا على رأيهم..

يومىء الشقيق بهزة رأس موافقًا كلماته والأقدار المكتوبة:

- في الآخر النصيب غلاب، جوازة خسرانة واتحسبت عليها بس نقول الحمد لله أنها طلعت منها من غير طفل يربطها بيه طول العمر..



يختتم حديثه بإدارة الدفة في اتجاه معاكس لكل السوء الذي يمرون من خلاله:

- إيه رأيك في المكان؟..

يردف تاليًا ويده تطوف باستدارة تشمل ما حوله:

- الجزء ده كله جديد..

يلتف بصره على مهل حتى يستقرعند أخيه بثناء، بعدها يبتدي طرفًا للحديث:

- أخبارالشغل إيه؟..

يبدأ "بكر" بالحمد، يتبع ذلك بوصلة شرح مقتضبة تخص طبيعة العمل التجارية يختمها بقوله الواضح واضعًا فيه كل الجدية:

- أنا محتاج لك معايا..



طيف تبسم ليس به فكاهة يفتر عن شفاهه، بماذا عساه يفيد بهذا الحال لا يعرف، يفصح عن دواخله بغمغمة أحرف لاح فيها البهوت:

- مين فينا محتاج مين..

يشد الشقيق على ساقه بعزم، يرفع عنه الانهزام ولو ببضع كلمات:

- محتاجين لبعض يا سيدي..

تنضح مرارة في ذيل أحرفه ومن بين قسمات وجهه المتغضنة، يبتلعها في صمت بينما الشقيق الأصغر يمسح عن وجهه بكلا كفيه مطلقًا زفيرًا متباطئًا أقرب لتنهيدات متقطعة:

- بحاول والله يابكر، وحقيقي مش عارف إذا كنت هقدر الاقي نفسي هنا ولا لا..

يدعمه بطمأنينة دافعًا له بشعاع أمل خجول يكسر به عتمة اليأس المقيت:



- مش عايز منك غير إنك تحاول..

تعود إليهم ابنة العم بروح مرحة تجبر بها غمام الكآبة على التنحي قليلًا، تضع العاملة الضيافة إلى جانبهم وترحل، يعود "بكر" إلى الوراء ممددًا ظهره مغمغمًا بخيلاء مفتعل:

- تفتكري يابيللا ممكن نحدد كام مرتب لأخينا ده؟..

ترمي بخصلات شعرها المصففة بعناية إلى الوراء معاودة الجلوس فوق متكىء الأريكة، حلتها البنية تضفي بعمليتها إعجابًا مضاعفًا بالنفس وهي ترفع ساقًا فوق الأخرى:

- رأيي نشوف شغله الأول بعدين نحدد..

يتوافقان الرأي في خباثة علنية يوقفها"عبدالله" برفعة كف معترض:

- مبدئيًا شاكر إفضالكم، بس اللي أوله شرط آخره نور، لو هشتغل معاكم يبقى بمالي، هبيع شقتي وبفلوسها أدخل معاكم شريك..



تتبادل"عبلة" النظر الحائر مع "بكر" في حاله المبهم والغير واضح مصيره مع "ندى"، من ناحيته كان الأمر محسومًا، بقاؤه جوار والديه هو الوضع الحتمي الذي يريده ويرغبه في الوقت الراهن..

تغمره ابنة العم بلطفها الكبير متبسمة له في قبول مهذب لا يخص ثقل المزاح السابق:

- زي ما تحب ويريحك..

شقيقه الأكبر يقلق حيال أمره، رغمًا عنه يشغل باله ويفتش له عن استقرار يضمه تحت سقفه:

- والشقة التانية قررت تعمل فيها إيه؟..

يسأله عن مصير زواجه بمواراة لأنه يدرك رفضه التام للخوض فيه، يرفض ويصاب بنزعة غضب يتحفز لها جسده ويتصلب كما الآن:



- شقة عبدالرحمن هتروح لندى، هي حرة تتصرف فيها براحتها، ده كلام بابا و أنا موافقه..

يمتص بوادر غضبه بنبرة لين ومراضاة:

- تمام ياحبيبي و أنا معاكم..

"يارب تكون لمة خير عشان جبتوا آخركم معايا.."

ترحب الشقيقة:

- نورت يا زيزو..

يسخر "بكر":

- عين أعيان عيلة الشيمي بيتكلم..

ويؤيد "عبدالله" مبدأ شقيقه:

- نسي نفسه تقريبا..

يتبادلون الترحاب والسؤال عن الأحوال ثم تحل الثرثرة عن العمل والأهل ما بين الجدية والمزاح، في أوسطها ينهض "عزيز"



متخيرًا من صف الستر الرجالي الرمادية، ارتداها تحت أنظارهم ووقف مقيمًا هيئته أمام المرآة البيضاوية سائلًا عن رأيهم لأجل مناسبة وشيكة، نال الثناء بينما يخلع الأكمام، خاطب بعدها أخته:

- شوفي لي قميص يليق كمان..

أحضرت له فاكتفى بنظرة تقييم دون تجربة، أخبرته الشقيقة بحساب وعملية:

- جاكيت ألفين وقميص تلتومية وخمسين كله ألفين عشان خاطرك والرجالي مع مسيو بكر، اتفضل..

طاف بصره بين ثلاثتهم ونبرته تعلو باستنكار:

- إيه ده أنتوا عايزين تاخدوا مني فلوس!..

أجابه"بكر" بصراحة متناهية:

- ومن أبوك نفسه بلاش الشويتين دول..



طرقع لسانه في امتعاض كبير وأسف:

- خلاص الفلوس غيرتكم، الدم في عروقكم بقىماية..

- ولا هتصيع؟ إنتَ أساسًا تيجي تقلبنا وتمشي متعرفناش بعدها..

- ما الناس المهمة زيي ظهورها قليل..

- فوق يا عزيز أنت نص عمرك نايم والنص التاني قاعد تشيش..

ضحك بصوت عال وطنين هاتفه يقطع استرسال الحديث مع ابن العم الكبير، قرأ مضمون الرسالة المقتضبة وعاد لهم بذات القسمات مشيرًا إلى هاتفه:

- صحيح بيقولوا قعدة الرجالة بمية ست بس أهي جات الست فتغور الرجالة..

لوح لهم بسلام قبل أن يغادر مجلسهم، ثلاثون دقيقة أخرى وكان "عبدالله" يتبع درب الرحيل بدوره، لم يكن الليل انتصف



بعد وهو يقف أمام باب الجدة باحثًا عن مفتاحه، عودته إلى هنا كانت حتمية قبيل عودتها، صوت الحفيف الآتي من ورائه دفع جسده ليستدير بدلًا من الولوج، وجدها تعتلي مقدمة الدرج بثلاث وحدات والسواد يشملها من من رأسها لأخمص قدميها الحافيتين، ذراعاها معقودان أمام صدرها في صرامة وبصرها مصوب عليه بقوة وغلظة، تواجهه بحروفها الثلاث، رغم الخفوف كانت ذا وقع مدوي:

- ليه..

تهبط درجتين، تتجمع العبرات في عينيها وتكتسب أحرفها المكررة حدة الانصال:

- ليه..

تنهي المسافة المتبقية بصراخ في وجهه:

- ليـــه!..

يواجهها باحتدام، بنبرة أقرب لزعيق:



- ليه إيه يا ندى!..

تلاقيه بصياح وانهيار باكي وقهر الأحرف يزاحم حلقومها حتى كاد يمزقه:

- ليه يموت عشان تعيش..

يتعثر الصياح مع بحة نبرتها ويدها تتخبط في إشارة باتجاه البوابة، محل اغتياله:

- عبدالرحمن معملش حاجة عشان يحصل فيه كده!..

الرجفة من نصيبه هذه المرة، غصة الحروف كانت بحلقه رغم السكوت، أشاح بوجهه جانبًا، ينهي صراع أعين كان فيه المهزوم والمذنب، مالت تراقب ملامح هذا زائغ البصر، مشتتت الحس، تجبره على متابعة اللقاء، تغوص بالنظر بين جفنيه، تجبره أن يخضع لهذيانها، أن يشاركها الوجيعة كما أختار..

- إنتَ أكتر حد أناني أنا قابلته..



ابتلع اتهامها المسنن حتى تهشم أسفل صرير ضروسه المطبقة فوق بعضها البعض، تركها تفرغ وجيعتها في وجهه، منحها البراح لتمضي بوعيها و إفاقتها لربما تبرد نيرانها المتقدة..

- قلتوا ربنا بيحبه طيب و أنا؟..

تهطل عبراتها مدرارًا وكلماتها تأخذ مسارًا آخرًا تضاعف فيه الألم وتدفق دفعة واحدة..

"ندى.."

يمني نفسه بنداء أبيها و اقترابه لكنها تسابق وصوله بقهر جديد سكبته كل جوارحها وقبضتاها تضربان صدره بقوة خائرة:

- ما أنا كمان بحبه..

منع سقوط جسدها بكفيه الممسكين بكوعيها، يعينها بشبه وقوف استلمه أبوها بوجه نعس يغلب عليه الأرق، يأخذ بجسدها المتعب إليه بعناق، وهذيان خاله نشيج علت وتيرته حتى بات أقرب لأنين مسموع يعبر من فوق كتف أبيها ليصله:



- حرمتوني منه ليه حرام عليكم..

طوق الأب جسدها المتعب بكلا ذراعيه، يمسح عن رأسها ويهمس لها بأحرف لا تصل الجامد في محله لكنها تزيد من وطأة أنينها و أنفاسها تتقطع بوهن ومشقة:

- شيل الوجع اللي جو ايا يا بابا..

يشدد أبوها على ضمها، يتمنى فقط لو يستطيع حمل كل هذا العذاب المتفجر، يحتوي نشوة الألم حتى تهدأ قليلًا فيصعد بها ويغيبان بصورتهما من أمامه..

يعود إلى مفتاحه العالق بمزلاج الباب، تعلق يده هناك ولا تتحرك، يبقى جامدًا لحين ثم يسحبه ببطء ويستدير بصعود، يقلب المفتاح الخاص بداروالديه على جنبيه في تثاقل قبل أن يدسه بالمزلاج فيدار بفتح، يدلف وينتهي حفيف الخطى الهادىء أما باب حجرته، تسكن يده المقبض مطولا قبل أن تو اتيه الشجاعة فيديره، لا يحتاج لكبس الضوء، اضاءة ممر



الردهة تنسكب بقوة حتى استنارت الجدران المهجورة منذ ما يقارب العام، لم تكن تحوي الغرفة فراشين يتوسطهم مكتب خشبي مع خزانة ألبسه ومشجب يجاورها وحسب، كانت تحوي عمرًا كاملًا له ولنصفه الغائب، كانت مرتعًا للأخوة عبر محطات الحياة..

- إنتَ هنا ياحبيبي..

نبرة أمه الزاحفة إليه بدفء تكسر الصمت والعتم..

لا يتحدث..

يلقي بحاله بين ذراعيها وحسب.



ضجة حياة تخفي خواء ميت..

على أطراف المدينة، توقف بالسيارة أمام فيلا سورها الخلاء، يعيد قراءة الرسالة الواردة إلى هاتفه متأكدًا من تفاصيل العنوان، رسالة مقتضبة تفاصيلها غضب جاءت من أبيها عن



مكانها الحالي، يخضعها للمراقبة الخاصة حتى لا تصل الأمور إلى أعتاب الشرطة كما المرة السابقة..

أحكم إغلاق السيارة والضجيج المنبعث يقوده وسط الخلاء دون حاجة لدليل، يقتحم المكان بلا تردد، موسيقى صاخبة ترتج لصداها الجدارن، أعداد من الأجساد البشرية تتقافز في سعادة ضالة، آخرون في حالة سكر وغياب بأجساد خاملة ملقاة بتمدد فوق المقاعد والآرائك، شاب وفتاة يتوسطون الدرج الحلزوني القابع بالمنتصف في تبادل حار لقبلات الشفاه، وطأ بصره كل هذا في طريقه الباحث عنها قبل أن تتصادم معه إحداهن بنصف وعي أسقطت على جانبه نصف شرابها، نفض يده الملطخة بالسائل في تقزز أعربت عنها ملامحه، انتهى بحثه حين وجدها داخل الحديقة تتقافز برقص مهتاج أمام شاب طويل القامة يماثل عمرها على مايبدو، يشاركها الرقص بمجون ويداه تروح وتجيء فوق خاصرتها المتمايلة، تقلصت المسافة تحت وقع خطاه الواسعة، جذبها من ذراعها في حدة



ثار لأجلها الشاب المخمور ممسكًا بتلابيبه، أسقطه عنه بلكمة واحدة استدار بها في عقبها، ترى الشر منبعثًا من بين عينيه ولا ينظرها، يسوقها من خلفه بقبضة لفها حول ذراعها بقساوة، لا يأبه لتعثرها من ورائه ولا صياحها الغاضب، خرمشة أظافرها تصنع خطوطًا فوق ساعده بينما تحاول جاهدة فك قيده ولا تفلح، تبوء كل المحاولات بالفشل ويتخافت الضجيج مع اقترابهم من السيارة، دفع بجسدها النحيل حتى اصطدم مع الهيكل الحديدي، اعتدلت بعناد وصراخ ملأ وجهه:

- مالكش دعوة بيّ، أنا حــرة..

والجواب أتى بصفعة!..

لطمة ضربت وجنتها بقوة في صمت غاضب تنضح به جوارحه، فتح باب السيارة دافعًا بها مرة واحدة فوق المقعد قبل أن يأخذ مكانه خلف المقود، هدير أنفاسه الحارة كانت وحدها المتحدث.. توجست حين خالف طريق بيته ثم تحول توجسها



لصدمة جلية نقشت بين جفنيها مع التوقف أمام منزل أبيها، أوقف العربة بغتة فتأرجح جسدها بقوة، استدار قابضًا على فكها بحركة عنيفة ويده تدير وجهها إلى المرآة الجانبية، يجبرها على رؤية حالها:

- شايفة؟..

أردف بقسوة صريحة:

- أنتِ كده عشان عايزه تبقي كده..

لا ينتظر منها أية فعل، قفز خارج العربة يدور ناحيتها، يسحبها خارجًا مناقضًا فعله قبل حين، قبض على ذراعها بألم صافعًا إياها بحرارة أنفاس:

- ده مكانك الصح..

دفع بها ناحية البوابة وهي على حالها مبهوتة، لا تواكب قوله وفعل يديه:



- روحي لأبوكِ، خلصي حسابك معاه، من اللحظة دي أنا بره دايرتكم القذرة..

يولي الدبرويدق الأرض بوقع أقدام، قبل ابتعاد تلحقه، تجذب قميصه وساعد يده، تجبره على التفات، على رؤية ذعرها الغير مهندم:

- مش هرجع لعدنان، مش عايزه أعيش معاه!..

يخلص حاله بفظاظة فعل و ابتعاد بمقدار:

- و أنا مش مجبر أتحمل قرفك ده كل يوم، حتى فلوس أبوكِ مش عايزها..

تومض كل الذكريات السيئة برأسها، ترى الجحيم بعينه خلف البو ابة الحديدة و أبوها سيده، تهرب من هذا كله إليه، بتشبث جديد وخضوع ذليل:

- هعمل اللي تقول عليه..



يقبض على ذقنها لتقابله رغمًا عن أنفها، يمليها شرطه الأول والأخير:

- مفيش بودرة تاني، تتعالجي وتبقي بني آدمة..

تتذكر أنها خاضت الأمر لمرتين رغمًا عنها تحت إشراف طبي وتحت أمر أبيها، وتظن لأجل الأخير هذا فشلت في كليهما..

- مش سهل..

- دي مشكلتك، قدامك خيارين وخمس دقايق..

نفض وجهها في خشونة عائدًا إلى مقعده قاذفًا بحاله داخل السيارة تاركًا إياها بالمنتصف تحدد مصيرها..

بين ضياع ومجهول.



تقلقل في ثوب السكون..

مؤخرًا..



كلما زاد حجم بطنها تضاعفت الأفكار التي تراودها، يستحوذ على ثلاث أرباعها وحده، تتزاحم شئون الأهل والطفلة المرتقبة وعملها الذي تشتاق ممارسته في الجزء المتبقي..

تملأها الشفقة وتلين معه لأجل ما مر به مؤخرًا من سوء لكنها توقف تدفق مشاعرها لأنه أصبح مراوغًا يخل باتفاقهما المسبق بالانتظار، لا ترغب في سؤاله المهتم، ولا حنو النبرة في الأحاديث، نظراته الملاحقة لها على الدوام تضايقها، بل تبغضها لو أمكنها القول، كانت مرتاحة حينما كانا مجرد غريبين جمعهما سقف واحد..

زوجان على الورق يهتم كلٌ منهما بواجبات الطفلة المنتظرة وفقط، لا مكان لشيء آخر..

لا مكان لباقة زهورولا قُبلة!..

جاء صباحًا عاديًا، ظننته غادرإلى عمله كما المعتاد، لكن عقب ساعة كان يعود حاملًا بعض الأغراض وكعكة فريز مع باقة



زهور دفع بها إليها ثم مال برأسه مقبلًا وجنتها طويلًا مخبرًا إياها أن اليوم عطلة رسمية لأجل عيد منتصف الصيف والذي يعد مناسبة ذات أهمية وطقوس خاصة في بلاد السويد..

لا تميز طقوس العيد في الزهور أم القبلة!..

ثم تصيبها الدهشة في إقامة عيد خاص بالصيف..

تهتف بغرابة:

- الصيف!..

تستنكر الاحتفاء بهذا الفصل تحديدًا لكونها لا تفضله، لا يقتصر الأمر على هذا، يجلسها رغمًا عنها مقتحمًا مطبخها ومقررًا أنه سيقوم بتحضير الطعام المناسب لليوم بنفسه وأن هذا الطقس تحديدًا يعده مفاجئة..

المنحنى الذي يتخذه يبلور الصورة في شكل أكثر حميمية وقرب..

وهذا تحديدًا ما تخافه..



أن تزل قدمها في الدرب الخاطىء..

- السفرة جاهزة..

سمك الرنجة المخلل كان الطبق الرئيسي، إلى جانبه البطاطا المسلوقة إضافة للمقبلات الأخرى..

- بالنسبة لعصير الكيوي بالموزده تجويد مني عادي..

امرأة تجيد الكتمان مثلها لن يصعب عليها إخفاء التأثربوصلة الدلال الخاصة التي راح يبتدعها اليوم بلا مقدمات، من حيث لا تدري طفت كلماته القديمة لتقابل جديده..

"جوازنا كان غلطة.."

تفكر الآن؛ الإنتظاروتأجيل الأحاديث لم يكن سوى عذابًا مقننًا لها..



تفكر؛ أنها ليست ضمن النسوة التي تمرر عراقيل الحياة دون تصفية حسابات ووضع كل صغيرة في نصابها الصحيح وعليه أن يعي ذلك فلا يهدر وقته..

- عبلة اتطلقت..

رمت الخبر الذي عرفت بأمره صباح الأمس بلا تفكير، ربما هذا الأمر الذي لفظه باطن عقلها عنوة هو من يتركها مضطربة، كدرة النفس وعكرة المزاج..

لا تعلم سببًا لقولها وهي التي ترفض خوض الحديث لكنها أرادت رؤية وجهه حين يعرف، لكنه فاجئها، أدهشها بحق تمريره للإجابة العادية شديدة الاقتضاب:

- كويس..

تزوي ما بين حاجبيها، تنظره في غرابة:

- كويس؟..



يوضح بعملية مغيظة:

- من خلال كلامك مع والدتك اللي كالعادة بيوصل من غير أدنى مجهود عرفت إنه شخص سيء، فأكيد كويس إنها بعدت عنه..

لا تعلم لِمَ سخرت وتلك ليست بعادة تملكها:

- بس هو ده كلامك؟..

نفى بهدوء غير منجرف لغضبها البادي بهزة رأس صغيرة:

- لا الحقيقة في كلام كتير بس أنتِ رافضة نتكلم قبل ولادة ميلا..

ثلاث أحرف نطقها بهدوئه المغيظ ذاك خلف لدنها صريرًا، عادت بالأحرف للوراء وعيناها تضيقان عليه بالنظر والشرر:

- معلش مين قال إن هنسميها ميلا؟..

- أنا قررت..

نهضت بعنف وهتاف صارم:



- على جثتي الاسم البايخ ده..

تلحف بصبر أيوب عاقدًا ساعديه فوق صدره في تلميح صريح منه لإفسادها شهيته:

- قولي طيب عايزه تسميها إيه..

تلعثمت في انفعالها الطاغي وجهلها لكونها ببساطة لم تحدد بعد:

- معرفش ممكن خديجة، فريدة!..

تبسم لها في حبور:

- بس أنا متأكد أما تعرفي معنى ميلا هتحبيه..

صاحت فيه بغضب صادق انتفخت معه أوداجها:

- إنتَ قاصد تضايقني صح؟..

نهض عن المائدة يقابلها بجدية سبغ بها قوله:



- أنتِ اللي متضايقة من الصبح، كل ده عشان جبت لك ورد وبوستك على خدك أمال لو حضنتك زي دلوقتي..

مع إنتهاء كلماته وجدت حالها بين ذراعيه، ضمته بعثرت كل أفكارها وتركتها تائهة للحظات عادت بعدها باتزان، تخلص حالها وتنسل من بين يديه بهمس خفيض:

- لو سمحت يا ناصف..

لا يفلت يدها، يبقيها رهينة أصابعه للحظات وهو يتوسلها لأول مرة في التوقف والحد من هذا الجفاء:

- لو سمحتِ أنتِ يا دهب، كفاية بجد..

تهديه عتب العالم في نظرة وهمس:

- قصاد اللي عملته وقولته مش كفاية..

تفلح هذه المرة في الإفلات، الماء الدافئ ساعد جسدها المتشنج على الاسترخاء، شعرت بحالها أفضل بعد هذا الحمام، نحت



كل الأفكار و أفرغت رأسها بينما تستقبل قبلة الصلاة مؤدية فرضها الأخير، في الركعة الثالثة بدأت تواتيها انقباضات مؤلمة أسفل الظهروالبطن، مع تدفق السائل الدافيء من بين فخذيها أيقنت أنه المخاض..

تهدأ من روعها بنفسها وتمضي في استعدادتها، حقيبة الطفلة المعدة مسبقًا تنتقل إلى جانب الباب، تعود الانقباضات فتتنفس بعمق حتى تمر، من بين الإضاءة الشاحبة تتطلع إلى "ناصف" النائم، تستقبله الأريكة لأنها تحتل الغرفة الوحيدة بالبيت، تتنهد بإنهاك من هذا الوضع ومن ألم المخاض مقررة أنه مازال باكرًا على إيقاظه، تعود إلى غرفتها تجهز ملبسها فوق الفراش، قبل أن تنتهي تحتلها نوبة تقلصات جديدة أكثر ألمًا عن سابقتها، تترك عن يدها وتنصاع بإنحناء و أنين صامت، ترحل آلامها بسلام فتتنفس براحة لا تطول، يسوء الوضع أكثر بذهابها المتكرر إلى دورة المياه، وحتى تصل إليها يتوجب عليها المرور بمنتصف الردهة التي يحتلها النائم، في عودتها الثالثة



شعر بظلها المتأرجح يمر عليه، افترق جفناه على طيفها المار بسؤال فيه بداية إفاقة:

- في إيه؟..

تحرك رأسها بلا معنى وتمضي فيعتدل عن رقوده وبصره يتبع انكماش قسماتها ويدها الداعمة لأسفل الظهر بسؤال خمن إجابته:

- حاسه بأيه؟..

ترتكز بكفيها فوق مقعد المائدة و انقباضات جديدة تهاجمها بضراوة:

- بولد..

يرفس الشرشف عنه لينتهي باعتدال تام وهتاف غير مصدق لحالها الماثل أمامه والكلمات العادية حد الفتور حد عدم التصديق:



- ده تهريج صح؟..

- ودي حاجة فيها هزار؟..

تئد استنكاره بجدية فيمر من جانبها بقول مسموع ملأه العجب:

- أنتِ لوحدك عايزه كتالوج..

تتعثر خطاه مابين إفاقة تامة داخل دورة المياه مرورًا بتغيير ملابسه لأخرى مناسبة وختامًا بمراجعة الأوراق المطلوبة، توقف تعجله والتخبط:

- ممكن تهدأ؟ أولًا لسه بدري، قدامي مش أقل من تلات ساعات، ثانيًا اتفضل كمل نومك وأنا هصحيك أما يجي الوقت..

يتوقف بالفعل قبيلها، يرمقها لحين ثم يغمغم بطريقتها في جدية تامة:



- أنتِ مجنونة رسمي ده أولًا، ثانيًا هننزل المستشفى حالًا..

عارضت أمره بشدة وتعنت:

- أنا دكتورة وبقولك لسه بدري!..

تعاودها الآلام فلا تجد غير يديه قريبتين ترتكز عليها وقبل أن تمضي ثواني المخاض يحدثها بمداهنة مظهرًا تفهمه الكبير:

- طيب ممكن نجهز بحيث نكون مستعدين؟..

يكونا على أرض محايدة فلا تجد متسعًا لقول آخر، تمنحه الموافقة بهزة رأس فيدنو منها سائلًا برفق والخوف يجوب بين عينيها في تسارع رغم إضماره:

- تسمحي لي أساعدك؟..

تسير بمساعدته على مهل لكن بلسان معاند ووجه معقود:

- لأ عشان مجنونة..



يضحك بخفة بينما يجلسها على حافة الفراش مصلحًا ما أفسده:

- مجنونة بس طيبة والله..

يعاونها أولًا في خلع ملابس النوم:

- دهب..

تجيب بهدوء وإذعان من خلف النسيج:

- نعم..

تبرز رأسها فيخبرها في الحال:

- عندك ثبات انفعالي يُدرس..

تتبسم بوهن وبصرها يتبع حركة أصابعه الماضية في قفل أزرار ثوبها الفضفاض:

- ناصف..

- نعم..



تتوقف عن الحديث وتتطابق أجفانها في تأوه خفيض، يدًا ناشبه في ساعده وأخرى في الفراش من تحتها، يمر الألم فتخرج أنفاسها رويدًا رويدًا والكلمات تستكمل المنقوص:

- ماما هترن عليَّ كمان شوية أما تلاحظ إني اتأخرت مكلمتهاش، هتقولها إني نايمة وأما أولد تطمنها، ماشي؟..

- حاضر..

يعيد هندمة خصلاتها بيديه، يتعثر قليلًا مع لف المطاط لكن لا يمل المحاولة:

- دهب..

- هممم

- الجواز منك أحلى غلطة عملتها في حياتي..

تقاوم تهدج صوتها فتخيب وقد أنهت أمر الحجاب بإتمام:

- ناصف..



- معاكِ والله..

- أنا هموت وأعيط بجد..

- ومحرجة مني؟..

- لا خايفة ومخضوضة..

ساعدها لتنهض على مهل مفسرًا لها تقلب مشاعرها:

- أظن ده شعوركل أم..

توقفت محلها فطاوعها، همست بسؤال خلفه ترقب كبير:

- تفتكرهكون أم كويسة؟..

- أنتِ اتخلقتِ عشان تكوني أم عظيمة..

تمتزج مشاعرها فتضحك وتبكي في آن وتصرح بحاجة:

- ياريت ماما كانت معايا..

- أنا معاكِ..



داخل حجرة الولادة ينقلب هدوئها لثورة وهي تراه مبدلًا ملابسه لأخرى خاصة بالأطباء وقد قرر حضور لحظاتها الحاسمة من تلقاء نفسه، تصر فوق أسنانها كاتمة علو النبرة:

- اخرج لو سمحت، مش محتاجة حد معايا..

يقطع حديثه مع الطبيبة عائدًا إليها بالتفات حانق إثر ثرثرتها الغير منتهية:

- يا ستي أنا حابب أكون جنبك..

تنفخ بضجر مغتاظ:

- وبعدين بقى..

يترك الطبيبة ويعود إليها، يدنو من استلقائها ضامًا بيدها داخل راحته، متشبثا بهدوء محال:

- ممكن تركزي في اللي أنتِ فيه وبس..



- طول ما إنتَ و اقف مش هعرف أركز!..

- معلش حاولي..

تتدخل الطبيبة مقاطعة علو النبرات في توجس بلكنة محلية:

- عفوًا؛ هل تصرخ على زوجتك يا دكتور؟..

يبالغ في استنكاره بتغضن جبين:

- بالطبع لا! هذا نوع من التقاليد الشرقية مرتبط بلحظات الولادة، و أنا كنت أغازل زوجتي..

- حقًا؟! هذا غريب، على كل حال يفضل أن تبقى أصواتكم هادئة..

تململت بضجر كبير والكلمات الغير مفهومة تضاعف من توترها:

- بتبرطم تقول إيه دي كمان!..

يلتف لها بوجه باسم يواري خلفه خباثة:



- بتقول زوجتك هتكون أم جميلة و إنتَ محظوظ بيها..

يزيغ بصرها باتجاه السقف في تنهيدة كبيرة وهمس مشحون:

- يارب نخلص..

تمر اللحظات التالية بعسر، مع صرخات الحياة يحل السلام، حملها بين ذراعيه برهبة، صغيرة للغاية، تعارك الفراغ بأطرافها الهشة داخل لفافتها المبعثرة، اقترب قابضًا على لهفتها، يلصقها بحضنها دون أن تغادر ذراعيه فتتأوه ليس ألمًا هذه المرة، بل بأمومية مصحوبه بانبهار حتمته اللحظة، ذراعاها يضمانها معه وعيناها تسقط العبرات دون شعور، الأصابع الرقيقة تلامس وجهها أثناء تخبطها وصياحها الذي غمر المكان، لا يواتيها لسانها القدرة على حراك بحالتها المزرية تلك، كانت تبكي ضاحكة، تضم على شفتها السفلى بأسنانها ومشاعر الخيال التي سكنتها طويلًا تخبو أمام لحظة الحس الملموس، سمعته يترجم ما يجول في خاطرها بهمس قريب:



- معجزة..

تؤيده بهزة رأس فيها إيجاب غير منطوق تردد في إثره ضحكته الخافتة قبل أن يميل بجبهته فوق خاصتها والصغيرة بينهما تملأ الفراغ:

- أهو ده معنى ميلا.



(33)

دروب النجاة أولها قبول..

قبول الألم..

الذكرى..

قبول الحياة في ثوبها الجديد المغاير لكل ماكنت تتمنى يومًا..

وهل نملك حيلة غير التصالح مع القدر؟..

غير الإذعان للإرادة العليا والتسليم التام لكل المقادير المكتوبة..

تلملم بقاياه الباقية في صمت خفي، الضحكة التي كانت مبعثًا لكل حياة، النظرة سراج التيه والكلمة درب الطمأنينة..



تحفظهم في قرار مكين وتلعقهم ذاكرتها في كل خلوة، تفعل هذا سرًا لأن خيط الحزن لا ينتهي ولأنها تشعر بحالها ثقيلة كثقل الأيام..

تصادق الصمت ليس لأنه الأفضل بل لأن أحرفها أبهتها التكرار، ولكونها تشعر أن الجميع يفهما ولا يفعلون في آن..

الحياة قاسية..

عليها القبول بهذا والمرور فوق كل ماكان، يفترض بها التصديق أن المتلقى والعيش في الآخرة..

الجميع يتكلم عن القبول، الرضا والمضي، لكن لا يقولون كيف!..

كيف تعود كما يرددون ويريدون..

كيف تفعلها من دونه!..

- جاهزة يا ندى؟..



صوت أبيها يخترق أفكارها فتتضاءل وتتلاشى وهي تنظر الأريكة العريضة لمرة أخيرة، تخبيء ذكرى صورته في الواحدة صباحًا جوار والديه داخل ألبسة النوم مابين تثاؤوب وتضاحك ينظرونه كيف تخشاه الجدية والتوتر في طلبها للزواج متوسلًا أبوها القبول مزيحًا من طريقه ابن الخالة الذي سبق وجهر بذات المطلب قبل سويعات..

تبتلع الذكرى والعبرة بطرفة أجفان واستدارة، هزة رأس هادئة وضعت فيها الإيجاب قبل أن تمضي برأس منكس وخطى وئيدة عابرة باب البيت، تنزل الدرجات بذهن غائب لا يصله حديث أبيها عبر الهاتف، عند مقدمة الدرج ينهي أبوها اتصاله ويظهر هو عائدًا من عمله الذي راح يعتاده..

- كويس إنك هنا يا عبدالله، ندى عندها جلسة كمان ساعة وطلع لي مشوار مهم، تقدر توصلها؟..

- أكيد طبعًا..



لا تدرك أنها اعتنقت الصمت لهذا الحد الكبير إلا عندما ينهي أبوها كلماته بقبول الآخر ثم يده التي أشار بها حاثًا إياها على التقدم، عادت لعيني أبيها بحدقتين سكنتهما هزة طفيفة جوار همس خافت:

- مش مشكلة ممكن نأجل الجلسة..

ولأنه لا يعلو فوق عافيتها أمر يغمغم في جدية صارمة وجل غايته سلامها:

- لو مش هتروحي مع عبدالله هلغي مشواري ويولع الشغل..

لا تمضي لأجل الوعود الكثيرة التي قطعتها لوالدها باستكمال مشوار العلاج حتى آخره وحسب، بل لأن الحديث مع طبيبتها يريحها، ترى من جانبها تفهمًا كبيرًا فلا تتكبد عناء الشرح، لا تستحي من عبراتها الثقيلة التي تتسقط مرة بعد مرة تحت ناظريها، كثيرًا ما تعبر لها الطبيبة عما يدور داخلها بكل سهولة ويسر في الوقت الذي تعجز هي عن فعل ذلك، بشكل ما كانت



تفكك ذلك التعقيد الكبير المتشابك بداخلها فتمضي من عندها وهي أكثر خفة وهدوء بمعناه الحرفي لا المبالغ فيه لأجل مواراة ما يعاكسه.

خمسة وسبعون دقيقة مرت وهو جليس مقاعد الإنتظار ودقات عقارب الساعة، ساعداه معقودان فوق صدره، ذقنه وبصره ساقطان نحو الأسفل حتى جاء أزيز الباب المنفرج ليرفع برأسه صوبها، النظر إلى عينيها الذابلة، لا يتحدثان فقط يرحلان جنبًا إلى جنب يمضيان فوق الرصيف المحاذي لسور الكورنيش، قبل أن يقطعا المسافة الفاصلة لأخذ عربة الأجرة تتمسك أناملها بالسور ويدور جسدها صوب صفحة الماء الرقراق بنبرة شاحبة:

- خلينا شوية..



يداه في جيبي سرواله، عيناه صوب المارة وأضواء العربات المتزاحمة، طرف بصره يلتقطها خفية، مغمضة العينين أصابعها ترجف فوق الحديد قبل أن توقفها بانقباض..

يمنحها البراح الذي تريد، يفسح المجال لروح الراحل أن تجاورها، أن تضمها ويده تلاطف يدها فوق بقعة حفظت خطاهم من قبل، يدرك الحاضر بيقين تام أنها تعايش أقسى الفترات وأشدها، مرارة الوعي والعبور من بين جنبات الألم، الاعتياد القسري على الجزء المنقوص والتعود في المضي قدمًا من دونه، تلك اللحظات التي لا ينوب فيها أحد، عليك أن تنفذ من بين براثنها وحدك..

الصمت الذي تركه يسري قطعه صوت المزامير المنبعث فوق الجهة المقابلة للرصيف، زفة عروسين تتوقف، يصدح الصخب وتحدهم البهجة برفقة الأهل والأصحاب في فوضى سعادة، هنا لا يترك لها حرية تجرع الألم المؤذي مع تضخم اللام



والواو، يسحب يدها، يشد عليها بعزم ويمضي بها قسرًا فتسكن الغصة الحلق ولا تسقط على القلب المنتحب وتزيد عليه الويلات..

ظلت عيناه ترقب صعودها الصامت و أناملها من خلفها تحتك بحائط الدرج حتى تنتهي وينتهي بدوره مسطحًا على ظهره فوق الفراش، يداه أسفل رأسه المصوب في اتجاه السقف الأبيض، في هذا الليل الساكن يصعب عليه صرف صورتها من ذهنه، ليس جسدها وحده من يتشح بالسواد فالروح تسبقه، أكثر ما يؤلمه بحق نظرة عينيها التائهة على الدوام رغم التفاف الجميع من حولها ووضعها تحت مجهر الرعاية..

لم يكن قد وصل درب النعاس بعد حين أضاء هاتفه العتمة بومضات، استقبل اتصال عمه القلق باعتدال و أقدام باحثة عن الخف المستريح فوق الأرضية، يسأله الرجل في قلق أن



ينظرها إن كانت بصحبة أمه في هذا الوقت المتأخر ففراشها فارغ والكل نيام!..

صعد الدرج والخط موصول بينهما، لم يدخل دار أمه اكتفى بالصمت الصادر والضوء الأصفر الشاحب الذي قابله ما إن رفع رأسه نحو الأعلى ليعرف أين تكون، أكمل الصعود حتى انتهى عند مدخل سطح البناية، عاد إلى أبيها بهمس موجزينهي معه الاتصال بطمأنة وبصره يطوف حول جلوسها المنفرد بهالة صمت وعينين ترتفعان في عناق شديد مع قرص القمر المنير، جاور جلوسها دون قول، ترك ذبذبات الهواء تحط بأثقالها وعيناه ترتفع إلى الأعلى مثلها، لا ينظر القمر، بل انعكاس ضياءه فوق جانب وجهها، لم يتحرك فيها شيء وهمسها الخافت يعبر من وفوق كتفها ليصله:

- أما حد يوحشنا المفروض نعمل إيه؟..



تطرف أهدابه، يزيل حشرجة الحلق بتنحنح خافت وقول متباطىء، مثقل:

- ندعي له..

دارت له برأسها تنظره غير آبهه لتساقط العبرات وهي تسأله بفورة حنين تصيبها كل ليلة:

- واحشك؟..

يزيح الغصة برباطة جأش مهتزة:

- أكتر من أي حد..

بذات الحال:

- بتفتكره؟..

بذات الثقل:

- طول الوقت..



تعود برأسها إلى الأمام لبرهة، تستجمع أحرفها الصعيبة العصية من بين الشتات ثم تلتفت له من جديد بأكثر ما يؤرق ليلها وقلبها:

- هنعيش من غيره إزاي؟..

انزلاق الغصة هذه المرة كان أكثر عسرة حد أنها آلمت حلقه وثباته المزعوم يهتز بانفلات بان أثره عبر عينيه اللامعة أسفل الضياء:

- سؤالك الصعب بيجاوب نفسه..

تآوه مكتوم عبر جنباتها ورأسها المثقل يسقط فوق كتفها في نحيب نبت تحت أسماعه، يداهما الفكر فيتبعثر الدمع بينما تلتف إليه تسأله بحدقتين داميتين تتسعان بلهفة المستجدي وأحرفها تتخبط على غير هدى:

- إنتَ آخر حد كان معاه، قالك حاجة عني!..



يوليها جل انتباهه في تصبر غير منطوق، يصرف عنها آخر قوله، يستبدله بالتواء قول وجد فيه مبتغاها:

- عمرك ما كنتِ آخر لعبدالرحمن يا ندى..

تحتشد العبرات وتتساقط في مرارة ويداها تجتمع أمام صدرها في توسل أن يريح روحها المعذبة:

- هو حاسس بيَّ يا عبدالله صح؟..

تحتار يده أيهما تهدهد، رأسها المهتز بنواح أم مدامع عينها المنتحبة:

- قول أنه حاسس..

أناملها تطرد الدمعات بقسوة مزيلة غبش الرؤية قبل أن تسحب يده، تتشبث فيها بضم أصابعها العشر وعينيها الغائرة بدمعها ترجوه:

- عايزة أشوفه..



تغيب أحرفها مع رفض أبيها وتحط أمام تمخض قسماته في توسل:

- خدني ليه..

ظلت تكررها مرة بعد مرة بهمس أبح حتى وعدها أن يفعل.



يأتي النسيان باقتلاع جذور الأمس..

بالجهاد الطويل في إعلان القبول، المحاولات الحثيثة ليرَ الجميع كم أنت بخير، كم أنت راسخ في أرضك لا تهتز أمام رياح الشوق العابرة..

قناع خادع سقط عنه في لحظة خلوة ذاتية لم تتأثر بالصخب القائم، عرس صديق تزامن مع خبر أمومتها، عرف الخبر حين مر بدار العائلة نهار اليوم فأفسدت المعرفة بقيته..

وحده كان شاهدًا على كل الخيبات، الترقب والأمل ودفع المحاولات، كم مرة ارتمت فوق صدره تبكي أرض أمومتها



الجدباء، كم ليلة جبر الخاطر والألم وعندما زارها الغيث أينعت في أرض غيره!..

ربما يعي أنها بين ليلة وضحاها رحلت، تلاشت مثل نفخة دخان واتسعت بينهما المسافات حتى استحالت، لكن ما يعتمل فيه اليوم ليس شعورًا بالخسارة أو الندم، بل يشعر بشيء أكثر قساوة يتأصل فيه بعمق، يشعر أنه منهوب!..

أن كل ما كان يملأه منها ينتهي دفعة واحدة، كل الذكرى تضمر وتخبو مثل شيء فاسد منتهي الصلاحية.

شعورٌ باردٌ قاسٍ يأكل رأسه يتركه بذهن مشوش ومجهد، ترك الحفل في منتصفه وارتكن داخل سيارته خلف المقود، بين أصابعه محفظة نقوده مشرعة الجانبين، تلقي بظلالها فوق صورة فوتوغراف كانت يوما ضمن مراسيل الغرام، لقطة عتيقة بعمر الصبا، خصلاتها الحالكة تتجمع بكثافة غرة فوق جانبها الأيسر والابتسامة البشوش تتسع حد ظهور نواجذها



وملء وجهها، ببطء يقلب الصورة بين أنامله، يتوقف عند أحرف الحبر الأزرق المكتوبة بخط يدها فوق الخلفية البيضاء..

"إلى حبيبي عزيز..

احتفظ بي جوار قلبك"

ضحكة ساخرة ندت عن قسماته قبل أن يمتد ساعده فوق طارة القيادة، يمسح فيه عرق جبهته الناضح ويثوب بعدها بصره نحو الأمام متصادمًا مع الأضواء المبعثرة دون رؤية واضحة، يحاول صرف ذهنه عن إلحاح نواياه، تتغضن عيناه بمجاهدة لكنه ينهزم مع ضمة يده حول الهاتف المحمول، الرقم خاصتها الذي تحصل عليه سرًا من هاتف شقيقها دون هدف محدد، يبدو أنه تحدد الآن..

عقله يصرخ فيه لا تفعل..

إياك!..



لكن يده تجري الإتصال وترفع به إلى أذنه، يستحيل الهوس إلى صمت وترقب، حشرجة أنفاس ودقة نبض متسارع و..

"السلام عليكم.."

فتح فمه لكن تلعثمت الأحرف بلا نطق، أجفانه تعانق بعضها البعض بقوة وازت صرير أسنانه الضاغطة، هل يهديها بعضًا مما يعتمل فيه؟ هل يزف لها مباركة باردة تناسب حدثها السعيد؟ تزاحمت بحلقه الأقاويل دون فعل ونبرتها التي يحفظ تلاطف شغاف قلبه..

"الوو؟.."

بكاء رضيع يتصاعد رويدًا رويدًا ويمتزج بهدهدتها الحانية والمبتعدة تدريجيًا ثم ينقطع بينها الخط الموصول، يبقى حينًا على حاله المتغضن والضاغط حتى تهبط يده المرفوعة في تخاذل وقد ألبسته نبرتها ثوب الجمود.



جاءت العودة ليلتها متأخرة وقد انتصف الليل منذ ثلاث ساعات تخلص خلالهما من الجمود والانهزام كما تفعل الأفعى بجلدها..

أغلق الباب من خلفه بهدوء واستدار، سترة بذلته المعلقة في إصبعيه وملقاة فوق كتفه تهتز ببطء رافق خطاه الوئيدة والنظرات الباحثة، اهتدى البصر الحائر مع رؤية ضلفتي الشرفة مشرعتين على مصراعيهما ورؤيتها تفترش أرضيتها بجلوسٍ مرتاح، ساقاها ممددان من أمامها، رأسها مائل فوق الجدارمن خلفها وبين شفاها تضم لفافة تبغ..

قبل أيام..

حين وضعها على مفترق طرق وقذفت بحالها داخل سيارته دون قول أيقن أنها فضلته عن أبيها.

رمق الدخان المتصاعد عن كثب مع ارتكازكتفه وميل جسده فوق إطارالشرفة بينما الأعين تلتقي بلقاءٍ صامت تبدد عقب



لحظات مع انفراج فمها الساخر شاملةً إياه بنظرة أكثر استخفافًا:

- شكلك بيقول كنت بتتجوز..

افترت شفتاه عن تبسم وازى اعتداله، ميله، ثم جلوسه إلى جانبها فوق بلاط الأرضية المكشوف، بلا سابق قول سحب اللفافة الكامنة بين سبابتها والوسطى، جعلها تنتهي بين شفتيه في حركة رشيقة تبعها بشهيقٍ طويل معبقًا رئتيه وصدره، حرر أنفاسه ببطء وازى عودة رأسه إلى الخلف والتفاف رقبة انتهى به وجهًا لوجه معها وقول هادىء ناسب ليلة سمر:

- كنت في فرح واحد صاحبي..

تبدو للرائي إجابة نموذجية من رجل لامرأته إن لم نقترب ونرى تفاصيل الصورة كما كان يقترب في لحظته تلك ويغوص في رمادية حدقتيها بقوة سابرًا أغوارها في لحظة صمت، تيه يطل عبر نافذة عينيها، شحوب تام يسور وجهها ويلقي بظلاله أسفل



الجفنين، أما الخواء كان يسكنها من الداخل، كل عين مجردة يمكنها أن ترى هذا وكل أحداث الأيام الفائتة تتسابق كبراهين..

عادت تجذب سيجارتها بفظاظة، تدور برأسها بعيدًا تقطع الوصل مع عينيه التي عكست نظرة بدت كما لو أنه يكشف ستر روحها ويرى كل مساوئها المخبوءة..

طفقت تمج تبغها في انفعال مرةً بعد مرة قبل أن يقبض على معصمها بغتةً محتجزًا إياه داخل قبضته بقوة جحظت لها عينيها وارتفع صياحها الحانق:

- أنت مجنون!..

تحت أنظارها المحدقة دهس اللفافة فوق الأرضية العارية ثم عاد لها مطالعًا بشذرات غضب وبصره يمر فوق الطبق الصغير الحامل لبقايا المسحوق الأبيض الذي يدمن جسدها استنشاق نشوته ولا يقوى على هجرانه، أخبرها بكل صراحة ودون مواراة:



- دي أغبى طريقة ممكن تنتقمي بيها من حد بتكرهيه..

زمجرت بهياج دون حديث محاولةً تخليص يدها إلا أنه كان أكثر فطنةً عندما أسرع ممسكًا معصمها الآخر محكمًا تكبيل يديها معًا فوق صدرها في سيطرة تامة لم يستسلم لها جسدها بل ظل يدفع ويقاوم السقوط بكل ما أوتي من قوةٍ واهنة وصيحات مكتومة، صيحة أخيرة مغتاظة أطلقتها تعني عجزها أمام ضغط جسده الكبير نافثة أنفاسها المهتاجة فوق صفحة وجهه القريب وتبسمه المستفز الذي زال ما إن بدأ حديثه بجدية:

- فاكرة أما تأذي نفسك هيحس بيكِ أو يعيش بذنبك؟ اسمحي لي أكسر تفكيرك المتخلف ده و أقولك أنك كلك على بعضك مش فارقة معاه للدرجة..

دقق فيها النظر بشدة ثم تابع بنبرة أعمق:

- مفيش أب يعمل كده في بنته لو كانت تهمه، هو بس بيحاول يحافظ على اسمه ويخلق له مكانة وسط السلطة..



رفست ركبتها بطنه صارخة:

- بكرهه وبكرهك..

أوداجها تشتعل حرارةً، في عينيها التمع القهر قسرًا و أبصره قبل أن يصيح فيها بحدة مماثلة:

- وبتكرهي نفسك أكتر، عارفة ليه؟..

حاولت التملص بهياج جديد فأوقف تخبطها وجسده يضغطها أكثر بينه والأرضية الصلدة من تحتها بينما يده تحكم تكبيل يديها معا فوق رأسها، يحتجزها مانعًا عنها كل فكاك من سطوة حقيقة كلماته:

- عشان إنسانة ضعيفة، انهزامية، تحب تعيش دور الضحية وتبالغ فيه..

- حقير..

- بتكرهي نفسك عشان محتاجة له طول الوقت..



- حقير بجد..

- و أنتِ ضعيفة وجبانة..

صرخت:

- مش ضعيفة!..

هي فقط منبوذة من الجميع، من قلب أب أقرب لحجر صوان، من أمومة امرأة قررت الرحيل الأبدي وتركها وحيدة، من كل الحياة التي دفعتها لتكون إثمًا وخطيئةً حتى صنعت منها مسخًا في هيئة بشر..

ظلت تتلعثم وتهتز حدقتيها في تيه حتى خفف ثقله الضاغط بعض الشيء وخفتت نبرته وهو يحثها على الحديث:

- أمال أنتِ إيه..

همست في انهزام وعيناها الحائرتان تسكنان فوقه بوعي مشوش:



- مش عارفة..

ظلت تتأرجح النظرات والأنفاس اللاهثة في صمت مطبق حتى مال لاثمًا شفتيها بقوة عاكست كل الضعف الكامن بين يديه..

ابتعاد ضئيل أفسح المجال لأنفاسه السارية بدفء وأحروفه الخفيضة أن تعبروتلامس شفاها المرتعشة:

- هنعمل اتفاق..

صدرها يعلو ويهبط في لهاث، حدقتيها في حالة ترقب قبيل عيناه المحجوبة بظلال الحزن في تلك اللحظة:

- أساعدك تتعالجي وتساعديني أنساها..

تبادلا النظرات في حاجة وغوث قبل أن يعاود اقترابه الحميمي، اقتراب استقبلته بتطويق ذراعين ورغبة متعطشة جمعت بينهما حتى تمام الإرتواء.





عطية صبر..

هبة ربانية خرجت من رحم المواجع لتقطر بنداها فوق القلب العليل، تؤنس الروح وتطرد وحشتها..

انقلب مدار يومها وفقًا لحال الصغيرة، تغفو وتصحو بصحبتها، تظللها برعايتها وتتهجأ معها معاني الأمومة، ما يمثل محطة تذمر لدى سالف الأمهات يأتي معها بمعنى مغاير، تسعد بها في ليلة سهاد وسهر، أمورها الغير منتهية تجد فيها سلواها..

متوركة تتوسط بها منتصف الفراش، تلبسها ثيابها عقب حمام دافيء في حذر منتاهي مع عظامها الرقيقة، تهندم لفافتها وتنثر قبلاتها فوق قدميها وكفيها كلمسة أخيرة مستنشقة رائحتها بروحها، عندما تغفو الصغيرة تنهض في حركة رشيقة تعيد ترتيب الفوضى من حولها، تصاعد رنين الهاتف أوقف حركة يدها، تجمدت حركتها التالية مع رؤية الأرقام الغير مسجلة لكنها كانت يومًا تحفظها عن ظهر قلب..



"عزيز"

تهمس باسمه لحالها كأنما تؤكد ما ترى، لو فكرت في أمر اتصاله من قبل لكان التجاهل ردها الوحيد، لكن الآن وهي تقف مع حالها صاغرة، متفاجئة، استقبلت مكالمته في توجس وفضول خفيان أظهرت عكسهما بنبرة عادية:

- السلام عليكم..

حمل لها الصمت الممتد تشوش أنفاسه عبر الوسيط فتغضنت قسماتها ونبرتها تنخفض بقشعريرة باردة راحت تجوب سائر الجسد:

-الوو؟..

أنقذتها الصغيرة حين صدحت ببكاء فأبعدت الهاتف كالملدوغ، تهدهدها باقتراب ويدها تقطع الاتصال قبل أن تسقط الهاتف عنها، ضمتها إلى صدرها تلقمها ثديها و أنفاسها تلهث دون جهد، عرق بارد ينضج فوق جبينها تركها في حالة فوضى ظاهرة، لا



تترك ابنتها، بقيت محتفظة بها بين ذراعيها، تستمد منها الأمان لا العكس، تنال بها أكثر شيء صادق وحقيقي الوجود.

مع عودته المضبوطة تنكسر فقاعة العزلة، يقتحم خلوتها الخاصة فارضًا حاله في حياة الصغيرة، يحملها حتى لو نائمة، يروح ويجيء بها وإصبعه داخل راحتها المنمنمة تضم عليه بينما يحادثها مثلما يفعل البالغون، يغازلها مثل أنثى لم يخلق في مثل حُسنها بعد، في خباثة مفضوحة يتلذذ بإثارة حنق المراقبة في صمت وادعاء غير مهتم لكونه يقتطع لحاله جزءًا كبيرًا من حياة الصغيرة يكاد يوازي النصف وهي الأم الجائعة لنيلها كلها وحدها..

- كل يوم بلاقيها شبهي أكتر، سبحان الله..

ترد إغاظته المقصودة في الحال بنبرة باردة غير مكترثة باصطناع ويديها تعمل على طي ثيابها:

- مش قوي كده، هما العينين بس..



والصغيرة تملك عينين زرقاوين صورة طبق الأصل من أبيها وهذا التطابق يأخذ بقية الملامح إليه حتى لو أنكرت أمامه لكن بداخلها وبشهادة أمها الفتاة شبيهة أبيها وتحفها بالأذكار مع كل صباح ومساء داعية بحفظها من كل عين..

- ممكن تحطها مكانها عشان ماتتعودش أنها تتشال طول الوقت..

هي التي لا تكاد تترك حملها تتحدث عن التعود، من وقوفه يرمقها بنظرة مكاشفة لغيرتها، فتنهض عن جلوسها متأففة تحدثه حديثًا خاصًا بنبرة جادة وقسمات معقودة:

- هستناك بره عشان نتكلم..

انعقد حاجبيه يقطع استدارتها بجذبة ذراع وهمسه ينخفض حتى لا يفزع الصغيرة النائمة بأحضانه:

- في حد يخص حد كده..



نبرة المزاح لم تطابق النظرات المتبادلة عن ذات قرب مشحون بالجدية والتوتر:

- معلش مهم نتكلم..

كلاهما على يقين تام أن الأحرف بينهما بلا نقاط ووضعهما القائم في أشد الحاجة ليضبط موقعه من إعراب الحياة، لكن الحال يتبدل، ما كان يريده وتؤجله هي صار معكوسًا، تقرر التحادث الآن بينما منذ ليلة الولادة وهو يهرب من هذا الحديث مثل القدر المحتوم، يهرب من حقيقة عدمية التكافيء مع نو اياه ورغباته الواضحة دون أحاديث..

وضع الصغيرة في مهدها برفق ثم تبعها إلى طاولة الطعام المربعة، تجلس وذراعاها ممددان من أمامها، تحيط بها هالة جدية صارمة بينما يطوف بين عينيها قبس من ماضٍ، جلس قبيلها مغالبًا قلق مستبد بتبسم لطيف خصها به ما أن التقيا النظر..



أشاحت ببصرها جانبًا لثوانٍ عادت بعدها باستهلال هام ويدها تنبسط فوق سطح المائدة فيما كانت عيناها تلاقي خاصته بثبات:

- كلامنا ده هيترتب عليه حاجات كتير، بس قبل ما نبدأ لازم نتفق إن ميلا مش طرف فيه، وضعنا مختلف عن أي اتنين الولاد بينهم محل صلح أو خلاف..

أومأ لها برأسه في بطء وإيضاح لما تخبئه كلماتها من حقيقة مقصد:

- قصدك مقولش نكمل عشان ميلا، مفهوم..

توافق استنباطه بهزة رأس وتنهيدة هرب فيها بصرها نحو الأسفل، متاريس الماضي صدأه، لكنها مجبورة على فتحها ومواجهة حقيقة ما تحجب وراءها، تزيل أتربة الصمت المتراكمة على مد شهور وتبتدئ حديثهما المؤجل من منتصف العقدة:



- وصلت مع عبلة لحد فين؟..

- لحد أهلي..

إجابة شافية، واضحة مثل سطوع شمس الظهيرة، حارقة نعم لكنها أفضل من ألف ظل خادع، تمتمت في إثرها بخفوت:

- يعني حبيتها..

تخبو نبرته بالمثل لكن يبقى فوق درب المصارحة ثابتًا، الوضع المختل بحاجة إلى اتزان:

- طبيعي وإلا مكنتش خدتها من ايدها عشان أعرفها على أقرب الناس ليا..

تعصف في دواخلها ريح خريف مغبرة:

- وبعدين..

يدنو بعينين ثاقبتين، يقوم ميل فكرها الخاطىء بتصحيح:

- وبعدين إيه؟..



تتجمع قسماتها في غضب تنطق به بلا مقدمات، يدها تمتد إليه في إشارة ومنه إلى الفراغ باتهام متخبط:

- إزاي قدرت ترتبط بيَّ وإنتَ جواك مشاعر لواحدة تانية، ومش أي واحدة، لا دي بنت عمي اللي عايشة معايا في نفس البيت!..

يوقف الانحدار العنيف بقول جهور:

- كان جوايا..

تستجوبه بنبرة أهدأ لكن ليس أقل حدة وغضب:

- وراحت فين؟..

- معرفش..

- جاوبني!..

يشرد كفه إلى جانبه بجهل منفعل، صدق النظر والكلمات ترسخ بعقلها:



- صدقيني معرفش، في الأول اتحولت لطاقة كره رهيبة، أكبر من إني أتحملها، بعدين بقت احساس مزعج يزورني من وقت للتاني، بعدها كل حاجة بهتت و اتحولت لشيء مالوش معنى..

هدنة صمت وقعت فسكتا، المنطقة الو اقفان عليها تنبض بالألم لأنها تمس كينونتها كامراة، تمس كرامتها وهي الأبية المترفعة عن كل زلل، فندت أمامه أسوأ الاحتمالات الواردة في حكاية خاطئة المعنى والجوهر:

- طيب افرض المشاعر دي رجعت تفرض نفسها، إيه موقفك وقتها؟..

يسخر من قولها هذا، يسخر بشدة ويضرب كل أفكارها بمقتل الو اقع والمصارحة:

- عبلة كانت متجوزه أبويا يادهب، مستوعبة كلامي؟ يكفي أفتكر ده عشان تتنسف فكرة أي مشاعر من جدورها..



هنا لا يمس الكرامة والمرأة فيها بل يمس شيءٌ أعظم يخص عائلتها أجمع، جانب معتم لا يعلم عنه غير القليل، مخبوء أسفل رداء الستر، لا تبغي سيرًا في دربه بل تترفع عن القرب منه، الخوض فيه إثم وخطيئة لن تقربها معه أبدًا، بل ستعمل على ضمان ستره مادامت حية ترزق..

تمتمت بقول هادىء، حركت الدفة حيث الوجهة الضائعان في شأنها:

- جزء عبلة مش موضوعنا أنا بتكلم في مشكلتي معاك..

يعارض نهجها:

- مفيش مشكلة بيننا..

- لا فيه!..

تصده بعناد حاد مردفة بذات الانفعال الصادح من جديد في ثوب إتهام لا تكف عن إلباسه إياه:



- إنتَ ماكنتش صادق في كلامك ونيتك معايا..

تضطرب الكلمات وتهرب منها:

- إنتَ.. إنتَ..

تقبض على لجامها بصدق شعور متأصل فيها حد تشعب جذوره:

- حطيتني في نقطة اختيار بين كرامتي وأمومتي في وقت أنا وأهلي مدبوحين فيه، بلعت الإهانة عشان ماكنتش في وضع يسمح بتفكير وأخد قرارات، اتحرمت من حقي في الغضب في الوقت المناسب ودلوقتي كل كلامي ده مالوش أي معنى بس مضطرة أقوله عشان طول ماهو محبوس جوايا بيأذيني..

لم تشعر ببلل وجنتيها إلا عندما انتهت وعيناه تتبع خط سيرهم، عاد إلى عينيها مقرًا بذنبه الذي تقصد دون قول، فقط يحثها على استخراج كل ما يعتمل فيها:

- اتكلمي، محتاج أسمعك..



قطعت عبراتها محاولة برباطة جأش إلا أن اهتزاز النبرة غلبها بحماقة:

- أنا وعبلة مابنتكلمش من يوم الجنازة، مش قادرة افكر يوم مانتقابل هيكون شعورنا إيه وفي ايدي بنتك..

تضيق أنفاسها فتسحب شهيقًا قبل أن تتابع وصلتها:

- بسببك كل حاجة تداخلت في بعضها، أنا مع الراجل اللي بتحبه بنت عمي، ومهما كان مصير مشاعركم دي مش هنقدر ننفي وجودها..

لا يقطع تدفق الكلمات، يصمت منصتًا متقبلًا كل الكلمات وكله يقين أنها تملك الحق في ذلك، تملك حق العتاب والنظر إليه بلوم العالم بل وتصيغه في سؤال:

- فكرت في موقفنا لحظة ما نتقابل كلنا؟..

جذعه يميل نحو ميلها فوق المائدة بقرب ومواجهة، يرد تساؤلها بجواب:



- قسوة منك تنتظري من حد مالقاش مسحة تقدير أو احترام لشخصه وكرامته أنه يفكر ويقدر، يمكن صراحتي تضايقك بس عبلة مش فارقة معايا للدرجة اللي تخليني أشغل بالي بلحظة مقابلتها وشعورها وقتها، لكن الموقف المحرج ككل يفرق لدرجة تخليني أتجنبه من الأساس..

تقاوم غصة مرة تسكن حلقها ببصر هارب عن لقياه:

- أنا دماغي ملغبطة ومش عارفة أفكر، وضعنا فيه حاجة مش مظبوطة، في حاجة معكرة الصورة ومهما حاولنا ننضفها مش هنعرف عشان الحاجة دي محفورة في أساسها وتفاصيلها..

رفعت بصرها تقابله بقولها:

- أظن القرار الصح حاليًا هو نزولي مصر..

يضم على كفها المستريح أمامها بيده:

- ممكن تهدي وتسمعيني..



تحاول سحب يدها لكنه يوقفها بتشبث وهمس حان:

- خليها..

يتبع أثر اللمسة بالكلمة والطلب الصريح:

- دهب أنا عايزك، عايز بنتي تتربى وسطنا..

تغيب نظراتها خلف حجب كثيفة فتضيع بحيرة أكبر:

- عايزك دي وراها قرار غربة وبعد عن أقرب الناس ليا..

كفه المحيط يبعث بإبهامه إلى رسغها في حركة غزل وملاطفة وتقديم وعود ذات نوايا واضحة:

- مش هتحسي بالغربة دي لو سمحتي أكون ضمن الأقرب ليكي..

تعلق بأمر آخر:

- وراها قبول بوضع لو كنت ملكتني الاختيار فيه كنت مستحيل أقبله على نفسي..



ينفي برأسه مستسلمًا بعينيه لتبعات القدر:

- ولا أنا كنت أقبل صدقيني، بس أما أفتكر إن الطريق ده وصلني ليكِ ولبنتي خسارتي بتتحول لمكسب..

ترفض سكرة الدرب المعسول رغم يدها العالقة بدفء يده:

- الكلام الحلو مش بيصلح مو اقف..

تبسم بنفي:

- بس ده مش كلام، دي حقيقة مشاعري ناحيتك..

يضفي لقوله التالي شيئًا من عبث خالط نظراته وأحرفه:

- في قعدة المصارحة دي مش عايزة تسأليني إذا كنت بحبك؟..

تنكمش ملامحها برفض منفعل وحرارة وجنتين:

- لا مش عايزه عشان مش هصدق..



يتبسم بخفة قبل أن يميل بقرب أكبر، يعيد نظراتها الهاربة بيده الحرة التي استقرت عند ذقنها ويهديها همسه الخاص، دافيء الأنفاس جدًا:

- متخافيش ماكنتش هقول كلام أفلاطوني، مش هقول غير إني مرتاح ومبسوط معاكِ، أيًا كان المعنى أو المسمى لده هو اللي أنا متأكد منه..

لا تجد مفرًا من حصاره غير انغلاق جفنين وهمس شاحب بالكاد عبر مسامعه:

- ماتصعبهاش عليَّ..

دون رؤية تصلها أحرفه وتطوقها بمحبة:

- اطمني، سبق وقلت لك مش هعمل غير اللي أنتِ عايزاه ويسعدك..

يفترق جفنيها على قبلة ظاهر كفها المضموم داخل يده بتأكيد همس سابق:



- تأكدي من ده..

ليس بقساوة إنما شعورًا بالذنب رغمًا عنها يساورها ناحيته:

- حتى لو كان اختياري البُعد؟..

يبتسم ليس بفكاهة إنما بظلال حزن مرت من بين الحروف:

- شوفي مين بيصعبها على مين دلوقتي..

يتثاقل الفراغ بصمت، يزيحه سريعًا محررًا إياها من ضغط حصاره القريب بتنبيه:

- طيب..

يسلك معها درب العقل الذي تفضل لا العاطفة، إذا قدر لهما الاستمرار يريدها راضية، قانعة وراغبة مثله تمامًا:

- حقك تفكري براحتك من غير ضغوط مع قرار مصيري زي ده، معاكِ كل الوقت اللي تحتاجيه..

تشعر بالارتياح لأنه يسهل عليها الأمور لا يعقدها:



- شكرًا لأنك متفهم..

يسهل الأمور ويتخابث ببضع خيوط يوصلها بها حتى لايحدث الانقطاع التام عابثًا بعواطفها التي صار يعرف طريقهم:

- لا ده مش تفهم ده حرق أعصاب بس أستاهله عادي..

بكاء الصغيرة ينهي الحديث ويصنع خيطًا آخرًا مهمًا حفظاه في مكمن بعيد عن التذرع يبقى أقوى ما يربطهما معًا، خيطًا ليس به انفصام سواء كان خيارها بقاء أو فراق.



بلوغ موطن الشفاء، شهادة نجاة..

خطوة أخيرة كان عليه اتباعها حتى يبرأ كليًا، لقاء جمع ثلاثتهم بعد طلب مكرر جاء من طبيبه الذي يسعى جاهدًا لغلق صفحات الماضي البعيد لدنه واستقبال الحياة كما ينبغي..

لقاء ودود بجلوس مستريح من قبل الطبيب فوق مقعد منفرد قابل فيه كليهما فوق الأريكة، يتجاوران بفاصل صغير، فوق



ساقيها الملتصقين بكياسة تركت وسادة مربعة صغيرة تستريح عليها بذراعيها، تحتفظ بتبسم هادىء منذ دلوفها وحتى استقبال أول سؤال خصها فيه الطبيب:

- احكي لي عن طفولتك يا مريم..

يضرب له المثال مع أقرب صورة تخصه، صورة طبيعية، صادقة..

- من أحلى سنين عمري، لمتنا عند تيتة، لعبنا فوق السطوح، أيام المصيف، أعياد الميلاد اللي كانت طول السنة تقريبا، المدرسة ودروس حفظ القرآن، كل ذكرى عايشة معايا بحلاوتها..

يقرب مجهر الرؤية، يجعل المستمع الصامت يدقق النظر متطلعًا بنفسه حتى يغلب اليقين كل الشكوك..

- علاقتك بوالدك قوية؟..

تشع بعينيها وصوتها عند سيرة والدها:



- بابا متعلق بينا قوي وده خلانا متعلقين بيه أكتر من ماما ساعات، وده كان غريب شوية مع كوننا بنات، في العادة البنت بتكون أقرب للأم، مش معنى كده أن ماما كانت بعيدة، خالص كانت زي أي أم بس بابا اللي قريب بزيادة..

يتبسم لها سائلًا ببالغ اللطف:

- بتحبيه يامريم؟..

تنساب الأحرف الصادقة مثل طرفة الأهداب:

- أكتر حد في الدنيا..

يشاكس الطبيب وبصره يحيد صوب مجاورها:

- أكتر من أسمر؟..

يلتف رأسها نحوه في نظرة خاطفة شملت فيها صورته ثابت بعدها إلى الطبيب وتبسمها يتسع مع قولها الو اثق، الواضح:

- أسمر له مكانته اللي مش بينافسه فيها حد..



يصل معها إلى مبتغى اللقاء والحديث، يسلك درب الجدية في صوته قبل قسماته المرتاحة:

- ينفع أسال المكانة دي وصلها إزاي؟..

تنهيدة كبيرة وقول راكز:

- مش من يوم وليلة أكيد..

تصمت هنيهة تلتف فيها برأسها إليه، ترى من جانبه خطوط وجهه المشدودة خفية وإبهامه يحك راحة يده الأخرى متلحفًا برداء الصمت والسكون، منصتًا بكل كيانه مع قولها العائد للطبيب:

- أنا فاكرة جملة قولتها له وقتها، زي اللي كان في حلم وصحي على كابوس، ده كان شعوري بالظبط، كابوس..

يومىء الطبيب دون قول، تفرك كفيها المتعانقين فوق الوسادة وتتحدث من جديد بإيضاح، تعود به إلى نقطة البداية، حيث بداية القصة:



- يعني.. الحياة اللي رسمتها في خيالي عن الزوج العملي الصارم والمشغول طول الوقت تقبلتها وكنت مستعدة لها بس مالقتش منها حاجة، لقيت واحد تاني خالص، حد أنا معرفتوش من الأساس، كان بالنسبة لي شخص غامض ومخيف وقاسي، ولو سألتني عن أسوأ فترة عشتها في حياتي هقول فترة أول الجواز..

تؤكد له كلماتها كم كان سيئًا، تريه الجانب المعتم فيه بكل صدق حتى يرى الآخر المضيء كذلك بكل صدق ممكن:

- كل حاجة اتغيرت بعد معرفتي للحقيقة، بشكل ما علامة الاستفهام الضخمة اتشالت، كل حاجة بقت قابلة للفهم والتفسير والمنطقية، وبعيد عن الصدمة اللي عشتها ارتحت أما فهمت، الدوامة اللي كنت عايشه فيها كانت كفيلة توصلني للجنون..

ينوب عنه الطبيب في طلب التفسير:

- صدمتك من الحدث؟..



- أكيد اتصدمت وخدت وقت عشان أبدأ أستوعب، الحاجات اللي كنت بسمع عنها كنوع من الأخبار السيئة فجأة شفتها في أقرب شخص ليا المفروض..

- أمتى قلتي أنا عرفته؟..

- مش موقف أو وقت محدد لكن طبيعة الحياة أما مشيت بينا بدأت معاها أعرف الشخص اللي عايشة معاه، بس لو هنتكلم عن أول حاجة لفتت نظري بدون تفكير هقول إنسانيته، من أكبر وأهم شخصية يعرفها لأصغرها، الإتنين واحد في التعامل والنظرة مفيش مخلوق أقل من حد، ودي أكتر حاجة بحبها فيه بالمناسبة..

- طيب بصراحة كده، نظرتك دي اتغيرت أو اتهزت أما كنتِ بتشوفي النقيض تمامًا مع عمه؟..

- ما أنا قلت لك كل حاجة بقى لها تفسير منطقي، فمتهزتش أبدًا..



يتعمق الطبيب حد بلوغ مكمن العطب:

- ولا صورته نفسها اتهزت بعد معرفتك لطبيعة الحادث اللي اتعرض له؟..

لا تترك مجالًا للفراغ، تخوض غمار الإجابة في الحال بفم صادق:

- أظن مش هو اللي المفروض صورته تتهز بالعكس؛ أي إنسان مر بتجربة صعبة وقادر يكون شخص ناجح في مجال ما، قادر يواجه الحياة وجزء منه متضرر فهو شخص يستحق كل الاحترام والفخر، و أنا فخورة بأسمر لحد السما..

أهداها الطبيب تبسمًا خاصًا مصادقًا على أحرفها وبصره يحط فوق مريضه الصامت وقد أهداه راحة البوح دون أن يفعل:

- معاكِ حق، مش هو اللي المفروض صورته تتهز.



ظل لذاك اللقاء وتلك الكلمات التي قيلت وقعًا عذبًا على نفسه لأيام طوال، كيف لا يكون وقد منحته القبول التام، قبول إنسان كامل لإنسان آخر بكل نواقصه وجوانبه المعطوبة..

قبولًا لذاته يملأه وتراه منعكسًا في انسياب الأحاديث وصدى الضحكات، العين الناظرة إلى ندوب الجسد أصبحت لا تجتر معها أعاصير الماضي، بل تحمل شهادة الناجي من بطش اليم المريع.

نهارٌ مشمس ألقى بخيوطه فتمددت فوق الجدران عابرة النوافذ والشرفات بحرية غامرة التجمع العائلي القائم بأمر من سيدة المنزل بدفء كبير، عيد زواجهم الأربعين حدث يستدعي إقامة وليمة خاصة وحضور الابنة وأولادها المتراكضين بشقاوة من الداخل إلى الخارج، أمر حضور لا يقبل أي تعارض مع الابن الشاب الغائب على الدوام بين دروب



البلاد، ثالثهم غائب قسريًا منذ أسبوع في بلاد الصين لأجل العمل لكن العودة حتمية ومرتقبة من قبل الزوجة المتشاغلة بين جدران المطبخ لأجل حموها، تطهو له بيديها ما تشتهي نفسه بخاطر سعيد..

تدورعقارب الساعة سريعًا وقبيل غروب الشمس يعود المسافر ويكتمل الجمع العائلي باستقبال وترحاب..

- عارف لو كنت اتأخرت كنت هعمل فيك إيه؟..

تعنفه بقسمات مصطنعة الغضب وذراعها حول ظهره تحيطه بقرب قلبها وأمومتها فيشد ذراعه على قربها بهمس خاص لها وحدها:

- ماقدرش اتأخرعليكِ..

تنبسط خطوط وجهها في بهجة معاودة ضمه باشتياق تذمر لأجله الزوج الجالس على بعد خطوات فوق المقعد الوثير:

- لحق يأكل عقلك بكلمتين كنتِ لسه بتتوعديه..



يؤازرالأب الابن المستيقظ من نومته والهابط درجات السلم:

- ما تشوف مراتك يا رشدي هو التهزيق لينا والدلع كله لسي أسمرولا إيه..

يلتقيان بأخوة وعناق وكلمات الأم الموبخة تطال صغيرها وزوجها معًا:

- دايما مطاوعني ومابيتعبنيش زيكم، ميدلعش ليه بقى؟ وبعدين إنتَ تسكت خالص..

يخبره "أسمر" بهمس شامت:

- احترم نفسك عشان لو قامت عليك صدقني ماحدش هيقدر يوقفها..

يرفع "طارق" يداه مستسلمًا وتجيء "رانيا" مستقبلة عودة المسافر ببشاشة، يتركهم بصخب ومناوشة مقتربًا من أبيه، يقابله فوق متكىء مقعد آخر محدثًا إياه عن نتاج سفرته، عندما يستلم الوالد دفة الحديث العملية يبدي إنصاتًا كبيرًا



يواري به نظراته الباحثة عنها، كانت تترك فارغًا واضحًا بغيابها، قبضت على عينيه الحائرة الأم بالجرم المشهود فثاب عنها بحرج كبير مالبثت أن دحضته باقتراب وديكتاتورية:

- مش عايزة أي كلام يخص الشغل الليلة، مش هنتجمع مع الولاد كل يوم يا رشدي!..

- يا ستي ابنك اللي بيتكلم مش أنا..

تتصدع واجهة الصرامة ساحبة إياه من ذراعه، تدفع به نحو الأعلى بغمزة عين خفية:

- مريم فوق، اطلع خد شاوروغيرهدومك على ما السفرة تجهز..

يقابل خبثها بعدم فهم بينما خطاه الصاعدة يدفعها الشوق النابض بخافقه، يدلف مغلقًا من ورائه باب غرفته القديمة، يتحسس وجودها في طريقة ترتيبها لكل الأشياء وفي نسائم الليل عبر النو افذ المواربة..



يخلع عنه سترته ويضعها على جانب الفراش، يتبعها بساعة اليد وقبل أن يشرع في خلع الكنزة التحتية ذات القبة العالية يتحسس وجودها داخل مئزر قطني وخصلات مبتلة، تتقلص بينهما المسافات بخطى مقتربة وذراعين يسبقانها في توق، تطوقه بقوة همسات عاشقة مشتاقة، تبتعد وفي إثرها طيف عبرات عالقة، يرمقها بقلق فتمحيها أناملها ضاحكة مقدمة دفاعها:

- ده عشان وحشتني بس..

ثم تتحول لديكتاتورية يظنها مكتسبة من والدته وهي تدفعه ليتحرك وتنتوي التحرك بالمثل:

- يلا هنتأخر عليهم..

يقطع عليها الطريق معيدًا إياها بين ذراعيه، ينظرها بضيق عينين حائرة ثم يميل إليها، يبثها الشوق والهوى فعلًا لا قولًا فتستسلم لحنو اللمسة والقبلة، لقاء مر سريعًا قبل أن ينضما



إلى مائدة العشاء، أوقات سعيدة نادرة تحفر بذاكرة القلب، والسعادة بقلب "ليلى" الليلة طاغية، مضى زمان على اجتماعهم معًا، على شعور الراحة المتسرب خفية بين الحنايا، تظللهم بعينها بينما يقدمون لها حلو الكلام وأطيبه مباركين زواجهم العظيم وشاكرين أمومتها الأعظم، تكفكف دمعاتها وتغالب تأثرها بضحكة ينهض في إثرها الزوج معدلًا من ياقة قميصه مائلًا إليها في كياسة ودعوة افتعلها قبل أربعين عامًا فكانت شرارة الجمع لكل تلك السنين:

- مادموزيل ليلى، تسمحي لي؟..

تحجب أناملها فمها بينما تعلو ضحكتها بصفاء نافس خجل الأمس ويدها تعانق يده في قبول للدعوة الراقصة، تتخذ الابنة مقعدها خلف مفاتيح "البيانو" ويبدآن تحت وصلة تشجيع وضحكات موصولة تناوبت مابين مد وجزر طوال



الأمسية واختتمت بإصرار ليلي على بقاء الجميع بمبيت فكان لها ما أرادت.

لم يغب عنه صمتها الغير معتاد، تبدو مشغولة البال، ساهمة رغم الارتياح الذي ينقش ملامحها، حاصرها أمام المرآة بذراعين طوقا جذعها من الخلف ورأس مال فوق خاصتها مع تساؤل عبر السطح العاكس حتى استقر مع عينيها:

- أنتِ كويسة؟..

تركت ثقل جسدها ورأسها يسقط على صدره ونبرتها تطفو بنعومة أحرف ولقاء أعين سكن المرآة:

- إنتَ شايف إيه؟..

استقبل همسها بحيرة دون ابتعاد وقول تلون بمزاح:

- شايف بالك مشغول، مش بترغي وتصدعيني زي عادتك..



ترنمت ضحكتها بحلاوة مستديرة بجسدها بين يديه، تلف بذراعيها حول عنقه مغمغمة بجدية رائقة:

- يمكن غيرانة..

- غيرانة؟..

تغضن جبينه زاويًا مابين حاجبيه في استغراب فأخذت بيده متحركة إلى منتصف الغرفة محدثة إياه:

- أيوه أرقص معايا، اشمعنى ليلى!..

تبعت أحرفها متخذة وضعية الرقص رافعة بيده إلى خصرها تخضعه لرغبتها أمرًا لا اختيارًا، يطالع الخف البيتي في أقدامهما صعودًا مع منامته ومئزرها الحريري القصير بلون السكر قبل أن يلتقي بعينها الباسمة بتعليق بالغ الجدية:

- كده اطمنت إنك كويسة..

طفقت تعاند باعتراض لذيذ وهي تتحرك في خطى راقصة:



- أنا كمان عيد جوازي كمان عشرين يوم ومن حقي أحتفل..

تدور حول نفسها قبل أن تستقر أمامه بهمس قريب، مشحون بالتأثر:

- هنكمل تلات سنين سوا..

تتباطىء حركة الجسدين مع حركة أصابعة المهندمة لخصلاتها المسدولة وإعادتها خلف أذنها والأعين في لحظة لقاء لا تحيد، تغالب نغز الدمعات للأجفان وتعاود خطاها التعثر مع قدميه وتبسمها يطفو مثل لحظة سحر:

- إيه رأيك أحكي لك حدوتة ونعتبرها بدال المزيكا عشان مانبقاش عبط نرقص على الهواء؟..

يبالغ في استنكاره:

- مانبقاش! هو لسه مابقيناش؟..

- يا أسمر!..



تتبرم بإحتجاج فيراضيها بلين النبرة وطيف الضحكة:

- خلاص تمام، هاخدك على قد عقلك..

تؤطر أفعالها بسعادة قلب وتمررها إلى نبضه بسعادة مماثلة:

- أما تلاقيني مبسوطة خدني على قد قلبي..

تتسع ابتسامتها، تجبره على خطوة للوراء وتخوض غمار الحكاية في الحال:

- كان يا ماكان، كان في أمير، وسيم طبعًا، للأسف الأمير وهو طفل اتعرض لتعويذة على ايدين ساحرة شريرة..

تعود به الخطى إلى الأمام وتعابير وجهها تتلون وفقًا لأحداث الحكاية:

- بسبب التعويذة كبر الأمير وهو مش قادر يحب الحياة لأنه بيشوف كل حاجة حواليه يا أبيض يا أسود، مفيش ألوان



خالص، كان وحيد وحزين طول الوقت لحد ما في يوم القدر جمعه مع بنت حلوة كده وجدعة..

يكسو وجهه علامات الإنصات والتأمل بينما تطرف بأهدابها في خيلاء:

- البنت دي عكسه تمامًا، عندها عينين دايمًا تشوف بيهم الدنيا جميلة وفيها حاجات حلوة تتعاش، وعشان هي طيبة وجميلة قررت تساعد الأمير المسكين..

سألها في انسجام وخطاهم تتلاحم بتر اقص هادىء:

- عملت إيه بقى البنت؟..

مالت برأسها فوق صدره، تسكن بها موطن النبض:

- ولا أي حاجة، معملتش حاجة غير إنها حبته بس..

مسح بيده عن رأسها بهمس قريب:

- والأمير خف لما البنت حبته؟..



عادت تقابله بقسمات باسمة وأعين صادقة:

- لا الأمير خف لما اتغلب بقوة إيمانه والخير اللي جواه على تعويذة الشر ورجع يشوف الحياة بكل ألوانها الجميلة..

يده المحيطة بخصرها تدفعها من الظهر بخفة مقربة إياها إلى صدره بحميمية:

- وبعدين حصل إيه مع البنت؟..

تتبسم بعذوبة وشفاها القريبة تلاطف شفتاه بقرب شديد:

- خدته آخر الدنيا، مكان حلو قوي مليان نجوم بتلمع، هناك اعترف لها بحبه..

ضاقت عيناه هابطًا إلى خاصتها بالنظر:

- وهي ماعترفتش؟..

ترنمت ضحكتها بحلاوة:

- لا هي أساسًا رغاية ومزهقاه اعتر افات..



ضمها إليه مبادلًا إياه بهجة اللحظة:

- حدوتة تحفة..

ابتعدت بكفين باقيين حول كتفيه، تسأله بجدية:

- تفتكر نهايتها هتكون إيه؟..

خاض غمار الفكر المصطنع قبل أن يثوب إليها بجدية مفتعلة تماثل خاصتها:

- نهاية تحفة زيها أكيد، أظن عاشوا في تبات ونبات؟..

شجعته بإطراء:

- برافو عليك والله، بس النهاية كده ناقصة كملها..

صمت بجهل واضح فضمت وجهه بين يديها، تهمس له بأعذب الكلام وأجمله:

- نهاية الحدوتة، عاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات..



لا تعلم كيف تحملت كتمان الشيء الكبير بداخلها لأكثر من ثمان وأربعين ساعة دون بوح لأي مخلوق قبله، لكنها أرادت الوقت المناسب للقول المناسب، وهو حاضر أمامها، ينظرها، عينها في عينه وهي تخبره:

- أنا حامل يا أسمر..

أخيرًا حررت قيد العبرات لتعبر وجنتيها على مهل مع تباين الصدمة وتخبطها فوق صفحة وجهه مابين جهل ووعي، جمود وعدم تصديق ينطق في إثره بهمس جامد:

- ده بجد!..

اهتزازات رأسها المتتابعة أكدت له حقيقة القول، مرت اللحظات وهو باقٍ تحت تأثير الصدمة لا يأتي على فعل غير النظر إليها بجمود، غمرتها الضحكة مع احتشاد الدمعات حتى تكلمت والترفق يلون نبرتها:

- مش عايز تقول حاجة؟..



هزة رأس صغيرة نافية هي الفعل الأوحد الذي قام به قبل أن تعاود إحاطة وجنته براحة يدها وتوجه عقله المتجمد بغيروعي إلى الصواب:

- طيب ممكن تحضني على فكرة..

عندها..

التقيا بقوة شمس ساطعة تلقي بأذرعتها على الأرض فتغمرها دفئًا وحياة.



(34)

تشييد اليوم يقوم على هدم الأمس..

على قرار لحظة البدء من جديد، في التخلي عن صورتك المشوهة والنظر حيث مرايا المستقبل تعكس نبؤة الفرصة المستحقة، صورة مليحة تشتهيها الأنفس التائهة بين سراديب الضلال..

تخشى أن ما يجوب في رأسها من أفكار هي بضع هلاوس غير ملموسة، النظر إلى صورة مغايرة لكل ما اعتادته على مد سنين العمر يتركها في حالة تخبط، تخشى التصديق كونها محط اهتمام لأحدهم، أحدهم يشير لها حيث يكمن العطب ويعمل معها على زواله، لا يمل هوانها، لا يراها خطيئة غير مغفورة في ثوب امرأة، لا ينفرها مثل نجاسة بل يهديها ترياق الأمل بالصبر ناظرًا لها مثل لحظة كسوف مقدر لها أن تنجلي..



أنهت حماما للتو، تخطو في تردد، إبهام يديها في جيبي سروالها القصير، تقف داخل إطار المطبخ بأقدام حافية، تنظر الفوضى التي يغيب بينها منذ حين، يستقر بصرها فوق قامته الطويلة داخل السروال القطني برماديته الداكنة، جذعه المكشوف يوليها ظهره غارقًا بانهماك تام فيما يفعل، جهاز الراديو يصدح بلحن تسعيناتي بالقرب منه يشاركه الترنم بمزاج رائق تركها حائرة بينه والرجل الذي قضت ليلها بين ذراعيه، لم تعلم أيًا منهما كان يغيب في الآخر، كانا يتسابقان ليفقدان معًا المكان والزمان، عندما وعت لحالها كانت مجردة من كل ثيابها، مطوقة بذراعيه فوق فراش الغرفة التي منعها من دخولها من قبل مستقبلة هدير أنفاسه الغافية فوق بشرة جيدها، مرت بها الدقائق وهي سجينة اللحظة، ثم سقطت نعسة فاقدة لكل حس وشعور حتى النهار التالي والشمس تقايض الأفق بغروب..

- كده أحلى..



أخذها على حين غرة، رأسه ملتف وعيناه تقصد خصلاتها القصيرة الخاضعة لعشوائية مقص، أناملها تلامس جيدها فتلاطفها الحواف الرطبة للخصلات الغير ممشطة مثل خاصته، تخرج حالها من وضع التخبط ذاك بعرض مفاجيء:

- محتاج مساعدة؟..

- تعرفي تقطعي السلطة؟..

تأخذ مكانه خلف الرخام، لا يبتعد، يبقى واقفًا إلى جانبها بوضع معاكس، وقفته مائلة، في عينيه نظرة تسلية، يخضع يديها الجاهلة بتوافه فنون الطهي للمراقبة، يراها كيف تضغط بقوة أنامل وحد السكين يلاقي لوح التقطيع بغلظة، يعترض بطرقعة لسان واعتدال، يقف من خلفها في تلاحم جسدي، يطوقها متحكمًا في كفيها بواسطة يديه، يخفف من ضغط الأنامل والسكين قاطعًا على مهل:

- الطماطم تتقطع بحنية..



قشعريرة تسري على طول ظهرها بالتوازي مع أنغام الراديو المنبعثة في كلمات بدت كما لو أنها تحاصر وقفتهما من كل اتجاه..

"ده العمر ابتدى من لمسة ايد"

"من بعد ما عيشنا أنا و أنتِ بعيد"

ضحك بخفة قبل أن يبتعد بتعليق:

- بيفهم عمرو..

مال فاتحًا فرن الموقد متابعًا نضج الدجاج قبل أن يشرع في عمل الأرز الأبيض، ظلت تراقبه مأخوذة بما يفعل في صمت، أقرت لحالها أنها معجبة بنسخته الرائقة ثم راحت تندمج بدورها فيما تفعل سعيًا منها لإخراج أفضل نتيجة ممكنة، أسنانها تصغط فوق شفتها السفلى في تركيز شديد حتى أنهت تقطيع البندورة، الخضر، ثم توقفت مع حبة الخيار محتارة فى



أمر تقطيعها، طوليًا، عرضيًا، حجم كبير، صغير، بترت حيرتها بالتفات، تسأله في جدية تامة عقد لها الجبين:

- الخيار أقطعه إزاي؟..

أخبرها بينما يضبط ملح الأرز:

- شرشري..

أومأت عائدة لموضعها، مالبثت ثوانٍ حتى عادت تنظره في بلاهة قول ونظر:

- what?!!

تقدم شارحًا لها بتطبيق عملي، ضرب سطح النبات بطرف السكين حتى فرق بين أجزائه ثم فصل بينهم بقطع عرضي، تركها تتبع تعاليمه ساخرًا من جهلها بفكاهة قول:

- دي حاجات لو عرفتوها تبقوا عمد..

- مش حوار على فكرة..



تمتت بها عاملة على إنهاء الأمر حتى أتمته، نالت تقييمه المصبوغ بعجرفة واضحة:

- مش بطال، يجي منك..

تأففت بصوت واضح متحركة صوب حوض الجلي تشطف يديها، وصلتها كلماته بنبرة عادية شديدة الوضوح:

- أنا حولت كل الفلوس اللي أخدتها من أبوكِ مقابل اتفاقنا لحسابك في البنك، ومبلغ كل شهر هيوصلني هحوله لحسابك..

التفت في الحال قبيل وقوفه المقابل عند الطاولة الجانبية، يتواجهان بفاصل بضع خطوات:

- ليه؟..

تنظره في تفاجىء، يجيبها برفعة كتفين تحمل بداهة معنى:

- مش هاخد فلوس عشان أكون مع مراتي..



مازالت المفاجأة تكسو نظراتها، تغمرها أحرفه المردفة بشيء من رضا يزحف ويقترب محيطًا بفؤادها المضطرب:

- أنا فكرت أرميهم في وشه وأعرفه إن الاتفاق بيننا ملغي بس لقيتك أولى بالفلوس دي..

منذ اليوم الذي اختارت البقاء معه عن العودة إلى أبيها وهي تراه يقدم فروض القبول، الآن تراه يعمل على تصحيح المسار، يخبرها أنها تنتمي إليه ببساطة القول، يخبطها موج الفكر، إن كان هذا الرجل جيدًا من يكون ذاك السيء الذي وضع يده بيد والدها قابضًا الثمن..

ترجمت أفكارها في سؤال شابه استنكار:

- و افقت ليه من الأول على اتفاق زي ده؟..

مرتكزًا على الطاولة من خلفه، ساقاه متقاطعان من أمامه عاقدًا ساعديه فوق صدره في تزمت واضح إثر سؤالها، تمتم في جفاء واضح:



- كنت عايز أكسر قلبها، أثبت لها إن زي ما خدت قرار تكمل حياتها مع حد غيري إني خدت نفس القرار، جابك سعد في سكتي مافكرتش..

تنقبض ملامحها إثر قسوة الكلمات:

- كانت تستاهل ده منك؟..

رمقها بصمت دون جواب حتى استدار عنها مقابلًا سطح الطاولة، ضبط جوانب مفرشها قبل أن يضع عليها أطباق البورسلين، أحضر طبق السلطة الخضراء التي أعدته ليتوسط السفرة، وصلها تعمد التجاهل، لكنها كانت تنقب عن أجوبة تنخر رأسها بحيرة، صاغت آخر بمعنى مغاير:

- ليه سيبتوا بعض؟..

أخرج الدجاج الذي أتم نضجه فوق المائدة، أخبرها أثناء ذلك ونبرته تعود لعهدها الرائق:



- عشان احنا الرجالة الحاجة اللي نضمن وجودها مانفكرش إننا ممكن نخسرها..

- بس خسرتها!..

- عشان غبي..

أنهى غرف الأرز ليجتمع مع بقية الوجبة، اتخذ له مقعدًا بادئًا في تناول طعامه باعثًا لها بقول لا مبالي:

- مش محتاجة عزومة..

تمر في خاطرها المرأة التي يقصد مستحضرة وجهها الذي عرفته لمرة واحدة، امرأة تصارعه ذكراها بالعشق والكره معا في آن، جلست هامسة في ارتياب:

- ندمان؟..

مقصدها واضح، ضروسه تلوك الطعام ببطء، رفع بصره يحدجها بنظرة باردة مر فيها طيف قسوة:



- ماتعودتش أبكي على حد بايعني..

تمتمت بانفعال:

- إنتَ مغرور..

- ممكن..

بحنق وليد اللحظة:

- وبارد كمان..

لاك الطعام ببطء أكثر مفسحًا المجال لتبسم طفيف أن يعبر فمه، حاجبه الأيمن يشاركه الغطرسة والإغاظة بارتفاع طفيف أكد قولها..

لم تشاركه الطعام فلم يأبه، ظلت تدحر غيظها بإهتزاز ساق يعلو الآخر، عاقدة الساعدين بارتخاء تصوب عينيها عليه بحدة حتى أنتهى نافضًا يديه تابعًا ذلك بنهوض، تحت نظراتها



المراقبة باغتياظ أعد لحاله قدحًا من الشاي ثم غادر المطبخ دون قول أو نظر..

لو لم تكن معدتها تقرقر جوعًا لما فكرت في تناول طعاما أعده هذا المتغطرس بيده، لكنها تتضور جوعا فالتهمت الطعام بلا تفكير زائد، عندما غادرت المطبخ والفوضى التي تسوده وجدته مضطجعًا بجلوس أمام التلفاز، محطة الأخبار يذيعها رجل مهندم برسمية ثياب يثرثر، جذبت علبة سجائرها القريبة في حركة حادة، أشعلت واحدة بينما تجاوره غير مبالية، تنفث دخانها في إغاظة مقصودة وعناد متحاشية النظر، عقب لحظات وطأ أسامعها سؤاله المتروي خبيث المعنى والنظر المائل:

- عجبك الأكل؟..

ضاعفت من اهتزاز ساقها دون رد ففعل فعلته البغيضة، خطف سيجارها، سحب شهيقا تلو الآخر، نفث سحابة دخان



كثيفة في وجهها ثم قام بسحقها تحت أنظارها الغاضبة، كادت أن تفتعل شجارًا لكنه دحض النوايا جاذبًا بكليتها إليه، يسقطها بين ذراعيه بلا مقدمات، يغيبان في لحظات الرغبة المسكرة، عند العودة تكون هادئة وديعة، ظهرها إليه، ساكنة على جانبها، مستسلمة لضمة صدره وقرب أنفاسه مع ضيق الأريكة، الرجل المهندم مازال يثرثر، أسئلتها لا تنضب، تهمس في خفوت وأجفان متلاقية:

- مكمل معايا ليه..

كأنما تحادث نفسها أكثر، تردف بذات النبرة الشاحبة:

- أهلك مش هيقبلوا بيَّ ولا أي حد ممكن يقبلني..

- لورا..

يوقف استرسال حديثها بنداء، يجبرها على استدارة حتى تلاقيه، وجهًا لوجه في المكان الضيق، يحدثها في الحال وتبسم مرير علق بزاوية فمه:



- أنا كنت أوسخ من كده..

يقبض على تلابيب عقلها مردفًا بذات النبرة:

- الصورة الوحشة اللي شايفة نفسك فيها اضربيها في عشرة..

تتعلق بعود الأمل:

- و اتغيرت؟..

يتبسم لها، ترى صدقًا خجولًا:

- بحاول..

تفتش، هل هناك من يستحق:

- عشان إيه ولا مين؟..

يرشدها حيث الصواب أسفل قدميها:

- عشان أقرب حد ليا، عزيز..

أنامله الحرة تسير فوق سلسلة ظهرها المكشوف بمهل مدغدغ، يكرر لها:



- لورا كمان تستاهل المحاولة..

- رأيك هتنجح؟..

ذراعه التي تتوسده برأسها ينثني فيقربها إليه أكثر:

- لو عايزة، أفتكر أيوة..

اهتزاز شفتيها أعرب عن رغبتها في البكاء:

- هتفضل جنبي؟..

- وعد..

لثمت وعده بقوة، لا تتذكر أنها رغبت رجلًا من قبل مثلما تفعل معه الآن، تتشبث فيه مثل طوق نجاة.

بعد حين..

داخل دورة المياه، احتاج الأمر لبضع لحظات من التردد قبل أن تفرغ محتوى الكيس الصغير من المسحوق الأبيض داخل المرحاض وطرده من أمام عينيها بتدفق الماء، عادت خطاها



يعرقلها الفكر الصاخب، لا تجاوره مختارة الطرف، تغوص في زاوية الأريكة بانكماش، تضم جسدها المنتفض بذراعيها وتحط بذقنها أعلى ركبتيها، عندما اعتدل من اضطجاعه ينظرها باهتمام همست له بصوت مغبون:

- هحاول عشان لارين..

ضمها إليه..

ليس برغبة رجل في امرأة، بل استعدادًا لهزم أسوأ صورة تملكها.



الصبر متكأ الثكالى..

العبور من نفق الفقد يتطلب إرادة، فالضوء المرتقب في آخره لا يحرك فيها بغية الوصول، لكن يغلبها يقين أنها لم تعد تملك حيلة غير الصبر والتصبر..



زيارة قبره كانت القطعة المنقوصة لتعي نفسها وتصدق أنه رحل بلا عودة، نفضة أخيرة للوهم الخادع، فما عاد يزورها حلمًا ولا تتلمسه صحوًا، ذكراه لم تعد تتوالد وتكتمل في صرح خيالها بما كانت تتمنى بل جفت كأنما الخريف زارها، فقط صورة أصلية محفوظة بلا زيادة أو نقصان، لا تملك غير القبض عليها بوعيها حتى تقيها غدر الزمان..

خبر حمل الشقيقة جاء مثل رياح مارة عبثت برتابة الأيام الجافة فبثتها شيئًا من حياة، أبويها في حالة سعادة، خاصة أمها التي تحيط "مريم" المقيمة لديهم منذ ثلاث ليال بالنصائح والرعاية طيلة الوقت..

تركتهم ملتفين حول شاشة التلفاز يتابعون مسلسلهم المسائي ولاذت إلى غرفتها، لم تعد تشتهي نفسها لاجئة الصمت قبولا لأي من تلك الأمور، يجذبها الهدوء والسكون لترتكن إليه، رواية ورقية تحتل فراش الشقيقة شريكة المنام، جذبتها



أناملها قبل أن تعتلي فراشها، تقلب صفحاتها دون رغبة، محاولة فاشلة منها لهزم الملل والفراغ، لم تستطع غير قراءة نصف صفحة ثم أغلقتها وركنتها جانبًا، أضاءت شاشة الهاتف بغية معرفة الوقت فسطع تاريخ اليوم قبيل عينيها، توقفت أمامه للحظات فجاشت بصدرها كل الذكريات..

ومعها ملعونة كل الذكرى..

طرق الباب دفع أنملها بمحو نوايا الأعين، تبتلع غصة حلقها برباطة جأش ثم تدعو الطارق:

- اتفضل..

يمرها كل ليلة، عادة يومية صار يتبعها منذ أن امتدت بينهما كفوف الصداقة بوصال التفهم والراحة، ليسا بحاجة أحاديث ليصل المعنى يتفاهمان بالنظر، أخبرتها الطبيبة أنهما يتشاركان الجزء المفقود نفسه، كما ساعدتها في تخطي عقبة فكرة الزواج والنظر إليه بشكل مغاير، أدرت بصرها صوب



زاوية أخرى فرأت "عبدالله" صديق طفولتها ونصف النبض الراحل..

- ازيك؟..

يسأل عن أحوالها الثابتة كل ليلة، يتزحزح ثقل الفراغ عندما يزاحمه بحضوره، بحديثه الهادئ وتبسمه المماثل، تفعل معه المثل فتكتشف كل مرة كم يشابه أخيه ليس فقط بتفاصيل الملامح..

على حين غرة تندفع شقيقتها وأبويها إلى الغرفة قاطعين عليهم الأحاديث بقالب كعك، لهب الشمعات الصغيرة بعدد سنين عمرها يتراقص إثر خطاهم ودندنة أصواتهم..

"سنة حلوة يا جميل.."

اختضت أضلعها ثم بكت، كانا يتحايلان على كل المناسبات بعشق فتصير شيئًا خاصًا، احتفل بها كل عام منذ مولدها،



أولى هداياه كانت قُبلة لوجنتها، هكذا أخبرتها أمها قديمًا، اليوم هي تتمم عامها الخامس والعشرون من دونه..

تضمها أمها من جانبها، أبوها يجثو من أمامها ضامًا بكفيها بين يديه الماحية للعبرات كل حين مهدهدًا إياها بحلو الكلام، "رنا" تقف أمامها بقالب الكعك ترجوها ألا تحزن، تمسح "مريم" عن رأسها ثم تدنو منها مقبلة وجنتيها مخبرة إياها أنها تحبها وباقية إلى جانبها حتى آخر العمر..

ظنت أنها منسية، تحزن منذ الصباح لأجل هذا الخاطر، فإذا بهم يلتفون من حولها، تمسح أيديهم عن وجيعة قلبها ببلسم المحبة، يملئون الفراغ الجانح بداخلها، يد "عبدالله" الحانية تمسح عن كتفها، يسقط عنها ثقل الأيام متمنيًا لها مثل الجميع عامًا جديدًا حاملًا في طياته الفرح..



تمحي العبرات مستجيبة لرشفة النسيان مختطفة من ثغر الأحبة مبسمًا تدنو به إلى القالب، تطفئ شمعاتها ثم تعود بجذعها بنفس مستسلمة وراضية، تستقبل ضمة أبوها:

- الهدية اللي تطلبيها على عيني..

تشد على قربه ولا تظن أنها تحتاج شيئا من هذا العالم غير وجوده وضمته:

- ربنا يخليك ليا..

يغادرون الغرفة واحدًا تلو الآخر، يستغل غياب الجميع اللحظي، يخرجها من جيب سرواله فاردًا لها كفها تاركًا هديته الخاصة داخل راحتها:

- كل سنة و أنتِ طيبة..

ترمق السلسال الساكن راحتها بغرابة، تقربه إليها، تقلب القلب المتدلي من أوسطه وفي عينيها نظرة ارتباك سرعان ما تتبدل ما أن فرقت أصابعها عن نصفيه فتبدت لها



صورة"عبدالرحمن" المطبوعة في داخله، تقرب الحلية من فمها، تلثمها مرة وتالية بينهما همس مكرر بالكاد عبر شفاها..

"ياحبيبي، ياحبيبي"

رفعت له عينين تعبئهما العبرات قبل أن تضمها بالقرب من نبضها:

- أنا ماكنتش عايزه غيره يا عبدالله!..

يخبرها أنه يعرف هذا بإيماءة رأس، كما تخبرها هديته أن الزمان قد يغدر بذكرى العقل لكن ذكرى القلب باقية بأثر لا يزول..

يطلب منها بربتة كف أن تتوقف عن البكاء، تكف حتى لا يظن أن هديته أزعجتها، تخبره بسعادة موجعة:

- دي أحلى هدية جات لي في عمري..

تخترق"رنا" خلوتهم برأسها، هاتفه بنبرة بهيج:



- يلا قطعنا التورتة ياحلوين..

يصحبها إلى الخارج، يدها ضامة على هديته بقوة، يجلسان بينهم، يأخذون بها إلى جمعهم مهشمين زجاج عزلتها البغيض تحت ظل الأحاديث وقالب كعك بنكهة الشوكولا التي تفضلها وتبغضها معدة "مريم" هذه الأيام، هرولت صوب الحمام مع نوبة غثيان جديدة تصيبها، أبوها يلاحقها بتعليقٍ لاذعٍ:

- آدي آخرة قلة الأدب يا ست مريم..

تضحك البنتان، يحك"عبدالله" رأسه في حرج، الزوجة تنهره آمرة إياه بالصمت لكنه يصر على لفظ المزيد فتضطر إلى تكميم فمه ومنعه قسرًا من المواصلة..

تمر الأمسية مثل سحابة صيف، رائقة، تفوح منها روائح البهجة..

لن ينسى أن تلك الليلة، في لحظات عابرة عادت لعينيها الحزينة ضحكتها المفقودة.





تُبدلنا الأيام مثل صخر شديد الصلابة، تساقط عليه قطر الماء لزمن طويل حتى بدا منحوتا بشكل مغاير وفي الحقيقة مازل حاملًا في جوفه خواصه الأولى..

عندما تنظر لحالها عن ذات قرب ترى فيها تغيرًا واضحًا لم تكنه يومًا، ترى أنها أصبحت أكثر صدقًا مع حالها عن ذي قبل، تستقبل الصعاب بنفس مرنة، تستطيع أن تتخلى عما يؤذها ببساطة وتمضي دون التفات، لم يعد الزمن قادرًا على تكبيل قدميها، تظن تلك قسوة مكتسبة نتيجة الصفعات، أكثر ما يفاجئها هي قدرتها على دهس الألم حتى يصير شيئًا لينًا، تمتزج معه وتصبر حتى يرحل بسلام..

صورتها المتغيرة تلك تذكرها بأمها، ترى حالها صورة مصغرة منها، أمها الصبورة الراسخة بقلب شققته أعاصير الزمان..



تنهمر عليها أحاديث النفس كما تنهمر مياه الدُشّ الدافئة، تغمرها حتى تفيض بها نفسها فتغادر المغطس بخطى وئيدة، تحيط جسدها بالمئزر القطني، المنشفة العريضة تلف الرأس بالكامل، يقابلها فراغ البهو فتعرف أين ذهبت به خطاه، تدفع الباب الموارب برفق لايفزع الصغيرة، في اللحظة التالية التي وقع فيها بصرها فوق الفراش لم تستطع كبح شهقتها وهتافها الزاعق ينطلق مثل سهم غادر:

- إيه ده، إيه ده، إنتَ بتعمل إيه!..

لم تعد تؤثر فيه نبرتها المباغتة بزعيق ولا خوفها ورعبها على الصغيرة من نسائم الهواء المارة، يقابل كل صادر منها بحديث هادئ:

- هغيرلها، قشطت..

هرعت إليها بقلب واجف:

- ياربي، بنتي..



تأخذها منه عنوة، تتأكد أن عظامها الرقيقة لم تصاب بأذى ثم تُكمل لها بقية ثيابها، مستغفرة ربها متأففة بخفوت يصل العائد لطرف الفراش بجلوس معترض على تقليلها من مجهوداته والضرب بها عرض الحائط بثقة مثقوبة:

- أنتِ بتشككي في قدراتي؟..

رفعت له وجهًا معترضًا، آمرًا:

- ممكن تبطل تتعامل أنك عارف كل حاجة في الكون!..

حدجها بنظرة ذات معنى مغاير:

- أنا برده؟..

ضاقت نظراتها في احتدام:

- قصدك إيه..

- ولا حاجة..

- اتفضل طيب عشان عايزة اكلها..



- ماتتفضلي تأكليها..

- ناصف!..

- اااه، تمام..

يلتزم بوعده فلا يضغط عليها بأحاديث لكنه لا يكف عن الدوران من حول قلبها تارة وعقلها تارة، يسابق الوقت القصير بملأ كفته آملًا بها أن ترجح، يضطربها بحاجته وإلحاحه مثل ولد صغير يتبعها جاذبا ذيل ثوبها مرة بعد مرة باغيا منها الرضا والانتباه..

- وبعدين، نعمل إيه مع أبوكِ ده..

تحادث ابنتها بينما تتمدد جوارها على جانبها الأيسر، كف الصغيرة بين اصابعها تمسح فوق جلده الرقيق برفق ولثمة شفاه تعانقه كل حين، أخذها التفكير في مد وجزر حتى قاربت على النعاس، طرقات خافته تبعها انفراج للباب دفعها لتعتدل بقعود فوري مستقبلة سؤاله المقتضب بخفوت:



- نامت؟..

طالعت الصغيرة لبرهة عادت له بعدها بجواب مختصر:

- اهاا..

لعجبها لم يرحل، دلف إلى الداخل ويداه في جيبي سرواله ذا الإطارات المربعة، يقف بجانب الفراش ناظرًا لها من علو بصمت مريب امتد حتى دفعها لتسأل بتقطيبة جبين:

- إيه؟..

تمتم لها بقسمات معقودة، حائرة:

- عايز أسألك سؤال بس متردد..

تمتمت بجدية المستمع:

- خير..

غمغم بهم:

- ماهو أنا بقول متردد..



تأففت بقلة صبر ويداها تعمل على جمع خصلاتها المتروكة لغرض التنفس إلى جانب واحد محاولة إظهار اللطف:

- طيب ليه متردد؟..

- مش عارف..

انتهى صبرها، عدلت من وضع الوسادة في حدة قبل أن تسقط عليها بجانبها بقول حانق رأته يستحقه:

- أنا مش فاهماك وعايزة أنام..

باغتها بإستفهام بالغ:

- قلبك عامل إيه يادهب؟..

اعتدلت بغتة عن نومتها تستنكر سؤاله بحدة أكبر:

- نعم!..

يد واحدة تشاركه التوضيح الجدي، الأخرى باقية في جيبه:



- يعني مشغول، فاضي، بيفكر يحب حد أول حرف من اسمه نون، كده!..

عندما أستوعبت حقيقة كلماته دارت ضحكتها الطافية بالتفاتات جانبية حتى انتهت بوضع الوسادة في حِجرها، تنظره بقسمات ثابتة لا تظهر شيء:

- ااه، لا قلبي كله خدته ميلا خلاص..

خلع خفيه، جاورها فوق الفراش دون دعوة، الصغيرة تفصل بينهما بمقدار، متحدثًا بتفكير جاد من جانبه:

- بس ماعتقدش أن ميلا ممكن ترفض تسيب لي حتة، بنتي حبيبتي و أنا عارفها،أهي بتقول مو افقة سامعة!..

جارت جديته المصطنعة بميل رأس اقترب من الصغيرة الغافية، عادت له مع قول أرفقته بنظرات غلبتها البراءة:

- مش سامعة حاجة للأسف..



حدجها باحتجاج، يده تمسح فوق بطن الصغيرة مع قول تالي أكثروضاحة وإصرار:

- على العموم أنا كمان ميلا واخده كل قلبي.. بس يعنيي لسه في حتة صغيرة لو حد هنا بيفكرربنا يهديه ولا حاجة..

شعرت بحرارة تصعد إلى رأسها، بعثرة دواخل لملمتها سريعًا بإجلاء حنجرة وإعلان رغبتها الجادة:

- ناصف عايزه أنام بجد..

جدية مماثلة وطأت لسانه بلا تفكير:

- و أنا كمان والله العظيم..

شهقت بقوة مع انعقاد قسماتها الشديد، حاول التكلم لكن ذراعها سبق نو اياه بطرد صريح:

- اقفل الباب وراك لو سمحت..

- كمان!..

- معلش..

تنهي الأمر بطرد فعلي تسقط بعده على ظهرها، تحملق بعينيها في السقف الساكن، النعاس يرحل عنها رغم حاجتها له وكله بفضله، تسخط عليه في لحظة وتتبسم لحالها في التالية، تطرد هذا وذاك بميل جانبي، تأخذ بهاتفها، تجري إتصالا مع الشقيق، عندما يجيب تفصح له عن أسبابها في الحال:

- عايزة أسألك سؤال بس مترددة..

ومن هنا؛ اهتدى الجواب.



تنهزم الآلام بالتعايش..

باستقبال الحياة والسير في دربها، بهذا النهج يتحدث الجميع، منذ البارحة وهي تقف معهم على حد الرفض، يصر أبوها أن تصحبهم فيما تصر هي على موقفها بعدم الذهاب، حفل زفاف ابن الخال بالإسكندرية، واجب من الدرجة الأولى لاينفع معه



إعتذار، لكنها تصر بعناد أفقدهم كل الحيل، في النهاية استسلموا جميعًا لرغبتها، حزموا حقائبهم الكافية لغياب يومين، تنظر إليها "رنا" فلا يهون عليها تركها وحيدة، تخبرها في صدق:

- خلاص خليني معاكِ..

تأخذ بها "ندى" جانبًا، تحدثها بمنطق الإقناع:

- ماينفعش خالو هيزعل وبعدين عمر أكيد مستنيكِ، يهون عليكِ تكسري قلبه؟..

تتبسم الصغيرة وتخبرها أنه لا يهون، تطمئنهم زوجة العم والجدة أنها ستكون في أمانتهم، يؤكد "عبدالله" على ذلك فيرحلون صباح الأربعاء بسلام..

قضت نصف النهار الأول متنقلة بين شرفة العم ومطبخ زوجته، تارة تحادث الأول، تارة تساعد الأخرى، تصلها مهاتفة "عبدالله" لأمه السائلة عن حالها لثلاث مرات.. جاهدت قدر



المستطاع أن تمرر الساعات بعادية، لكن زوايا البيت المشحونة بطيفه خنقتها، شاركتهم وجبة الغذاء بشهية مفقودة ثم استأذنتهم بالصعود غير مستجيبة لإلحاحهم بالبقاء.

لم تنفرد بحالها سوى ساعتين، عقبها طرق الباب بعودة باكرة تسبق موعده، انتظرت أن يدلف غالقًا الباب من ورائه حتى عاجلته بالهتاف المتحفز:

- عبدالله أنا كويسة ومش صغيرة!..

تبسم لها بتفهم مطالعًا ما حوله في غرابة:

- مين قال عكس كده؟..

ضاق صدرها من تضييق الحصار فصارحته بما يجيش:

- كلهم حسسوني إني عيلة وخوافة..

أخبرها بالقول الرصين بينما عيناه تلاقي خاصتها:



- اهتمام أهلك حب وخوف طبيعي ياندى مش حاجة وحشة..

شعرت بتأنيب الضمير لأنها تبدل محبتهم بشعورٍ آخر، أدارت دفة الحديث بأعين حرجة خالطها ارتباك:

- تشرب شاي؟..

- ياريت..

أعدت قدحين بالنعناع، أخدت بهم حيث قرر الجلوس بالشرفة، اتخذت لها مقعدًا مقابلًا، يرتشفان ببطء، عجلة الحديث الصدئة تدور، تدفعها بمحاولات وهنة:

- مبسوط في شغلك؟..

يحكي لها عنه، استلام البضاعة، تفريغها، عرضها، بيعها، علامات الربح والخسارة،نبرته يشوبها الفتور والروتينية، عالم التجارة الواسع لا يشبهه، هذا ما تقتنع فيه وتخبره إياه صراحة:

- الصحافة كانت شبهك و أنتَ بتحبها..



- والتجارة مش وحشه..

لا يخبرها أنه يوافقها الرأي لكن الأقلام مكسورة والأوراق ضائعة، تأخذها سيرة العمل إلى أمر مشابه، تعرضه عليه:

- صحيح بمناسبة الشغل..

تصمت هنيهة، تعيد خصلة شاردة من رباط شعرها إلى الوراء، تردف بعدها:

- أسمر عرض عليَّ شغل في مكان كويس، مريم بتقنعني أوافق..

يسألها في جدية:

- وأنتِ رأيك إيه؟..

تحرك كتفيها في حيرة:

- مش عارفة، حاسة إن مش قادرة أعمل أي حاجة دلوقتي..

يمنحها الوقت اللازم لتشعر وتريد:



- خلاص أجلي التفكير لوقت تحسي فيه إنك قادرة، ولو حابه تجربي متتقلقيش أنا معاكِ..

تتبسم لتفهمه ودعمه، تذهب دفتها المحادثة إلى إتجاه آخر:

- عمر ابن خالو عايز يتقدم لرنا، غالبًا هيفتحوا الموضوع مع بابا هناك ويحددوا ميعاد زيارة..

يسعده الخبر، أشاد بالشاب الذي اجتمع معه مرات قليلة:

- عمر شاب كويس ودماغه حلوة..

فكرها هي يجنح بعيدًا، حيث زبد الأيام يسحب الصغيرة ثم يمدها فإذا بها تغدو فتاة ناضجة تتفتح بهيئة عروس:

- رنا المفعوصة هتتجوز، متخيل..

يشتم في حديثها أمرًا مغايرًا عكس الذي تبديه، يظنها تحسب حساب الرحيل من الآن، يمضي معها على درب القول:

- مابقتش مفعوصة خلاص..



ترمق الأفق المصفر بأعين شاردة، تنهيدة مثقلة بحقيقة ذهاب الجميع بين أقدام الحياة:

- الأيام بتجري..

يجوب الصمت بين الأضلع، عيناها تعانق الفراغ البعيد، عيناه تعانقها بالنظر، هادئة مثل أجواء الخريف المحيطة، تجافيها السعادة نعم لكن عقب النظر إلى الوراء يرى في حالها تقدمًا، كما يراها تتحسس في دربه الصداقة، تتخذ منه أخًا مفقودًا، يريحه أنها تراه في صورة مقبولة لا تلك المؤاطرة بعقد زواج أباح لهما هذه الخلوة، أن تضع بين يديه مخاوفها وحزنها دون حرج فتقاسمه شيئًا رازح بين أضلعه دون أن تعرف..

تلتفت له بملاقاة، تعمم المقصود في سؤالها:

- عبدالله هو حرام حد يدعي على نفسه بالموت؟..

يفطن للمقصد بفراسة فكر، يجاريها بلين القول:



- عُمْر المؤمن نعمة من نعم الله تعالى عليه، والصح وقت الابتلاء نتمسك بالإيمان والصبر مش اليأس والقنوط..

ترفع بساقيها فوق المقعد، تطوي بهما من تحتها بينما تخبره:

- ساعات بفكر أنه راحة..

يحاول سحبها من تلك الدوامة:

- إيه يثبت لك؟..

النبرة يشوبها حدة مباغتة:

- يعني لما يكون الإنسان عنده اللي يعيش عشانه بيقدر يقاوم أي ابتلاء ويكمل وينسى إنما اللي حياته بتقف مش بينسى وبيفضل يتعذب فأكيد الموت رحمة!..

تفكر أن والديها لديهما بعضهما، سوف يهونان الطريق على حالهما،"مريم" لديها عائلتها التي تشغل أيامها وتسعدها،"رنا" قريبًا سوف تلحق بالكبيرة، الجميع يرحل وهي مكانها، لا



تتحرك، تعي لنفسها كيف تتحادث عن الموت كسبيل نجاة، تستنكر شيخوخة روحها فتصمت..

رنين هاتفه يأخذ بهما عن سحابة الكآبة المارة فيصير ممتنًا للشيء الجماد، يستقبل اتصال الشقيقة في هذا المساء المتأخر وحديثها الغير مرتب..

"عايزة أسألك سؤال بس مترددة.."

- سؤال إيه، خير؟..

تنهض جليسته حتى تمنحه خصوصية اللحظة مع الشقيقة، دحض رغبتها بيده، يعيدها إلى مقعدها وعيناه تخبرها أن تبقى، إنصاته وتركيزه مع الأخت عبر الوسيط:

"إيه رأيك في ناصف؟"

يردد من خلفها في تعجب واستفهام:

- رأيي في ناصف؟ جوزك؟!..



"آآه.."

- دلوقتي؟..

هنا قصد التعجب في المعنى لا الزمان، يصله تأففها:

"آه دلوقتي.. اخلص"

يحتار بفكره وقسماته لبرهة، يغمغم بعدها:

- يعني لو متحمل شخطك ده يبقى الراجل مية مية وكتر خيره..

يضحكان بخفوت يثير سخط البعيدة و انعقاد قسماتها:

"عبدالله مش عايزة أكلمك تاني، تمام؟"

يهز كتفيه كأنما تراه:

- هقولك إيه، تمام..

يتصاعد رنين هاتف المستمعة للحوار، تنهض لتحادث أمها، تطمئنها على حالها تاركة له المجال ليغيب مع أخته في حديث



جدي لا يشبه المزاح السابق، لا يعي فيه تمامًا عن حقيقة مقاصدها لكنه يساعد في إرساء سفنها بشكل مقبول.

عندما يطرق النعاس أبواب الأجفان تقلق، لا رغبة بها في مبيت عند العم أو الجدة، يفهمها من عينيها، يرفع الحرج متخذًا من البساطة سبيللا، يتحرك بعادية ويطمئنها بنية فعل:

- سريررنا هيكفيني ولا إيه النظام؟..

تلفظ أنفاس الراحة عبر تبسم صغير، تعدل له الوسادة وتفرد الشرشف قبل أن يتمدد، تغلق الضوء تاركة باب الغرفة المفتوح يلقي بظلال الإنارة فوق الأرضية، تندس بقامتها داخل فراشها آخذة بالشرشف حتى آخر العنق، مغمغمة له بهمس:

- تصبح على خير..

يرد غمغمتها بخفوت مماثل..

ثم يعم السكوت.



- ندى..

ناداها بعد حين، ذراعه أسفل رأسه، عيناه تحملق في السقف دون حراك، يصله همهمتها المجيبة فيلتف برأسه ناحيتها:

- ماتدعيش على نفسك بالموت تاني، قولي اللَّهم أحيّني ما كانت الحياةُ خيرًا لي، وتوفَني إذا كانت الوفاةُ خيرًا لي..

تطرف أهدابها في حرج وتثاقل، راقدة على جانبها تلاقي صورته عبر الظلام بغير وضوح:

- أنا آسفة..

- على إيه؟..

- على الكلام اللي قلتهولك من فترة، إنك السبب وكده..

لا يتحدث، تردف بزيادة قول:



- إنتَ آخر حد ممكن يأذي عبدالرحمن أو يبقى أناني، أنا متأكدة من ده بس، بس..

يضيع منها مفتاح الشرح والمعنى فيوقفها:

- أنا فاهم، عشان كده مزعلتش من كلامك..

تشعر بصليل ألم مدفون في عمق الحروف وكل الأحاديث التي تشمل نصفه الراحل، تواسيه:

- ماتزعلش، هو في مكان أحسن..

شعرت به يقاوم ثقلًا بليغًا:

- ده اللي مصبرني..

وجدت حالها تكرر بإشفاق:

- ماتزعلش..

تبدو الأحرف أشد وهنًا من تحمل جوهر المعنى..

يعم السكوت.



- عبدالله نمت؟..

تهمس بعد وقت طويل، يجيبها بهمس حاضر:

- متخافيش، أنا صاحي لحد ماتنامي..

- تصبح على خير..

يعم السكوت.

يسحبهما بساط النعاس، هادئ ساكن من ناحيتها، صاخب مزعج من ناحيته..

دوي شديد لرصاصات

صياح

عويل

ركض



يده تمتد ولا تصل

رمال تعيق الأقدام

يد تهز كتفه..

نظرة استجداء

صوته لا يخرج

أضواء سيارة تعمي البصر

يد تهز كتفه..

ألم

صرير عجلات

دماء تسيل

يد تهز كتفه..

صراخ



صراخ

اختض الجسد النائم باعتدال وعودة أنفاس بشهيق حاد، عيناه الجاحظة تجاهد لأجل الوعي، أنفاسه تجرح الحلقوم، ينظرها أمامه، عيناها عليه يملأها الذعر، يأخذ بها وذعرها بين ذراعيه، أنفاسه تتناحر فوق كتفها، يضمها بقوة، يطوقها في حماية..

الآن يعي..

كانت هي ضحية كوابيسه.



(35)

بيننا لصوص غير مرئية..

أياديها خفية، بلا أوجه أو قامات، تطوف حولنا ولا نبصرها، تأخذ منّا دون شعور دامغة النفوس بقهر لا يزول..

فالظلم لص بارع..

قادر على سرقة أحلامك بكلمة، قتل الأمل برصاصة ونحر المستقبل، ثم في النهاية يركلك بقدم طاغية..

تلملم حطامك وتنهض معاودًا المسير، خطاك مثقلة، نزفك يقطر، الخوف بداخلك يتوالد ويجنح، تتحامل على حالك وتمضي مثل ضحية قُدر لها أن تكون..

قبل أشهر، وقتما كان يحمله الفراش كل ليلة مثل حطام، كانت تطوقه الأفكار بالهجران، أن يشرد بعيدًا بلا وجهة، يعبر



البحار أو يجوب الصحاري، يصل أو لا يصل لا يهم المهم أن يبتعد للحد الذي ينسيه مرارة الدنيا والخذلان، أبواه كانا وتد التعقل، يفكر فيهما فيثبت فوق أرضه سائلًا ربه الصبر والرحمات..

بشكل كبير كان يرى نفسه حاصدًا لطريقٍ وعر سلكه عن ذات إرادة، ربما لم يحسب عو اقبه الوخيمة لأنه آنذاك كان إنسانًا مملوءًا بوهم الأمل، إذا حدث نفسه المعذبة وقال هذا حصادك تصمت ويصدق أنه ينال جريرة يديه..

لكن الآن؛ مع النظر إليها تهتز الصورة، يد الظلم الجائرة على البراءة تبدو أكثر بشاعةً وفجورًا..

يكفر بالوطن حين ينظر حزنها..

تعكس له شيئًا من ألم لا يمكن تفاديه ولا تجاهله، يجد نفسه غارقًا في آثامه فيصير مثل بركان خامد.



أرادت زيارة بيته لمرة أخيرة، بعد ذلك يمكنهم بيعه وترك المال في حساب بنكي يخصها أو استثماره في العمل ولها عائد الربح كيفما يشاءون، عرضوا عليها الأمر ثم تركوا لها حرية الاختيار لكنها عوضًا عن ذلك عقدت مع "عبدالله" اتفاقًا على أن يصحبها إليه، حاول أن يستثني رغبتها لكن عارضت بشدة وأصرت في تصميم..

أنهت جلسة اليوم مع الطبيبة وهو ينتظرها في الخارج كدأب عادته، بعدها اصطحبها كما أرادت، فتح الباب و أنار العتمة بإنزال مفتاح الكهرباء، اتخذ له من متكأ الأريكة مقعدًا جانبيًا في صمت، راحت هي تطوف بين أركانه، تلامس أناملها تفاصيل البيت بقبلة وداع، تصل صوان الألبسة، تفرق بين ضلفتيه، تنظر إلى فراغه بضياع انتهى بها جليسة طرف الفراش، تحاول إيقاف تدفق الحسرات بقلبها لكنها تنسكب من بين عينيها في هيئة عبرات، هنا شيدا أحلام المستقبل، تلك البقعة شهدت صراعًا على لون الجدران وأخرى حملت عشقًا وسعادة بإنجاز



صغائر الأمور، تقاوم أنصال الألم الحادة بنهوض، أناملها تجرف دمعها الذارف، تخرج حالها من تلك الدوامة قسرًا بخطى هاربة نحو الردهة، تحمل حقيبة يدها التي أسقطتها عن كتفها حال القدوم، لا تقابل عينيه المتابعتين لتخبط حركتها فقط تغادر المكان وتقف أمام المصعد ريثما يعيد العتمة لسيرتها الأولى موصدًا الباب مرة وراء مرة في تأكيد أخير قبل أن يلحق بها وحسب..

في مثل هذه الأوقات يكون الصمت معهما أكثر قبولًا من كل الأحاديث.



الخيانة لص فَاجِر

الكذب لص وَضِيع

الأمر أشبه بشريط، يدور معيدًا كل الذي فات، تقفز بها محطات الحياة..



طفلة

صبية

شابة يافعة

زوجة سعيدة

امرأة تعسة

زوجة مرة أخرى

ثم لا شيء، فقط كيان لطخته الخيانة والكذب ونخره الحزن حتى صار أجوفا بلا روح، كثيرًا ما تتباحث عن أجوبة لكون الإنسان قادرًا على الإلحاق بغيره كل هذا الألم بلا وجه حق..

تفكرلِمَ خان "عزيز" وكذب "ناصف"؟..

لا تظن في حالها مثالية، هي بشر من طين، يخطىء ويصيب، يَجرح ويُجرح به، لكنها لم تكن سيئة لهذا الحد مع أيٍ منهما..



يدور الشريط ويجيء بصليل قاتم، ذكرى رحيل أخيها تضرب دواخلها، مرعام وشهران على رحيله ومازالت تستنكر الضحكة حين تنضح فوق الشفاه، صوتًا خفيًا يحدثها بشدة وقساوة، أتسعدين وهو غائب؟ أتستطعين!..

الذكريات لصوص ملعونة لأن أيديهم الصغيرة المغموسة بالحسرة تلتف حول الأفئدة.

تتساقط الأيام مثل أوراق الخريف الذابلة، الطقس هنا يغلب عليه البرودة الشديدة، الكساء الأبيض يغطي الطرقات وواجهات المنازل، لم يكن يعلم أنه وفي تلك الليلة تحديدًا حيث أنهى نهارًا عمليًا عاديًا سوف يودع كل هذا الصقيع فوق عتب الباب ويدلف مستشعرًا زحف الدفء بعبق خاص لأبخرة الأطعمة الساخنة، عيناه مشدوهة مع هيئتها الو اقفة بجانب طاولة الطعام حاملة الصغيرة بين ذراعيها، يخلع عنه معطفه



الثقيل الملطخ بنتف الثلج بوعي متضارب، يلحق به القفازين وطاقية الرأس، يتقدم خطوة ثم يتوقف مع اتساع عينيها الساقطتين فوق الحذاء، يعود خطوته خالعًا إياه قبل أن يقترب من جديد متبسمًا بعينين تومضان بنذر سعادة:

- إيه السفرة دي..

يشير صوب المائدة العامرة بعدة صنوف متراصة بشكل منمق مداعبًا للشهية..

- إيه الفستان ده..

يردف بذات الحال مارًا ببصره فوق تفاصيل الثوب الصوفي الملتف حول قدها في تصميم بسيط يشبهها، تتسع ابتسامته أكثر أمام شفتيها:

- و إيه الروچ ده كمان..

أناملها الماسحة فوق شفاها ترقبها في تأكيد وغمغمة جاءت منها مرتبكة:



- ده ليب بالم!..

مال برأسة قليلاً متشممًا عبقها عن ذات قرب قبل أن يعود لعينيها بلقاء متلهف و اقترابه الزائد يجبرها على التقهقر:

- البرفان ده بقى أكيد وراه حوار؟!..

تزدرد لعابها ولا تجد قولًا غير الذي ينتظر، لا تعلم كيف تبدأ وكل الجمل التي سبق وحضرتها تبخرت من رأسها مثل الدخان، لكنها تبدأ على كل حال بنبرة متسارعة رغم تقطعها هاربة من سيطرة نظراته بالنظر إلى صغيرتها الباقية بين ذراعيها:

- أنااا.. أصل اتكلمت مع ميلا ولقيتها عايزة تفضل معاك..

ترقبت رده لبرهة حينما طال رفعت رأسها، قابلت عينيه وقد رحل عنهما كل المزاح والعبث السابق وبقي فقط نظرتان تحيطان بها والصغيرة في تأثر بالغ انتقل إليها دون شعور..

- بجد؟..



يغمغم بخفوت وتفعل بالمثل وبينهما وصال أعين لا ينقطع:

- اسألها..

والأجوبة الصادقة في داخلها هي لا الصغيرة، اختارت البقاء نعم لأن ابنتها تستحق حياة كاملة، مهما قدمت وأجزلت معها في العطاء وقالت أستطيع لن تملأ كل الفراغات في حقيقة حاجتها لوجود أبيها، نعم لأجل روحها المستكينة لصوت الأنس لا صمت الجدران، نعم لأن"ناصف" اعتذر عن خطأه وقدم وعودًا فوق درب الصدق الذي يمضي فيه، ولأنه زوج جيد وأب جيد والمرأة فيها تميل لمشاركة رجل جيد دربها فلا ينطوي بها العمروهي عجوزوحيدة تتقاذفها أمواج الذكرى والندم..

- وأم ميلا؟..

يريدها شافية، راضية وقانعة، وربما يطمع بترحاب له في أرض الذهب، تفهم مبتغاه فتلاوعه عن قصد:

- أكيد مش هتسيب بنتها!..



يناورها بإصرار وقرب طابعًا قبلة صغيرة فوق وجنة طفلته:

- والأكل الحلو ده كله لمين؟..

نحنحة خافتة، أعقبتها بقول جاد:

- لـ أبو ميلا..

- يا هناه والله..

يلفظها في جذل باسم، آخذًا بكفها بيده، يرفع بها إلى فمه حتى يلثم ظاهرها مطولًا ويغمغم ببطء:

- تسلمي لي..

يميل إلى وجنتها تاركًا لها قُبلة ثانية هناك وهمس دافيء يغلب عليه الامتنان:

- شكرًا إنك معايا رغم كل حاجة..

تصعد شفتاه إلى جبينها بقبلة ثالثة قبل أن يعود لعينيها حتى ترى صدق وعده وجديته في خاصته:



- أوعدك إني أسعدك..

تتبسم له في رضا وأهدابها تطرف في خفر، لا تعلم سر تعرقل الأقاويل معه، تلتقط بعضًا منها قسرًا مانحة إياه بخفوت مغمغم:

- أنا كمان أوعدك بحياة مستقرة وسعيدة..

يوترها بنظراته المركزة فوق شفتيها، تهرب منها ببصر متخبط وتحرك:

- الأكل هيبرد..

تبكي الصغيرة فتبقيها بين ذراعيها، تتحجج بها فلا تعطي بالًا لعينيه الباقية عليها ولا التهامه السريع للطعام حتى أناه في وقت قياسي، نهضت تضع الصغيرة جانبًا حتى تجمع السفرة، أعادها جالسة حيث كانت، بدأ حديثه في صرامة وختمه بهمس مغاير في ذيله تنهيده مفتعلة:

- على فين؟ زي ما أنتِ، أنا هلم السفرة و أنتِ نيميها..



تُقسم أن ظنها فيه كان التعقل والرصانة، درب الوقاحة هذا يربكها ويخضعها لحالة خجل تظهرها مثل الحمقاء فتضيق له عينيها وعليه الأبواب:

- معتقدش إنها تنام دلوقتي..

يتجاهلها عن عمد حتى ينهي دوره ويعود، ما إن جاورها حتى وضعت له الصغيرة بين ذراعيه وسارعت بقول ونهوض:

- مش بقولك لسه صاحية، استلم بقى و أنا هشوف ورايا إيه..

وقفت خلف حوض الجلي، تنظف وتشطف الأطباق، لم تكد تمر ثلت الساعة حتى كان حاضرًا فوق رأسها محدثًا إياها بانتصار:

- نامت..

زوت بغرابة غير مفسرة:

- بجد؟..



حرك لها حاجبيه في إيجاب فعادت إلى ما بين يديها تزيد من الدعك:

- ونيمتها فين؟..

- على الكنبة..

التفتت له مصعوقة:

- يالهوي عليك كده ممكن تقع!..

غمزها بينما يميل على جانبه مرتكزًا بجذعه على حافة الرخام:

- مأمنها كويس اطمني..

تصمت عائدة لعملها فيحك رقبته مردفًا متناقلًا بين وجهها ويديها:

- دهب معلش هو أنتِ بتعملي إيه؟..

تبتلع لعابها ناظرة له باستفسار متباطئ:

- قصدك المواعين؟..



يهمهم بإيجاب فتبتلع لعابها تاليًا مدعية بداهة فعل:

- بغسلها..

ثم توضح في الحال باستطراد جدي:

- أصل الموضوع ده وراثة، ماما كده ماتعرفش تنام أبدًا غير والحوض متشطب..

يدعي التفهم بقسماته، ترمقه بإعتراض ظاهر:

- إنتَ هتفضل و اقف كده؟..

يوميء برأسه في خبث جلي:

- اممم، أصل الموضوع ده وراثة، خالتي كده..

تزفر عائدة لوصلة عملها من جديد، تحاول غض الطرف عن وقفته وتبسمه المستفز، لكن يده العابثة بخصلات شعرها المصففة تشتتها، تنهره:

- إيدك لو سمحت..



ينتقل إلى ظهرها، يسير على طوله بأطراف أصابعه فيقشعر بدنها وتجفل بابتعاد ونظر محدق:

- ناصف!..

يعتدل عن ميله:

- بقولك إيه..

يغلق صنبور الماء ويسحبها من يدها عنوة:

- احنا نعتمد النهاردة تاريخ جوازنا..

تشهق بخفوت متعثرة الخطى من ورائه:

- استنى بس هقولك حاجة مهمة..

توقف بها إلى جانب الفراش، يرمقها بانتظار لقولها الهام فأطلقت له ثرثرتها الساذجة:

- السرير الصغير ده إزاي هيكفينا احنا الت..



قاطعها بقبلة شفاه فسكتت مرغمة، ابتعد لبرهة فوجدها مازالت تتابع بشفاه مرتعدة:

- مش هيكفينا والله!..

ضحك ملئ فيه قبل أن يسكتها طويلًا ويغيبان سويًا في لحظات اللقاء والإكتمال.

لندعهما في عالمهما الخاص ونقف نحن لبرهة ها هنا متسائلين عن المعنى الحقيقي لجوهر السعادة؟..

المال..

البنون..

العشق..

ولأن متاع الدنيا لا تُعد كلًا يلهث وراء مبتغاه باحثًا عن نصيبه..



لكن الحقيقة أنه لا سعادات دائمة، لا يوجد خيارات مثالية ولا ضمانات أبدية، يكفي أن نحسن الاختيار حتى نطمئن فلا نشقى، ونرضى فيعبر الفرح إلى دواخلنا من تلقاء نفسه..

هذا ما أخبرها به شقيقها فاهتدت سفنها التائهة بإرساء أخير.



الحرمان لص جائر..

يسطو على كل ألوان الحياة، لا يبقي منها غير ذاك القاتم لتنطوي فيه الأيام..

تقف داخل الشرفة تترقب عودته منذ نصف الساعة، مع دقة العاشرة تمامًا رأته يظهر عند مدخل الشارع، التفت إلى الداخل تعبر الردهة ومنها إلى الدرج الخارجي، تهبط في تسارع فتسبق وصوله، تستقبل تحيته بسؤال حاضر بحيرة وشذرات غضب نضحت بها نظراتها:

- فينك! مش بتطلع ليه؟..



انقطع عن عادته معها منذ أسبوع مضى، ينصت لقولها في صمت يتيه معه الجواب ثم يتحرك أمامها جالسًا فوق درجات مدخل البناية:

- تعالي نتكلم..

تبعته بجلوس مجاور، تتعجب أمره فتعيد سؤالها بصيغة جديدة:

- أنا عملت حاجة ضايقتك؟..

تبسم لها بمحياه:

- لا خالص، ليه بتقولي كده؟..

يهتز كتفيها في حيرة:

- أصل بقالك أسبوع مطلعتش، الأول قلت يمكن مشغول، بس حتى و إنتَ مشغول كنت تيجي تسأل، حصل إيه؟..



يتنهد ويطرق برأسه للأسفل قبل أن يرفعه وينظر إليها متكلمًا بأهمية موحية:

- محصلش حاجة بس الوضع ده مش صح يستمر..

تمتمت بغير فهم:

- وضع إيه؟..

يده المشيرة نحو الأعلى تشاركه الشرح:

- إني أفضل طالع نازل عليكم، أكيد مامتك وأخواتك مش مرتاحين لده..

- إيه الكلام ده، ماما عمرها ماتضايق منك ولا أخواتي طبعًا..

- أكيد مش هيقولواياندى، بس الوضع بشكل عام مايصحش مع أي حد..

- ليه بتتعامل بحساسية ومكبر الموضوع، ده بيت عمك!..

- يا ندى افهمي..



يبدو لها أنه يبحث عن مخرج ليتخلص من عبئها عليه، توقف مبرراته بغضب ثائر وحدة كلمات تمتمت بها مع نية صعود:

- ممكن تقول إنك زهقت وخلاص على فكرة، على العموم براحتك تصبح على خير..

دحض نوايا الرحيل بجذبة ذراع أعادتها مكانها مع قوله الواضح الصريح:

- زهقت من إيه، أنتِ عبيطة؟!..

يؤنبها بعينه قبل كلماته:

- الوضع نفسه مش مريح بالنسبة لي، لكن مش اللي في دماغك خالص..

تضم ركبتيها بذراعيها الى صدرها هامسة بخفوت:

- طيب فهمني..

لا يقطع النظر، يخوض معها غمار الأحاديث المثقلة:



- ممكن تقولي احنا الاتنين وضعنا إيه؟..

تقترن بأول إجابة ممكنة:

- مش عارفة..

يتنفس ببطء لافظًا أحرفه:

- بس محتاجين نعرف..

تنظره بغير فهم فيغمغم:

- هبسطهالك..

يبلل شفتيه بطرف لسانه ثائبًا عنها بالنظر لبرهة عاد بعدها مستدعيًا الكلمات المثقلة:

- عندك استعداد يكون لنا بيت خاص؟..

غمغمت وراءه بانتباه لحظي وتقطيبة حاجبين:

- بيت خاص!..



يتشبث بفهمها وجل تركيزها الحاضر ليقول ما ينبغي له أن يقال:

- ندى مهما تجاهلنا نقطة الجواز مضطرين نرجع نقف قدامها وأسألك لأني حقيقي مش عارف..

يحرك أمامها كفيه بحيرة واضحة:

- نكمل ولا منكملش..

يتعمق مع عينيها بالنظر مردفًا بحيرة مضاعفة:

- عايز اني جنبك ولا بعدي أفضل..

يتنهد مخففًا حمل صدره فتخرج الأحرف المثقلة متعبة:

- غصب عني وعنك الحياة لازم تاخد وضعها الطبيعي، واحنا محتاجين نعرف الخطوة الجاية شكلها إيه..

لا تنظر إليه لكنه يستطيع رؤية تمخض جانب وجهها بالأسى:

- ندى..



يناديها فلا تجيب، يتابع مردفًا واثقًا أن كل حرف يصلها بمعناه:

- أنا بدورعلى راحتك، ساعديني ألاقيها..

مرت عشرون دقيقة من الصمت التام حملت حالها عقبها بنهوض وصعود تاركة إياه من خلفها بلا جواب..

نحن نعتاد ما نجد فيه سلامنا، وهي اعتادت منطقته الآمنة، أخذت ما تحتاج منها وغفلت عن حقيقة ما يربطها فيه، تجاهلت عن عمد أنه شرعًا وقانونًا وفي أعين الجميع يكون زوجها.



القسوة لص متسلط..

يسلب معاني الراحة، يجلد الذات بسوط الهوان، يدفن بذور الكراهية في عمق الروح، يرويها بالقبح حتى تطرح نفسًا وَشَّحت



بأسمال الحاجة والحرمان، نفسًا عطشة لنظرة محب ترويها، لكلمة لطف مارقة، لاهتمام متدفق يغمر الكيان..

الآن؛ تختبر معه حياة جديدة، يملأ روحها وجسدها على حد السواء، لأول مرة تكون متخمة بالعاطفة، لأول مرة منذ زمن بعيد تنظر عيناها العالم دون أن يغلبها شعورٌ قويٌ بالحرمان..

تظنه يتخذها مسلك غفران لخطايا ماضٍ لا يفصح عما يحويه، حين تطوقه بأسئلتها وتضيق الحصار تمر بين عينيه سحابة ضيق مصمتة، يتنهد عقبها في تثاقل ثم يطلب منها ألا تفعل، ألا تفكر في طرق باب ماضيه ولا تنبش عما لا يعنيها، وأن تبقى على اتفاقها فتنجو وتأخذ به معها..

أحيانًا تحيط به هالة غموض و انغلاق، أوقات أُخر تراه يدعي النسيان والسعادة، لكن يغلب عليه المحاولات، يقول أن الحياة معه غدت مثل أحجية كبيرة يعيد ترتيبها بأقل الخسائر، هكذا يخبرها بنمط فلسفي تراه لا يناسبه..



ليلة الأمس حدثها عن أبويه، عن حادث رحيلهما الأبدي، كان أمرًا بشعًا ومؤسفًا في تفاصيله، انتقل بعد ذلك إلى شقيقته، أخبرها القليل عنها قبل أن يصل لأفراد العائلة، يتحدث وبين يده هاتفه ينتقل من صورة إلى أخرى حسب صاحب الرواية، ينتقلان من الأحاديث للضحكات بشكل متناغم ورائق بينما تلتصق فيه بقرب حميمي، ذقنها راكز عند كتفه وكلها إنصات لفيض الكلام، عندما حلت صورة مهتزة تجمعه مع امرأة توقف ابهامه للحظة، لم يخبرها أنها زوجته السابقة، عرفت وحدها من طريقة احتجازه لعنقها في عناق غليظ تضحك له من جانبها الظاهر فيما كانت عيناه العابثة تثقب الكاميرا بانتصار، تمتم لها بأسف خفيض لأنه لم ينتبه لهذه مع بقية المحذوفات، قام بحذفها ببساطة ثم استأنف الحديث كأنما ذاك الفاصل لم يكن.

قبل لحظات هاتفها بنبرة غامضة آمرًا إياها أن تستعد للخروج سوف يمرها خلال ساعة، لم يزدْ حرفًا بعد ذلك، أبدلت ثيابها



لثلاث مرات حتى استقرت في النهاية على سروال من الجينز الضيق وسترة جلدية ناسبت تجعد خصلاتها القصيرة، طلاء الشفاه قررت أنه نبيذي داكن، الكحل السائل تتقن وضعه فصنعت خطًا رفيعًا حدد عينيها و أبرز جمال رماديتهما دون تكلف، تطلعت إلى خيالها المعكوس داخل المرآة بحال مذبذب، تتمنى لو أنها دون هذا الشحوب فتصير أجمل، ومفاتنها لو أكثر امتلائًا فتكون أكثر أنوثة وإغراء، يختطفها رنين الهاتف من عصف أفكارها كما تختطفها نبرته عبر الأثير..

"انزلي.."

دقيقتان فقط استغرق الأمر منها حتى تكون أسفل البناية، تقف فوق الأسفلت متطلعة يمنة ويسرة باحثة عن سيارته التي تعرف فلا تجدها، يتخبط بصرها في حيرة ثم ترفع يدها بالهاتف بغية وصاله، يوقف نيتها صفير قادم من الجوار، تقدمت خطوة ملتفتة عن يمينها متطلعة إليه فوق دراجة



نارية، خوذة حماية أسفل يسراه، يمناه يرتكز بها فوق المقدمة مائلًا عليها بجذعه، بحركة يد أشار إليها في دعوة للتقدم، تحركت صاغرة تنظره، تستنكر مع وصولها:

- فين عربيتك؟..

يجيبها باسمًا ببساطة قول فتفتنها غمازة ذقنه:

- بيعتها..

- إيه!..

يختصر كل الأحاديث بوقوف، يضع الخوذة فوق رأسها، يحكم وضعها متسائلًا في فكاهة قول وعبث نظرات:

- هتعرفي ولا تقعي وتفضحينا..

تتوتر لا تعلم مما:

- مش عارفة، عمري ما جربت قبل كده!..

يأخذ مكانه:



- امسكي فيَّ كويس..

تجلس من خلفه محيطة جذعه بطوق ذراعيها، كل ما تتذكره في خضم ما عاشته هي الصيحات المنفلتة دون شعور حينما كانت جزئيات الهواء تلطمها وتخترقها بكل قوة..

القاهرة تبدو مثل حسناء بشعر ليلكي طويل ترصعه النجمات من أعلى هضبة المقطم، وقف بارتكاز مائل فوق هيكل الدراجة، هي من أمامه تنظر الأضواء بثغر باسم وتعود إليه محاولة السيطرة على انفعالاتها الصاخبة والتصديق أنهما سالمان عقب قيادته الماجنة:

- ياربي؛ كل دقيقة تعدي كنت بفكر إننا خلاص هنموت، لا واكلمك و إنتَ ولاا هنا..

- ده أنتِ طلعتي جبانة جبن السنين..

- ياعم إنتَ اللي مجنون!..



يجذب خصلة شعرها في مشاكسة فتدفع بيده بعيدًا في اعتراض، يسحبهما بساط الحدث فوق مناطق متفرقة، يخيم الصمت بعد حين، قدمها تعبث بحجر من تحتها، تحركه، تضغط عليه، يصل الحديث إلى طرف اللسان ويعود في تردد، تستحضر دفقة شجاعة حتى تغمغم بصوت مسموع دون أن ترفع رأسها المنكس:

- عزيز أنا قررت أدخل المصحة..

الآن ترفع رأسها، تنتظر إنصاته بعين فيها مرسال العزم:

- المرة دي برغبتي..

الأمر يفوق قدرتها الشخصية، كل مرة تقاوم فيها العودة كانت تعود لاحقًا، وكان يعلم..

- دي أحلى حاجة قولتيها من يوم ما عرفتك..

يثني على قرارها بتبسم لطيف مترفق بحالها وعجزها، اقتربت تقف قبيله لا يفصل بينهما سوى خطوة واحدة، تعود



بخصلاتها المبعثرة إثر تيارات الهواء إلى خلف أذنيها، هامسة باعترافها في تعثر:

- يمكن عشان دي أول مرة أخاف أخسر حد، وأنا خايفة أخسرك..

تنهي كلماتها وتجبر نظراتها المتراقصة في ارتباك على الثبات أمام عينيه المتطلعة إليها بكل تركيز العالم وجديته وما بينهما قوته الآسرة:

- تخسريني إزاي وانا معاكِ حاسس إني بتولد من جديد، مع حد شبهي، مش مكسوف وأنا ببص له..

لا تصدق أن تلك حقيقة مشاعره، هو فقط يدعمها بشتى الطرق، يدفعها دفعًا لتكون أفضل، تطرف بأهدابها طاردة تشوش فكرها، تطرد فكرة أنها غير مستحقة لأي شيء، لا تعلم لما تضع نفسها موضع بخس، تقاتل كل هذا التخاذل الذاتي



بفك حصار حقيقة ماتشعره هي وماتريده أن يكون، تتطلع إليه كأنما به بداية الكون ونهايته:

- إنتَ حببتني في الدنيا، عايزة أبقى كويسة في أسرع وقت عشان نفضل سوا على طول..

ينظرها بفخر فتسعد بحق:

- أنا أسعد إنسان في اللحظة دي..

تتشدق بسعادة وتتشبث بأمل أن يجمع بين قلبيهما ميلاد عشق:

- بجد سعيد؟..

يحرك لها حاجبيه:

- ومحسن و إبراهيم..

تلكم كتفه وسماجته بقبضتها قبل أن تفضي له بآخر اعترافاتها لليلة:



- تعرف؛ ساعات بفكر أنه ياريت اتقابلنا بشكل تاني، يعني زي أي اتنين مايعرفوش بعض، اتقابلوا واختاروا يكملوا حياتهم سوا..

يلامس ذقنها بخفة دافعًا بقربها الشديد خطوة للوراء:

- وياريت ليه احنا نرجع بالزمن كله لأجل عيونك..

يعدل من ياقة قميصه المفتوح أول أزراره، أصابعه تخللت خصلات شعره في غرور واضح، يدس بيسراه داخل جيب سرواله، رافعًا لها يمناه بثقة مبالغ فيها:

- عزيز الشيمي..

ضحكت بعينيها قبل ثغرها، سرعان ما لملمت تلك الضحكات بنحنحة، متصنعة الجدية مثيل خاصته، جذبت طرفي سترتها في هندمة ظاهرية عائدة ليده المرفوعة بانتظار حتى تلاقيها بعناق كفها:

- لارين الطوبجي، ممكن تقولي لورا..



يده الضاغطة على كفها تسحبها إليه، يقربها من نظراته المتسلية:

- بتعملي إيه هنا يا لورا، مش خايفة؟..

قطبت جبينها بجهل مصطنع خالطه نظرة براءة مبالغ فيها:

- هخاف من إيه..

يوقعها في شباك غزله:

- بنت حلوة في حتة مقطوعة لازم تخاف..

تتحول قسماته لجدية قاطعًا شباكه المغزولة بهتاف مفاجيء:

- أوعي اللي وراكي!..

قفزت ساقطة بين ذراعيه بفزع حقيقي سرعان ما أدرك خداعه فتلاشى تحت صدى قهقهة ضحكة معاودة لكم صدره مرة بعد مرة ثم مستسلمة لعناقه وهمس كلماته المداعبة لجيدها:



- معايا ماتتمنيش، احلمي وبس..

"مَكنتين حتة واحدة؟ إيه ياض العزده كله.."

شابان بوقفة غير منضبطة يقتحمان خلوتهما، في يد أحدهم مدية لاح نصلها في الأفق، يقتربان وفي أعينهما نو ايا غيرشريفة..

وبقول دارج لدى المصريين..

و اقعة"تثبيت"!..



(36)

"والأخير"

على حد أفق المغيب مرت خطانا..

في سكون الليل سردنا الحكايا

أولها شروق

أوسطها غروب

آخرها فجر

مثل تعاقب الليل والنهار..

كل بداية يتبعها نهاية ومع كل نهاية ثمة بداية جديدة..

شمس الرواح تلقي بظلالها الغاربة فوق نهايات الحكايا المسطورة..



واليوم شبيه الأمس..

بيت الجدة يفوح برائحة البخور في قداسة عادة لا تتخلى عنها، تجمع عائلي كل نهار جمعة يضم أفراد العائلة تحت جناحه، الشاشة المتلفزة تستعرض حالًا مقلقًلا للبلاد في خواتيم العقد الأول من الألفية الثالثة، الأقاويل متضاربة والإعلام مثل عادته يتشح بالتضليل، الأوضاع مبهمة نعم لكن ثمة ما يتحرك تحت جنح السكون، مثل جمر متقد بقاع بركان خامد يطقطق في حرج، أخيطة الدخان القاتمة تزكم الأنوف والجميع ينظر من خارج الإطار في ترقب..

من بين رشفات الشاي يتبادل الآباء حديثًا تخلله اليأس والقنوط، تشيح الأيدي مع نهاية كل قول مثل شيءٍ فارغٍ منتهٍ تكراره بات بغير فائدة..

جيل الشباب مستنفر، "مريم" تشارك أمها المطبخ، تندمجان في تحضير بعض الضيافة الخاصة لأجل الليلة، بطنها المنتفخ



يتقدمها، أعطت وزوجها اسم "يوسف" لمولودهما نسبة لنبي الله، أخبرها ذات مرة أنه يحب قصته منذ الصغرفجاء القرار، هكذا في جلسة واحدة قررا، أحيانًا، في أوقات متفرقة، ينتابها العجب من السلاسة التي تمضي بها الأمور..

اقتربت من شقيقتها الصغرى المتشاغلة بشاشة الهاتف طيلة النهاروالليل منذ أن التف خاتم الخطبة حول بنصرها، تلكزها من جانبها فيما تنهرها عيناها:

- خلصي بعدين حبي براحتك..

تتأفف المعنية تاركة هاتفها جانبًا، تقف خلف حوض الجلي، تغسل ما ينتظرها فيه عقب وجبة غذاء التم حولها الشمل مبرطمة بكلمات محتجة على عاقبة الأمر التي تقع على عاتقها كل مرة..

بالجوار، حول المائدة البيضاوية يلتقي ثلاثتهم في عملية جرد شهري تخص العمل، عادةً ما يقومون بها هنا أو يجتمعون في



شرفة "بكر" الواسعة حين يكون الطقس حارًا تغلب عليه الرطوبة، أُغلقت الدفاتر قبل أن ينتهوا بقولٍ واضح جاء من كبيرهم محدثًا ابنة العم:

- نكمل بعدين، يدوب تلحقي تجهزي..

ينقلب بصر "عبلة" نحو الأعلى في سأم واضح فيما تتحرك ساقها المرفوعة فوق الأخرى من جلستها الجانبية برتابة متحدثة إليه بنبرة خفيضة لا تصل الأعمام والجدة:

- أنا و افقت على القعدة دي عشان خاطرك على فكرة بس من جو ايا بجد مش طايقة الصنف كله..

يعترض"بكر" و"عبدالله" بطرقعات لسان وقول جاء من الأكبر:

- ربنا يكرم أصلك يابيللا..

تتشدق قسماتها بضحكة وتصحيح:

- ياعم مقصدش إنتوا غير..



يميل "بكر" محدثًا إياها بجدية:

- صدقيني عمر كويس، مش عشان صاحبي، أما تقعدي معاه هتعجبك دماغه..

صديق الجامعة، فرقت بهم السبل لكن ظلت الصداقة يشتد حبل وصالها ويرتخي مع الأيام والغربة حتى عادت أمجادها القديمة مع استقراره بالوطن، موظف بأحد بنوك العاصمة المعروفة، وضع مادي وعائلة جيدين، انفصل عن زوجته قبل عام.. تعرف على"عبلة" عندما زار صديقه مرة في العمل، منذ ذلك الحين والمصادفات تتوالد بشكل ساذج ومفضوح راغبًا في التعرف إليها عن قرب منهيًا الأمر بطلب جاد من ابن العم الذي راح يدعم مطلبه ويسعى للوفاق فيما بينهما بإصرار رهيب.

في داخلها لا ترفض الأمر، لكن حاجز واطئ يقف بينها والتجربة، أحيانًا تفكر أنها أخذت نصيبها من الحب والزواج، لكن ابن العم يأخذ على عاتقه حالها، يهدم حواجزها بعقلانية



فكر وأحاديث فتجد حالها قانعة وراغبة بحياة كاملة مستقرة، ثم تعود مترددة فيصر عليها بشكل حاسم أن تخوض غمار الأمر أولًا ثم تقرر على بينة..

- أتمنى يا بكر عشان مانخسرش بعض..

تحدجه بنظرات فيها تشكك مازح سرعان ما تهب لأجلها "نادية" لتقف فوق رأسها تزيد من الإقناع أضعاف زوجها:

- بجد يا بيللا عمر احنا نعرفه من أيام الجامعة، حد محترم و ابن ناس قوي غير أن حالته المادية كويسة جدًا..

تكشف "عبلة" حقيقة نو ايا "نادية" المضاعفة، المرأة تسعى لتعمير طريقها الخالي حتى يهدأ بالها الغير مرتاح للتقارب بينها وزوجها عقب شراكة العمل، تسخر في داخلها من أفكارها فتبادل ابن العم النظر بمكاشفة قبل أن تعود لها بالنظر والتبسم المتكلف:



- من كتر كلامك أنتِ وجوزك هتخلوني أو افق قبل ما أقعد معاه..

يشارك "عمر" الصغير أبويه جولة الإقناع من منظوره الخاص:

- اسمه عمر أكيد عريس كويس بتتكلموا في إيه!..

ضربة على مؤخرة رأسه نالها من العم "عبدالله" قبل أن يعود الصبي راكضًا إلى أحضان جدته التي تضمه وأخته معًا، تقص عليهما الحكايا القديمة التي تحفظها عن ظهر قلب من جدتها، تتبع العم خطو اته حتى جلس ثم انزلق بصره مع الباقية أرضًا بالقرب منهم تلاعب أصغر أولاد أخيه.. الجميع بات يلحظ تعلقها الشديد بالصغير، تتلقفه بين ذراعيها منذ وقت الظهيرة لحظة القدوم وحتى الرحيل مساءً، تتولى مهمة إطعامه وملاحقته من زاوية إلى أخرى منهمكة معه في كل تحركاته الغير منتهية، الجمعة الماضية حين ناداها باسمها بشكل مباغت لأول مرة كانت سعادتها جلية، ظلت تعانقه وتنهمر فوق وجنتيه



بالقبلات، أحيانًا لا يفعلان شيئًا، فقط يستكين الصغير داخل أحضانها المألوفة فتطوقه بذراعيها وتظل تداعب شعر رأسه المسترسل فوق الجبين دون ملل حتى يغفو على هذا الحال..

تخفت الثرثرة من حوله بينما يراقب حركة يداها المتباطئة كيف تفتح للصغير مغلف الشيكولا فيتوقف عن القفز في الحال، قطعة حلوى، لعبة جديدة، هكذا تسللت إليه حتى أحبها الصبي وتعلق فيها بدوره، تتبسم لمحاولاته في صياغة جملة سليمة إلا أنها تخرج بشكل مسلي، كان يحاول إخبارها أن حلواها أعجبته فضمته إليها بفهم مبتهج..

عندما تزورها البهجة في تلك اللحظات العابرة تهب نسائم باردة عابثة بجفاف خريف جنباته فيرتخي فكه في شبه ابتسام..

"عبدالرحمن!"

صرخت باسم الصغير ثم كانت الجلبة، قفزاته الساقطة عليها حاذت فضربت رأسه حافة الطاولة، الصبي يصرخ بفم مفتوح



بين ذراعيها، أبواه انتفضا بفزعٍ، الجد والجدة، الجميع ملتف من حوله و"ندى" المرتاعه تشد على ضمه بوعي مشوش إثر صياحه المتألم..

- سيبي ابني يا ندى!..

صاحت"نادية" بقوة مخلصة صغيرها من بين ذراعيها في حدة واضحة مما دفع الماثلة أمامها لتعِ إلى حالها في حرجٍ واحتشاد للعبرات محدثة والد الصبي في تلعثم:

- والله ماغفلت عنه أنا أنا..

يهدأ "بكر" من روعها مخبرًا إياها أنها ليست المرة ولا الأخيرة، وأن شقاوة الصبي من تؤذه ليس ذنبها، تلقي نظرة أخيرة على الصغير الماكث بأحضان والدته وقد بدأ يهدأ ويستكين قبل أن تنسل من بينهم إلى المطبخ الفارغ، تلوذ إلى الجزء الفارغ بجانب البراد، تجفف طفق الدمع بأناملها، تنهي الأمر بسرعة عندما



تستشعر اقتراب الخطوات من خلفها، تستدير فتجده أمامها يحدثها بعمق نبرته الرصينة:

- بقى كويس متزعليش..

تهز رأسها بينما تمر من جانبه دون النظر، منذ أن تحادثا فوق الدرج قبل شهر فائت وهي تتحاشاه، لا تتوجه إليه بالحديث ولا هو يفعل، فقط عندما تستوجب الأوضاع النادرة يكون هناك قول مختصر..

تختفي هي من المكان ولا تظهر ثانية لليلة بينما يعود البقية إلى استئناف أعمالهم منتظرين قدوم عريس الليلة وأهله، تحدث "عبلة" ابن العم قبل أن تتشاغل في تجهيز حالها:

- عبدالله معلش شوف عزيز قوله مايتأخرش..

تصعد إلى شقتها ترتدي ملبسها وتضع زينتها برفقة بنات العم، تمر الساعات المتبقية سريعًا معاودة الهبوط إلى شقة الجدة وقد أتمت الاستعداد، تتوارى مع بقية النسوة في الداخل، لا



تخرج غير رؤوسهم من داخل إطار المطبخ متطلعين إلى الحضور بفضول المستطلع، ما إن يستريح الضيوف حتى تقرص "رنا" ساعد العروس هامسة لها بتعليق عابث:

- العريس عنده سكس باك..

تشاركها الضحك بفكر متشاغل مع الهاتف القابع فوق أذنها، تعيد تكرار الإتصال وفي كل مرة تقابلها الرسالة المسجلة بغير وصول، يقطع "بكر" محاولاتها المستمرة طالبًا منها الخروج للحضور، توقفه بقلق بدأ يجوب جوانحها:

- عزيز اتأخر وموبايله مقفول..

- أخوكِ بيستهبل أنا مأكد عليه الميعاد..

يستبد بها القلق، تنظره به بينما تضع زوجة العم صينية القهوة المعدة بين يديها، يشجعها "بكر" الذي ينوب عن دورولي الأمر في كل مايخصها:

- يلا عيب الناس منتظرة، هتلاقيه جاي دلوقتي متقلقيش..



يصحبها إلى الخارج في عادات محفوظة، تلقي تحيتها ثم تنتهي جالسة جوار عمها، تمضي الزيارة بين ترحاب وقبول يغرد بترانيمه بين العائلين..

طوال الأمسية ظل بصرها يتردد كل حين صوب الباب متأملًا مجيء الشقيق..

حتى انتهت الليلة ولم يجيء.



شمس الأصيل تمد أشعتها الذهبية غامرة الأفق..

ليس في السماء، فسماؤهم مازالت غائمة، ماطرة، تنهمر منها نتف الثلج على الدوام.. كان الدفء يمدد أذرعته خلف أضلعها هي وبين جنباتها، لو لم تستيقظ من غفوتها التي ابتلعتها دون شعور لما رأته الآن؛ مسطحًا فوق الأريكة، طفلتها فوق بطنه تناغي بلا معنى فيما يدربها هو على نطق كلمة "ماما" ليقع الفعل على قلبها بكل دفء العالم وحلاوته..



كان لهذا الفعل البسيط أن يمر مرور الكرام في عادية لو لم تكن غايته إسعادها، الحقيقة أنه منذ أن رست بهما سفن الحياة وهو يفعل الكثير، لاقت تشجيعًا من قِبله حين أخبرته عن الزمالة الطبية التي تنتويها، بل أنه هو من ابتدى أخذ الخطوات الجادة وعندما أبدت قلقا بشأن الطفلة والبيت وكل الواجبات الحتمية طمأنها ووأد كل مخاوفها، قال أنهما يتشاركان الحياة وليست وحدها المسؤولة هنا، هذا التفهم يجعلها أكثر ودًا و انفتاحًا معه، تجد حالها تثرثر وتخبره عن أشيائها الخاصة، تلك التفاهات التي لا يهتم لها أحد كانت تجد لها الصدى عنده، يتفهم أن تكون و اقفة خلف الموقد تصنع طعامًا ما فتتذكر شقيقها الراحل كم كان يحبه فتثقل حركة يداها وترفع إحداهن تغطي فمها ثم تبكي بلا أية مقدمات وأحيانًا يطول بها الحال فينطوي بها الليل على هذا الوضع الصامت الحزين، في تلك الأحايين لا يشعرها أنها زوجة نكدة



تفتعل الكآبة بل يضمها في صمت ثم يتلو عليها تعويذة صبر فيهدأ فؤادها المشتعل بحمم الذكرى..

جراحنا تسكنها اليد الحانية.

تعدل وضع رأسها المائل فوق الجدار منهية مراقبتها بقرب واقتحام، تحمل الصغيرة عنه فيعتدل فاسحا لها المكان، تمطرها بالقبلات أثناء جلوسها، حينما تستقر يعود برأسه فوق فخذها فيصير حجرها وطنًا لاثنين لا واحد..

- وبابي مالوش حضن زي ميلا؟..

توالد العناد اللذيذ فيما بينهما يخلف لديها شعورًا بالبهجة المستترة، تظن أنه يشاركها إياها في خباثة، فلا هي تقول ولا هو، فقط حزم مصطنع وجدية غير لائقة:

- في دراسة علمية بتقول إن الحضن بيزيد من مناعة الطفل وبيخلق نوع من التواصل معاه، عشان كده لازم نحضنه كل شوية، إنتَ كبرت بقى خلاص..



طاوع خباثتها بقول رائق:

- لا ما هو في دراسة تانية بتقول لو أبهات الأطفال دول متحضنوش مرتين على الأقل يوميًا الأسرة هتكون مفككة والعيال تتشرد بقى ولا ألف حضن هيداوي..

ترنمت ضحكتها بصفاء:

- ده مين صاحب الدراسة العبقرية دي..

- أنا لسه معتمدها حالًا..

أخبرها بجدية المتكلم بينما يعتدل من رقوده، راح يعبث بمفاتيح حاسبه المفتوح أعلى المنضدة القريبة، يغيب مع نقرات متتابعة ونداء غمغم به بعد حين:

- دهب..

رفع يده عن لوحة المفاتيح مقابلًا عينيها الناظرة له بترقب، تبسم لطفق ودهما مردفًا في الحال:



- إيه رأيك ننزل أجازة؟..

- مصر!..

- أمال تنزانيا..

تنتفض من محلها واقفة بحماس منقطع النظيرفيعتدل بدوره ناظرا حماسها والصغيرة المنقلبة على بطنها فوق ذراعها:

- أقسم بالله بجد!..

تصيبه عدوى البهجة فيتسع تبسمه حتى يملأ وجهه:

- هو أنا خاطفك يابنتي..

تنظرعن يمينها ويسارها بتخبط باسم سرعان ما استقرعليه:

- لا أصل ماما وحشتني قوي و لسه حالا كنت فكر أنه ياريت أشوفها!..

أخذ بكفها يعيدها جالسة إلى موضعها السابق متحدثًا إليها في حينها:



- ما أنا فكرت هتبدأي شغل ودراسة وهيكون صعب وقتها، والحقيقة ماما بتزن كمان من جهة تانية عايزة تشوف ميلا..

لم يظهر عليها أنها تسمعه رغم أنها تحدق فيه وابتسامتها الجامدة لا تتغير..

أظهر توجسًا مبالغًا فيه آخذًا بالصغيرة إليه:

- يابنتي مالك؟..

تتشدق بألق كاسرة معزل شرودها:

- فرحتني..

أتبعت ذلك بنهوض على ركبتيها، تهديه عناقا حارا تغمره السعادة، ابتعدت في أثره بهتاف عجول:

- هكلم ماما..

- اصبري نحجز ونبلغهم..



بالطبع ذابت أحرفه في الهواء، أخبرت أمها وإخوتها اللذين كانا بجانبها إضافة لأبيها والعم، كلًا بدوره على حدى، تروح وتجيء من أمامه ثم جالسة فوق المقعد الوثير بجانب الشرفة، تتحدث بانطلاق، يد تقبع بالهاتف والأخرى تضرب الهواء في حماسة، تتغير المواضيع في تشعب ثم ترجع إلى عودتها القريبة..

- دهب..

ناداها بخفوت فدارت له برأسها، جالسًا خلف حاسوبه مهدهدا الصغيرة الغافية فوق فخذيه، يخبرها ببساطة قول مثل صباح مكرر:

- أنتِ جميلة قوي..

تتخضب وجنتيها فيما تمكث ابتسامتها فوق شفتيها غير قاطعة معه وصل النظر، يأتي الانقطاع من أمها التي كانت تردد اسمها في تلك اللحظة مخبرة إياها بحنق ظاهر ألا تعاود الاتصال مادامت تفضل زوجها عليها، اضطرت لقطع الوصل معه حتى

تخبر أمها أنها تحبها إحدى عشر مرة بنبرة دلال واطراء فترضى المرأة وتودعها بأعذب دعواها..

تنهي اتصالها بينما تجذبها أخبار الوطن المحتلة شاشة الحاسوب، تجاور زوجها الذي يتنقل من صفحة إلى أخرى ومن خبر لآخر، تهمس له بسؤالها القلق بعد حين:

- تفتكر ممكن تقوم ثورة بجد زي ما بيتقال؟..

قسماته تتلون بالجهل الحائر بينما ذراعه يحط فوق كتفها بإحاطة:

- الوضع على الفيس بوك وتويتر بيقول ممكن، إنما على أرض الو اقع محدش عارف حاجة ولا فاهم..

اجتمع كفاها معًا أمام فمها تودعهم الهمس الخفيض..

- ربنا يستر..





شمس الأصيل ترحل فيحين الغروب..

يتوهج قرص الشمس بالأحمر مخضبًا السماء بمسحات من البرتقالية والقرمزية مانحًا الدفء للأرض بسخاء الرمق الأخير، تلك الليلة حملت لهما مثل هذا التوصيف..

بدأ الأمر برسالة قصيرة عبر الهاتف تطلب فيها التحدث معه، عقله الذي بقي معها طيلة النهار لم يتأخر، مع آخر خطوة راحلة من ضيوف الليلة كان يعرج فوق الدرج حتى وصل سطح البناية، حصيرة عتيقة تمدها فوق الأرضية حيث مكانها الأثير لا يتبدل، تستقبل جلوسها من العصر حتى المغيب، تنفرد بحالها والصمت، تحدق بالأفق وتفكر، تفكر في شتى الأشياء حتى يتخم رأسها من شدة الثقل فينفلت عقال التنهيدات ويخف الثقل لحين..

أثناء اقترابه عاكس ظله الضوء المعلق جانبا فتماوج السواد مع الصفرة حتى انتهى على الأرضية المفترشة إلى جانبها بشكل



معاكس، يلتقيان وجهًا لوجه فوق الحد الفاصل، ينظرها بصمت المنتظر، تدقق فيه النظر بدورها وتفكر أنه ولا لمرة واحدة تطرق معها بالحديث عن ليلة الحادث، عن شعوره اتجاه فقد أخيه، لم يفرد لها أمله كما فعلت، دائمًا كان هناك طمأنة ومحاولات دفع نحو الاستشفاء وكأنه خارج دائرة الألم، في هاته اللحظة تشعر حالها مثل الجميع، محملة بأثقال القساوة والأنانية..

- عمرك حبيت قبل كده؟..

يبدو أمرًا غرائبيًا أن تطرح سؤالًا مثل هذا أو أن يجمعها مع "عبدالله" حديثًا يتعلق بالعاطفة، آخرعهود الصداقة والقرب معه تبدلت لوضع أكثرتحفظًا و انتباهًا حين بلغ الخامسة عشر وبدأ في ارتياد المسجد بانتظام، تعلق بذاكرتها تلك الليلة التي تمادت فيها بالمزاح فنأى بجسده بعيدًا عن تطاول يديها زاجرًا



إياها وآمرًا أن تتوقف عن مثل هذه الأفعال وألا تعيدها أبدًا، ليلتها قدمت شكواها لأبيها وهي تبكي، انتظر حتى هدأت ثم وجدته مؤيدًا لكلمات ابن أخيه، أخبرها أنها والصبيان كبرا وعلى ذلك يترتب الحرص في الأفعال والأقوال، أحزنها أن زمن اللعب والطفولة قد ولى لكن حياة الكبار لم تعد بذلك السوء حين عادت تمتزج بينهم بدور الكنة المستقبلية..

الغرابة ظهرت أيضًا في تقوس حاجبيه، بدا عليه التفكير، كان يستخرج المعنى المستتر خلف سؤالها، حين فطن له أجاب بخفوت ناسب ليلة سمر وعينيه السوداوين يتعمقان بالنظر:

- يعني تقريبا..

- وبعدين؛ راحت فين؟..

- بتحب واحد تاني..

- دينا صح؟..



أطرق برأسه نحو الأسفل دون جواب ففكرت أن خلف السكوت ايجاب، احتاجت إلى المقدمة السابقة حتى تتكلم بإيضاح مباشر فيرفع لها رأسه..

- أنا فكرت في كلامك..

الساق اليسرى مثنية أسفله بينما الأخرى قائمة، لم يتغير وضعه، بقي موليًا لها كل تركيزه حتى تابعت قولها:

- بس سؤالك ليا كان غلط..

تنبسط له شفاها بتبسم المتفهم، صحيح وعت لذلك متأخرة لكنها تعي الآن وهذا ما يهم:

- كلهم قالوا لك شيل، محدش هيرضى بيها غيرك، و إنتَ قبلت عشان عبدالله مايعرفش يدير ضهره لحد محتاجه، بس محدش سأل عبدالله، عبدالله عايز إيه؟..

يرى من خلال الملبس الواسع كيف أن عظمتي الترقوة خاصتها صارتا أكثر بروزًا، كتفاها متهدلان بانحناء واضح بينما كفاها



ساقطان داخل فراغ ساقيها المتربعين، تتطلع له بمحجر عينيها الغائر بغمغمة لم يطرأ على باله أن تخرج من"ندى" الصغيرة:

- ماينفعش نسأل ندى عن راحتها فين عشان كلنا عارفين إن راحة ندى مابقتش موجودة، لكن مهم نسأل عبدالله ومنظلمهوش في حاجة مالوش يد فيها، نسأله عن راحته، عن رغبته في تكملة حياته مع إنسانة مش شايفة فيه أكتر من سند وصاحب، إنسانة معندهاش أي حاجة تقدمها أقرب لعالة..

يقاطع بالقول المقتضب:

- أنتِ مش عالة، كملي..

تتنهد ملتفة برأسها جانبًا، من جانبه تمكن من رؤية حركة صدغيها المقاومة لثقل الكلمات..

هل يصقلنا الألم؟..

هل يصنع منّا آخرين أكثر حكمة ودراية؟!..



تثوب عن التفاتها عائدة له بثبات أكبر ووضوح مضاعف في قول هو الفصل:

- أنا مش هاقدر أقدم لك أي مشاعر تستحقها..

كل الثقل الذي كانت تخبئه استقبله بتبسم رصين ملأه طمأنينة ثم أفضى به إليها:

- قلبك ملك الراجل اللي حبه يا ندى..

قصة الساق، قصة اعتادت والدته أن تحكيها بلسان المتعجب يتذكر منها صورة مشوشة، كان توأمه بعمر السادسة عندما استقيظ من غفوته شاكيًا من ساقه حد البكاء دون أية إصابات أو مقدمات، لم تمر الساعة و أبوه الغائب يعود حاملًا إياه مكسور الساق، كان بصحبة أبيه في العمل هناك انزلق وأُصيب فشعر بألمه النائم بالمنزل، تنهي أمه القصة ثم تقسم بالله ثلاثًا أن ذلك حدث وأنها ليست المرة الأولى التي تشاركا فيها الشعور الواحد، عندما كبرا لم تكن بحاجة لأي قسم حتى يجدا



حالهما يفكران بالشيء نفسه في ذات اللحظة، الطعام، الملبس، تشجيع النادي الرياضي، كانا يتفقان دون اتفاق فتتحد الذائقة وتصير الأشياء من تلقاء نفسها..

الآن؛ وبينما "ندى" تتحدث إليه وتنظره كان مدركا أنها تنزلق إلى داخله مثل كل الأشياء من تلقاء نفسها، كان واعيًا أن قلبه دونًا عن نساء العالمين لم يفتح مغاليقه الصدأه إلا للفتاة التي أحبها أخيه..

- مش بيدي..

تغمغم مطلقة اعتذارات مصمتة عبر عينيها وهو الذي يعلم أن الأفئدة بين يدي خالقه يقلبها كيفما شاء كان يعلم أن مكنون قلبه محفوظ مثل سر في بوحه خطيئة..

أفتر فمه عن تبسم هادئ:

- وكان بيد مين؟..



يقولون أنه نصيف أخيه ويرى هو فيها شطرًا منه، كانت تحدثه مثله الآن، عندما كان يراه مستحقًا لكل الأشياء الجيدة، عندما كان يراه وحسب:

- إنتَ تستاهل حياة أفضل، من حقك تكون مع حد تاني يقدر يسعدك..

هي قدمت له ما لا تدركه، لم تنظر للإنسان المعطوب الذي صاره بغرابة، إنسان منزوع الأمل لا يرى أبعد من قدميه، معها لا يحتاج لطرح مفرداته، كل الأشياء تبلغ موطن الفهم دون قول، مسؤوليتها التي تراها عبئًا ثقيلًا كان الصوت الذي يسحبه للخارج كلما ناداه الانغلاق، البوابة التي يعبر منها للحياة فيتعاطى معها ويكون..

كرر عليها سؤاله بنبرة الصاحب الذي تراه:

- كل كلامك ده موصلنيش لإجابة واضحة، عايز اني جنبك ولا بعدي أفضل؟..



قلبها وعقلها شقي رحى وهي بينهما ساقطة:

- لو اتكلمت هظلمك..

- ندى عايزة إيه ياندى؟..

تهتز شفاها، حدقتاها تلتمعان تحت ظلال الضوء الشاحب، مع إصراره كانت تفكر أنه من الخسة أن نعرقل خُطى الآخرين فقط لأننا خائفين، أنظاره المترقبة هي من دفعتها لتنتهج الدرب في هيئة بوح:

- ندى خايفة من النهاردة وبكرة وطول الوقت..

تقاوم رغبة العبرات في الهطول حتى لا تبدو أمامه مثل الحمقاء لكن صوتها يخذلها بتهدج رغمًا عنها عند التفكير بأن الجميع راحل:

- غصب عني بفكر إن الكل مفارقني وهفضل لوحدي في البيت ده كله..



تبتلع غصة حلقها فتتضح نبرتها المتهدجة دون أن ترتحل صبغتها الكسيرة النابعة من داخلها:

- ندى تايهة زي عيلة صغيرة اتسابت في نص الطريق، لا عارفة ترجع ولا عارفة تكمل السكة..

ينخفض بصرها نحو الأسفل باعتراف أخير:

- حاسه إني تعبت كل اللي حواليا، الإحساس ده بيخليني أكره نفسي، أوقات أفكر أفتح الباب وأمشي وأريحكم مني بس أنا أجبن من إني اعمل كده..

موطئها في قلبه مثل حصوات ساكنة في قاع بحيرة شفافة، صلبة، راكزة..

الآن؛ تتجلى له الحكمة في زرع هذا الشعور فيه، هو الشيء الراسخ الذي يستقبل عليه أثقال الأمور فتمر عليه خفافًا دون أن تؤذي أو تترك أثرًا بما لا يطاق..

لا تعلم عن دواخله شيئًا، كانت تعاني عسرًا شديدًا في هضم ما تريد وما ترغب وما يمليه عليها الضمير، تدفع به عنها حسب ما أمكن يدها الصغيرة أن تفعل ورأسها يهتز برفض قانع:

- متسألنيش عايزة إيه ياعبدالله، صدقني هكون أنانية وأظلمك..

إبهامه يقترب على مهل من وجنتها، يمسح العبرة الهاطلة قبل أن يلتقي بعينيها بإصرار جديد يدفعها لتنطق بما تقاومه:

- عايزة إيه يا ندى؟..

مثلما تشبث فيه بيديه والروح تنازعه كانت تفعل بعينيها:

- ماتسبنيش..

كانت تلك المرة الأولى التي عانق فيها امرأة بكل قوته راغبًا في تخبئتها خلف أضلعه وقد قُدر لقلبه أن تكون الـ هي خاصته.





تنتهي آخر ساعات النهار برحيل الغروب..

ثم تكون دورة أخرى يسطو فيها الليل بهيمنة خاصة..

تبدأ بحلول الشفق..

حيث يتبعثر الضوء بلا مستقر..

أصوات غير مألوفة تعلو وتنخفض من حوله بضجيج مزعج، فالعقل غائب في غياهب الماضي السحيق، يستحضر خيط البداية ليعقده بذيل النهاية، الرأس مائل نحو الوراء، يحدق في الفراغ الذي يعلوه، وميض مثل خاصة الكاميرا، ومضات عدة تغيب وتحضر بين رفات الأجفان المتأنية تعرض فيلما وثائقيا لصاحبها الذي نال فيه دور البطولة..

وميض يُنير ويخبو..

والبداية خاضها قصاص، يداه مكبلة عن فعل شيء لكن قلبه الذي كان يحترق أراد أن يوصمها بحريق مشابه، لأجل هذا



وافق خبال"سعد"، خاض غمار زيجة مبهمة التفاصيل والمعنى، أول لقاء جمعه بأبيها كان مثال صفقة..

بيعة تمت في مجلس عمل وحضرها ثلاثة رجال..

طرفان ووسيط..

"أظن سعد شرح لك كل حاجة، دورة الانتخابات قربت، عايز أخلص من وجع الدماغ في أسرع وقت.."

"تتجوزها مقابل مرتب شهري، نقول 4 الآف كويس؟ مبلغ محترم يعيشك مرتاح وفاضي تاخد بالك منها، أظن عمرك ما تلاقي وظيفة زي دي.."

ينظر الرجل بعدم راحة والشك يساوره..

"بالنسبة للعروسة، رأيها إيه؟"

" العروسة ماتعرفش حاجة، نتمم بعدين نبلغها.. "



عدة طرقات ورجل مهندم يقتحم مجسلهم، يحادث صاحب المكان بهمس داني فيغادرهم الرجل لبضع حين تاركًا إياه وحده برفقة "سعد" الذي مال إليه يدفعه إلى القبول..

"بتفكرفي إيه؟ دي وارثة من أمها ملايين، ومين عارف يمكن ربنا يفتكرأبوها قريب وتعيش متنغنغ على حسها العمركله"

لم يمر الكثير حتى عاد الرجل، متحدثًا باستعجال وازى جلوسه:

"هاا نقول مبروك الاتنين الجاي؟"

"لا الخميس!.. الخميس العصرنتمم"

اختاراليوم الذي تتزوج فيه، عقده يسبق عقدها فقط ببضع ساعات، حين جاء الموعد وتم الأمرمال الرجل عليه، يخبره عن ذات مقربة بنظرات نضح من بينها الثقة و التفاخر:

"لورا حصانك الأسود طول ما هي على ذمتك"



قالها الرجل بانتشاء المنتصر..

لكن أحرفه لعبت على أوتار نفسه بمسار مخالف وظلت تتردد لحين طال حتى بلغت مداها.

يمضي الشفق ويحل الغسق..

حيث ظلمة أول الليل بدأت في الانتشار..

وميض يُنير ويخبو..

بعد مرور شهرين من زمن الزيجة كان على دراية تامة بكل تفصيلة تخصها، بداية من إدمانها للمخدرات، الخراب القائم بينها و أبيها، وصولًا لنفسها الجائعة لذرة اهتمام..

خلفية تعسة؛ لكن أكثر من جيدة ليثبت فوقها أعمدة نو اياه الآثمة.



وميض يُنيرويخبو..

"قومي هفتح لك الباب"

"رايح فين؟!.."

"معاكِ.."

يشعر الضائعة بخطيئتها فيأكلها الذنب بقول متردد، يشوبه الخزي..

"أنا مش حابة أكون كده!"

ثم يلقي لها بأحبال النجاة في خداع غيرمباشر..

"مفيش حد يحب يكون كده"

وميض يُنيرويخبو..

تتخبط، تضيع أكثر، فيضعها داخل حيزشديد الضيق أمام كل ماتهرب منه..



"روحي لأبوكِ خلصي حسابك معاه"

أو..

"مفيش بودرة تاني، تتعالجي وتبقي بني آدمة"

خطوة محسوبة فيها مغامرة، لو اختارت الذهاب لكان خسر كل شيء، لكنها منحته النصر حين ألقت بحالها داخل سيارته مفضلة إياه عن أبيها، هاربة من البيت وصاحبه وذكراه، متشبثة فيه مثل طوق نجاة..

ليلتها عرف أنه انتصر، قاد بها وفي داخله انتشاء راقص.

يمضي الغسق ويحل العتم..

فيسود الظلام..

وميض يُنير ويخبو..

تمر بهما الليالي..



وصبره أيوب..

يسقيها شربة هنية من كأس الحرمان فتشبع روحها العطشى رويدًا رويدًا..

يغوي الرجل الأنثى فيها فتسقط في أفخاخه المنصوبة على مهل..

حتى جاءت لحظة حقيقية..

لحظة اختلال صادقة مغايرة لكل الأكاذيب..

"أساعدك تتعالجي وتساعديني أنساها"

لكن..

لا هي فعلت..

ولا هو استطاع.

وميض يُنير ويخبو..



لحظة إلقاء الطُّعْمَ..

قدم فيه مواثيق الصدق والثقة..

"أنا حولت كل الفلوس اللي أخدتها من أبوكِ مقابل اتفاقنا لحسابك في البنك"

" مش هاخد فلوس عشان أكون مع مراتي"

يعيد ترتيب الصورة نافضًا علامات الاستفهام وكل ثغرة قد تشوش صفاء صورته أمام أعينها، مظهرًا حاله في ثوب ضحية عشق مؤثرًا بها..

"كنت عايز أكسر قلبها، أثبت لها إن زي ما خدت قرار تكمل حياتها مع حد غيري إني خدت نفس القرار"

لا يتوقف، يضرب فوق الحديد الساخن..

"الصورة الوحشة اللي شايفة نفسك فيها اضربيها في عشرة"

تتعلق وتتشبث..



"و اتغيرت؟"

ترى فيه صدقًا خجولًا في أصله خداع ممثل قدير..

"بحاول"

"هتفضل جنبي؟.."

"وعد"

والوعود معه آثمة بإخلاف.

وميض يُنير ويخبو..

اللحظات الحاسمة..

الحبل مشتد على آخره، الصيد عالق، حان وقت الجذب..

يمسك بها متلبسة بالجرم المشهود، عادت لطريق الانحراف والميل والسقوط في بئر الإدمان، ظل يتحين لحظة سقوطها تلك حتى جاءت وكان معها الانفجار..



"مفيش فايدة فيكِ، أنتِ واحدة كدابة،بتخسري نفسك وكل حاجة"

تهلع من صورة الجفاء، يصعقها النبذ فتذعر باستقامة مرتجفة متشبثة في ذراعه..

"آخر مرة، صدقني خلاص آخر مرة.."

يدفع بها عنه، تسقط فوق الأرضية مع سقوط أحرفه:

"هو خلاص فعلًا، احنا لازم نسيب بعض"

نفسها المرقعة بالعوز والحاجة تتطوقه بقوة، تتوسله الغفران..

"لا أنا بحبك!"

يفك وثاق أذرعتها من حول عنقه، توصل لها ملامة عينيه كم خذلته وسقطت من علياء نظره..

"أنا آسف بس مش قادر أصدقك تاني"



ثم كان الصدود..

نأى عنها بغرفته معلنًا الجفاء الصريح ونية التخلي..

لم يمضِ الكثير وكانت تقترب، تتمسح فيه مثل هرة صغيرة أغرقها المطر، ترتجف بردًا وبحثًا عن موطن الدفء..

"عزيز سامحني"

يتغلى برفض، فتتشبث أكثر برجاء مكرر، حتى منحها بصيص الأمل عبر كلمات مقتضبة، جافة..

"اثبتي لي إنك صادقة"

بلهفة..

"قولي إزاي!.."

ينتهج درب التفاضل..



"توكيل عام، أحافظ لك بيه على مالك لحد ما تقدري تحافظي عليه بنفسك، طالما ما معاكِ فلوس وقادرة توصلي للقرف ده مش هتبطلي"

تنظره بغير فهم فيدعي عدم الأهمية..

"بصي أنا مش بغصبك على حاجة، عندك حل تاني هاتيه، واعملي حسابك مفيش راجل هيتحمل مراته المدمنة"

بضياع لا يرهب غير ابتعاده، تهمس وأصابعها تقبض على نسيج قميصه ببقاء..

"ماشي موافقة"

يطلق تنهيدة كبيرة في حقيقتها أقرب لفحيح بينما ذراعه الذي تتوسده يضمها إليه بقرب..

"لورا حبيبتي أنا بعمل كده عشانك، عشان نكون سوا"

يصل بها إلى هنا فلا يترك براحًا لوعي..



يجردها من ثوبها ويشرف عليها بعشق خادع، لتسقط رغمًا عنها في غياهب اللذة والسعادة الزائفة.

وميض يُنير ويخبو..

في الغفوة صمام الأمان..

مادامت غافلة هو آمن..

وما أشد غفوة من شراك سحره الذي باتت تدمنه، يخضعها لأمره فتتغيب عن كل العالم فيه..

"قررت أدخل المصحة"

"المرة دي برغبتي"

تقاسيم وجهه ترسم تعبيرًا خالصًا من السعادة والورع..

"دي أحلى حاجة قولتيها من يوم ما عرفتك"

بصدق قلبها كانت تناجيه..



"يمكن عشان دي أول مرة أخاف أخسر حد، وأنا خايفة أخسرك"

وبكذب العالم كان يوقعها فيه مرة بعد مرة..

"تخسريني إزاي و أنا معاكِ حاسس إني بتولد من جديد، مع حد شبهي، مش مكسوف و أنا ببص له"

تتذوق حلاوة العشق مثل لسان يستقطب النثرات القليلة بنهم وجوع من فوق الشفاه..

"إنتَ حببتني في الدنيا"

"ياريت اتقابلنا بشكل تاني"

يده تسقط الستاربختام..

"معايا ماتتمنيش، احلمي وبس"

ومن ثم..

تدخل صاخب..



اعتراض جماهيري لم يكن بالحسبان!..

"مَكنتين حتة واحدة؟ إيه ياض العزده كله.."

مدية لاح نصلها في الأفق..

خطر!!

انتباه، ذهن حاضر، وسرعة بداهة..

"صاحبكم التالت ماله؟!"

تم التشتيت..

لم يكن هناك ثالث، كانا اثنين فقط يتمايلان بأنفاس مخمورة، لكمة مباغتة نالها الأقرب على أنفه لم يكد أن يتدارك ذلك الألم حتى طقطق ذراعه الملتوي بغلظة أسقطت النصل عنه، فر المتألم أولًا مطلقًا السُباب البذيء قبل أن يتبعه الآخر بخطوات عرجاء معرقلة..



رمق ابتعادهما قبل أن ينحني جذعه آخذًا بالمدية الساقطة بين قطع الصخور ثم اعتدل معدلًا من من ياقة قميصه بزهو غرور، اقترب من المصدومة بفاه مفغر، بسط كفها المتصلب تاركًا في راحتها المدية جوار غمزة عابث..

"خلي دي تذكار"

هُنا أُسدل الستار..

وصاح المخرج:

"أوسكاريا فنان".

يمضي العتم ويحل السدف..

ظلام فوق الظلام يعني اشتداد فلا نرى وميض أو قبس..

ليس بهيئة شيطان رجيم، بل إنسان، إنسان تشكل في أسوأ صورة ممكنة..



توكيل رسمي عام بالبيع للنفس وللغير تم استخدامه لبيع قطعة أرض قُدر ثمنها الحالي سبعة ملايين من الجنيهات المصرية، كانت في الأصل مهر والد "لارين" لأمها، في زمان بعيد قدمها عربونًا لقلبها حتى يقبل به عشيقًا بديلًا عن الذي يسكنه لكن قلبها ظل وفيًا لساكنه الأولي، حين أضمرت المرأة الحسرة بقلبها وعششت فيها كآبة الأزمنة بجبروت رجل عرفت أنها راحلة عما قريب، منحت ابنتها الوحيدة قطعة الأرض التي تملك لتكون مُلكًا خالصًا يحق لها التصرف فيه كيفما تشاء، قدمت لها عطية رحيل حين عجزت عن البقاء جوار نظرة غفران تنشده.

بعقل داهية يستطيع أن يبني تخيلًا خصبًا عما ينتظر"سعد" من"عدنان"، سيكون وسادة رائعة يفرغ فيها الرجل غضبه.

أودع "لورا" في مشفى علاج الإدمان كما أرادت، ذاك الدرب دربها، لتقرر ماذا تريد وإلى أين تنتهي..



في النهاية هو ليس موظفًا بمركز إصلاح الشباب..

لذا حين قالت: سأعود قريبًا..

قال: وداعًا.

الآن؛ يخفض رأسه المرفوع، يعتدل فوق المقعد بشبه اضطجاع ارتفع فيه الساق فوق الساق، يرمق المكان الفسيح والبشر فيه متناثرين بعين غير مهتمة، يطالع عقارب الساعة الدائرة حول رسغه قبل أن يثوب بيده إلى جيب سرواله، يأخذ بمحفظة نقوده، يستخرج منها صورة الفوتغراف التي كانت يومًا ضمن مراسيل الغرام، لقطة عتيقة بعمر الصبا، خصلاتها الحالكة تتجمع بكثافة غرة فوق جانبها الأيسر والابتسامة البشوش تتسع حد ظهور نواجذها وملء وجهها، لم يكن بحاجة لقلب الصورة حتى يستقرأ خط يدها بالحبر الأزرق فوق الخلفية البيضاء، فعلها عقله عن ظهر قلب..

"إلى حبيبي عزيز..



احتفظ بي جوارقلبك"

بملامح مصمتة، لا تشي بشيء تطلع إلى الصورة لمرة أخيرة، ثم تركها تسقط من بين أنامله، لاحقا؛ سوف تلتصق بحواف النعال وتنتقل من قدم هذا لذاك، تعبث بها تيارات الهواء فتلتف وتدورفي دوامات حتى تنتهي.

صوت الطنين يعلوفي الأرجاء فينهض آخذًا بحقيبة الظهرفوق الكتف، إصبعه يدفع بمنظار الشمس إلى أعلى جسرأنفه، بضع خطوات، أناس ذاهبون، آخرون عائدون، بقعة زحام ثم اصطدام..

الحقيبة تسقط عن كتفه وشابة شقراء تطلق عبارات متتابعة بالفرنسية في لهوجة وأسف، رفع الحقيبة إلى موضعها ثم توقف قليلًا قبيل زمرد عينيها ورأسه يميل جانبًا بمقدارضئيل، حين تكلم كانتا السبابة والوسطى تستقران قبيل نبض قلبه:

- French occupation is happening, now!



ثوانٍ من عدم الفهم تزامن معها إنزال المنظار الشمسي بمقدار وفرله الرؤية الطبيعية حين صارت تتسع ابتسامة الشابة وتملأ وجهها بسحر الفتنة ليهديها تبسمه المختال قبل أن يدفع بمنظاره ملوحًا لها بوداع و أقدامه تهرول نحو الجهة المعاكسة، جهة الذهاب بلا عودة حيث صوت الطنين يعلو من جديد مناديًا..

"على السادة المسافرين إلى.."

إلى أين؟..

حقًا؛ هل تودون المعرفة!..

حسنًا..

إلى كل شيء يساوي لا شيء.



خـــاتمـــة

القاهرة

يناير 2011

ترنيمة غضب تتلوها البلاد..

احتجاجات على الأوضاع القائمة تجوب الوطن من مشارقه لمغاربه..

أصنام الطغيان تتصدع، الخوف يجر أذياله ويخبو هربًا من المصير الأعمى، مواقع التواصل على أوجها، تونس تُشعل الفتيل فكل المستحيل يقال له ممكن..

يهتز العالم من حوله وهو ساكن.



وقع الاختيار على سطح البناية، لم ينتهِ الشهر وكان عمال البناء يلملمون حاجياتهم برحيل وقد أتموا مهمة المسكن الخاص له وهي..

لم يكن اختيار البعد في الاستقرار متاحًا لأجل والديه، لذا كان السطح حلًا وسطيًا ارتضى معه جميع الأطراف، رائحة الطلاء الجديدة نافذة، أساسيات الأثاث هو ما تم جلبه فقط ولم ينتزع ورق تغليفه بعد، صناديق ورقية عدة تملأ الأرضية وتتراص فوق بعضها البعض تحوي حاجياتهم الخاصة والكثير من المهم الذي ارتأت الأمهات أنهما بحاجته فصعدوا به دون سؤال..

بواسطة المثقب الكهربائي راح يثبت مواسير الستائر، ثقب آخر لأجل ساعة الحائط، بقع الدهان المتساقطة هنا وهناك يفركها ويزيلها بضمير، أكوام النفايات يهبط بها ويعاود الصعود لأجلها عدة مرات باليوم الواحد، أخبرته أمه أنه



يستطيع جلب أحدهم ليقوم بكل هذه الأعمال مقابل الأجر ولا ينهك نفسه لكنه ببساطة رفض..

كان لديهم ثورتان..

واحدة من الشعب لأجل الوطن..

وثانية منهم على عزيز الراحل..

تعذر مجيء "دهب" وزوجها إثر الظروف الراهنة، تم التأجيل لحين انتهاء الهرج والخراب الدائر، كانت تراقب غليانه الداخلي بصمت مقلق، لا يتقصد معرفة الأخبار لكن حين تصل أسماعه ينصت، حين تفتح حاسوبها وتقرأها عليه كان يصمت وضروسه تطحن بعضها البعض، عرفت ذلك من اهتزاز صدغيه..

حين سألته بموارة: لماذا لا يهتم؟..

استنكر سؤالها ورد: بمن!..



بقية الكلمات ابتلعها جوفه..

ماذا أعطاه الوطن حتى يثور لأجله؟..

هو أخذ منه لم يعطِ.

**

على صينية متوسطة حملت الطعام وأخذتها إلى الأعلى حيث يبقي متشاغلًا منذ طلعة النهار، أزاحت بقدمها لوح كرتوني عريض ليتوسط البلاط الفارغ، وضعت عليه الطعام وحدثته أن يلحق به قبل أن يبرد، ترك المفك والطاولة التي يثبت مفاصلها ونهض شاطفا يديه ثم لحق بها فوق الأرضية، طبقان كبيران من المعكرونة، قطع دجاج مقلية جوار سلطة خضراء، تشاركه الطعام وعينها على رأسه المنكس فوق الطعام، مضغه البطيء، ليلتها كان لا بد أن تسأله دون مواراة، أن تضع أمامه الصورة التي تكبر وتتضخم وهو يغض عنها الطرف..



من بين كل الضجيج الصامت أتاه السؤال مخترقًا أسماعه رغم الخفوت:

- هتنزل؟..

- لأ..

ناهية، بغضب بارد..

صمت يمتد حد اقتراب الشبع، بعدها تسللت الكلمات بلا كوابح، خرجت منها بخفوت لم يزعج سكون الليل لكن حتمًا أزعجه وإن لم يظهر ذلك كفاية:

- لو عبدالرحمن هنا أكيد كان هينزل..

سوف تظل نظرته المقابلة عينيها في تلك اللحظة عالقة بذاكرتها طويلًا، لم تكن نظرة كان تحطيم بلا صوت:

- لو عبدالرحمن هنا كان حاجات كتير اختلفت..

قال هذا ونهض غائبًا في اللاشيء.



كل الصمت الذي كان يبتلعه منذ أيام تحول للنقيض تمامًا في الصباح التالي حين وقفت أمامه بكامل ملبسها مصرحة له برغبتها في مشاركة المتظاهرين والنزول إلى الشارع..

- مش هتنزلي!..

يزعق فيها بفظاظة غضب فتعارض بوتيرة صوت بدأت تعلو بدورها:

- الناس كلها نازلة..

- واحنا مالنا..

- أمال مال مين؟..

- أسكتي..

- يعني أما الناس كلها تقرر تتكلم احنا نسكت!..

ذراعه متصلب الشرايين يمتد نحو الفراغ والغضب يزداد قتامة:



- أيوه نسكت عشان ماينقصش مننا حد تاني..

تعارض قوله بآخر أكثر قوة وبأس:

- عشانه لازم ننزل، ده حقه علينا..

لم يرد لها الألم، لكنه كان يفيض به:

- نزولنا هيرجعه؟..

يسألها بنبرة تخفت وتتفت، تخبو مثله بجواب:

- لا..

أدار ظهره منهيًا الحوار:

- يبقى نسكت..

ظلت تحدق في ظهره وما يعتمل فيها يتركها في حالة غليان من الداخل، كانت مشحونة مثل الكثير، مثل نسخته القديمة، هذا الواقف أمامها ويكتسي بالخذلان لا تعرفه، تمتمت بصوت خفيض متمسكة بجبهتها:



- في حاجة اسمها قصاص، لو في فرصة نحاسب الظالم ليه نقول لأ؟..

- ندى البلد دي مفهاش أمل، افهمي، كل الهيصة دي هتخلص ونرجع تاني لنقطة الصفر، مفيش حاجة بتتغير غير عدد الخساير..

تقذف أنفاسها من أنفها بحرارة، خصته بنظرة طويلة قبل أن تتحدث بنبرة جامدة، مغايرة:

- أنا فهمت حاجة تانية..

تتقابل الأعين، أحرفها سقطت مثل صخر على القلب، وكانت تعي ماتقول:

- عبدالرحمن مارحش لوحده، إنتَ كمان روحت معاه..

أنهت أحرفها واستدارت بحدة وخطى أقرب لهرولة كشفت عن نوايا وجهتها فزعق بقوة مكبلاً خطاها:



- ارجعي..

- مش هتمنعني..

كان هذا آخر ما قالته قبل أن تفتح الباب وتركض..

لعن غباءها ويده تسحب سترته القريبة لاحقًا بخطاها.

**

الحلم يسكن السماء..

الأمل يسكن الأرض..

تلك قصة التوأمين اللذين خرجا للحياة من رحمٍ واحد..

يتمسكان يدًا بيد..

قلبًا بقلب..

ثم ذات زمان قرر الحلم أن يزور الأرض..

الحلم يرفرف..



الأمل يصدق..

يضعف الحلم..

فيسنده الأمل..

ينطفيء الأمل..

فينيره الحلم..

حتى أُغتال الحلم فمات الأمل!

لم تكن تصدق عيناه ما ترى، يمد بصره فلا يصل نهاية الخلائق، أعداد هائلة من الأجساد البشرية تتحد وتتو افد مثل الشريان الواحد في الجسد الواحد، شعر بحاله يمضي بلا أقدام، يموج مثل الزبد، يهبط بصره إليها، فيجدها مشحوذة الهمة في الخطى والتقدم مثل كل هذه الجموع.. يعود ببصره ممتدًا نحو الأفق، منه للسماء، يرقب الطيور ترفرف، يعود للأرض فيجد البشر ترفرف بأجنحة غير مرئية، ظل يحوم



ويبحث، حدثه قلبه أن نصفه هنا حاضر بين الجموع، يتلفت هنا وهناك حتى رآه، ينظره باسمًا وضاء الوجه كما كان دائمًا، شعر بيده تتسلل وتحيط أكتافه، تشد عليها بعزم، صوته يؤنس أسماعه، أغلق أجفانه بقوة، حين عاود فتحها لم يجده، علم لحظتها أنه كان حاضرًا في قلبه لا عينه..

الأكتاف تتلاقى بزحام فتتصادم الأجساد، الأصوات تتضافر بتآلف، عاد إليها ينظرها من جديد، وجد عينيها تذرف التعازي في صمت دامع وأنامل تتعامل بإكبار، كانت بهية مثل حياة تربط الحلم بالأمل، رفع ذراعه فوق كتفها، يأخذ بها تحت جناحه، يحيطها بقرب وحماية من أي اصطدام عابر، عندما رفع رأسه نحو الأفق كان قد اتخذ القرار..

لأجل الحلم..

لأجل الأمل..



لأجل الحياة..

هتف:

عيـش

حريـة

عدالـة إجتماعيـة

تمت بحمد الله

بثينة عثمان

2021/10/05

حلمهن



شكر خاص لـ

د/ إيناس عادل

أ/ نادية فتحي الأبلق

أ/ تقى مكاوي

م/ إيمان خليفة

كنتنَّ منارات علمٍ اهتدى بهنَّ مداد قلمي وترابطت سطوري..

نفع الله بكنَّ وجزيتنَّ عني خير الجزاء.